مُختصر

مِنهاج القاصِدين

الإمام أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي
المتوفى سنة ٦٨٩هـ رحمه الله

حققه وعلق عليه
الدكتور علي عبد الحميد أبو الخير

راجعه وقدم عليه
الدكتور وهبة الزحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه
بجامعة دمشق

مقابلة على ثلاث نسخ خطية نفيسة

دار الخير ناشرون

ابن قدامة المقدسي
مختصر منهاج القاصدين
دار الخير ناشرون

الطبعة
4

1445هـ - 2024م

دار الخير ناشرون
تراثنا مجد أمتنا

darulhayrnashron@gmail.com

دمشق-سوريا-حلبوني-جادة الشيخ تاج

المكتبة :00963/112228074

بيروت-لبنان-فردان-جنوب سيار الدرك-بناء الشامي

هاتف : 00905399205018

مصر-القاهرة-خلف جامع الأزهر 5 شارع الدريري

الجوال : 1788 855 106 20+ الجوال : 742 122 225 20+

Ali Kuşçu Mah. Yavuz Selim Cad. No: 48 Fatih / Istanbul 34083

Tel: +90 212 635 32 78Gsm: +90 531 936 07 50 إسطنبول- الفاتح

للتواصل مع الإدارة العامة :00905399205018 / 00201111990883

9786259981994

الإخراج الفني

الأستاذ أيمن حسن الحميد

مُختصَر
مِنهاجِ القاصِدينَ

الإمام أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي

المتوفى سنة ٦٨٩ هـ رحمه الله

حققه وعلق عليه

الدكتور علي عبد الحميد أبو الخير

راجعه وقدم عليه

الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه

بجامعة دمشق

مقابلة على ثلاث نسخ خطية نفيسة

دار الخير ناشرون

ذِكرُنا مجدُ أسلافنا

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَهُ بهذا الدِّينِ، وجعلَ فيه منهجَ حياةٍ متكاملٍ للمسلمينَ، وهيَّأَ في هذه الأُمَّةِ علماءَ مخلصينَ، أَوضَحُوا خفاياه وبيَّنُوا سُننهُ أفضلَ تبيين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على الصَّادقِ الأمينِ، المبعوثِ رحمةً للعالمينَ، وعلى آله وأصحابهِ أجمعينَ، ومن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

أَمَّا بعدُ:

فإنَّ كتابَ «مختصرِ منهاجِ القاصدينَ» للعلَّامةِ ابنِ قُدامَةَ المقدسيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مِنَ الكتبِ التي ذاع صِيتُهَا في الآفاقِ، واشتهرَ ذكرُهَا عند كلِّ مسلمٍ، سواءٌ كان من عامَّةِ المسلمينَ أو طُلَّابِ العلم، فلا تكادُ تجد بيتاً من بُيُوتاتِ المسلمينَ إِلَّا وفي مكتبتهِ نسخة منه، ولا تكادُ تجدُ طالباً للعلم إِلَّا وقد قرأَهُ واستفادَ منهُ.

وكما هو معلومٌ فإنَّ كتابَ «مختصرِ منهاجِ القاصدينَ» هو اختصارٌ لكتابِ «منهاجِ القاصدينَ» للعَلَّامةِ ابن الجوزي، وكتابُ ابن الجوزيِّ هو اختصارٌ لكتابِ «إحياءِ علومِ الدِّينِ» للعَلَّامةِ الرَّبَّانِيِّ الإمامِ الغزَّالي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعــاً، فهو كتابٌ يصِّحُ أن يُطلقَ عليهِ بأنَّهُ نورٌ على نور.

وهو كتابٌ يوضح للمسلمين طريقَ الوصولِ إلى اللهِ تعالى من خلالِ بيانِ جميع شؤونِ حياتهم، وخاصةً الأمورُ القلبيَّة التي تكونُ في غالبِ حالاتها خفيَّةً على كثيرٍ منَ المسلمينَ.

وقد قَسَّمَ المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتابَ إلى أقسامٍ أربعة:

١- رُبْعُ العباداتِ. ٢- رُبْعُ العاداتِ.

٣- رُبْعُ المهلكاتِ. ٤- رُبْعُ المُنْجِياتِ.

فجاءَ كتابه هذا وكأَنَّهُ طريقٌ يوصِلُ من سارَ فيهِ إلى رِضَا اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومرضاةُ الله عَزَّوَجَلَّ هي غايةُ هذه الحياةِ الدُّنيا وثمَرتُهَا، فمن أَمضَى حياتَهُ في طاعةِ اللهِ فازَ في هذه الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة.

ونظراً لأهميَّةِ هذا الكتاب وكثرةِ عناية طلبةِ العلمِ به، فقد حَرِصْنَا على خدمةِ هذا الكتابِ وإخراجِهِ لطُلَّاب العلمِ بحُلَّةٍ جديدةٍ، رغبةً مِنَّا في مرضاةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وطمعاً بثوابِهِ، واللهَ نسألُ أن يتقبَّلَ مِنَّا أعمالنَا، وأن يجعلها في ميزانِ حسناتِنَا، وأن يَعُمَّ النَّفعَ بهذا الكتابِ.

وقَدْ حقَّقتُ الكتابَ على نسخةٍ خَطيَّةٍ تعودُ إلى سنةِ ١١٢٢ هـ، وقد تمَّ ترميزُ النُّسخةِ المذكورةِ في الحاشيةِ في الكتابِ بـــ «أ الأصلِ».

وصف نسخة (الأصل):

وقد جاءَ هذا المخطوطُ في مائةٍ وسبعٍ وتسعينَ لوحةً، في كلِّ لوحةٍ صفحتان، وفي كلِّ صفحةٍ خمسةٌ وعشرونَ سطراً.

ومَلَكَ هذه النُّسخةِ الأستاذُ محمَّدُ بنُ الحاجي خضر بن عمرَ الخطيبِ، عنِ الأُستاذِ محمود أفندي بن عليٍّ بيك بن محمود، المدرِّس بمدرسةِ يرواين بيك سنة ١١٣٩ بقيصريَّةَ.

وقد قابلتُ نسخةَ الأصلِ على مخطوطاتٍ أُخرَى، وهي كما يلي:

١. نسخةٌ وقفها السُّلطانُ الأعظمُ، غياثُ الإسلامِ، محمود خان، على مفتي الحرمينِ الشَّريفينِ، وهي في مكتبةِ أبو السُّعود أفندي في مدينة إسطنبول، ولا يوجدُ فيها تاريخٌ للنَّسْخِ، وقدِ اعتمَدْنَا عليها بسبب نَفَاسَتِهَا، وَجُودَةِ كتابتها وأَوْرَاقِها، وقد رمزتُ لها بـــ «خ».

وصف نسخة (خ):

وقد جاءَ هذا المخطوطُ في مائةٍ وسبعٍ وسبعينَ لوحةً، في كُلِّ لوحةٍ صفحتان، وفي كلِّ صفحةٍ واحدٌ وعشرونَ سطراً.

٢. نسخةٌ ناقصةٌ من البدايةِ والنِّهايةِ، وتمَّ اعتمادُها لِجُودتها بالخَطِّ والتَّرتيبِ، ولا يوجدُ فيها تاريخُ النَّسْخِ، وقد رمزتُ لها بـــ «ن».

وصف نسخة (ن):

وقد جاءَ هذا المخطوطِ في ثلاثمائةٍ وواحدٍ وعشرينَ لوحةً، في كلِّ لوحةٍ صفحةٌ واحدةٌ، في كلِّ صفحةٍ اثنانِ وعشرونَ سطراً.

٣. قابلنا الأصلَ أيضـًا على نسخةٍ مطبوعةٍ حتَّى تَتِمَّ الفائدةُ، ويخرجُ الكتابُ مُحَقَّقـًا على المطبوعِ والمخطوطِ.

وعملتُ أيضـًا على:

- تخريجِ الأحاديثِ النَّبويَّةِ والأثـارِ من مصادرها الأصليَّةِ، ونقلتُ حكمَ أئمَّةِ الحديث عليها حيثُ وجدته، ونقلتُ تعليقَ الحافظ العراقيِّ في تخريجه لأحاديثِ «إحياءِ علومِ الدِّينِ» للغزَّالي.

- ترجمتُ للأعلامِ الواردةِ في الكتاب ترجمةً مختصرةً ذكرتُ فيها اسم العالِمِ، ونسبه، وثلاثةٌ من شيوخه، وثلاثةً من تلاميذه، وسنة وفاته، معتمدًا على الكتب التي ترجمت للرِّجالِ.

- ضبطت الكلماتِ المُشْكِلَةِ في الكتاب ضبطًا يزيلُ عنها إشكالَهَا.

- ضبطتُ الأحاديثَ النَّبويَّةَ والأبيات الشِّعريَّةَ ضبطًا كاملًا لتجنُّبِ الخطأ في قراءتها.

- شرحتُ الكلماتِ الغريبة من معاجم اللُّغةِ العربيَّةِ المعروفة وكتبِ شروح الحديث الشَّريفِ.

- كلُّ حديثٍ كان لعلماءِ هذا الشَّأن فيه كلامٌ من حيثُ صحَّةِ السَّند وضعناه في أسفلِ الصَّفحةِ.

- وضعتُ الآياتِ بالرَّسم العثمانيِّ وأعقبتُها بتخريجٍ لها.

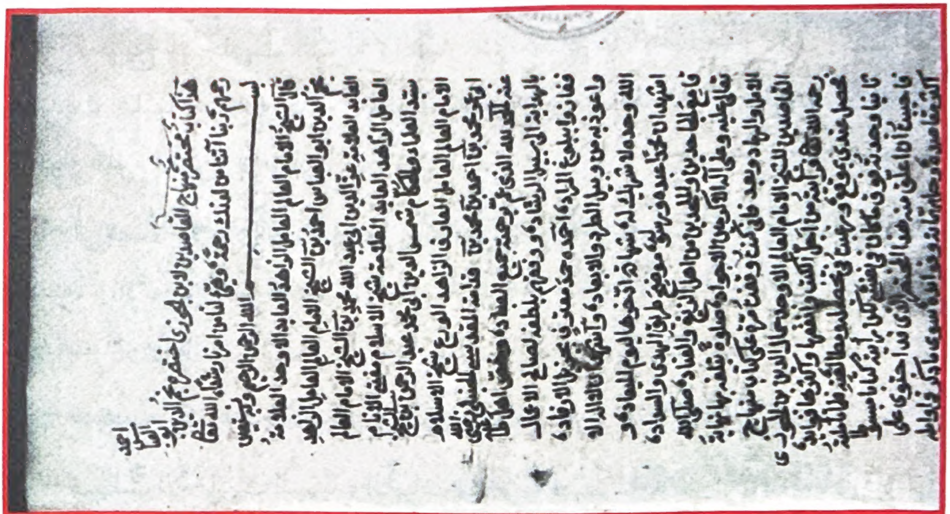
- ترجمتُ للإمامِ ابن قُدامَةَ.

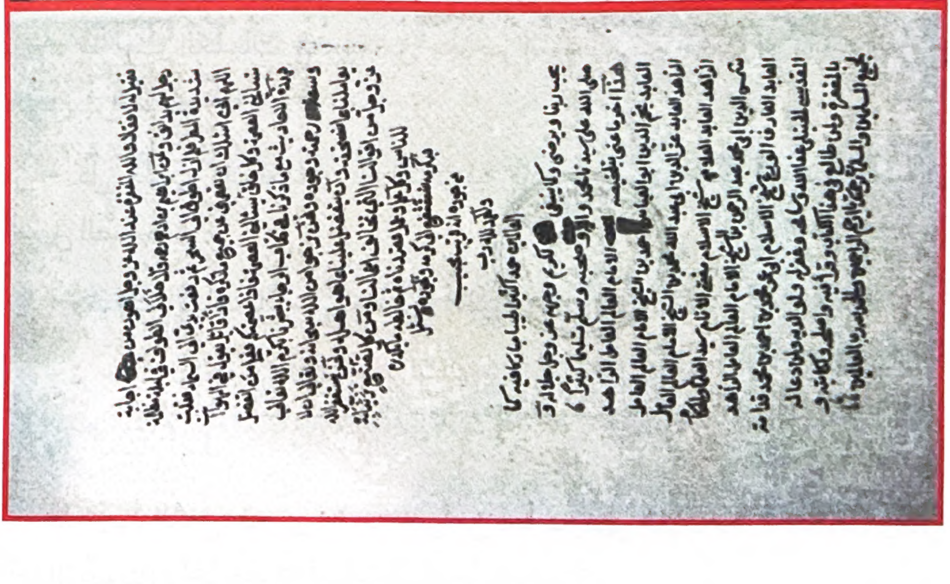
وفي الختام أقولُ:

هذا جُهدُ المُقلِّ، فجزى اللهُ عنَّا خيراً من دعا لنا بظهر الغيبِ دعوةً صالحةً، ولمن أهدانا عُيوبنا، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

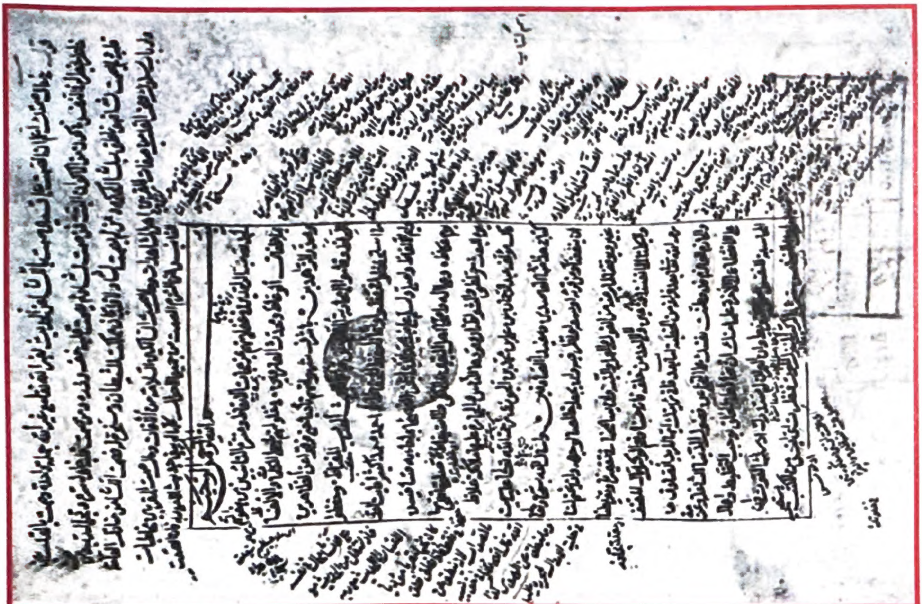
الدكتور علي عبد الحميد أبو الخير

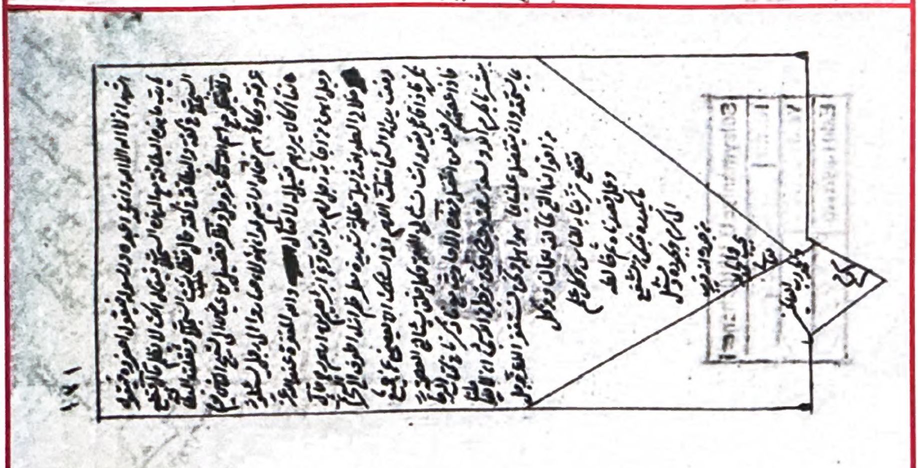
صور من نسخة (الأصل):



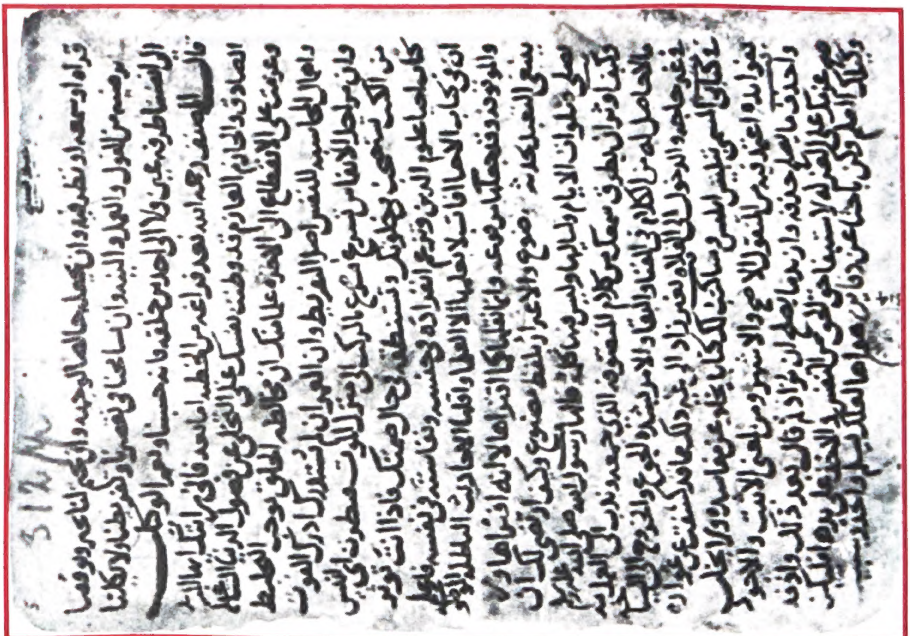


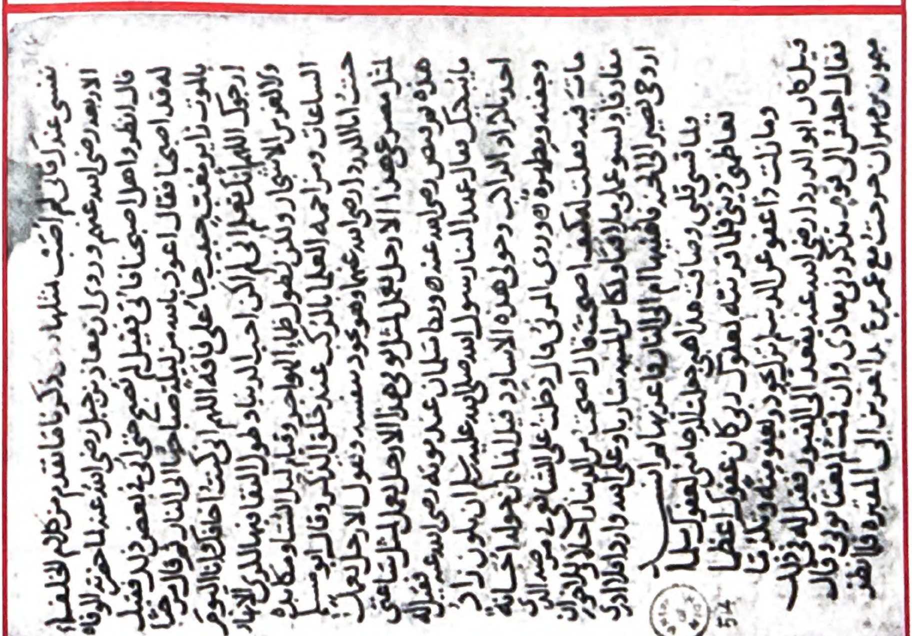
صور من نسخة (خ):





صور من نسخة (ن):





تقديم الكتاب

هذا الكتاب «مختصر منهاج القاصدين» كتاب عظيم الفائدة، جليل القدر، واضح التأثير، مشهور شهرة أصله، درسناه صغارًا في المرحلة الثانوية، وتابعنا الإفادة منه كبارًا، وجعلناه منهج حياة المسلم وشعلةَ طريق المؤمن؛ لأنَّه جامعٌ لأصول الأخلاق والتَّربية الإسلاميَّة الرَّصينة، ويُصحِّح أفكار المسلم، ويُهذِّب مشاعره ومقاصده، ويُصلِح النَّفْس والقلب والعمل، ويُربِّي الإنسان تربيةً قديمةً حازمةً تنفعه في مواطن الأزمة، وحالات الشِّدَّة والضَّعف، والارتفاع والهبوط في عالَم الدُّنيا.

أصل الكتاب هو «إحياء علوم الدِّين» للإمام أبي حامد الغزاليِّ (٥٠٥هـ) حُجَّة الإسلام والمسلمين، وصاحب الفلسفة الإسلاميَّة النَّقيَّة مِن تأثيرات الفلسفات الأخرى الماديَّة والإلحاديَّة.

اختصره أوَّلًا العلَّامة العَلَم عبد الرَّحمن ابن الجوزيِّ (٥٩٧هـ) حاذفًا الأحاديث الموضوعة مِن «الإحياء» ومُثبتًا مكانها الأحاديث الصَّحيحة، ومُتجاوزًا القصص والحكايات التي لا جدوَى فيها، ومُركِّزًا على أهداف الإحياء وأفكاره وغاياته الإصلاحيَّة الأساسيَّة.

فكان «مختصر منهاج القاصدِين» هو مختصَر المختصَر، حيث قام العلَّامة أحمد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمَّد بن قدامة المقدسيُّ (٧٨٩هـ) بحذف المادَّة الفقهيَّة الفرعيَّة مِن الكتاب، واقتصر على الموضوعات الأصليَّة التي احتواها، ببراعة المُتأمِّل، ودِقَّة العالِم، وفكر الحصيف، وبُعْد نظر النَّاقد الفاحص، وذلك بمقدارٍ يُعادِل تقريبًا أكثر مِن عُشر كتاب الإحياء، والمعروف باسم عبد الرَّحمن أو غيره منسوبًا إلى ابن قدامة المقدسيِّ كثيرون، فهناك موفَّق الدِّين عبد الله بن أحمد المعروف بابن قدامةَ (٦٢٠هـ) صاحب كتاب «المغني» (ثمانية مُجلَّدات) على متن «مختصر الخرقيِّ» في الفقه

الحنبليِّ، بل ومذهب اللُّغة مِن فقهاء الصَّحابة والتَّابعين، والمذاهب الفقهيَّة المختلِفة، فهو أهمُّ كتابٍ في الفقه المقارَن والأدلَّة الفقهيَّة الشَّرعيَّة، إذا استثنينا كتاب «المجموع» للإمام النَّوويِّ، وكتاب «المُحلَّى» لابن حزمٍ الظَّاهريِّ، و«بداية المجتهد» لابن رشدٍ؟.

وهناك شمس الدِّين عبد الرَّحمن بن قدامةَ (٦٨٢هـ) صاحب «الشَّرح الكبير» على متن «المقنع» المطبوع في اثني عشرَ مُجلَّدًا بمطبعة المنار مع كتاب «المغني» لابن قدامةَ المُوفَّق.

واختصر أيضًا العلَّامة الشَّيخ محمَّد جمال الدِّين القاسميُّ الدِّمشقيُّ كتاب «إحياء علوم الدِّين» في كتاب بعنوان «موعظة المؤمنِين مِن إحياء علوم الدِّين» وهو اختصارٌ دقيقٌ، يتميَّز بدِقَّة المُؤلِّف الخبير، وبذوق العالِم الذي يُحسِن الاختيار مع المحافظة على عناوين وأصول الكتاب الأصليِّ، وتميَّز عمله العلميُّ كما جاء في مقدَّمته: «موضوع ذِكرى العامَّة موضوعٌ جليلٌ، لا يصلح له إلَّا كلُّ حكيمٍ نبيلٍ، أتدري مَن المُذكِّر أو الواعظ أو المُرشِد؟ هو إنسانٌ حافظٌ لحدود الله، قائمٌ على إرشاد العقول، وتهذيب النُّفوس، وتثقيف الأذهان، وتنوير المدارك، وتصحيح المعتقَدات، وإبانة سرِّ العبادات، وإماطة ما غَشي الأفهام القاصرة مِن غياب الجهالة وتراث الضَّلالة».

مضمون «مختصر القاصدِين» أو موضوعه يشمل جانبًا مِن العبادات، والعادات، والمكاسب والإصلاح الاجتماعيِّ والعقيدة والأخلاق والتَّصوُّف والتَّاريخ، وختمه بباب جميلٍ في سعة رحمة الله تعالى.

أمَّا الجانب الفقهيُّ ففيه كلامٌ رائعٌ عن النِّيَّة وحقيقتها، وفضلها، والإخلاص، والصِّدق، والصَّلاة وآدابها، وحكمتها التَّشريعيَّة، والزَّكاة وأسرارها، وقِيام اللَّيل وفضائله، والصَّدقات التَّطوُّعيَّة وفضائلها، والصَّوم وأسراره ومُهمَّاته، والحجِّ وأسراره وغاياته، وفضائله وأحواله، والتَّوبة وشروطها وأركانها، وأقسام الذُّنوب، وكيفيةِ توزُّع الدَّرجات في الآخرة، وجهادِ النَّفْس والعدوِّ الداخليِّ والخارجيِّ.

وفيما يُسمَّى رُبع العادات كلامٌ مهمٌّ عن آداب الأكل والاجتماع، وآداب النِّكاح ومقاصده وفوائده، وآداب المعاشرة، وآداب الولادة، وآداب المكاسب والمعاش، والحلال والحرام، وآداب السَّفر.

وفي مجال الإصلاح الاجتماعيِّ كلامٌ دقيقٌ شاملٌ عن آداب الصُّحبة والأُخوَّة وحقوق المسلم والرَّحم والجوار، وآداب السَّماع والغناء، وآداب المعيشة وأخلاق النُّبوَّة، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، وبيان المُنكَرات المألوفة في العادات.

وفي التَّصوُّف: تِبيانٌ طريفٌ ودقيقٌ في الشَّرع عن العزلة والمخالطة، ورياضة النَّفس، وتهذيب الطَّبائع، ومعالجة أمراض القلب، وكسر شهوتَي البطن والفَرْج، وذمِّ الدُّنيا، والرَّجاء والخوف، والزُّهد وحقيقته وفضيلته ودرجاته وأقسامه، والفقر والمفاضلة بينه وبين الغنى، وتحريم السُّؤال مِن غير ضرورةٍ، وآداب الفقير المُضطَرِّ في السُّؤال، والمحبَّة والشَّوق، والمحاسَبة والمراقَبة، محاسَبة النَّفْس ومعاتبتها وتوبيخها، وذِكْر الموت وما بعده وما يتعلَّق به، وذِكر القبر وأحوال الميت، والأسباب المُقوِّية لحُبِّ الله تعالى، وتفاوت النَّاس في الحُبِّ، وبيان السَّبب في قصور أفهام الخَلْق عن معرفة الله تعالى.

ويغلب على الكتاب (التَّحدُّث والتَّركيز على الأخلاق الشَّخصيَّة والاجتماعيَّة، باعتبارها أساس تقدُّم الأمم والشعوب، وعماد الحضارة والمدنيَّة والعمران، وأنَّها جانبٌ مُكمِّلٌ جوهريٌّ للعقيدة والعبادة والمعاملات، وكان الكلام فيَّاضًا ومُقتبَسًا مِن هدي القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة، واشتمل على مبدأ تهذيب الخُلُق، وعلامات حُسن الخُلُق، وآفات اللِّسان، وترك الغِيبة والنَّميمة، وذمِّ الغضب والحقد والحسد والكِبْر والعجب، وذمِّ البخل والحرص والطَّمع، وفضل الإيثار، وذمِّ الجاه والرِّياء، وذمِّ الكِبْر والعجب والغرور، وفضل الصَّبر والشُّكر، وبيان النِّعَم وحقيقها.

وفي مجال العقيدة: تركيز على التَّفكُّر، وصون مبدأ التَّوحيد، والتَّأكد على التَّوكُّل وفضيلته.

وتضمَّن الكتاب بحوثًا عن الغيبيَّات والتاريخ النضر عن وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوصافه وأخلاقه، وعن الخلفاء الراشدين، وحقيقة الموت وعظاته، وما بعد الموت، وأوصاف جهنم وأوصاف الجنة.

والخلاصة: هذا الكتاب فريدٌ مِن نوعه، يُعنَى بالتربية والأخلاق، وعلاج النفس والمجتمع، وتحسين الصِّلة المعنوية القلبية بالله تعالى، ويَشمل العبادات والمعاملات والأخلاق والعقائد والتَّصوُّف، ولا يستغني عنه مسلمٌ حريصٌ على التَّأدُّب بأدب النُّبوَّة، والتَّخلُّق بأخلاق القرآن المجيد.

والكتاب وإنْ طُبع عدَّةَ مرَّات إلَّا أنَّ هذه الطبعة تمتاز بما يلي:

- إيراد كثيرٍ مِن التعليقات اللُّغوية والعلمية والشرعية المفيدة.

- تخريج الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية، مع الإحالة إلى أرقامها في مصادرها.

- التنبيه على الإسرائيليات والموضوعات.

- فهارس الأحاديث بترتيب أبجدي لأوائل الأحاديث.

- بيان مفيد لمراجع التحقيق.

وفَّق الله الأُمَّة وجيلها وشبابها وعلماءها للالتزام بما جاء في هذا الكتاب، سبحانه فهو الموفق إلى سواء الصراط.

الدكتور وهبة الزّحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه
بجامعة دمشق

ترجمة المؤلف

اسمه: أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد المقدسي، نجم الدين، أبو العباس.

ولادته: ولد سنة ٦٥١هـ.

طلبه للعلم: لقد تفقَّه على والده حتى غدا فقيهًا فاضلًا، سَمِعَ من إبراهيم بن خليل، وابن عبد الدائم، وله مشاركةٌ في العلوم.

- قال الذهبي: سمِعَ من جماعةٍ، وما حدَّث.
- قال ابن العماد: سمع الحديث ولم يبلُغ أوان الرواية.

مواصفاته: كان شابًّا مليحًا مهيبًا تامَّ الشكل، ليسَ له من اللحيةِ إلا شعراتٍ يسيرة، كان مليح البزَّة.

ولقد كان مليح الدرس، حسن السيرة، له قدرةٌ على الحفظ، وكان موصوفًا بالذكاء وجودة الفهم، ولقد كان شجاعًا، كثير المكارم.

أعماله:

١. ولي القضاء حتى سُمِّي قاضي القُضاة، ولقد كان توليه للقضاء بإشارة من أبيه، وذلك لما تقدَّمت السن بأبيه أسنَدَ إليه القضاء ولم يبلغ الثلاثين سنة، لكنه قامَ به خير قيام.

٢. الخطابة في الجبل -جبل قاسيون- قال البِرزالي: كان خطيب الجبل.

٣. وكان موصوفًا بـ مليح الدرس، قال البِرزالي: كان مدرِّسَ أكثر المدارس. وقال غيره: درَّس بدار الحديث الأشرفية بالسفح.

شِعره: لقد قرض الشِعرَ، ومنه:

آيـاتُ كُتـب الـغرامِ أدرسها ... وعبـرتـي لا أُطيـق أَحبسُها

لبستُ ثوبَ الضَّنى عَلَى جسدي وحُلَّةَ الصّبر لست ألبَسُها

وفاته: توفي يوم الثلاثاء، في الثالث من جمادى الأولى، سنة تسع وثمانين وستمائة، وله من العمر ثمانية وثلاثون عامًا، وقد دُفِنَ عند والده في مقبرة جدِّه.

وأمَّا المصنِف: فمعلوم أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي -رَحِمَهُ اللَّهُ- كان قد صنَّف كتابًا واسعًا في الأخلاق والسلوك والقيم الإنسانية والدينية وهو كتاب «إحياء علوم الدين»، ولقد قام عدد وافر من العلماء قديمًا وحديثًا بخدمة هذا الكتاب والتعليق عليه ما بين مختصرٍ وشارحٍ وناقد ومحقِّق ومخرِّج لأحاديثه.. وكان من بين من اختصره وحذف منه الأحاديث الموضوعة وبعض الحكايات الإمامُ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي المتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة هجرية -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- وسمَّى مختصره ذلك؛ «منهاج القاصدين»

ثم جاء العالم الفاضل نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي فحذف منه مختصر ابن الجوزي المسائل الفقهية مقتصرًا فيه على الجانب الأخلاقي والسلوكي؛ فجاء مختصرًا نافعًا مهذَّبًا سهل القراءة عميم النفع، وسمى كتابه هذا بـ (مختصر منهاج القاصدين) وهو الكتاب الذي بين يديك.

فدونك كتابًا حاويًا لتهذيب النفوس، شافيًا لأدوائها، ناهضًا بها على عليائها، حيث العيش الأوسع والمقام الأرفع.

مراجع الترجمة:

١. تاريخ الحافظ ابن كثير (البداية والنهاية)

٢. الوافي بالوفيات للصفدي

٣. شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي

٤. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب

٥. تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي

٦. وفيات الأعيان لابن خلقان

مقدمة المؤلف

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين]:

قال الشَّيخ الإمام العالِم العامل الزَّاهد العابد الأوحد العلَّامة، نجم الدِّين أبو العبَّاس أحمد ابن الشَّيخ الإمام العالِم العامل الزَّاهد العابد العلَّامة عزِّ الدِّين أبي عبد الله محمَّد ابن الشَّيخ الإمام العامل الزَّاهد العابد العلَّامة شيخ الإسلام، مفتي الأنام، سيِّد العلماء والحكَّام، شمس الدِّين أبي محمَّد عبد الرَّحمن ابن الشَّيخ الإمام العالِم العامل العارف الزَّاهد الورع شيخ الإسلام أبي عمرَ محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن قدامةَ، المَقدسيُّ الحنبليُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

الحمد لله الذي عمَّ برحمته جميع العباد، وخصَّ أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرَّشاد، ووفقَّهم بلُطفه لصالح الأعمال، ففازوا ببلوغ المراد.

أحمده حمد مُعتَرِفٍ بجزيل الأرفاد[1]، وأعوذ به مِن وبيل الطَّرد والإبعاد، وأشهد أنْ لا إلهَ إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له، شهادةً أدَّخرها ليوم الميعاد.

وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، مُوضِّح طريق الهدى والسَّداد، قامع الجاحِدِين والمُلحِدِين مِن أهل الزَّيغ والعِناد، صلَّى الله تعالى عليه وعلى آله الأكرمِين الأجواد، صلاةً تبلغه بها نهاية الأمل [والمراد][2].

وبعد: فإنِّي كنتُ وقفت مرَّةً على كتاب: «منهاج القاصدِين» للشَّيخ الإمام العالِم الأوحد جمال الدِّين ابن الجوزيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فرأيتُه مِن أجلِّ الكُتب وأنفعها، وأكثرها فوائدَ، فحصل عندي بموقعٍ، ورغبتُ في تحصيله ومُطالَعته، فلمَّا تأمَّلتُه

---

(١) ورد في " الأصل " [والرماد]، وسقطت من " خ ".

(٢) العطاء.

ثانيًا، وجدته فوق ما كان في نفسي، لكن رأيتُه كتابًا مبسوطًا، فأحببتُ أنْ أُعلِّق منه هذا المُختصَر الذي قد احتوى [على أكثر](١) مقاصده وجلَّ مهمَّاته وفوائده، سوى ما ذكر في أوائله مِن مسائلَ ظاهرةٍ تتعلَّق بالفروع، فإنَّها مشهورةٌ في كُتُب الفقه المُستفيضة بين النَّاس، إذ كان المقصود مِن الكتاب غير ذلك.

ولم ألتزم فيه المحافظة على ترتيبه وذِكر ألفاظه بعينها، بل ذَكَرت بعضها بالمعنى قصدًا للاختصار، وربَّما ذَكرتُ فيه حديثًا أو شيئًا يسيرًا مِن غيره إنْ كان مناسِبًا له، والله تعالى أعلم](٢)، [وأسال الله الكريم أن ينفعنا به ومن قرأه أو سمعه أو نظر فيه وأن يجعله خالصًا لوجهه وأن يختم لنا بخير ويوفقنا لما يرضاه من القول والعمل والنية وأن يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا إلى أحد من خلقه فإنه حسبنا ونعم الوكيل](٣).

قال المصنِّف(٤) -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- بعد فراغه مِن الخطبة:

أمَّا بعدُ، فإنِّي رأيتُكَ أيها المُريد الصَّادق، [والحازم العازم](٥)، قد وطَّنتَ نفسك على التَّخلِّي عن فضول الدُّنيا الشَّاغلة، وعزمتَ على الانقطاع إلى الآخرة، عِلمًا منك أنَّ مُخالَطةَ الخَلْق توجب التَّخليط، وإهمالَ المحاسَبة للنَّفْس أصلُ التَّفريط، وأنَّ العُمُر إنْ لم يُستدرَك أدركه الفوت، وأنَّ مراحلَ الأنفاس تُسرِع بالرَّاكب إلى منزل الموت، فنظرتَ أي أنيسٍ مِن الكتب تستصحبه في خلوتك، وتستنطقه في حال صمتك، فإذا أنتَ تُؤثِر كتاب «إحياء علوم الدِّين»، وتزعم انفراده في جنسه، ونفاسته في نفسه.

---

(١) سقط من "المطبوع، خ".

(٢) سقط من "ن، خ".

(٣) سقط من "المطبوع، خ".

(٤) يعني بالمصنِّف ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، صاحب «منهاج القاصِدِين» الذي اختصر به كتاب الإمام الغزاليِّ «إحياء علوم الدِّين».

(٥) ورد في "المطبوع" [والعازم الجازم].

فاعلم أنَّ في كتاب «الإحياء» آفاتٍ لا يعلمها إلَّا العلماء، وأقلُّها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة وقد جَعَلها مرفوعةً، وإنما نَقَلها كما اقتراها، لا أنَّه افتراها، ولا ينبغي التَّعبُّد بحديثٍ موضوعٍ، والاغترار بلفظٍ مصنوعٍ.

وكيف أرتضي لك أنْ تُصلِّيَ صلوات الأيَّام ولياليها وليس فيها كلمةٌ قالها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكيف أُوثر أنْ يَطرقَ سمعَك مِن كلام المُتصوِّفة الذي جَمَعه ونَدَب إلى العمل به ما لا حاصل له مِن الكلام في الفَناء والبقاء، والأمر بشدَّة الجوع، والخروج إلى السِّياحة في غير حاجةٍ، والدُّخول إلى الفلاة بغير زادٍ، إلى غير ذلك ممَّا قد كشفتُ عن عَوَراه[1]، في كتابي المسمَّى بـ«تلبيس إبليس».

وسأكتب لك كتابًا يخلو عن مفاسده، ولا يُخلُّ بفوائده، أعتمد فيه مِن النُّقول الأصحَّ والأشهر، ومِن المعنى الأثبتَ والأجودَ، وأحذف ما [يصلح][2] حذفه، وأزيد ما يصلح أنْ يُزاد.

ثُمَّ قال بعد ذلك: وإذ قد صحَّ عزمك على العُزلة لاستيفاء حقِّ الحقِّ مِن النَّفْس، والأخذ على يداها، فليكن وكيلك [عليها] العِلم، وكن باحثًا عن دقائق هواها، لعلَّك تسلم، واحذر سبيل أَحَدِ رجلَين:

عالِمٍ عَرَف الجدال في الفقه، واقتنع برئاسته، أو نال القضاء، فسعى في حفظ منزلته، أو زَخرَف الوعظ، فضيَّق أعين شبكته.

أو زاهدٍ يتقلَّب برأيه الفاسد في جهالته، ويُتقرَّب بتقبيل يده واعتقاد بركته، ويعمل بهواه دون شرع الله وسُنَّته.

---

(١) العَوَار: بفتح العين العيب. انظر «مختار الصحاح» مادة (ع و ر).

(٢) ورد في "المطبوع" [يصحُّ].

فهذان عادلان[١] عن منهاج الصَّواب، مُقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللُّباب، خادعان للمُبتدئين بلامع السَّراب، [وطريقهما][٢] بمَعزلٍ عن سَنَن السَّلف الصَّالح الذي هو جادَّة الاستقامة، وطريقة السَّلامة.

[وسأُدرج][٣] لك في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى مِن أخبارهم ما [يدلُّك][٤] على آثارهم، وكتابنا هذا يحتاج إليه المُنتهِي، كما يفتقر إليه المُبتدِي؛ لأنَّ فيه أسرارَ العبادات، والتَّحذيرَ مِن آفات المعاملات، وقد جعَله المُصنِّف[٥] أربعةَ أرباعٍ:

الأوَّل: ربع العبادات.

والثَّاني: ربع العادات.

والثَّالث: ربع المُهلِكات.

والرَّابع: ربع المُنجِيات.

وكلُّ واحدٍ مِن هذه الأقسام الأربعة يشتمل على كتبٍ وأبوابٍ وفصولٍ.

فمِن أقسام الرُّبع الأوَّل:

---

(١) عدل عن الطَّريق إذا جار وظلم. انظر «مختار الصحاح» مادَّة (عدل).

(٢) ورد في "المطبوع" [وطريقها].

(٣) ورد في "المطبوع" [وسأُدرك].

(٤) ورد في "المطبوع" [يدلُّ].

(٥) يقصد به الإمام الغزاليَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى صاحب «إحياء علوم الدِّين».

كتاب العلم وفضله وما يتعلق به

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «للعلماءِ درجاتٌ فوق المؤمنين بسبعمائة درجةٍ، ما بين كلِّ دَرَجتَين مسيرة خمسِمائة عامٍ»[١]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وفي «الصَّحيحَين»[٢] مِن حديث معاويةَ بن أبي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن يُرِدِ اللهُ بِه خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّينِ**».

وعن أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلان: أحدهما عابدٌ، والآخر عالِمٌ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَضلُ العالِمِ عَلى العابِدِ كَفَضلِي عَلى أَدناكُم**». ثُمَّ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ وأَهلَ السَّمواتِ والأَرضِ، حتى النَّملةَ في جُحرِها، وحتى الحُوتَ لَيُصلُّونَ عَلى مُعلِّمِي النَّاسِ الخَيرَ**» رواه التِّرمذيُّ[٣]، وقال: حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.

وفي حديثٍ آخَرَ: «**فَضلُ العالِمِ عَلى العابِدِ كفَضلِ القَمرِ لَيلةَ البَدرِ عَلى سائِرِ الكَواكِبِ؛ وإنَّ العُلماءَ وَرَثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرهَمًا، وإنَّما وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِه أَخَذَ بِحَظٍّ وافِرٍ**». رواه التِّرمذيُّ، وأبو داودَ، وابن ماجه[٤].

---

(١) رواه بمعناه القرطبيُّ في «جامع بيان العلم» (١/ ١٥١) مِن حديث النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) رواه البخاريُّ الحديث (٧١)، ومسلمٌ الحديث (١٠٣٧) في الزَّكاة باب النَّهي عن المسألة، ورواه أيضًا أحمدُ (٩٢-٩٣-٩٥)، التِّرمذيُّ (٢٦٤٧).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٦٨٦).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٤١) و(٣٦٤٢)، والتِّرمذيُّ (٢٦٨٣) و(٢٦٨٤)، وابن ماجه (٢٢٣).

وعن صفوانَ بن عسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ المَلائِكةَ لَتَضَعُ أَجنِحَتَها لطالِبِ العِلمِ رِضًى بِما يَطلُبُ**». رواه الإمام أحمدُ، وابن ماجه[١].

قال الخطَّابيُّ[٢]: في معنى وضعها أجنحتها ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: أنَّه بسط الأجنحة.

الثَّاني: أنَّه بمعنى التَّواضع تعظيمًا لطالب العلم.

الثَّالث: أنه المراد به النُّزول عند مجالس العِلم، وترك الطَّيران.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ**». رواه مسلمٌ[٣].

وروي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَن جاءَهُ المَوتُ وهو يَطلُبُ العِلمَ لِيُحيِيَ به الإسلامَ، كانَ بَينَه وبَينَ الأنبياءِ في الجَنَّةِ دَرجةٌ واحدةٌ**»[٤].

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شِعري، أيُّ شيءٍ أدرَك مَن فاته العِلم، وأيُّ شيءٍ فات مَن أدرك العِلم.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٢٩-٢٤١) وأبو داودَ (٣٦٤١-٣٦٤٢) والتِّرمذيُّ (٣٥٢٩) و(٣٥٣٠). وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) هو حمد بن محمَّد بن إبراهيمَ ابن الخطَّاب البستيُّ، أبو سليمان، فقيهٌ محدِّثٌ، مِن أهل بست، مِن نسل زيد بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وُلد سنة بعضَ عشرَ وثلاثِمائةٍ، سمع مِن أبي سعيد بن الأعرابيِّ، وإسماعيلَ بن محمد الصَّفَّار، وغيرهما، وحدَّث عنه أبو عبد الله الحاكم، وأبو حامد الإسفرايينيُّ، وغيرهما، له «معالم السُّنن» في شرح «سنن أبي داودَ»، و«بيان إعجاز القرآن»، و«إصلاح غلط المحدِّثين»، و«غريب الحديث»، توفِّي سنة (٣٨٨هـ). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ (١٧/ ٢٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٢/ ٢٧٣).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٦٩٩)، ورواه أبو داودَ (٤٩٤٦)، والتِّرمذيُّ (١٤٢٥).

(٤) أورده الحافظ المنذري في «التَّرغيب والتَّرهيب» (١/ ٩٦) وعزاه إلى الطَّبرانِيِّ في «الأوسط»، وعزاه العراقيُّ في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٩) إلى ابن السُّنِّي في «رياضة المُتعلِّمين» مِن حديث الحسن مُرسَلًا، ورد زيادة في " المطبوع، ن " [وفيه أخبارٌ كثيرةٌ].

ومِن فضائل التَّعليم ما أخرجاه في «الصَّحيحَين»[(١)] عن سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لأَنْ يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن أنْ يَكونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**».

وقال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنَّ الذي يُعلِّم الناس الخير تستغفر له كلُّ دابَّةٍ حتى الحوت في البحر»[(٣)].

وروي نحو ذلك في حديثٍ مرفوعٍ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)].

فإنْ قيل: ما وجه استغفار الحوت للمعلِّم؟

فالجواب: أنَّ نَفْع العِلم يعمُّ كلَّ شيءٍ حتى الحوت، فإنَّ العُلماء عَرَفوا بالعِلم ما يَحِلُّ ويحرمُ، وأوصوا بالإحسان إلى كلِّ شيءٍ، حتى إلى المذبوح والحوت، فألَهَم الله تعالى الكلَّ الاستغفار لهم جزاءً لحُسْنِ صنيعهم.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ [كمَثَلِ][(٥)] غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنها طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهُ أَجَادِبُ[(٦)] أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِها النَّاسَ،**

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٨٣) و(٣٤٨٩)، ومسلمٌ (٢٤٠٦)، ورواه عن سهل بن سعد أبو داودَ (٢٦٦١).

(٢) سهل بن سعد الخزرجيُّ الأنصاريُّ، مِن بني ساعدة، صحابيٌّ، مِن مشاهيرهم، مِن أهل المدينة، حدَّث عنه ابنه عبَّاسٌ، وأبو حازمٍ الأعرج، وعبد الله بن عبد الرَّحمن بن الحارث بن أبي ذباب، والزُّهريُّ، ويحيى بن ميمونٍ الحضرميُّ، وغيرهم، وهو آخر مَن مات بالمدينة مِن الصَّحابة، وكان مِن أبناء المائة، توفِّي سنة (٩١). انظر «أسد الغابة»، ابن الأثير، (٢/ ٣٢٠)، «الإصابة»، ابن حجر، (٣/ ١٦٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٤٣).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الكبرى» (٣٩٠).

(٤) قال العراقي في «المغني» (١/ ٤٩): أخرجه التِّرمِذِيُّ مِن حَدِيث أبي أُمَامَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: غَرِيبٌ. وَفِي نُسْخَة: حسنٌ صَحِيحٌ.

(٥) ورد في " المطبوع " [مَثَلُ].

(٦) جمع أَجْدُب، وهي الأرض التي لا تُنبِت.

فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْها طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لا تُمْسِكُ ماءً، لا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، فَعَلِمَ، وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الذي أُرسِلْتُ به». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[١].

فانظر -رحمك الله- إلى هذا الحديث ما أوقَعه على الخَلْق، فإنَّ الفُقَهاء أُولِي الفهم كمثل البقاع التي قَبِلت الماء، فأنبتتِ الكلأ؛ لأنَّهم عَلِموا، وفَهِموا، وفرَّعوا وعلَّموا، وغاية النَّاقلين مِن المُحدِّثين الذين لم يُرزَقوا الفقه والفهم، أنَّهم كمِثل الأجادب التي حَفِظتِ الماء، فانتفع بما عندهم، وأمَّا الذين سَمِعوا، ولم يتعلَّموا، ولم يحفظوا، فهم العوامُّ الجَهَلة.

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: لولا العُلماء لصار النَّاس مِثلَ البهائم.

وقال معاذ بن جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تعلَّموا العلم، فإنَّ تَعلُّمه لله خشيةٌ، وطلبه عبادةٌ، ومُدارَسته تسبيحٌ، والبحث عنه جِهادٌ، وتعليمه لمَن لا يعلمه صدقةٌ، وبَذْله لأهله قربةٌ، وهو الأنيس في الوحدة، والصَّاحب في الخلوة[٣].

وقال كعبٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: أوحى الله تعالى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ تعلَّم يا موسى الخير، وعلِّمه للنَّاس، فإنِّي مُنوِّرٌ لمُعلِّم الخير ومُتعلِّمه قبورهم، حتى لا يستوحشوا بمكانهم[٤].

---

(١) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) الحسن بن يسار البصريُّ، أبو سعيدٍ تابعيٌّ، كان إمام أهل البصرة، وحَبْر الأُمَّة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفُصحاء الشُّجعان النُّسَّاك، كان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحقِّ لومةً، وكان أشبه النَّاس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هديًا مِن الصَّحابة، وكان غايةً في الفصاحة، تتصبَّب الحكمة مِن فيه. وله مع الحجَّاج بن يوسفَ مواقِفَ، وقد سَلِم مِن أذاه، توفِّي بالبصرة (٢١-١١٠هـ=٦٤٢-٧٢٨م). (انظر: حلية الأولياء، أبو نُعيم، ٢/ ١٣١، وَفَيات الأعيان، ابن خِلِّكان، ٢/ ٦٩، تهذيب التَّهذيب، ابن حَجر، ١/ ٣٨٨، الأعلام، الزِّركليُّ، ٢/ ٢٢٦)

(٣) رواه بطُولِهِ أبو الشَّيخ ابن حِبَّانَ في كتاب الثَّواب، وابن عبد البرِّ، وقال: ليس له إسنادٌ قَويٌّ، وأورده الحافظ المنذريُّ في «التَّرغيب والتَّرهيب» (١/ ١٩٥) عن معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا وقال: رواه ابن عبد البرِّ النمري في كتاب العلم وقال: هو حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفًا كذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ ورفعه غريب جدًا.

(٤) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ٥).

فَصْلٌ

قد رُوي عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسلِمٍ**». رواه أحمدُ في «العِلل»(١).

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: اختَلف النَّاس في ذلك.

فقال الفقهاء: هو عِلم الفقه؛ إذ به يُعرَف الحلال والحرام.

وقال المُفسِّرون والمُحدِّثون: هو عِلم الكتاب والسُّنَّة؛ إذ بهما يُتوصَّل إلى العلوم كلِّها.

وقالت الصُّوفيَّة: هو علم [الأخلاق](٢)، وآفات النُّفوس.

وقال المُتكلِّمون: هو علم الكلام. إلى غير ذلك مِن الأقوال التي ليس فيها قولٌ مَرْضِيٌّ، والصَّحيح أنَّه عِلم مُعامَلة العبد لربِّه.

والمُعامَلة التي كُلِّفَها على ثلاثة أقسامٍ: اعتقادٌ، وفِعلٌ، وتَركٌ.

فإذا بلغ الصَّبيُّ فأوَّل واجبٍ عليه تعلُّم كَلِمتَي الشَّهادة، وفهم معناها، وإنْ لم يحصل ذلك بالنَّظر والدَّليل؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتفى مِن أجلاف العرب بالتَّصديق مِن غير [تَعلُّمِ](٣) دليلٍ، فذلك فرضُ الوقت، ثُمَّ يَجب عليه النَّظَر والاستدلال.

فإذا جاء وقت الصَّلاة وجب عليه تَعلُّم الطَّهارة والصَّلاة، فإذا عاش إلى رمضانَ وجب عليه تعلُّم الصَّوم، فإنْ كان له مالٌ، وحال عليه الحَول وجب عليه تعلُّم الزَّكاة، وإنْ جاء وقت الحجِّ، وهو مُستطِيعٌ وجب عليه [تعلم](٤) المَناسِك.

---

(١) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان»، الحديث (١٦٦٣) وقال: هذا الحديث شبه مشهورٍ، وإسناده ضعيفٌ، وقد رُوي مِن أوجهٍ كلُّها ضعيفةٌ، وابن ماجه، الحديث (٢٢٤)، وقال السَّخاويُّ في «المقاصد الحسنة» (٢٨٢): ورواه ابن عبد البرِّ في العلم مِن حديث حفص بن سليمانَ، وحفصٌ ضعيفٌ جدًّا، بل اتَّهمه بعضهم بالكذب والوضع، وقيل عن أحمد: إنَّه صالحٌ. وقال العراقيُّ في «المغني»(١/ ٢): رواه ابن ماجه مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه أحمدُ والبيهقيُّ وغيرهما.

(٢) ورد في " المطبوع، ن، خ " [الإخلاص].

(٣) ورد في " الأصل " [تَعليمِ].

(٤) سقطت من " المطبوع "، وفي " ن " [يعلم].

وأمَّا [التُّروك](١) فهو بحسب ما يَتجدَّد مِن الأحوال؛ إذ لا يجبُ على الأعمى تعلُّم ما يحرِّك النَّظر إليه، ولا على الأبكم تعلُّم ما يَحرمُ مِن الكلام، فإنْ كان في بلدٍ يُتعاطَى فيه شُرب الخمر ولبس الحرير وجب عليه أنْ يعرفَ تحريم ذلك.

وأمَّا الاعتقادات فيجب عِلمها بحسب الخواطر، فإنْ خَطَر له شكٌّ في المعاني التي تدلُّ عليها كَلِمتا الشَّهادة وجب عليه تعلُّم ما يَصِل به إلى إزالة الشَّكِّ، وإنْ كان في بلدٍ قد كَثُرَت فيه البِدَع وجب عليه أنْ يَتلقَّن الحقَّ، كما لو كان تاجرًا في بلدٍ قد شاع فيه الرِّبا وجب عليه تعلُّم الحَذَر منه.

وينبغي أنْ يتعلَّم الإيمان بالبعث والجَنَّة والنَّار.

فبان بما ذَكَرنا أنَّ المُراد بطلب العلم هو الذي هو فرض عينٍ: ما يتعيَّن وجوبه على الشَّخص.

فأمَّا فرض الكفاية، فهو كلُّ عِلمٍ لا يُستغنَى عنه في قوام أمور الدُّنيا، كالطِّبِّ؛ إذ هو ضروريٌّ في حاجة بقاء الأبدان على الصِّحَّة، والحِساب؛ فإنَّه ضروريٌّ في قِسمة المواريث والوصايا وغيرها.

فهذه العلوم لو خلا البلد عمَّن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحدٌ، كفَى وسقط الفرض عن الباقِين.

ولا يُتعجَّب مِن قولنا: إنَّ الطِّبَّ والحِساب مِن فروض الكفاية، فإنَّ أصول الصِّناعات أيضًا مِن فروض الكفاية؛ كالفلاحة والحياكة، بل الحجامة، فإنَّه لو خلا البلد عن حجَّامٍ لأسرع الهلاك إليهم، فإنَّ الذي أنزل الدَّاء أنزل الدَّواء، وأرشد إلى استعماله، وأمَّا التَّعمُّق في دقائق الحِساب، ودقائق الطِّبِّ وغير ذلك فهذا يُعدُّ فَضلةً؛ لأنَّه يُستغنَى عنه.

وقد يكون بعض العلوم مُباحًا، كالعِلم بالأشعار التي لا سُخفَ فيها، وتواريخ الأخبار.

---

(١) ورد في "ن" [المتروك].

وقد يكون بعضها مَذمومًا، كعِلم السِّحْر، والطَّلسمات، والتَّلبيسات.

فأمَّا العلوم الشَّرعيَّة فكلُّها محمودةٌ، وتَنقسِم إلى أصولٍ، وفروعٍ، ومُقدِّماتٍ، ومُتمِّماتٍ.

فالأصول: كتاب الله، وسنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإجماعُ الأُمَّة، وآثارُ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

والفروع: ما فُهِم مِن هذه الأصول مِن معانٍ تَنبَّهت لها العقول حتى فُهِم [من][1] اللَّفظ الملفوظ وغيره، كما فُهِم مِن قوله: «**لا يَقضِي القاضِي وهو غَضْبانُ**»[2] أنَّه لا يَقضِي جائعًا.

والمُقدِّمات: هي التي تجري مجرى الآلات، كعِلم النَّحو واللُّغة، فإنَّهما آلةٌ لعِلم كتاب الله وسنَّة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والمُتمِّمات: كعِلم القراءات، ومَخارِج الحروف، وكالعِلم بأسماء رِجال الحديث، وعدالتهم، وأحوالهم.

فهذه هي العُلوم الشَّرعيَّة، وكلُّها محمودةٌ.

فَصْلٌ

فأمَّا عِلم المُعامَلة -وهو عِلم أحوال القلب كالخوف، والرَّجاء، والرِّضى، والصِّدق، والإخلاص وغير ذلك- فهذا العِلم به ارتفع العُلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم كسفيانَ الثَّوريِّ[3]، وأبي حنيفةَ، ومالكٍ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ رَحِمَهُمُ اللهُ.

---

(١) سقطت من "المطبوع، ن".

(٢) رواه البخاريُّ (٧١٨٥) ومسلمٌ (١٧١٧) عن عبد الرَّحمن بن أبي بكرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ: «لا يَحكُمَنَّ حَكَمٌ...».

(٣) سفيانُ بن سعيد بن مسروقٍ الثَّوريُّ، مِن بني ثور بن عبد مناة، مِن مضر، أبو عبد الله: أمير المؤمنين في الحديث. كان سيِّد أهل زمانه في علوم الدِّين والتَّقوى، وُلد ونشأ في الكوفة سنة (٩٧)، روى له الجماعة السِّتَّة، وحدَّث عنه شعبةُ بن الحجَّاج، وأبو عوانةَ وغيرهما الكثير، له «الجامع الكبير»=

وإنَّما انحطت رتبة المُسمَّين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات؛ لتشاغلهم بصُوَر العِلم مِن غير أَخْذِ على النَّفْس أنْ تبلغَ إلى حقائقه، وتعمل بخفاياه، وأنتَ تَجِد الفقيه يتكلَّم في الظِّهار، واللِّعان، والسَّبق، والرَّمي، ويُفرِّع التَّفريعات التي تَمضِي الدُّهور فيها، ولا يحتاج إلى مسألةٍ منها، ولا يتكلَّم في الإخلاص، ولا يُحذِّر مِن الرِّياء، وهذا عليه فرضُ عينٍ؛ لأنَّ في إهماله هلاكه، والأوَّل فرضُ كفايةٍ، ولو أنَّه سُئِل عن عِلَّةِ تَرْك المُناقَشة للنَّفْس في الإخلاص والرِّياء لم يكن له جوابٌ، ولو سُئِل عن عِلَّةِ تَشاغُله بمسائل اللِّعان والرَّمي لقال: هذا فرضُ كفايةٍ. ولقد صَدَق، ولكن خَفِي عليه أنَّ الحساب فرضُ كفايةٍ أيضًا، فهلَّا تَشاغَل به، وإنَّما [تُبهرِج][1] عليه النَّفْس؛ لأنَّ مَقصودها مِن الرِّياء والسُّمعة يحصل بالمُناظَرة، لا بالحساب.

واعلم أنَّه قد بُدِّلَت ألفاظٌ وحُرِّفت، ونُقِلت إلى معانٍ لم يُرِدْها السَّلف الصَّالح.

فمِن ذلك الفقه، فإنَّهم تصرَّفوا فيه بالتَّخصيص، فخَصُّوه بمعرفة الفروع وعِلَلها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأوَّل مُنطلِقًا على عِلم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النُّفوس، ومُفسِدات الأعمال، وقوَّة الإحاطة بحقارة الدُّنيا، وشِدَّة التَّطلُّع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

ولذلك فإنَّ الحَسَن البصريَّ قال: إنَّما الفقيه الزَّاهد في الدُّنيا، الرَّاغب في الآخرة، البصير بدِينه، المُداوِم على عبادة ربِّه، الوَرِعُ، الكافُّ عن أعراض المسلمين، العفيفُ عن أموالهم، النَّاصح لهم، فكان إطلاقهم اسمَ الفقه على عِلم الآخرة أكثرَ؛ لأنَّه لم يكنْ مُتناوِلًا للفتاوى، ولكن كان مُتناوِلًا لذلك بطريق العموم والشُّمول، فثار مِن هذا التَّخصيص تلبيسٌ بَعَث النَّاس على التَّجرُّد لعِلم الفتاوى الظَّاهرة، والإعراض عن عِلم المُعامَلة للآخرة.

= و«الجامع الصَّغير» كلاهما في الحديث، توفِّي سنة (١٦١). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ (٧/ ٢٢٩)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٣/ ١٠٤).

(١) ورد في "الأصل" [تهوج].

اللَّفظ الثَّاني: العِلم، فقد كان ذلك يُطلَق على العِلم بالله تعالى وبآياته، أي نِعَمه وأفعاله في عباده، فخَصُّوه وسمَّوا به في الغالب المُناظِر في مسائل الفقه وإنْ كان جاهلًا بالتَّفسير والأخبار.

اللَّفظ الثَّالث: التَّوحيد، وقد كان ذلك إشارةً إلى أنْ ترَى الأمور كلَّها مِن الله تعالى رؤيةً تَقطَع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فيُثمِر ذلك التَّوكُّلَ والرِّضَى، وقد جُعِل الآن عبارةً عن صناعة الكلام في الأصول، وذلك مِن المُنكَرات عند السَّلف.

اللَّفظ الرَّابع: التَّذكير والذِّكر، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**وإذَا مَرَرتُم بِرِياضِ الجَنَّةِ فَارتَعُوا**». قالوا: وما رياض الجَنَّة؟ قال: «**مَجَالِسُ الذِّكْرِ**»[١]. فنَقَلوا ذلك إلى القصص وما يحتوي عليه اليوم مَجلِس القاصِّ مِن الشَّطح والطَّامَّات.

ومَن تَشاغَل في وعظه بذِكْر قصص الأوَّلِين فليَعلَمْ أنَّ أكثرَ ما [يحكى][٢] في ذلك لا يثبت، كما ينقلون أنَّ يوسفَ عَلَيهِ السَّلَامُ حَلَّ تِكَّتَه[٣]، وأنَّه رأى يعقوبَ عَلَيهِ السَّلَامُ عاضًّا على يده، وأنَّ داودَ عَلَيهِ السَّلَامُ جهَّز أوريا[٤] حتى قُتِل، فمِثل هذا يَضرُّ سماعه.

وأمَّا الشَّطَح والطَّامَّات فمِن أَشدِّ ما يُؤذِي العوامَّ؛ لأنَّها تَشمل على ذِكْر المحبَّة والوصال وأَلِم الفِراق، وعامَّة الحاضرين أجلافٌ، بَواطِنُهم مَحشوَّةٌ بالشَّهوات وحُبِّ الصُّوَر، فلا يُحرِّك ذلك مِن قلوبهم إلَّا ما هو مُستكِنٌّ في نفوسهم، فيَشتعِل فيها نار الشَّهوات، فيَصِيحون، وكلُّ ذلك فسادٌ.

وربَّما احتوى الشَّطَح على الدَّعاوى العريضة في محبَّة الله تعالى، وفي هذا ضَرَرٌ عظيمٌ، وقد ترك جماعةٌ مِن الفَلَّاحِين فلاحتهم، وأظهروا مِثل هذه الدَّعاوي.

---

(١) رواه أحمدُ (١٢٥٢٣)، والتِّرمذيُّ (٣٥١٠) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هذا الوجه مِن حديث ثابتٍ، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٢) ورد في "المطبوع" [يَحكِي].

(٣) التكة: شريط يُربط فيه السروال.

(٤) اسم رَجُلٍ كانت له امرأة ذات حسن وجمال.

اللَّفظ الخامس: الحكمة، والحكمة: العِلم والعمل به.

قال ابن قتيبةَ: لا يكون الرَّجل حكيمًا حتى يَجمَع العِلم والعمل، وقد صار هذا الاسم يُطلَق في هذا الزَّمان على الطَّبيب والمُنجِّم.

فَصْلٌ

وأعلم أنَّ العُلوم المحمودة تنقسم إلى قِسمَين:

الأوَّل: مَحمودٌ إلى أقصَى غاياته، وكلَّما كان أكثرَ كان أفضلَ وأحسنَ، وهو العِلم بالله تعالى، وبصِفاته، وأفعاله، وحِكمته في ترتيب الآخرة على الدُّنيا، فإنَّ هذا عِلمٌ مطلوبٌ لِذَاته، والتَّوصُّل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يُدرَك غَوْره، وإنَّما يَحُوم المحومون على سَواحِله وأطرافه بقَدْر ما تَيسَّر لهم.

القسم الثَّاني: العلوم التي لا يُحمَد منها إلَّا مِقدارٌ مخصوصٌ، وهي التي ذَكَرناها مِن فروض الكفايات، فإنَّ في كلِّ علمٍ اقتصارًا واقتصادًا واستقصاءً.

فكن أَحَد رَجلَين: إمَّا مشغولًا بنفسك، وإمَّا مُتفرِّغًا لغيرك بعد الفراغ مِن نفسك. وإيَّاك أنْ تَشتغِل بما يُصلِح غيرَك قَبل إصلاح نفسك؛ واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره مِن الصِّفات الذَّميمة، كالحِرص، والحَسَد، والرِّياء، والعُجب قَبل إصلاح ظاهرك، وسيأتي ذلك إنْ شاء الله تعالى في رُبْع المُهلِكات، فإنْ لم تَتفرَّغْ مِن ذلك فلا تَشتغِل بفروض الكفايات، فإنَّ في الخَلْق كثيرًا يقومون بذلك، فإنَّ مُهلِكَ نفسه في طلب إصلاح غيره سفيهٌ، ومَثَله مَثَل مَن دَخلت العقارب تحت ثِيابه، وهو يَذبُّ الذُّباب عن غيره.

فإنْ تَفرَّغتَ مِن نَفْسك وتطهيرها -وما أبعدَ [بيان][1] ذلك- فاشتغل بفُروض الكفايات، وراعِ التَّدريج في ذلك.

---

(١) سقطت من "المطبوع، ن".

فابتدئ بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ بسُنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ بعلوم القرآن، مِن التَّفسير، ومِن ناسخٍ ومنسوخٍ، ومُحكَمٍ ومُتشابِه، إلى غير ذلك.

وكذلك في السُّنَّة، ثُمَّ اشتغل بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا بَقيَّة العلوم على ما يتَّسع له العمر، ويُساعِد في الوقت.

ولا تَستغرِق عُمرَك في فنٍّ واحدٍ منها طَلَبًا للاستقصاء، فإنَّ العِلم كثيرٌ، والعُمر قصيرٌ، وهذه العلوم آلاتٌ يُراد بها غيرُها، وكلُّ شيءٍ يُطلَب لغيره فلا ينبغي أنْ يُنسَى فيه المطلوب.

فَصْلٌ

واعلم أنَّ المُناظَرة الموضوعة بقَصْد المُغالَبة والمُباهَاة مَنبعُ الأخلاق المذمومة، ولا يَسلَم صاحبها مِن كِبْرٍ؛ لاحتقار المُقصِّرين عنه، وعُجْبٍ بنفسه؛ لارتفاعه على كثيرٍ مِن نُظَرائه، ولا يَسلَم مِن الرِّياء؛ لأنَّ جُمهور مقصود المُناظِر اليوم عِلمُ النَّاس بغَلَبَته، وإطلاقُ ألسنتهم بشُكره ومدحه، فهو يُذهِب عُمرَه في العلوم التي تُعِين على المُناظَرة بما لا يَنفع في الآخرة، كحُسنِ اللَّفظ، وحِفظ النَّوادر.

وقد رُوي في الحديث عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَومَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَم يَنفَعْهُ عِلمُهُ**»[1].

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الشُّعَب»، الحديث (١٦٤٢)، وأورده السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (١٠٥٣) وعزاه إلى البيهقيِّ في «شعب الإيمان»، وابنِ عديٍّ في «الكامل»، والطَّبرانيِّ في «الصَّغير».
وقال المناويُّ في «فيض القدير» (١/ ٥١٨): ضعَّفه المنذريُّ. وقال ابن حجرٍ: غريبُ الإسناد والمتن، وفيه عثمانُ بن مقسمٍ. قال الذَّهبيُّ في «الضُّعفاء»: كذَّبه غيرُ واحدٍ.

باب آداب المتعلم والمعلم وآفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

أمَّا المُتعلِّم فيَنبغي له تقديم طهارة النَّفْس عن رذائل الأخلاق، ومذمومِ الصِّفات؛ إذ العلمُ عبادةُ القلب.

وينبغي له قَطْع العلائق الشَّاغلة، فإنَّ الفِكرة متى توزَّعَت قَصَّرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السَّلف يُؤثِرون العِلمَ على كلِّ شيءٍ، فرُوِي عن الإمام أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه لم يَتزوَّج إلَّا بعد الأربعين، وأُهدِيتْ إلى أبي بكر بن الأنباريِّ جاريةٌ، فلمَّا دَخَلت عليه تَفكَّر في استخراج مسألةٍ، فعَزَبت عنه، فقال: أَخرِجُوها إلى النَّخَّاس. فقالت: هل لي مِن ذنبٍ؟ قال: لا، إلَّا أنَّ قلبي اشتغل بكِ، وما قَدْرُ مِثْلُكِ أنْ يَمنعَني عِلمي.

وعلى المُتعلِّم أنْ يُلقِيَ زِمامه إلى المُعلِّم إلقاء المريض زمامه إلى الطَّبيب، فيتواضع له، ويبالغ في خدمته.

وقد كان ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يأخذ برِكاب زيدِ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقول: هكذا أُمِرنا أنْ نَفعَل بالعلماء[(١)].

ومتى تكبَّر المُتعلِّم أنْ يَستفيدَ مِن غير موصوفٍ بالتَّقدُّم فهو جاهلٌ؛ لأنَّ الحِكمة ضالَّة المؤمن، أينما وَجدها أَخذها، ولْيَدَعْ رأيه لرأي مُعلِّمه، فإنَّ خطأَ المُعلِّم أنفعُ للمُتعلِّم مِن صواب نفسه.

قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ مِن حقِّ العالِم عليك أنْ تُسلِّم على القوم عامَّةً، وتَخصَّه بالتَّحية، وأنْ تجلسَ أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا [تغمزن بعينك][(٢)]، ولا تُكثِر عليه

---

(١) رواه القرطبيُّ في «جامع بيان العلم» (١/ ٥١٤).

(٢) ورد في " المطبوع " [تغمز بعينك]، وفي " ن " [يغمزن لعينك].

السُّؤال، ولا تُعينه في الجواب، ولا تُلحَّ عليه إذا كسل، ولا تُراجِعه إذا امتنع، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تُفشي له سرًّا، ولا تغتبَنَّ عنده أَحَدًا، ولا تطلبنَّ عثرته، وإنْ زلَّ قَبِلت معذرته، ولا تَقولنَّ له: سمعتُ فلانًا يقول كذا، ولا إنَّ فلانًا يقول خلافك، ولا تَصِفنَّ عنده عالِمًا، ولا تُعرضنَّ مِن طول صُحبته، ولا تَرفع نفسك عن خدمته، وإذا عَرَضت له حاجةٌ سبقت القوم إليها، فإنَّما هو بمنزلة النَّخلة تنتظر مَن يَسقط [عليك][1] منها شيءٌ[2].

وينبغي أنْ يحترزَ الخائض في العلم في مبتدأ الأمر مِن الإصغاء إلى اختلاف النَّاس، فإنَّ ذلك يُحيِّر عقله، ويفتِّر ذهنه.

وينبغي له أنْ يأخذَ مِن كلِّ شيءٍ أَحسَنه؛ لأنَّ العُمر لا يتَّسِع لجميع العلوم، ثُمَّ يَصرِف مِن جمام وقته إلى أَشرَف العلوم، وهو العلم المُتعلِّق بالآخرة، الذي به يكتسب اليقين الذي حصَّله أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى شهد له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ما سَبَقَكُم أبو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَومٍ وَلا صَلاةٍ، وَلَكِنْ بِشَيءٍ وَقَرَ في صَدْرِهِ**»[3]. فهذه وظائف المُتعلِّم.

وأَمَّا المُعلِّم فعليه وظائفُ أيضًا:

مِن ذلك الشَّفقة على المُتعلِّمِين، وأنْ يُجريَهم مجرى بَنِيه، ولا يطلب على إفاضته العلم أجرًا، ولا يقصد به جزاءً ولا شكرًا، بل يُعلِّم لوجه الله تعالى، ولا يرى لنفسه مِنَّةً على المُتعلِّمِين، بل يرى الفضل لهم إذا هيَّؤوا قلوبهم للتَّقرُّب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها، فهم كالذي يُعِير الأرض لمَن يزرع فيها، فلا ينبغي أنْ يَطلبَ المُعلِّم الأجر إلَّا مِن الله سبحانه، وقد كان السَّلف يمتنعون مِن قَبول هديَّة المُتعلِّم.

---

(١) ورد في "المطبوع" [عليها].

(٢) رواه بمعناه الشجريُّ الجرجانيُّ في «الأمالي الخميسيَّة» (٣٤٣)، ونسبه المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٢٩٣٦٣)، والسُّيوطيُّ في «الجامع الكبير» (١٠٤٥) إلى الخطيب البغداديِّ.

(٣) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (١/ ٧٣) أخرجه التِّرمذيُّ الحكيم في «النَّوادر» مَنقولاً عن أبي بكرِ ابن عبد الله المُزنِيِّ، ولم أَجِدْه مَرفوعًا.

ومنها: ألَّا يَدَّخرَ مِن نُصح المُتعلِّم شيئًا، وأنْ يَزجره عن سوء الأخلاق بطريق [التَّعريض][(١)] مهما أمكن، لا على وجه التَّوبيخ، فإنَّ التَّوبيخ يَهتِك حِجاب الهيبة.

ومنها: أنْ ينظرَ في فَهم المُتعلِّم ومِقدار عَقْله، فلا يُلقي إليه ما لا يُدركُه فهمُه، ولا يُحيط به عَقله، فقد رُوي عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**أُمِرتُ أنْ أُخاطِبَ النَّاسَ عَلى قَدْرِ عُقُولِهِم**»[(٢)] وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ ها هنا عِلمًا لو أصبتُ له حَمَلته.

وقال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]:

أَأَنثُرُ دُرًّا بَينَ سارِحَةِ النَّعَم ... أَأَنظِمُ مَنثُورًا لِراعِيةِ الغَنَمْ

ومَن مَنَحَ الجُهَّالَ عِلمًا أَضاعَهُ ... ومَن مَنَعَ المُستَوجِبينَ فَقَد ظَلَمْ

ومنها: أنْ يكونَ المُعلِّم عامِلًا بعِلمه، ولا يَكذِبُ قولَه فِعْلُه. قال الله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَصَمَ ظَهري رجلان: عالِمٌ مُتهتِّكٌ، وجاهِلٌ مُتنسِّكٌ[(٤)].

فَصْلٌ في آفاتِ العِلْمِ، وبيانِ عُلماءِ السُّوءِ وعُلماءِ الآخرةِ

عُلماء السُّوء: هم الذين قَصْدُهم مِن العِلم التَّنعُّم بالدُّنيا، والتَّوصُّل إلى المنزلة عند أهلها.

---

(١) ورد في " المطبوع " [التَّعويض].

(٢) رواه الدَّيلميُّ (١٦١١). وقال السَّخاويُّ في «المقاصد الحسنة» (١١١): وقد عزاه شيخنا لمُسنِد الحسين بن سفيان مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «**أُمِرتُ أنْ أُخاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهم**» قال: وسنده ضعيفٌ جدًّا.

(٣) ذكره البيهقيُّ في «مناقب الإمام الشَّافعيِّ» (٢/ ٧٢).

(٤) ذكره ابن المستكفي في «تاريخ اربل» (١/ ١٢٠).

وقد روى أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهَ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَومَ القِيامَةِ**»[١]، يعني: رِيحها. وفي حديثٍ آخر أنَّه قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ**». رواه التِّرمذيُّ[٢]. وفي ذلك أحاديثُ كثيرةٌ.

وقال بعض السَّلف: أَشدُّ النَّاس ندامةً عند الموت عالِمٌ مُفرِّطٌ.

واعلم أنَّ المأخوذ على العالِم أنْ يقوم بالأوامر والنَّواهي، وليس عليه أنْ يكون زاهِدًا ولا مُعرِضًا عن المُباحات، إلَّا أنَّه ينبغي له أنْ يَتقلَّلَ مِن الدُّنيا مهما استطاع؛ لأنَّه ليس كلُّ جسمٍ يَقبَل التَّقلُّل، فإنَّ النَّاس يتفاوتون.

ورُوي أنَّ سفيانَ الثَّوريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كان حَسَن المَطعَم، وكان يقول: إنَّ الدَّابَّة إذا لم تُحسِن إليها في العَلَف لم تَعملْ.

وكان الإمام أحمد بن حنبلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَصبِر في خُشونة العيش على أَمرٍ عظيمٍ، والطِّباع تَتفاوَت.

ومِن صفات عُلماء الآخرة أنْ يَعلَموا أنَّ الدُّنيا حقيرةٌ، وأنَّ الآخرة شريفةٌ، وأنَّهما كالضَّرَّتَين، فهم يُؤثِرون الآخرة، ولا تُخالِف أفعالُهم أقوالَهم، ويكون مَيلُهم إلى العِلم النَّافع في الآخرة، ويَجتنِبون العلوم التي يَقلُّ نفعُها إيثارًا لِمَا يَعظُم نفعه، كما رُوي عن شقيقٍ البلخيِّ[٣] ....

(١) رواه أبو داودَ (٣٥١٧) وابن ماجه (٢٥٢) وأحمدُ (٢/ ٣٣٨) والحاكم (١/ ٨٥) وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وابن حبان (٧٨) وصحَّحه.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٥) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ. أي ضعيفٌ، ويشهد له حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السَّابق.

(٣) شقيق بن إبراهيمَ بن عليٍّ الأزديُّ البلخيُّ، أبو عليٍّ، زاهدٌ صوفيٌّ، مِن مشاهير المشايخ في خُراسانَ،=

أنَّه قال لحاتمٍ[(١)]: قد صَحِبتَني مُدَّةً، فماذا تَعلَّمتَ؟ قال: ثمانِ مسائلَ:

أمَّا الأُولى: فإنِّي نظرتُ إلى الخَلْق، فإذا كلُّ شخصٍ له محبوبٌ، فإذا وَصَل إلى القبر فارَقَه محبوبُه، فجعلتُ محبوبي حَسَناتي؛ لتكونَ في القبر معي.

وأمَّا الثَّانية: فإنِّي نظرتُ إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] فأَجهدتُها في دفع الهوى، حتى استقرَّتْ على طاعة الله تعالى.

وأمَّا الثَّالثة: فإنِّي رأيتُ كلَّ مَن معه شيءٌ له قيمةٌ عنده يحفظه، ثُمَّ نظرتُ في قوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ[(٢)]: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، فكلَّما وَقَع معي شيءٌ له قيمةٌ وجَّهتُه إليه؛ ليَبقَى لي عنده.

وأمَّا الرَّابعة: فإنِّي رأيتُ النَّاس يَرجِعون إلى المال والحَسَب والشَّرف، وليست بشيءٍ، فنظرتُ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فعملتُ في التَّقوى؛ لأكون عنده كريمًا.

= روى عن كثير بن عبد الله الأيليِّ، وإسرائيلَ بن يونسَ، وغيرهما، وعنه حاتمٌ الأصمُّ، وحسنٌ البلخيُّ وغيرهما، ولعلَّه أوَّل مَن تكلَّم في علوم الأحوال الصُّوفيَّة بكور خراسانَ، وكان مِن كبار المُجاهِدين، استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر) سنة ١٩٤هـ. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٩/ ٣١٣)، الأعلام (٣/ ١٧١).

(١) حاتم بن عنوان، أبو عبد الرَّحمن، المعروف بالأصمِّ، زاهدٌ، اشتهر بالورع والتَّقشُّف، روى عن شقيقٍ البلخيِّ، وشدَّاد بن حكيمٍ وغيرِهما، وعنه عبد الله بن سهلٍ الرَّازيُّ، ومحمَّد بن فارسٍ البلخيُّ، وغيرُهما، له كلامٌ مدوَّنٌ في الزُّهد والحِكَم، وشهد بعض معاركَ الفتوح، مات بواشجرد سنة ٢٣٧هـ. وكان يُقال: حاتمٌ الأصمُّ لقمانُ هذه الأُمَّة. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (١١/ ٤٨٤)، «الأعلام» (٣/ ١٥٣).

(٢) ورد في " المطبوع " قوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وأمَّا الخامسة: فإنِّي رأيتُ النَّاس يَتحاسَدون، فنَظرتُ في قوله تعالى[1]: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فتَركتُ الحَسَد.

السَّادسة: رأيتُهم [يتعادَوْنَ][2] فتَركت عَدَواتهم، واتَّخذتُ الشَّيطان وحدَه عَدوًّا.

السَّابعة: رأيتُهم يُذِلُّون أنفسهم في طلب الرِّزق، فنظرتُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، فاشتغلتُ بما له عليَّ، وتركتُ ما لي عنده.

الثَّامنة: رأيتُهم مُتوكِّلين على تجارتهم وصنائعهم وصحَّةِ أبدانهم، فتَوكَّلتُ على الله تعالى.

ومِن صفات عُلماء الآخرة: أنْ يكونوا مُنقبِضِين عن السَّلاطِين، مُحترزِين مِن مُخالَطتِهم.

قال حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: إيَّاكم ومَواقِفَ الفِتَن. قيل: وما هي؟ قال: أبوابُ الأُمَراء، يَدخل أحدكم على الأمير، فيُصدِّقُه بالكذب، ويقول ما ليس فيه[4].

---

(١) ورد في " المطبوع " قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

(٢) ورد في " المطبوع "، فنظرتُ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(٣) حذيفةُ بن اليمان بن جابرٍ العبسيُّ، مِن نُجباء أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، له ولأبيه صحبةٌ، وهو صاحب السِّرِّ، روى عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن عمرَ، وحدَّث عنه جابرٌ وجندب وعبد اللّه بن يزيد وأبو وائلٍ، وزرُّ بن حبيشٍ، وغيرهم، توفِّي سنة (٣٦). انظر «الإصابة»، ابن حَجرٍ العسقلانيُّ، (٢/ ٣٩)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٢/ ٣٦٢)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٢/ ١٧١).

(٤) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان»، رقم الحديث (٨٩٦٥)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٧).

وقال سعيد بن المُسيِّب[١]: إذا رأيتُم العالِم يغشَى الأمراء فاحذروا منه، فإنه لِصٌّ[٢].

وقال بعض السَّلف: إنَّك لا تُصيب مِن دُنياهم شيئًا إلَّا أَصابُوا مِن دِينك أفضل منه[٣].

ومِن صفات علماء الآخرة: أَلَّا يَتسرَّعُوا إلى الفتوى، وأَلَّا يُفتُوا إلَّا بما يَتيقَّنون صِحَّته، وقد كان السَّلف يَتدافَعون الفتوى حتى تَرجِع إلى الأوَّل.

وقال عبد الرَّحمن بن أبي ليلى[٤]: أدركتُ في هذا المسجد مائةً وعشرين مِن أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما أَحدٌ يُسأَل عن حديثٍ أو فتوى إلَّا وَدَّ أنْ أخاه كَفَاه ذلك، ثُمَّ قد آل الأمر إلى [أَقوامٍ][٥] يدَّعون العلم اليوم، يُقدِمون على الجواب في مسائلَ لو عُرِضت لعمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَجمع أهل بدرٍ، واستشارهم[٦].

ومِن صفاتهم: أنْ يكونَ أكثر بحثهم في علم الأعمال عمَّا يُفسِدها، ويُكدِّر القلوب، ويُهيِّج الوساوس، فإنَّ صُوَر الأعمال قريبةٌ سهلةٌ، وإنَّما التَّعب في تَصفِيتها، وأصل الدِّين التَّوقِّي مِن الشَّرِّ، ولا يصحُّ أنْ يَتوقَّى حتى يعرفَ.

---

(١) سعيد بن المُسيِّب بن حزنٍ أبو محمَّدٍ القُرشيُّ المخزوميُّ، الإمام، العَلَم، عالِم أهل المدينة، سيِّد التَّابعين في زمانه، ولد بالمدينة لسنتَين مضتا مِن خلافة عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رأى عمرَ، وسمع عثمانَ، وعليًّا، وزيد بن ثابتٍ، وأبا موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وغيرهم مِن الصَّحابة وروى عنهم، روى عنه خَلْقٌ، منهم إدريسُ بن صبيحٍ، وأسامةُ بن زيدٍ اللَّيثيُّ، وإسماعيلُ بن أمَيَّةَ، وغيرهم، وتوفي سنة (٩٤هـ). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ٢١٧)، «الأعلام» (٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه الدَّيلميُّ في «الفردوس» عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأشار له السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» بالحسن عند الحديث رقم (٦٢٨).

(٣) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان»، رقم الحديث (٨٩٦١) عن عطاءٍ، وقال: رُوِي مِن وجهٍ ضعيفٍ مَرفوعًا.

(٤) عبد الرَّحمن ابن أبي ليلى محمَّد بن عبد الرَّحمن الأنصاريُّ الكوفيُّ، الإمام مفتي الكوفة وقاضيها، ولد سنة نيِّفٍ وسبعين، أخذ عن الشَّعبيِّ ونافع وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، وحدَّث عنه شعبةُ وسفيانُ بن عيينةَ وغيرهما، وكان نظيرًا للإمام أبي حنيفةَ في الفقه، توفِّي سنة ١٤٨هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣١٠).

(٥) ورد في "المطبوع" [إقدام أقوام].

(٦) أخرجه بمعناه الدَّيلميُّ في «الفردوس» رقم الحديث (١٣٧)، والدَّارميُّ في «سُنَنه» رقم الحديث (١٣٥)، دون ذِكر عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ومِن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشَّرعيَّة، والملاحظة لحكمها، فإنْ عَجَز عن الاطِّلاع على العِلَّة كفاه التَّسليم للشَّرع.

ومِن صفاتهم: اتِّباع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم [وخِيار][1] التَّابعِين، وتَوقِّي كلِّ مُحدَثٍ.

---

(١) ورد في "الأصل، خ" [وأخبار].

كتاب الطّهارة وأسرارها، والصلاة وما يتعلق بها

اعلم أنَّ الطَّهارة لها أربعُ مراتبَ:

الأُولى: تطهير الظَّاهر مِن الأحداث والأنجاس والفَضَلات.

والثَّانية: تطهير الجوارح مِن الذُّنوب والآثام.

والثَّالثة: تطهير القلب مِن الأخلاق المذمومة، والرَّذائل الممقوتة.

والرَّابعة: تطهير السِّرِّ عمَّا سِوى الله تعالى، وهذا هو الغاية القُصوى، فمَن قَوِيتْ بصيرته سَمَتْ إلى هذا المطلوب، ومَن عَمِيتْ بصيرته لم يَفهمْ مِن مَراتب الطَّهارة إلا المرتبة الأُولى، فتَراه يُضيِّع أكثرَ زمانه الشَّريف في المُبالَغة في الاستنجاء، وغسل الثِّياب، ظنًّا منه بحُكم الوسوسة، وقِلَّة العلم أنَّ الطَّهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلًا بسِيَر المُتقدِّمين الذين كانوا يَستغرِقون الزَّمان [بتطهير][1] القلوب، ويَتساهَلون في أمر الظَّاهر، كما رُوي عن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه تَوضَّأ مِن جَرَّةِ نَصرانيَّةٍ، وكانوا لا يكادون يَغسِلون أيديهم مِن الزُّهم[2]، ويُصلُّون على الأرض، ويَمشُون حُفاةً، ويَقتصرون في الاستجمار على الأحجار.

وقد انتهى الأمر إلى قومٍ يُسمُّون الرُّعونة نظافةً، فترى أكثرَ زمانهم يمضي في تزيين الظَّواهر، وبواطنهم خرابٌ محشوَّةٌ بخبائث الكِبْر والعُجْبِ، والجهل، والرِّياء، والنِّفاق، ولو رأَوا مُقتصِرًا على الاستجمار على الحَجَر، أو حافيًا يمشي على الأرض، أو مَن يُصلِّي عليها مِن غير حائلٍ، أو مُتوضِّئًا مِن آنية عجوزٍ لَأنكروا عليه أشدَّ الإنكار،

---

(١) ورد في "المطبوع، ن، خ" [في تطهير].

(٢) الزهم: الوسخ الدسم. انظر «لسان العرب» مادة (ز ه م).

ولقَّبوه بالقَذِر، واستنكفوا مِن مُؤاكَلته، فانظر كيف جَعَلوا البذاذة التي هي مِن الإيمان قذارةً، والرُّعونةَ نظافةً، وصيَّروا المُنكَر معروفًا، والمعروف مُنكَرًا، لكن مَن قَصَد بهذه الطَّهارة النَّظافة، ولم يُسرِف في الماء، ولم يَعتقدْ أنَّ استعمالَ الماء الكثير أصل الدِّين، فليس ذلك بمُنكَرٍ، بل هو فِعلٌ حَسَنٌ، وليُرجَع في معرفة الأنجاس والأحداث إلى كُتُب الفقه، فإنَّ المقصود مِن هذا الكتاب الآداب.

وأمَّا إزالة الفضلات، فهي نوعان:

أوساخٌ تُزالَ، كالذي يجتمع في الرَّأس مِن الوسخ والدَّرن، فيُستحَبُّ تنظيفه بالغسل والتَّرجيل[١] والتَّدهين؛ لإزالة الشَّعَث، وكذلك ما يَجتمع في الأُذُن والأنف مِن الوسخ يُستحَبُّ إزالته.

ويُستحَبُّ التَّسوُّك والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللِّسان مِن القَلَح[٢]، وكذلك وسخ البَرَاجِم[٣]، والدَّرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العَرَق، وغُبار [الطَّرق][٤]، وذلك يُزيله الغسل.

ولا بأسَ بدخول الحمَّام، فإنَّه أبلغُ في الإزالة، وقد دَخَله جماعةٌ مِن أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنْ على داخله صيانةُ عورته مِن نَظَرِ الغير إليها، ولَمسِه إيَّاها، وينبغي للدَّاخل إليه أنْ يَتذكَّر بحرارته حرَّ النَّار، فإنَّ فِكَر المؤمن لا [تزال تَجول][٥] في كلِّ شيءٍ مِن أمور الدُّنيا، فيَذكُر به أمور الآخرة؛ لأنَّ الغالب على المُؤمِن أَمرُ الآخرة، وكلُّ إناءٍ ينضح بما فيه، أَلَا ترى أنَّه لو دخل إلى دارٍ معمورةٍ بَزَّازٌ، ونَجَّارٌ،

---

(١) تَرجِيل الشَّعر: تَسريحُه وتنظيفه. «لسان العرب» (ر ج ل).

(٢) القَلَح: وسخ الأسنان. «لسان العرب» مادة (ق ل ح).

(٣) البَراجِم: عُقَد أصابع اليدَين. «لسان العرب» مادة (ب ر ج م).

(٤) ورد في "المطبوع، خ" [الطُّرق].

(٥) ورد في "المطبوع" [يزال يَجول]، وفي "ن" [يزال تجول].

وبَنَّاءٌ، وحائكٌ رأيتَ البزّاز ينظر إلى الفَرْش يتأمَّل قِيمتها، والحائك ينظر إلى نَسج الثِّياب، والنَّجّار ينظر إلى سَقْف الدَّار، والبَنَّاء ينظر إلى الحائط، فكذلك المؤمن إنْ رأى ظلمةً ذكرَ ظلمةَ القبر، وإنْ سمع صوتًا هائلًا تَذكَّر نفخة الصُّور، وإنْ رأى نعيمًا ذَكَر نعيم الجَنَّة، وإنْ رأى عذابًا ذَكَر النَّار.

ويُكرَه دُخول الحمَّام قريبًا مِن الغروب، وبين العِشاءَين، فإنَّه وقت انتشار الشَّياطين.

النَّوع الثَّاني مِن إزالة الفضلات: أجزاءٌ تُحذَف، مِثل قصِّ الشَّارِب، ونَتْف الإبط، وحَلْق العانة، وقصِّ الأظافر، ويُكرَه نَتف الشَّيْب، ويُستحَبُّ خِضابه، وباقي مراتب الطَّهارة يأتي في رُبع المُهلِكات والمُنجِيات إنْ شاء الله تعالى.

فَصْلٌ

وأمَّا الصَّلاة فإنَّها عِمَادُ الدِّين، وغُرَّة الطَّاعات، وقد ورد في فضائل الصَّلاة أخبارٌ كثيرةٌ مشهورةٌ، ومِن أَحسَن آدابها الخشوع.

وقد رُوي عن عثمانَ بن عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**ما مِن امرِئٍ تَحضُرُه صَلاةٌ مَكتُوبَةٌ، فَيُحسِنُ وُضُوءَها وَخُشوعَها وَرُكُوعَها إلَّا كانَتْ لَه كَفَّارَةً لِمَا قَبلَها مِن الذُّنُوب ما لَم يَأتِ كَبِيرَةً، وذَلِكَ الدَّهرَ كُلَّهُ**»(١).

وله حديثٌ أيضًا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ صَلَّى رَكعَتَينِ لا يُحدِّثُ فِيهِما نَفسَهُ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه**»(٢).

وكان ابن الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قام في الصَّلاة كأنَّه عُودٌ مِن الخشوع، وكان يَسجُد فتَنزل العصافير على ظَهْره لا تَحسبه إلَّا جِذْعَ حائطٍ، وصلَّى يومًا في الحجر فجاء حجر قذافة، فذهب ببعض ثوبه فما انفتل(٣).

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٢٨).

(٢) رواه البخاريُّ (١٥٨) و(١٦٢)، ومسلمٌ (٢٢٦).

(٣) جزءٌ مِن حديثٍ أخرجه البخاريُّ رقم (١٦٤) ورقم (٢) هي شرحٌ للرَّقم (٣)، القذافة: المنجنيق.

وقال ميمون بن مِهرانَ[١]: ما رأيتُ مسلمَ بن يَسارٍ[٢] مُلتفِتًا في صلاةٍ قطُّ، ولقد انهَدَمَت ناحيةٌ مِن المسجد، ففَزِع أهل السُّوق لهَدمِها، وإنَّه لَفي المسجد يُصلِّي، فما التفتَ[وكان أهل بيته إذا دخل المسجد سكتوا فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا][٣].

وكان عليُّ بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٤] إذا توضَّأ اصفرَّ لَونه، فقيل له: ما هذا الذي يَعتادُك عند الوضوء؟ فقال: أتدرُونَ بين يدَي مَنْ أُريد أنْ أَقوم؟[٥]

واعلم أنَّ للصَّلاة أركانًا، وواجباتٍ، وسُننًا، ورُوحُها النِّيَّة والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإنَّ الصَّلاة تَشتمِل على أذكارٍ، ومناجاةٍ، وأفعالٍ، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة؛ لأنَّ النُّطق إذا لم يُعرِب عمَّا في الضَّمير كان بمنزلة الهَذَيان، وكذلك لا يحصل المقصود مِن الأفعال؛ لأنَّه إذا كان المقصود مِن القيام الخدمة، ومِن الرُّكوع والسُّجود الذُّلُّ والتَّعظيمُ، ولم يكنِ القلب حاضرًا، لم يحصل المقصود، فإنَّ الفعل متى خَرَج عن مقصوده بَقِي صورةً لا اعتبارَ [بها][٦]،

---

(١) ميمون بن مهران الرَّقيُّ الجزريُّ، أبو أيُّوبَ، فقيهٌ مِن القضاة، كان مولًى لامرأةٍ بالكوفة، وأعتقته، فنشأ فيها، ثُمَّ استوطن الرَّقَّة مِن بلاد الجزيرة الفراتيَّة، حدَّث عن أبي هريرةَ، وعائشةَ، وابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهم، وعنه ابنه عمرٌو، وجعفر بن إياسٍ وغيرهما، وكان ثقةً في الحديث، توفِّي سنة (١١٧). انظر «سِير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٧١)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٣٤٣).

(٢) مسلم بن يسارٍ أبو عبد الله البصريُّ، روى عن عبادة بن الصَّامت، وابن عبَّاسٍ، وابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهم، حدَّث عنه محمَّد بن سيرينَ، وقتادةُ، وثابتٌ البُنانيُّ، توفِّي سنة (١٠٨). انظر «سِير أعلام النُّبلاء، الذَّهبيُّ، (٤/ ٥١٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٢٢٣).

(٣) سقطت من "المطبوع".

(٤) عليُّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالبٍ الهاشميُّ، حدَّث عن أبيه الحسين الشَّهيد، وعن جدِّه مُرسلًا، وعن صفيَّة أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهم، وحدَّث عنه أولاده أبو جعفرٍ محمَّد، وعمرُ، وزيدٌ المقتول، وعبد الله، والزُّهريُّ، وغيرهم، توفِّي سنة (٦١). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٢٨٦)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٤/ ٢٧٧).

(٥) رواه الشَّعرانيُّ في «الطَّبقات الكبرى» (١/ ٢٧).

(٦) ورد في " المطبوع، ن " [لها].

قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]. والمقصود أنَّ الواصل إلى الله سبحانه هو الوصف الذي استولَى على القلب حتى عَمِل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بدَّ مِن حُضور القلب في الصَّلاة، ولكنْ يُسامِح الشَّارع في غفلةٍ تَطرأُ؛ لأنَّ حضور القلب في أوَّلها يَنسحِب حُكمه على باقيها.

والمعاني التي تتمُّ بها حياة الصَّلاة كثيرةٌ:

منها حضورُ القلب كما ذَكَرنا، ومعناه أنَّ يُفرَّغ القلب مِن غير ما هو مُلابِسٌ له، وسبب ذلك الهِمَّة، فإنَّه متى أَهمَّك أمرٌ حَضَر قلبك ضرورةً، فلا علاجَ لإحضاره إلَّا صرفَ الهِمَّة إلى الصَّلاة، وانصراف الهِمَّة يَقوَى ويضعف بحسب قوَّة الإيمان بالآخرة واحتقار الدُّنيا، فمتى رأيتَ قلبك لا يحضر في الصَّلاة فاعلمْ أنَّ سببَه ضعفُ الإيمان، فاجتهد في تقويته.

المعنى الثَّاني: التَّفهُّم لمعنى الكلام، فإنَّه أَمرٌ وراءَ حضور القلب؛ لأنَّه ربَّما كان القلب حاضرًا مع اللَّفظ دون المعنى، فينبغي صرفُ الذِّهن إلى إدراك المعنى بدفع الخَواطر الشَّاغلة، وقطع مَوادِّها، فإنَّ الموادَّ إذا لم تنقطعْ لم تَنصرِفِ الخواطر عنها.

والموادُّ إمَّا ظاهرةٌ، وهي ما يَشغل السَّمع والبصر، [أو][1] باطنةٌ وهي أَشدُّ، كمَن تَشعَّبَت به الهموم في أودية الدُّنيا، فإنَّه لا ينحصر فِكره في فَنٍّ واحِدٍ، ولم يُغنِه غضُّ البصر؛ لأنَّ ما وقع في القلب كافٍ في الاشتغال به، وعلاجُ ذلك إنْ كان مِن الموادِّ الظَّاهرة بقَطْع ما يشغل السَّمع والبصر، وهو القُرب مِن القِبلة، والنَّظر إلى مَوضِع سجوده، والاحتراز في الصَّلاة مِن المواضع المنقوشة، وألَّا يتركَ عنده ما يَشغل حِسَّه، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما صلى في أَنبِجانيةٍ[2] لها أعلامٌ، نزعها وقال: «**إنَّها أَلهَتْني آنِفًا عن صَلاتِي**»[3].

---

(١) ورد في "المطبوع" [وإمَّا].

(٢) الأنبِجانيَّة: كِساءٌ له خمل، وقيل الانبجانيَّة: الغَلِيظ مِن الصُّوف. «جامع الأصول» (٥/ ٤٦٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٧٣) ومسلمٌ (٥٥٦).

وإنْ كان مِن الموادِّ الباطنة فطريق عِلاجه أنْ يردَّ النَّفْس قَهْرًا إلى ما يقرأ في الصَّلاة، ويُشغِلَها به عن غيره، [ويَستعدَّ لذلك قَبل الدُّخول في الصَّلاة، بأنْ يَقضيَ أشغاله، ويجتهدَ في تفريغ قلبه، ويجدِّدَ على نفسه ذِكْر الآخرة، وخَطَر القيام بين يدَي الله عَزَّوَجَلَّ، وهول المَطلَع، فإنْ لم تَسكنِ الأفكار بذلك، فلْيَعلَمْ أنَّه إنَّما يَتفكَّر فيما أهمَّه واشتهاه، فلْيَترك تلك الشَّهوات، ولْيَقطَع تلك العلائق.

واعلم أنَّ العِلَّة متى تَمكَّنت لا ينفعها إلَّا الدَّواء القويُّ، والعِلَّة إذا قَويت جاذبت المُصلِّيَ وجاذَبها إلى أنْ تنقضيَ الصَّلاة في [المحاربة][(١)]، ومَثَل ذلك كمَثَل رَجلٍ تحت شجرةٍ، أراد أنْ يَصفوَ له فِكْره، وكانت أصوات العصافير تُشوِّش عليه، وفي يده خَشبةٌ يُطيِّرها بها، فما يَستقِرُّ فِكْره حتى تَعودَ العصافير، فيَشتغِل بها، فقيل له: هذا شيءٌ لا ينقطع، فإنْ أردتَ الخلاص فاقطع الشَّجرة، فكذلك شجرة الشَّهوة إذا عَلَت وتَفوَّقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار كانجذاب العصافير إلى الأشجار، والذُّبابِ إلى الأقذار، فذهب العُمُر النَّفيس في دَفْع ما لا يندفعُ، وسبب هذه الشَّهوة التي تُوجِب هذه الأفكار حُبُّ الدُّنيا.

قيل لعامر بن عبد قيسٍ[(٢)]: هل تُحدِّثك نفسك في شيءٍ مِن أمور الدُّنيا في الصَّلاة؟ فقال: لَأَنْ تَختَلِفَ الأَسِنَّةُ فِيَّ أَحَبُّ إليَّ مِن أنْ أجدَ هذا[(٣)].

واعلم أنَّ قطع حُبِّ الدُّنيا عن القلب أمرٌ صعبٌ، وزواله بالكُلِّيَّة عزيزٌ، فليقع الاجتهاد في المُمكِن منه، والله المُوفِّق [المغني][(٤)].

---

(١) ورد في "المطبوع "[المُجاذَبة] وفي "خ "[الجازية].

(٢) عامر بن عبد قيس التَّميميُّ العنبريُّ البصري، روى عن عمرَ، وسلمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيرهما، وعنه الحسن، ومحمد بن سيرينَ، وغيرهما، توفِّي في زمن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ١٥).

(٣) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الأيمان»، الحديث (٢٨٩٦).

(٤) ورد في "المطبوع، خ "[المُعين].

الثَّالث: التَّعظيم لله والهيبة، وذلك يَتولَّد في شيئَين: معرفةُ جلال الله تعالى وعظمتِه، ومعرفةُ حقارة النَّفْس، وأنَّها مُستعبَدةٌ، فيَتولَّد مِن المَعرفتَين الاستكانة والخشوع.

ومِن ذلك الرَّجاء: فإنَّه زائدٌ على الخوف، فكم مِن مُعظِّمٍ مَلِكًا يهابه لخوف سطوته [ولا يرجو][(١)] بِرَّه.

والمُصلِّي ينبغي أنْ يكون راجيًا بصلاته الثَّواب، كما يخاف مِن تقصير العقاب، وينبغي للمُصلِّي أنْ يحضر قلبه عند كلِّ شيءٍ مِن الصَّلاة، فإذا سَمِع نداء المُؤذِّن فليمثل النِّداء للقيامة، ويشمِّر للإجابة، ولينظر ماذا يُجيب، وبأيِّ بَدَنٍ يحضر، وإذا ستر عورته، فلْيَعلَم أنَّ المُراد مِن ذلك تغطية فضائح بَدَنِه عن الخَلْق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سِرِّه التي لا يَطَّلِع عليها إلَّا الخالقُ، وليس لها عنه ساترٌ، وأنَّها يُكفِّرُها النَّدم، والحياء، والخوف.

وإذا استقبل القِبلة فقد صَرَف وجهه عن الجِهات إلى جهة بيت الله، فصَرْف قلبِه إلى الله تعالى أَولى مِن ذلك، فكما أنَّه لا يَتوجَّه إلى جهة البيت إلَّا بالانصراف عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلَّا بالانصراف عمَّا سِواه.

وإذا كبَّرت أيُّها المُصلِّي فلا يُكذِّبَنَّ قلبك لسانك، إلَّا إذا كان في قلبك شيءٌ أكبر مِن الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أنْ يكونَ الهوى عندك أكبر، بدليل إيثارك مُوافَقته على طاعة الله تعالى.

فإذا استعذتَ فاعلم أنَّ الاستعاذة هي [إلجاء][(٢)] إلى الله سبحانه، فإذا لم تَلجأْ بقلبك كان كلامك لغوًا، وتفهَّمْ معنى ما تتلو، وأَحضِر التَّفهُّم بقلبك عند قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، واستحضر لُطْفه عند قولك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وعَظَمته عند قولك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وكذلك في جميع ما تتلو.

---

(١) ورد في "المطبوع" [كما يرجو].

(٢) ورد في "المطبوع، خ" [لجأ].

وقد روينا عن [دازان][١] بن أبي أوفى أنَّه قرأ في صلاته: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] فخرَّ ميتًا[٢]. وما ذاك إلاَّ لأنَّه صوَّر تلك الحال، فأثَّرت عنده التَّلف.

واستشعِرْ في ركوعك التَّواضُع، وفي سُجودك زِيادة الذُّلِّ؛ لأنَّك وضعت النَّفْس مَوضِعَها، ورَدَدت الفرع إلى أصله بالسُّجود على التُّراب الذي خُلِقت منه، وتَفهَّمْ معنى الأذكار بالذَّوق.

واعلم أنَّ أداء الصَّلاة بهذه الشُّروط الباطنة سببٌ لجلاء القلب مِن الصَّدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتملح عظمة المعبود، وتَطَّلع على أسراره وما يعقلها إلَّا العالِمون.

فأمَّا مَن هو قائمٌ بصورة الصَّلاة دون معانيها فإنَّه لا يَطَّلع على شيءٍ مِن ذلك، بل يُنكِر وجوده.

فصلٌ في آدابٍ تتعلَّقُ بصلاةِ الجُمُعةِ ويومِ الجُمُعةِ

وهي نحوٌ مِن خمسةَ عشرَ:

أحدها: أنْ يَستعدَّ لها مِن يوم الخميس، وفي ليلة الجُمُعة بالتَّنظِيف، وغَسل الثِّياب، وإعداد ما يصلح لها.

الثَّاني: الاغتسال في يَومِها، كما جاء في الأحاديث في «الصَّحيحَين»[٣] وغيرها، والأفضل في الاغتسال أنْ يكون قَبل الرَّواح إليها بزَمَنٍ يسيرٍ.

الثَّالث: التَّزيُّن بتنظيف البَدَن، وقصِّ الأظفار، والسِّواك، وغير ذلك ممَّا تَقدَّم مِن إزالة الفضلات، ويَتطيَّبُ، ويَلبَس أَحسَن ثيابه.

---

(١) ورد في " المطبوع، خ "[زرارة].

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» الحديث (٩١١)، والحاكم (٢/ ٥٠٦)، وسكت عنه الذهبي، وعزاه السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور (٨/ ٣٢٨) تفسير سورة المدثر أيضًا إلى ابن سعدٍ.

(٣) بلفظ «الغُسلُ يَومَ الجُمُعةِ واجِبٌ عَلى كُلِّ مُحتَلِمٍ». رواه البخاريُّ (٨٥٨)، ومسلمٌ (٨٤٦).

الرَّابع: التَّبكير إليها ماشيًا، وينبغي للسَّاعي إلى الجامع أنْ يَمشيَ بسكونٍ وخشوعٍ، وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خُروجه.

الخامس: ألَّا يَتخطَّى رِقاب النَّاس، ولا يُفرِّق بين اثنين إلَّا أنْ يرَى فُرجةً فيَتخطَّى إليها.

السَّادس: ألَّا يَمرَّ بين يدَي المُصلِّي.

السَّابع: أنْ يطلبَ الصَّفَّ الأوَّل، إلَّا أنْ يرَى مُنكرًا أو يَسمعه، فيكون له في التَّأخر عُذرٌ.

الثَّامن: أنْ يَقطعَ التَّنفُّل مِن الصَّلاة والذِّكر عند خروج [الإمام][1]، ويَشتغلَ بإجابة المُؤذِّن، ثُمَّ باستماع الخُطبة.

التَّاسِع: أنْ يُصلِّي السُّنَّة بعد الجُمُعة إنْ شاء ركعتَين، وإنْ شاء أربعًا، وإنْ شاء سِتًّا.

العاشر: أنْ يُقيمَ في المسجد حتى يُصلِّي العصر، وإنْ أقام إلى المغرب فهو أفضلُ.

الحادي عشرَ: أنْ يُراقِب السَّاعة الشَّريفة التي في يوم الجُمُعة بإحضار القلب، ومُلازَمة الذِّكر.

واختُلف في هذه السَّاعة، ففي أفراد مسلمٍ[2] مِن حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّها ما بين أنْ يجلس الإمام [في الخطبة][3]، وفي حديثٍ آخَرَ: هي ما بين فَراغ الإمام مِن الخُطبة إلى أنْ [يقضي][4] الصَّلاة[5].

---

(١) ورد في "المطبوع" [الإمام مِن صومعته].

(٢) رواه مسلمٌ (٨٥٣).

(٣) سقطت من "المطبوع، خ"، وفيهما زيادة [إلى أنْ تُقضَى الصَّلاة].

(٤) ورد في "المطبوع" [تُقضَى].

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٤٩٠)، وابن ماجه (١١٣٨)، ولفظ الترمذي: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ في الجُمُعَةِ سَاعَةً لا يَسْأَلُ اللَّهَ العَبْدُ فِيهَا شَيْئًا إلَّا آتاهُ اللَّهُ إيَّاهُ**». قالوا: يا رسول الله، أيَّة ساعةٍ هي؟ قال: «**حِينَ تُقَامُ الصَّلاةُ إِلَى انْصِرَافٍ مِنْهَا**». وفي سنده كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المُزنيُّ وهو ضعيفٌ، ومع ذلك فقد قال التِّرمذيُّ: حَسنٌ غريبٌ.

وفي حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّها آخرُ ساعةٍ بعد العصر(١).

وفي حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**التَمِسُوه ما بَينَ صَلاةِ العَصرِ إلى غُرُوبِ الشَّمسِ**»(٢).

وقال أبو بكرٍ الأثرم(٣): لا تَخلو هذه الأحاديث مِن وجهَين: إمَّا أنْ يكونَ بعضها أصحُّ مِن بعضٍ، وإمَّا أنْ [يكونَ](٤) هذه السَّاعة تَنتقِل في الأوقات كتَنَقُّل ليلة القدر [في ليالي العشر](٥).

الثَّاني عشرَ: أنْ يُكثِر مِن الصَّلاة على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا اليوم، فقد رُوي عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ في يَومِ الجُمُعَةِ ثَمَانِينَ مَرَّةً غَفَرَ اللهُ لَه ذُنُوبَ ثَمَانِينَ سَنَةً**»(٦). وإنْ أَحبَّ زاد في الصَّلاة عليه الدُّعاء له، كقوله: «**اللَّهمَّ آتِ مُحمَّدًا الوُسِيلةَ والفَضِيلةَ، والدَّرَجَةَ الرَّفِيعَة، وابعَثْهُ المَقامَ المَحمودَ الذي وَعَدتَهُ، اللَّهمَّ اجْزِ نَبِيَّنَا عنَّا ما هُو أَهلُه**».

وليُضِف إلى الصَّلاة الاستغفار، فإنَّه مُستحَبٌّ في ذلك اليوم.

---

(١) رواه أبو داودَ (١٠٤٨)، والنَّسائيُّ في «الصُّغرى» (١٣٨٩)، وصحَّحه الحاكم الحديث (١٠٣٢)، ووافقه الذَّهبيُّ.

(٢) وأورد الحافظ المنذريُّ في التَّرغيب والتَّرهيب (١/ ٤٩٤)، وقال راوه التِّرمذيُّ وقال: حديثٌ غريبٌ. ورواه الطَّبرانِيُّ في «الكبير» مِن رواية ابن لهيعة الحديث (٧٤٧)، وزاد في آخِره وهي قَدْر هذا يعني قَبضةً وإسناده أصلحُ مِن إسناد التِّرمذيِّ.

(٣) أحمدُ بن محمَّد بن هانئٍ الطَّائيُّ، أو الكلبيُّ، الإسكافيُّ، أبو بكرٍ الأثرم، مِن حفَّاظ الحديث، أخذ عن الإمام أحمد وآخرين، وسمع مِن أحمد بن أسحاقَ الحضرميّ وأبو نُعيمٍ، والقعنبيِّ وغيرهم، وحدَّث عنه النَّسائيُّ في «سننه»، وموسى بن هارونَ وغيرهما، له كتابٌ في عِلل الحديث، وآخر في السُّنن، توفِّي سنة (٢٦١). انظر: «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٢/ ٦٢٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (١/ ٢٠٥).

(٤) ورد في "المطبوع" [تكون].

(٥) سقطت من "خ".

(٦) قال العراقيُّ في «المغني» (٢/ ٤٩): أخرجه الدَّارقطنيُّ مِن رواية ابن المُسيِّب، قال: أظنُّه عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: حديثٌ غريبٌ. وقال ابن النُّعمان: حديثٌ حَسَنٌ.

الثَّالثَ عشرَ: أنْ يقرأَ سورة الكهف، فقد جاء في حديثٍ مِن رواية عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها أنَّها قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِسُورَةٍ مَلأَ عِظَمُهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلِكَاتِبِهَا مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَرَأَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ مَا [بَيْنَها]**[١] **وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ قَرَأَ الْخَمْسَ الأَوَاخِرَ مِنْهَا عِنْدَ نَوْمِهِ بَعَثَهُ اللَّهُ تعالى أَيَّ اللَّيْلَ شَاءَ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**سُورَةُ الكَهْفِ**»[٢]. ورُوي في حديثٍ آخرَ: «**أنَّ مَنْ قَرَأَهَا في يَومِ الجُمُعَةِ، أَو لَيلَةِ الجُمعةِ وُقِيَ الفِتنةَ**»[٣].

ويُستحَبُّ أنْ يُكثِرَ مِن قراءة القرآن في يوم الجُمُعة، وأنْ يختمَ فيه أو في ليلة الجُمُعة إنْ قدر.

الرَّابعَ عشرَ: أنْ يَتصدَّقَ في يوم الجمعة بما أَمكَن، [وليكُن][٤] صَدَقَته خارج المسجد.[٥]

الخامسَ عشرَ: يُستحَبُّ أنْ يَجعَلَ يوم الجُمُعة لأعمال الآخرة، ويكفَّ عن جميع أشغال الدُّنيا.

فَصْلٌ فِي ذِكْرِ النَّوافِلِ

واعلم أنَّ ما عدا الفرائض مِن الصَّلاة ثلاثةُ أقسامٍ:

سُننٌ، ومُستحبَّاتٌ، وتَطوُّعاتٌ.

---

(١) ورد في "المطبوع" [بينه].

(٢) أورده السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٤٩٦٩)، والمتَّقي الهنديُّ في «كنز العمال» (٢٥٩٥)، وقال السُّيوطيُّ: رواه ابن مردويه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها.

(٣) رواه الضِّياء المقدسيُّ في «الأحاديث المختارة» الحديث (٤٣٠) مِن طريق عبد الله بن مصعبٍ، عن منظور بن زيد بن خالدٍ الجُهنيِّ، عن عليِّ بن الحسين، عن أبيه، عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بلفظ قريب، وروى مسلمٌ (٨٠٩)، وأبو داودَ (٤٣٢٣)، والتِّرمذيُّ (٢٨٨٨) عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّ رسول الله قال: «**مَنْ حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورةِ الكَهفِ عُصِمَ مِن فِتنةِ الدَّجالِ**».

(٤) ورد في "المطبوع، خ" [ولتكن].

(٥) ورد في "المطبوع" زيادة [ويُستحَبُّ أنْ يُصلِّيَ صلاةَ التَّسبيح في يوم الجُمُعة].

ونَعني بالسُّنَّة ما نُقِل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المُواظَبة عليه، كالرَّواتب عَقِيب الفرائض والوتر [والضحى][1].

ونعني بالمُستحَبِّ ما ورد الخبر بفَضْله، ولم تُنقَلِ المُواظَبة عليه، كالصَّلاة عند دُخول المنزل، والخروج منه.

ونعني بالتَّطوُّعات ما وراء ذلك ممَّا لم يَرِدْ به خبرٌ، لكنَّ العبد يَتطوَّع بفعله، وتُسمَّى هذه الأقسام الثَّلاثة نوافلُ؛ لأنَّ النَّفل هو زيادةٌ، وهذه زيادةٌ على الفرائض.

واعلمْ أنَّ أفضل تَطوُّعات البَدَن الصَّلاة.

وأقسام النَّوافل وفَضائلُها مشهورةٌ مذكورةٌ في كُتُب الفقه وغيرها، لكن نَذكر منها صلاة التَّسبيح؛ لأنَّها قد تَخفى صِفتها على بعض [النَّاس][2].

فروى عكرمةُ[3]، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للعبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا عَمَّاهُ، أَلا أُعطِيكَ، أَلا أُعَلِّمُكَ**». وذكر الحديث إلى أنْ قال: «**تُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، تَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَةً، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ، وَأَنْتَ قَائِمٌ قُلْتَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً، ثُمَّ تَرْكَعُ، فَتَقُولُهَا وَأَنْتَ رَاكِعٌ عَشْرًا، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ، فَتَقُولُهَا عَشْرًا، ثُمَّ**

---

(١) سقطت من " المطبوع، خ ".

(٢) سقطت من " ن ".

(٣) عكرمةُ بن عبد الله البربريُّ المدنيُّ، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، تابعيٌّ، كان مِن أعلم النَّاس بالتَّفسير والمغازي، طاف البلدان، وروى عنه زُهاء ثلاثُمائة رجل، منهم أكثر مِن سبعين تابعيًّا، وذهب إلى نجدةَ الحروريِّ، فأقام عنده ستَّة أشهرٍ، ثُمَّ كان يحدِّث برأي نجدةَ، وخرج إلى بلاد المغرب، وعاد إلى المدينة، فطلبه أميرها، فتغيَّب عنه حتى مات، وكانت وفاته بالمدينة هو وكُثيِّر عَزَّةَ في يوم واحدٍ، فقيل: مات أعلم النَّاس وأشعر النَّاس. (٢٥-١٠٥هـ=٦٤٥-٧٢٣م). (انظر: حلية الأولياء، أبو نُعيم، ٣/ ٣٢٦، تهذيب التَّهذيب، ابن حجر العسقلانيُّ، ٣/ ١٣٤، وَفَيات الأعيان، ابن خِلِّكان، الأعلام، الزِّركليُّ، ٤/ ٢٤٤).

تَهْوِي سَاجِدًا، فَتَقُولُهَا وَأَنْتَ سَاجِدٌ عَشْرًا، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا عَشْرًا، ثُمَّ تَسْجُدُ، فَتَقُولُهَا عَشْرًا، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ، فَتَقُولُهَا عَشْرًا قَبلَ أَنْ تَقُومَ، فَذَلِكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ، تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، فَفِي عُمُرِكَ مَرَّةً»[١].

فَصْلٌ

[ولا يُتطوَّع][٢] في أوقات النَّهي بصلاةٍ لا سببَ لها، كصلاة التَّسبيح؛ لأنَّ النَّهيَ مُؤكَّدٌ فيها عن الصَّلاة، وهذه الأشياء ضعيفةٌ، فلا تُقاوِمه، وأمَّا ما له سببٌ، كتحيَّة المسجد، وصلاة الكسوف، والاستسقاء ونحوها، فعلى روايتَين.

واعلم أنَّ النَّهي عن الصَّلاة في الأوقات الثَّلاثة له ثلاثة أسرارٍ:

أحدها: تَرْك التَّشبُّه بعُبَّاد الشَّمس.

الثَّاني: التَّحذير مِن السُّجود لقَرْن الشَّيطان، فإنَّ الشَّمس تَطلُع ومعها قَرْن الشَّيطان، فإذا ارتفعت فارَقَها، فإذا استوت قارَنَها، فإذا زالت الشَّمس فارَقَها، فإذا تضيَّفَت للغروب قارَنَها، فإذا غربت فارَقَها[٣].

الثَّالث: أنَّ سالكِي طريق الآخرة مُواظِبون على العبادات، والمُواظَبة على نمطٍ واحدٍ يُورِث المَلَل، فإذا وقع المنع زاد النَّشاط؛ لأنَّ النَّفْس حريصةٌ على ما مُنِعت

---

(١) رواه أبو داودَ (١٢٩٧)، والتِّرمذيُّ (٤٨٢)، وابن ماجه (١٣٨٦)، والحاكم (١١٩٢) وصحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، وهو حديثٌ صحيحٌ؛ لطُرُقه وشواهده الكثيرة.

(٢) سقطت من "الأصل، ن، خ"، والمثبت مافي المطبوع

(٣) أخرج مالكٌ في «موطئه»، الحديث (٧٤١) حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ وَمَعَهَا قَرْنُ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا ارْتَفَعَتْ فَارَقَهَا، ثُمَّ إِذَا اسْتَوَتْ قَارَنَهَا، فَإِذَا زَالَتْ فَارَقَهَا، فَإِذَا دَنَتْ لِلْغُرُوبِ قَارَنَهَا، فَإِذَا غَرَبَتْ فَارَقَهَا**». وأخرجه أيضًا البيهقيُّ في «السُّنن»، الحديث (٤٤٤١).

منه، فمُنِع الإنسان مِن الصَّلاة في أوقات النَّهي، ولم يُمنَعْ مِن نوعٍ آخَرَ مِن التَّعبُّد، كالقراءة، والتَّسبيح؛ ليَنتقِل العابد مِن حالٍ إلى حالٍ، كما جُعِلتِ الصَّلاة مُتنوِّعةً بين قِيامٍ، وقُعودٍ، ورُكوعٍ، وسُجودٍ، والله أعلمُ.

كتاب الزكاة وأسرارها وما يتعلق بها

الزَّكاة أَحَد مباني الإسلام، وقد قَرَنَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالصَّلاة، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

أمَّا أنواع الزَّكاة، وأقسامها، وأسباب وجوبها، فظاهرٌ مشهورٌ في مَظانِّه مِن كُتُب الفقه، وإنَّما نذكر ها هنا بعض الشُّروط والآداب.

فمِن الشُّروط أنْ يُخرِجَ المنصوص عليه، ولا يُخرِج القيمة في الصَّحيح، فإنَّ مَن أجاز إخراج القيمة إنَّما تلمَّح سدَّ الخَلَّة فقط، وسدُّ الخَلَّة ليس هو كلَّ المقصود، بل بعضَه، فإنَّ واجبات الشَّرع ثلاثة أقسامٍ:

القسم الأوَّل: تَعبُّدٌ مَحضٌ، كرمي الجمار، فمقصود الشَّرع فيه الابتلاء بالعمل؛ ليُظهِر عبوديَّة العبد بفِعْل ما لا يُعقَل له معنًى؛ لأنَّ ما يُعقَل معناه يُساعِد عليه الطَّبع، ويدعو إليه، فلا يَظهَر خُلوص العُبوديَّة به، بخلاف ما ذَكَرنا.

والقسم الثَّاني: عكس ذلك، وهو ما لا يُقصَد منه التَّعبُّد، بل المقصود منه حَظٌّ محضٌ، كقضاء دَين الآدميِّين، ورَدِّ المغصوب، ونحو ذلك، وكذلك لا تُعتبَر فيه النِّيَّة ولا الفعل، بل كيفما وَصَل الحقُّ إلى مُستحَقِّه حصل المقصود، وسقط خطاب الشَّرع، فهذا قِسمان لا تَركيبَ فيهما.

وأما القسم الثالث: فهو المُركَّب، وهو أنْ يُقصَدَ منه الأمران جميعًا: امتحانُ المُكلَّف، وحَظُّ العِباد، فيجتمع فيه تَعبُّد رَمي الجِمار، وحَظُّ رَدِّ الحقوق، ولا ينبغي أنْ يَنسَى أدقَّ المَعنيَين، وهو التَّعبُّد، ولعلَّ الأدقَّ هو الأهمُّ، والزَّكاة مِن هذا القَبيل، فحظُّ الفقير مقصودٌ في سَدِّ الخَلَّة، وحقُّ التَّعبُّد مقصودُ الشَّرع في اتِّباع التَّفاصيل، وبهذا الاعتبار صارتِ الزَّكاة قَرينةً للصَّلاة والحجِّ، والله أعلم.

فَصْلٌ في دَقَائِقِ الآدَابِ البَاطِنَةِ في الزَّكَاةِ

اعلم أنَّ على مُرِيد الآخرة في زكاته وظائفَ:

الأُولى: أنْ يفهمَ المراد مِن الزَّكاة، وهو ثلاثة أشياءَ: ابتلاء مُدَّعِي محبَّة الله تعالى بإخراج محبوبه، والتَّنزُّه عن صفة البُخل المُهلِك، وشُكر نعمة المال.

الوظيفة الثَّانية: الإسرار بإخراجها؛ لكونها أبعدَ مِن الرِّياء والسُّمعة، وفي الإظهار إذلال الفقير أيضًا، فإنْ خاف أنْ يُتَّهَم بعدم الإخراج أعطَى مَن لا يُبالي مِن الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانيةً، وأَعطَى غيرَه سِرًّا.

الوظيفة الثَّالثة: ألَّا يُفسدَها بالمنِّ والأذَى، وذلك أنَّ الإنسان إذا رأى نفسه مُحسِنًا إلى الفقير، مُنعِمًا عليه بالإعطاء، ربَّما حَصَل منه ذلك، ولو حقَّق النَّظر لرأى الفقير مُحسِنًا إليه بقَبول حقِّ الله الذي هو طُهرةٌ له.

وإذا استحضر مع ذلك أنَّ إخراجَه للزَّكاة شكرٌ لنعمة المال فلا يبقَى بينه وبين الفقير مُعامَلةٌ، ولا ينبغي أنْ يَحتقرَ الفقيرَ لفقره؛ لأنَّ الفضل ليس بالمال، ولا النَّقص بعَدَمه.

الرَّابعة: أنْ يستصغرَ العطيَّة، فإنَّ المُستعظِم للفعل مُعجَبٌ به، وقد قيل: لا يتمُّ المعروف إلَّا بثلاثٍ: بتصغيره، وتعجيله، وستره.

الخامسة: أنْ يَنتقِيَ مِن ماله أَحلَّه وأَجودَه وأحبَّه إليه، أمَّا الحِلُّ فإنَّ الله تعالى طيِّب لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا، وأمَّا الأجود فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وينبغي أنْ يُلاحِظَ في ذلك أَمرَين:

أحدهما: حقُّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالتَّعظيم له، فإنَّه أحقُّ مَنِ اختِير له، ولو أنَّ الإنسان قدَّم إلى ضَيفه طعامًا رديئًا لأوغر صدره.

والثَّاني: حقُّ نفسه، فإنَّ الذي يُقدِّمه هو الذي يَلقاه غدًا في القيامة، فينبغي أنْ يختارَ الأجود لنفسه.

وأمَّا أحبُّه إليه فلقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وكان ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا اشتدَّ حُبُّه لشيءٍ مِن ماله قرَّبه لله عَزَّوَجَلَّ[١].

ورُوي أنَّه نزل الجُحفة وهو شاكٍ، فقال: إنِّي لأشتهي حِيتانًا. فالتمَسوا له فلم يجدوا إلَّا حوتًا، فأَخَذَته امرأته، فصنعته، ثُمَّ قرَّبته إليه، فأتى مسكينٌ، [فقال][٢]: خذه. فقال له أهله: سبحانه الله! قد عنَّيتَنا، ومعنا زاد نعطيه. فقال: إنَّ عبدَ الله يُحبُّه[٣].

ورُوي أنَّ سائلًا وقف بباب الرَّبيع بن خثيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤] فقال: أَطعِمُوه سُكَّرًا. فقالوا: نُطعِمه خبزًا أنفع له. فقال: وَيحَكم أطعموه سُكَّرًا، فإنَّ الرَّبيع يُحبُّ السُّكَّر[٥].

الوظيفة السَّادسة: أنْ يطلب لصدقته مَن تزكوا به، وهم خصوصٌ مِن عموم الأصناف الثَّمانية، ولهم صفاتٌ:

الأُولى: التَّقوَى، فلْيَخُصَّ بصدقته المُتَّقِين، فإنَّه يَرُدُّ بها هِمَمَهم إلى الله تعالى.

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزُّبير[٦] يَتخيَّر العُبَّاد وهم سُجودٌ، فيأتيهم بالصُّرَّة فيها الدَّنانير والدَّراهم، فيَضَعُها عند نِعالِهم بحيثُ يَحسُّون بها، ولا يشعرون بمكانه،

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٩٤).

(٢) ورد في "المطبوع" [ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٩٧).

(٤) الرَّبيع بن خُثَيم بن عائذٍ أبو يزيد الثَّوريُّ، الإمام، القدوة، العابد، أبو يزيدَ الثَّوريُّ، الكوفِيُّ، أحد الأعلام، وكان يُعدُّ من عقلاء الرِّجال، أدرك زمان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأرسل عنه، وروى عن عبد الله بن مسعودٍ، وأبي أيُّوبَ الأنصاريِّ، وعمرو بن ميمونٍ، وهو قليل الرِّواية، إلَّا أنَّه كبير الشَّأن، حدَّث عنه الشَّعبيُّ، وإبراهيمُ النَّخعيُّ، وهلال بن يساف، توفِّي سنة خمسٍ وستين. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ٢٥٨)، «تقريب التَّهذيب» (ص٢٠٦)

(٥) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ١١٥)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٠٠).

(٦) عامر بن عبد الله بن الزُّبير بن العوَّام الأسديُّ، سمع أباه، وعمرو بن سليمٍ وغيرهما، وحدَّث عنه أبو =

فقيل له: ما يَمنعُك أنْ تُرسلَ بها إليهم؟ فيقول: أَكرَه أنْ يَتمعَّر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لَقِيَني.

الصِّفة الثانية: العِلم، فإنَّ في إعطاء العالِم إعانةً على العِلم ونَشْر الدِّين، وذلك تقويةً للشَّريعة.

الثَّالثة: أنْ يكونَ ممَّن يرَى الإنعام مِن الله وحده، ولا يلتفت إلى الأسباب إلَّا بقَدْر ما نُدِب إليه مِن شكرها، فأمَّا الذي عادَتُه المدح عند العطاء، فإنَّه سيَذُمُّ حين المنع.

الرَّابعة: أنْ يكون صائنًا لفقره، ساترًا لحاجته، كاتمًا للشَّكوى، كما قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وهؤلاء لا يحصلون في شبكة الطَّالب إلَّا بعد البحث عنهم، وسؤال أهل كلِّ مَحلَّةٍ عمَّن هذه صفته.

الخامسة: أنْ يكونَ ذا عائلةٍ، أو مَحبوسًا لمرضٍ أو دَينٍ، فهذا مِن المُحصَرِين، والتَّصدُّق عليه إطلاقٌ لحَصْره.

السَّادسة: أنْ يكونَ مِن الأقارب وذَوِي الأرحام، فإنَّ الصَّدقة عليهم صدقةٌ وَصِلةٌ، وكلُّ مَن جَمَع مِن هذه الخِلال خَلَّتَين أو أكثر كان إعطاؤه أفضلُ على قَدْر ما جمع.

فَصْلٌ في آدابِ القابِضِ

لا بدَّ أنْ يكونَ آخِذُ الزَّكاة مِن الأصناف الثَّمانية، وعليه في ذلك وظائفُ:

= صخرةَ جامع، وابن عجلان وغيرهما، وهو مجمَعٌ على ثقته، توفِّي سنة نيِّفٍ وعشرين ومائةٍ. انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٢١٩).

الأُولى: أنْ يفهمَ أنَّ اللهَ تعالى أوجب صرف الزَّكاة إليه؛ ليكفيَه ما أهمَّه، ويجعلَ همومه همًّا واحدًا في طلب رضى الله عَزَّوَجَلَّ.

الثَّانية: أنْ يشكرَ المُعطِي، ويَدعوَ له، ويُثنِيَ عليه، ولْيكنْ ذلك بمِقدار شُكر السَّبب، فإنَّ مَن لم يشكرِ النَّاس لم يشكرِ اللهَ، كما ورد في الحديث(١).

ومِن تمام الشُّكْر ألَّا يحتقرَ العطاء وإنْ قلَّ، ولا يَذمَّه، ويُغطِّي ما فيه مِن عيبٍ، وكما أنَّ وظيفة المُعطِي الاستصغار، فوظيفة المُعطَى الاستعظام، وكلُّ ذلك لا يُناقِض رؤية النِّعمة مِن الله عَزَّوَجَلَّ، فأمَّا مَن لا يرى الواسطةَ واسطةً فهو جاهلٌ، وإنَّما المُنكَر أنْ يرى الواسطة أصلًا.

الوظيفة الثَّالثة: أنْ ينظرَ فيما يُعطاه، فإنْ لم يَكنْ مِن حِلٍّ لم يأخذه أصلًا؛ لأنَّ إخراج مال الغير ليس بزكاةٍ، وإنْ كان مِن شُبهةٍ تورَّع عنه، إلَّا أنْ يضيقَ الأمر عليه، فمَن كان أكثرُ كَسبِه حرامًا، فأخرج الزَّكاة، ولم يُعرَف لِمَا أخرجه مالكٌ مُعيَّنٌ، كانت الفتوى فيه أنْ يَتصدَّق به، فيجوز لهذا الفقير أنْ يأخذَ قَدْر حاجته عند ضِيق الأمر عليه وعجزه عن الصَّافي.

الرَّابعة: أنْ يَتوقَّى مَواقِعَ [الشُّبهة](٢) في قَدْر ما يأخذ، فيأخذ القَدْر المُباح له، ولا يأخذ أكثر مِن حاجته، فإنْ كان غارمًا لم يَزِدْ على مِقدار الدَّين، أو غازيًا لم يأخذ إلَّا بمِقدار ما يحتاج إليه، وإنْ أَخذ بالمَسكَنة أَخذ قَدْر حاجته دون ما يُستغنَى عنه، وكلُّ ذلك موكولٌ إلى اجتهاده، والوَرَع ترك ما يريب.

واختلف العلماء في قَدْر الغِنَى المانع مِن الزَّكاة، والصَّحيح فيه أنْ يكونَ له كفايةٌ على الدَّوام، إمَّا مِن تجارةٍ، أو صناعةٍ، أو أَجْرِ عقارٍ، أو غير ذلك، وإنْ كان له بعض الكفاية أَخذ ما يُتمِّمها، وإنْ لم يكنْ له ذلك أَخذ ما يكفيه.

---

(١) رواه أحمدُ (٧٥٠٤)، والتِّرمذيُّ (١٩٥٥)، وأبو داودَ (٤٨١١)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٢) ورد في "المطبوع" [الشبه].

ولَيكنْ ما يأخذه بقَدر ما يكفي سَنَته، ولا يزيد على ذلك، وإنَّما اعتُبِر بالسَّنة؛ لأنَّها إذا ذَهبت جاء وقت الأخذ، وإذا أَخذ الأكثر منها ضيَّق على الفقراء.

فَصْلٌ في صَدقَةِ التَّطوُّعِ وفَضْلِها وآدابِها

أمَّا فضائل الصَّدقة فهي كثيرةٌ ومشهورةٌ:

منها ما روى البخاريُّ مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيُّكم مالُ وارِثِهِ أحبُّ إليه مِن مالِه؟**» قالوا: يا رسول الله ما منَّا أَحَدٌ إلَّا ماله أَحبَّ إليه. قال: «**فإنَّ مالَه ما قدَّمَ، ومالُ وارِثِهِ ما أخَّرَ**»[١].

وفي «الصَّحيحَين»[٢] مِن رواية أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ تَصدَّقَ بِعدلِ[٣] تمرةٍ مِنْ كَسبٍ طَيِّبٍ -ولا يَصعَدُ إلى اللهِ إلاَّ الطَّيِّبُ- فإنَّ اللهَ يَتقبَّلُها بيَمينِه، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصاحِبها كما يُرَبِّي أَحدُكُم فُلُوَّهُ[٤]، حتَّى تكونَ مِثلَ الجَبلِ**».

وفي حديثٍ آخَرَ: «**إنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطفِئُ غَضبَ الرَّبِّ، وتَقِي مِيتَةَ السُّوءِ**»[٥].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**تَصدَّقُوا، فإنَّ الصَّدقَةَ فكاكُكُمْ مِنَ النَّارِ**»[٦].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٤٢).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣٤٤)، ومسلمٌ (١٠١٤).

(٣) بعِدْلِ: أي بمِثل. «لسان العرب» مادة (ع د ل).

(٤) فُلُوَّه: ابن المُهر الصَّغير. «لسان العرب» مادة (ف ل و).

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٦٦٤) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هذا الوجه. وقال العراقي في «المغني» (٢/ ١٦٥): أخرجه الطَّبرانيُّ مِن حديث أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه أبو الشَّيخ في كتاب «الثَّواب»، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلاهما ضعيفٌ، والتِّرمذيُّ وحسَّنه مِن حديث أبي هريرةَ، ولابن حِبَّانَ نحوه مِن حديث أنسٍ ضي الله عنه، وهو ضعيفٌ جدًّا.

(٦) أخرجه البيهقيُّ في «الشُّعب» الحديث (٣٠٨٤)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (١٠/ ٤٠٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكَره السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٣٣٠٤) وعزاه أيضًا إلى الطَّبرانيِّ في «الصَّغير».

وعن بُريدةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١] قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «**وَمَا يُخرِجُ أَحَدٌ شَيئًا مِنَ الصَّدَقَةِ حتَّى يَفُكَّ عَنهُ لَحيَ سَبعِينَ شَيطَانًا**»[٢].

ورُوي أنَّ راهبًا تَعبَّد في صومعةٍ ستِّين سنةً، ثُمَّ نزل يومًا ومعه رغيفٌ، فعَرَضت له امرأةٌ، فتكشَّفَت له، فوقع عليها، فأدركَه الموت وهو على تلك الحال، وجاء سائلٌ فأعطاه الرَّغيف، ومات، فجِيء بعمل ستِّين سنةً، فوُضِع في كفَّةٍ، وخطيئته في كفَّةٍ، فرَجَحَت بعمله، حتى جيء بالرَّغيف، فوُضِع مع عمله، فرَجَح بخطيئته.

وفي أفراد مسلمٍ[٣]، مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَا نَقُصَتْ صَدَقَةٌ مِن مالٍ**».

ورُوي عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّهم ذَبحوا شاةً، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَقِيَ مِنهَا؟**» فقالت: ما بَقِي منها إلَّا كَتِفها، فقال: «**بَقِيَ كُلُّهَا إلَّا كَتِفَهَا**»[٤].

وأمَّا آدابها فنحو ما تَقدَّم في الزَّكاة، واختلفوا أيُّما أفضل للفقير، أنْ يأخذ مِن الزَّكاة، أو مِن الصَّدقة؟ فقال قومٌ: مِن الزَّكاة أفضلُ. وقال آخرون: مِن الصَّدقة أفضلُ.

وأمَّا أفضل الصَّدقة فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سُئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الصَّدقة أفضلُ؟ قال: «**أَنْ تَصَدَّقَ وأَنتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخشَى الفَقرَ، وتَأملُ الغِنَى، ولا تُمهِلَ حتَّى إذا بَلَغَتِ الحُلقُومَ قُلتَ: لِفُلانٍ كَذَا، ولِفُلَانٍ كَذَا، وقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[٥].

---

(١) بُريدةُ بن الحصيب بن عبد الله الأسلميُّ، قيل: إنَّه أسلم عام الهجرة، وشهد غزوة خيبر، والفتح، وله جملة أحاديث، نزل مرو، ونشر العلم بها، حدَّث عنه ابنا سليمان وعبد الله، وأبو نضرة العبديُّ وغيرهما، توفِّي سنة (٦٣). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ (٢/ ٤٦٩)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٢/ ٥٠).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» الحديث (٣١٩٩)، وأحمدُ (٢٢٩٦٢)، عن بريدة الأسلميِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه مسلمٌ (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٧٠)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٥) رواه البخاريُّ (١٣٥٣)، ومسلمٌ (١٠٣٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

كتاب الصوم وأسراره ومهماته وما يتعلق به

اعلم أنَّ في الصَّوم خصيصةً ليست لغيره، وهي إضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ حيث يقول سبحانه[١]: «الصَّومُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِهِ»[٢] وكفى بهذه الإضافة شَرَفًا، كما شَرُف البيت بإضافته في قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وإنَّما فُضِّل الصَّوم لمَعنيَين:

أحدهما: أنَّه سِرٌّ، وعَمَلٌ باطنٌ، لا يراه الخَلْق، ولا يَدخُله رياءٌ.

الثَّاني: أنَّه قَهرٌ لعدوِّ الله؛ لأنَّ وسيلة العدوِّ الشَّهوات، وإنَّما تَقوَى الشَّهوات بالأكل والشُّرب، وما دامت أرض الشَّهوات مُخصِبةً فالشَّياطين يَتردَّدون إلى ذلك المَرعَى، وبترك الشَّهوات تضيق عليهم المسالك، وفي الصَّوم أخبارٌ كثيرةٌ تدلُّ على فضله، وهي مشهورةٌ.

فصل في سنن الصوم

يُستحَبُّ السُّحورُ، وتأخيرُه، وتعجيل الفِطر، وأنْ يُفطرَ على التَّمر.

ويُستحَبُّ الجُود في رمضانَ، وفِعْل المعروف، وكثرة الصَّدقة، اقتداءً برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

---

(١) أي في الحديث القدسيِّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٥٨٣)، ومسلمٌ (١١٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رَوى البخاريُّ (٦)، ومسلمٌ (٢٣٠٨) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجودَ ما يكون في رمضانَ...».

ويُستحَبُّ دراسة القرآن، والاعتكاف في رمضانَ، لا سيَّما في العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

و في «الصَّحيحَين»[(١)] مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنها قالت: كان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إذا دَخَل العَشر الأخير، شدَّ مِئزَرَه، وأَحيا اللَّيلَ، وأَيقَظَ أهلَه.

وذَكَر العُلماء في معنى شَدِّ المِئزَر وجهَين:

أحدهما: أنَّه الإعراض عن النِّساء.

الثَّاني: أنَّه كنايةٌ عن الجِدِّ والتَّشمير في العمل، قالوا: وكان سبب اجتهاده في العشر طلب ليلة القَدْر.

بَيانُ أسرارِ الصَّومِ وآدابِه

وللصَّوم ثلاثُ مراتبَ: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوصِ الخصوص.

فأمَّا صوم العموم فهو كفُّ البطن والفَرْج عن قضاء الشَّهوة.

وأمَّا صوم الخصوص فهو كفُّ النَّظر، واللِّسان، واليد، والرِّجل، والسَّمع، [والبصر][(٢)]، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأمَّا صوم خصوص الخصوص فهو صوم القلب عن الهمم الدَّنيئة، والأفكار المُبعِدة عن الله تعالى، وكفُّه عمَّا سِوى الله تعالى بالكُلِّيَّة، وهذا الصَّوم له شروحٌ تأتي في غير هذا المَوضِع.

---

(١) رواه البخاريُّ (١٩٢٠)، ومسلمٌ (١١٧٤).

(٢) سقطت من "المطبوع".

فمِن آداب صوم الخصوص غضُّ البَصر، وحفظ اللِّسان عمَّا يُؤذِي مِن كلامٍ مُحرَّمٍ أو مَكروهٍ، أو ما لا يُفيد، وحِراسة باقي الجوارح.

وفي الحديث مِن رواية البخاريِّ أنَّ النَّبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**مَنْ لم يَدَعْ قَولَ الزُّورِ، والعَمَلَ بِه، فَلَيسَ للهِ حاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرابَهُ**»(١).

ومِن آدابه ألَّا يمتلئَ مِن الطَّعام في اللَّيل، بل يأكل بمِقدار الكفاية، فإنَّه ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا مِن بطنٍ(٢). ومتى شَبع أوَّل اللَّيل لم يَنتفعْ بنفسه في باقيه، وكذلك إذا شَبع وقت السَّحور، لم ينتفعْ بنفسه إلى قَريبٍ مِن الظُّهر؛ لأنَّ كثرة الأكل [يُورِث](٣) الكَسَل والفُتور، ثُمَّ يُفوِّت المقصود مِن الصِّيام بكثرة الأكل؛ لأنَّ المراد منه أنْ يذوقَ طَعم الجُوع، ويكون تاركًا للمُشتهَى.

فأمَّا صوم التَّطوُّع، فاعلم أنَّ استحباب الصَّوم يتأكَّد في الأيَّام الفاضلة، وفواضل الأيَّام بعضها يوجد في كلِّ سنةٍ، كصيام ستَّة أيَّامٍ مِن شوَّالٍ بعد رمضانَ، وكصيام يوم عرفةَ، ويوم عاشوراءَ، وعشر ذي الحِجَّة، والمُحرَّم.

وبعضُها يتكرَّر في كلِّ شهرٍ، كأوَّله، وأوسَطه، وآخِره، فمَن صام أوَّل الشَّهر وأوسَطَه وآخِرَه فقد أَحسن، غير أنَّ الأفضل أنْ يُجعَلَ الثَّلاثة أيَّام البيض.

وبعضُها يتكرَّر في كلِّ أسبوعٍ، وهو يوم الاثنين ويوم الخميس.

وأفضل صومِ التَّطوع صومُ داودَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كان يصوم يومًا، ويُفطر يومًا(٤)، وذلك يجمع الثَّلاثة معًا:

---

(١) رواه البخاريُّ (١٨٠٤) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرج التِّرمذيُّ في «سننه» (٢٣٨٠) حديث رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**». وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) ورد في "المطبوع" [تورث].

(٤) هذا جزء من حديث أخرجه البخاريُّ برقم (١٩٧٧).

أحدها: أنَّ النَّفْس [تعطى][(١)] يوم الفطر حَظَّها، وتَستوفِي يوم الصَّوم تَعبُّدَها، وفي ذلك جمعٌ بين ما لها وما عليها، وهو العدل.

والثَّاني: أنَّ يوم الأكل يومُ شُكرٍ، ويوم الصَّوم يومُ صَبرٍ، والإيمان نصفان: شكرٌ، وصَبْرٌ[(٢)].

والثَّالث: أنَّه أَشقُّ على النَّفْس في المُجاهَدة؛ لأَنَّها كلَّما أَنِسَت بحالةٍ نُقِلت عنها.

فأمَّا صوم الدَّهر كلِّه، ففي أفراد مسلمٍ مِن حديث أبي قتادةَ أنَّ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: كيف بمَن يَصوم الدَّهر كلَّه؟ فقال: «**لا صَامَ، ولا أَفطَرَ** -أو- **لَم يَصُمْ، وَلَم يُفطِرْ**»[(٣)]. وهذا محمولٌ على مَن سَرَد الصَّوم في الأَيَّام المَنهيِّ عن صيامها، فأمَّا إذا أَفطَر يومَي العيدَين، وأيَّام [منى][(٤)] فلا بأسَ بذلك، فقد رُوي عن هشام بن عروةَ أنَّ أباه كان يَسرُد الصَّوم، وكانت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَسرُد.

وقال أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَرَد أبو طلحةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصَّوم بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين عامًا[(٥)].

و اعلم أنَّ مَن رُزِق فطنةً عَلِم المقصود مِن الصَّوم، فحَمَّل نفسه قَدْر ما لا يُعجِزه عمَّا هو أفضلُ منه.

فقد كان ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قليلَ الصَّوم، وكان يقول: إذا صُمتُ ضَعفتُ عن الصَّلاة، وأنا أختار الصَّلاة على الصَّوم[(٦)].

و كان بعضهم إذا صام ضَعُف عن قراءة القرآن، فكان يُكثِر الفطر حتى يَقدِرَ على التِّلاوة، وكلُّ إنسانٍ أعلمُ بحاله وما يُصلِحه.

---

(١) ورد في " الأصل، خ " [يعطى].

(٢) هذا حديث أخرجه القضاعي في «مسنده» الحديث (١٥٩)، وقال العراقيُّ في «المغني»: أخرجه أبو منصور الدَّيلميُّ في «مسند الفردوس» مِن رواية يزيدَ الرقاشيِّ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويزيدُ ضعيفٌ.

(٣) رواه مسلمٌ (١١٥٩).

(٤) ورد في " المطبوع " [التَّشريق].

(٥) أخرجه الطَّبرانيُّ في «الكبير» الحديث (٤٦٨١) وقال: حتى مات. بدل: أربعين عامًا.

(٦) أخرجه الطَّبرانيُّ في «الكبير» الحديث (٨٨٦٩).

كتاب الحج وأسراره(١) وفضائله وآدابه ونحو ذلك

ينبغي لمَن أراد الحجَّ أنْ يبدأ بالتَّوبة، وردِّ المَظالِم، وقضاء الدُّيون، وإعداد النَّفقة لكلِّ مَن تلزمه نفقته إلى وقت الرُّجوع، ويَرِدُّ ما عنده مِن الودائع.

ويَستصحِب مِن المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه مِن غير تقتيرٍ، على وجهٍ يُمكِنه معه التَّوسُّع في الزَّاد، والرِّفق بالفقراء.

ويَستصحِب ما يُصلِحه، كالسِّواك، والمشط، والمرآة، والمُكْحُلة.

ويَتصدَّق بشيءٍ قَبل خروجه، وإذا اكترى فليُظهِر [للجمَّال](٢) كلَّ ما يريد أنْ يَحملَه مِن قليلٍ وكثيرٍ، وقد قال رجل لابن المبارك(٣): احمل لي هذه الرُّقعة إلى فلانٍ. فقال: حتى أَستأذِنَ [الجمَّال](٤).

وينبغي أنْ يلتمسَ رَفيقًا صالحًا مُحِبًّا للخير مُعينًا عليه، إنْ نسيَ ذكَّره، وإنْ ذَكَر أَعانَه، وإنْ ضاق صدره صبَّره.

ولْيُؤمِّرِ الرُّفقاء عليهم أَحسَنَهم خُلُقًا، وأَرفَقهم بالأصحاب، وإنَّما احتيج إلى التَّأمير؛ لأنَّ الآراء تَختلِف، فلا يَنتظِم التَّدبير، وعلى الأمير الرِّفق بالقوم، والنَّظر في مَصالِحهم، وأنَّ يجعل نفسه وقايةً لهم.

---

(١) سقطت من " الأصل ".

(٢) ورد في " المطبوع، ن، خ " [للحمَّال].

(٣) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليُّ بالولاء، التَّميميُّ، المروزيُّ أبو عبد الرَّحمن، سمع مِن سليمانَ التَّيميِّ، وعاصمٍ الأحول، وغيرهما، وحدَّث عنه مَعمَرٌ، والثَّوريُّ، وأبو إسحاقَ الفزاريُّ وغيرهم، توفِّي بهيت على الفرات منصرِفًا مِن غزو الرُّوم سنة (١٨١)، له كتابٌ في الجهاد، وهو أوَّل مَن صنَّف فيه. انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ (٨/ ٣٧٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٤/ ١١٥).

(٤) ورد في " المطبوع، ن، خ " [الحمَّال].

وينبغي للمُسافِر تَطييب الكلام، وإطعام الطَّعام، وإظهار مَحاسِن الأخلاق، فإنَّ السَّفَر يُخرِج خبايا الباطن، ومَن كان في السَّفَر الذي هو مَظنَّة الضَّجر حَسَنَ الخُلُق، كان في الحَضَر أَحسَن خُلُقًا.

وقد قيل: إذا أثنَى على الرَّجل مُعامِلوه في الحضر ورفقاؤه في السَّفر، فلا تَشُكُّوا في صلاحه.

وينبغي له أنْ يُودِّعَ رُفقاءه وإخوانه المُقيمِين، ويَلتمِسَ أَدعيتَهم، ويَجعلَ خُروجه بُكرة يوم الخميس، ولْيُصلِّ في منزله ركعتَين قَبل الخروج منه، ويَستودِع الله أهلَه ومالَه، ويَستعمِل الأدعية والأذكار المأثورة عند خُروجه مِن منزله، وفي رُكوبه ونزوله، وهي مشهورةٌ في كثيرٍ مِن الكُتُب في مَناسِك الحجِّ، وكذلك جميع المَناسِك مِن الإحرام، والطَّواف، والسَّعي، والوقوف بعرفةَ، وغيرُ ذلك مِن أعمال الحجِّ يأتي فيها بما ذُكِر مِن الأذكار والدَّعوات والآداب، وكلُّ ذلك مُستوفًى في كُتُب الفقه وغيرها، فلْيُطلَب هناك.

فَصْلٌ فِي الآدَابِ البَاطِنَةِ وَالإِشَارَةِ إِلَى أَسْرَارِ الحَجِّ[1]

اعلم أنَّه لا وصولَ إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى إلَّا بالتَّجرُّد والانفراد لخدمته، وقد كان الرُّهبان ينفردون في الجبال طَلَبًا للأُنْس بالله، فجُعِل الحجَّ رهبانيَّة لهذه الأُمَّة.

فمِن الآداب المذكورة أنْ يكونَ خاليًا [في حجه عن][2] تِجارةٍ تَشغَل قلبه، وتُفرِّق همَّه؛ ليجتمع على طاعة الله تعالى، وأنْ يكونَ أشعثَ أغبرَ، رثَّ الهيئة، غيرَ مُستكثِرٍ مِن الزِّينة.

و ينبغي أنْ يجتنبَ رُكوب المَحمل إلَّا مِن عُذرٍ، كمَن لا يَستمسِك على الزَّاملة[3] فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجَّ على راحلةٍ، وتحته رَحلٌ رَثٌّ.

---

(١) سقطت من "خ".

(٢) سقطت من "الأصل"، وورد في "المطبوع" [خالياً في حَجِّه مِن].

(٣) الزَّاملة: بعيرٌ يَستظهِر به رَجلٌ متاعَه وطعامه عليه. «لسان العرب» مادة (ز م ل).

وفي حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يُباهِي بِالحَاجِّ المَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: انظُرُوا إلى عِبادِي، أَتونِي شُعْثًا غُبْرًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، أُشهِدُكُم أَنِّي قَد غَفَرتُ لَهُم**»[(١)].

وقد شرَّف الله تعالى بيته وعظَّمه، ونَصَبه مَقصِدًا لعِباده، وجَعَل ما حوله حَرَمًا له تفخيمًا لأمره، وتعظيمًا لشأنه، وجعل عرفةَ كالمَيدان على فنائه.

واعلم أنَّ في كلِّ واحدٍ مِن أفعال الحجِّ تَذكِرةً للمُتذكِّر، وعِبرةً للمُعتبِر.

فمِن ذلك: أنْ يَتذكَّر بتحصيل الزَّاد زادَ الآخرة مِن الأعمال، ولْيحذرْ أنْ [تكونَ][(٢)] أعماله فاسدةً مِن الرِّياء والسُّمعة، فلا تَصحبُه، ولا تَنفعُه، كالطَّعام الرَّطب الذي يَفسد في أوَّل مَنازِل السَّفر، فيبقى صاحبه مُتحيِّرًا، فإذا فارَق وطنه، ودخل البادية، وشهد تلك [العقبات][(٣)] فلْيتذكَّر بذلك خروجه مِن الدُّنيا بالموت إلى مِيقات القيامة، وما بينهما مِن الأهوال.

ومِن ذلك أنْ يَتذكَّر وقتَ إحرامه وتجرُّده مِن ثيابه، إذا لبس المُحرِمُ الإحرام لبسَ كَفَنِه، وأنَّه سيَلقَى ربَّه على زيٍّ مُخالِفٍ لزيِّ أهل الدُّنيا، وإذا لبَّى فليستحضرْ بتلبيته إجابةَ الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: ٢٧]، ولْيَرجُ القَبول، ولَيَخشَ عدم الإجابة، وكذلك إذا وصل إلى الحَرَم ينبغي أنْ يرجوَ الأمْنَ مِن العقوبة، وأنْ يخشى ألَّا يكونَ مِن أهل القُرْب، غيرَ أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الرَّجاء غالبًا؛ لأنَّ الكرَم عميم، وحقُّ الزَّائر مَرعِيٌّ، وذِمام المُستجير لا يَضِيع.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» الحديث (٢٨٣٩)، وأحمد برقم (٧٠٨٩، ٨٠٧٤)، وقال أبو نعيم: هذا حديثٌ صحيحٌ مِن حديث سعيد بن المُسيِّب، عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، غريبٌ مِن حديث مُجاهِدٍ، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا أعلم له راويًا إلَّا يونسَ بن أبي إسحاقَ. ورواه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» الحديث (٣٧٧٤) بلفظٍ قريبٍ منه.

(٢) ورد في " الأصل، خ " [يكون].

(٣) ورد في " الأصل، خ " [العقاب].

ومِن ذلك: إذا رأى البيت الحرام استحضر عَظَمته في قلبه، وشَكَر الله تعالى على تبليغه رُتبة الوافِدين إليه، ولْيستَشعر عَظَمة الطَّواف به، فإنَّه صلاةٌ، ويعتقد عند استلام الحَجَر أنَّه مُبايعٌ لله على طاعته، ويَضمُّ إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبَيعة، ولْيتذَكَّر بالتَّعلُّق بأستار الكعبة والالتصاق بالمُلتزَم لجأ المُذنِب إلى سيِّده، وقُرْب المُحبِّ.

وأَنشَد بعضهم في ذلك:

سُتُورُ بَيتِكَ نَيْلُ الأَمنِ مِنكَ وَقَدْ ... عُلِّقتُهَا مُستَجِيرًا أَيُّها البَارِي

وَمَا أَظنُّكَ لَمَّا أنْ عَلِقتُ بِها ... خَوْفًا مِنَ النَّار تُدنِينِي مِن النَّارِ

وَهَا أَنَا جَارُ بَيتٍ أَنتَ قُلتَ لَنَا: ... حجوا إلَيهِ وَقَد أَوصَيتَ بِالجَارِ

ومِن ذلك إذا سعَى بين الصَّفا والمروة ينبغي أنْ يَمِثِّلَها بكفَّتَي الميزان، وتَردُّده بينهما في عَرصات القيامة، أو تَردُّد العبد إلى باب دار المَلِك، إظهارًا لخُلوص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعًا في قضاء حاجته.

وأمَّا الوقوف بعرفةَ فاذكر بما تَرى فيه مِن ازدحام الخَلْق، وارتفاع أصواتهم، واختلاف لُغاتهم مَوقِفَ القيامة، واجتماعَ الأمم في ذلك المَوطِن، واستشفاعهم.

فإذا رميتَ الجمار فاقصد بذلك الانقياد للأمر، وإظهارَ الرِّقِّ والعبوديَّة، ومُجرَّد الامتثال مِن غير حَظِّ النَّفْس.

وأمَّا المدينة فإذا لاحت لك فتَذكَّر أنَّها البلدة التي اختارها الله تعالى لنبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشَرَع إليها هِجرته، وجَعَل فيها تُربته، ثُمَّ مَثِّلْ في نفسك مَواقِع أقدام رسول الله تعالى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند تَردُّده فيها، وتَصوَّر خُشوعَه وسَكِينته، فإذا قصدتَ زيارته فأحضر قلبك لتعظيمه، والهيبة له، ومثِّل صورته الكريمة في خَيالِك، واستحضر عظيم مرتبته في قلبك، ثُمَّ سلِّم عليه، واعلم أنَّه عالِمٌ بحُضورك وتسليمك، كما ورد في الحديث[(١)].

(١) كما روى البيهقي في الشعب (٦/ ٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:=

كتاب آداب تلاوة القرآن الكريم وذكر فضله

أعظم فضائل القرآن أنَّه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وقد مدحه الله تعالى في آياتٍ كثيرةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاريِّ[(١)]، مِن حديث عثمانَ بن عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خَيرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ**».

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ للهِ** عَزَّوَجَلَّ **أهلِينَ مِنَ النَّاسِ**». قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: «**أهلُ القُرآنِ هُمْ أهلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**». رواه النَّسائيُّ[(٢)].

وفي حديثٍ آخرَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يُعَذِّبُ اللهُ قَلْبًا وَعَى القُرآنَ**»[(٣)].

وعن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ: اقرأْ وارْتَقِ، ورَتِّلْ كَمَا كُنتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيَا، فَإنَّ مَنزِلَتَكَ عِندَ آخِرِ آيَةٍ تَقرَؤُهَا**». صحَّحه التِّرمذيُّ[(٤)].

= «مَا مِنْ عَبْدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي إلَّا وَكَّلَ اللهُ بِهَا مَلَكًا يُبَلِّغُنِي، وَكَفَى أَمْرَ آخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ وَكُنْتُ لَهُ شَهِيدًا وَشَفِيعًا يَوْمَ القِيَامَةِ».

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٣٩) عن عثمانَ بن عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» الحديث (٨٠٣١)، وأحمد الحديث (١٢٢٧٩) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» الحديث (٣)، والدَّارِميُّ الحديث (٣٣٦٣)، وإسناده صحيحٌ.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٩١٤)، وأبو داودَ (١٤٦٤)، وأحمدُ (٦٧٩٩)، عن عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وعن بُريدةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ له: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنِّي لَكَ الْيَوْمَ وَرَاءَ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا تَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَا كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا. فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا [كَانَ][1] يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أو تَرْتِيلاً**»[2].

قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ينبغي لحامِلِ القُرآن أنْ يُعرَفَ بليله إذ النَّاس نائمون، وبنهاره إذ النَّاس مُفطِرون، وبحُزنه إذ النَّاس يفرحون، وببكائه إذ النَّاس يضحكون، وبصمته إذ النَّاس [يخلطون][3]، وبخُشوعه إذ النَّاس يختالون.

ولا ينبغي أنْ يكون جافيًا، ولا غافلًا، ولا صخَّابًا[4]، ولا حديدًا[5].

وقال الفُضيل[6] رَحِمَهُ اللَّهُ: حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أنْ يلغوَ مع مَن يلغو، ولا يسهوَ مع مَن يسهو، ولا يلهوَ مع مَن يلهو، تعظيمًا لله تعالى.

ولا ينبغي أنْ يكونَ له إلى أَحَدٍ حاجةٌ، بل ينبغي أنْ تكونَ حوائجَ النَّاس إليه.

---

(١) ورد في "المطبوع" [دَامَ].

(٢) أخرجه أحمدُ في الحديث (٢٢٩٥٠)، والدَّارميُّ (٣٤٣٤) عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ورد في "المطبوع" [يخوضون].

(٤) الصَّخَب: شِدَّة الصَّوت. انظر لسان العرب مادة (ص خ ب).

(٥) الحديد: شِدَّة الغَضَب. انظر لسان العرب مادة (ح د د).

(٦) الفُضيل بن عياض بن مسعودٍ التَّميميُّ اليربوعيُّ، أبو عليٍّ، شيخ الحرم المكِّيِّ، مِن أكابر العِباد الصُّلحاء، وُلد سنة ١٠٥هـ، كان ثقةً في الحديث، حدَّث عن منصورٍ، والأعمش، وجعفرٍ الصادق، وأخذ عنه خَلْقٌ، منهم الإمام الشَّافعيُّ ويحيى القطَّان، وابن المبارك. وُلد في سمرقندَ، ونشأ بأبيوردَ، ودخل الكوفة، وأصله منها. ثُمَّ سكن مكَّةَ، وتوفِّي بها سنة ١٨٧هـ. انظر «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢١)، الأعلام (٥/ ١٥٣).

وقال الإمام أحمدُ بن حنبلٍ: رأيتُ ربَّ العزّة في المنام، فقلتُ: يا ربِّ، ما أَقربُ ما [تقرَّب به][1] إليك المُتقرِّبون؟ فقال: بكلامي يا أحمدُ. فقلت: يا ربِّ، بفَهمٍ أو بغيرِ فهمٍ؟ فقال: بفَهمٍ، وبغير فهمٍ.

فَصْلٌ في آدابِ التِّلاوةِ

ينبغي لقارئ القرآن أنْ يكونَ على وُضوءٍ، مُستعمِلًا للأدب، مُطرِقًا، غيرَ مُتربِّعٍ، ولا مُتَّكِئٍ، ولا جالسٍ على هيئة المُتكبِّر.

وأفضل الأحوال أنْ يقرأ في الصَّلاة قائمًا، وأنْ يكون في المسجد.

فأمَّا مِقدار القراءة فقد اختَلَفت فيها عادات السَّلف، فمنهم مَن كان يختم كلَّ يومٍ وليلةٍ ختمةً، ومنهم مَن كان يختم في اليوم واللَّيلة أكثرَ مِن ذلك، ومنهم مَن كان يختم في ثلاثٍ، ومنهم مَن كان يختم في أسبوعٍ، ومنهم مَن كان يختم في كلِّ شهرٍ، اشتغالًا بالتَّدبّر، أو بنَشْر العِلم، أو بتعليمه، أو بنوعٍ مِن التَّعبُّد غيرِ القراءة، أو بغيره مِن اكتساب الدُّنيا.

وأَولى الأمر ما لا يَمنَع الإنسان مِن أشغاله المُهمَّة، ولا يُؤذِيه في بَدَنه، ولا يفوته معه التَّرتيل والفَهْم.

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَأَنْ أَقرَأَ البقرة وآل عمران، وأُرتِّلَهما وأتدبَّرهما، أَحبُّ إليَّ مِن أنْ أقرأَ القرآن كلَّه هَذرَمةً[2].

ومَن وَجد خُلسة في وقتٍ فلْيغتَنِمْ كثرة القراءة؛ ليفوز بكثرة الثَّواب، فقد كان عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ القرآن في ركعةٍ يُوتِر بها، وكان الشَّافعيُّ يختم في رمضانَ ستِّين ختمةً.

---

(١) ورد في "المطبوع" [يَتقرَّب به]، وفي "خ" [يقرب به].

(٢) الهَذْرَمة: السُّرعة في القراءة والكلام. «لسان العرب» مادة (ه ذ ر م).

وأمَّا الدَّوام فلْيَكنْ على قدر الإمكان، كما أشرنا إليه، واستَحبَّ بعضهم إذا ختم بالنَّهار أنْ يختم في ركعتَي الفجر أو بعدَهما، وإذا ختم باللَّيل أنْ يختم في ركعتَي المغرب أو بعدَهما، يَستقبِل بالختمة أوَّل اللَّيل وأوَّل النَّهار.

وقال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَن ختم القرآن فله دعوةٌ مُستجابةٌ(١).

وكان أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا(٢).

فَصْلٌ

ويُستحَبُّ تحسين القراءة، وإذا لم يكن حَسَن الصَّوت حسَّنه ما استطاع، فأمَّا القراءة بالألحان، فقد كَرِهها السَّلف.

ويُستحَبُّ الإسرار بالقراءة، وقد جاء في حديثٍ: «**فَضْلُ قِراءةِ السِّرِّ عَلى قِراءةِ العَلانِيةِ كَفَضلِ صَدَقَةِ السِّرِّ عَلى صَدَقَةِ العَلانِيةِ**»(٣)، إلاَّ [أنه](٤) يَنبغِي أنْ يُسمِعَ نَفْسه.

ولا بأسَ بالجهر في بعض الأوقات؛ لمقصودٍ صحيحٍ، إمَّا لتجويدِ الحفظ، أو ليصرفَ عن نفسه الكسل والنَّوم، أو ليُوقظ الوسنان(٥).

فأمَّا حُكم القراءة في الصَّلاة، ومِقدار ما يقرأ في صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار، فذلك معروفٌ مشهورٌ في كُتُب الفقه.

ومَن كان عنده مصحفٌ ينبغي له أنْ يقرأ فيه كلَّ يومٍ [ولو](٦) آياتٍ يسيرةً؛ لئلاَّ يكونَ مهجورًا.

---

(١) روى البيهقيُّ في «الشُّعب» (٣/ ٤٣٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَهُ عِنْدَ خَتْمِ القُرْآنِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وَشَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ**».

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٩٠٧).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٩١٩)، وأبو داودَ (١٣٣٣)، والنَّسائيُّ (٥/ ٨٠) بلفظ «**الجَاهِرُ بِالقُرآنِ كَالجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالمُسِرُّ بِالقُرآنِ كَالمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**». وإسناده صحيحٌ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) ورد في "المطبوع، خ" [أن].

(٥) الوَسَن: النُّعاس، والوَسنان: كثير النُّعاس. «لسان العرب» مادة (و س ن).

(٦) سقطت من "المطبوع".

وينبغي لتالي القرآن العظيم أنْ ينظرَ كيف لطف الله تعالى بخَلْقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأنْ يعلمَ أنَّ ما يقرأه ليس مِن كلام البشر، وأنْ يستحضرَ عَظَمة المُتكلِّم سبحانه، ويَتدبَّر كلامه، فإنَّ التَّدبُّر هو المقصود مِن القراءة، وإنْ لم يحصل التَّدبُّر إلَّا بتَرداد الآية فليُردِّدها، فقد روى أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قام ليلةً بآيةٍ يُردِّدها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وقام تميمٌ الـدَّاريُّ(١) بآيةٍ، وهي قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١](٢)، وكذلك قام بها الرَّبيع بن خَيثم ليلةً(٣).

وينبغي للتَّالي أنْ يَستوضِحَ مِن كلِّ آيةٍ ما يَليق بها، ويَتفهَّم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣] فلْيعلم عَظَمَته، ويَتلمَّح قُدرته في كلِّ ما يراه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] فلْيَتفكَّر في نُطفةٍ مُتشابِهةِ الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحمٍ وعظمٍ، وعرقٍ وعصبٍ، وأشكالٍ مُختلِفةٍ مِن رأسٍ ويدٍ ورِجلٍ، ثُمَّ إلى ما ظهر فيها مِن الصِّفات الشَّريفة كالسَّمع والبصر والعقل وغير ذلك فلْيَتأمَّل هذه العجائب.

وإذا تلا أحوال المُكذِّبين [فلْيَستشعر](٤) الخوف مِن السَّطوة إنْ غَفِل عن امتثال الأمر.

---

(١) تميمٌ الـدَّاريُّ أبو رقيةَ بن أوس بن خارجةَ، صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفَد تميمٌ الدَّاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة تسعٍ، فأسلم، وله عدَّة أحاديثَ، وكان عابدًا، تلَّاءً لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، حدَّث عنه ابن عبَّاسٍ، وأنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهما، توفِّي بعد سنة (٣٧). انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص١٣٠)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٢/ ٨٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ٨٧).

(٢) رواه أبو داودَ في «الزُّهد» الحديث (٣٧٩)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» الحديث (١١٨٨٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» الحديث (٨).

(٤) ورد في "المطبوع" [فلْيَشعر].

ولْيَتخَلَّ التَّالي مِن موانع الفهم مثل أنْ يُخيِّلَ الشَّيطان إليه أنَّه ما حقَّق تلاوة الحرف، ولا أَخرَجه مِن مَخرَجه، فيُكرِّره التَّالي، فيَصرف همَّته عن فهم المعنَى.

ومِن ذلك أنْ يكون التَّالي مُصِرًّا على ذنبٍ، أو مُتَّصِفًا بكِبْر، أو مُبتلًى بهوًى مُطاعٍ، فإنَّ ذلك سببُ ظُلمة القلب وصدئه، فهو كالجَرب على المرآة، يمنع مِن تَجلِّي الحقِّ، فالقلب مِثل المرآة، والشَّهوات مِثل الصَّدأ، ومعاني القرآن مِثل الصُّور التي تتراءَى في المرآة، والرِّياضة للقلب بإماطة الشَّهوات مِثل الجلاء للمرآة.

وينبغي لتالي القرآن أنْ يعلمَ أنَّه مقصودٌ بخِطاب القرآن ووعيده، وأنَّ القصص لم يُرَدْ بها السَّمَر، بل العِبَر، فلْيتنبهْ لذلك فحينَئذٍ يتلو تلاوة عبدٍ كاتَبَه [سيِّده][1] بمقصودٍ؛ لِيتأمَّلَ الكتاب، ويعمل بمُقتضاه، فإنَّ مَثَل العاصي إذا قرأ القرآن وكرَّره مِثالُ مَن كرَّر كتاب المَلِك، وأعرض عن عمارة مَمْلَكته وما أُمِر به في الكتاب، فهو مُقتصِرٌ على دراسته، مُخالِفٌ أوامره، فلو ترك الدِّراسة مع المُخالَفة كان أبعدَ مِن الاستهزاء واستحقاق المَقْتِ.

وينبغي أنْ يتبَرَّأ مِن حَوْله وقُوَّته، وألَّا يَلتفِتَ إلى نفسه بعين الرِّضى والتَّزكية، فإنَّ مَن رأَسَ نفسه بصورة التَّقصير، كان ذلك سببَ قُربه.

---

(١) ورد في "المطبوع" [سيد].

كتاب الأذكار والدعوات وغيرها

اعلم أنَّه ليس بعد تلاوة القرآن عِبادةٌ تُؤدَّى باللِّسان أفضل مِن ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورفع الحوائج بالأدعية [الصالحة][(١)] إليه تعالى، ويدلُّ على فضل الذِّكر قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وعن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»[(٢)].

وفي أفراد مسلمٍ[(٣)] عنه صلى الله عليه تعالى وسلم أنَّه قال: «**لا يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ اللهَ إلَّا حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِندَهُ**». وفي ذلك أحاديثُ كثيرةٌ مذكورةٌ في فَضائِلِ [القرآن][(٤)].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا، فَتَفَرَّقُوا عَلَى غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ الحِمَارِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٥)].

---

(١) ورد في " المطبوع " [الخالصة].

(٢) ذكره البخاريُّ تعليقًا في كتاب التوحيد، في ترجمة باب قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، رواه ابن حِبَّانَ الحديث (٨١٥) كلاهما عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه مسلمٌ (٢٧٠٠)، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ورد في " المطبوع، ن، خ " [الأعمال].

(٥) رواه أبو داودَ (٤٨٥٥)، وأحمدُ (١٠٦٨٠) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي حديثٍ آخَرَ: «**لا يَجلِسُ قَومٌ مَجلِسًا لا يَذكُرُونَ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ، **ولا يُصَلُّونَ عَلَى النَّبيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ **إلَّا كانَ عَلَيهِم حَسرَةً يَومَ القِيامةِ**»[1].

وأمَّا فضيلة الدُّعاء فقد روى أبو هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَيسَ شَيءٌ أكرَمُ عَلَى اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **مِن الدُّعاءِ، وأَشرَفُ العِبادةِ الدُّعاءُ، ومَن لا يَسأَلِ اللهَ يَغضَبْ عَلَيهِ**»[2].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**سَلُوا اللهَ مِن فَضلِه، فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يُسأَلَ**»[3].

وللدُّعاء آدابٌ، مِن ذلك أنْ يَتحرَّى الأوقات الشَّريفة، كيوم عرفةَ مِن السَّنة، ورمضانَ مِن الشُّهور، والجمعة مِن الأسبوع، والسَّحَر مِن اللَّيل.

ومِن الأوقات الشَّريفة بين الآذان والإقامة، وعَقيبَ الصَّلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السُّجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله.

وعلى الحقيقة فإنَّ شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، فإنَّ وقت السَّحَر وقتُ صفاء القلب وفراغه، وحالةَ السُّجود حالةُ الذُّلِّ.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٨٠)، وأحمدُ (٩٩٦٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنهُ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) روى الترمذي جزأه الأول «**لَيسَ شَيءٌ أكرَمُ عَلَى اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **مِن الدُّعاءِ**» الحديث رقم (٣٣٧٠)، وأحمد الحديث (٨٧٤٨)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» الحديث (١٠٧١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه مرفوعًا إلَّا مِن حديث عمران القطَّان.
وروى البخاريُّ في «الأدب المفرد» جزأه الثاني «**أَشرَفُ العِبادةِ الدُّعاءُ**». الحديث (٧١٣).
وروى أبو يعلى الموصلي الجزء الثالث «**مَن لا يَسأَلِ اللهَ يَغضَبْ عَلَيهِ**» الحديث (٦٦٥٥).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٧١)، وتمامه: «**وَأَفضَلُ العِبادَةِ انتِظارُ الفَرَجِ**» وقال بعده: هكذا روى حمَّاد بن واقِدٍ هذا الحديث، وقد خُولِف في روايته، وحمَّاد بن واقد هذا هو الصفَّار ليس بالحافظ، وروى أبو نُعيم، هذا الحديث عن إسرائيلَ، عن حكيم بن جبيرٍ، عن رجلٍ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مُرسَلًا، وحديث أبي نُعيم أشبه أنْ يكون أصحَّ.

ومِن آداب الدُّعاء أنْ يدعوَ مُستقبِلَ القِبلة، ويرفعَ يدَيه، ثُمَّ يمسحَ بهما وجهه، وأنْ يَخفِضَ صوته حال الدُّعاء.

ومِن آدابه أنْ يبدأ بذِكر الله عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يُصلِّي على النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يَتكلَّف السَّجع في الدُّعاء، ومِن آدابه -وهو الأدب الباطن، وهو الأصل في الإجابة- التَّوبة، ورَدُّ المَظالِم.

فَصْلٌ في الأَوْرادِ وفَضْلِها وتَوْزِيعِ العِبادَاتِ عَلَى مَقادِيرِ الأَوْقاتِ

اعلم أنَّه إذا حَصَلت المعرفة [بالله][1] سبحانه، والتَّصديقُ بوعده، والعِلمُ بقِصَر العمر وجب ترك التَّقصير في هذا العُمُر القصير، والنَّفس متى وَقفتْ على فنٍّ واحدٍ حصل لها مَللٌ، فمِن التَّلطُّف نَقْلُها مِن فنٍّ إلى فنٍّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥-٢٦]، فهذا ونحوه ممَّا ذُكِر مِن الآيات في ذلك يدلُّ على أنَّ الطَّريق إلى الله تعالى مُراقَبة الأوقات، وعمارتها بالأوراد على الدَّوام، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢]، أي يَخلف أحدهما الآخر؛ ليتداركَ في أحدهما ما فات في الآخر.

بَيانُ عَدَدِ أَوْرادِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وتَرْتِيبِها

أوراد النَّهار سبعةٌ، وأوراد اللَّيل ستَّةٌ، فلنذكر فضيلة كلِّ وردٍ، ووظيفته، وما يَتعلَّق به.

الوِرد الأوَّل مِن أوراد النَّهار: ما بين طلوع الفجر الثَّاني إلى طلوع الشَّمس، وهو وقتٌ شريفٌ، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، فينبغي

---

(١) ورد في "المطبوع" [لله].

للمُريد إذا [انتبه][(١)] مِن النَّوم أنْ يَذكرَ الله سُبحانَهُ وتَعالَى فيقول: «الحَمدُ للهِ الذي أحيَانَا بَعدَ أنْ أماتَنَا، وَإلَيهِ النُّشُورُ». رُوي ذلك عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِن أفراد البخاريِّ[(٢)].

وفي أفراد مسلمٍ[(٣)] مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أمسى قال: « أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ربِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ ما في هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَخَيرَ مَا بَعدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ».

وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «أَصبَحنَا وَأَصبَحَ المُلكُ للهِ...» إلى آخره.

ويقول «بِسمِ اللهِ الذي لا يَضُرُّ مَعَ اسمِهِ شَيءٌ في الأرضِ وَلا في السَّماءِ، وهو السَّمِيعُ العَلِيمُ» ثلاث مرَّاتٍ[(٤)].

«رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبالإسلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ نَبيًّا وَرَسُولًا»[(٥)].

فإذا صلَّى الفجر قال وهو ثانٍ رِجله قَبل أنْ يَتكلَّم: «لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمدُ، يُحيِي وَيُمِيتُ، وهو عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ» عشرَ مرَّاتٍ[(٦)].

---

(١) ورد في " المطبوع، خ " [تَنبَّه].

(٢) رواه البخاريُّ (٥٩٥٣) عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٣) رواه مسلمٌ (٢٧٢٣) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٤) لِما روى ابن ماجه (٣٨٦٩) عن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ، وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ

(٥) لِما روى ابن ماجه (٣٨٧٠) عَنْ أَبِي سَلَّامٍ، خَادِمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ إِنْسَانٍ أَوْ عَبْدٍ يَقُولُ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(٦) رواه ابن ماجه (٣٨٦٧) عن أبي عيَّاشٍ الزُّرقيِّ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

ويَذكر سيِّد الاستغفار: «اللَّهمَّ أنتَ ربِّي، لا إلهَ إلَّا أنتَ، خلقتَني وأنا عبدُكَ، وأنا علَى عهدِكَ ووعدِكَ ما استطَعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ، أبُوءُ لكَ بنعمتِكَ علَيَّ، وأبُوءُ بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنَّه لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ»(١).

ويقول: «أصبَحْنا علَى فِطرَةِ الإسْلامِ، وعلَى كلِمةِ الإخلاصِ، ودِينِ نبيِّنا مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ومِلَّةِ أبينا إبْراهيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، ومَا كانَ مِنَ الْمُشرِكِينَ»(٢).

ويدعو: «اللهُمَّ أصْلِحْ لي دِيني الَّذي هُوَ عِصمَةُ أمْري، وأصْلِحْ لي دُنْيايَ الَّتي فِيهَا معَاشِي، وأصْلِحْ لي آخِرتِي الَّتي فِيهَا مَعادِي، واجْعَلِ الْحَياةَ زِيادَةً لي في كُلِّ خيْرٍ، واجْعَلِ الْموْتَ راحَةً لي مِنْ كُلِّ شرٍّ»(٣).

ويدعو بدعاء أبي الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ أنْتَ ربِّي، لا إلهَ إلَّا أنْتَ، علَيْكَ توكَّلْتُ، وأنْتَ ربُّ الْعرْشِ الْعظِيمِ، ما شاءَ اللهُ كانَ، ومَا لمْ يشَأْ لمْ يكُنْ، لا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ الْعلِيِّ الْعظِيمِ، أعْلَمُ أنَّ اللَّهَ علَى كُلِّ شيْءٍ قدِيرٌ، وأنَّ اللَّهَ قدْ أحاطَ بكُلِّ شيْءٍ عِلْمًا، اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفْسِي، ومِنْ شرِّ كُلِّ دابَّةٍ أنْتَ آخِذٌ بناصِيتِهَا، إنَّ ربِّي علَى صِراطٍ مُسْتقِيمٍ»(٤).

فهذه الأدعية لا يَستغنِي المريد عن حِفْظها.

وينبغي له قَبل خروجه إلى صلاة الفجر أنْ يُصلِّيَ السُّنَّة في منزله، ثُمَّ يخرج مُتوجِّهًا إلى المسجد، ويقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ بحَقِّ السَّائِلِينَ علَيْكَ، وبحَقِّ ممْشايَ هذَا، فإنِّي لمْ أخْرُجْ أشَرًا، ولا بطَرًا، ولا رِياءً، ولا سُمْعةً، وخرَجْتُ اتِّقاءَ سُخْطِكَ، وابْتِغاءَ مرْضاتِكَ، أسْألُكَ أنْ تُنقِذَنِي مِنَ النَّارِ، وأنْ تغْفِرَ لي ذُنُوبِي، إنَّهُ لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ»(٥).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٩٤٧).

(٢) هذا حديثٌ أخرجه أحمدُ (١٥٣٦٠)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (٩٧٤٣) عن عبد الرَّحمن بن أبزى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) هذا حديث رواه مسلمٌ (٢٧٢٠) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» الحديث (٣٤٤).

(٥) رواه ابن ماجه (٧٧٨)، وأحمدُ (١١١٥٦) عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٣/ ٩٠): بإسنادٍ حسنٍ.

فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلمٌ[١] في «صحيحه» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلى النَّبيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ثُمَّ لِيَقُلْ: اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»**، ثُمَّ يطلب الصَّفَّ الأوَّل مُنتظِرًا للجماعة، داعيًا بنحو ما تقدَّم مِن الأذكار والأدعية.

فإذا صلَّى الفجر استُحِبَّ أنْ يَمكُثَ في مكانه إلى طلوع الشَّمس.

فقد روى أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«مَنْ صَلَّى الفَجرَ في جَماعةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذكُرُ اللهَ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، ثُمَّ صلَّى رَكعتَينِ، كانتْ لَه كَأَجرِ حَجَّةٍ وَعُمرَةٍ تَامَّةٍ، تَامَّةٍ، تَامَّةٍ»**[٢].

وليكن وظائفُ وقته أربعًا: الدُّعاء، والذِّكْر، والقراءة، والفِكْر.

ولْيأتِ بما أَمكَنه، ولْيتفكَّرْ في قطع القواطع، وشغل الشَّواغل عن الخير؛ لِيؤديَ وظائفَ يومه، ولِيتفكَّرَ في نِعَم الله تعالى؛ لِيتوفَّرَ شُكره.

الوِرد الثَّاني: ما بين طلوع الشَّمس إلى الضُّحَى، وذلك بمُضيِّ ثلاث ساعاتٍ مِن النَّهار، إذا فُرِض النَّهار اثنتَي عشرةَ ساعةً، وهو الرُّبع، وهذا وقتٌ شريفٌ، وفيه وظيفتان:

أحدهما: صلاة الضُّحَى.

والثَّانية: ما يَتعلَّق بالنَّاس مِن عيادة مريضٍ، أو تشييع جنازةٍ، أو حُضور مَجلس عِلمٍ، أو قَضاء حاجة مسلمٍ، وإنْ لم يفعل شيئًا مِن ذلك تشاغَل بالقراءة والذِّكْر.

الوِرد الثَّالث: مِن وقت الضُّحَى إلى الزَّوال، والوظيفة في هذا الوقت الأقسام الأربعة، وزيادة أمرَين:

---

(١) رواه مسلمٌ (٧١٣) بلفظ «**إذا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهمَّ...**» وأمَّا لفظ المُصنِّف هنا فقد رواه أبو داودَ (٤٦٥)، وابن ماجه (٧٧٢) عن أبي حُميدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٥٨٦)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريب.

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمَعاش، وحضور السُّوق، فإنْ كان تاجرًا فلْيتَّجِرْ بصدقٍ وأمانةٍ، وإنْ كان صاحب صَنعةٍ، فلْيصنعْ بنصيحةٍ وشفقةٍ، ولا ينسَى ذِكْر الله تعالى في جميع أشغاله، ولْيقنَعْ بالقليل.

والثَّاني: القيلولة، فإنَّها ممَّا تُعِين على قيام اللَّيل، كما يُعِين السَّحُور على صيام النَّهار، فإنْ نام فلْيجتهِدْ في الانتباه قَبل الزَّوال بقَدْر الاستعداد للصَّلاة قَبل دخول الوقت.

واعلم أنَّ اللَّيل والنَّهار أربعٌ وعشرون ساعةً، فالاعتدال أنْ ينام مِن ذلك الثُّلث، وهو ثمانِ ساعاتٍ، فمَن نام أقلَّ مِن ذلك لم يأمنِ اضطراب بَدَنِه، ومَن نام أكثر مِن ذلك كَثُر كَسَله، فإذا نام أكثرَ مِن ذلك في اللَّيل فلا وجهَ لنومه في النَّهار، بل مَن نَقَص منه استوفَى ما نقص في النَّهار.

الوِرد الرَّابع: ما بين الزَّوال إلى الفراغ مِن صلاة الظُّهر، وهو أَقصَر أوراد النَّهار وأفضلها، فينبغي له في هذا الوقت إذا أذَّن المُؤذِّن أنْ يُجيبَه بمِثل قوله، ثُمَّ يقوم فيُصلِّي أربع ركعاتٍ، ويُستحَبُّ أنْ يُطيلَهنَّ، فإنَّ أبواب السَّماء تُفتَّح حينَئذٍ، ثُمَّ يُصلِّي الظُّهر وسُنَّتها، ثُمَّ يَتطوَّع بعدها بأربعٍ.

الوِرد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، يُستحَبُّ له في هذا الوقت الاشتغال بالذِّكْر، والصَّلاة، وفُنونِ الخير، ومِن أفضل الأعمال انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة.

الوِرد السَّادس: إذا دَخَل وقت العصر إلى أنْ تَصفرَّ الشَّمس، وليس في هذا الوقت صلاةٌ سِوى أربع ركعاتٍ بين الأذانَين، ثُمَّ فَرْض العصر، ثُمَّ يَتشاغَل بالأقسام الأربعة التي سَبَق ذِكرُها في الوِرد الأوَّل، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفهُّم.

الوِرد السَّابع: مِنِ اصفرار الشَّمس إلى أنْ تَغربَ، وهو وقتٌ شريفٌ، قال [الحسن][1] رَحِمَهُ اللَّهُ: كانوا أشدَّ تعظيمًا للعَشيِّ مِن أوَّل النَّهار. فيُستحَبُّ في هذا الوقت

---

(١) ورد في "المطبوع" [البصريُّ]، وورد في "خ" [الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

التَّسبيح، والاستغفار خاصَّةً، وبالمغرب تَنتهي أوراد النَّهار، فينبغي أنْ يُلاحِظَ العبد أحواله، ويُحاسِب نفسه، فقدِ انقضت مِن طريقه مَرحلةٌ، ولْيعلمْ أنَّ العُمر أيَّامٌ تَنقضِي جُملتُها بانقضاء آحادها، قال الحسن: «يا ابنَ آدمَ، إنَّما أنتَ أيَّامٌ، وإذا مضَى يومٌ مضَى بعضُكَ»(١). ولْيتفكَّر هل ساوى يومُه أمسَه، فإنْ رأى أنَّه قد توفَّر على الخير في نهاره، فلْيشكرِ الله سُبحانَهُ وتَعالَى على التَّوفيق، [وإنْ يكنِ الآخر](٢)، فلْيَتُبْ، ولْيعزِمْ على تلافِي ما سبق مِن التَّفريط في اللَّيل، فإنَّ الحسنات يُذهِبنَ السَّيِّئات، ولْيشكرِ الله تعالى على صِحَّة جسمه، وبقاء بقيَّةٍ مِن عُمرٍ يُمكِن فيها استدراك التَّقصير، وقد كان جماعةٌ مِن السَّلَف يَستحِبُّون ألَّا ينقضيَ يومٌ إلَّا عن صدقةٍ، ويَجتهِدون فيما أمكن مِن كلِّ خيرٍ.

ذِكْرُ أوْرادِ اللَّيلِ

الوِرد الأوَّل: إذا غربتِ الشَّمس إلى وقت العِشاء، فإذا غَربت صلَّى المغرب، واشتغل بإحياء ما بين العِشاءَين، فقد رُوي عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] أنَّ هذه الآية نزلت في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانوا يُصلُّون بين المغرب والعِشاء(٣).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ صَلَّى بَعدَ المَغرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ، ولَم يَتكَلَّمْ فِيمَا بَينَهُنَّ بِسُوءٍ، عَدَلْنَ لَه بِعِبادَةِ اثنَتَي عَشْرَةَ سَنةً»**. رواه التِّرمذيُّ(٤).

---

(١) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ١٤٨).

(٢) ورد في "المطبوع" [فإنْ تكنِ الأُخرَى]، وفي "ن" [وإن تكن الأخرى].

(٣) أخرجه أبو داودَ الحديث (١٣٢١)، والبيهقي في «الكبرى» الحديث (٤٧٤٩)، والتِّرمذيُّ الحديث (٣١٩٦)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولفظ الترمذي: نَزَلت في انتظار هذه الصَّلاة التي تُدعَى العتمة.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٤٣٥)، وقال العراقي في «المغني» (١/ ٤١٩): ضعَّفه التِّرمذيُّ، ولأبي منصور الدَّيلميِّ في «مسند الفردوس» مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **«مَنْ صَلَّى أَربَعَ رَكَعاتٍ بَعدَ المَغرِبِ قَبلَ أنْ يُكَلِّمَ أَحَدًا وُضِعَتْ لَه في عِلِّيِّينَ، وَكَانَ كَمَنْ أَدرَكَ لَيلَةَ القَدرِ في المَسجِدِ الأَقصَى»**. وسنده ضعيفٌ.

الوِرد الثَّاني: مِن غيبوبة الشَّفَق الأحمر إلى وقت النَّوم، يُستحَبُّ أنْ يُصلِّي بين الأذانَين ما أمكنه، ولْيكنْ في قراءته: ﴿الٓمٓ﴾ [التنزيل][1] [السجدة: ١]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] فقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَنام حتى يقرأهما[2].

وفي حديثٍ آخَر، عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الوَاقِعَةِ كُلَّ لَيلَةٍ لَم [يُصِبْهُ][3] فاقَةٌ**»[4].

الوِرد الثَّالث: الوِتر قَبل النَّوم، إلَّا مَن كان عادته القيام باللَّيل، فإنَّ تأخيره في حقِّه أفضل، قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مِن كلِّ اللَّيل قد أَوتَر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِن أوَّل اللَّيل، وأوسطه، وآخِره، فانتهى وتره إلى السَّحَر. مُتَّفَقٌ عليه[5]، ثُمَّ ليَقلْ بعد الوتر: «**سُبحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ [ثلاث مرَّاتٍ][6]**».

الـوِرد الرَّابع: النَّوم، وإنَّما عَدَدناه مِن الأوراد؛ لأنَّه إذا رُوعِيت آدابه، وحَسُنَ المقصود به احتُسِب عبادةً، وقد قال معاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنِّي لَأَحتَسِبُ في نومتي كما أَحتَسِبُ في قَومتي[7].

فمِن آداب النَّوم: أنْ ينامَ على طهارةٍ؛ لما روت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أراد أنْ ينامَ توضَّأ وُضوءه للصَّلاة[8].

---

(١) ورد في "ن، خ "[تنزيل]، وسقطت من " المطبوع ".

(٢) رواه أحمدُ (١٤٦٥٩)، والتِّرمذيُّ (٢٨٩٢)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ رواه غيرُ واحدٍ عن ليث بن أبي سليم مثل هذا.

(٣) ورد في " المطبوع، ن، خ "[تُصِبْهُ].

(٤) رواه ابن السُّنِّي (٦٧٨)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٢٢٦٧) بلفظ «لَم يَفتَقِرْ»، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقي في «المغني» (١/ ٣٢١): سنده ضعيف.

(٥) رواه البخاريُّ (٩٥١)، ومسلمٌ (٧٤٥).

(٦) سقطت من " الأصل ".

(٧) رواه البخاري (٤٣٤٤).

(٨) رواه أحمدُ (٢٤٥٥٥)، وروى البخاريُّ (٥٩٥٢) عن البراء بن عازبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أَتَيتَ مَضجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاةِ، ثُمَّ اضطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأيمنِ...**».

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ الأرواح يُعرَج بها في منامها إلى السَّماء، فتُؤمَر بالسُّجود عند العرش، فما كان منها طاهرًا سَجَد عند العرش، وما كان ليس بطاهرٍ سَجَد بعيدًا عن العرش.

ومِن آدابه: أنْ يتوبَ قَبل نومه؛ لأنَّه ينبغي لِمَن طهَّر ظاهره أنْ يُطهِّر باطنه؛ لأنَّه ربَّما مات في نومه.

ومنها: أنْ يُزِيل كلَّ غشٍّ في قلبه لمُسلمٍ، ولا ينويَ ظُلمَه، ولا يعزم على خطيئةٍ إذا استيقظ.

ومنها: ألَّا يبيتَ مَن له شيءٌ يُوصِي به إلَّا ووصيَّتُه مكتوبةٌ عنده؛ لأنَّ في «الصَّحيحَين»[1] مِن حديث ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**ما حَقُّ امرِئٍ مُسلِمٍ لَه شَيءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيلَتَينِ إلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكتُوبةٌ عِندَهُ**».

وينبغي له أيضًا ألَّا يُبالِغ في تمهيد الفِراش مُتنعِّمًا بذلك، فإنَّه يزيد في النَّوم، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُنِيَ له فِراشه فقال: «**مَنعَتْنِي وَطأَتُهُ صَلاتِي اللَّيلَةَ**».

وينبغي ألَّا ينامَ حتى يغلبه النَّوم، فقد كان السَّلف لا يَنامون إلَّا [بعد][2] [غَلبة][3].

ومِن آدابه: أنْ يستقبلَ القِبلة، وأنْ يدعوَ بما ورد مِن الأحاديث في ذلك، وأنْ ينامَ على جنبه الأيمن، فممَّا جاء في ذلك ما روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إلى فِرَاشِهِ فَلْيَنفِضْهُ بِدَاخِلَةِ إزَارِهِ، فَإنَّهُ لا يَدرِي مَا حَدَثَ بَعدَهُ، فإذا وَضَع جَنبَهُ فَليَقُلْ: باسْمِكَ رَبِّي وَضَعتُ جَنبِي، وَبِكَ أَرفَعُهُ، إنْ أَمسَكتَ نَفسِي فَاغفِرْ لَهُا، وإنْ أَرسَلْتَهَا فَاحفَظْهَا بِمَا تَحفَظُ بِه عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**» أخرجاه في «الصَّحيحَين»[4].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٥٨٧)، ومسلمٌ (١٦٢٧).

(٢) سقطت من "المطبوع، ن".

(٣) ورد في "خ" [غلبته].

(٤) رواه البخاريُّ (٥٩٦١)، ومسلمٌ (٢٧١٤).

وفي «الصَّحيحَين»[١] أيضًا مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنها أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلةٍ، جمع كفَّيه، ثُمَّ نَفَث فيهما، وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، ثُمَّ يمسح بهما ما استطاع مِن جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أَقبَل مِن [جسده][٢]، ثلاث مرَّاتٍ.

وفيهما[٣] مِن حديث البراء بن عازبٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا أَتيتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهتُ وَجهِي إِلَيكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ، مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصبَحتَ أَصَبتَ خَيرًا**».

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال له ولفاطمةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما: «**إذا أَخَذتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، أَو أَوَيتُمَا إلى فِرَاشِكُمَا، فَسَبِّحَا اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، واحمِدَاهُ ثَلَاثًا وثَلَاثِينَ، وكَبِّرَاهُ أَربَعًا وثَلَاثِينَ، فهو خَيرٌ لَكُمَا مِن خَادِمٍ**». مُتَّفَقٌ عليه[٤].

وحديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ في حفظ زكاة رمضانَ مشهورٌ، وفيه أنَّ شيطانًا قال له: إذا أويتَ إلى فِراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنَّه لن يزال عليك مِن الله حافظٌ، ولا يقربك شيطانٌ، فأخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ**»[٥].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٢٩)، ومسلمٌ (٢١٩٢) ورواية مسلم في رقية المريض لا في النوم.

(٢) ورد في "المطبوع، ن" [يفعل ذلك]، وفي "خ" [ففعل ذلك].

(٣) رواه البخاريُّ (٥٩٥٤)، ومسلمٌ (٢٧١٠).

(٤) رواه البخاريُّ (٥٠٤٦)، ومسلمٌ (٢٧٢٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٢١٨٧) تعليقًا، ولم يُصرِّح فيه بالتَّحديث كما قال في «الفتح» (٤/ ٨٩٨).

وفي أفراد مسلم[١] أنَّ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أوى إلى فِراشه قال: «**الحَمدُ للهِ الذي أَطعَمَنا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وآوَانَا، فَكَمْ مِنْ لا كافِيَ لَه، ولا مُؤوِيَ**».

فإذا استيقظ للتَّهجُّد فلْيدعُ بدعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ**».

وفي روايةٍ: «**وَمَا أَنتَ أَعلَمُ بِه مِنِّي، أَنتَ المُقَدِّمُ، وَأَنتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ**». مُتَّفَقٌ عليه[٢].

ولْيجتهد أنْ يكون آخِر كلامه عند النَّوم ذِكْر الله تعالى؛ وأوَّل ما يجري على لسانه عند التَّيقُّظ ذِكْر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الوِرد الخامس مِن أوراد اللَّيل: يدخل بمُضيِّ النِّصف الأوَّل إلى أنْ يبقَى مِن اللَّيل سُدسه، وذلك وقتٌ شريفٌ.

قال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سألتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ صلاةِ اللَّيل أفضلُ؟ فقال: «**نِصفُ اللَّيلِ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ**»[٣].

ورُوي أنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: يا ربِّ، أيَّة ساعةٍ أَقُوم لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داودُ، لا تقم أوَّل اللَّيل ولا آخِرَه، ولكن قم في شطر اللَّيل حتى تخلوَ بي وأخلوَ بك، وارفع إليَّ حوائِجَكَ.

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٧١٥)، عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاريُّ (١٠٦٩)، ومسلمٌ (٧٦٩) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٢٨٢٨)، وأحمد (٢١٥٥٥)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٩٤٤).

فإذا قام إلى التَّهجُّد، قرأ العشر آيات مِن آخِر سورة (آل عمران)، كما رُوي في «الصَّحيحَين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ فعل ذلك، ولْيَدع بما سبق مِن دعائه ﷺ عند قيامه مِن اللَّيل، ثُمَّ يستفتح صلاته بركعتَين خفيفتَين؛ لِمَا روى أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا قامَ أَحَدُكُم يُصَلِّي باللَّيلِ، فَلْيَبدَأْ بركعتَينِ خَفِيفتَينِ**» رواه مسلمٌ[1].

ثُمَّ يُصلِّي مَثنَى مَثنَى، وأكثر ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يُصلِّي مِن اللَّيل ثلاثَ عشرةَ ركعةً مع الوتر، وأَقلُّهنَّ سبعٌ.

الورد السَّادس مِن اللَّيل: السُّدُس الأخير، وهو وقتُ السَّحَر، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وفي الحديث: «**إنَّ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ آخِرَ اللَّيلِ مَحضُورَةٌ**»[2].

وجاء طاووسٌ[3] إلى رجلٍ وقت السَّحَر فقالوا: هو نائمٌ. فقال: ما كنتُ أرى أنَّ أحدًا ينام وقتَ السَّحَر.

فإذا فرغ المُريد مِن صلاة السَّحَر، فلْيستغفر الله عَزَّ وَجَلَّ، ورُوي عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كان يفعل ذلك.

فصلٌ في اختلافِ الأورادِ باختلافِ الأحوالِ

اعلم أنَّ السَّالك لطريق الآخرة لا يخلو مِن ستَّة أحوالٍ: إمَّا أنْ يكون عابدًا، أو عالِمًا، أو مُتعلِّمًا، أو واليًا، أو مُحترِفًا، أو مُستغرِقًا بمحبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ مشغولًا به عن غيره.

---

(١) رواه مسلمٌ (٧٦٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلمٌ (٧٥٥) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) طاووس بن كيسان الفارسيُّ، كان مِن أبناء الفرس الذين جهَّزهم كسرى لأخذ اليمن له، سمع مِن زيد بن ثابتٍ، وعائشةَ، وأبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وروى عنه عطاءٌ، ومجاهدٌ، وجماعةٌ مِن أقرانه، توفِّي سنة (١٠٦). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٣٨)، الأعلام، «الزِّركليُّ»، (٣/ ٢٢٤).

الأوَّل: العابد، وهو المُنقطِع عن الأشغال كلِّها إلى التَّعبُّد، فهذا يَستعمِل ما ذَكَرنا مِن الأوراد، وقد تَختلِف وظائفه، فقد كانت أحوال المُتعبِّدِين مِن السَّلف مُختلِفةً، فمنهم مَن كان يغلب على [أحواله][(١)] التِّلاوة، حتى يختم في يومٍ ختمةً، أو ختمتَين، أو ثلاثًا، وكان فيهم مَن يُكثِر التَّسبيح، ومنهم مَن يُكثِر الصَّلاة، ومنهم مَن يُكثِر الطَّواف بالبيت، فإنْ قيل: فما الأَولى أنْ يَصرِفَ إليه أكثرَ الأوقات مِن هذه الأوراد؟ فاعلم أنَّ قراءة القرآن في الصَّلاة قائمًا مع التَّدبُّر يجمع الجميع، ولكن ربَّما عَسُرتِ المُواظَبة على ذلك، والأفضل يختلف باختلاف حال الشَّخص، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره، فلْينظرِ المُريد [بما][(٢)] يراه أشدَّ تأثيرًا فيه فلْيُواظبْ عليه، فإذا أحسَّ بمللٍ انتقل عنه إلى غيره. قال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ[(٣)]: فإذا وجدتَ قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدتَه في الرُّكوع فلا ترفع.

الثَّاني: العالِم الذي ينتفع النَّاس بعِلمه في فتوَى، أو تدريسٍ، أو تصنيفٍ، أو تذكيرٍ، فترتيبُه في الأوراد يُخالِف ترتيب العابد، فإنَّه يحتاج إلى المُطالَعة في الكُتُب، والتَّصنيف، والإفادة، فإنِ استغرق الأوقات في ذلك فهو أفضلُ ما يشتغل به بعد المكتوبات، وإنَّما نعنِي بالعِلم المُقدَّمِ على العبادة العِلمَ الذي يُرغِّب في الآخرة، ويُعين على سلوك طريقها، والأَولى بالعالِم أيضًا أنْ يقسمَ أوقاته؛ لأنَّ استغراق الأوقات في العِلم لا تصبر عليه النَّفْس، فينبغي أنْ يخصَّ ما بعد الصُّبح إلى طلوع الشَّمس بالأذكار والأوراد

(١) ورد في "المطبوع" [حاله].

(٢) ورد في "المطبوع، ن، خ" [ما].

(٣) أبو سليمانَ الدَّارانيُّ عبد الرَّحمن بن أحمد وقيل: عبد الرَّحمن بن عطيَّةَ العنسي المذحجي الإمام، الكبير، زاهد العصر، مِن أهل داريَّا (بغوطة دمشقَ) رحل إلى بغدادَ، وأقام بها مدَّةً، ثُمَّ عاد إلى الشَّام، وتوفِّي في بلده. كان مِن كِبار المُتصوِّفِين، له أخبارٌ في الزُّهد، ولد في حدود الأربعين ومائةٍ، روى عن سفيانَ الثَّوريِّ، وأبي الأشهب العطارديِّ، وعلقمةَ بن سويدٍ، وعنه أحمدُ بن أبي الحواريِّ، وهاشم بن خالدٍ، وحميد بن هشامٍ العنسيُّ، انظر سير أعلام النُّبلاء، (١٠/ ١٨٢)، تقريب التَّهذيب، (ص٣٤٢)، الأعلام، (٣/ ٢٩٣).

على ما ذَكَرنا، ثُمَّ ما بعد طلوع الشَّمس إلى الضُّحى في الإفادة والتَّعليم، فإنْ لم يكنْ عنده مَن يَتعلَّم، صرف ذلك الزَّمان إلى التَّفكُّر في العلوم، فإنَّ صفاء القلب بعد الفراغ مِن الذِّكْر وقَبل الاشتغال بهموم الدُّنيا يُعين على التَّفطُّن للمشكلات، ثُمَّ مِن ضحوة النَّهار إلى العصر للتَّصنيف والمُطالَعة، لا يترك ذلك إلَّا في وقت أكلٍ، أو طهارةٍ، أو مكتوبةٍ، أو قيلولةٍ، [ومِن العصر إلى اصفرار الشمس يشتغل بسماع ما يقرأ عليه من تفسير أو حديث أو علم نافع][١]، ومِن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتَّسبيح، فيكون وِرده الأوَّل مِن عمل اللِّسان، والثَّاني في عمل بالقلب بالتَّفكُّر، والثَّالث في عمل العين واليد [بالمطالعة][٢] والنَّسْخ، والرَّابع بعد العصر في عمل السَّمع؛ لِتتَروَّح العين واليد، فإنَّ المُطالَعة والنَّسْخ بعد العصر ربَّما أضرَّ [بالعين][٣].

وأمَّا اللَّيل فأحسن قِسمةٍ فيه قسمةُ الشَّافعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنَّه كان يقسمه ثلاثة أجزاءٍ: الثُّلث الأوَّل لكتابة العلم، والثَّاني للصَّلاة، والثَّالث للنَّوم، فأمَّا في الصيف فربَّما لا يحتمل ذلك، إلَّا إذا كان أكثرَ النَّومَ بالنَّهار.

الثَّالث: حال المُتعلِّم، فإنَّ التَّعلُّم أفضلُ مِن التَّشاغُل بالأذكار والنَّوافل، وحُكم المُتعلِّم حُكم العالِم في ترتيب الأوراد، لكنَّه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالِم بالإفادة، وبالتَّعليق والنَّسْخ حين يشتغل العالِم بالتَّصنيف، فإنْ كان مِن العوامِّ كان حضوره مَجالِسَ الذِّكْر والعِلم والوعظ أفضلَ مِن اشتغاله بالأوراد المُتطوَّع بها.

الرَّابع: الوالي مِثل الإمام، والقاضي، [والمُتولِّي][٤] للنَّظر في أَمْرٍ مِن أُمور المسلمين، فقِيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشَّرع، وقصد الإخلاص

(١) سقطت من "المطبوع".
(٢) ورد في "المطبوع" [والمطالعة].
(٣) ورد في "المطبوع" [العين].
(٤) ورد في "المطبوع" [أو المتولي]، ورد في "ن" [ومتولي].

أفضلُ مِن الأوراد المذكورة؛ لأنَّه عبادةٌ يَتعدَّى نفعها، فينبغي أنْ يقتصر في النَّهار على المكتوبات، ثُمَّ يستفرغ باقي الزَّمان في ذلك، ويَقنَع بأوراد اللَّيل.

الخامس: **المُحترِف**، وهو مُحتاجٌ إلى الكسب له ولعياله، فليس له أنْ يستغرقَ الزَّمان في التَّعبُّد، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذِّكْر، فإذا حَصَل له ما يكفيه عاود الأوراد.

السَّادس: **المُستغرِق بمحبَّة الله سبحانه**، فهذا وِرده بعد المكتوبات حُضور القلب مع الله تعالى، وهو يُحرِّكه إلى ما يريد مِن وِرده.

وينبغي أنْ يُداوِم العمل على الأوراد؛ لقول النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَبُّ العَمَلِ إلى اللهِ تَعالَى أَدوَمُهُ وَإنْ قَلَّ**»[(١)]. وكان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَله دِيْمَةٌ.

بيانٌ في قيام اللَّيل وفضله والأسباب الميسِّرة لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] وقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيكُمْ بِقِيامِ اللَّيلِ، فَإنَّه دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبلَكُم، وَهُو قُربَةٌ إلى رَبِّكُمْ، وَمَغفِرَةٌ للسَّيِّئاتِ، ومَنهَاةٌ عَنِ الإِثمِ**»[(٢)] وفي فَضْله أحاديثُ كثيرةٌ.

وقال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللهُ: لم أجدْ مِن العبادة شيئًا أشدَّ مِن الصَّلاة في جوف اللَّيل. فقيل له: ما بال المُتهجِّدِين أحسنُ النَّاس وُجوهًا؟ فقال: لأنَّهم خَلَوا بالرَّحمن، فألبَسهم مِن نوره[(٣)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٨١٨) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٢٣)، والتِّرمذيُّ (٣٥٤٩) عن بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه مِن حديث بلالٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلَّا مِن هذا الوجه، ولا يصحُّ مِن قِبَل إسناده، وسمعتُ محمَّدَ بن إسماعيلَ يقول: محمَّدٌ القرشيُّ هو محمَّد بن سعيد الشَّاميُّ، وهو ابن أبي قيس، وهو محمَّد بن حسَّانَ، وقد تُرِك حديثه.

(٣) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العِلم» (١٣٣).

فَصْلٌ في الأَسْبَابِ المُيَسِّرَةِ لِقِيَامِ اللَّيْلِ

اعلم أنَّ قِيام اللَّيل صعبٌ إلَّا على مَن وُفِّق للقيام بشروطه المُيسِّرة له.

فمِن الأسباب ظاهرٌ، ومنها باطنٌ.

فأمَّا الظَّاهر فأنْ لا يُكثِر الأكل، كان بعضهم يقول: يا مَعشَرَ المُريدِين، لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فتناموا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا.

ومنها: ألَّا يُتعِب نفسه بالنَّهار بالأعمال الشَّاقَّة.

ومنها: ألَّا يتركَ القيلولة بالنَّهار، فإنَّها تُعين على قِيام اللَّيل.

ومنها: أنْ يجتنبَ الأوزار. قال الثَّوريُّ: حُرِمتُ قِيام اللَّيل خمسةَ أشهرٍ بذَنبٍ أذنبتُه[١].

وأمَّا المُيسِّرات الباطنة:

فمنها: سلامة القلب للمسلمين، وخلوُّه مِن البِدَع، وإعراضه عن فُضول الدُّنيا.

ومنها: خوفٌ غالبٌ يَلزَم القلب مع قِصَر الأمل.

ومنها: أنْ يعرفَ فضل قيام اللَّيل.

ومِن أشرف البواعث على ذلك الحبُّ لله تعالى، وقوَّة الإيمان بأنَّه إذا قام ناجى ربَّه، وأنَّه حاضره ومُشاهِده، فتَحمِله المناجاة على طُول القيام.

قال أبو سليمانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أهل اللَّيل في ليلهم ألذُّ مِن أهل اللَّهو في لهوهم، ولولا اللَّيل ما أحببتُ البقاء في الدُّنيا.

وفي «صحيح مسلم»[٢] عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّ في اللَّيلِ لَساعَةً لا يُوافِقُها عَبدٌ مُسلِمٌ يَسأَلُ اللهَ فِيها خَيرًا إلَّا آتاهُ إيَّاهُ، وذَلِكَ كُلَّ لَيلَةٍ**».

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ١٧).

(٢) رواه مسلمٌ (٧٥٧) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإحياء اللَّيل مراتبُ:

أحدهما: أنْ يُحييَ اللَّيل كلَّه، رُوي ذلك عن جماعةٍ مِن السَّلف.

الثَّانية: أنْ يقومَ نصف اللَّيل، وهو مَرويٌّ أيضًا عن جماعةٍ مِن السَّلف، وأَحسنُ الطَّريق في هذا أنْ ينامَ الثُّلث الأوَّل مِن اللَّيل، والسُّدُس الأخير منه.

المرتبة الثَّالثة: أنْ يقومَ ثُلث اللَّيل، فينبغي أنْ ينامَ النِّصف الأوَّل، والسُّدُس الأخير، وهو قِيام داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ففي «الصَّحيحَين»[١]: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إلى اللهِ صَلاَةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنامُ نِصفَ اللَّيلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»، ونوم آخِر اللَّيل حَسَنٌ؛ لأنَّه يَذهَب بآثار النُّعاس مِن الوجه بالغداة، ويُقلِّل صُفرته.

المرتبة الرَّابعة: أنْ يقومَ سُدس اللَّيل أو خُمسه، والأفضل مِن ذلك ما كان في النِّصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السُّدُس الأخير.

المرتبة الخامسة: ألَّا يُراعيَ التَّقدير، فإنَّ مراعاةَ ذلك صعبٌ.

ثُمَّ فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أنْ يقومَ أوَّل اللَّيل إلى أنْ يغلبَه النَّوم فينام، فإذا انتبه قام، فإذا غَلَبه النَّوم نام، وهذا مِن أشدِّ المُكابَدة، وهو طريق جماعةٍ مِن السَّلف.

وفي «الصَّحيحَين»[٢] مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كنَّا نشاء أنْ نرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصلِّيًا مِن اللَّيل إلَّا رأيناه، وما كنَّا نشاء أنْ نراه نائمًا إلَّا رأيناه.

وكان عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصلِّي مِن اللَّيل ما شاء الله، حتى إذا كان مِن آخِرِ اللَّيل أَيقَظ أهله، فيقول: الصَّلاةَ، الصَّلاةَ[٣].

---

(١) رواه البخاريُّ (١٠٧٩)، ومسلمٌ (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه النَّسائيُّ (٤٧٣٤)، والبغويُّ في «شرح السنة» (٩٢٣).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٨٢٢)، ومالكٌ في «الموطَّأ» (٥).

وقال الضَّحَّاك[١]: أدركتُ أقوامًا يَستحيون مِن الله في سواد هذا اللَّيل مِن طول الضَّجعة[٢].

الطَّريق الثَّاني: أنْ ينام أوَّل اللَّيل، فإذا أَخَذ حظَّه مِن النَّوم، وانتبه، قام الباقي، قال سفيانُ الثَّوريُّ: إنَّما هي أوَّل نومةٍ، فإذا انتبهتُ لم أُقلّها. -يعني: لم ينم-.

المرتبة السَّادسة: أنْ يقومَ مقدارَ أربعِ ركعاتٍ، أو رَكعتَين، فقد روينا عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**صَلُّوا مِنَ اللَّيلِ، صَلُّوا أَربعًا، صَلُّوا رَكعَتَينِ**»[٣]... الحديث.

وفي «سنن أبي داودَ»[٤] قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ استَيقَظَ مِنَ اللَّيلِ، وَأَيقَظَ امرَأَتَهُ فَصَلَّيَا جَمِيعًا رَكعَتَينِ كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**».

وكان طلحةُ بن مصرفٍ[٥] يأمر أهله بقيام اللَّيل، ويقول: صلُّوا رَكعتَين، فإنَّ الصَّلاة في جوف اللَّيل تَحُطُّ الأوزار[٦].

فهذه طُرُقُ قسمة اللَّيل، فلْيَتَخيَّر المُريد لنفسه ما يَسهُل عليه، فإنْ صَعُب القيام عليه في وسط اللَّيل فلا ينبغي أنْ يُخِلَّ بإحياء ما بين العِشاءَين ووِرد السَّحَر؛ لِيكون قائمًا في الطَّرفَين، وهذه مرتبة سابعةٌ.

---

(١) الضَّحَّاك بن قيس بن خالد الفهريُّ القرشيُّ، صحابيٌّ من صغار الصَّحابة، خرَّج له النَّسائيُّ، وروى عن حبيب بن مسلمةَ أيضًا، حدَّث عنه معاويةُ بن أبي سفيانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وسعيد بن جبيرٍ، والشَّعبيُّ وغيرهم، توفي سنة (٦٥)، انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٣/ ٢٤١)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ٢١٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٨) ولكن من قول الفضيل بن عياض.

(٣) رواه النسائي في «شعب الإيمان» (٢٩٤٥).

(٤) رواه أبو داودَ (١٤٥١)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (١٣١٢)، وابن ماجه (١٣٣٥)، وقال العراقيُّ في «المغني» (١/ ٤٤): أخرجه أبو داودَ والنَّسائيُّ مِن حديث أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بسندٍ صحيحٍ.

(٥) طلحةُ بن مُصرِّف بن عمرٍو الياميُّ، الإمام، الحافظ، المقرِئ، المجوِّد، شيخ الإسلام، أبو محمد الياميُّ، الهمدانِيُّ، الكوفِيُّ، وكان يسمَّى سيِّد القُرَّاء، تلا على يحيى بن وثاب، وغيره، وحدث عن أنس بن مالكٍ، وعبد الله بن أبي أوفى، وطائفةٍ، حدَّث عنه ابنه محمَّد بن طلحةَ، والأعمش، وشعبةُ، وخَلقٌ كثيرٌ. توفِّي سنة ١١٢هـ. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٥/ ١٩١)، «تقريب التَّهذيب» (ص٢٨٢)، «الأعلام» (٣/ ٣٣٠).

(٦) ذكره المروزي في «مختصر قيام الليل» (ص١٠٠).

فَصْلٌ

فأمَّا مَن صَعُبت عليه الطَّهارة في اللَّيل، وثَقُلت عليه الصَّلاة فلْيجلسْ مُستقبِلَ القِبلة، ولْيَذكرِ الله تعالى، ولْيدعُ مهما قدر، فإنْ لم يجلسْ فلْيدعُ وهو مُضطجِعٌ، ومَن كان له وِردٌ فغلبه النَّوم وفاته، فلْيأتِ به بعد صلاة الضُّحَى، فقد ورد ذلك في الحديث(١).

ولْيحذرْ مَن له عادةٌ بقيام اللَّيل أنْ يتركها، ففي «الصَّحيحَين»(٢) أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **«لا تَكُنْ مِثلَ فُلانٍ، كانَ يَقُومُ اللَّيلَ فَتَرَكَ قِيامَ اللَّيلِ»**.

فَصْلٌ في بيانِ اللَّيالي والأيَّامِ الفاضِلَةِ

أمَّا اللَّيالي المخصوصات بمَزيد الفضل التي يُستحَبُّ إحياؤها فخمسَ عشرَ ليلةً، ولا ينبغي للمُريد أنْ يَغفَل عنهنَّ؛ لأنَّه إذا غفل التَّاجر عن موسم الرِّبح فمتى يربح؟ فمِن هذه اللَّيالي سبعٌ في رمضان: اللَّيلة السَّابعةَ عشرةَ، وهي التي كانت صبيحتها وقعة البدر، والسِّتُّ الباقية هنَّ أوتار العَشر؛ إذ فيهنَّ تُطلَب ليلة القَدر، وأمَّا الثمان الأُخَر: فأوَّل ليلةٍ مِن المُحرَّم، وليلة عاشوراءَ، وأوَّل ليلةٍ مِن رجب، وليلة النِّصف منه، وليلة سبعٍ وعشرين منه، فإنَّها ليلة المِعراج، وليلة النِّصف مِن شعبانَ، وليلة عرفةَ، وليلتا العِيدَين، وقد [وردت](٣) صلواتٌ لبعض هذه اللَّيالي، وليس فيها ما يَثبتُ.

وأمَّا الأيَّام الفاضلة فتسعةَ عشرَ يومًا: يوم عرفةَ، ويوم عاشوراءَ، ويوم سبعٍ وعشرين مِن رجبٍ، وهو أوَّل يوم هَبَط فيه جبريل على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويوم سبعَ عشرةَ مِن

---

(١) فقد ورد بالوتر: **«ومَن نامَ عَنِ الوِترِ أَو نَسِيَهُ فَلْيُصَلِّ إِذَا أَصبَحَ أَو ذَكَرَهُ»**.
رواه أبو داودَ (١٤٣١)، وإسناده صحيحٌ، وابن ماجه (١١٨٨)، والتِّرمذيُّ (٤٦٥).

(٢) رواه البخاريُّ (١١٠١)، ومسلمٌ (١١٥٩).

(٣) ورد في "المطبوع، ن، خ" [ورد].

رمضانَ كان فيه وقعة بدرٍ، ويوم النِّصف مِن شعبانَ، ويوم الجُمُعة، ويوما العِيدَين، والأَيَّام المعلومات، وهي عَشر ذي الحِجَّة، والأَيَّام المعدودات، وهي أيَّام التَّشريق.

ومِن فَواضِل الأَيَّام في الأسبوع يوم الاثنين، والخميس، وأيَّام البيض، وفيها فَضلٌ كبيرٌ مذكورٌ في فضائل الصَّوم آخِر كتاب الأوراد، وهو آخِر رُبع [العبادات][1].

---

(١) ورد في " المطبوع " [وبالله التَّوفيق].

الرُّبعُ الثَّاني مِنَ الكِتابِ رُبعُ العاداتِ وفيهِ أبوابٌ

بابٌ في آدابِ الأكلِ، والاجتماعِ عليهِ، والضِّيافةِ، ونحوِ ذلكَ

وآدابُ الأكل منها ما هو قَبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

فمِن القِسم الأوَّل: غسل اليد قَبل الأكل، كما ورد في الحديث[١]؛ لأنَّها لا تخلو مِن دَرَنٍ، ومِن ذلك أنْ يُوضَع الطَّعام على السُّفْرة الموضوعة على الأرض، فإنَّه أقربُ إلى فِعْل رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن رَفْعه على المائدة، وهو أدنَى إلى التَّواضُع، ومِن ذلك أنْ يجلس الجِلسة على السُّفْرة، فينصبَ رِجله اليُمنى، ويعتمدَ على اليُسرى، وينويَ بأكله أنْ يتقوَّى على طاعة الله تعالى؛ ليكون مُطيعًا بالأكل، ولا يقصد به التَّنعُّم فقط، وعلامة صحَّة هذه النِّيَّة أَخذ البُلْغة[٢] دون الشِّبَع، قال النَّبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم: «**ما مَلأَ ابنُ آدَمَ وِعاءً شَرًّا مِنْ بَطنٍ، حَسْبُ ابنِ آدَمَ أكَلاتٍ يُقِمنَ صُلْبَه، فإنْ كانَ لا مَحالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِه**»[٣].

ومِن ضرورة هذه النِّيَّة ألَّا يَمدَّ يده إلى الطَّعام إلَّا وهو جائعٌ، وأنْ يرفع يده قَبل الشِّبَع، ومَن فعل ذلك لم يَكدْ يحتاج إلى طبيبٍ.

ومِن ذلك أنْ يرضَى بالموجود مِن الرِّزق، ولا يحتقرَ اليسير منه، وأنْ يجتهدَ في تكثير الأيدي على الطَّعام [ولو في][٤] أهله وولده.

---

(١) فقد قال رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بَرَكَةُ الطَّعامِ الوُضوءُ قَبلَه، وَالوُضوءُ بَعدَهُ**». رواه أبو داودَ (٣٧٦١)، والتِّرمذيُّ (١٨٤٦)، وأحمدُ (٢٣٧٣٢)، وإسناده ضعيفٌ، قال التِّرمذيُّ: لا نعرف هذا الحديث إلَّا مِن حديث قيس بن الرَّبيع، وقيس بن الرَّبيع يُضعَّف في الحديث.

(٢) ما يُتبَلَّغُ به مِن العَيشِ. «مختار الصحاح» مادة (ب ل غ).

(٣) رواه أحمدُ (١٧١٨٦)، التِّرمذيِّ (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، عن مقدام بن معدي كرب، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٤) ورد في "المطبوع، ن، خ" [ولو في].

القِسم الثَّاني في الآداب حالة الأكل: وهو أنْ يبدأ باسم الله في أوَّله، ويحمد الله تعالى في آخِره.

ومِن ذلك أنْ يأكلَ باليُمنى، ويُصغِّر اللُّقمة، ويُجوِّد مَضْغها، وألَّا يمدَّ يده إلى أُخرى حتى يبتلعَ الأُولى، ولا يَذُمَّ مأكولًا.

ومِن ذلك أنْ يأكلَ ممَّا يليه، إلَّا أنْ يكون مُتنوِّعًا كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابعَ، وإذا وَقَعت لقمةٌ أَخَذها.

ومِن ذلك ألَّا ينفخَ في الطَّعام الحارِّ، ولا يجمع بين التَّمر والنَّوى في طبقٍ واحدٍ، ولا يجمع في كفِّه، بل يَضعه مِن فيه على ظهر كفِّه، ثُمَّ يُلقيه، وكذا كلُّ ما له عجمٌ وثفلٌ، ولا يشرب الماء في أثناء الطَّعام، فإنَّه أجودُ في باب الطِّبِّ.

ومِن آداب الشُّرب أنْ يتناولَ الإناء بيمينه، وينظرَ فيه قَبل الشُّرب، ويَمصَّ مَصًّا لا عَبًّا[1]، فقد رُوي عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مُصُّوا الماء مَصًّا، ولا تَعبُّوه عَبًّا، فإنَّ الكُبادَ[2] مِن العَبِّ»[3].

ولا يَشرب قائمًا، ويتنفس في شُربه ثلاثًا.

ففي «الصَّحيحَين»[4] أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتنفَّس في شُربه ثلاثًا. والمعنى يتنفس في شُربه مِن الإناء، بأنْ يُباعِدَ الإناء عنه، ويَتنفَّس، لا أنْ يكون النَّفَس في الإناء.

القِسم الثَّالث مِن آداب الأكل ما يُستحَبُّ بعد الطَّعام: وهو أنْ يُمسِكَ قَبل الشِّبَع، ويَلعَق أصابعه، وأنْ يَسلُتَ[5] القَصعة، وليحمد الله، ففي الحديث عن النَّبيِّ

---

(١) العَبُّ: شُرب الماء مِن غير مَصٍّ. وقيل: أنْ يشربَ الماء ولا يتنفَّس. «لسان العرب» مادة (عبب).

(٢) الكُباد: مرض يصيب الكبد. «لسان العرب» مادة (كبد).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الكبرى» (١٤٦٥٩)، وقال: هذا حديثٌ مرسَلٌ.

(٤) رواه البخاريُّ (٥٣٠٨)، ومسلمٌ (٢٠٢٨) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) السَّلْتُ: قَبْضُكَ عَلَى الشَّيْءِ أصابه قَذَر ولَطْخٌ، فَتَسْلِتُه عَنْهُ سَلْتاً. «لسان العرب» مادة (س ل ت).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ لَيَرضَى عَنِ العَبدِ أنْ يَأكُلَ الأكْلَةَ فَيحمدَهُ عَلَيها، وَيَشرَبَ الشَّربَةَ فَيَحمدَهُ عَلَيهَا**»[١]، ويَغسل يده مِن الغَمَرِ[٢].

فَصْلٌ فيما يَزِيدُ مِنَ الآدَابِ بِسَبَبِ الاجْتِمَاعِ وَالمُشَارَكَةِ فِي الأَكْلِ

مِن ذلك ألَّا يَبتدئَ في الأكل إذا كان معه مَن يَستحِقُّ التَّقدُّم؛ لكِبَر سِنٍّ، أو زيادة فَضْلٍ، إلَّا أنْ يكون هو [المتبوع][٣].

ومنها: ألَّا يَسكُتوا على الطَّعام، بل يَتكلَّمون بالمعروف، ويَتحدَّثون بحكايات الصَّالحِين في الأطعمة وغيرها.

ومِن ذلك أنْ يقصدَ كلٌّ منهم الإيثار لرفيقه، ولا يُحوِج رفيقه إلى أنْ يقولَ له: كُلْ. بل ينبسط، ولا يتصنَّع بالانقباض.

ومِن ذلك ألَّا ينظرَ إلى أصحابه حالة الأكل؛ لئلَّا يستحيوا.

ومِن ذلك ألَّا يفعلَ ما يَستقذِره مِن غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يُقدِّم إليها رأسه عند مَوضِع اللُّقمة في فيه، وإذا أخرج شيئًا مِن فيه لِيَرميَ به صرف وجهه عن الطَّعام، وأَخَذه بيساره، ولا يغمس اللُّقمة الدَّسِمة في الخلِّ، ولا الخلَّ في الدِّسِمة، فقد يَكرهه غيره، ولا يغمس بقيَّة اللُّقمة التي أكَل منها في المَرَقة.

فَصْلٌ

ويُستحَبُّ تقديم الطَّعام إلى الإخوان، رُوي ذلك عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «لَأَنْ أَجمعَ إخواني على صاعٍ مِن طعامٍ أَحَبُّ إليَّ مِن أُعتِق رقبةً».

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٧٣٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الغَمَر: بِالتَّحْرِيكِ: السَّهَكُ وريحُ اللَّحْمِ وَمَا يَعْلَق بِالْيَدِ مِنْ دَسَمِه. وَقَدْ غَمِرت يدُه مِنَ اللَّحْمِ غَمَراً، فَهِيَ غَمِرةٌ أَي زَهِمةٌ. «لسان العرب» مادة (غ م ر).

(٣) ورد في " المطبوع " [المُتبرِّع].

وكان خيثمةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصنع الخَبيص والطَّعام الطَّيِّب، فيدعو إبراهيمَ والأعمش، ويقول: كُلوا، فما صنعتُه إلَّا لكم(١).

ويُقدِّم ما حَضَر مِن غير تَكلُّفٍ، ولا يَستأذنهم في التَّقديم، بل يُقدِّم مِن غير استئذانٍ، ومِن التَّكلُّف أنْ يُقدِّم جميع ما عنده.

ومِن آداب الزَّائر ألَّا يقترحَ طعامًا بعَينه، وإنْ خُيِّرَ بين طعامَين اختار أيسرهما، إلَّا أنْ يَعلمَ أنَّ مُضيفَه يُسَرُّ باقتراحه، ولا يُقصِّر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الزَّعفرانِيِّ(٢)، وكان الزَّعفرانِيُّ يَكتُب كلَّ يوم رُقعةً بما يُطبَخ مِن الألوان، ويُسلِّمُها إلى الجارية، فأَخَذ الشَّافعيُّ الرُّقعة وأَلحَق فيها لونًا آخَر، فلمَّا عَلِم الزَّعفرانِيُّ اشتدَّ فرحه.

فَصْلٌ

ولا ينبغي لأَحَدٍ إذا عَلِم أنَّ قومًا يأكلون أنْ يدخلَ عليهم، فإنْ صادفهم مِن غير قَصْدٍ، فسألوه الأكل، نظر، فإنْ عَلِم أنَّهم إنَّما سألوه حياءً منه فلا يأكل، وإنْ عَلِم أنَّهم يُحبُّون أَكْله معهم جاز له أنْ يأكلَ.

ومَن دخل دار صديقه فلم يجدْه، وكان واثقًا به، عالِمًا أنَّه إذا أَكَل مِن طعامه سُرَّ بذلك جاز له أنْ يأكلَ.

فَصْلٌ

ومِن آداب الضِّيافة أنْ يقصدَ بدعوته الأتقياء دون الفُسَّاق، وقال بعض السَّلَف: لا تَأكلُ إلَّا طعامَ تَقيٍّ، ولا يأكل طعامك إلَّا تقيٌّ(٣).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١١٣)

(٢) أبو عبد الله الحسن بن أحمد الزَّعفَرانِيُّ، إمامٌ كبيرٌ، رتَّب مسائل «الجامع الصَّغير»، انظر: «تاج التَّراجم» (١/ ١٥٣)، «البناية شرح الهداية» (١٢/ ٤٧).

(٣) رواه أبو داودَ (٤٨٣٢)، والتِّرمذيُّ (٢٣٩٥) عَن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تُصاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ». وقال التِّرمذيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وينبغي أنْ يقصدَ الفقراء دون الأغنياء، وينبغي ألَّا يُهملَ أقاربه في ضيافتهم، فإنَّ إهمالهم يُوجِب الإيحاش وقطيعة الرَّحم، وكذلك يُراعِي التَّرتيب في أصدقائه ومَعارِفه، ولا يَقصد بدعوته المُباهاة والتَّفاخُر، بل استعمال السُّنَّة في إطعام الطَّعام، واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السُّرور على قلوب المؤمنين، ولا يدعو مَن يَعلمُ أنَّه تَشقُّ عليه الإجابة، أو إذا حضر تأذَّى بالحاضرِين بسببٍ مِن الأسباب.

وأمَّا آداب الإجابة، فإنْ كانت دعوةَ عُرسٍ فالإجابة عليها واجبةٌ إذا دعاه المسلم في اليوم الأوَّل، وإنْ كانت لغيره، فهي جائزةٌ، ثُمَّ ينبغي ألَّا يخصَّ الغنيَّ بالإجابة دون الفقير، ولا يمتنع مِن الدَّعوة لكونه صائمًا، بل يحضر، فإنْ كان تَطوُّعًا، وعَلِم أنَّ فِطْره يَسُرُّ أخاه المسلم فلْيفطرْ، فأمَّا إنْ كان الطَّعام حرامًا فلْيمتنعْ مِن الإجابة، وكذلك إذا كان ثَمَّة فُرُشٌ مُحرَّمةٌ، أو إناءٌ مُحرَّمٌ، أو مِزمارٌ، أو صورةٌ، وكذلك إذا كان الدَّاعي ظالمًا، أو فاسقًا، أو مُبتدِعًا، أو مُفاخِرًا بدَعوته.

وينبغي ألَّا يقصدَ بالإجابة إلى الدَّعوة نفس الأكل، بل ينوي به الاقتداء بالسُّنَّة، وإكرام أخيه المؤمن، وينوي صيانة نفسه عمَّن يُسيء به الظَّنَّ، فربَّما قيل عنه إذا امتنع: هذا مُتكبِّرٌ.

وينبغي أنْ يتواضعَ في مجلسه إذا حضر، ولا يتصدَّر، وإنْ عَيَّن له صاحب الدَّار مكانًا لم يتعدَّه، ولا يُكثِر النَّظر إلى المكان الذي يخرج منه الطَّعام، فإنَّه دليلٌ على الشَّرَه.

فَصْلٌ

وأمَّا إحضار الطَّعام فله خمسة آدابٍ:

الأوَّل: تعجيله، فذلك مِن إكرام الضَّيف.

الثَّاني: تقديم الفاكهة أوَّلًا قَبل غيرها، وذلك أصلح في باب الطِّبِّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

ثُمَّ أفضل ما يُقدَّم بعد الفاكهة اللَّحم، خصوصًا المشويُّ، ثُمَّ أفضل الطَّعام بعد اللَّحم الثَّريد، ثُمَّ الحلوَى، وتتمُّ هذه الطَّيِّبات بشُرب الماء البارد، وتَكمِلة الأمر صَبُّ الماء الفاتر على اليد عند الغسل.

الثَّالث: أنْ يُقدِّم جميع الألوان الحاضرة.

الرَّابع: ألَّا يبادرَ إلى رَفْعها، بل يُمكِّنُهم مِن الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم.

الخامس: أنْ يُقدِّم مِن الطَّعام قَدْر الكفاية، فإنَّ القليل مِن الكفاية نقصٌ في المروءة.

وينبغي أنْ يعزل لأهل البيت نصيبَهم قَبل تقديم الطَّعام، فإذا أراد الضَّيف الانصراف ينبغي أنْ يخرجَ معه إلى باب الدَّار، فإنَّه سُنَّةٌ، وذلك مِن إكرام الضَّيف، ومِن تمام الإكرام طلاقة الوجه، وطِيْب الحديث عند الدُّخول والخروج، وعلى المائدة.

وأمَّا الضَّيف فينبغي أنْ يخرجَ طَيِّبَ النَّفْس، وإنْ جرَى في حقِّه تقصيرٌ، فذلك حُسنُ الخُلُق والتَّواضع، ولا يَخرُج إلَّا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قَدْر الإقامة.

كتابُ النكاحِ وآدابهِ وما يتعلقُ بهِ

لا يختلف العلماء في أنَّ النِّكاح مُستحَبٌّ، مندوبٌ إليه، كثيرُ الفضائل، وفيه فوائدُ:

منها: الولد؛ لأنَّ المقصود بقاء النَّسْل، وفيه فوائدُ محبَّة الله تعالى بالسَّعي لذلك؛ ليبقى جنس الإنسان.

[وكلمة الإخلاص][(١)] وفيه طلب محبَّة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تكثير مَن به مُباهاته، وفيه طلب التَّبرُّك بدعاء الولد الصَّالح، والشَّفاعة بموت الولد الصَّغير.

ومِن فوائد النِّكاح: التَّحصُّن مِن الشَّيطان بدفع غوائل الشَّهوة، وفيه ترويح النَّفْس وإيناسها بمُخالَطة الزَّوجة.

ومنها: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتَّكفُّل بما يشغل الطَّبخ والكَنْس والفَرْش وتنظيف الأواني، وتهيئة أسباب العيش، فإنَّ الإنسان يتعذَّر عليه أكثرُ ذلك مع الوحدة، ولو تكفَّل به لضاع أكثرُ أوقاته، ولم يتفرَّغْ للعِلم والعمل، فالمرأة الصَّالحة عونٌ على الدِّين بهذه [الطَّريق][(٢)]، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب.

ومِن فوائده أيضًا: مُجاهَدة النَّفْس، ورياضتها بالرِّعاية والوِلاية، والقيام بحقوق الأهل، والصَّبر على أخلاقهنَّ، واحتمال الأذى مِنهنَّ، والسَّعي في إصلاحهنَّ وإرشادهنَّ إلى طريق الدِّين، والاجتهاد في كَسْب الحلال لأجلهنَّ، والقيام بتربية الأولاد، وكلُّ هذه أعمال عظيمةُ الفضل، فإنَّها رعايةٌ وولايةٌ، وفضل الرِّعاية عظيمٌ، وإنَّما يَحترِز منها مَن يخاف مِن القصور عن القيام بحقِّها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) سقطت من "المطبوع".

(٢) ورد في "المطبوع" [الطَّريقة].

وفي أفراد مسلمٍ[١]، عن النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّه قال: «**دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَفْضَلُهُمْ الدِّينَارُ الذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**».

فَصْلٌ

وفي النِّكاح آفاتٌ:

أقواها: العجز عن طَلَب الحلال، فإنَّ ذلك يصعبُ، فربَّما امتدت يد المُتزوِّج إلى ما ليس له.

الثَّانية: القُصور عن القيام بحقوق النِّساء، والصَّبر على أخلاقهنَّ وأذاهنَّ، وفي ذلك خطرٌ؛ لأنَّ الرَّجل راعٍ، ومسؤولٌ عن رعيَّته.

الثَّالثة: أنْ يكون الأهل والولد يَشغلونه عن ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ، فينقضي ليله ونهاره بالتَّمتُّع بذلك، فلا يتفرَّغُ القلب للفِكْر في الآخرة والعمل لها، فهذه مجامع الآفات والفوائد، فالحُكم على شخصٍ واحدٍ بأنَّ الأفضل له النِّكاح أو العُزوبة مُطلَقًا مصروفٌ على الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل ينبغي للمُريد أنْ يَعرِضَ نفسه على هذه الأحوال، فإنِ انتفت عنه الآفات، واجتمعت له الفوائد، بأنْ كان له مالٌ حلالٌ، وحُسنُ خُلُقٍ، وهو مع ذلك شابٌّ يحتاج إلى تسكين الشَّهوة، ومُنفَرِدٌ يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شكَّ أنَّ النِّكاح أفضلُ [وإنِ انتفت هذه الفوائد، واجتمعت فيه الآفات، فتركُه أفضلُ][٢]، وهذا في حقِّ مَن لم يحتجْ إلى النِّكاح، فإنِ احتاج إليه فإنَّه يلزمه.

---

(١) الحديث (٩٩٥) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) سقطت من "الأصل".

فَصْلٌ

ويُعتبَر في المرأة لطِيْب العِشرة أمورٌ:

أحدها: الدِّين، وهو الأصل، لقول النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيكَ بِذَاتِ الدِّينِ**»[(١)]، فإذا لم يكنْ لها دِينٌ أَفسدت دِين زوجها، وأزرت به، وإنْ سَلَكت سبيل الغَيرة لم يزل في بلاءٍ وتكديرِ عيشٍ.

الثَّاني: حُسْن الخُلُق، فإنَّ سيِّئَةَ الخُلُق ضررها أكثرُ مِن نفعها.

الثَّالث: حُسنُ الخَلْق، وهو مطلوبٌ؛ إذ به يحصل التَّحصُّن، ولهذا أُمِر بالنَّظر إلى المخطوبة، وقد كان أقوامٌ لا ينظرون في الحُسن، ولا يقصدون التَّمتُّع، كما رُوي أنَّ الإمام أحمدَ رَحِمَهُ اللهُ اختار امرأةً عوراءَ على أختها، إلَّا أنَّ هذا يندرُ، والطِّباع على ضِدِّه.

الرَّابع: خِفَّة المهر، وقد زوَّج سعيد بن المُسيِّب ابنته بدرهمَين[(٢)].

وقال عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لا تُغالُوا في مهور النِّساء**»[(٣)].

وكما تُكرَه المغالاة في المَهر مِن جهة المرأة يُكرَه السُّؤال عن مالها مِن جهة الرَّجل.

قال الثَّوريُّ: إذا تزوَّج الرَّجل وقال: أيُّ شيءٍ للمرأة؟ فاعلم أنَّه لِصٌّ.

الخامس: البَكَارة؛ لأنَّ الشَّرع نَدَب إلى ذلك، ولأنَّها تُحِبُّ الزَّوج وتألفه أكثرَ مِن الثَّيِّب، فيُوجِب ذلك الودَّ، فإنَّ الطِّباع مجبولةٌ على الأُنس بأوَّل مألوفٍ، وهو أيضًا أكملُ لمودَّته لها؛ لأنَّ الطَّبع ينفر مِن التي مَسَّها غيره.

السَّادس: أنْ تكون وَلُودًا.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٠٢)، ومسلمٌ (١٤٦٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ «**فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ**».

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦٧).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٦٦٢٨)، وعبد الرَّزَّاق في «مصنفه» (١٠٤٠١).

السَّابع: النَّسَب، وهو أنْ تكونَ مِن بيتِ دِينٍ وصلاحٍ.

الثَّامن: أنْ تكون أجنبيَّةً.

وكما ينبغي للرَّجل أنْ ينظر في المرأة، ينبغي للوليِّ أنْ ينظر في دِين الرَّجل وأخلاقه وأحواله؛ لأنَّها تصير بالنِّكاح مرقوقةً، ومتى زوَّجها مِن فاسقٍ أو مُبتدِعٍ، فقد جنَى عليها وعلى نفسه.

قال رجل للحسن: ممَّن أُزوِّج ابنتي؟ قال: ممَّن يتَّقي الله، فإنَّه إنْ أحبَّها أكرَمها، وإنْ أَبغَضها لم يَظلِمْها(١).

فصلٌ في آداب المُعاشرة والنَّظر فيما على الزَّوج، وفيما على الزَّوجة

أمَّا الزَّوج فعليه مُراعاة الاعتدال والأدب في اثني عَشرَ أمرًا:

الأوَّل: الوليمة، فإنَّها مُستحَبَّةٌ.

الثَّاني: حُسن الخُلُق مع الزَّوجات.

الثَّالث: احتمال الأذى منهنَّ؛ لقُصور عقلهنَّ.

وفي الحديث الصَّحيح: «**استَوصُوا بِالنِّسَاءِ خَيرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أَعوَجَ ما في الضِّلَعِ أَعلاهُ، فإنْ ذَهَبتَ تُقيِّمُهُ كَسَرتَهُ، وَإنْ تَرَكتَهُ لَم يَزَلْ أَعوَجَ، فَاستَوصُوا بِالنِّسَاءِ خَيرًا**»(٢).

واعلم أنَّه ليس حُسنُ الخُلُق مع المرأة كفَّ الأذَى عنها، بل احتمال الأذَى منها، والحِلم على طَيشها وغضبها، اقتداءً برسول الله ﷺ، ففي «الصَّحيحَين»(٣)

---

(١) رواه البغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٢٢٤١).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٩٠)، ومسلمٌ (١٤٦٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاريُّ (٤٨٩٥)، ومسلمٌ (١٤٧٩) عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مِن حديث عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أزواج النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنَّ يُراجِعنَه، وتَهجُره إحداهنَّ اليوم إلى اللَّيل. والحديث مشهورٌ.

الرَّابع: أنْ يُداعِبَها ويُمازِحَها، وقد سابَق عَلَيْهِ السَّلَامُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[١]، وكان يُداعِب نساءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال لجابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**هَلَّا بِكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ**»[٢].

وذلك أنْ يكون ذلك بقَدْر، ولا ينبسط في الرِّعاية إلى أنْ تَسقطَ هيبته بالكُلِّيَّة عند المرأة، بل ينبغي أنْ يقصدَ طريق الاقتصاد، وقد روينا عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه عَتِب على بعض عُمَّاله، فكلَّمتْه امرأةُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه، فقالت: يا أمير المؤمنين فيمَ وَجدتَ عليه؟ قال: يا عَدوَّة الله، وفيمَ أنتِ وهذا؟ إنَّما أنتِ لُعبةٌ يلعب بكِ ثُمَّ تتركين.

الخامس: الاعتدال في الغَيرة، وهو ألَّا يتغافَل عن مبادئ الأمور التي يخشى غوائلها، ولا يُبالِغ في إساءة الظَّنِّ، وقد نهى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يطرق الرَّجل أهله ليلًا[٣].

السَّادس: الاعتدال في النَّفقة، والقصد دون الإسراف والتَّقتير، ولا ينبغي للرَّجل أنْ يَستأثرَ عن أهله بالطَّعام الطَّيِّب، فإنْ ذلك يُوغِر الصَّدْر.

السَّابع: أنْ يَتعلَّم المُتزوِّج مِن عِلم الحيض وأحكامه ما يَدري به كيف مُعاشَرة الحائض، ويُلقِّنها الاعتقاد الصَّحيح، ويُزيل عن قلبها كلَّ بِدعةٍ إنْ كانت، ويُعلِّمها أحكام الصَّلاة والحيض والاستحاضة، فيُعرِّفها أنَّها إذا انقطع دمها قَبل المغرب بمِقدار ركعةٍ فعليها الظُّهر والعصر، وإذا انقطع دمها قَبل الصُّبح بمقدار ركعةٍ فعليها قضاء المغرب والعِشاء، وهذا لا يكاد النِّساء يُراعينَه.

الثَّامن: إذا كانت له نسوةٌ ينبغي أنْ يعدلَ بينهنَّ، والعدل في المبيت والعطاء، لا في الحبِّ والوطء، فإنَّ ذلك لا يَملِكه، فإنْ سافَر وأراد استصحاب إحداهنَّ أَقرعَ بينهنَّ، فأيَّتُهن خرج سهمها خرج بها.

---

(١) رواه أبو داودَ (٢٥٧٨)، وأحمدُ (٢٤١١٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٧٩٢)، ومسلمٌ (٧١٥) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه مسلم (٧١٥)، والبخاريُّ (١٧٠٧) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

التَّاسع: النُّشوز، فإذا كان النُّشوز مِن المرأة، فله أنْ يُؤدِّبها ويَحمِلَها على الطَّاعة قهرًا، ولكنَّه ينبغي أنْ يَتدرَّج في تأديبها بتقديم الوعظ والتَّخويف، فإنْ لم ينفعْ هَجَرها في المَضجَع، فولَّاها ظهره، وانفرد عنها بالفِراش، وهَجَرها في الكلام فيما دون ثلاثة أيَّامٍ، فإنْ لم ينفعْ ضَرَبَها ضَرْبًا غيرَ مُبَرِّحٍ، وهو ألَّا يدمي لها جسمًا، ولا يضرب لها وجهًا.

العاشر: في آداب الجِماع، يُستحَبُّ البداءة بالتَّسمية، والانحراف عن القِبلة، وأنْ يَتغطَّى هو وأهله بثوبٍ، وألَّا يكونا مُتجرِّدَين، وأنْ يبدأ بالمُلاعَبة والضَّمِّ والتَّقبيل، ومِن العلماء مِن استحَبَّ الجماع يوم الجمعة، ثُمَّ إذا قضَى وَطَره فليتمهَّل لتَقضيَ وَطَرها، فإنَّ إنزالها ربَّما تأخَّر.

ومِن الآداب أنْ تَأتَزرَ الحائض بإزارٍ مِن حقوَيها إلى ما بين الرُّكبة إذا أراد الاستمتاع بها، ولا يجوز وَطؤُها في الحيض، ولا في الدُّبُر، ومَن أراد أنْ يُجامِع مرَّةً ثانيةً فلْيغسلْ فَرْجَه ويَتوضَّأ.

ومِن الآداب ألَّا يَحلِق شعره، ولا يُقلِّم أظافره، ولا يُخرِج دمًا وهو جنبٌ، وأمَّا العزل فهو مباحٌ مع الكراهة.

الحادي عشر: في آداب الولادة، وهي ستَّةٌ:

الأوَّل: ألَّا يُكثرَ فَرَحه بالذَّكَر، وحُزنَه بالأُنثى، فإنَّه لا يدري في أيِّهما الخير.

الثَّاني: أنْ يُؤذِّنَ في أُذُن المولود حين يُولَد.

الثَّالث: أنْ يُسمِّيه اسمًا حَسَنًا.

وفي أفراد مسلم[(١)]: «**إنَّ أَحَبَّ أَسمائِكُمْ إلى اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **عَبدُ اللهِ وَعَبدُ الرَّحمَنِ**». ومَن كان له اسمٌ مكروهٌ، استُحبَّ تبديله، فقد غيَّر النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أسماءَ جماعةٍ[(٢)]، وقد كَرِه مِن الأسماء أَفلَح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة؛ لأنَّه يُقال: أهو ثَمَّةَ؟ فيُقال: لا[(٣)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢١٣٢) عن ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٢) مِن ذلك ما رواه البخاريُّ (٥٨٣٩)، ومسلمٌ (٢١٤١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّ زينبَ بنت أبي لمةَ كان اسمها بَرَّة، فقيل: تُزكِّي نفسها، فسمَّاها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ زينب.

(٣) رواه مسلمٌ (٢١٣٧) عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

الرَّابع: العقيقة عن الذَّكَر شاتان، وعن الأُنثى شاةٌ.

الخامس: أنْ يُحنِّكَه بتمرةٍ أو حلاوةٍ.

السادس: الخِتَان.

الثاني عشرَ: ممَّا يَتعلَّق بالزَّواج الطَّلاق، وهو أبغضُ المُباحات إلى الله عَزَّوَجَلَّ[١]، فيُكرَه للرَّجل أنْ يُفاجِئَ به المرأة مِن غير ذنبٍ، ولا يجوز للمرأة أنْ تُلجِئَهُ إلى طلاقها، فإذا أراد الطَّلاق فلْيُراعِ فيه أربعةَ أشياءَ.

[**الأول**: أن يطلقها في طهر لم يصبها فيه لئلا يكثر عليها العدة][٢].

الثَّاني: أنْ يقتصر على طلقةٍ واحدةٍ؛ ليستفيدَ بها الرَّجعة إنْ ندم.

الثَّالث: أنْ يَتلطَّفَ في الأمر في الطَّلاق بإعطائها ما تَتمتَّع به؛ لينجبِرَ الفاجع، فقد رُوي عن الحسن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه طلَّق امرأةً، وبعث إليها بعشرةِ آلاف درهمٍ، فقالت: مَتاعٌ قليلٌ مِن حبيبٍ مُفارِقٍ[٣].

الرَّابع: ألَّا يُفشِي سِرَّها، وفي الحديث الصَّحيح في أفراد مسلمٍ[٤]: «**إنَّ أَشَرَّ النَّاسِ عِندَ اللهِ مَنزِلَةً يَومَ القِيامةِ الرَّجُلُ يُفضِي إلى المرأةِ، وتُفضِي إليهِ، ثُمَّ يَنشِرُ سِرَّها**».

ورُوي عن بعض الصَّالحِين أنَّه أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذي يريبك منها؟ فقال: العاقل لا يهتك سِرًّا، فلمَّا طلَّقها قيل له: لِمَ طلَّقتَها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري.

فهذا كلُّه مِن بيان ما على الزَّوج.

---

(١) لِمَا رواه ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَبْغَضُ الحَلالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ**». رواه أبو داود (٢١٧٨).

(٢) سقطت من "المطبوع".

(٣) روه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ٨٣)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٢٥٦١).

(٤) رواه مسلمٌ (١٤٣٧) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القِسم الثَّاني مِن آداب المُعاشَرة، ما على الزَّوجة لزوجها، عن أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَو جَازَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرتُ المَرأَةَ أَنْ تَسجُدَ لِزَوجِها**»[1]. لِعِظَم حقِّه عليها.

وفي هذا القِسم أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على تأكيد حقِّ الزَّوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرةٌ، وأهمُّها أمران:

أحدهما: السَّتر والصِّيانة.

الثَّاني: القناعة.

وعلى هذا كان النِّساء في السَّلَف، كان الرَّجل إذا خرج مِن منزلٍ يقول له أهله: إيَّاك وكسبَ الحرام، فإنَّا نصبر على الجوع، ولا نصبر على النَّار.

ومِن الواجبات عليها: ألَّا تُفرِّط في ماله، فإنْ أَطعمت عن رِضاه كان لها مِثل أَجْره، وإنْ كان بغير رضاه، كان له الأجر، وعليها الوزر.

وينبغي لوالدتها تأديبها قَبل نقلها إلى الزَّوج؛ لتعرفَ آداب العِشرة، وينبغي للمرأة أنْ تكونَ قاعدةً في بيتها، لازمةً لمِغزَلها، قليلةَ الكلام لجيرانها، كثيرةَ الانقباض في حال غَيبة زوجها، تحفظه غائبًا وحاضرًا، وتطلب مَسرَّته في جميع الأحوال، ولا تَخونه في نفسها، ولا في ماله، ولا تُوطِئ فراشه مَن يكره، ولا تأذن في بيته إلَّا بإذنه، ولتكنْ همَّتها صلاح شأنها، وتدبير بيتها، قائمةً بخدمة الدَّار في كلِّ ما أَمكَنها، ولتكنْ مُقدِّمةً لحقِّ زوجها على حقِّ نفسها وحقِّ جميع أقاربها.

آخِر كتاب النِّكاح.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (١١٥٩)، وابن حِبَّانَ (١٢٩١)، والبيهقي (٧/ ٢٩١)، والحاكم (٤/ ١٧١-١٧٢)، وقال التِّرمذيُّ: حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هذا الوجه مِن حديث محمَّد بن عمرٍو، عن أبي سلمةَ، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كتاب آداب الكسب والمعاش وفضله وصحة المعاملة وما يتعلق بذلك

اعلم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلطيف حكمته جعَل الدُّنيا دار تَسبُّبٍ واكتسابٍ، تارةً للمَعاش، وتارةً للمَعاد، ونحن نُورِد آداب التِّجارات، والصِّناعات، وضروب الاكتساب، وأسبابها، ونشرحها.

فصل في فضل الكسب والحث عليه

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، فذَكره في معرِض الامتنان، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠] فجعَلها نعمةً، وطَلَب الشُّكر عليها، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**طَلَبُ الحَلالِ جِهادٌ، وإنَّ اللهَ لَيُحِبُّ العَبدَ المُحتَرِفَ**»(١).

وفي أفراد البخاريِّ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيرًا مِنْ أنْ يَأكُلَ مِنْ عَملِ يَدِهِ، وإنَّ نَبيَّ اللهِ دَاودَ كانَ يَأكُلُ مِن عَمَلِ يَدِهِ**»(٢).

---

(١) عزاه السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٥٠٥٨) إلى القضاعيِّ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأبي نعيم في «الحلية» عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقال السَّخاويُّ في «المقاصد الحسنة» (٨٠١): أخرجه الطَّبرانيُّ في «الكبير» و«الأوسط»، وابن عديٍّ في «كامله» مِن حديث أبي الرَّبيع السَّمَّان أشعث بن سعيدٍ، وهو متروكٌ.

(٢) رواه البخاريُّ (١٩٦٦) عن معدان بن المقداد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي حديثٍ آخَرَ: «**إِنَّ زَكَرِيَّا** عَلَيْهِ السَّلَامُ **كَانَ نَجَّارًا**»(١).

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حرَّاثًا، ونوحٌ نجَّارًا، وإدريسُ خيَّاطًا، وإبراهيمُ ولوطٌ زرَّاعَين، وصالحٌ تاجِرًا، وداودُ زرَّادًا، وموسى وشعيبٌ ومحمَّدٌ صلوات الله تعالى عليهم وسلم رُعاةً»(٢).

وأمَّا الآثار فرُوِي أنَّ لُقمان الحكيم قال لابنه: «يا بُنيَّ استعن بالكَسْب الحلال، فإنَّه ما افتقر أَحَدٌ قطُّ إلَّا أَصابه ثلاث خصالٍ: رِقَّةٌ في دِينه، وضعفٌ في عقله، وذهابُ مروءته، وأعظمُ مِن هذه الخِصال استخفاف النَّاس به».

وقيل لأحمدَ بن حَنبلٍ: ما تقول في رجلٍ جلس في بيته أو مسجده، وقال: لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمدُ: هذا رجلٌ جَهِل العِلم، أمَا سمع قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَ رِزْقِي تَحتَ ظِلِّ رُمحِي**»(٣)، وقال حين ذكر الطَّير: «**تَغدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(٤).

وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتَّجِرون في البَرِّ والبحر، ويعملون في نَخلهم، والقدوة بهم.

وقال أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ: ليس العبادة عندنا أنْ تَصُفَّ قدمَيك، وغيرُك يتعب لك، ولكن ابدأ برغيفَيك فأحرزهما، ثُمَّ تعبَّدْ.

فإنْ قيل: فقد قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: زاولتُ التِّجارة والعِبادة فلم [تجتمعا](٥)، فاخترتُ العبادة(٦). فالجواب: أنَّا لا نقول: إنَّ التِّجارة على ترادِّ لذَّاتها، بل للاستغناء

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٣٧٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مطوَّلاً الحاكم في «المستدرك» (٤١٦٥).

(٣) رواه البخاري معلَّقًا في ترجمة الباب في كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح، عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) رواه أحمدُ (٢٠٥)، والتِّرمذيُّ (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ لا نعرفه إلَّا مِن هذا الوجه.

(٥) ورد في " المطبوع، خ " [يجتمعا].

(٦) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٩)، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٤).

عن النَّاس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان، فأمَّا إنْ كان المقصود نفس المال وجمعه، والتَّفاخُر به ونحو ذلك، فهو مذمومٌ، وليكن العقد الذي به الاكتساب جامِعًا لأمورٍ أربعةٍ: الصِّحَّة، والعدل، والإحسان، والشَّفَقة على الدِّين.

الأمر الأوَّل: في الصِّحَّة، فإنْ كان العقد بيعًا، فله ثلاثة أركانٍ: العاقد، والمعقود عليه، واللَّفظ.

الرُّكن الأوَّل: أمَّا العاقد، فينبغي للتَّاجر ألَّا يُعامِل المجنون؛ لأنَّه غير مُكلَّفٍ، فلا يصحُّ بيعه، ولا يُعامِل العبد إلَّا أنْ يعلمَ أنَّه مأذونٌ له، وكذلك الصَّبيُّ لا يُعامَل إلَّا أنْ يكون قد أَذِن له الأب أو الوصيُّ، فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وعند الشَّافعيِّ لا تصحُّ عقود الصَّبيِّ، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحةٌ، يصحُّ بيعه وشراؤه، وعند الشَّافعيِّ لا تصحُّ.

وأمَّا الظَّلَمة ومَن أكثر ماله حرامٌ، فلا ينبغي أنْ يُعامَل إلَّا في شيءٍ يُعرَف أنَّ عينه حلالٌ.

الرُّكن الثَّاني: المعقود عليه، وهو المال المقصود نَقْله، ولا يجوز بيع الكلب؛ لأنَّه نجس العين، فأمَّا البغل والحمار فيجوز بيعهما، سواءٌ قلنا: إنَّهما طاهران أو نجسان، ولا يجوز بيع الحشرات، ولا بيع العُود والمِزمار، والصُّوَر المصنوعة مِن الطِّين ونحوه، ولا يجوز بيع ما لا يَقدِر على تسليمه حِسًّا ولا شرعًا، أمَّا الحسُّ فكالطَّير في الهواء، والعبد الآبق ونحوهما، وأمَّا الشَّرع فكالمرهون، وبيع الأمِّ دون الولد الصَّغير، أو الولد دون الأمِّ، فهذا ممنوعٌ تسليمه شرعًا.

الرُّكن الثَّالث: اللَّفظ، وهو الإيجاب والقَبول، فإنْ تقدَّم القَبول للإيجاب لم يصحَّ في إحدى الرِّوايتَين، ويصحُّ في الأُخرى، سواءٌ كان بلفظ الماضي، أو بلفظ الطَّلَب، فإنْ تبايعا بالمُعاطاة، فظاهر كلام أحمدَ صحَّة البيع.

وقال القاضي أبو يعلى[١]: لا يصحُّ ذلك إلاَّ في أشياءَ يسيرة، وهذا أصلح الأقوال، أعني أنْ تكون المُعاطاة في الأشياء المُحقَّرة دون النَّفيسة، لجَرَيان العادات بذلك، وينبغي مِن طريق الوَرَع ألَّا يُتْرَك الإيجاب والقَبول؛ ليخرج عن شُبهة الخلاف.

وقد شدَّد الله تعالى في أمر الرِّبا، فينبغي أنْ يُحذَر مِن الوقوع فيه، وهو قسمان: ربا الفَضْل، وربا النَّسِيئة، فينبغي أنْ يعرفَ ذلك، وما يجري فيه الرِّبا، ويحتاج أيضًا أنْ يعرفَ شروط السَّلَم، والإجارة، والمُضارَبة، والشَّركة، فإنَّ المكاسب لا تنفكُّ عن هذه العقود المذكورة.

فَصْلٌ

في الأمر الثَّاني: وهو العدل، واجتناب الظُّلم في المُعاملة، ونعني بالظُّلم ما يَتضرَّر به الغير، وهو ينقسم إلى ما يعمُّ ضرره، وما يخصُّ.

الأوَّل: الاحتكار، وهو مَنهيٌّ عنه؛ لِمَا فيه مِن غلاء السِّعر، وتضييق الأقوات على النَّاس.

وَصِفته: أنْ يَستكثِرَ مِن ابتياع الغَلَّات في الغلاء، ويَترَبَّص بها زيادة الأسعار، فأمَّا إذا دَخَلت له غَلَّةٌ مِن ضيعته وحَبسها فليس مُحتكِرًا، وكذلك إذا كان الشِّراء في حال الاتِّساع والرُّخص على صفةٍ لا يُضيِّق على النَّاس، وفي الجملة تُكرَه التِّجارة في القوت؛ لأنَّه قوام الآدميِّ.

القِسم الثَّاني: ما يخصُّ ضرره، نحو أنْ يُثْنِيَ على السِّلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها، فيضرَّ بذلك المشتري، وقد قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ غَشَّنا لَيسَ مِنَّا**»[٢].

---

(١) القاضي أبو يَعلَى البغداديُّ، محمَّد بن الحسين الإمام، العلامة، شيخ الحنابلة، القاضي، الحنبليُّ، ابن الفرَّاء، صاحب «التَّعليقة الكبرى»، والتَّصانيف المُفيدة في المذهَب، ولد في أوَّل سنة ثمانين وثلاثمائةٍ، وسمع عليَّ بن عمرَ الحربيَّ، وإسماعيلَ بن سويد، وعيسى بن الوزير، وطائفة، وأملى عدة مجالس، وحدَّث عنه الخطيب، وأبو الخطَّاب الكلوذانيُّ، وأبو الوفاء بن عقيلٍ، وغيرُهم، ولي أبو يعلى القضاء بدار الخلافة والحريم، مع قضاء حرَّان وحلوان، وعاد إلى بغدادَ، وتوفِّي سنة (٥٦٠). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (١٨/ ٨٩) الأعلام (٧/ ٢٤).

(٢) رواه مسلمٌ (١٠١) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واعلم أنَّ الغِشَّ حرامٌ في البيوع، وفي الصِّناعات، وقد سُئل الإمام أحمدُ عن رَفْوِ الثَّوب حتى لا يبينَ، فقال: لا يجوز لِمَن يبيعه أنْ يُخفيَه.

وينبغي للتَّاجر أنْ يُحقِّق الوزن، ولا يَتخلَّص مِن هذا حتى يرجع إذا أعطى، وينقص إذا أَخَذ، ومتى خَلَط العَلَّافُ الطَّعامَ ترابًا ثُمَّ كاله فهو مُطفِّفٌ، وكذلك القَصَّاب إذا خلط عظمًا لم تَجْرِ العادة بمثله.

وقد نُهِيَ عن النَّجش(١)، وهو أنْ يزيدَ في السِّلعة مَن لا يُريد شراءها؛ ليَغُرَّ المشتري، ونُهِيَ عن التَّصرية(٢).

فَصْلٌ

الأمر الثَّالث: في الإحسان بالمُعاملة، وقد أَمَر الله تعالى بالعدل والإحسان، فمِن الإحسان المُسامَحة في البيع، وألَّا يغبنه في الرِّبح بما لا يُتغابَن في العادة، فأمَّا أصل المُغابَنة فمأذونٌ فيه؛ لأنَّ البيع للرِّبح، ولكن يُراعَى فيه التَّقريب، فإنْ بَذَل المشتري زيادةً على الرِّبح [المُعتاد](٣) لشِدَّة رغبته وحاجته، فينبغي أنْ يمتنع البائع مِن قَبول ذلك، فإنَّ ذلك مِن الإحسان.

ومِن ذلك أنَّه إذا أراد استيفاء الثَّمن أو الدَّين، فيُحسن تارةً بالمسامحة، وتارةً بحَطِّ البعض، وتارةً بالإنظار، وتارةً بالتَّساهُل، وتارةً في جَودة النَّقْد.

ومِن الإحسان: أنْ يقبلَ مَن يَستقيلُه، فإنَّه لا يَستقيلُ إلَّا مُتضرِّرٌ بالبيع، والأحاديث تشهد بفَضْل هذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها مِن الأجر والثَّواب.

---

(١) النَّجش في الأصل: المدح والإطراء، والمراد به في الحديث الذي ورد النهي عنه أنَّه يمدح السِّلعة، ويَزيدُ فيها، وهو لا يُريدها ليسمعه غيره فيزيده، وهذا خداعٌ محرَّمٌ. «جامع الأصول» (١/ ٤٩٩).

(٢) أصل التَّصرية القطع والجمع، ومنه الشَّاة المُصرَّاة، وهي التي جُمع لَبَنها، وقطع حَلْبُه. «جامع الأصول» (١٠/ ٥٥٤).

(٣) ورد في "المطبوع" [المُعتادة].

فَصْلٌ

الأمر الرَّابع: شَفَقة التَّاجر على دِينه فيما يَخصُّ ويَعمُّ آخرته، لا ينبغي للتَّاجر أنْ يَشغلَه معاشُه عن مَعاده، بل يُراعي دِينه، وإنَّما تتمُّ شَفَقته على دِينه بمُراعاة ستَّة أشياءَ:

الأوَّل: حُسْنُ النيَّة في التِّجارة، فلْينوِ بها الاستعفاف عن السُّؤال، وكفَّ الطَّمع عن النَّاس، والقيامة بكفاية العِيال؛ لِيكونَ بذلك مِن جملة المُجاهِدين، ولْينوِ النُّصح للمسلمين.

الثَّاني: أنْ يقصدَ القيام في صناعته أو تجارته بفَرْضٍ مِن فروض الكفايات، فإنَّ الصِّناعة والتَّجارة لو تُرِكت بَطَل المَعاش، إلَّا أنَّ مِن الصِّناعة ما هو مُهمٌّ، ومنها ما يُستغنَى عنه؛ لكونه مُتعلِّقًا بالزِّينة، أو طلبِ التَّنعم، فلْيشتغلْ بصناعةٍ مُهمَّةٍ؛ ليكونَ في قِيامه بها كافيًا عن المسلمين مُهِمًّا، ولْيجتنبْ صناعة الصِّياغة، والنَّقش، وتشييد البُنيان بالجصِّ، وجميع ما يُزخرَف به، فإنَّه مكروهٌ.

ومِن المعاصي خياطة الخيَّاط القباء الدِّيباج للرَّجل، ويُكرَه أنْ يكون جزَّارًا؛ لأنَّه يُوجِب قساوة القلب، أو حجَّامًا، أو كنَّاسًا؛ لِمَا فيه مِن مُباشَرة النَّجاسة، وفي معناه الدَّبَّاغ.

ولا يجوز أَخْذ الأجرة على تعليم القرآن، والعبادات، وفروض الكفايات.

الثَّالث: ألَّا يمنعَه سُوق الدُّنيا عن سُوق الآخرة، وسُوق الآخرة المساجد، فينبغي أنْ يجعل أوَّل النَّهار إلى وقت دُخول السُّوق لآخرته، فيُواظِب على الأوراد، وقد كان صالحو السَّلف مِن التُّجَّار يجعلون أوَّل النَّهار وآخره للآخرة، ووَسَطه للتِّجارة، وإذا سَمِع أذان الظُّهر والعصر، فينبغي أنْ يَتركَ المَعاش اشتغالًا بأداء الفرض.

الرَّابع: أنْ يُلازِم ذِكْر الله تعالى في السُّوق، ويشتغل بالتَّسبيح والتَّهليل.

الخامس: ألَّا يكونَ [شديد][1] الحِرص على السُّوق والتِّجارة، فلا يكون أوَّل مَن يدخل السُّوق، ولا آخِرَ مَن يخرج منها.

---

(١) ورد في "المطبوع" [شديد في].

السَّادس: ألَّا يقتصرَ على اجتناب الحرام، بل يَتوقَّى مَواقع الشُّبه، ومَواضِع الرِّيَب، ولا يقف مع الفتاوى، بل يستفتي قلبه، فيجتنب ما يَحزُّ في القلب.

بيانُ الحلالِ والحرام

اعلم أنَّ طَلَب الحلال فرضٌ على كلِّ مسلمٍ، وقد ادَّعى كثيرٌ مِن الجُهَّال عدم الحلال، وقالوا: لم يبقَ منه إلَّا الماء الفُرات، والحشيش النَّبات، وما عدا ذلك فقد أفسدته المُعاملات الفاسدة، فلمَّا وقع لهم هذا، وعَلِموا أنَّه لا بدَّ لهم مِن الأقوات، تَوسَّعوا في الشُّبهة والحرام، وهذا مِن الجهل، وقِلَّة العِلم، فإنَّ في «الصَّحيحَين»(١) مِن حديث النُّعمان بن بشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وبَينَهُما مُشتَبِهاتٌ**».

ولمَّا كانت هذه الدَّعوى مِن هؤلاء الجُهَّال بِدعةً قد عمَّ ضررها، واستطار في الدِّين شَرَرها، وجب كشف الغِطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشُّبهة، ونحن نُوضِّح ذلك في أقسامٍ:

الأوَّل: في فضيلة طلب الحلال، وذمِّ الحرام، ودرجات الحلال والحرام. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، والطَّيِّبات: الحلال، فأمَر بذلك قَبل العمل، وقال في ذمِّ الحرام: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، إلى غير ذلك مِن الآيات.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا**». وذَكر الحديث إلى قوله: ثُمَّ ذَكَر الرَّجل يُطيل السَّفر، أَشعثَ أغبرَ،

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩).

يمدُّ يدَيه إلى السَّماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعمُه حرامٌ، ومَشربُه حرامٌ، ومَلبسُه حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك. رواه مسلمٌ[١].

ورُوي في ذلك غير حديثٍ، ورُوي أنَّ سعدًا سأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ تُستجابَ دعوته، فقال له: «**أَطِبْ طُعْمَتَكَ تُستَجَبْ دَعْوَتُكَ**»[٢].

وقد كان السَّلف ينظرون في الحلال، ويدقِّقون فيه، فأكَل أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شيئًا مِن شُبهةٍ، ثُمَّ قاءه[٣].

فصلٌ في درجاتِ الحلالِ والحرامِ

اعلم أنَّ الحلال كلَّه طيِّبٌ، ولكن بعضه أطيبُ مِن بعضٍ، والحرام كلُّه خبيثٌ، ولكن بعضه أخبثُ مِن بعضٍ، كما أنَّ الطَّبيب يحكم على كلِّ حُلوٍ بالحرارة، ولكنَّه يقول: هذا حارٌّ في الدَّرجة الأُولى، وهذا في الدَّرجة الثَّانية، وهذا في الثَّالثة، وهذا في الرَّابعة.

مِثال ذلك على الحرام المأخوذ بعقدٍ فاسدٍ حرامٌ، ولكنَّه ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظُ؛ إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشَّرع في الاكتساب، وليس في العقود الفاسدة إلَّا تَرْك طريق التَّعبُّد فقط، وكذلك المأخوذ ظُلمًا مِن فقيرٍ أو صالحٍ أو يتيمٍ أخبثُ وأغلظُ مِن المأخوذ مِن قويٍّ أو غنيٍّ أو فاسقٍ.

فَصْلٌ

والوَرَع له درجاتٌ أربعٌ:

الدَّرجة الأُولى: وهي درجة العدول عن كلِّ ما تقتضي الفتوى تحريمه، وهذا لا يَحتاج إلى أمثلة.

---

(١) الحديث (١٠١٥).

(٢) رواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٦٤٩٥)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ١٤١) وقال: أخرجه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفيه مَن لا أعرفه.

(٣) رواه البخاريُّ (٣٦٢٩) عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

الدَّرجة الثَّانية: الوَرَع عن كلِّ شُبهةٍ لا يجب اجتنابها، ولكن يُستحَبُّ، كما يأتي في قِسم الشُّبهات، ومِن هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلى مَا لا يرِيبُكَ**»(١).

الدَّرجة الثَّالثة: الوَرَع عن بعض الحلال مَخافةَ الوُقوع في الحرام.

الرَّابعة: الوَرَع عن كلِّ ما ليس لله تعالى، وهو وَرَع الصِّدِّيقين، مِثال ذلك ما رُوي عن يحيى بن يحيى النَّيسابوريِّ(٢) أنَّه شرب دواءً، فقالت له امرأته: لو مَشيتَ في الدَّار قليلًا حتى يعمل الدواء. فقال: هذه مشيةٌ لا أعرفها، وأنا أُحاسِب نفسي منذ ثلاثين سنةً. فهذا رجلٌ لا تحضره نيَّةٌ في هذه المشية تتعلَّق في الدِّين، فلم يقدرْ عليها، فهذا مِن دقائق الوَرَع.

والتَّحقيق فيه أنَّ الوَرَع له أوَّلٌ وغايةٌ، وبينهما درجاتٌ في الاحتياط، فكلَّما كان الإنسان أشدَّ تشديدًا كان أسرعَ جوازًا على الصِّراط، وأخفَّ ظهرًا، وتَتَفاوت المَنازِل في الآخرة بحسب تَفاوُت هذه الدَّرجات في الوَرَع، كما تَتفاوَت دَرَكات النَّار في حقِّ الظَّلَمة بحسب درجات الحرام، فإنْ شئتَ فَزِدْ في الاحتياط، وإنْ شئتَ فتَرَخَّصْ، فلنفسك تحتاط، وعليها تَترَخَّص.

القِسم الثَّاني: في مَراتِب الشُّبُهات وتمييزها عن الحلال والحرام، وحديث النُّعمان ابن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٣) نصٌّ في هذه الأقسام الثَّلاثة، وهي الحلال والحرام وما بينهما، والمُشكِل فيها هو المُتوسِّط الذي لا يعرفه كثيرٌ مِن النَّاس، وهو الشُّبْهة.

---

(١) أخرجه أحمدُ (١٧٢٣)، والتِّرمذيُّ (٢٥١٨)، والنَّسائيُّ في «شعب الإيمان» (٥٣٦٣) عن الحسن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال التِّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وذكره البخاري معلَّقًا في ترجمة الباب، كتاب البيوع، باب تفسير الشبهات.

(٢) يحيى بن يحيى بن بكر بن عبد الرَّحمن التَّميميُّ النَّيسابوريُّ، شيخ الإسلام، وعالِم خراسان، أبو زكريا التميمي، المنقري، الحافظ، ولد سنة (١٤٢هـ)، وكتب ببلده، وبالحجاز، والعراق، والشَّام، ومِصرَ، لقي صغارًا مِن التَّابعِين، منهم كثير بن سليمٍ وأخذ عنه، وعن ومالكٍ، وشريكٍ القاضي، وأممٍ سواهم، وعنه البخاريُّ، ومسلمٌ، وحميد بن زنجوية، وغيرهم. توفي سنة (٢٢٦هـ) انظر «سير أعلام النُّبلاء» (١٠/ ٥١٢)، «الأعلام» (٨/ ١٧٦).

(٣) تقدَّم قريبًا جدًّا.

ونحن نكشف الغِطاء عنها فنقول:

الحلال المُطلَق: الذي لا يَتعلَّق بذاته صفةٌ تُوجِب تحريمًا لِعَينه، ولا يَتعلَّق بأسبابه ما يطرق إليه تحريمًا أو كراهيةً.

مِثال ذلك: الماء الذي يأخذه الإنسان مِن المطر قَبل أنْ يقع على مِلكِ أَحَدٍ.

والحرام المحض: ما فيه صفةٌ مُحرِّمةٌ، كالشِّدَّة في الخمر، والنَّجاسة في البول، أو حصل بسببٍ مَنهيٍّ عنه، كالمُتحصِّل بالظُّلم والرِّبا، فهذان الطَّرفان ظاهران، ويلتحق بهما ما تحقَّق أمره، ولكن يَحتمِل تغيُّره، ولم يكن لذلك الاحتمال سببٌ ظاهرٌ يدلُّ عليه، فإنَّ صَيْد البرِّ والبحر حلالٌ، إلَّا أنَّه مَن صاد ظبيةً أو سمكةً، فإنَّه يَحتمِل أنْ يكونَ قد مَلَكها صيَّادٌ، ثُمَّ أفلتت، وهذا الاحتمال لا يتطرَّق إلى ماء المطر المُختطَف مِن الهواء، فمُساكَنة ذلك الاحتمال في الصَّيد وَرَع المُوسوَسِين؛ لأنَّه وهمٌ مُجرَّدٌ لا دلالةَ عليه، فلو دلَّ عليه دليلٌ مِثل أنْ يجدَ في الظَّبية جرحًا لا يقدر عليه، إلَّا بعد الضَّبط، كالكيِّ، ويحتمل أنْ يكونَ غيره، فهذا مَوضِعُ الوَرَع.

وحَدُّ الشُّبهة: ما تَعارَض فيه اعتقادان صدرا عن شيئَين مُقتضِيَين لاعتقادَين.

ومِثالات الشُّبهة كثيرٌ، والمهمُّ منها مثالان:

الأوَّل: الشَّكُّ في السَّبب المُحلِّل أو المُحرِّم، وتنقسم إلى أربعة أنواعٍ:

الأوَّل: أنْ يكونَ الحِلُّ معلومًا مِن قَبلُ، ثُمَّ يقع الشَّكُّ في المُحلِّل، فهذه شبهةٌ يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مِثاله أنْ يرَى صَيْدًا، فيجرحه، فيقع في الماء، فيُصادفه ميتًا، ولا يدري هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهذا حرامٌ؛ لأنَّ الأصل التَّحريم.

النَّوع الثَّاني: أنْ يعرفَ الحِلَّ، ويَشُكَّ في المُحرِّم، فيكون الأصل الحِلَّ، والحُكم له، كما لو طار طائرٌ، فقال رجلٌ: إنْ كان هذا غُرابًا فامرأته طالقٌ. وقال آخر: إنْ لم يكنْ غُرابًا، فامرأته طالقٌ. ثُمَّ التبس الأمر، فإنَّا لا نقضي بالتَّحريم في واحدةٍ منهما، ولكنَّ الوَرَع اجتنابهما وتطليقهما.

النَّوع الثَّالث: أنْ يكونَ الأصل التَّحريم، ولكنْ طَرَأ ما يُوجِب التَّحليل بظنٍّ غالبٍ، فهو مشكوكٌ فيه، والغالب حِلُّه، مِثاله أنْ يرميَ إلى صيدٍ، فيغيب عنه، ثُمَّ يُدرِكه ميتًا، وليس عليه أثَرٌ سِوى سهمه، فهذا الظَّاهر فيه الحِلُّ؛ لأنَّ الاحتمال إذا لم يَستندْ إلى دليلٍ الْتَحق بالوسوسة، فأمَّا إنْ ظهر عليه أثَر صدمةٍ أو جراحةٍ أُخرى الْتَحق بالنَّوع الأوَّل.

النَّوع الرَّابع: أنْ يكونَ الحِلُّ معلومًا، ولكن يغلب على الظَّنِّ طرآن المُحرِّم بسببٍ مُعتبَرٍ في غلبة الظَّنِّ شرعًا، مِثاله أنْ يُؤدِّي اجتهاده إلى نجاسة أَحَد الإناءَين بالاعتماد على علامةٍ مُعيَّنةٍ تُوجِب عليه الظَّنَّ، فتُوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.

المثال الثَّاني: أنْ يختلطَ الحرام بالحلال، ويشتبه الأمر فيه، وذلك على أضربٍ:

أحدها: إذا اختلطت ميتةٌ بمُذكَّاةٍ، أو بعَشَرةٍ مِن المُذكَّيات، ونحو ذلك مِن العدد المحصور، ومِثله أنْ تَشتبه أخته بأجنبيَّاتٍ، فهذه شبهةٌ يجب اجتنابها.

الثَّاني: أنْ يختلطَ حرامٌ مَحصورٌ بحلالٍ غيرِ محصورٍ، كما لو اشتبهتْ أخته، أو عَشرُ رضائعَ بنسوةِ بلدٍ كبيرٍ، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أنْ ينكحَ مَن شاء منهنَّ؛ لأنَّ في تحريمهنَّ حَرَجًا كبيرًا، وكذلك مَن عَلِم أنَّ مال الدُّنيا خالطه حرامٌ قطعًا، لم يلزمه ترك الشِّراء والأكل؛ لأنَّ في ذلك حَرَجًا، وقد عَلِم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أنَّ في النَّاس مَن يُرابي، وما تركوا الدَّراهم بالكلِّيَّة، وأنَّ مِجَنًّا[1] سُرِق في زمانه، وما تَركوا شراء مِجَنٍّ، فاجتناب هذا مِن ورع الوسوسة.

الثَّالث: أنْ يختلط حرامٌ لا يُحصَر بحلالٍ لا يُحصَر، كحُكم الأموال في زماننا هذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيءٍ بعينه، إلَّا أنْ يقترن بتلك العين علامةٌ تدلُّ على أنَّه مِن الحرام، ونحو أنْ يأخذه مِن يد سلطانٍ ظالمٍ، فإنْ لم يكنْ له علامةٌ، فتَرْكه وَرَعٌ، ولا يحرم ذلك؛ لأنَّه قد عُلِم في زمان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء بعده أنَّ

---

(١) المِجَنُّ: هو الترس؛ لأنَّه يواري حامله أي يستره. «لسان العرب» مادة (جنن).

أثمان الخمور، ودارهم الرِّبا، وغُلولَ الغنيمة اختلطت بالأموال، وقد أدركتِ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نَهْب المدينة، وتَصرُّفَ الظَّلَمة، ولم يمنعوا مِن الشِّراء بالسُّوق، ولولا صحَّةُ ذلك لانسدَّ باب جميع التَّصرُّفات، فإنَّ الفِسق يغلب على النَّاس، لكنَّ الأصل في الأموال الحِلُّ، وإذا تَعارَض أصلٌ وغالبٌ، ولا أمارةَ على الغالب، حُكم بالأصل، كما قلنا في طين الشَّوارع، وأواني المُشرِكين، فقد توضَّأ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن جرَّةِ نصرانيَّةٍ[1]، مع أنَّ مَشرَبهم الخمر، ومطعمهم الخنزير، ولا يحترزون مِن نجاسةٍ، وكانت الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تَلبَس الفِرَاء المدبوغة، والثِّياب المصبوغة.

ومَن تأمَّل أحوال الدَّبَّاغِين والصَّبَّاغِين عَلِم غلبة النَّجاسة عليهم، فيدلُّ ذلك على أنَّهم لم يكونوا يَحترزون إلَّا مِن نجاسةٍ مُشاهَدةٍ، أو يكون عليها علامةٌ، فأمَّا الظَّنُّ الذي يُستفاد مِن رَدِّ الوهم إلى مَجاري الأحوال فلم يَعتبِروه، فإنْ قيل: قد كانوا يَتوسَّعون في أُمور الطَّهارة، ويحترزون مِن شبهات الحرام، فما الفرق؟

قلنا: إنْ أردتَ أنَّهم كانوا يُصلُّون مع النَّجاسة فباطلٌ، وإنْ أردتَ أنَّهم احترزوا مِن كلِّ نجاسةٍ يجب اجتنابها فصحيحٌ، وأمَّا تورُّعُهم عن الشُّبَه فكان بطريق كفِّ النَّفْس عمَّا ليس به بأسٌ مَخافةَ ما به بأسٌ، والنَّفْس تميل إلى الأموال كيف كانت، بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون ممَّا يشغل قلوبهم مِن الحلال، والله أعلم.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الصَّغير» (٢٢١)، وفي «معرفة السُّنن والآثار» (٥٦٤)، وفي «الكبرى» (١٢٩).

القسم الثالث من الكتاب في الحلال والحرام والبحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها

اعلم أنَّه لو قُدِّم لك الطَّعام، أو أُهدِيَتْ لك هديةٌ، أو أَردتَ أنْ تشتريَ شيئًا مِن شخصٍ فليس لك أنْ تقولَ: هذا ممَّا لا أتحقَّق حِلَّه، فأُريد أنْ أُفتِّش عنه، وليس لك أنْ تتركَ البحث مُطلَقًا، بل السُّؤال واجبٌ مرَّةً، وحرامٌ مرَّةً، ومندوبٌ مرَّةً، ومكروهٌ مرَّةً.

والقول الشَّافي فيه: أنَّ مَظنَّة السَّؤال الرِّيبة، وهي تحصل إمَّا مِن أمرٍ يَتعلَّق بالمال، أو بصاحب المال، أمَّا ما يَتعلَّق بصاحب المال فنحو أنْ يكونَ مجهولًا؛ وهو الذي ليس عليه قرينةٌ تدلُّ على ظُلمه، كزيِّ الأجناد، ولا على صلاحه، كثياب أهل العِلم والزُّهد، فها هنا لا يجب السُّؤال، ولا يجوز؛ لأنَّ فيه هتك المسلم وإيذاءه، ولا يُقال لهذا: إنَّه مشكوكٌ فيه؛ لأنَّ المشكوك فيه هو الذي تحصل فيه الرِّيبة بدلالةٍ، مِثل أنْ يكونَ على خِلْقة الأتراك وأهل البوادي المعروفين بالظُّلْم، وقطع الطَّريق، فهذا يجوز مُعاملته؛ لأنَّ اليد تدلُّ على المِلك، وهذه الدَّلالات ضِعافٌ، إلَّا أنَّ التَّرك مِن الوَرَع.

وأمَّا ما يَتعلَّق بالمال، فنحو أنْ يختلطَ الحرام بالحلال، كما إذا طُرِح في السُّوق أحمالٌ مِن طعام مغصوبٍ، فاشتراها أهل السُّوق، فإنَّه لا يجب على مَن يشتري في تلك البلدة مِن السُّوق أنْ يسألَ عمَّا يشتريه، إلَّا أنْ يظهرَ أنَّ أكثرَ ما في أيديهم حرامٌ، فعند ذلك يجب السُّؤال، فإنْ لم يكنِ الأكثر حرامًا كان التَّفتيش وَرَعًا غيرَ واجبٍ، وكذلك نقول في رجلٍ له مالٌ حلالٌ خالَطَه حرامٌ، مِثل أنْ يكونَ تاجرًا يُعامِل مُعاملاتٍ صحيحةً ويُرابي، فهذا إنْ كان الأكثر مِن ماله حرامًا لم [يجز][1] قَبول ضِيافته ولا هديَّته إلَّا بعد التَّفتيش، فإنْ ظهر أنَّ المأخوذ مِن وجهِ حلالٍ جاز، وإلَّا تُرِك، وإنْ كان الحرام أقلَّ فالمأخوذ شُبهةٌ، والوَرَع تَركه.

---

(١) ورد في "المطبوع" [تجز].

واعلم أنَّ السُّؤال إنَّما يقع لأجل الرِّيبة، فلا ينقطع إلَّا مِن حيث تنقطع الرِّيبة المُقتضِية ماله، بألَّا يكونَ المسؤول مُتَّهَمًا، فإنْ كان مُتَّهمًا، وعلمتَ أنَّ له غرضًا في حضوركَ أو قَبول هديَّته، فلا ثقةَ بقوله، وينبغي أنْ يُسأل غيره.

القِسم الرَّابع: في باب الحلال والحرام، وكيفيَّة خُروج التَّائب عن المَظالِم الماليَّة.

اعلم أنَّ مَن تاب وفي يده مالٌ مُختلِطٌ، فعليه تمييز الحرام وإخراجه، فإنْ كان معلومَ العين فأمره سهلٌ، وإنْ كان مُلتبِسًا مُختلِطًا فإنْ كان مِن ذوات الأمثال، كالحبوب والنُّقود والأدهان، وكان معلوم القَدْر، مَيَّزَ ذلك القَدْر، فإنْ أشكلَ فله طريقان:

أحدهما: الأخذ بغالب الظَّنِّ.

والثَّاني: الأخذ باليقين، وهو الورع.

فإذا أخرج المال الحرام، فإنْ كان له مالكٌ مُعيَّنٌ، وَجَب صرفه إليه، أو إلى وارثه، وإنْ كان لذلك المال زيادةٌ ومنفعةٌ جمع ذلك كلَّه، وصَرَفه إليه، وإنْ يئسَ مِن معرفة المالك، ولم يدرِ أَمات عن وارثٍ أم لا؟ فلْيتصدَّقْ به، وإنْ كان ذلك مِن مال الفيء والأموال المُرصَدة لمصالح المسلمين صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح [طريق][1] مكَّةَ، وما يَنتفِع به كلُّ مَن يمرُّ مِن المسلمين.

مسألةٌ: إذا كان في يده مالٌ حلالٌ وشبهةٌ فلْيخصَّ نفسه بالحلال، ولْيُقدِّم قُوته وكِسوته على أُجرة الحَجَّام والزَّيت وإسجار التَّنور، وأصل هذا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَسْب الحَجَّام: «**اعْلِفْهُ نَاضِحَكَ**»[2].

ولو كان في يد أبوَيه حرامٌ فلْيمتنعْ مِن مُؤاكَلتِهما، فإنْ كان شبهةً داراهما، فإنْ لم يقبلا تناول اليسير.

---

(١) سقطت من "الأصل".

(٢) رواه أبو داودَ (٣٤٢٢)، والتِّرمذيُّ (١٢٧٧)، أحمدُ (٢٣٦٩٠) عن مُحَيِّصة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد رُوي أنَّ أمَّ بشرِ الحافي[(١)] ناولته تمرةً فأكلها، ثُمَّ صَعِد الغرفة فقاءها.

القِسم الخامس: في إدرار السَّلاطين وصِلاتهم، وما يَحلُّ مِن مُخالَطة السَّلاطين الظَّلَمة، ونحو ذلك.

اعلم أنَّ مَن أَخَذ مالًا مِن السُّلطان فلا بدَّ أنْ ينظرَ في مَدخل ذلك إلى السُّلطان مِن أين هو؟ وفي صِفته التي يَستحقُّ بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقُّه؟

وقد تورَّع جماعةٌ عن ذلك، وكان فيهم مَن يأخذه فيَتصدَّق به.

وأمَّا في هذا الزَّمان، فالاحتراز عنه أَولى؛ لأنَّه قد عُلم طريق الأخذ، ثُمَّ لا يُنال إلَّا بالذُّلِّ والسُّؤال والسُّكوت على الإنكار.

وقد كان بعض السَّلف لا يأخذ، ويُعلِّل بأنَّ باقي المُستحِقِّين لم يأخذوا، وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنَّه يأخذ حقَّه، ويبقى أولئك في مقامِ مظلومٍ، وليس المال مُشتَرَكًا.

فَصْلٌ

اعلم أنَّ لك مع الأمراء والعُمَّال الظَّلَمة ثلاثةَ أحوالٍ:

الحالة الأُولى: أنْ تدخلَ عليهم، وهي شَرُّها، فقد رُوي عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ أَتَى أَبوَابَ السَّلَاطِينِ افْتُتِنَ، وَمَا ازدَادَ عَبدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْبًا إلَّا ازدَادَ مِنَ اللهِ بُعْدًا**»[(٢)].

---

(١) بشر بن الحارث بن عليِّ المروزيُّ، أبو نصرٍ، المعروف بالحافي، مِن كبار الصَّالحِين، ولد سنة اثنتين وخمسين ومائةٍ، وارتحل في العِلم، فأخذ عن مالكٍ، وشريكٍ، وحماد بن زيدٍ، وحدَّث عنه: أحمد الدَّورقيُّ، ومحمَّد بن يوسف الجوهريُّ، وإبراهيمُ بن هانئ النَّيسابوريُّ، وخَلْقٌ سواهم، له في الزُّهد والورع أخبارٌ، وهو مِن ثقات رجال الحديث، مِن أهل مرو، سكن بغدادَ وتُوفِّي بها سنة (٢٢٧هـ). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (١٠/ ٤٦٩)، «الأعلام» (٢/ ٥٤).

(٢) رواه أبو داودَ (٢٨٦٠)، والنَّسائيُّ في «شعب الإيمان» (٨٩٥٦)، وأحمدُ (٨٨٣٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إيَّاكم ومواقفَ الفتن. فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأُمَراء، يدخل أحدكم على الأمير، فيُصدِّقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه(١).

وقال بعض الأمراء لبعض الزُّهَّاد: أَلَا تأتينا؟ فقال: أخاف إنْ أدنيتَني فَتَنتَني، وإنْ أَقصيتَني حَرَمتَني، وليس في يدك ما أُريده، ولا في يدك ما أَخافك عليه، وإنَّما أَتاك مَن أَتاك ليستغني بك عمَّن سِواك، وقد استغنيتُ عنك بمَن أغناكَ عني(٢).

فهذه الآثار تُبيِّن كراهية مُخالَطة السَّلاطين، وأيضًا فإنَّ الدَّاخل على السُّلطان مُعرَّضٌ لِأَنْ يعصيَ الله عَزَّوَجَلَّ إمَّا بفِعله، أو قوله، أو سكوته.

أمَّا الفِعل: فإنَّ الدُّخول عليهم في غالب الأحوال لا يكون إلى أماكنَ مَغصوبةٍ، ولو فُرِض أنَّه في موضعٍ غيرِ مغصوبٍ ففي الغالب يكون ما تحته أو ما يَظلُّه مِن خيمةٍ أو نحوها مِن ماله الحرام، والانتفاع بذلك حرامٌ، ولو فُرِض ذلك حلالًا فربَّما يقع في غيره مِن المحذورات، إمَّا أنْ يَسجدَ له، أو يَتمثِلَ له قائمًا، ويخدمه، ويَتواضَع له بسبب وِلايته التي هي آلة ظلمه، والتَّواضع للظَّالم معصيةٌ، بل مَن تَواضَع لغنيٍّ لأجل غِناه لا لمعنًى آخر يقتضي التَّواضع ذَهب ثُلُثا دِينه(٣)، فكيف إذا تَواضع للظَّالم؟ وتَقبيل اليد له معصيةٌ، إلَّا أنْ يكون عند خوفٍ، أو لإمامٍ عادلٍ، أو عالِمٍ يَستحِقُّ ذلك، فأمَّا غيرُ مَن ذكرنا فلا يُباح في حقِّهم إلَّا مُجرَّد السَّلام.

وأمَّا القول: فهو أنْ يدعوَ للظَّالِم، أو يُثنِيَ عليه، أو يُصدِّقَه فيما يقول مِن باطلٍ بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشارٍ في وجهه، أو يُظهِر له الحبَّ والموالاةَ والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طُول بقائه، فإنَّه في الغالب لا يقتصر على السَّلام، بل يتكلَّم، ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان»، رقم الحديث (٨٩٦٥)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٧).

(٢) رواه بمعناه الواسطيُّ في «تاريخ واسط» (ص٨٦).

(٣) لِمَا ورد عن وهب بن منبِّهٍ أنه قال: «وَجَدْتُ فِي التَّوْرَاةِ أَرْبَعَةَ أَسْطُرٍ مُتَوَالِيَةٍ: مَنْ شَكَى مُصِيبَتَهُ فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ، وَمَنْ تَضَعْضَعَ لِغَنِيٍّ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ...». رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٥٧٠).

وقد جاء في الأثر: «مَن دعا لظالِمٍ بطُولِ البقاء فقد أَحبَّ أنْ يُعصى الله»(١).

ولا يجوز دُعاؤه له إلَّا أنْ يقول: أصلحك الله، أو وفَّقك الله، أو نحو ذلك.

وأمَّا السُّكوت: فهو أنْ يرَى في مَجالِسهم مِن الفُرش الحرير، وأواني الفضَّة، والملبوس المُحرَّم على غلمانهم مِن الحرير، ونحو ذلك فيسكت، وكلُّ مَن رأى شيئًا مِن ذلك وسكت هو شريكٌ فيه، وكذا إذا سمع مِن كلامهم ما هو فحشٌ وكذبٌ وشتمٌ وإيذاءٌ، فإنَّ السُّكوت عن ذلك كلِّه حرامٌ؛ لأنَّه يجب عليه الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المُنكَر.

فإنْ قلتَ: إنَّه يَخاف على نفسه، فهو معذورٌ في السُّكوت. قلنا: صدقتَ، إلَّا أنَّه مُستغنٍ عن أنْ يُعرِّض نفسه لارتكاب ما لا يُباح إلَّا بعذرٍ؛ لأنَّه لو لم يدخلْ ويشاهدْ لم يجب عليه الأمر والنَّهي، وكلُّ مَن عَلم بفسادٍ في مكانٍ، وعلم أنَّه إذا حضر لم يقدر على إزالته لم يَجُزْ له أنْ يحضرَ.

فَصْلٌ

فإنْ سَلِم ممَّا ذَكَرنا كلِّه، وهيهات، لم يسلمْ مِن فسادٍ يتطرَّق إلى قلبه؛ لِمَا يرى مِن تَوسُّعهم في التَّنعُّم، فيزدري نعمة الله عليه، ثُمَّ يقتدي به غيره في الدُّخول، ويكون مُكثِرًا لِسَواد الظَّلَمة.

---

(١) قال في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٤٨): ذَكَره البيهقيُّ في «الشُّعب»، وابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت» مِن قول حسنٍ البصريِّ، وأخرجه أبو نُعيمٍ في ترجمة سفيانَ الثَّوريِّ مِن قوله، لكنَّه لم يرد في المرفوع، نعم في المرفوع كما لابن أبي الدنيا في «الصَّمت»، وابن عديٍّ في «الكامل»، وأبي يعلى والبيهقيِّ في «شُعبه» عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ: «**إنَّ اللهَ لَيَغضَبُ إذَا مُدِحَ الفَاسِقُ**»، وروى ابن عديٍّ عن عائشةَ، والطَّبرانيُّ في «الأوسط»، وأبو نُعيم في «الحلية» عن عبد الله بن بشرٍ رَفَعه: «**مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ بِدعةٍ فَقَدْ أَعانَ هَدمَ الإسلامِ**»، وأسانيده ضعيفةٌ، بل قال ابن الجوزيِّ لها موضوعة، وأورده الغزاليُّ بلفظ: «**مَن أكرَمَ فَاسِقًا**» بدل: «**مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ بِدعَةٍ**».

ورُوي أنَّ سعيد بن المُسيِّب دُعي إلى البَيعة للوليد وسليمانَ ابني عبد الملك، فقال: لا أُبايع اثنَين ما اختلف اللَّيل والنَّهار، فقالوا: ادخل مِن هذا الباب، واخرج مِن الآخَر. قال: لا والله، لا يقتدي بي أَحَدٌ مِن النَّاس. فجُلِد مئةً، وأُلبِس [المُسوح][1].

فعلى ما بيَّنَّا لا يجوز الدُّخول على الأُمراء الظَّلَمة إلَّا بعُذرَين:

أحدهما: إلزامٌ مِن جهتهم يُخاف مِن الخلاف فيه الأذى.

والثَّاني: أنْ يدخلَ ليَرفعَ ظُلمًا عن مسلمٍ، فيجوز بشرط ألَّا يكذبَ، ولا يُثنيَ، ولا يَدعَ نصيحةً يَتوقَّع لها قَبولًا، فهذا حُكم الدُّخول.

الحال الثَّاني: أنْ يدخلَ عليه السُّلطان زائرًا، فجواب السَّلام لا بدَّ منه.

وأمَّا القيام والإكرام فلا يحرمُ مُقابَلَةً له على إكرامه، فإنَّه بإكرام العِلم والدِّين مُستحِقٌّ للحمد، كما أنَّه بالظُّلم مُستحِقٌّ للذَّمِّ، فإنْ دخل عليه وحدَه، وقد رأى أنْ يقومَ إعزازًا للدِّين فهو أَولى، وإنْ كان دخوله عليه في جمعٍ فمُراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرَّعايا أَولى وأَمثلُ، ولا بأسَ بالقيام على هذه النِّيَّة، وإنْ عَلم أنَّ ذلك لا يُورِث فسادًا في الرَّعية، ولا يَناله أذًى مِن غضبه فتَرْكُ الإكرام بالقيام أَولى، ثُمَّ يجب عليه أنْ ينصحَه، ويُعرِّفَه تحريم ما يفعله ممَّا لا يدري أنَّه مُحرَّمٌ، فأمَّا إعلامه بتحريم الظُّلم وشُرب الخمر، فلا فائدةَ فيه، بل عليه أنْ يُخوِّفَه مِن ركوب المعاصي مهما ظنَّ أنَّ التَّخويف يُؤثِّر في قلبه، وعليه أنْ يُرشدَه إلى المَصالِح، ومتى عَرَف طريقًا للشَّرع يحصل به غرض الظَّالم عرَّفه إيَّاه.

الحال الثَّالث: أنْ يعتزلَ عنهم، فلا يراهم ولا يرونه، والسَّلامة في ذلك، ثُمَّ ينبغي أنْ يعتقدَ بُغْضَهم على ظُلمهم، فلا يحبُّ لِقاءَهم، ولا يُثني عليهم، ولا يَستخبِر عن

---

(١) ومعنى المسوح: الثياب الخشنة الغليظة. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٧٠)، عزاه العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٢٢٦) إلى أبي نُعيم في «الحلية»، وصحَّح إسناده، ورد في « الأصل» [المسوخ].

أحوالهم، ولا يقترب إلى المُتَّصِلِين بهم، ولا يتأسَّف على ما يفوته بسبب مُفارَقتهم، كما قال بعضهم: إنَّما بيني وبين الملوك يومٌ واحدٌ، إمَّا يومٌ مضَى فلا يجدون لذَّاته، وأنا وإيَّاهم في غدٍ على وجلٍ، وإنَّما هو اليوم، فما عسى أنْ يكونَ في اليوم؟

مسألةٌ: إذا بَعَث إليك سلطانٌ مالًا؛ لِتُفرِّقه على الفقراء، وكان له مالكٌ مُعيَّنٌ لم يَحلَّ أَخْذه، وإنْ لم يكن له كان حُكمه أنْ يَتصدَّقَ به، سبق بيانه، ويَتولَّى تفرقته على الفقراء.

ومِن العلماء مَنِ امتنع مِن أَخْذه، وإذا كان أكثرُ أموالهم الحرامَ حَرُمت مُعامَلتُهم، وما بَنَتْه الظَّلَمة مِن القناطر والمساجد والسِّقايات ينبغي أنْ يُنظَر فيه، فإنْ كانت تلك الأعيان التي بُنِيت بها لمالكٍ مُعيَّنٍ، لم يجز العبور عليها إلَّا للضَّرورة، وإنْ لم يُعرَفْ [مالكُها][1] جاز العبور عليها، والوَرَع الامتناع، والله أعلم.

(١) ورد في "الأصل، خ" [صاحبها].

كتاب آداب الصحبة والأخوة ومعاشرة الخلق ونحو ذلك

اعلم أنَّ الألفة ثمرة حُسْنِ الخُلُق، والتَّفرُّق ثمرة سُوء الخُلُق؛ لأنَّ حُسنَ الخُلُق يُوجِب التَّحابُب والتَّوافُق، وسُوء الخُلُق يُثمر التَّباغُض والتَّدابُر، ولا يخفى ما في حُسْن الخُلُق مِن الفضل، والأحاديث دالَّةٌ على ذلك.

فقد رُوي مِن حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: **«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزانِ المُؤْمِنِ يومَ القِيامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»**. رواه التِّرمذيُّ، وصحَّحه[١].

وفي حديثٍ آخَرَ: **«إنَّ أَحَبَّكُم إِلَيَّ، وَأَقربَكُم مِنِّي مَجلِسًا يومَ القِيامَةِ أَحَاسِنُكُم أَخلاقًا، وإنَّ أَبغَضَكُم إِلَيَّ، وأَبعَدَكُم مِنِّي مَجلِسًا يومَ القِيامَة مَساوِيكُم أَخلاقًا»**[٢].

وسُئل النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يُدخِل النَّاسَ الجنَّةَ؟ فقال: **«تَقوى اللهِ، وَحُسنُ الخُلُقِ»**[٣].

وأمَّا المَحبَّة في الله تعالى ففي «الصَّحيحَين»[٤] مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: **«سَبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»** فذكر منهم: **«وَرَجُلَانِ تَحابَّا في اللهِ، اجتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفرَّقَا عَلَيهِ»**.

وفي حديثٍ آخَرَ: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: **«حَقَّتْ مَحبَّتِي لِلمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحبَّتِي لِلمُتَباذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحبَّتِي لِلمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ»**[٥].

---

(١) رواه أحمد (٢٧٥١٧) وأبو داود (٤٧٩٩) والتِّرمذيّ (٢٠٠٢) عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٠١٨)، وأحمد (٦٧٣٥) عن عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٩٨) والتِّرمذيُّ (٢٠٧٢) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: صحيحٌ غريبٌ.

(٤) رواه البخاريُّ (٦٦٩)، ومسلمٌ (١٠٣١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) رواه أحمدُ (٢٢٠٠٢)، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال المنذريُّ في «التَّرغيب والتَّرهيب» =

وفي حديثٍ آخَرَ: «**أَوْثَقُ عُرَى الإيمَانِ أَنْ تُحِبَّ في اللهِ، وتُبغِضَ في اللهِ**»[١].

والأحاديث في ذلك كثيرةٌ.

واعلم أنَّ مَن يُحبُّ في الله يُبغضُ في الله، فإنَّك إذا أحببتَ إنسانًا لكونه مُطيعًا لله، فإذا عصَى الله أبغضتَه في الله؛ لأنَّ مَن أَحبَّ لسببٍ أَبغَضَ لِوجود ضِدِّه، ومَنِ اجتمعتْ فيه خِصالٌ محمودةٌ ومكروهةٌ، فإنَّك تُحِبُّه مِن وجهٍ، وتبغضه مِن وجهٍ.

فينبغي أنْ تُحِبَّ المسلم لإسلامه، وتبغضه لمَعصيته، فتكون معه على حالةٍ مُتوسِّطةٍ بين الانقباض والاسترسال، فأمَّا ما يجري منه مجرى الهفوة التي [يُعلم][٢] أنَّه نادمٌ عليها، فالأَولى حينئذٍ الإغماض والسَّتر، فإذا أصرَّ على المعصية فلا بدَّ مِن إظهار أَثَر البُغض بالإعراض عنه والتَّباعُد، وتغليظ القول له على حسب غِلَظ المعصية وخفَّتِها.

واعلم أنَّ المُخالِف لأمر الله تعالى على أقسامٍ:

أحدها: أنْ يكونَ كافرًا، فإن كان حَربيًّا فهو مُستحِقٌّ للقتل والإرقاق، وليس بعد هذَين إهانةٌ، وإنْ كان ذِمِّيًّا فلا يجوز إيذاؤه إلَّا بالإعراض عنه، والتَّحقير له بالاضطرار له إلى أَضيَق المكان، وترك البداءة بالسَّلام، فإنْ سلَّم قيل له: وعليك.

والأَولى الكفُّ عن مُخالَطته ومُعامَلته ومُؤاكَلته، ومِن المكروه الاسترسال إليه والانبساط كما يفعل بالأصدقاء.

القِسم الثَّاني: المُبتدِع، فإنْ كان ممَّن يدعو إلى بِدعةٍ، وكانت البدعة بحيث يكفر بها، فأمره أشدُّ مِن الذِّمِّيِّ؛ لأنَّه لا يُقرُّ بجزيةٍ، ولا يُسامَح بعقد ذِمَّةٍ، وإنْ كان ممَّن لا يكفر بها، فأَمْره بينه وبين الله تعالى أخفُّ مِن أَمْر الكافر لا محالةَ، ولكنَّ الأمر في الإنكار عليه أشدُّ منه على الكافر؛ لأنَّ شَرَّ الكافر غيرُ مُتعَدٍّ؛ لأنَّه لا يَلتفِت إلى قوله

= (٤/ ١٩): رواه أحمدُ بإسناد صحيح.

(١) رواه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» الحديث (١٣) عن معاوية بن سويد عن أبيه، ورواه أحمد (١٨٥٢٤) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعزاه العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٢٦٠) إلى أحمدَ وقال: فيه ليث بن أبي سليمٍ مُختلَفٌ فيه. وإلى الخرائطيِّ في «مكارم الأخلاق» مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

(٢) ورد في "الأصل" [تعلم]، وفي "خ" [نعلم].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بخلاف المُبتدِع الذي يدعو إلى بِدعته؛ لأنَّه يزعم أنَّ ما يدعو إليه حقٌّ، فيكون سببًا لغواية الخَلْق، فشَرُّه مُتعَدٍّ، فإظهار بُغضه والانقطاع عنه ومُعاداته وتحقيره والتَّشنيع عليه ببدعته وتنفير النَّاس عنه أشدُّ.

أمَّا المُبتدِع العامِّيّ الذي لا يقدر أنْ يدعوَ، ولا يُخاف الاقتداء به فأَمْره أهونُ، والأَولى أنْ يَتلَطَّف به في النُّصح، فإنَّ قلوب العوامِّ سريعةُ التَّقلُّب، فإنْ لم ينفعِ النُّصح، وكان في الإعراض عنه تقبيحٌ لبدعته في عينه تأكَّد استحباب الإعراض عنه، وإنْ عُلم أنَّ ذلك لا يُؤثِّر؛ لجمود طَبْعه، ورسوخ اعتقاده في قلبه، فالإعراض عنه أَولى؛ لأنَّ البِدعة إذا لم يُبالَغْ في تقبيحها شاعت بين الخَلْق، وعمَّ فسادها.

القِسم الثَّالث: العاصي بفِعله لا باعتقاده، فإنْ كانت بحيث يتأذَّى بها غيره، كالظُّلم، والغضب، وشهادة الزُّور، والغِيبة، والنَّميمة، ونحوِ ذلك فالأَولى الإعراض عنه، وترك مُخالَطته، والانقباض عن معاملته، وكذلك الحُكم فيمَن يدعو إلى الفساد، كالذي يجمع بين الرِّجال والنِّساء، ويُهيِّئ أسباب الشُّرب لأهل الفساد، فهذا ينبغي إهانته ومقاطعته والإعراض عنه.

فأمَّا الذي يفسق في نفسه بشرب خمرٍ، أو زنًا، أو سرقةٍ، أو ترك واجبٍ، فالأمر فيه أخفُّ، ولكنَّه في وقت مُباشَرته إنْ صودفَ وجب منعه بما يمتنع به، فإنْ كان النُّصح يَردُّه، وكان أنفعَ له نُصِح، وإلَّا أغلظ له.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ الصِّفَاتِ المَشْرُوطَةِ فِيمَن تُخْتَارُ صُحْبَتُهُ

روينا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**المَرءُ عَلى دِينِ خَلِيلِه، فَلْيَنظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ**»(١).

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وأبو داودَ (٤٨٣٣)، وأحمدُ (٨٠٢٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

واعلم أنَّه لا يصلح [للصُّحبة][١] كلُّ أَحدٍ، ولا بدَّ أنْ يَتميَّزَ المصحوب بصفاتٍ وخصالٍ يُرغَب بسببها في صحبته، وتُشترَط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة مِن الصُّحبة، وهي إمَّا دُنيويَّةٌ كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمُجرَّد الاستئناس بالمُشاهَدة والمُحاوَرة، وليس ذلك غرضنا، وإمَّا دِينيَّةٌ، وتجتمع فيها أغراضٌ مُختلِفةٌ، منها الاستفادة بالعِلم والعمل، ومنها الاستفادة مِن الجاه تحصينًا عن إيذاء مَن يُكدِّر القلب، ويَصدُّ عن العِبادة، ومنها الاستفادة مِن المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المُهمَّات، فتكون عِدَّةً في المصائب، وقوَّةً في الأحوال، ومنها انتظار الشَّفاعة في الآخرة، كما قال بعض السَّلف: استكثروا مِن الإخوان، فإنَّ لكلِّ مُؤمنٍ شفاعةً. فهذه فوائدُ تستدعي كلُّ فائدةٍ شروطًا لا تَحصل إلَّا بها.

وفي الجملة فينبغي أنْ يكونَ فيمَن تُؤثَر صحبته خمس خصالٍ:

أنْ يكون عاقلًا، حَسَن الخُلُق، غيرَ فاسقٍ، ولا مُبتدعٍ، ولا حريصٍ على الدُّنيا.

أمَّا العقل فهو رأس المال، ولا خيرَ في صحبة الأحمق؛ لأنَّه يُريد أنْ ينفعَكَ فيَضرُّكَ، ونَعني بالعاقل الذي يَفهم الأمور على ما هي عليه، إمَّا بنفسه، وإمَّا أنْ يكونَ بحيث إذا أُفهِم فَهِم.

وأمَّا حُسن الخُلُق فلا بدَّ منه، إذ رُبَّ عاقلٍ يغلبه غضبٌ أو شهوةٌ، فيُطيع هواه، فلا خيرَ في صحبته.

وأمَّا الفاسق فإنَّه لا يخاف الله، ومَن لا يخاف الله تعالى لا تُؤمَن [غائلته][٢]، ولا يُوثَق به.

وأمَّا المُبتدِع فيُخاف مِن صحبته بسراية بِدعته، قال عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بإخوانِ الصِّدق تَعِشْ في أكنافهم، فإنَّهم زينةٌ في الرَّخاء، وعدَّةٌ في البلاء، وضَعْ

---

(١) سقطت من "خ".

(٢) ورد في "المطبوع" [غالته].

أَمْر أخيك على أَحْسَنه حتى يَجيئك ما يقليك منه، واعتزل عدوَّك، واحذر صديقك إلَّا الأمين، ولا أمينَ إلَّا مَن يخشى الله، ولا تصحبِ الفاجر، فتتعلَّم مِن فجوره، ولا تُطلِعه على سِرِّك، واستشر في أَمْرك الذين يخشون الله تعالى»[١].

قال يحيى بن معاذٍ[٢]: بئس الصَّديق صديقٌ تَحتاج أنْ تقول له: اذكرني في دعائك، وأنْ تعيشَ معه بالمُداراة، أو تحتاج أنْ تعتذرَ إليه[٣].

ودخل جماعةٌ على الحسن وهو نائمٌ، فجعل بعضهم يأكل مِن فاكهةٍ في البيت، فقال: رَحِمكَ الله، هذا والله فِعْل الإخوان.

وقال أبو جعفرٍ[٤] لأصحابه: أَيُدخِل أحدكم يده في كُمِّ أخيه، فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا: لا. قال: فلستُم بإخوانٍ كما تزعمون[٥].

ويُروى أنْ فتحًا المَوْصِليَّ[٦] جاء إلى صَديقٍ له يقال له: عيسى التَّمَّار، فلم يجدْه في المنزل، فقال للخادمة: أَخرِجي لي كيس أخي، فأخرجتْه، فأخذ منه دِرهمَين، وجاء

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥)، و(٣٥٦١٧).

(٢) يحيى بن معاذ الرَّازيُّ الواعظ، مِن كبار المشايخ، له كلامٍ جيِّدٌ، ومواعظُ مشهورةٌ، مِن أهل الرَّيِّ، أقام ببلخٍ، ومات في نيسابورَ، حدَّث عن عليِّ بن محمَّدٍ الطَّنافسيِّ، وغيرِه، روى عنه الحسن بن علويه، وأحمد بن محمَّدٍ البذشيُّ، وأبو العبَّاس بن حمكويه، توفِّي سنة (٢٥٨). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (١٣/ ١٥)، «الأعلام» (٨/ ١٢٧).

(٣) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٠٠٦) عن إبراهيم بن حمير القزويني القاضي.

(٤) أبو جعفرٍ محمَّد بن عليِّ الكوفيُّ، حدث عن الحسن بن عطيَّةَ، وغيره، وحدَّث عنه ابن عقدة عليُّ بن كاس القاضي، وابن الزُّبير القرشيُّ، وآخرون، مات: في صفر، سنة سبعٍ وسبعين ومائتين، وثَّقه الدَّارقطنيُّ. انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٣/ ٢٧)

(٥) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٣٧٩).

(٦) فتح بن محمَّد بن وشاح الأزديُّ، المَوصِليُّ، زاهد زمانه، وأحد الأولياء، أخذ عن عطاء بن أبي رباحٍ، وعنه المعافى بن عمرانَ، ومحمَّد بن عبد الرَّحمن الطَّفاويُّ، وغيرُهما، وله أحوالٌ ومقاماتٌ، وقدمٌ راسخٌ في التَّقوى، توفي سنة سبعين ومائةٍ، وقيل: سنة خمس وستِّين. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٧/ ٣٤٩).

عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك، فقال: إنْ كنتِ صادقةً فأنتِ حُرَّةٌ. فنَظَر فإذا هي قد صدقتَ، فعَتَقَتْ[1].

فَصْلٌ في بيانِ ما على الإنسانِ لأخيهِ مِنَ الحُقوقِ

الحقُّ الأوَّل: قضاء الحاجات، والقيام بها، وذلك درجاتٌ:

أدناها: القِيام بالحاجة عند السُّؤال والقُدرة، ولكنْ مع البشاشة والاستبشار.

وأوسطها: القِيام بالحوائج مِن غير سؤالٍ.

وأعلاها: تقديم حوائجه على حوائج النَّفْس.

وقد كان بعض السَّلف يتفقَّد عِيال أخيه بعد موته أربعين سنةً، فيقضي حوائجهم.

الحقُّ الثَّاني: على اللِّسان بالسُّكوت تارةً، وبالنُّطق أُخرى.

أمَّا السُّكوت فهو أنْ يسكتَ عن ذِكْر عُيوبه في حضوره وغَيبته، وعن الرَّدِّ عليه ومُماراته ومُناقَشته، وعن السُّؤال عما يَكرَه ظهوره مِن أحواله، ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربَّما لا يُريد إعلامه بذلك، وأنْ يكتمَ سِرَّه، ولو بعد القطيعة، ولا يقدح في أحبابه وأهله، ولا يُبلِّغه قَدْح غيره فيه.

وينبغي أنْ يسكتَ عن كلِّ ما يكرَهه، إلَّا إذا وجب عليه النُّطق في أَمْر بمعروف، أو نَهيٍ عن مُنكَرٍ، ولم يجدْ رخصةً في السُّكوت، فإنَّ مُواجَهته بذلك إحسانٌ إليه في المعنى.

واعلم أنَّك إنْ طلبتَ مُنزَّهًا عن كلِّ عيبٍ لم تجدْ، ومَن غَلَبت مَحاسِنه على مَساوِيه فهو الغاية.

وقال ابن المبارك: المؤمن يَطلُب المعاذير، والمُنافق يَطلُب الزَّلَّات.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٩٣).

وقال الفضيل: الفتوَّة: الصَّفح عن زلَّات الإخوان، وينبغي أنْ تَتْركَ إساءة الظَّنِّ بأخيك، وأنْ تَحملَ فِعْله على الحُسْن مهما أمكنَ، وقد قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإنَّ الظَّنَّ أَكذَبُ الحَدِيثِ**»[1].

واعلم أنَّ سُوء الظَّنِّ يدعو إلى التَّجسُّس المَنهيِّ عنه، وأنَّ سَتْر العيوب والتَّغافُل عنها سيمة أهل الدِّين.

واعلم أنَّه لا يكمل إيمان المرء حتى يُحبِّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه، وأقلُّ درجات الأُخوَّة أنْ يُعامِلَ أخاه بما يُحبُّ أنْ يُعامِلَه له، ولا شكَّ أنَّك تنتظر مِن أخيك أنْ يَستُرَ عورتك، وأنْ يسكتَ عن مَساوِيك، فلو ظهر لك منه ضِدُّ ذلك اشتدَّ عليك، فكيف تنتظر منه ما لا [تعزم][2] عليه له؟

ومتى التمستَ مِن الإنصاف ما لا تسمح به دَخلتَ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ [المطففين: ٢]، ومنشأ التَّقصير في ستر العورة والمغوي بكشفها الحقد والحسد.

واعلم أنَّ مِن أشدِّ الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المُماراة، ولا يبعث عليها إلَّا إظهار التَميُّز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومَن مارى أخاه فقد نَسَبه إلى الجهل والحمق، أو إلى الغفلة والسَّهو عن فهم الشَّيء على ما هو عليه، وكلُّ ذلك استحقارٌ، وهو ما يُوغِر الصَّدر، ويُوجِب المُعاداة، وهو ضِدُّ الأُخوَّة.

الحقُّ الرَّابع: على اللِّسان بالنُّطق، فإنَّ الأُخوَّة كما تقتضي السُّكوت عن المكروه، تقتضي النُّطق بالمحبوب، بل هو أخصُّ بالأُخوَّة؛ لأنَّ مَن قنع بالسُّكوت صَحِب أهل القبور، وإنَّما يُراد الإخوان ليُستفاد منهم، لا لِيَتخلَّص منهم؛ لأنَّ السُّكوت معناه كفُّ

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩)، ومسلمٌ (٢٥٦٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ورد في "الأصل، خ" [يعزم].

الأذى، فعليه أنْ يَتودَّد إليه بلسانه، ويتفقَّده في أحواله، ويسأل عمَّا عَرَض له، ويُظهِر شُغْل قلبه بسببه، ويُبدي السُّرور بما يُسَرُّ به.

وفي الصَّحيح مِن رواية التِّرمذيِّ: «**إذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعْلِمْهُ**»(١).

ومِن ذلك أنْ يدعوَه بأَحبِّ أسمائه إليه، قال عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ثلاثٌ يُصفينَ لك ودَّ أخيك: تُسلِّم عليه إذا لقيته، وتُوسِّع له في المجلس، وتدعوه بأَحبِّ أسمائه [إليه](٢)».

ومِن ذلك أنْ يُثنيَ عليه بما يَعرِفه مِن مَحاسِن أحواله عند مَن يؤثر الثَّناء عنده، وكذلك الثَّناء على أولاده وأهله وأفعاله، حتى في خُلُقه وعَقله وهيئته وخَطِّه وتصنيفه وجميع ما يَفرَح به مِن غير إفراطٍ ولا كذبٍ.

وكذلك ينبغي أنْ تُبلِغَه ثناءَ مَن أثنَى عليه مع إظهار الفرح به، فإنَّ إخفاء ذلك محض الحسد.

ومِن ذلك أنْ تشكرَه على صنيعه في حقِّكَ، وأنْ تَذبَّ عنه في غَيبته إذا قُصِد بسوءٍ، فحقُّ الأُخوَّة التَّشمير في الحماية والنُّصرة.

وفي الحديث الصَّحيح: «**المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ، لا يَظلِمُهُ، وَلا يُسلِمُهُ**»(٣).

ومتى أَهمل الذَّبَّ عن عِرضه يكون قد أَسلَمه، ولك في ذلك مِعياران:

أحدهما: أنْ تُقدِّرَ أنَّ الذي قيل فيه قد قيل فيكَ وهو حاضرٌ، فتقول ما تُحبُّ أنْ يقولَه.

الثَّاني: أنْ تُقدِّر أنَّه حاضرٌ وراء جدارٍ يستمع عليك، فما تحرَّكَ في قلبك مِن نُصرته في حضوره ينبغي أنْ يَتحرَّكَ في غَيبته، ومَن لم يكن مُخلِصًا في إخائه فهو مُنافِقٌ.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٩٣)، وأحمدُ (١٧١٧١)، عن المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: حديث المقدام حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

(٢) ورد في "المطبوع" [إليك].

(٣) رواه البخاريُّ (٢٣١٠)، ومسلمٌ (٢٥٨٠) عن عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ومِن ذلك التَّعليم والنَّصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقلَّ مِن حاجته إلى المال، وإذا كنتَ غنيًّا بالعِلم فوَاسِه وأرشدْه.

وينبغي أنْ يكون نصحك إيَّاه سِرًّا، والفرق بين التَّوبيخ والنَّصيحة الإعلان والإسرار، كما أنَّ الفرق بين المُداراة والمُداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإنْ أغضيتَ لسلامة دِينك، ولِمَا ترى فيه مِن إصلاح أخيك بالإغضاء فأنتَ مُدارٍ، وإنْ أغضيتَ لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنتَ مُداهِنٌ.

ومِن ذلك: العفو عن الزَّلَّات، فإنْ كانت زلَّته في دِينه فتَلطَّف في نصحه مهما أمكن، ولا تترك زجره ووعظه، فإنْ أبى فالمُصارَمة.

الحقُّ الخامس: الدُّعاء للأخ في حياته، وبعد موته بكلِّ ما تدعو به لنفسك.

وفي أفراد مسلمٍ مِن حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دَعوَةُ المَرءِ المُسلِمِ لِأخِيهِ بِظَهرِ الغَيبِ مُستَجَابَةٌ، عِندَ رَأسِهِ مَلَكٌ، مُوكَّلٌ، كلَّما دَعَا لأخِيهِ بِخَيرٍ قَالَ المَلَكُ المُوكَّلُ به: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثلٍ**»[1]. وكان أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو لخَلْقٍ كثيرٍ مِن إخوانه، يُسمِّيهم بأسمائهم، وكان أحمدُ بن حنبلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يدعو في السَّحَر لستَّة نفرٍ.

وأمَّا الدُّعاء بعد الموت فقال عمرو بن حريثٍ[2]: «**إذا دعا العبد لأخيه الميت أتى بها مَلَكُ قبره، فقال: يا صاحب القبر الغريب، هذه هديةٌ مِن أخٍ عليك شفيق**»[3].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٧٣٣).

(٢) عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمانَ المخزوميُّ، كان مِن بقايا أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين كانوا نزلوا الكوفة، مولده قُبيل الهجرة، له صحبةٌ وروايةٌ، وروى أيضًا عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحدَّث عنه ابنه جعفر، والحسن العرنيُّ، والمغيرة بن سبيع وغيرهم، توفِّي سنة (٨٥). انظر «الإصابة»، ابن حَجرٍ العسقلانيُّ، (٤/ ٥١٠)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٣/ ٤١٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ٧٦).

(٣) رواه البيهقي في «الشُّعب» (٨٨٥٨)

الحقُّ السَّادس: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء الثَّبات على الحُبِّ إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه، وقد أكرم النَّبيُّ ﷺ عجوزًا، وقال: «**إنَّهَا كَانَتْ تَغشَانَا في أيَّامِ خَدِيجَةَ، وإنَّ حُسنَ العَهدِ مِنَ الإيمَانِ**»(١).

ومِن الوفاء ألَّا يَتغيَّر على أخيه في التَّواضع، وإنِ ارتفع شأنه، واتَّسعت وِلايته، وعَظُم جاهه.

واعلم أنَّه ليس مِن الوفاء مُوافَقةُ الأخ فيما يُخالِف الدِّين، فقد كان الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ آخى محمَّد بن عبد الحكم، وكان يُقرِّبه، ويُقبِل عليه، فلمَّا احْتُضِرَ قيل له: إلى مَن نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمَّد بن عبد الحكم، وهو عند رأسه؛ ليُومِئَ إليه، فقال: إلى أبي يعقوبَ البويطيِّ(٢). فانكسر لها محمَّدٌ، ومع أنَّ محمَّدًا كان قد حَمَل عنه مذهبه، لكنَّ البويطيَّ كان أقربَ إلى الزُّهد والوَرَع، فنصح الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ المسلمين، وترك المُداهَنة، فانقلب ابن عبد الحكم عن مذهبه، وصار مِن أصحاب مالكٍ.

ومِن الوفاء ألَّا يسمع بلاغات النَّاس على صديقه، ولا يُصادِق عدوَّ صديقه.

الحقُّ السَّابع: التَّخفيف، وتَرْك التَّكلُّف والتَّكليف، وذلك ألَّا يُكلِّف أخاه ما يَشقُّ عليه، بل يُرَوِّحُ سِرَّه عن مهمَّاته وحاجاته، ولا يَستمدُّ مِن جاهه ولا ماله، ولا يُكلِّفه التَّفقُّد لأحواله، والقيام بحقوقه، والتَّواضع له، بل يكون قصده بمحبَّته الله وحدَه، والتَّبرُّك بدعائه، والاستئناس بلقائه، والاستعانة على دِينه، والتَّقرُّب إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه.

وتمامُ التَّخفيف طيُّ بِساط الاحتشام، حتى لا يستحييَ منه فيما لا يستحيي فيه مِن نفسه.

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٢٣)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٣٢٥): أخرجه الحاكم مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا، وقال: صحيحٌ على شرط الشَّيخَين، وليس له عِلَّةٌ.

(٢) يوسفُ أبو يعقوبَ بن يحيى المصريُّ البُويطيُّ صاحب الإمام الشَّافعيِّ، وواسطة عِقد جماعته، قام مقامه في الدَّرس والإفتاء بعد وفاته، لازَمه مدَّةً، وتخرَّج به، وفاق الأقران، حدَّث عن ابن وهب، والشَّافعيِّ، وغيرهما، وروى عنه الرَّبيع المراديُّ، وإبراهيمُ الحربيُّ وغيرهما، توفي سنة (٢٣١). انظر «سير أعلام النبلاء»، الذهبي، (١٢/ ٨٥)، الأعلام، الزركلي، (٨/ ٢٥٧).

قال جعفر بن محمَّدٍ(١): أثقل إخواني عليَّ مَن يتكلَّف لي، وأتحفَّظ منه، وأخفُّهم على قلبي مَن أكون معه كما أكون وحدي.

وقال بعض الحكماء: مَن سَقَطت كُلفته دامت أُلفته.

ومِن تمام هذا الأمر أنْ ترى الفضل لإخوانك عليك، لا لنفسك عليهم، فتُنزِل نفسك معهم منزلة الخادم.

فَصْلٌ

ولْنَذكُرْ في آخِر هذا الباب جملةً مِن آداب المُعاشَرة للخَلْق.

فمِن حُسن المعاشرة أنْ تَتوقَّرَ مِن غير كِبْرٍ، وتَتواضَع في غير ذِلَّةٍ، وأنْ تلقى الصَّديق والعدوَّ بوجه الرِّضى مِن غير ذُلٍّ لهم، ولا خوفٍ منهم، وتَتحفَّظ في مَجالِسك مِن تشبيك أصابعك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بُصاقك والتَّثاؤُب.

واصغ إلى مَن حدَّثك، ولا تسأله الإعادة، ولا تُحدِّثْ بإعجابك بوَلَدك وجاريتِك، ولا تَتصنَّع تَصنُّعَ المرأة في التَّزيُّن، ولا تَتبذَّل تَبذُّل العبد، وخوِّف أهلك في غير عُنفٍ، وَلِنْ لهم مِن غير ضعفٍ، ولا تهزل أَمَتَك وعَبدَك، فيسقطْ وقارُك، ولا تُكثر الالتفات إلى ورائك، ولا تُجالِس السُّلطان، فإنْ فعلتَ فاحذرِ الذُّنوب والغِيبة، [وصُنْ](٢) سِرَّه، واحذرِ [الدعاء به](٣) عنده، وتحفَّظْ في حضرته مِن الجُشاء(٤) والتَّخلُّل(٥)،

---

(١) هناك عدَّة رجال باسم جعفر بن محمَّدٍ، ولعلَّه جعفر بن محمَّد بن عليِّ القُرشيُّ الهاشميُّ، حدَّث عن أبيه أبي جعفرٍ الباقر، وعبيد الله بن أبي رافعٍ، وعروةَ بن الزُّبير وغيرهم، وحدَّث عنه ابنه موسى الكاظم، ويحيى بن سعيدٍ الأنصاريِّ، ويزيد بن عبد الله بن الهاد. انظر سير أعلام النبلاء، الذهبي (٦/ ٢٥٥).

(٢) ورد في " الأصل، خ " [وحُسْن].

(٣) ورد في " ن " [الدعابة]، وفي " المطبوع " [المداعبة].

(٤) الجُشاء: هو صوتٌ مع ريح يحصل مِن الفم عند حصول الشِّبع. «المصباح المنير» مادة (ج ش ء).

(٥) التَّخلُّل هو استعمال عودٍ أو نحوِه لإخراج الطَّعام مِن بين الأسنان. «لسان العرب» مادة (خلل).

وإنْ قرَّبك فكن منه على حَذَرٍ، وإنِ استرسل إليك فلا تأمَنِ انقلابه عليك، وارفق به رِفقك بالصَّبيِّ، وكَلِّمهُ بما يشتهيه، ولا تَدخُل بينه وبين أهله وحَشَمه، وإيَّاك وصديقَ العافية، ولا تَجعَل مالَكَ أكرمَ مِن عِرْضِك، وإذا دَخَلت مَجلِسًا فاجلس فيما هو أقرب للتَّواضُع، ولا تَجلس على الطَّريق، فإنْ جلستَ فغُضَّ البصر، وانصر المظلوم، وأَرشِدِ الضَّالَّ، ولا تَبصق في جهة القِبلة، ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك تحت قَدِمك اليُسرى، واحذر مُجالَسة العوامِّ، فإنْ فعلتَ فعليك بالتَّغافُل عمَّا يجري مِن سُوء أخلاقهم، وتَركِ الخوض في حديثهم، واحذر كثرةَ المُزاح، فإنَّ اللَّبيب يحقد عليك في المزاح، والسَّفيه يجترئ عليك.

باب في حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ونحو ذلك

فمِن حقوق المسلم: أنْ تُسلِّم عليه إذا لَقِيته، وتُجيبَه إذا دعاك، وتَشمِّتَه إذا عَطس، وتَعُودَه إذا مرض، وتشهدَ جنازته إذا مات، وتُبرَّ قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتُحِبَّ له ما تُحِبُّ لنفسك، وتكرَه له ما تكرَه لنفسك. وجميع هذا منقولٌ في الآثار.

ومنها: ألَّا [يؤذيَ][١] أحدًا مِن المسلمين بقولٍ ولا فعلٍ، وأنْ تَتواضَع للمسلمين، فلا تَتكبَّر عليهم، ولا تَسمعَ بَلَاغات النَّاس بعضهم في بعضٍ، ولا تُبلِغ بعضَهم ما تسمع مِن بعضٍ.

ومنها: ألَّا [يزيدَ][٢] في الهجرة على ثلاثة أيَّام لِمَن تعرفه، للحديث المشهور في ذلك.

وفي حديثٍ آخر عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَحِلُّ لِمُؤمنٍ أنْ يهجرَ مُؤمِنًا فوقَ ثَلاثةِ أيَّامٍ، فإذا مَرَّتْ به ثَلاثةُ أيَّامٍ فَلْيَلْقَه فَلْيُسلِّمْ عليهِ، فإنَّ رَدَّ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فَقَدِ اشتَرَكا في الأجرِ، وإنْ لم يَرُدَّ عَليهِ فَقَد بَرِئَ المُسلمُ مِنَ الهِجرَةِ**»[٣].

واعلم أنَّ هذه الهجرة إنَّما هي فيما يَتعلَّق بالدُّنيا، أمَّا حقُّ الدِّين، فإنَّ هجران أهل البِدَع والأهواء والمعاصي ينبغي أنْ تدومَ، ما لم تَظهرْ منهمُ التَّوبة والرُّجوع إلى الحقِّ.

ومنها: أنْ يُحسِنَ إلى كلِّ مَن يقدر أنْ يُحسنَ إليه مِن المسلمين ما استطاع، وألَّا يَدخلَ على أَحَدٍ منهم إلَّا بإذنه، ويستأذنَ ثلاثًا، فإنْ لم يَأذن انصرف.

---

(١) ورد في "المطبوع، ن" [تؤذي].

(٢) ورد في "المطبوع، ن" [تزيد].

(٣) رواه أبو داودَ (٤٩١٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصله في «البخاريِّ» (٦٠٧٣)، و«مسلمٍ» (٢٥٦٠).

ومنها: أنْ يُخالِقَ النَّاس بخُلُقٍ حَسنٍ، وذلك أنْ يُعامِل كلًّا منهم بحسب طريقته، فإنَّه متى لقي الجاهل بالعلم، واللَّاهي بالفقه، والغبيَّ بالبيان، آذى وتأذَّى.

ومنها: أنْ يُوقِّر المشايخ، ويرحم الصِّبيان، وأنْ يكونَ مع الخَلْق كافَّةً طَلْق الوجه رقيقًا، وأنْ يَفيَ لهم بالوعد، ويُنصِف النَّاس مِن نفسه، ولا يأتي إليهم إلَّا ما يُحِبُّ أنْ يُؤتَى به إليه.

قال الحسن: أوحى الله إلى آدمَ عَلَيهِ السَّلَامُ أربعَ كلماتٍ، وقال: فيهنَّ جِماع الأمر لك ولولدك: واحدةٌ لي، وواحدةٌ لك، وواحدةٌ بيني وبينك، وواحدةٌ بينك وبين الخَلْق.

فأمَّا التي لي فتَعبدني لا تُشرِكُ بي شيئًا.

وأمَّا التي لكَ فعَمَلك أجزيك به أفقرَ ما تكون إليه.

وأمَّا التي بيني وبينكَ فعليك الدُّعاء، وعليَّ الإجابة.

وأمَّا التي بينك وبين النَّاس فتصحبهم بالذي تُحبُّ أنْ يَصحبوكَ به.

ومنها: زيادة توقير ذَوِي الهيئات.

ومنها: إصلاح ذات البَيْن، وسَتْر عورات المسلمين.

واعلم أنَّه مَن تأمَّل ستر الله تعالى على العُصاة في الدُّنيا اقتدى بلُطفه، فإنَّه جعل الشَّهادة في الزِّنا أنْ يشهدَ أربعةٌ مِنَ العدول أنَّهم شهدوا ذلك كالمِيل في المُكحُلة، وهذا لا يَتَّفِق، ومِن هذا أثر كرمه في الدُّنيا يُرجَى منه ذلك في الآخرة.

ومنها: أنْ يتَّقيَ مواضِع التُّهم صيانةً لقلوب النَّاس عن سُوء الظَّنِّ به، وألسنتهم مِن غِيبته.

ومنها: أنْ يَشفعَ لكلِّ مَن له حاجةٌ مِن المسلمين إلى مَن له عنده منزلةٌ، ويسعَى في قضاء حوائجهم.

ومنها: أنْ يبدأَ بالسَّلام كلَّ مسلمٍ قَبل أنْ يُكلِّمه، ومِن السُّنَّة المُصافحة، فقد رُوي عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**ما مِن مُسلِمَينِ التَقَيا، فَأَخَذَ أَحَدُهما بيَدِ صاحِبِه، إلَّا كانَ حَقًّا عَلى اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **أنْ يَحضرَ دُعاءَهُما، وألَّا يُفرِّقَ بينَ أَيدِيهِما حتى يَغفِرَ لَهُما**»[١].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**إذَا صَافَحَ المُؤمِنُ المُؤمِنَ نَزَلَتْ عَلَيهِما مِائَةُ رَحْمَةٍ، تِسعةٌ وتِسعُونَ لأَبَشِّهِما وأَحسَنِهِما خُلُقًا**»[٢].

ولا بأسَ بتقبيل يد المُعظَّم في الدِّين تَبرُّكًا به، ولا بأسَ المُعانقة، وأمَّا الأخذ بالرِّكاب لتوقير العلماء فقد فَعَل ذلك ابن عبَّاسٍ بزيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم[٣]، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسنٌ، وأمَّا الانحناء فمَنهيٌّ عنه.

ومنها: أنْ يصونَ عِرض أخيه المسلم ونفسَه ومالَه عن ظُلم الغير، ويُناضِل دونه، وينصره.

ومنها: أنَّه إذا ابتُلي بذي شَرٍّ فينبغي أنْ يُجامِله ويتَّقيَه؛ لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[٤].

---

(١) رواه أحمدُ (١٨٥٤٧)، وقال في «مجمع الزَّوائد» (٨/ ٣٦) رواه أحمد، والبزَّار، وأبو يعلى، ورجال أحمدَ رجال الصَّحيح غير ميمون بن عجلان، وثَّقه ابن أبان، ولم يُضعِّفه أَحَدٌ.

(٢) عزاه العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٤٢٤) إلى الطَّبرانيِّ في «الأوسط» مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: فيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثيرٍ مجهولٌ.

(٣) روى القرطبيُّ في «جامع بيان العلم» (١/ ٥١٤) عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: صَلَّى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى جِنَازَةٍ، ثُمَّ قُرِّبَتْ لَهُ بَغْلَةٌ لِيَرْكَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَأَخَذَ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَلِّ عَنْهُ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هَكَذَا يُفْعَلُ بِالْعُلَمَاءِ وَالْكُبَرَاءِ.

(٤) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: استأذن رجلٌ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، أَوِ ابْنُ العَشِيرَةِ**» فلمَّا دخل ألان له الكلام، قلتُ: يا رسول الله، قلتَ الذي قلتَ، ثُمَّ ألنت له الكلام؟ قال: «**أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ، أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ، اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**». رواه البخاريُّ (٥٧٠٧).

وقال محمَّد بن الحنفيَّة(١): ليس بحكيمٍ مَن لم يُعاشِر بالمعروف مَن لا يَجدُ مِن مُعاشَرته بُدًّا، حتى يجعلَ الله عَزَّوَجَلَّ له فَرَجًا.

ومنها: أنْ يجتنبَ مُخالطة الأغنياء، ويختلطَ بالمساكين، ويُحسِنَ إلى الأيتام.

ومنها: عِيادةُ مَرضاهم.

ومِن آداب العائد: أنْ يضعَ يده على المريض، ويسألَه كيف هو، ويخفِّفَ الجلوس، ويُظهرَ الرِّقَّة، ويدعوَ له بالعافية، ويغضَّ البصر عن عورات المكان.

ويُستحَبُّ للمريض أنْ يفعل ما أخرجه مسلمٌ في أفراده، مِن حديث عثمانَ بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه شكا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعًا يَجِده في جسده منذ أَسلَم، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الذي تَألَّمُ مِن جَسَدِكَ وَقُلْ: بِسمِ اللهِ ثَلاثًا، وَقُلْ سَبعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدرَتِهِ مِنَ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»(٢).

وجملة آداب المريض: حُسن الصَّبر، وقِلَّة الشَّكوى والتَّضجُّر، والفزع إلى الدُّعاء، والتَّوكُّل على الله سبحانه.

ومنها: أنْ يُشيِّع جنائزهم، ويَزور قُبورهم.

والمقصود مِن التَّشييع قضاء حقِّ المسلمين والاعتبار.

قال الأعمش(٣): كنَّا نحضر الجنائز، فلا ندري مَن نُعزِّي لحزن القوم كلِّهم(٤).

---

(١) أبو القاسم محمَّد بن عليِّ بن أبي طالبٍ القرشيُّ ابن الحنفيَّة، وأمه مِن سبي اليمامة زمن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي خولة بنت جعفرٍ الحنفيَّة، وُلد في العام الذي مات فيه أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورأى عمرَ، وروى عنه، وعن أبيه، وأبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكانت الشِّيعة في زمانه تَتغالى فيه، وتدَّعي إمامته، ولقَّبوه بالمهديِّ، ويزعمون أنَّه لم يمت، توفِّي في المدينة سنة (٨١). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ (٤/ ١١٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٦/ ٢٧٠).

(٢) رواه مسلمٌ (٢٢٠٢).

(٣) أبو بكرٍ الأعمش، محمَّد بن سعيد محمَّد بن عبد الله، تفقَّه على أبي بكرٍ الإسكاف، وتفقَّه عليه ولده عبيد الله وأبو جعفرٍ الهنداويُّ، مات سنة: (٣٤٠ هـ). انظر: «الجواهر المضيَّة» (٢/ ٥٦)، «الفوائد البهيَّة» (١/ ١٦٠).

(٤) رواه أبو نُعيمٍ في «حلية الأولياء» (٥/ ٥٠)، وابن أبي شيبةَ في «مصنَّفه» (١٦٩).

والمقصود مِن زيارة القبور الدُّعاء، والاعتبار، وترقيق القلب.

ومِن آداب تشييع الجنائز: المشي، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتَّفكُّر في الموت، والاستعداد له.

وأمَّا حقوق الجار فاعلم أنَّ الجِوار يقتضي حَقًّا وراء ما تَقتضيه أُخوَّة الإسلام، فيَستحقُّ ما يَستحقُّه كلُّ مسلمٍ وزيادةً، وجاء في الحديث: «**إِنَّ الْجِيرَانَ ثَلَاثَةٌ: جارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وجارٌ لَهُ حَقَّانِ، وجارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ، فالجارُ الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ الْجَارُ الْمُسْلِمُ ذُو الرَّحِمِ، فَلَه حَقُّ الْجِوَارِ، وحَقُّ الْإِسْلَام، وحَقُّ الرَّحِمِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ، لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْجِوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْكَافِرُ**»(١).

واعلم أنَّه ليس حقُّ الجوار كفُّ الأذى فقط، بل احتمال الأذى والرِّفق، وابتداء الخير، وأنْ يبدأَ جاره بالسَّلام، ولا يُطيلَ معه الكلام، ويعودَه في المرض، ويُعزِّيَه في المُصيبة، ويهنِّئَه في الفرح، ويصفحَ عن زلَّاته، ولا يطَّلعَ إلى داره، ولا يُضايِقَه في وضع الخشب على جداره، ولا في صبِّ الماء في ميزابه، ولا في طرح التُّراب في فنائه، ولا يتبعَه النَّظر فيما يحمله إلى داره، ويستُرُ ما ينكشف مِن عوراته، ولا يتسمعَ عليه كلامه، ويغضَّ طَرْفه عن حرمه، ويُلاحِظ حوائج أهله إذا غاب.

فَصْلٌ فِي حُقُوقِ الأَقَارِبِ وَالرَّحِمِ

وأمَّا حقوق الأقارب والرَّحم، ففي الحديث الصَّحيح مِن رواية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**»(٢).

---

(١) قال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٤٩٨): أخرجه الحسن بن سفيانَ، والبزَّار في «مسنديهما»، وأبو الشَّيخ في «الثَّواب»، وأبو نُعيم في «الحلية» مِن حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابنُ عديٍّ مِن حديث عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكلاهما ضعيفٌ.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٦٤٢) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلمٌ (٢٥٥٥) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفي حديثٍ آخرَ مِن أفراد البخاريِّ: «**لَيسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الوَاصِلَ الذي إذا قُطِعتْ رَحِمُه وَصَلَها**»[١].

وفي حديثٍ آخرَ مِن أفراد مسلمٍ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، إنَّ لي قرابةً أَصِلهم ويقطعوني، وأُحسِن إليهم ويُسيؤون إليَّ، وأَحلم عنهم ويجهلون عليَّ. قال: «**لَئِنْ كُنتَ كَمَا قُلتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيهِم مَا دُمتَ عَلَى ذَلِكَ**»[٢]. والمعنى أنَّك منصورٌ عليهم، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحقِّ القرابة، كما ينقطع كلام مَن سُفَّ المَلَّ، وهو الرَّماد الحارُّ.

والأحاديث في ذلك كثيرٌ مشهورةٌ في صِلة الرَّحم، وفي حقوق الوالدَين، وفي تأكُّد حقِّ الأمِّ.

وأمَّا حقوق الولد فاعلم أنَّه لمَّا كانت الطِّباع تميل إلى الولد لم يَحتجْ إلى تأكيد الوصيَّة به، إلَّا أنَّه قد يغلب هوى الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

قال المُفسِّرون: معناه: عَلِّموهم وأدِّبوهم.

وينبغي للوالد أنْ يُحسِن اسم ابنه، ويَعِقَّ عنه[٣]، فإذا بلغ سبع سنين أَمَره بالصَّلاة، وخَتَنَه، فإذا بلغ زَوَّجه.

وأمَّا [حقوق][٤] المملوك فأنْ يُطعمَه، ويكسوَه، ولا يُكلِّفَه ما لا يطيقُ، ولا ينظر إليه بعين الازدراء، وأنْ يعفوَ عن زَلَله، ولْيتذكرْ عند الله زَلَل نفسه، فيعفو رجاء أنْ يعفوَ الله تعالى عنه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٦٤٥) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلمٌ (٢٥٥٨) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) عَقَّ عن ولده: إذا ذبح عنه يوم سابعه عقيقةً. «لسان العرب» (ع ق ق).

(٤) ورد في "المطبوع" [حقّ].

باب العزلة

اختلف النَّاس في العزلة والمخالطة، أيَّتُهما أفضلُ؟ مع أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما لا تنفكُّ عن فوائدَ وغوائلَ، وأكثرُ الزُّهَّاد اختاروا العزلة، وممَّن ذهب إلى اختيار العزلة سفيانُ الثَّوريُّ، وإبراهيمُ بن أدهمَ[1]، وداودُ الطَّائيُّ[2]، والفضيل، وبشرٌ الحافي، في آخرين.

وممَّن ذهب إلى استحباب المُخالَطة سعيدُ بن المُسيِّب[3]، وشريحٌ[4]، ....

---

(١) إبراهيمُ بن أدهمَ بن منصور بن يزيدَ بن جابر العجليُّ، القدوة، الإمام، العارف، سيِّد الزُّهَّاد، أبو إسحاقَ العجليُّ، مولده في حدود المائة، حدَّث عن أبيه، ومحمَّد بن زيادٍ الجمحيِّ، وأبي إسحاق السَّبيعيِّ، حدَّث عنه رفيقه سفيانُ الثَّوريُّ، وشقيقٌ البلخيُّ، وبقيَّة بن الوليد، توفي سنة ١٦١هـ. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٧/ ٣٨٧)، «الأعلام» (١/ ٣١).

(٢) داودُ الطَّائيُّ، أبو سليمانَ بن نصيرٍ،الإمام، الفقيه، القدوة، الزَّاهد، الطَّائيُّ، الكوفِيُّ، أحد الأولياء، ولد بعد المائة بسنواتٍ، وروى عن عبد الملك بن عميرٍ، وحُميدٍ الطَّويل، وهشام بن عروةَ، وحدَّث عنه ابن عُليَّةَ، وزافر بن سليمانَ، ومصعب بن المقدام، وآخرون، وتوفِّي سنة (١٦٥). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٧/ ٤٢٢)، «تقريب التَّهذيب» (ص٢٠٠)، «الأعلام» (٢/ ٣٣٥).

(٣) سعيد بن المُسيِّب بن حزنٍ أبو محمَّدٍ القُرشيُّ المخزوميُّ، الإمام، العلم، عالِم أهل المدينة، سيِّد التَّابعين في زمانه، ولد بالمدينة لسنتَين مضتا مِن خلافة عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رأى عمرَ، وسمع عثمانَ، وعليًّا، وزيد بن ثابتٍ، وأبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم من الصحابة وروى عنهم، روى عنه خَلْقٌ، منهم إدريسُ بن صبيح، وأسامةُ بن زيدٍ اللَّيثيُّ، وإسماعيلُ بن أمَيَّةَ، وغيرهم، وتوفي سنة (٩٤هـ). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ٢١٧)، «الأعلام» (٣/ ١٠٢).

(٤) شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكنديُّ، قاضي الكوفة، ويُقال: وهو مِن أولاد الفُرس الذين كانوا باليمن، يُقال: له صحبةٌ، ولم يصحَّ، بل هو ممَّن أسلم في حياة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتقل مِن اليمن زمن الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حدَّث عن عمرَ، وعليٍّ، وعبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وحدَّث عنه قيس بن أبي حازم، والشَّعبيُّ، وإبراهيمُ النَّخعيُّ، وابن سيرينَ، وغيرهم، وثَّقه يحيى بن مَعينٍ، ولَّاه عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قضاء الكوفة، فقيل: أقام على قضائها ستِّين سنةً، وقد قضى بالبصرة سنةً، توفِّي سنة (٧٨هـ). انظر «تقريب التهذيب» (ص٢٦٥)، «سير أعلام النُّبلاء»، (٤/ ١٠٠)، الأعلام (٣/ ١٦١).

والشَّعبيُّ[1]، وابن المُبارك في آخرين.

ولكلِّ طائفةٍ فيما ذَهَبت إليه حُججٌ، ونحن نُشير إلى ذلك، أمَّا حُجَّة الأَوَّلِين، فقد رُوي في «الصَّحيحَين» مِن حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله، أيُّ النَّاس خيرٌ؟ قال: «**رَجُلٌ يُجَاهِدُ بِنفسِه وَمَالِه، وَرَجُلٌ في شِعبٍ مِنَ الشِّعَابِ، يَعبُدُ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاس مِن شَرِّهِ**»[2].

وفي حديث عُقبةَ بن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3] قال: قلتُ: يا رسول الله، ما النَّجاة؟ قال: «**امْلِكْ عَلَيكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيتُكَ، وَابكِ عَلى خَطِيئَتِكَ**»[4].

وقال عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عه: خُذوا بحظِّكم مِن العزلة[5].

وقال سعدُ بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوَدِدتُ أنَّ بيني وبين النَّاس بابًا مِن حديدٍ، ولا يُكلِّمني أَحَدٌ، ولا أُكَلِّمه حتى ألقى الله سبحانه.

---

(١) عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار الشَّعبيُّ، مولده في إمرة عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لستٍّ سنين خلت منها، حدَّث عن سعد بن أبي وقَّاصٍ، وسعيد بن زيدٍ، وأبي موسى الأشعريِّ، وعديِّ بن حاتمٍ وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وروى عنه الحَكَم، وحمَّاد، وأبو إسحاق، وغيرهم، وتوفِّي سنة (١٠٣هـ). انظر «تقريب التهذيب» (ص٢٨٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٩٤)، والأعلام (٢/ ٢٥١).

(٢) رواه البخاريُّ (٦١٢٩)، ومسلمٌ (١٨٨٨) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) عقبة بن عامرٍ الجهنيُّ المصريُّ صاحب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، روى عنه جماعةٌ مِن الصَّحابة والتَّابعِين، منهم ابن عبَّاسٍ، وأبو أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، حدَّث عنه أبو الخير مرثد اليزنيُّ، وجبير بن نفير، وسعيد بن المسيِّب وغيرهم، وكان البريد إلى عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفتح دمشقَ، شهد صفِّين مع معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، توفِّي بمصر سنة (٥٨). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٢/ ٤٦٧)، «الإصابة»، ابن حَجرٍ العسقلانيُّ، (٤/ ٤٢٩)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٤/ ٢٤٠).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٦)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.

(٥) رواه ابن المبارك في «الزُّهد» (٢/ ٣).

وقال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كونوا يَنابيعَ العِلم، مَصابيحَ اللَّيل، أحلاس البيوت[١]. جُدُدَ القلوب خُلْقان[٢] الثِّياب، تُعرَفون في أهل السَّماء، وتَخفَون على أهل الأرض[٣].

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نِعمَ صومعةُ المرء المسلم بيتُه، يَكفُّ لسانه وفرجه وبصره، وإيَّاكم ومجالسَ الأسواق، فإنَّها تُلهِي وتلغي[٤].

وقال داودُ الطَّائيُّ: فُرَّ مِنَ النَّاس كما تَفِرُّ مِن الأسد[٥].

وقال أبو مُهلهِل: أَخذ بيدي سفيانُ الثَّوريُّ، وأَخرَجني إلى الجبَّانة، فاعتزلنا ناحيةً، فبكى، ثُمَّ قال: يا أَبا مُهلهِلٍ، إنِ استطعتَ أَلَّا تُخالِط في زمانك أَحَدًا فافعل، ولْيكنْ هَمُّكَ مَرَمَّة[٦] جهازك[٧].

وأمَّا حُجَّة مَنِ اختار المُخالَطة، فمِن ذلك قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُؤمِنُ الذي يُخالِطُ النَّاسَ، وَيَصبِرُ عَلَى أَذَاهُم خَيرٌ مِنَ الذي لا يُخالِطُهُم، وَلا يَصبِرُ عَلَى أَذاهُم**»[٨].

واحتجُّوا بأشياءَ غير ذلك ضعيفةً، لا [تقوم][٩] بها حُجَّةٌ على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ المُراد تَفرُّق الآراء والمذاهب في أَصل الشَّريعة.

---

(١) الأحلاس: جمع حِلسٍ، يُقال: فلانٌ حلس بيته إذا كان يُقيم فيه ولا يبرحه. «لسان العرب» مادة (ح ل س).

(٢) خُلقَان: جمع خَلَق، يُقال: ثوبٌ خَلَقٌ إذا كان باليًا. «لسان العرب» (خ ل ق).

(٣) رواه الدَّارِميُّ (٢٦٢)، وعزاه المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٨٧١٥) إلى ابن أبي الدُّنيا في «العزلة».

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠١٧٣)، وأبو داودَ في «الزُّهد» (٢١٨).

(٥) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٨/ ٢٦٩).

(٦) رمَّ الشيء مرمة أصلحه. «مختار الصحاح» مادة (ر م م).

(٧) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٧/ ٧).

(٨) رواه أحمدُ (٥٠٢٢)، والتِّرمذيُّ (٢٥٠٧)، وأبو داودَ (١٩٨٨)، وابن ماجه (٤٠٣٢) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٨٧): أخرجه التِّرمذيُّ، وابن ماجه مِن حديث ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولم يُسمِّ التِّرمذيُّ الصَّحابيَّ، قال: شيخٌ مِن أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والطريق واحدٌ.

(٩) ورد في " الأصل، خ " [يقوم].

واحتجُّوا أيضًا بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا هِجرَةَ فوقَ ثَلاثٍ»(١).

قالوا: والعزلة هَجرٌ بالكِلِّيَّة، وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ المراد به قَطْع الكلام والسَّلام والمُخالَطة المُعتادة.

فصلٌ في ذِكرِ فوائدِ العُزلةِ وغوائِلِها، وكَشْفِ الحقِّ في فضلِها

اعلم أنَّ اختلاف النَّاس في هذا أيضًا هو كاختلافهم في فضيلة النِّكاح والعُزُوبة، وقد ذَكَرنا أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فكذلك نقول فيما نحن فيه، فلْنَذكرْ أوَّلًا فوائد العزلة وهي ستٌّ:

الأُولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإنَّ ذلك يستعدي فراغًا، ولا فراغَ مع المُخالَطة، فالعزلة وسيلةٌ إلى ذلك، خصوصًا في البداية.

قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيءٍ أَفضَى بهم الزُّهد والخلوة؟ قال: إلى الأُنس بالله(٢).

وقال [أويسٌ](٣) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤): ما كنتُ أرَى أنَّ أحَدًا يعرف ربَّه، فيأنس بغيره.

واعلم أنَّ مَن تيَسَّر له بدوام الذِّكْر الأُنس بالله، أو بدوام الفِكْر تحقيقُ معرفة الله، فالتَّجرُّد لذلك أفضلُ مِن كلِّ ما يَتعلَّق بالمُخالَطة.

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٦٢) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (١٠/ ١٣٦) عن مَضَاءٍ يقول لسَبَّاعٍ المَوصِليِّ.

(٣) ورد في " المطبوع " [القَرنِيُّ].

(٤) أويسٌ القَرَنِيُّ، أبو عمرو بن عامر بن جزء بن مالكِ المراديُّ اليمانيُّ القدوة، الزَّاهد، سيِّد التَّابعين في زمانه، وفد على عمرَ، وروى قليلًا عنه، وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، روى عنه يسير بن عمرو، وعبد الرَّحمن بن أبي ليلى، وغيرهما، قتل في صفِّين سنة (٣٧هـ) انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ١٩)، «تقريب التَّهذيب» (ص١١٦)، «الأعلام» (٢/ ٣٢).

الفائدة الثَّانية: التَّخلُّص بالعزلة عن المعاصي التي يَتعرَّض لها الإنسان غالبًا بالمُخالطة، وهي أربعةٌ:

أحدها: الغِيبة، فإنَّ عادة النَّاس التَّمضمُض بالأعراض، والتَّفكُّهُ بها، فإنْ خالطتَهم ووافقتَهم أَثِمت، وتَعرَّضت لسخط الله تعالى، وإنْ سكتَّ كنتَ شريكًا، فإنَّ المُستمِع أَحَدُ المُغتابِين، وإنْ أَنكَرت أبغضوك واغتابوك، فازدادوا غِيبةٍ إلى الغِيبة، وربَّما خرجوا إلى الشَّتم.

الثَّانية: الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المُنكَر، فإنَّ مَن خالط النَّاس لم يَخلُ عن مُشاهدة المُنكَرات، فإنْ سكتَ عصى الله، وإنْ أنكر تَعرَّض لأنواعٍ مِنَ الضَّرر، وفي العزلة سلامةٌ من هذا.

الثَّالثة: الرِّياء، وهو الدَّاء العُضال الذي يَعسُر الاحتراز منه، وأوَّل ما في مُخالَطة النَّاس إظهار التَّشوُّق إليهم، ولا يخلو ذلك عن الكذب، إمَّا في الأصل، وإمَّا في الزِّيادة، وقد كان السَّلف يَحترِزون في جواب قول القائل: كيف أصبحتَ، وكيف أمسيتَ؟ كما قال بعضهم، وقد قيل له: كيف أصبحتَ؟ [قال][1]: أَصبَحنا ضعفاءَ مُذنِبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا.

واعلم أنَّه إذا كان سؤال السَّائل لأخيه: كيف أصبحتَ؟ لا يبعثه عليه شفقةٌ، ولا محبَّةٌ، كان تكلُّفًا ورياءً، وربَّما سأله وفي القلب ضغنٌ وحقدٌ يُورِث أنْ يعلمَ فساد حاله، وفي العُزلة الخلاص عن هذا؛ لأنَّه مَن لقي الخَلْق ولم يُخالقْهم بأخلاقهم، مَقَتوه واستثقلوه واغتابوه، ويذهب دِينهم فيه، ويذهب دِينه ودنياه في الانتقام منهم.

الرَّابعة: مسارَقة الطَّبع مِن أخلاقهم الرَّديئة، وهو داءٌ دفينٌ قلَّما يتنبَّه له العقلاء فضلًا عن الغافلِين، وذلك أنَّه قلَّ أنْ يجالِسَ الإنسان فاسقًا مدَّةً، مع كونه مُنكِرًا عليه في

---

(١) سقطت من "الأصل، ن، خ".

باطنه إلَّا ولو قاس نفسه إلى ما قَبل مُجالَسته وجد فرقًا في النُّفور عن الفساد؛ لأنَّ الفساد يصير بكثرة المباشرة هيِّنًا على الطَّبع، ويَسقط وقعه واستعظامه، ومهما طالت مُشاهَدة الإنسان الكبائر مِن غيره، احتقر الصَّغائر مِن نفسه، كما أنَّ الإنسان إذا لاحظ أحوال السَّلف في الزُّهد والتَّعبُّد احتقر نفسه، واستصغر عبادته، فيكون ذلك داعيةً إلى الاجتهاد، وبهذه الدَّقيقة يُعرف سِرُّ قول القائل: عند ذِكْر الصَّالحِين تنزل الرَّحمة.

وممَّا يدلُّ على سقوط وقع الشَّيء بسبب تكرُّره ومُشاهَدته، أنَّ أكثر النَّاس إذا رأَوا مسلمًا قد أفطر في رمضانَ استعظموا ذلك، حتى يكاد يُفضي إلى اعتقادهم فيه الكفر، وقد يُشاهدون مَن يؤخِّر الصَّلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورَهم عن تأخير الصَّوم، مع أنَّ ترك صلاةٍ واحدةٍ تُخرج إلى الكفر، ولا سبب لذلك إلَّا أنَّ الصَّلاة تتكرَّر، والتَّساهُل فيما يكثر، وكذلك لو لَبِس الفقيه ثوبًا حريرًا، أو خاتمًا مِن ذهبٍ، لاشتدَّ إنكار النَّاس لذلك، وقد يُشاهدونه يغتاب، فلا يستعظمون ذلك، والغِيبة أشدُّ مِن لبس الحرير، ولكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المُغتابِين، سقط عن القلوب وَقْعها، فافطن لهذه الدَّقائق، واحذر مُجالَسة النَّاس، فإنَّك لا تكاد ترى منهم إلَّا ما يزيد في حِرصك على الدُّنيا، وفي غفلتك عن الآخرة، [ويهون][1] عليك المعصية، وتضعف رغبتك في الطَّاعات، فإنْ وجدتَ مَجلِسًا يُذكَر الله فيه فلا تُفارِقْه، فإنَّه غنيمة المؤمن.

الفائدة الثَّالثة: الخلاص مِن الفتن والخصومات، وصيانة الدِّين عن الخوض فيها، فإنَّه قلَّما تخلو البلاد مِن العصبيَّة والخصومات، والمُعتزِل عنه سليمٌ.

وقد روى ابن عمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَر الفتن، ووصفها وقال: «**إذا رَأيتَ النَّاسَ مَرَجتْ عُهودُهُم**[2]**، وخَفَّت أَماناتُهم، فكانُوا هَكَذا**»، وشبَّك بين أصابعه،

---

(١) ورد في " المطبوع، ن " [وتهون].

(٢) يقال: مرجت عهودهم، إذا اختلطت. «لسان العرب» مادة (م ر ج).

قال: فقمتُ إليه، فقلتُ: كيف نعمل عند ذلك؟ فقال: «**الزَمْ بيتَكَ، وامْلِكْ عَليكَ لِسانَكَ، وخُذْ ما تَعرِفُ، ودَعْ ما تُنكِرُ، وعَليكَ بأَمرِ الخاصَّةِ، ودَعْ أَمرَ العامَّةِ**»(١).

وقد رُوي غير ذلك مِن الأحاديث في معناه.

الفائدة الرَّابعة: الخلاص مِن شَرِّ النَّاس، فإنَّهم يُؤذونك مرَّةً بالغِيبة، ومرَّةً بالنَّميمة، ومرَّةً بسوء الظَّنِّ، ومرَّةً بالتُّهمة، ومرَّةً بالأطماع الكاذبة، ومَن خالط النَّاس لم ينفكَّ مِن حاسدٍ وعدوٍّ، وغير ذلك مِن أنواع الشَّرِّ التي يَلقاها الإنسان مِن معارفه، وفي العزلة خلاصٌ مِن ذلك، كما قال بعضهم(٢):

عَدُوُّكَ مِن صَدِيقِكَ مُستَفادُ ... فلا تَستكثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ
فَإنَّ الدَّاءَ أَكثَرُ ما تَرَاهُ ... يَكُونُ مِنَ الطَّعامِ أو الشَّرَابِ

وقال عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: في العزلة راحةٌ مِن خُلطاء السُّوء(٣).

وقال إبراهيمُ بن أدهمَ: لا تتعرَّف إلى مَن لا تَعرف، وأنكر مَن تعرف(٤).

وقال رجلٌ لأخيه: أصحبك إلى الحجِّ؟ فقال: دعنا نعش في ستر الله، فإنَّا نخاف أنْ يرى بعضنا مِن بعضٍ ما نَتماقَت عليه، وهذه فائدةٌ أُخرى في العزلة، وهي بقاء السَّتر على الدِّين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أنْ ينقطعَ طمع النَّاس عنك، وطمعُك عنهم.

وأمَّا طمعهم، فإنَّ رِضاهم غايةٌ لا تُدركُ، فالمُنقطِع عنهم قاطعٌ لطمعهم في حضور ولائمهم وإملاكاتهم، وغير ذلك.

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٣٤٣)، وأحمدُ (٦٩٨٧)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٩٨): أخرجه أبو داودَ، والنَّسائيُّ في «اليوم واللَّيلة» بإسنادٍ حسنٍ.

(٢) ذكره الأمير عزُّ الدِّين الصَّنعانيُّ في «التَّنوير» (٥/ ٤٨١)، ونَسَبه لابن الرُّوميِّ.

(٣) رواه ابن أبي شيبةَ في «مصنَّفه» (٣٦).

(٤) رواه ابن أبي حاتمٍ في «الجرح والتَّعديل» (١/ ١٠٠)، ولكن عن سفيانَ الثَّوريِّ.

وقد قيل: مَن عمَّ النَّاس بالحرمان رَضُوا عنه كلُّهم.

وأمَّا انقطاع طَمَعِك، فإنَّ مَن نظر إلى زهرة الدُّنيا تحرَّك حِرصه، وانبعث بقوَّة الحرص طمعه، ولا يَرى إلَّا الخيبة في أكثر المطامع، فيتأذَّى.

وفي الحديث: «**انظُرُوا إلى مَن دُونكُمْ، وَلا تَنظُرُوا إلى مَن فَوقَكُم، فَإنَّهُ أَجدَرُ أَلَّا تَزدَرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُم**»[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

الفائدة السَّادسة: الخلاص مِن مشاهدة الثُّقلاء والحمقى، ومُقاساة أخلاقهم، وإذا تأذَّى الإنسان بالثُّقلاء لم يلبثْ أنْ يغتابَهم، فإنْ آذَوه بالقدح فيه كافأهم، فانجرَّ الأمر إلى فساد الدِّين، وفي العزلة سلامةٌ مِن ذلك.

فَصْلٌ في آفاتِ العُزْلَةِ

اعلم أنَّ مِن المقاصد الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ما يُستفاد مِن الاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلَّا بالمخالطة.

ومِن فوائد المخالطة التَّعلُّم والتَّعليم، والنَّفع والانتفاع، والتَّأديب والتَّأدُّب، والاستئناس والإيناس، ونَيل الثَّواب في القيام بالحقوق، واعتياد التَّواضُع، واستفادة التَّجارِب مِن مُشاهَدة هذه الأحوال، والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصِّلْها:

الفائدة الأُولى: التَّعلُّم والتَّعليم، وقد ذَكَرنا فَضلَهما في كتاب العِلم، فأمَّا مَن تعلَّم الفرض، ورأى أنَّه لا يتأتَّى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة، فليعتزلْ، وإنْ كان يقدر على التَّبرُّز في علوم الشَّرع فالعزلة في حقِّه قَبل التَّعلُّم غاية الخسران.

(١) رواه مسلمٌ (٢٩٦٣) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولهذا قال الرَّبيع بن خيثم: تفقَّه، ثُمَّ اعتزل، والعِلم أصل الدِّين، ولا خيرَ في عزلة العلوم.

سُئل بعض العلماء[١]: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: خبالٌ ووبالٌ. فقيل له: فالعالِم؟ فقال: ما لك ولها، دعها، معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها[٢].

وأمَّا التَّعليم، ففيه ثوابٌ عظيمٌ إذا صحَّتِ النِّيَّة فيه، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار مِن الأتباع فهو هلاك الدِّين، وقد سبق ذلك في كتاب العلم، والغالب في هذا الزَّمان سُوء القصد مِن المُتعلِّمين، فيقتضي الدِّين الاعتزال عنهم، فإنْ صُودِف طالبٌ لله، ومُتقرِّب بالتَّعليم إليه لم يجز الاعتزال عنه، ولا يَحِلُّ كتمان العِلم، ولا ينبغي أنْ يغترَّ بقول مَن قال: تعلَّمنا العِلم لغير لله، فأبى أنْ يكون إلَّا لله. فإنَّه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث، ومعرفة سِير الأنبياء والصَّحابة، وذلك يتضمَّن التَّخويف والتَّحذير، وهو سببٌ لإثارة الخوف مِن الله سبحانه، فإنْ لم يُؤثِّرْ في الحال أَثَّر في المآل، فأمَّا عِلم الكلام وعلم الخلاف فإنَّه لا يَردُّ الرَّاغب في الدُّنيا إلى الله تعالى، بل لا يزال صاحبه مُتمادِيًا في حِرصه إلى آخِر عمره.

الفائدة الثَّانية: النَّفع والانتفاع، أمَّا الانتفاع بالنَّاس، فبالكسب والمُعامَلة، والمُحتاج إلى ذلك مُضطرٌّ إلى ترك العزلة، وأمَّا إنْ كان معه ما يُقنعه فالعزلة أفضلُ، إلَّا أنْ يقصدَ التَّصدُّق بكسبه، فذلك أفضل مِن العزلة، إلَّا أنْ تكونَ العزلة مفيدةً له معرفةَ الله تعالى والأُنس به عن كشفٍ وبصيرةٍ، لا عن أوهامٍ وخيالاتٍ فاسدةٍ.

وأمَّا النَّفع فهو أنْ ينفعَ النَّاس، إمَّا بماله، أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومَن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشَّرع فهو أفضل مِن العزلة إنْ كان لا يشتغل في عزلته إلَّا

---

(١) رواه البغداديُّ في «ذيل طبقات الحنفيَّة» (١/ ٢٥٣).

(٢) شبه عزلة العالم بالإبل التي معها حذاؤها وسقاؤها.

بنوافل الصَّلوات والأعمال البدنيَّة، وإنْ كان ممَّن [افتتح](١) له طريق العمل بالقلب بدوام ذِكْرٍ أو فِكرٍ، فذاك لا يعدل به البتة.

الفائدة الثَّالثة: التَّأديب والتَّأدب، ونعني به الارتياض بمُقاساة النَّاس، والمُجاهدة في تحمُّل آذاهم، وكَسر النَّفْس، وقهر الشَّهوة، وذلك أفضل مِن العزلة في حقِّ مَن لم تتهذَّبْ أخلاقه.

وينبغي أنْ يُفهمَ أنَّ الرِّياضة لا تُراد لنفسها، كما لا يُراد ذلك مِن رياضة الدَّابَّة، بل المُراد منها أنْ تُتَّخَذَ مَركبًا تقطع عليه المراحل، والبدن مطيَّةٌ يسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهواتٌ إنْ لم تُكسَر جَمَحَت براكبها في الطَّريق، فمَنِ اشتغل طول عمره بالرِّياضة كان كمَنِ اشتغل طول عمره برياضة الدَّابَّة ولم يركبْها، ولا يستفيد إلَّا الخلاص مِن عضِّها ورفسها، وهي لَعَمري فائدةٌ، ولكن ليست مُعظَم المقصود، كما قيل لراهبٍ: يا راهبُ. فقال: لستُ براهبٍ، إنَّما أنْ كلبٌ عقورٌ، حَبَستُ نفسي حتى لا أَعقرَ النَّاس. وهذا حَسنٌ بالإضافة إلى مَن يعقِرُ، لكن لا ينبغي أنْ يقتصرَ عليه.

وأمَّا التَّأديب فهو أنْ يُؤدِّبَ غيره، ويتطرَّق إليه مِن دقائق الآفات ما يتطرَّق إلى نشر العِلم على ما ذُكِر.

الفائدة الرَّابعة: الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحَبًّا كالاستئناس بأهل التَّقوى، وقد يُقصَد به ترويح القلوب مِن كرب الوحدة، فينبغي أنْ يكونَ الاستئناس في بعض السَّاعات بمَن لا يُفسِد بقيَّتها، ولْيَحرِصْ أنْ يكونَ حديثه عند اللِّقاء في أُمور الدِّين.

الفائدة الخامسة: في نيل الثَّواب وإنالته.

أمَّا الأوَّل فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الإملاكات، والدَّعوات؛ ففيها ثوابٌ مِن جهة إدخال السُّرور على المؤمن.

---

(١) ورد في "المطبوع، ن" [انفتح]، وفي "خ" [أفتح].

وأمَّا الثَّاني فهو أنْ يفتحَ بابه للنَّاس ليُعزُّوه أو يُهنِّؤوه أو يَعودوه، فإنَّهم ينالون بذلك ثوابًا، وكذلك إنْ كان مِن العلماء فأَذِن لهم في زيارته.

ولكن ينبغي أنْ يَزِنَ ثواب هذه المُخالَطات بآفاتها، فيرجِّح العزلة أو المُخالَطة، وقد كان أكثر السَّلف يُؤثِرون العزلة عليها.

الفائدة السَّادسة: التَّواضُع، ولا يقدر على ذلك في الوحدة، فقد يكون الكِبْر سببًا في اختياره العزلة، ويمنعه مِن المَحافِل التَّقصير في إكرامه وتقديمه، وربَّما ترفَّع عن مُخالَطتهم؛ لارتفاع مَحلِّه عن نفسه، أو نحو ذلك.

وعلامة مَن هذه صفته أنْ يُحبَّ أنْ يُزارَ، ولا يُحبَّ أنْ يزورَ، ويفرحَ بتقرُّب السَّلاطين والعوامِّ إليه، واجتماعهم على بابه، وتقبيل يده، فالعزلة بهذا السَّبب جهلٌ؛ لأنَّ التَّواضُع لا يغضُّ مِن مَنصِبِ الكبير.

فإذا عرفتَ فوائد العزلة وغوائلها تحقَّقتَ أنَّ الحُكم عليها مُطلَقًا بالتَّفضيل نفيًا وإثباتًا خطأٌ، بل ينبغي أنْ يُنظرَ إلى الشَّخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مُخالَطته، وإلى الفائت بسبب مُخالَطته مِن الفوائد، ويُقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبيَّن الحقُّ، ويتَّضِح الأفضلُ.

فقد قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الانقباض عن النَّاس مَكسَبةٌ للعداوة، والانبساط إليهم مَجلَبةٌ للسُّوء، فكن بين القبض والبسط[1].

ومَن ذكر سِوى هذا فهو قاصرٌ، وإنَّما هو إخبارٌ عن حاله، فلا يجوز أنْ يحكمَ بها على غيره المُخالِف له في الحال.

فإنْ قيل: فما آداب العزلة؟

---

(١) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٩/ ١٢٣).

قلنا: ينبغي للمُعتزِل أنْ ينويَ بعزلته كفَّ شَرِّه عن النَّاس، ثُمَّ طَلَبَ السَّلامة مِن شَرِّ الأشرار، ثُمَّ الخلاص مِن آفة القُصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثُمَّ تجريدَ الهمَّة لعِبادة الله تعالى أبدًا، فهذه آدابٌ بيِّنةٌ.

ثُمَّ ليكنْ في خَلوته مُواظِبًا على العِلم والعمل، والذِّكر والفِكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع النَّاس عن أنْ يُكثروا غَشَيانه وزِيارته؛ ليصفوَ وقته، وليكفَّ عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد، وما النَّاس مشغولون به، فإنَّ جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصَّلاة، فوقوع الأخبار في السَّمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير مِن المعيشة، وإلَّا اضطرَّه التَّوسُّع إلى مُخالَطة النَّاس.

وليكن صبورًا على ما يَلقاه مِن أذى النَّاس، ولا يُصغِي إلى الثَّناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإنَّ ذلك يؤثِّر في القلب، فيقف عن السَّير في طريق الآخرة.

وليكن له جليسٌ صالحٌ يستريح إليه ساعةً عن كدِّ المُواظَبة، ففي ذلك عونٌ على بقيَّة السَّاعات، ولا يتمُّ الصَّبر في العزلة إلَّا بقطع الطَّمع عن الدُّنيا، ولا ينقطع طمعه إلَّا بقِصَر أمله، فيُقدِّر أنَّه إذا أصبح لا يُمسي، وإذا أمسى لا يُصبح، فيَسهُل عليه صبر يومٍ.

وليكن كثير الذِّكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قَلبه مِن الوحدة، وليتحقَّق أنَّ مَن لم يحصل في قلبه مِن ذِكْر الله ومعرفته ما يأنسُ به، لم يُطِق وحشة الوحدة بعد الموت، وأنَّ مَن أَنِس بذِكْر الله ومعرفته لم يزلِ الموت أُنسه؛ لأنَّ الموت لا يهدم مَحلَّ الأُنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حقِّ الشُّهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وكلُّ مُتجرِّدٍ لله في جهاد نفسه، فهو شهيدٌ، كما وَرَد عن بعض الصَّحابة أنَّه قال: رَجَعنا [مِن][1] الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[2].

---

(١) ورد في "الأصل" [عن].

(٢) أورده العجلونيُّ في «كشف الخفاء» (١/ ٤٢٤)، وقال: قال الحافظ ابن حَجَر في «تسديد القوس»: هو مشهورٌ على الألسنة، وهو مِن كلام إبراهيمَ بن عليَّةَ. وقال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٢١٦):=

كتاب آداب السفر

السَّفَر وسيلةٌ إلى الخلاص مِن مهروبٍ عنه، أو الوصول إلى مرغوبٍ إليه.

والسَّفَر سَفران: سَفَرٌ بظاهر البدن عن الوطن، وسَفَرٌ بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السَّماوات، وهذا أشرف السَّفَرين، فإنَّ الوقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقَّفه بالتَّقليد مِن الآباء لازمٌ درجة القُصور، قانعٌ برتبة النَّقص، ومُستبدِلٌ بمُتَّسِعٍ عرضه السَّماوات والأرض ظُلمة السِّجن، وضيق الحبس.

ولم أَرَ في عُيُوبِ النَّاسِ شَيئًا كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلى التَّمَامِ[1]

إلَّا أنَّ هذا السَّفر لمَّا كان مُقتحِمه في خطرٍ خطيرٍ اندرست مسالِكه.

فأمَّا سفر البدن فهو أقسامٌ، وله فوائدُ وآفاتٌ عظيمةٌ، فإنَّه يُضاهي النَّظر في العزلة والمُخالَطة، وقد ذَكَرنا منهاج ذلك.

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو مِن هربٍ أو طلبٍ، فالهرب إمَّا مِن أمرٍ له نكايةٌ في الأُمور الدُّنيويَّة، كالطَّاعون إذا ظهر ببلدٍ، أو كخوف فتنةٍ وخصومةٍ، أو غلاء سعرٍ.

وإمَّا أَمرٍ له نكايةٌ في الدِّين، كمَن ابتُلي في بلده بجاهٍ أو مالٍ أو اتِّساع أسبابٍ، فصدَّه عن التَّجرُّد لله تعالى، فيُؤثِر الغُربة والخُمول، ويجتنب السَّعة والجاه، وكمَن يُدعَى إلى بدعةٍ، أو إلى ولايةِ عملٍ لا تَحلُّ مُباشَرته، فيَطلب الفرار منه.

وأمَّا المطلوب فهو إمَّا دنيويٌّ كالمال والجاه، أو دِينيٌّ كالعِلم بأمور دِينه، أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله في أرضه، وقلَّ مذكورٌ بالعِلم مُحصِّلٌ مِن زمان الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلى زماننا إلَّا وحصَّل العِلم بالسَّفر، وسافر لأجله.

= أخرجه البيهقيُّ في «الزُّهد» مِن حديث جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: هذا إسنادٌ فيه ضعفٌ.

(١) البيت للمتنبِّي، وهو في ديوانه (١/ ٤٧٦).

وأمَّا عِلمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضًا مهمٌّ، فإنَّ سلوك الآخرة لا يُمكن إلَّا بتحسين الخُلُق وتهذيبه، وإنَّما سمِّي السَّفر سفرًا؛ لأنَّه يُسفِر عن الأخلاق.

وفي الجملة فالنَّفس في الوطن لا تُظهِر خبائث أخلاقها؛ لاستئناسها بما يُوافِق طَبعها مِن المألوفات المعهودة، فإذا حُمِّلت وَعثَاء السَّفر، وصُرِفت عن مألوفاتها المُعتادة، وامتحنت بمشاقِّ الغربة، انكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عُيوبها.

وأمَّا آيات الله في أرضه، ففي مُشاهَدتها فوائد للمُستبصِر.

ففيها قطَعٌ متجاوراتٌ، وفيها مِن الجبال والبراري والقِفار والبحار، وأنواع الحيوان والنَّبات، وما مِن شيءٍ إلَّا وهو شاهدٌ لله بالوحدانيَّة، ومُسبِّحٌ بلسانٍ ذَلِقٍ لا يُدرِكه إلَّا مَن ألقى السَّمع وهو شهيدٌ.

وإنَّما نعني بالسَّمع سمع الباطن، فيه يُدرَك نطق لسان الحال، وما مِن ذرَّةٍ في السَّموات والأرض إلَّا ولها أنواعٌ شاهداتٌ لله سبحانه بالوحدانيَّة.

وقد ذكَرنا أنَّ مِن فوائد السَّفر الهرب مِن الولاية والجاه وكثرة العلائق؛ لأنَّ الدِّين لا يتمُّ إلَّا بقلبٍ فارغٍ عن غير الله، ولا يُتصوَّر فراغ القلب في الدُّنيا عن مهمَّات الدُّنيا والحاجات الضَّروريَّة، ولكنْ يُتصوَّر تخفيفها وتقليلها، وقد نجا المخفُّون، وهلك المُثقِلون، والمُخفُّ الذي ليست الدُّنيا أكبَرَ همِّه.

فَصْلٌ

ومِن أقسام السَّفَر أنْ يكون مُباحًا، كسفر التَّفرج والتَّنزُّه، فأمَّا السِّياحة في الأرض لا لمقصودٍ، ولا إلى مكانٍ معروفٍ، فإنَّه منهيٌّ عنه.

فقد روينا مِن حديث طاوسٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا [رَهبانية][1]، ولا تبتُّل، ولا سِياحَةَ في الإسلامِ»**[2].

---

(١) ورد في "المطبوع" [رهابنة].

(٢) قال في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٧٧) بعد أنْ أورده بلفظ: «**لا رَهبَانِيَّةَ في الإسلامِ**»: قال ابن حَجرٍ: =

وقال الإمام أحمدُ بن حنبلٍ: ما السِّياحة في الإسلام في شيءٍ، ولا مِن فِعْل النَّبيِّين ولا الصَّالحِين، ولأنَّ السَّفر يشتِّت القلب، فلا ينبغي للمُريد أنْ يُسافِرَ إلَّا في طلب عِلمٍ، أو مشاهَدة شيخٍ يقتدي به في سِيرته.

وللسَّفر آدابٌ معروفةٌ مذكورةٌ في مَناسِك الحجِّ وغيرها.

مِن ذلك أنْ يبدأ بِرَدِّ المَظالِم، وقضاء الدُّيون، وإعداد النَّفقة لمَن [تلزمه][(١)] نَفَقته، ورَدِّ الودائع.

ومنها: أنْ يختار رَفيقًا صالحًا، ويُودِّع الأهل والأصدقاء.

ومنها: أنْ يُصلِّيَ صلاةَ الاستخارة، وأنْ يكونَ سَفَره يومَ الخميس بُكرةً.

ومنها: ألَّا يَمشيَ منفرِدًا، وأنْ يكونَ أكثرَ سَيره باللَّيل، ولا يُهمِلَ الأذكار والأدعيةَ، إذا وصل منزلًا، أو علا نَشزًا، أو هبط واديًا.

ومنها: أنْ يَستصحِبَ معه ما فيه مصلَحته، كالسِّواك، والمشط، والمرآة، والمُكحُلة، ونحو ذلك.

فَصْلٌ فِيمَا لَا بُدَّ لِلْمُسَافِرِ مِنْهُ

ينبغي له أنْ يتزوَّد للدُّنيا والآخرة، أمَّا زاد الدُّنيا، فالمَطعَم والمَشرَب، وما يحتاج إليه.

ولا ينبغي أنْ يقول: أَخرجُ مُتوكِّلًا، فلا أحمل زادًا، فهذا جهلٌ، فإنَّ حَمْلَ الزَّاد لا يُناقِض التَّوكُّل.

= لم أَرَه بهذا اللَّفظ، لكن في حديث سعد بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البيهقيِّ أنَّ الله أبدلنا بالرَّهبانيَّة الحنيفيَّةَ السَّمْحة.

(١) ورد في "الأصل" [يلزمه].

وأمَّا زاد الآخرة فهو العِلم الذي يَحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته، وتعلُّم رُخَصِ السَّفر، كالقَصْر، والجمع، والفِطر، ومدَّة مسح السَّفر على الخُفَّين، والتَّيمُّم، والتَّنقُّل للماشي، وكلُّ ذلك مذكورٌ في كُتب الفقه بشروطٍ.

ولا بدَّ للمُسافِر مِن معرفة ما يتجدَّد بسبب السَّفر، وهو عِلم القِبلة والأوقات، فإنَّ ذلك في السَّفر آكدُ مِن الحَضَر.

ويَستدلُّ على القِبلة بالنُّجوم والشَّمس والقمر والرِّياح والمياه والجِبال والمَجرَّة على ما هو مُبيَّنٌ في مَوضِعه، ويَعتبِر الجبال بأنَّ وجوهها جميعها مُستقبِلةٌ [القبلة][1].

وأمَّا المَجرَّة فتكون أوَّلَ اللَّيل ممتدَّةً على كَتِف المُصلِّي اليُسرى إلى القِبلة، ثُمَّ يلتوي رأسها حتى تصير في آخِر اللَّيل على كَتِفه اليُمنى، وتسمَّى المَجرَّة سُرُج السَّماء.

وأمَّا معرفة أوقات الصَّلوات، فلا بدَّ منها، ووقت الظُّهر يدخل بزوال الشَّمس، فليَنصبِ المُسافِر عُودًا مُستقيمًا، وليُعلِّم علاماتٍ على رأس الظِّلِّ، ولينظرْ، فإنْ رآه في النُّقصان عَلم أنَّه لم يدخلْ وقت الظُّهر، فإذا أَخذ في الزِّيادة عَلِم أنَّه قد زالت الشَّمس، ودخل الوقت، وهو أوَّل وقت الظُّهر، وآخِره إذا صار ظِلُّ كلِّ شيءٍ مِثلَه، ثُمَّ يدخل أوَّل وقت العصر، وآخِره إلى أنْ يصيرَ ظِلُّ كلِّ شيءٍ مِثلَيه.

وعن الإمام أحمدَ: أنَّ آخِره ما لم تَصفرَّ الشَّمس، ثُمَّ يذهب وقت الاختيار، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشَّمس، وباقي الأوقات معروفةٌ.

(١) ورد في "المطبوع، ن، خ" [البيت].

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم أنَّ الأمر بالمعروف، والنَّهيَ عن المُنكَر هو القُطب الأعظم في الدِّين، وهو المُهمُّ الذي بعث الله به النَّبيِّين، ولو طُوي بساطه، لاضمحلَّت الدِّيانة، وظَهَر الفساد، وخَربت البلاد.

قال الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي هذه الآية بيانٌ أنَّه فرضٌ على الكفاية، لا فرضُ عينٍ؛ لأنَّه قال: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ولم يقل: كونوا كلُّكم آمِرين بالمعروف، فإذا قام به مَن يَكفي سقط عن الباقِين، واختصَّ الفَلَاح بالقائمِين المُباشِرين له، وفي القرآن العظيم آياتٌ كثيرةٌ في الأمر بالمعروف، والنَّهيِ عن المُنكَر.

وعن النُّعمان بن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، والمُداهِنِ فيها مَثَلُ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وأَوعَرَها وشَرَّهَا، وأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَآذَوهُم، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا فَاستَقَينا مِنهُ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وأَمرَهُم هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا**»[١].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٩٣).

فصل في مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيها

فقد جاء في الحديث المشهور مِن رواية مسلمٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ رَأى مِنكُم مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِه، فإنْ لَم يَستَطِعْ فَبِلسانِه، فإنْ لَم يَستَطِعْ فَبِقَلْبِه، وذَلِكَ أضعَفُ الإيمانِ»(١).

وفي حديثٍ آخَرَ: «أفضَلُ الجِهادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِندَ سُلطَانٍ جائِرٍ»(٢).

وفي حديثٍ آخَرَ: «إذا رأيتَ أُمَّتِي تَهابُ الظَّالِمَ أنْ تَقُولَ لَه: أنتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنهُم»(٣).

وقام أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحَمِد الله تعالى، وأثنى عليه، ثُمَّ قال: أيُّها النَّاس، إنَّكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنَّا سَمِعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوُا المُنكَرَ، فَلَم يُغَيِّرُوه أوشَكَ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعَذابٍ»(٤). وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ شِرَارَكُمْ عَلى خِيارِكُم، فَيَدْعُو خِيارُكُمْ فَلا يُسْتَجابُ لَهُمْ»(٥).

---

(١) رواه مسلمٌ (٤٩) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أحمدُ (١١١٤٣)، والتِّرمذيُّ (٢١٧٤)، وأبو داودَ (٤٣٤٤)، عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذيُّ: وهذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٣) رواه أحمدُ (٦٥٢١)، والبزَّار (٢٣٧٤)، عن عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال الهيثميُّ في «مجمع الزَّوائد»: رواه أحمدُ والبزَّار بإسنادَين، ورجال أحد إسنادَي البزَّار رجال الصَّحيح، وكذلك رجال أحمدَ، إلَّا أنَّه وقع فيه في الأصل غلطٌ، فلهذا لم أذكرْه.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢١٨٦)، وأبو داودَ (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأحمدُ (١).

(٥) رواه البزَّار (١٨٨)، عن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (١٣٧٩) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكَره السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير»، وأشار إليه بالحسن، وقال العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٢٢١): كلاهما ضعيفٌ.

فَصْلٌ في أركانِهِ وشُروطِهِ ودرجاتِهِ وآدابِهِ ونَحوِ ذلكَ

اعلم أنَّ أركان الأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المُنكَر أربعةٌ:

أحدها: أنْ يكونَ المُنكِرِ مُكلَّفًا مُسلِمًا قادرًا، وهذا شرطٌ لوجوب الإنكار، فإنَّ الصَّبيَّ المُميِّز، له إنكارُ المُنكَر، ويُثاب على ذلك، لكنْ لا يجب عليه.

وأمَّا عدالة المُنكِرِ فاعتبَرها قومٌ، وقالوا: ليس للفاسق أنْ يحتسبَ، وإنَّما استدلُّوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وليس لهم في ذلك حُجَّةٌ.

واشترط قومٌ كون المُنكِرِ مأذونًا فيه مِن جهة الإمام أو الوالي، ولم يُجِيزوا لآحاد الرَّعيَّة الحُسبة، وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ الآيات والأخبار عامَّةٌ تدلُّ على أنَّ كلَّ مَن رأى مُنكَرًا، فَسَكَت عنه عَصى، فالتَّخصيص بإذن الإمام تَحكُّمٌ.

ومِن العَجَب أنَّ الرَّوافِض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرجِ الإمام المعصوم، والجواب على ذلك أنْ يُقال لهم إذا جاؤوا إلى القاضي طالِبين حُقوقَهم: نُصرَتُكم أمرٌ بالمعروف، واستخراج حُقوقكم مِن يد مَن ظَلَمَكم نَهيٌ عن المُنكَر، ولم يَجئ زمان ذلك الإمام؛ لأنَّه لم يَخرجْ بعدُ.

فإنْ قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سَلطَنةٍ ووِلايةٍ على المحكوم عليه، ولذلك لم يَثبت للكافر على المسلم، مع كونه حقًّا، فينبغي ألَّا يَثبتَ لآحاد الرَّعيَّة إلَّا بتفويضٍ مِن السُّلطان.

قلنا: أمَّا الكافر فممنوعٌ مِن ذلك؛ لِمَا فيه مِن السُّلطة والعِزِّ، وأمَّا آحاد المسلِمين فيَستحِقُّون هذا العِزَّ بالدِّين والمعرفة.

واعلم أنَّ الحُسبة لها خمسُ مراتبَ:

الأُولى: التَّعريف.

الثَّانية: والوعظ بالكلام اللَّطيف.

الثَّالثة: السَّبُّ والتَّعنيف، ولسنا نعني بالسَّبِّ الفاحشة، بل نقولُ له: يا جاهلُ، يا أحمقُ، أَلَا تخاف مِن الله تعالى؟ ونحو ذلك.

والرَّابعة: المَنع بالقَهْر، ككَسْر الملاهي، وإراقة الخَمْر.

والخامسة: التَّخويف والتَّهديد بالضَّربِ، أو مُباشَرةِ الضَّربِ له حتى يَمتنِعَ عمَّا هو عليه، فهذه المَرتبةُ تَحتاجُ إلى الأمام دون ما قَبلها؛ لأنَّه ربَّما جرَّ إلى فتنةٍ.

واستمرار عادات السَّلف على الحُسبة على الولاة قاطعٌ بإجماعهم على الاستغناء عن التَّفويض.

فإنْ قيل: فهل تثبتُ الحُسبة للولد على الوالد، والعبد على السَّيِّد، والزَّوجة على الزَّوج، والرَّعية على الوالي؟

قلنا: أصل الوِلاية ثابتٌ للكلِّ، وقد رتَّبنا للحُسبة خمسَ مراتبَ:

فللولد مِن ذلك الحُسبة بالتَّعريف، ثُمَّ بالوعظ والنُّصح باللُّطف.

وله مِن الرُّتبة الخامسة أنْ يكسر العُود، ويُريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا التَّرتيب ينبغي أنْ يجريَ في العبد والزَّوجة.

وأمَّا الرَّعيَّة مع السُّلطان فالأمر فيه أشدُّ مِن الولد، فليس معه إلَّا التَّعريف والنُّصح.

ويُشترَط كون المُنكِر قادرًا على الإنكار، فأمَّا العاجز، فليس عليه إنكارٌ إلَّا بقلبه، ولا يقف سُقوط الوجوب على العجز الحسِّيِّ، بل يلتحق به خوفُ مكروهٌ يناله، فذلك في معنى العجز.

وكذلك إذا عَلِم أنَّ إنكاره لا ينفعُ، فينقسم إلى أربعة أحوالٍ:

أحدها: أنْ يعلمَ أنَّ المُنكَر يزول بقوله أو فِعْله مِن غير مكروهٍ يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثَّانية: أنْ يَعلمَ أنَّ كلامه لا يَنفع، وأنَّه إنْ تكلَّمَ ضُرِب، فيرتفع الوجوب عنه.

الثَّالثة: أنْ يعلمَ أنَّ إنكاره لا يُفيد، لكنَّه لا يَخاف مكروهًا، فلا يجب عليه الأمر؛ لعدم الفائدة، لكنْ يُستحَبُّ؛ لإظهار شعائر الإسلام والتَّذكير بالدِّين.

الرَّابعة: أنْ يعلمَ أنَّه يُصاب بمَكروهٍ، ولكنْ يبطل المُنكَر بفعله، مِثل أنْ يكسرَ العود، ويُريق الخمر، ويعلم أنَّه يُضرب عقيبَ ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مُستحَبًّا؛ لقوله في الحديث: «**أَفضَلُ الجِهادِ كَلِمةُ حَقٍّ عِندَ سُلطانٍ جائرٍ**»(١).

ولا خلافَ أنَّه يجوز للمسلم الواحد أنْ يهجمَ على صفوف الكفَّار ويُقاتل، وإنْ عَلِم أنَّه يُقتَل، لكنْ إنْ عَلِم أنَّه لا نكايةَ له في الكفَّار، كالأعمى يَطرَح نفسه على الصَّفِّ، حَرُم ذلك، وكذلك لو رأى فاسقًا وحدَه، وعنده قَدح خمرٍ، وبيده سيفٌ، وعَلم أنَّه لو أنكر عليه لِشُربِ خمرٍ لَضَرب عُنقه لم يجز له الإقدام على ذلك؛ لأنَّ هذا لا يؤثِّر في الدِّين أثرًا يُفديه بنفسه، وإنَّما يُستحَبُّ له الإنكار إذا قدر على إبطال المُنكَر، وظهر لِفِعْله فائدةٌ، كمَن يَحمِل في صَفِّ الكفَّار ونحوه.

وإنْ عَلِم المُنكِر أنَّه يُضرَب معه غيره مِن أصحابه، لم تَجُزْ له الحُسبة؛ لأنَّه عجز عن دفع المُنكَر إلَّا بإفضائه إلى مُنكَرٍ آخَرَ، وليس ذلك مِن القدرة في شيءٍ، ولسنا نعني بالعِلم في هذه المواضع إلَّا غلبة الظَّنِّ، فمَن غلب على ظنِّه أنَّه يُصيبه مكروهٌ، لم يجبْ عليه الإنكار، وإنْ غلب على ظنِّه أنَّه لا يُصيبه وجب، ولا اعتبارَ بحالة الجبان، ولا بالشُّجاع المُتهوِّر، بل الاعتبار بالمُعتدِل الطَّبع، السَّليم المزاج، ونعني بالمكروه الضَّرب أو القَتْل، وكذلك نَهْب المال، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأمَّا السَّبُّ والشَّتم، فليس بعُذرٍ في السُّكوت؛ لأنَّ الآمر بالمعروف يلقى ذلك في الغالب.

الرُّكن الثَّاني: أنْ يكونَ ما فيه الحُسبة مُنكَرًا موجودًا في الحال ظاهرًا، فمعنى كونه مُنكَرًا أنْ يكونَ محذورَ الوُقوع في الشَّرع، والمُنكَر أعمُّ مِن المَعصية؛ إذ مَن رأى صبيًّا،

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

أو مجنونًا يشرب الخمر، فعليه أنْ يُريقَ خمره ويمنعه، وكذلك لو رأى مجنونًا يَزني بمجنونةٍ أو بهيمةٍ، فعليه أنْ يمنعَه.

وقولنا: موجودًا في الحال. احترازٌ ممَّن شَرِب الخمر، وفرغ مِن شربها، ونحو ذلك، فإنَّ ذلك ليس إلى الآحاد، وفيه أيضًا احترازٌ عمَّا سيُوجد في ثاني الحال، كمَن يعلم بقرينة حاله أنَّه عازم على الشُّرب اللَّيلة، فلا حُسبة عليه إلَّا بالوعظ.

وقولنا: ظاهرًا. احترازٌ ممَّن تستَّرَ بالمعصية في داره وأغلق بابه، فإنَّه لا يجوز أنْ يتجسَّسَ عليه، إلَّا أنْ يُظهرَ ما يعرفه مَن هو خارج الدَّار، كأصوات المَزامير والعِيدان، فلمن سمع ذلك أنْ يدخل ويكسرَ الملاهي، فإنْ فاحت رائحة الخمر فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط في إنكار المُنكَر أنْ يكون مَعلومًا كونه مُنكَرًا بغير اجتهادٍ، فكلُّ ما هو في مَحلِّ الاجتهاد، فلا حُسبةَ فيه، فليس للحنفيِّ أنْ يُنكِرَ على الشَّافعيِّ أَكْله متروكَ التَّسمية، ولا للشَّافعيِّ أنْ يُنكرَ على الحنفيِّ شُربه يَسير النَّبيذ الذي ليس بمُسكِرٍ.

الرُّكن الثَّالث: في المُنكَر عليه، ويكفي في صفته أنْ يكون إنسانًا، ولا يُشترط كونه مُكلَّفًا كما بيَّنَّا قَبله مِن أنَّه يُنكَر على الصَّبيِّ والمجنون.

الرُّكن الرَّابع: نَفْس الاحتساب، وله درجاتٌ وآدابٌ.

الدَّرجة الأُولى: أنْ يَعرِفَ المُنكَر، فلا ينبغي له أنْ يسترقَ السَّمع على دار غيرِه ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرَّض للشَّمِّ ليدركَ رائحة الخمر، ولا أنْ يَمسَّ ما قد سُتِر بثوبٍ ليَعرف شكل المزمار، ولا أنْ يَستخبِرَ جيرانه ليُخبروه بما يجري، بل لو أَخبَره عدلان ابتداءً أنَّ فلانًا يشرب الخمر فله إذ ذاك أنْ يدخلَ ويُنكِرَ.

الدَّرجة الثَّانية: التَّعريف، فإنَّ الجاهل يُقدِمُ على الشَّيء لا يظنُّه مُنكَرًا، فإذا عَرَف أقلع عنه، فيَجب تعريفه باللُّطف، فيُقال له: إنَّ الإنسان لا يُولَد عالمـًا، ولقد كنَّا جاهِلِين بأُمور الشَّرع حتى عَلَّمنا العلماء، فلعلَّ قَريَتك خاليةً مِن أهل العِلم، فهكذا يتلطَّف به

ليحصل التَّعريف مِن غير إيذاءٍ. ومَن اجتنب محذور السُّكوت عن المُنكَر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدَّم بالبول.

الدَّرجة الثَّالثة: النَّهي بالوعظ والنُّصح والتَّخويف بالله، ويُورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويَحكي له سيرة السَّلف، ويكون ذلك بشفقةٍ ولطفٍ مِن غير عُنفٍ وغضبٍ، وهاهنا آفةٌ عظيمةٌ ينبغي أنْ يتوقَّاها، وهو أنَّ العالِم يرى عند التَّعريف عِزَّ نفسه بالعِلم، وذُلَّ غيره بالجهل.

ومِثال ذلك مِثال مَن يُخلِّص غيره مِن النَّار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومَذَلَّةٌ عظيمةٌ، وغرورٌ مِن الشَّيطان، ولذلك مَحكٌّ ومِعيارٌ، فينبغي أنْ يَمتحِن به المُحتسِب نفسه، وهو أنْ يكونَ امتناع ذلك الإنسان عن المُنكَر بنفسه، أو باحتساب غيره عليه أَحبَّ إليه مِن امتناعه عنه باحتسابه، فإنْ كان الحُسبة شاقَّةً عليه، ثقيلةً على نفسه، وهو يَودُّ أنْ يُكفَى بغيره، فليحتسبْ، فإنَّ باعثه هو الدِّين، وإنْ كان الأمر بالعكس، فهو مُتَّبِعٌ هوى نفسه، مُتوسِّلٌ إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتقِّ الله، وليحتسب أوَّلًا على نفسه.

وقيل لداودَ الطَّائيِّ: أرأيتَ رَجلًا دخل على هؤلاء الأمراء، فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المُنكَر؟

قال: أخاف عليه السَّوط.

قيل: هو يقوى على ذلك.

قال: أخاف عليه السَّيف.

قيل: هو يقوى على ذلك.

قال: أخاف عليه الدَّاء الدَّفين: العُجب.

الدَّرجة الرَّابعة: السَّبُّ والتَّعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنَّما يَعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللُّطف، وظهور مبادئ الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنُّصح، ولسنا نعني بالسَّبِّ الفحشَ والكذبَ، بل نقول له: يا فاسقُ، يا أحمقُ، يا جاهلُ، أَلَا تخاف الله، قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

الدَّرجة الخامسة: التَّغيير باليد، ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وإخراجه مِن الدَّار المغصوبة، وفي هذه الدَّرجة أَدَبان:

أحدهما: أَلَّا يباشِرَ التَّغيير ما لم يَعجزْ عن تكليف المُنكَر عليه ذلك، فإذا أمكنه أنْ يُكلِّفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا ينبغي أنْ يجرَّه ولا يدفعه.

والثَّاني: أنْ يكسرَ الملاهي كسرًا يُبطل صلاحيَّتها للفساد، ولا يزيد على ذلك، ويتوقَّى في إراقة الخمور كسر الأواني إنْ وَجد إليه سبيلًا، وإنْ لم يقدرْ إلَّا بأنْ يرميَ ظروفها بحَجَرٍ أو نحوه، فله ذلك، وتسقط قِيمة الظُّروف، ولو سَتَر الخمر ببدنه، [لكنَّا][1] [يَقصد][2] بدنه بالضَّرب؛ ليَتوصَّل إلى إراقة الخمر، ولو كانت الخمر في قواريرَ ضيِّقةِ الرُّؤوس، بحيث إنَّه إذا اشتغل بإراقتها طال الزَّمان، وأدركه الفُسَّاق فمَنَعوه، فله كسرها؛ لأنَّ هذا عذرٌ، وكذلك إنْ كان يضيِّع الزَّمان في صبِّها، وتتعطَّل أشغاله، فله كسرها، ولو لم يَحذرْ مِن الفُسَّاق.

فإنْ قيل: فهلَّا يجوز الكسر زَجْرًا، وكذلك الجَرُّ بالرِّجل في الإخراج مِن الدَّار المغصوبة زجرًا؟

قلنا: إنَّما يجوز مِثل ذلك للوُلاة، ولا يجوز لآحاد الرعيَّة؛ لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدَّرجة السَّادسة: التَّهديد والتَّخويف، كقوله: دع عنك هذا، وإلَّا فعلتُ بك كذا وكذا، وينبغي أنْ يُقدِّم هذا على تحقيق الضَّرب إذا أمكن تقديمه.

---

(١) ورد في "المطبوع" [فإنَّه].

(٢) ورد في "خ" [نقصد].

والأدب في هذه الرُّتبة ألَّا يتهدَّد بوعيدٍ لا يجوز تحقيقه، كقوله: لَأَنهَبَنَّ داركَ، ولَأَسبِيَنَّ زوجتك؛ لأنَّه إنْ قال ذلك عن عزمٍ فهو حرامٌ، وإنْ قاله عن غير عزمٍ فهو كذبٌ.

الدَّرجة السَّابعة: مباشَرة الضَّرب باليد والرِّجل، وغير ذلك ممَّا ليس فيه إشهار سلاحٍ، وذلك جائزٌ للآحاد بشرط الضَّرورة والاقتصار على قَدْر الحاجة، فإذا اندفع المُنكَر فينبغي أنْ يكفَّ.

الدَّرجة الثَّامنة: ألَّا يَقدِرَ على الإنكار بنفسه، ويحتاج إلى أعوانٍ يُشهِرون السِّلاح، فإنَّه ربَّما يستمدُّ الفاسق أيضًا بأعوانه، ويُؤدِّي إلى القِتال، فالصَّحيح أنَّ ذلك يحتاج إلى إذن الإمام؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى الفِتَن وهيجان الفَساد.

وقيل: لا يشترط في ذلك إذن الإمام.

فَصْلٌ

وقد ذكرنا آداب المُحتسِب مفصَّلةً، وجُملتها ثلاث صفاتٍ في المُحتسِب:

الأوَّل: العِلم بمواقِع الحُسبة وحدودها ومواقعها؛ ليقتصرَ على حَدِّ الشَّرع.

والثاني: الورع، فإنَّه قد يَعلم شيئًا، ولا يَعمل به لغرضٍ مِن الأغراض.

والثَّالث: حُسْن الخُلُق، وهو أصلٌ؛ ليتمكَّن مِن الكفِّ، فإنَّ الغضب إذا هاج لم يَكفِ مجرَّدُ العِلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطَّبع خُلُقٌ حَسنٌ.

قال بعض السَّلف: لا يَأمر بالمعروف إلَّا رفيقٌ فيما يَأمر به، رفيقٌ فيما ينهى عنه، حليمٌ فيما يأمر به، حليمٌ فيما ينهى عنه، فقيهٌ فيما يأمر به، فقيهٌ فيما ينهى عنه[١].

ومِن الآداب تقليل العلائق، وقطع الطَّمع عن الخَلْق؛ لنزول المداهنة، فقد حُكي عن بعض السَّلف أنَّه كان له سِنَّورٌ، وكان يأخذ لسِنَّوره في كلِّ يومٍ مِن قصَّابٍ في

(١) ذكره ابن رجب الحنبليُّ في «جامع العلوم والحكم» (٣/ ٩٦٣) عن سفيانَ الثوريِّ.

جواره شيئًا مِن الغُدَد، فرأى على القَصَّاب مُنكَرًا، فدخل الدَّار، فأخرج السِّنور، ثُمَّ جاءه، فأنكر على القَصَّاب، فقال: لا أُعطيك بعد هذا شيئًا لسِنَّورك، فقال: ما أنكرتُ عليك إلَّا بعد إخراج السِّنَّور، وقَطْع الطَّمَع منك. وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَن لم يقطع الطَّمع مِن النَّاس مِن شيئَين لم يقدر على الإنكار عليهم:

أحدهما: مِن لُطْفٍ ينالونه به.

والثَّاني: مِن رِضاهم عنه، وثنائهم عليه.

وأمَّا الرِّفق في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، فمُتعيِّنٌ، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

ورُوي أنَّ أبا الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ على رجلٍ قد أصاب ذَنْبًا، والنَّاس يَسبُّونه، فقال: أرأيتُم لو وجدتُموه في قَليبٍ، أَلَم تكونوا مُستخرِجيه؟

قالوا: بلى. قال: فلا تَسُبُّوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنَّما أُبغض عمله؛ فإذا تركه، فهو أخي[(١)].

ومَرَّ فتًى يَجرُّ ثوبه، فهمَّ أصحاب صلةَ بن أشيمَ أنْ يأخذوه بألسنتهم أَخْذًا شديدًا، فقال صلةُ: دَعوني أكفِكم أَمرَه. ثُمَّ قال: يا ابن أخي، إنَّ لي إليك حاجةً.

قال: ما هي؟

قال: أُحِبُّ أنْ ترفعَ إزارك. قال: نعم، ونعمى عينٍ. فرفع إزاره، فقال صلةُ لأصحابه: هذا كان أَمثلُ ممَّا أردتُم؛ فإنَّكم لو شتَمتُموه وآذيتُموه لَشَتَمَكم[(٢)].

ودُعي الحسن إلى عرسٍ، فجيء بجامٍ مِن فضَّةٍ فيه خبيصٌ، فتناوله، وقلبه على رغيفٍ، فأصاب منه، فقال رجلٌ: هذا نَهيٌ في سكوتٍ[(٣)].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٢٦٤)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (١/ ٢٢٥).

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ٢٣٨).

(٣) رواه الخلاَّل في «الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر» (٣٧).

بَابٌ فِي المُنْكَرَاتِ المَأْلُوفَةِ فِي العَادَاتِ وَفِي الإِنْكَارِ عَلَى الأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ، وَأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ

ولنذكر في ذلك فصلَين:

الفصل الأول: اعلم أنَّ المُنكَرات المألوفة في العادات لا يُمكِن حَصْرها، لكنَّا نُشير إلى جُمَلٍ يُستدَلُّ بها على أمثالها، فمِن ذلك:

مُنْكَرَاتُ المَسَاجِدِ

ممَّا يُشاهَد كثيرًا في المساجد إساءة الصَّلاة بترك الطُّمأنينة في الرُّكوع والسُّجود، وكذلك كل ما يَقدح في صحَّة الصَّلاة، مِن نجاسةٍ على ثوبِ المُصلِّي لا يراها، أو انحرافٍ عن القِبلة بسبب عمًى أو ظلامٍ.

ومِن ذلك: اللَّحن في القراءة.

و اشتغالُ المُعتكِف بإنكار هذه الأشياء، وتعريفها أفضلُ له مِن نافلةٍ يقتصر عليها.

ومِن ذلك: تَراسيل المُؤذِّنين في الأذان، وتطويلهم مَدَّ كلماته.

ومِن ذلك: أنْ يكونَ على الخطيب ثوبُ حريرٍ، أو بيده سيفٌ مُذهَّبٌ.

ومِن ذلك: ما يجري مِن القُصَّاص في المساجد مِن الكذب، والأشياء المَنهيِّ عنها، كالخوض في الكلام المُوجِب للفتن، ونحو ذلك.

ومِن ذلك: أنْ يكونَ الرِّجال مُختلِطِين بالنِّساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم.

ومنها: الحِلَق يوم الجمعة لبيع الأدوية، والأطعمة، والتَّعويذات، وقيام السُّؤَّال، وإنشادهم الأشعار، ونحو هذا، فهذه منها ما هو حرامٌ، ومنها ما هو مكروهٌ.

مُنْكَرَاتُ الأَسْوَاقِ

مِن ذلك: الكَذِب في المرابَحة، وإخفاء العيب، فمَن قال: اشتريتُ هذه السِّلعة بعشرةٍ، ورابَحَ فيها درهمًا، وكان كاذبـًا، فهو فاسقٌ.

ويجب على مَن عرف ذلك أنْ يُخبِرَ المُشتري بكَذِبه، فإنْ سَكَت مراعاةً للبائع كان شريكـًا له في الخيانة، وكذلك إذا عَلم العيب، لزمه أنْ يُبيِّنَه للمُشتري، وكذلك التَّفاوُت في الميزان والذِّراع، يجب على كلِّ مَن عرفه تغييره، إمَّا بنفسه، أو بِرَفعه إلى الوالي حتى يغيِّره.

ومنها: الشُّروط الفاسدة، واستعمال الرِّبا، وبيع الملاهي، والصُّوَر المُجسَّمة، ونحو ذلك.

مُنْكَرَاتُ الشَّوَارِعِ

ومِن ذلك بِناءُ دُكَّانٍ مُتَّصِلةٍ بالأبنية المملوكة، وإخراج الأجنحة، وغرس الأشجار إذا كان ذلك يُؤدِّي إلى تَضييق الطَّريق، والإضرار بالمارَّة، فأمَّا وَضْع الحَطَب والطَّعام في الطَّريق بمِقدار ما يُنقَل إلى البيوت فجائزٌ، فإنَّ ذلك يشترك الكافَّة في الحاجة إليه.

ومِن المُنكَرات: رَبْط الدَّوابِّ على الطَّريق بحيث تَضيق وتُؤذي النَّاس، فيجب المنع مِن ذلك، إلَّا إذا كان بمقدار الحاجة للنُّزول والرُّكوب.

ومِن ذلك: تَحميل الدَّوابِّ مِن الأحمال ما لا تطيقُ، وكذلك طَرْح الكُناسة على جَوادِّ الطَّريق، وتبديد قشور البطيخ، أو رشِّ الماء، بحيث يُخشى منه الزَّلق، والماء الذي يجتمع مِن ميزابٍ مُعيَّنٍ. فأمَّا إنْ كان مِن المطر فذلك على الوُلاة، وليس للآحاد في ذلك إلَّا الوَعْظ.

منكرات الحمامات

مِن ذلك: صُوَرُ الحيوانات على باب الحمَّام أو داخلَه، ويكفي في زوال ذلك أنْ تُشوَّه وجوه الصُّور، بحيث يَبطل به تصويرها، ومَن لم يَقدِرْ على الإنكار لم يَجزْ له الدُّخول إلَّا للضَّرورة، وليَعدِلْ إلى حمَّامٍ آخَرَ.

ومِن ذلك: كَشْف العورات، والنَّظر إليها، وكَشْف المُدلِّك عن الفَخِذ، وما تحت السُّرَّة؛ لتنحية الوسخ، أو مسُّ العورة.

ومنها: غَمس اليد والأواني النَّجِسة في المياه القليلة، فإنْ فَعَل ذلك مالكيٌّ لم يُنكَرْ عليه، بل يَتلطَّف به، ويقول له: يُمكنك ألَّا تُؤذِيَني بتفويت الطَّهارة عليَّ.

منكرات الضِّيافة

ومِن ذلك: فَرْش الحرير للرِّجال، والبخور في مَجمرةٍ فضَّةٍ أو ذَهبٍ، والشُّرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما، وكذلك تعليق السُّتور وفيها الصُّور، وسَمَاع القينات والأوتار، واطِّلاع النِّساء على الشَّباب الذين تُخاف فتنتُهم، فكلُّ ذلك مُنكَرٌ يجب تغييره، ومَن عَجَز عن تغييره [وجبه له الخروج][1].

وأمَّا الصُّور على النَّمارِق والبُسط فليس بمَنكَرٍ، وكذلك الفُرُش الحرير، والذَّهب للنِّساء، فإنَّه جائزٌ، ولا رُخصةَ في تثقيب آذان الصِّبْيَة لأجل تَعليق حَلَق الذَّهب، فإنَّ ذلك جُرحٌ مُؤلِمٌ لا يجوز، وفي المَخانِق والأَسْوِرة كفايةٌ عن ذلك، والاستئجار على ذلك غيرُ صحيحٍ، والأُجرة المأخوذة عليه حرامٌ.

ومِن ذلك أنْ يكونَ في الضِّيافة مُبتَدِعٌ يَتكلَّمُ في بِدعَته، فلا يجوز الحضور معه إلَّا لمَن يَقدِر على الرَّدِّ عليه، وإنْ لم يَتكلَّم المُبتدِع جاز الحضور مع إظهار الكَراهة له، والإعراض عنه، وإنْ كان هناك مُضحِكٌ بالفُحش والكَذِب لم يَجزِ الحضور، ويجب

---

(١) ورد في " المطبوع، ن" [لزمه].

الإنكار، فإنْ كان ذلك مَزحًا لا كَذِبَ فيه ولا فُحْش، أُبيح ما يَقلُّ مِن ذلك، فأمَّا اتِّخاذه صناعةً وعادةً فيُمنَع منه.

المُنْكَرَاتُ العَامَّةُ

مَن تيقَّن أنَّ في السُّوق مُنكَرًا يَجري على الدَّوام، أو في وقتٍ معيَّنٍ، وهو قادرٌ على تغييره لم يَجُزْ له أنْ يُسقِطَ ذلك عنه بالقُعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإنْ قدر على تغيير البعض لزمه.

وحَقٌّ على كلِّ مسلمٍ أنْ يبدأ بنفسه، فيُصلحها بالمواظبة على الفرائض، وترك المُحرَّمات، ثُمَّ يُعَلِّم ذلك أَهله وأقاربه، ثُمَّ يتعدَّى إلى جيرانه وأهل مَحلَّته، ثُمَّ إلى أهل بلده، ثُمَّ إلى السَّواد كذلك إلى أقصَى العالَم، فإنْ قام بذلك الأقرب سَقَط عن الأبعد، وإلَّا خرج به كلُّ قادرٍ عليه.

الفصل الثَّاني: في أمر الأمراء والسَّلاطين بالمعروف، ونهيهم عن المُنكَر.

وقد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، والجائزة مِن ذلك مع السَّلاطين القِسمان الأوَّلان وهما: التَّعريف والوعظ، فأمَّا تخشين القول، نحو: يا ظالمُ، يا مَن لا يخاف الله، فإنْ كان ذلك يُحرِّك فتنةً يتعدَّى شَرُّها إلى الغير، لم يجز، وإنْ لم يخفْ إلَّا على نفسِه، فهو جائزٌ عند جمهور العلماء، والذي أَراه المنع مِن ذلك؛ لأنَّ المقصود إزالة المُنكَر، وحمل السُّلطان بالانبساط عليه على [أنَّ] فِعل المُنكَر أكبرُ مِن المُنكَر الذي قُصد إزالته، وذلك أنَّ قُرب السَّلاطين التَّعظيم، فإنْ سَمِعوا مِن آحاد الرعيَّة: يا ظالمُ، يا فاسقُ، رأَوا غاية الذُّلِّ لم يَصبِروا على ذلك.

قال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تتعرَّضنَّ بالسُّلطان، فإنَّ سيفه مسلولٌ[1].

(١) رواه ابن رجب في «جامع العلوم والحِكم» (٢/ ٢٤٩).

فأمَّا ما جرى مِن السَّلَف مِن التَّعرُّض لأُمرائهم فإنَّهم كانوا يَهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب.

وقد جمعتُ مواعظَ السَّلف للخلفاء والأُمراء في كتاب «المصباح المُضيء» وأنا أنتخب منه ها هنا حكاياتٍ.

قال سعيد بن عامرٍ[١] لعمرَ بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: إنِّي مُوصِيك بكلماتٍ مِن جوامع الإسلام ومعالمه: اخشَ الله في النَّاس، ولا تخشَ النَّاس في الله، ولا يُخالِف قولك فِعلك، فإنَّ خير القول ما صدَّقه الفِعل، وأحبَّ لقريب المسلمين وبعيدهم ما تُحبُّ لنفسك وأهل بيتك، وخضِ الغَمَرات إلى الحقِّ حيث عَلِمتَه، ولا تخفْ في الله لومةَ لائمٍ.

قال: ومَن يستطع ذلك يا أبا سعيدٍ؟

قال: مَن رُكِّب في عُنقه مِثل الذي رُكِّب في عُنُقِك.

وقال قتادةُ[٢]: خرج عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ مِن المسجد، ومعه الجارود، فإذا امرأةٌ بَرَزت على ظهر الطَّريق، فسلَّم عليها، فردَّت عليه، أو سلَّمت عليه، فَرَدَّ عليها، فقالت: هيه يا عمرُ، عَهِدتُكَ وأنتَ تسمَّى عُميرًا في سوق عكاظ تُصارِع الصِّبيان، فلم تذهبِ الأيَّام حتى سُمِّيتَ عمرَ، ثُمَّ لم تذهبِ الأيَّام حتى سُمِّيتَ أمير المؤمنين، فاتَّقِ الله في الرَّعيَّة، واعلم أنَّه مَن خاف الموت خشي الفوت. فبكى عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، فقال الجارود: هيه، قد اجترأتِ على أمير المؤمنين وأبكيتِه.

---

(١) سعيد بن عامرٍ القرشيُّ الجمحيُّ، مِن كبار الصَّحابة وفضلائهم، وأمُّه أروى بنت أبي معيط، أسلم قبل خيبر، وهاجر، فشهدها وما بعدها، وولَّاه عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ حمصَ، وكان مشهورًا بالخير والزُّهد، وروى عنه عبد الرَّحمن بن سابط الجمحيُّ، وأرسل عنه شهر بن حوشب وغيره. توفِّي سنة (٢٠). انظر «الإصابة»، ابن حَجرٍ العسقلانيُّ (٣/ ٩٢)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٣/ ٩٧).

(٢) قتادةُ بن دعامةَ بن قتادةَ بن عُزيزٍ السَّدوسيُّ البصريُّ، أبو الخطَّاب، مفسِّرٌ حافظٌ، قال الإمام أحمدُ بن حنبلٍ: قتادةُ أحفظ أهل البصرة. توفِّي سنة (١١٨هـ). انظر «تذكرة الحفَّاظ»، الذَّهبيُّ، (١/ ١٢٢)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ١٨٩).

فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دعها، أَمَا تعرف هذه؟ هي خولةُ بنت حكيمٍ[١] التي سَمع الله قولها مِن فوق سماواته، فعُمرُ والله أحرَى أنْ يَسمع كلامها[٢].

ودخل شيخٌ مِن الأَزد على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: اتَّقِ الله يا معاويةُ، واعلم أنَّك كلَّ يومٍ يخرج عنك، وفي كلِّ ليلةٍ تأتي عليك لا تَزداد مِن الدُّنيا إلَّا بُعدًا، ومِن الآخرة إلَّا قُربًا، وعلى إثرك طالبٌ لا تُفوِّتْه، وقد نُصب لك عَلمٌ لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العَلم، وما أوشك أنْ يلحقك الطَّالب، وإنَّا وما نحن فيه وأنتَ زائلٌ، والذي نحن صائرون إليه باقٍ، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

ودخل سليمانُ بن عبد الملك[٣] المدينة، فأقام بها ثلاثًا، فقال: ما ها هنا رجلٌ ممَّن أدرك أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحدِّثنا؟

فقيل له: ها هنا رجلٌ يُقال له: أبو حازمٍ.

فبعث إليه، فجاء، فقال سليمان: يا أبا حازمٍ، ما هذا الجفاء؟

فقال له أبو حازمٍ: وأيُّ جفاء رأيتَ منِّي؟

فقال له: أتاني وجوه المدينة كلُّهم ولم تأتِني؟!

فقال: ما جرى بيني وبينك معرفةٌ آتيكَ عليها.

قال: صدق الشَّيخ، يا أبا حازمٍ، ما لنا نكره الموت؟

---

(١) خولةُ بنت مالكٍ، بن ثعلبة، ويقال: خولةُ بنت حكيمٍ امرأةُ أوس بن الصَّامت، قالت: فيَّ واللَّهِ وفي أوس بن الصَّامت أنزل اللَّه عَزَّوَجَلَّ صدر سورة المجادلة، قال أبو عمرَ: هكذا في الخبر خولةُ بنت حكيم امرأة عُبادة، وهو وَهمٌ. يعني في اسم أبيها وزوجها. انظر «الإصابة»، ابن حَجرٍ العسقلانيِّ، (٨/ ١١٤).

(٢) رواه القرطبيُّ في «الاستيعاب» (٤/ ١٨٣١).

(٣) سليمانُ بن عبد الملك بن مروانَ الأمويُّ، الخليفة، أبو أيُّوبَ القُرشيِّ، وُلد سنة (٥٤هـ)، وبُويع له بعد أخيه الوليد سنة ستٍّ وتسعين، كان دَيِّنًا، فصيحًا، مفوَّهًا، عادلًا، محبًّا للغزو، وتوفِّي سنة (٩٩هـ). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٥/ ١١٣)، «الأعلام» (٣/ ١٣٠).

قال: لأنَّكم عَمَرتُم دُنياكم، وخربتم آخِرَتكم، فأنتم تكرهون أنْ تنتقلوا مِن العمران إلى الخراب.

قال: صدقتَ يا أبا حازمٍ، فكيف القُدوم على الله تعالى؟

قال: أمَّا المُحسِن فكالغائب يقدم على [أهله][1]، وأمَّا المُسيء فكالآبق يقدم على مولاه خائفًا محزونًا.

فبكى سليمانُ، وقال: ليتَ شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟

فقال أبو حازمٍ: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنَّك تعلم ما لك عند الله.

قال: يا أبا حازمٍ، وأنَّى أُصيب تلك المعرفة مِن كتاب الله؟

قال: عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار: ١٣، ١٤].

قال: يا أبا حازمٍ، فأين رحمة الله؟

قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال: يا أبا حازمٍ، مَن أعقلُ النَّاس؟

قال: مَن تعلَّم الحكمة، وعلَّمها النَّاس.

قال: فمَن أحمقُ النَّاس؟

قال: مَن حَطَّ نفسه في هوى رجلٍ وهو ظالمٌ، فباع آخرته بدُنيا غيرِه.

قال: يا أبا حازمٍ، فما أسمعُ الدُّعاء؟

قال: دعاء المُخبتِين.

---

(١) ورد في "المطبوع" [فرحًا مسرورًا].

قال: فما أزكى الصَّدقة؟

قال: جُهد المُقِلِّ.

قال: يا أبا حازمٍ، ما تقوله فيما نحن فيه؟

قال: اعفني مِن هذا.

قال سليمانُ: نصيحةٌ تُلقيها.

قال أبو حازمٍ: إنَّ ناسًا أَخَذوا هذا الأمر عَنوَةً مِن غير مُشاوَرة المسلمِين، ولا إجماعٍ مِن رأيهم، فسَفَكوا فيه الدِّماء على طلب الدُّنيا، ثُمَّ ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟

فقال بعض جلسائهم: بئسَ ما قلتَ يا شيخُ.

فقال أبو حازمٍ: كذبتَ، إنَّ الله أَخَذ ميثاق العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للنَّاس، ولا يكتمونه.

قال سليمانُ: يا أبا حازمٍ، اصحبنا تُصيب منَّا، ونُصيب منكَ.

قال: أعوذ بالله مِن ذلك.

قال: ولم؟

قال: أخاف أنْ أركنَ إليكم شيئًا قليلًا، فيُذيقني ضِعف الحياة، وضِعف الممات.

قال: فأَشِرْ عليَّ.

قال: اتَّقِ الله أنْ يراكَ حيث نهاكَ، أو يفقدكَ حيث أَمَركَ.

قال: يا أبا حازمٍ، ادع لنا بخيرٍ.

فقال: اللَّهمَّ إنْ كان سليمانُ وليُّكَ فيَسِّره للخير، وإنْ كان غيرَ ذلك، فخُذْ إلى الخير بناصيته.

فقال: يا غلامُ، هات مائة دينارٍ.

ثُمَّ قال: خُذ هذا يا أبا حازم.

قال: لا حاجةَ لي به، لي ولغيري في هذا المال أُسوةٌ، فإنْ [آسيتَ][(١)] بيننا وإلاَّ فلا حاجةَ لي فيها، إنِّي أخاف أنْ يكونَ لِمَا سمعتَ مِن كلامي.

فكأنَّ سليمانُ أُعجب بأبي حازمٍ، فقال الزُّهريُّ: إنَّه لَجاري منذ ثلاثين سنةً، ما كلَّمتُه قطُّ.

فقال أبو حازمٍ: إنَّك نسيتَ الله فنسيتَني.

قال الزُّهريُّ: أَتَشتِمُني؟

قال سليمانُ: بل أنتَ شَتَمتَ نفسك، أَمَا عَلِمتَ أنَّ للجار على الجار حقًّا؟

قال أبو حازمٍ: إنَّ بني إسرائيلَ لمَّا كانوا على الصَّواب كانت الأُمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تَفِرُّ بدِينها منهم، فلمَّا رأى ذلك قومٌ مِن أذلَّة النَّاس تعلَّموا ذلك العِلم، وأَتَوا به الأُمراء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وانتكسوا، ولو كان العلماء يَصونون دِينهم وعِلمهم، لم تَزَلِ الأُمراء تَهابُهم.

قال الزُّهريُّ: كأنَّك إيايَّ تُريد، وبي تُعرِّض؟

قال: هو ما تسمع[(٢)].

وحُكي أنَّ أعرابيًّا دخل على سليمانَ بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنِين، إنِّي مُكلِّمُك بكلامٍ، فاحتمله، وإنْ كرهتَه فإنَّ وراءه ما تحبُّ إنْ قبلتَه.

---

(١) ورد في " المطبوع " [واسيتَ].

(٢) ذكره الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر الكلام» (٨/ ١٤٩)، وأخرجه أبو نُعيمٍ في «الحلية» مختصرًا (٣/ ٢٣٤).

قال: قلْ.

قال: يا أميرَ المؤمنِين، إنَّه قد اكتنفكَ رجالٌ ابتاعوا دُنياكَ بدِينِهم، ورضاكَ بسخط ربِّهم، خافوك في الله، ولم يَخافوه فيكَ، خرَّبوا الآخرة، وعَمَّروا الدُّنيا، فهم حربٌ للآخرة، سلمٌ للدُّنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنَّهم لم يألوا الأمانة تضييعًا، والأُمَّة خسفًا، وأنتَ مسؤولٌ عمَّا اجترحوا، وليسوا بمسؤولِين عمَّا اجترحتَ، فلا تُصلحْ دُنياهم بفساد آخرتك، فإنَّ أعظم النَّاس غُبنًا بائعُ آخرتِه بدُنيا غيرِه.

فقال سليمانُ: أمَّا أنتَ فقد سَلَلتَ لسانك، وهو أَقطعُ مِن سيفكَ.

فقال: أجل يا أمير المؤمنِين، لكَ لا عليكَ.

قال: فهل مِن حاجةٍ في ذات نفسكَ؟

قال: أمَّا خاصَّةٌ دون عامةٍ فلا. ثُمَّ قام فخرج.

فقال سليمانُ: لله دَرُّه ما أَشرفَ أصله، وأجمعَ قلبه، وأذربَ لسانه، وأصدقَ نيَّته، وأورعَ نَفْسه، هكذا فليكنِ الشَّرف والعقل.

وقال عمرُ بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأبي حازم: عِظني.

فقال: اضطجع، ثُمَّ اجعلِ الموت عند رأسكَ، ثُمَّ انظر ما تُحبُّ أنْ يكون فيكَ تلك السَّاعة فخُذ فيه الآن، وما تَكره أنْ يكونَ فيكَ تلك السَّاعة فدَعه الآن(١).

وقال محمَّد بن كعبٍ لعمرَ بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنَّما الدُّنيا سُوقٌ مِن الأسواق، منها خرج النَّاس بما يضرُّهم وما ينفعهم، وكم مِن قومٍ غرَّهم منها مِثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت، فاستوعبهم، فخرجوا منها مَلومِين، لم يأخذوا منها لِمَا أحبُّوا مِن الآخرة عُدَّةً، ولا لِمَا كرهوا منها جُنَّةً، واقتسم ما جَمعوا مَن لم يحمدهم،

---

(١) أخرجه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٥/ ٣١٧).

وصاروا إلى مَن لا يعذرهم، فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أنْ ننظرَ إلى تلك الأعمال التي نَغبِطهم بها فنخلُفُهم فيها، وإلى الأعمال التي نتخوَّف عليهم فيها فنكفُّ عنها، فاتَّقِ الله، وافتح الأبواب، وسهِّلِ الحِجاب، وانصر المظلوم، ورُدَّ المَظالِم.

ثلاثٌ مَن كنَّ فيه استكمل الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ: إذا رضي لم يُدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه مِن الحقِّ، وإذ قدر لم يتناوَلْ ما ليس له(١).

ودخل عطاء بن أبي رباحٍ(٢) على هشامٍ، فرحَّب به، وقال: ما حاجتك يا أبا محمَّدٍ؟ وكان عنده أشراف النَّاس يتحدَّثون، فسكتوا، فذَكَّره عطاءٌ بأرزاق أهل الحرمَين وعطيَّاتهم، فقال: نعم، يا غلامُ، اكتب لأهل المدينة وأهل مكَّةَ بعطاء أرزاقهم، ثُمَّ قال: يا أبا محمَّدٍ هل مِن حاجةٍ غيرها؟ فقال: نعم، فذَكَّره بأهل الحِجاز، وأهل نَجْدٍ، وأهل الثُّغور، ففعل مِثل ذلك، حتى ذَكَّره بأهل الذِّمَّة ألَّا يُكلَّفوا ما لا يُطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثُمَّ قال له في آخِر ذلك: هل مِن حاجةٍ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتَّقِ الله في نفسكَ، فإنَّكَ خُلِقتَ وحدكَ، وتموت وحدكَ، وتُحشر وحدكَ، وتُحاسب وحدكَ، لا والله ما معكَ ممَّن ترى أَحدٌ.

قال: فأكبَّ هشامٌ يبكي، وقال عطاءٌ، فلمَّا كان عند الباب إذا رجلٌ قد تَبِعه بكيسٍ ما ندري ما فيه، أدراهمُ أم دنانيرُ؟ وقال: إنَّ أمير المؤمِنين قد أَمر لك بهذا. فقال: لا أسألكم عليه أجرًا، إنْ أَجرِي إلَّا على ربِّ العالَمِين، ثُمَّ خرج، ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماءٍ فما فوقها.

---

(١) أخرجه الدِّينوريُّ مختصرًا في «المجالسة وجواهر الكلام» (٣/ ٢٠).

(٢) عطاء بن أبي رباح القرشيُّ مولاهم، ولد في أثناء خلافة عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، حدَّث عن عائشةَ، وأمِّ سلمةَ، وأمِّ هانئٍ، وأبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ وغيرهم من الصحابة والتابعين، وحدَّث عنه خلق كثير منهم مجاهد بن جبرٍ، وأبو إسحاقَ السَّبيعيَ وغيرهما، كان عطاءٌ أسودَ، أعورَ، أفطسَ، أشلَّ، أعرجَ، ثُمَّ عمي، وكان ثقةً، فقيهًا، عالِمًا، كثير الحديث، توفِّي سنة (١٧). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٧٨).

وعن محمَّد بن عليٍّ قال: إنِّي لحاضرٌ مَجلسَ المنصور، وفيه ابن أبي ذئبٍ[(١)]، وكان والي المدينة الحسن بن زيد[(٢)]، فأتى الغِفاريُّون فشَكَوا إلى أبي جعفرٍ المنصور شيئًا مِن أمر الحسن بن زيدٍ، فقال الحسن: يا أمير المؤمنِين، سل عنهم ابن أبي ذئبٍ، قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنَّهم أهل الحطم في أعراض النَّاس.

فقال أبو جعفرٍ: سمعتُم؟ فقال الغِفاريُّون: يا أمير المؤمنِين، فسله عن الحسن بن زيدٍ، فسأله، فقال: أشهد أنَّه يَحكم بغير الحقِّ، فقال: قد سمعتَ يا حسنُ؟ قال: يا أمير المؤمنِين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول فِيَّ؟ قال: أَوَيعفيني أمير المؤمنِين؟ فقال: والله لَتُخبِرَنِّي، فقال: أشهد أنَّك أَخذت هذا المال مِن غيرِ حقِّه، وجَعلتَه في غير أهله، فوَضَع يده في قفاء ابن أبي ذئبٍ، وجعل يقول له: أَمَا والله لولا أنا لأَخذت أبناء فارسَ والرُّوم والدَّيلم والتُّرك بهذا المكان منكَ.

فقال ابن أبي ذئبٍ: قد ولي أبو بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأخذا بالحقِّ، وقَسَما بالسَّويَّة، وأَخذا بأقفاء فارسَ والرُّوم، فخلَّاه أبو جعفرٍ، وقال: والله لولا أنِّي أعلم أنَّك صادقٌ لقتلتُكَ. فقال: والله يا أمير المؤمنِين إنِّي أَنصحُ لك مِن ابنك المهديِّ[(٣)].

---

(١) محمَّد بن عبد الرَّحمن العامريُّ، ابن أبي ذئبٍ، سمع من عكرمةَ، وشرحبيلَ بن سعدٍ، وسعيدٍ المَقبُريِّ، وغيرهم، وحدَّث عنه ابن المبارك، ويحيى بن سعيد القطانُ وغيرهما، توفِّي سنة (١٥٨). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٧/ ١٣٩)، «تهذيب التَّهذيب»، ابن حَجرٍ العسقلانيُّ، (ص٤٩٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٦/ ١٨٩).

(٢) الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل الزيدي الأمير، صاحب جرجان، ووالد السَّيِّدة نفيسة، كان مِن الأشراف النَّابهِين، شيخ بني هاشمٍ في زمانه، استعمله المنصور على المدينة خمس سنين، ثُمَّ عزله، وخافه على نفسه فحبسه ببغداد، فلمَّا ولي المهديُّ أخرجه، واستبقاه معه، مولده في المدينة، ووفاته بالحاجر (على خمسة أميال منها) في طريقه إلى الحجِّ مع المهديِّ، توفِّي سنة (١٦٨). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٣/ ١٣٦)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ١٩١).

(٣) رواه أبو جعفر الضبي في بغية الملتمس (ص٤٠٦)، والأوزاعيُّ هو عبد الرَّحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعيُّ، مِن قبيلة الأوزاع، أبو عمرٍو، إمام الدِّيار الشَّاميَّة في الفقه والزُّهد، وأحد الكتَّاب المترسِّلِين، له كتاب «السُّنن» في الفقه، و«المسائل» ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب=

وعن الأوزاعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال[١]: بعث إليَّ المنصور وأنا بالسَّاحل، فأتيتُه، فلمَّا وصلتُ إليه، وسلَّمتُ عليه استجلسني، ثُمَّ قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعيُّ؟

قلتُ: وما الذي تُريد يا أميرَ المؤمنين؟

قال: أُريد الأخذ عنكم، والاقتباس منكم.

قلتُ: فانظر يا أميرَ المؤمنِين أنْ تسمعَ شيئًا، ثُمَّ لا تعمل به.

فصاح بي الرَّبيع، وأهوى بيده إلى السَّيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مَجلس مثوبةٍ، لا مجلسُ عقوبةٍ، فطابت نفسي، وانبسطتُ في الكلام، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنِين، حدَّثني مكحولٌ[٢]، عن عطيَّة بن بِشرٍ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيُّما والِدٍ مات غاشًّا لِرَعيَّتِه حَرَّمَ اللهُ عَليهِ الجَنَّةَ**»[٣]. يا أميرَ المؤمنِين، كنتَ في شُغل شاغلٍ مِن خاصَّة نفسك عن عامَّة النَّاس الذين أَصبحتَ تملكهم، أحمرهم، وأسودهم، ومسلمهم، وكافرهم، وكلٌّ له عليك نصيبٌ مِن العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فئامٌ وراء فئاتٍ، ليس منهم أَحدٌ إلَّا وهو يشكو بليَّةً أدخلتَها عليه، أو ظُلامةً سُقتها إليه، يا أمير المؤمنِين، حدَّثني مكحولٌ، عن زياد بن حارثةَ، عن حبيب بن سلمةَ، أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

= عليها كلِّها، ولد في بعلبكَّ، ونشأ في البِقاع، وسكن بيروت، وتوفِّي بها سنة (١٥٧). انظر تقريب التَّهذيب، ابن حجرٍ العسقلانيُّ، (ص٣٤٧)، الأعلام، الزِّركليُّ، (٣/ ٣٢٠).

(١) خرَّج القصَّة الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٢٦٣)، وقال: رواها ابن أبي الدُّنيا في كتاب «مواعظ الخلفاء»، وفي إسنادهما أحمدُ بن عبيد بن ناصحٍ، قال ابن عديٍّ: يُحدِّث بمناكيرَ، وهو عندي مِن أهل الصِّدق.

(٢) مكحول بن أبي مسلمٍ الدِّمشقيُّ، أبو عبد الله، أرسل عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث، وأرسل عن عدَّةٍ مِن الصَّحابة لم يدركهم كأُبَيِّ بن كعبٍ، وثوبانَ، وغيرهم، وحدَّث عن واثلةَ بن الأسقع، وأبي أُمامةَ الباهليِّ، وأنس بن مالكٍ وغيرهم، توفِّي سنة (١١٢). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ١٥٥)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٢٨٤).

(٣) روى نحوه ابن عديٍّ في «الكامل» (٦/ ٢٠٧٤)، وقال العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٥/ ٢٦٤): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في مواعظ الخلفاء.

دعا إلى القِصاص مِن نفسه -في خَدشٍ خَدَشَه- أعرابيًّا لم يتعمَّدْه، فأتاه جبريلُ فقال: يا محمَّدُ، إنَّ الله تعالى لم يبعثْكَ جبَّارًا ولا متكبِّرًا، فدعا عليه الصلاة والسلام الأعرابيَّ، فقال: «اقتَصَّ مِنِّي»، فقال الأعرابيُّ: قد أحللتُك بأبي أنتَ وأُمِّي، وما كنتُ لأفعلَ ذلك أبدًا، ولو أتيتُ على نفسي. فدعا له بخيرٍ[1]، يا أميرَ المؤمنِين، رضِّ نفسك لنفسك، وخُذ لها الأمان مِن ربِّك.

يا أميرَ المؤمنِين، إنَّ المُلك لو بقي لمَن قَبلك لم يصلْ إليكَ، وكذلك لا يبقى لك كما لم يبقَ لغيرك.

يا أميرَ المؤمنين، جاء في تأويل هذه الآية عن جدِّك: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] قال: الصَّغيرة التَّبسُّم، والكبيرة الضَّحك، فكيف بما عَمِلَتْه الأيدي، وحَصَدتْه الألسن.

يا أميرَ المؤمنِين، بلغني أنَّ عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلةٌ على شاطئ الفرات ضيعةً، لخشيتُ أنْ أُسألَ عنها، فكيف بمَن حُرِم عدلك، وهو على بِساطك؟

يا أميرَ المؤمنِين، جاء في تأويل هذه الآية عن جَدِّك: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦] قال: إذ قعد الخصمان بين يدَيك، وكان لك في أحدهما هوًى، فلا تتمنَّينَّ في نفسك أنْ يكونَ الحقُّ له فليفلج على صاحبه، فأمحوكَ مِن نُبوَّتي، ثُمَّ لا تكون خليفتي، يا داوُدُ، إنَّما جَعلت رُسلي إلى

---

(١) قال الحافظ العراقي في «المغني» (٥/ ٢٦٧): أخرجه ابن أبي الدُّنيا، وروى أبو داودَ والنَّسائيُّ مِن حديث عمرَ رضي الله عنه قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتصَّ مِن نفسه. وللحاكم مِن رواية عبد الرَّحمن بن أبي ليلى عن أبيه: طَعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاصرة أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله عنه، فقال: أوجعتني. قال: اقتص... الحديث. قال: صحيح الإسناد.

عِبادي رعاءً كرعاء الإبل لعِلمهم بالرِّعاية، ورِفقهم بالسِّياسة، ليَجبُروا الكسير، ويدلُّوا الهزيل على الكلأ والماء.

يا أميرَ المؤمنِين، إنَّك قد بُليت بأمرٍ لو عُرِض على السَّموات والأرض والجبال لأَبَينَ أنْ يَحملنَه، وأشفقنَ منه.

يا أميرَ المؤمنِين، حدَّثني يزيدُ بن جابرٍ، عن عبد الرَّحمن بن أبي عميرةَ الأنصاريِّ أنَّ عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعمل رجلًا مِن الأنصار على الصَّدقة، فرآه بعد أيَّامٍ مُقيمًا، فقال له: ما منعك مِن الخروج إلى عَمَلِك؟ أَمَا عَلِمت أنَّ لك مِثل أجر المجاهِدِين في سبيل الله؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّه بَلَغني أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما مِن والٍ يَلِي شَيئًا مِن أُمُورِ النَّاسِ إلَّا أُتِيَ يَومَ القِيامَةِ مَغلُولَةٌ يَداهُ إلى عُنُقِه، يُوقَفُ عَلى جِسرِ جَهَنَّمَ، يَنتَفِضُ بِه ذَلكَ الجِسرُ انتِفاضَةً تُزِيلُ كُلَّ عُضوٍ مِنهُ عَن مَوضِعِهِ، ثُمَّ يُعادُ فيُحاسَبُ، فإنْ كانَ مُحسِنًا نَجا بِإحسَانِه، وإنْ كانَ مُسِيئًا انخَرَقَ بِه ذَلكَ الجِسرُ، فَهَوَى بِه في النَّار سَبعِينَ خَرِيفًا**»[١]. فقال له: ممَّن سمعتَ هذا؟ فقال: مِن أبي ذرٍّ وسلمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأَرسَل إليهما عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسألهما، فقالا: نعم، سمعناه مِن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: واعمراه مَن يتولَّاها بما فيها؟ فقال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن سَلَتَ[٢] الله أنفه، وألصق خَدَّه بالأرض، فأَخَذ المنديل -يعني المنصور- فوَضَعه على وجهه، ثُمَّ بكى، وانتحب، حتى أبكاني، ثُمَّ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، قد سأل جَدُّك العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمارةً على مكَّةَ والطَّائف واليمن، فقال له النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عَمُّ، نَفْسٌ تُنجِيها خَيرٌ مِن إمارَةٍ لا تُحصِيها**»[٣]. نصيحةً منه لعمِّه،

---

(١) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٢٦٩): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «مواعظ الخُلفاء» مِن هذا الوجه، ورواه الطَّبرانيُّ مِن رواية سويد بن عبد العزيز، عن يسار بن أبي الحَكم، عن أبي وائل أنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعمل بِشر بن عاصمٍ، فذكَر أخصر منه. وأنَّ بِشرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمعه مِن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذكَر فيه سلمانَ.

(٢) سَلَتَ أنفه: أَجدَعه. «لسان العرب» مادة (سلت).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٠٢٤)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٣٢١١)، والنَّسائيُّ في=

وشفقةً منه عليه، وأَخبَره أنَّه لا يُغني عنه مِن الله شيئًا إذ أوحي إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: «**يا عَبَّاسُ، ويا صَفِيَّةُ، ويا فاطِمةُ، إنِّي لَستُ أُغني عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا، لِي عَمَلِي، ولكُم عَمَلُكُم**»[١]. وقد قال عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا يُقيم أمر النَّاس إلَّا حصيفُ العقل، لا تَأخُذه في الله لومةُ لائمٍ، وذَكَر تمام كلامه للمنصور، ثُمَّ قال: فهي نصيحةٌ، والسَّلام عليكَ، ثُمَّ نَهض، فقال: إلى أين؟ فقال: إلى الوطن بإذن أمير المؤمنِين. فقال: أذنتُ لك، وشكرتُ لك نصيحتَكَ، وقَبِلتُها بقَبولها، والله المُوفِّق للخير، والمُعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكَّل، وهو حسبي ونِعْم الوكيل، فلا تُخلني مِن مُطالَعتك إيَّاي بمِثلها، فإنَّك المقبول القول غير المُتَّهَم في النَّصيحة.

قلتُ: أفعل إنْ شاء الله، فأَمَر له بمالٍ يستعين به على خُروجه، فلم يقبلْه، وقال: أنا في غنًى عنه، وما كنتُ لأبيع نصيحتي بعرض الدُّنيا كلِّها، وعَرف المنصور مَذهَبه، فلم يَجدْ عليه في رَدِّه[٢].

ولمَّا حجَّ الرَّشيد[٣] ....

= «الكبرى» (٢٠٧١١)، وقال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٢٧٠): أخرجه ابن أبي الدُّنيا هكذا معضَلًا بغير إسنادٍ، ورواه البيهقيُّ مِن حديث جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ متَّصِلًا، ومِن رواية ابن المنكدِر مرسَلًا، وقال: هذا هو المحفوظ مرسَلًا.

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٦٢١)، والبخاريُّ (٢٦٠٢)، وقال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٢٧١): أخرجه ابن أبي الدُّنيا هكذا معضَلًا دون إسنادٍ، ورواه البخاريُّ مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ متَّصِلًا دون قوله: «**لِي عَمَلِي، وَلَكُم عَمَلُكُم**».

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٠٢٤)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٦/ ١٣٦).

(٣) هارون الرَّشيد بن محمَّد المهدي ابن المنصور العباسيُّ، أبو جعفرٍ، خامس خلفاء الدَّولة العباسيَّة في العراق، وأشهرهم، ولد بالرَّيِّ لمَّا كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان، ونشأ في دار الخلافة ببغداد، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة (١٧٠هـ) فقام بأعبائها، وازدهرت الدَّولة في أيامه، كان يلقَّب بجبَّار بني العبَّاس، حازمًا كريمًا متواضِعًا، يحجُّ سنةً، ويغزو سنةً، لم يُرَ خليفةٌ أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفةٍ ما اجتمع على بابه مِن العلماء والشُّعراء والكتَّاب والنُّدماء، توفِّي سنة (١٤٩). انظر «البداية والنِّهاية»، ابن كثير، (١٠/ ٢١٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ٦٢).

قيل له: يا أميرَ المؤمنِين، قد حجَّ شيبانُ[١]، قال: اطلبوه لي، فأَتوه به، فقال: يا شيبانُ، عِظني، قال: يا أميرَ المؤمنِين، أنا رجلٌ ألكن، لا أُفصح بالعربيَّة، فجئني بمَن يَفهم كلامي حتى أُكلِّمه، فأُتي برَجلٍ يفهم كلامه، فقال له بالنَّبطيَّة: قل له: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الذي يُخوِّفُك قَبل أنْ تبلغَ المأمن أَنصحُ لك مِن الذي يُؤمِّنك قَبل أنْ تَبلغ الخوف. قال له: أيُّ شيءٍ تفسير هذا؟

قال: قل له: الذي يقول لك: اتَّقِ الله فإنَّك رَجلٌ مسؤولٌ عن هذه الأُمَّة، استرعاكَ الله عليها، وقلَّدك أُمورها، وأنتَ مسؤولٌ عنها، فاعدل في الرَّعيَّة، واقسم بالسَّويَّة، وانفذ في السَّريَّة، واتَّق الله في نفسك، هذا الذي يخوِّفكَ، فإذا بلغتَ المأمن أَمِنتَ، هذا أَنصحُ لك ممَّن يقول: أنتم أهل بيتٍ مغفورٌ لكم، وأنتم قرابةُ نبيِّكم وفي شفاعته، فلا يزال يُؤمِّنكَ حتى إذا بلغتَ الخوف عطبتَ، قال: فبكى هارونُ حتى رَحِمه مَن حوله، ثُمَّ قال: زِدْني، قال: حَسبُك.

وعن علقمةَ بن أبي مرثدٍ، قال: لمَّا قدم عمرُ بن هبيرةَ[٢] العراق، أَرسَل إلى الحسن وإلى الشَّعبيِّ، فأَمَر لهما ببيتٍ، فكانا فيه نحوًا مِن شهرٍ، ثُمَّ دخل عليهما، وجلس مُعظِّمًا لهما، فقال: إنَّ أميرَ المؤمنين يزيدَ بن عبد الملك[٣] يكتب إليَّ كُتبًا، أَعرِفُ

---

(١) شيبانُ بن عبد الرَّحمن التَّميميُّ بالولاء، أبو معاوية، مؤدِّبٌ مِن رجال الحديث والعربيَّة، روى عن الحسن البصريُّ، ويحيى بن أبي كثير وغيرهما، وعنه أبو حنيفةَ، وعبد الرَّحمن بن مهديٍّ وغيرُهما، وُلد بالبصرة، وسكن الكوفة، له كتابٌ في الحديث، توفِّي في بغدادَ سنة (١٦٤). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٧/ ٦٠٤)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٨٠).

(٢) عمرُ بن هبيرةَ بن سعد بن عديٍّ الفزاريُّ، أبو المثنَّى، أميرٌ مِن الدُّهاة الشُّجعان، كان رجل أهل الشَّام، وهو بدويٌّ أُمِّيٌّ، صحب عمرو بن معاويةَ العقيليَّ في سيره لغزو الرُّوم، فأظهر بسالةً، وشارك في مقتل مطرف بن المغيرة المناوئ للحجَّاج الثَّقفيِّ، وأخذ رأسه، فسيَّره به الحجَّاج إلى عبد الملك بن مروان، فسُرَّ به عبد الملك، وأقطعه إقطاعًا ببرزة مِن قرى دمشقَ، ولمَّا صارت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ولَّاه الجزيرة، فتوجَّه إليها، وغز الرُّوم مِن ناحية أرمينيةَ، فهزمهم، وأسر منهم خلقًا كثيرًا، توفِّي نحو سنة (١١٠). انظر «الكامل»، ابن الأثير (٥/ ٣٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ٦٨).

(٣) يزيدُ بن عبد الملك بن مروانَ، أبو خالدٍ مِن ملوك الدَّولة الأمويَّة في الشَّام، وُلد في دمشقَ، وولي=

أنَّ في إنفاذها الهَلَكة، فإنْ أطعتُه عصيتُ الله، وإنْ عصيتُه أطعتُ الله، فهل تَريان في مُتابَعتي إيَّاه فَرجًا؟ فقال الحسن: يا أبا عمرٍو، أَجِب الأمير، فتكلَّم الشَّعبيُّ، فانحطَّ في أَمر ابن هبيرةَ، كأنَّه عَذَره، فقال: ما تقول أنتَ يا أبا سعيدٍ؟ قال: أيُّها الأمير، فقد قال الشَّعبيُّ ما قد سمعتَ، فقال: ما تقول أنتَ؟ قال: أقول: يا عمرَ بن هبيرةَ، يُوشك أنْ ينزلَ بك مَلَكٌ مِن ملائكة الله تعالى، فظٌّ غليظٌ لا يَعصي الله ما أَمَره، فيُخرجك مِن سعة قَصرِك إلى ضِيق قَبرك.

يا عمرَ بن هبيرةَ، إنْ تتَّق الله يَعصمْك مِن يزيدَ بن عبد الملك، ولن يعصمَك يزيدُ بن عبد الملك مِن الله تعالى.

يا عمرَ بن هبيرةَ، لا تأمنْ أنْ ينظرَ الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيدَ بن عبد الملك، فيُغلِق به باب المغفرة دونك.

يا عمرَ بن هبيرةَ، لقد أدركتُ ناسًا مِن صدر هذه الأُمَّة، كانوا عن الدُّنيا وهي مُقبِلةٌ عليهم أشدَّ إدبارًا مِن إقبالكم عليها، وهي مُدبِرةٌ عنكم.

يا عمرَ بن هبيرةَ، إنِّي أُخوِّفك مَقامًا خوَّفكَهُ الله تعالى فقال: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [ابراهيم: ١٤]، يا عمرَ بن هبيرةَ، إنْ تكُ مع الله في طاعته كفاك يزيدَ بن عبد الملك، وإنْ تكُ مع يزيدَ بن عبد الملك على معاصي الله وَكَلَك الله إليه. فبكى عمرُ بن هبيرةَ، وقام بعَبرته، فلمَّا كان مِن الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشَّعبيِّ

= الخلافة بعد وفاة عمرَ بن عبد العزيز سنة (١٠١) هـ بعهدٍ مِن أخيه سليمانَ بن عبد الملك، وكانت في أيَّامه غزواتٌ أعظمها حرب الجراح الحكمي مع التُّرك وانتصاره عليهم، وخرج عليه يزيدُ بن المهلَّب بالبصرة، فوجَّه إليه أخاه مسلمةَ، فقتله. وكان أبيض جسيمًا مدوَّر الوجه مليحه، فيه مروءةٌ كاملةٌ، مع إفراط في الانصراف إلى اللَّذَّات، ومات في إربد مِن بلاد الأردن أو الجولان سنة (١٠٥)، بعد موت قينة له اسمها حبابة بأيَّامٍ يسيرةٍ. انظر «الطَّبقات»، ابن سعدٍ، (٨/ ٣٤٨)، «الأعلام»، الزركلي، (٨/ ١٨٥).

بعض الإقتار، فخرج الشَّعبيُّ إلى المسجد، فقال: أيُّها النَّاس، مَن استطاع منكم أنْ يُؤثِر الله تعالى على خَلْقه، فليَفعَل، فوالذي نفسي بيده، ما عَلِم الحسن شيئًا منه فجهلتُه، ولكنِّي أردتُ وجه ابن هبيرةَ، فأقصاني الله منه[١].

ودخل محمَّد بن واسعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] على بلال بن أبي بردةَ[٣] في يومٍ حارٍّ، وبلالٌ في حبشةٍ، وعنده الثَّلج، فقال له: يا أبا عبد الله، كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إنَّ بيتك لَطيِّبٌ، والجَنَّة أطيبُ منه، وذِكْر النَّار ينهي عنه.

قال: ما تقول في القدر؟

قال: جيرانك أهل القُبور، ففكِّر فيهم، فإنَّ فيهم شُغلًا عن القدر، قال: ادع الله لي. قال: وما تصنع بدعائي؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنَّك ظلمتَهم، يُرفع دعاؤهم قَبل دعائي، لا تَظلم، ولا تَحتاج لدعائي.

فهذا مُختصَرٌ مِن أخبار مِن وعظ الأمراء، فمَن أراد الزِّيادة، فلينظر في «المصباح المُضيء».

وهذه كانت سِيَر العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المُنكَر، وقِلَّة مبالاتهم بسطوات السَّلاطين إيثارًا لإقامة حقِّ الله تعالى على تقاتهم، إلَّا أنَّ السَّلاطين كانوا يَعرفون حقَّ العِلم وفَضْله، فيَصبرون على مَضضِ مواعظ هؤلاء.

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ١٤٩).

(٢) محمَّد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزديُّ، حدَّث عن أنس بن مالكٍ، وعبيد بن عميرٍ، ومطرف بن الشِّخِّير وغيرهم، وحدَّث عنه سفيانُ الثَّوريُّ، ومَعمَرٌ، وحمَّاد بن سلمةَ، توفِّي سنة (١٢٣). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٦/ ١١٩)، الأعلام، الزركلي، (٧/ ١٣٣).

(٣) بلال بن أبي بردةَ عامرِ بن أبي موسى الأشعريُّ، أمير البصرة وقاضيها، كان راويةً فصيحا أديبًا، ولاَّه خالد القسريُّ سنة (١٠٩هـ) فأقام إلى أنْ قدم يوسف ابن عمرَ الثَّقفيُّ سنة (١٢٥هـ)، فعزله وحبسه، فمات سجينًا، كان ثقةً في الحديث، ولم تُحمد سيرته في القضاء توفِّي سنة (١٢٦). انظر «تهذيب التَّهذيب، ابن حَجرِ العسقلانيُّ، (١/ ٥٠٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ٧٢).

والذي أراه الآن الهرب مِن السَّلاطين، فهو الأولى، فإنْ قدِّر لقاءٌ اقتنع بلُطف الموعظة حسب.

ولذلك سببان:

أحدهما: يتعلَّق بالواعظ، وهو سُوءُ قَصده ومَيله إلى الدُّنيا والرِّياء، فلا يَخلص له وعظه.

والثَّاني: يتعلَّق بالمَوعوظ، فإنَّ حُبَّ الدُّنيا قد شَغَل الأكثر عن ذِكر الآخرة، وتعظيمَهم الدُّنيا أنساهم تعظيم العلماء، وليس لمؤمنٍ أنْ يَذلَّ نَفْسه.

آخر كتاب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، وذَكَر المُصنِّف قَبل ذلك كتابًا في السَّماع والوجد، فلنَذكر شيئًا منه هاهنا مُختصَرةً.

فَصْلٌ في حُكْمِ السَّماعِ

اعلم أنَّ السَّماع الذي نَعني به الغِناء مِن أكبر ما تَطرَّق به إبليسُ إلى فساد القلوب، وغرَّ به خَلْقًا لا يُحصَون مِن العلماء والزُّهَّاد، فَضلًا عن العوامِّ، حتى ادَّعوا حضور القلب مع الله عند سماع الأغاني المُطرِبة، وظنُّوا أنَّ ما أوجبه السَّماع مِن طرب القلوب وانزعاجها وَجدٌ يتعلَّق بالآخرة.

وإذا أردتَ أنْ تعرفَ الحقَّ، فانظر في القَرن الأوَّل، هل فَعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ شيئًا مِن ذلك أو أصحابه، ثُمَّ انظر إلى أقوال التَّابعِين وتابعِيهم، وفقهاء الأُمَّة، كمالكٍ، وأبي حنيفةَ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ رَحِمَهُمُ اللهُ، فكلُّ القوم ذَمُّوا الغِناء، حتى قال مالكٌ: إذا اشترى جاريةً، فوجدها مُغنِّيةً، كان له رَدُّها، وسُئل عن الغِناء، قال: إنَّما يفعله الفُسَّاق.

وسُئل الإمام أحمدُ عن رجلٍ مات، وخلَّف ولدًا، وجارية مُغنِّيةً، فاحتاج الصَّبيُّ إلى بيعها، فقال: تُباع على أنَّها ساذجةٌ، لا مُغنِّيةٌ، فقيل له: إنَّها تُساوي ثلاثين ألْفًا إذا

كانت مُغنِّيةً، وإذا بيعت ساذجةً ربَّما ساوت عشرين دِينارًا، فقال: لا تُباع إلَّا على أنَّها ساذجةٌ، وقد أطبق الفقهاء على الزَّجر عن الغِناء.

ومِن المُتأخِّرين أبو الطَّيِّب الطَّبريِّ مِن كِبار أصحاب الشَّافعيِّ، وصنَّف كتابًا، وبالَغ في النَّهي عنه، وإنَّما تعلَّق بإباحته قومٌ مفتولون، قالوا: قد أجازه قومٌ مِن السَّلف.

وقد سمع أحمدُ بن حنبلٍ قول قوَّالٍ، فقال: لا بأسَ بهذا. فينبغي أنْ يتأمَّل الذي أفتى بجوازه ما هو، وليس إلَّا الأشعار الزُّهديَّة وما يُشبهها، مِن غير ضربٍ بقضيبٍ، أو آلةٍ تُطرِب، ولا ضُمَّ إلى ذلك تصفيقٌ ولا رَقصٌ.

وعلى هذا يُحمَل حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهُ في الجارِيتَين المُغنِّيتَين لمَّا غنَّتا بما تقاولته الأنصار يوم بُعاثٍ[1]، فإنَّ ذلك لا يُطرب.

ومعلومٌ أنَّه لم يكنْ للأوائل ما أَحدَثه الأواخر مِن الدُّفِّ والصَّنج والشَّبَّابة والشِّعر الرَّقيق، فإنَّ هذه الأشياءَ تُثير دفائن الهوى الكامنة في النُّفوس وتُزعِج، فيَحسب الجاهل هذا الانزعاج مُعلَّقًا بالآخرة، وهيهات.

وليتهم قالوا: إنَّ هذا مباحٌ مِن اللَّهو فنستريح إليه، وإنَّما يظنُّونه قُربةً، ويُسمُّون الطَّرب المُخرِج عن حَدِّ العقل وَجْدًا، وربَّما أَوجَد الطَّرب ما لا يَحلُّ، مِن تمزيق الثِّياب، والتَّخبُّط، وكلُّ هذا بمعزلٍ عن طريق السَّلف، وغيرُ خافٍ أنَّه ضلالٌ عن الجادَّة، فلا ينبغي للإنسان أنْ يُغالِطَ نفسه، وإنَّما الوجد الصَّحيح وَجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحينَئذٍ يثور مِن الباطن خوفٌ مِن الوعيد، وشوقٌ مِن الوعد، وندمٌ على التَّفريط، وجميعُ هذه الحركات الباطنة تُوجب سكون الظَّاهر، لا الجمز والتَّصفيق، ولم يَضِقْ علينا القرآنُ والوعظُ وأشعار الزُّهد، حتى نَحتاج في إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أنْ نذكر سلمى وسعدى، ولا نُنكِر أنَّه قد يتَّفِقُ في بعض تلك الأشعار ما يَصِحُّ أنْ يوجدَ إشارةً، إلَّا أنَّ الأغلب منها إمالةُ القلوب إلى الهوى الدُّنيويِّ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٩٤٩)، ومسلمٌ (٨٩٢).

ومَثل مَن أراد أنْ يَأخذ منها للآخرة، كمَثل مَن قال: أنا أنظر إلى الأمرد المُستحسَن؛ لأتعجَّب مِن صنعة القادر، فإنَّه قد أخطأ الطَّريق؛ لأنَّ ما تستلبه الشَّهوة والطَّبع عند النَّظر يُكدِّر طريق الفِكر، ويشغل عنه، فلذلك نَمنعه، ونقول: انظر إلى ما لا مُكدِّرَ فيه، قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [سورة ق: ٦]. ومَن قال: إنَّه لا يؤثِّر عندي ما يؤثِّر عند غيري مِن انجذاب الطَّبع إلى الهوى كان مُدَّعيًا ما يُخالِف الجِبِلَّة، فلا يُلتفَت إلى دعواه، وقد بالغتُ في الكشف عن هذا كلِّه في كتابي المسمَّى: بـ«تلبيس إبليس» فلم أرَ التَّطويل هاهنا، والله أعلمُ.

باب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

اعلم أنَّ آداب الظَّواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارِس الأفعال ومنابعُها، وأنوارُ السَّرائر هي التي تُشرق على الظَّواهر فتُزيِّنُها [وتُجلِّيها][١].

ومَن لم يخشع قَلبه لم تَخشعْ جوارحه، ومَن لم يكنْ صدره مِشكاة الأنوار الإلهيَّة لم يفضْ على ظاهره جَمال الآداب النَّبويَّة.

وقد أسلفنا جملةً مِن الآداب بما يُغني عن إعادتها هاهنا، لكنْ نقتصر في هذا الباب على شيءٍ مِن آداب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخلاقه؛ لنجمع مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي تشهد آحادها بأنَّه أكرم الخَلْق وأعلاهم مَرتبةً، وأجلُّهم قَدْرًا، فكيف بمجموعها؟

سُئلت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن خُلُق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: «كان خُلُقه القرآن»[٢]، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه. ولمَّا كمَّل الله تعالى خُلُقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فسبحان مَن أعطى، ثُمَّ أثنى.

وهذه جملةٌ مِن محاسِن أخلاقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفته:

كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحلمَ النَّاس[٣]،........................

---

(١) ورد في "المطبوع، ن" [وتحليها].

(٢) الحديث رواه مسلمٌ (٧٤٦).

(٣) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٢٨٥): أخرجه أبو الشَّيخ في كتاب أخلاق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن رواية عبد الرَّحمن بن أبزى، وهو مُرسَلٌ، وروى أبو حاتم بن حبَّان مِن حديث عبد الله بن سلامٍ في قصة إسلام زيد بن شعنة مِن أحبار اليهود، وقول زيدٍ لعمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا=

وأسخى النَّاس(١)، وأعفَّ النَّاس(٢).

وكان يخصف النَّعل، ويرقع الثَّوب، ويخدم في مهنة أهله(٣).

وكان أَشدَّ حياءً مِن العَذراء في خِدرها(٤).

وكان يُجيب دعوة المملوك(٥)، ويعود المرضى(٦)، ويمشي وحدَه(٧)، ويُردِف خَلْفه(٨)، ويَقبَل الهدية، ويأكلها، ويُكافئ عليها(٩)، ولا يأكل الصَّدقة(١٠)، ولا يَجِدُ مِن الدَّقل(١١)..

= عمرُ كلُّ علامات النُّبوَّة قد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلَّا اثنتَين لم أخبرهما منه يسبق حِلمه جهله، ولا تزيده شدَّة الجهل عليه إلَّا حِلمًا فقد اختبرتهما.. الحديث.

(١) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٢٨٩): أخرجه الطَّبرانيُّ في الأوسط مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**فُضِّلتُ عَلى النَّاسِ بِأَربَعٍ: بِالسَّخَاءِ، وَالشَّجَاعَةِ...**» ورجاله ثقاتٌ، وقال صاحب «الميزان»: إنَّه مُنكَرٌ. وفي «الصَّحيحَين» مِن حديثه: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجود النَّاس. واتَّفقا عليه مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعند البخاريِّ (١٨٠٣)، ومسلمٍ (٢٣٠٨) مِن حديث عبد الله بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا» كان رسول الله أَجوَدَ النَّاس، وكان أَجوَدَ ما يكونُ في رمضانَ...».

(٢) في حديث رواه البخاريُّ (٢٥٦٤) ومسلمٌ (١٨٦٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ما مسَّتْ يدُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يد امرأةٍ إلَّا امرأةً يَملِكُها.

(٣) رواه البخاريُّ (٦٤٤) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٣٦٩)، ومسلمٌ (٢٣٢٠) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه التِّرمذيّ (١٠١٧)، والبيهقي في «الشعب»، وابن ماجه (٤١٧٨)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ لا نعرفه إلَّا مِن حديث مسلمٍ عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلمٌ الأعور يُضعَّف.

(٦) تقدَّم في الذي قبله.

(٧) أخرج البخاريُّ (٦٠٧٨)، ومسلمٌ (٩٩١) مِن حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرجتُ ليلةً مِن اللَّيالي، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي وحدَه، ليس معه إنسانٌ، قال: فظننتُ أنَّه يَكره أنْ يمشيَ معه أَحَدٌ.

(٨) حديث أردافه خَلفَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُوي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أردف أسامةَ بن زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن عرفةَ. كما ثبت مِن حديث أسامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في البخاريِّ (٢٨٢٥) ومسلمٍ (١٧٩٨).

(٩) رواه البخاريُّ (٢٤٤٥) مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١٠) رواه البخاريُّ (٢٤٣٧)، ومسلم (١٠٧٧) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١١) الدَّقل: أراد التَّمر. «لسان العرب» مادة (دقل).

ما يملأ بطنه[١]، ولم يشبع مِن خبز بُرٍّ[٢] ثلاثة أيَّامٍ تِباعًا[٣].

وكان يَعصب على بطنه الحَجَر مِن الجوع[٤].

وكان يأكلُ ما حَضَر، وما عاب طعامًا قطُّ[٥].

وكان لا يأكل متّكِئًا[٦]، ويأكل ممَّا يليه.

وكان أَحبُّ الطَّعام إليه اللَّحم[٧]، ومِن الشَّاة الكَتِف[٨]، ومِن البُقول الدُّبَّاء[٩]، ومِن الصِّبغ الخَلّ، ومِن التَّمر العجوة[١٠]، ....

---

(١) رواه مسلم (٢٩٧٨) عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البُرُّ بالضَّمِّ القمح. «مختار الصحاح» مادة (ب ر ر).

(٣) رواه البخاريُّ (٥١٠٠)، ومسلمٌ (٢٩٧٠) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه التِّرمذيّ (٢٣٧٢).

(٥) رواه البخاريُّ (٣٣٧٠)، ومسلمٌ (٢٠٦٤) مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) رواه البخاريُّ (٥٠٨١) عن أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٤١٢): أخرجه أبو الشَّيخ مِن رواية ابن سمعانَ قال: سمعتُ مِن علمائنا يقولون: كان أَحبَّ الطَّعام إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّحم... الحديث. والتِّرمذيُّ في «الشَّمائل» مِن حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتانا النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منزلنا، فذَبَحنا له شاةً، فقال: «**كَأَنَّهُم عَلِمُوا أَنَّا نُحِبُّ اللَّحمَ**». وإسناده صحيحٌ، وابن ماجه مِن حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسنادٍ ضعيفٍ: سيِّد طعام أهل الدُّنيا وأهل الجَنَّة اللَّحم.

(٨) وأورد السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٧٠٩٨) أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعجبه الذِّراعان والكَتِف، وعزاه إلى ابن السُّنِّيِّ، وأبي نُعيمٍ في الطِّبِّ. وقال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٤٢٠): وروى الشَّيخان مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وُضِعت بين يدَي النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصعةٌ مِن ثريدٍ ولحمٍ، فتناول الذِّراع، وكانت أَحبَّ الشَّاة إليه... الحديث، وروى أبو الشَّيخ عن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان أَحبُّ اللَّحم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكتف، وإسناده ضعيفٌ.

(٩) التِّرمذيُّ الحديث (١٨٥٠-١٨٥١)، وأحمدُ (٣/ ١٧٧).

(١٠) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٤٢٢٠): رواهما أبو الشَّيخ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسنادٍ ضعيفٍ. وقد روى مسلمٌ (٢٠٥١) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ**».

وكان يلبَس ما وَجد، مرّةً بُردَ حَبرةٍ، ومرّةً جبّةَ صوفٍ[١]، ويركب تارةً بَعيرًا، وتارةً بَغلةً، وتارةً حمارًا[٢]، ويمشي مرّةً راجِلاً حافيًا[٣].

وكان يُحبُّ الطِّيب، ويَكره الرِّيح الخبيثة، ويُكرم أهل الفضل، ويتألَّف أهل الشَّرف[٤]، لا يجفو على أحدٍ[٥]، ويَقبل معذرة المُعتذِر إليه[٦]، يمزح، ولا يقول إلَّا

---

(١) روى البخاريُّ (٥٤٧٥)، ومسلمٌ (٢٠٧٩)، عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أَحبُّ الثِّياب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يلبسها الحَبِرة. والحَبِرة: الثِّياب المختلِفة ألوانها. «لسان العرب» مادة (حبر).

(٢) روى البخاريُّ (٢٧٥١)، ومسلمٌ (٢٣٠٧)، عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ركوبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرسًا لأبي طلحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وللبخاريِّ (١٥٣٠)، ومسلمٍ (١٢٧٢)، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: طاف النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَجَّة الوداع على بعيرٍ.
وللبخاريِّ (٤٠٦٣)، ومسلمٍ (١٧٧٦)، مِن حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأيتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلته البيضاء يوم حنينٍ.
وللبخاريِّ (٢٨٢٥)، ومسلمٍ (١٧٩٨) مِن حديث أسامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركب على حمارٍ على أكافٍ.

(٣) روى البخاريُّ (١١٣٤)، ومسلمٌ (١٣٩٩)، مِن حديث ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان يأتي قبًا راكبًا وماشيًا».

(٤) أخرج البيهقيُّ في «الكبرى» (٧/ ٦١)، وأحمدُ (١٢٢٩٣) مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**حُبِّبَ إليَّ النِّساءُ وَالطِّيبُ**». وإسناده حسنٌ. وروى أبو داودَ (٤٠٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٥٩٧) وقال: صحيحٌ على شرط الشَّيخَين. ووافقه الذَّهبيُّ مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّها صَنَعت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُبَّةً مِن صوفٍ، فلبسها، فلمَّا عَرِقَ وَجد ريح الصُّوف، فخَلَعها، وكان يُعجبه الرِّيح الطَّيِّبة.

(٥) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٣٢٨): رواه أبو داودَ، والتِّرمذيُّ في «الشَّمائل»، والنَّسائيُّ في «اليوم واللَّيلة» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلَّما يُواجه رجلًا بشيءٍ يكرهه». وفيه ضعفٌ، وللشَّيخَين مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رجلًا استأذن عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**بِئسَ أَخُو العَشِيرَةِ**» فلمَّا دخل ألان له القول... الحديث.

(٦) رواه البخاريُّ (٤١٥٦)، ومسلمٌ (٢٧٦٩) في حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه «طفق المخلفون يعتذرون إليه فقبل منهم علانيتهم...» الحديث.

حقًّا[١]، يَضحك مِن غير قهقهةٍ[٢]، لا يَمضي عليه وقتٌ في غيرِ عملٍ لله تعالى، أو فيما لا بدَّ منه مِن صَلاح نفسه[٣]، وما لَعَن امرأةً ولا خادمًا قطُّ[٤]، وما ضرب أحدًا بيده قطُّ[٥]، إلَّا أنْ يُجاهِد في سبيل الله، وما انتقم لنفسه إلَّا أنْ تُنتهَكَ حرماتُ الله، وما خُيِّر بين شيئَين إلَّا اختار أيسرهما، إلَّا أنْ يكونَ مأثمًا، أو قطيعة رَحِمٍ، فيكون أبعدَ النَّاس منه[٦].

وقال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خدمتُه عشر سنين، فما قال لي: أُفٍّ قطُّ، ولا قال لشيءٍ فَعلتُه: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لم أَفعلْه: ألَا فعلتَ كذا؟[٧].

ومِن صفته في التَّوراة: محمَّدٌ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عبدي المختار، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسَّيِّئة السَّيِّئة، ولكن يعفو ويصفح[٨].

وكان مِن خُلُقه أنَّه يبدأ بالسَّلام مَن لَقِيه[٩]، ومَن فارقه بحاجةٍ صابَره حتى يكون هو المُنصرِف[١٠]، وما أَخَذ أَحدٌ يده فأرسل يده حتى يُرسلها الآخِذ[١١].

---

(١) قال العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٣٣٠): أخرجه أحمدُ مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو عند التِّرمذيِّ بلفظ: قالوا إنَّك تُداعِبنا: قال: «**إني، ولا أَقولُ إلَّا حَقًّا**». وقال: حسنٌ.

(٢) روى البخاريُّ (٤٥٥١) مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُستجمِعًا ضاحكًا حتى أرى لهواته، إنَّما كان يبتسم».

(٣) روى الطَّبرانِيُّ في «الكبير» (٤١٤) عن عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءً لله وجزءً لأهله وجزءً لنفسه..».

(٤) روى البخاريُّ (٣٣٦٦)، ومسلمٌ (٢٣٢١) عن معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه ذَكَر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**لم يَكنْ فاحِشًا ولا مُتفحِّشًا**».

(٥) روى مسلمٌ (٢٣٢٨)، عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأةً، ولا خادمًا، إلَّا أنْ يُجاهِد في سبيل الله».

(٦) رواه البخاريُّ (٣٣٦٧)، ومسلمٌ (٢٣٢٧) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٧) رواه البخاريُّ (٢٦١٦)، مسلمٌ (٢٣٠٩).

(٨) رواه البخاريُّ (٢٠١٨).

(٩) رواه التِّرمذيُّ (٢٢٥) مِن حديث هند بن أبي هالةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٠) أخرجه التِّرمذيُّ في «الشَّمائل» مِن حديث هند بن أبي هالةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما قال العراقي في «المغني».

(١١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٤٩٠) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ=

وكان يجلس حيث ينتهي به المَجلِس مُختلِطًا بأصحابه، كأنَّه أحدهم، فيأتي الغريبُ فلا يدري أيُّهم هو حتى يَسأل عنه[١].

وكان طويل السُّكوت[٢]، فإذا تكلَّم لم يَسردْ كلامه، بل يتثبَّت فيه، ويكرِّره ليُفهَم.

وكان يعفو مع القُدرة[٣]، ولا يُواجِه أحدًا بما يَكرَه.

وكان أصدقَ النَّاس لهجةً، وأوفاهم ذِمَّةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عِشرةً، ومَن رآه بديهةً هابه، ومَن خالطه معرفةً أحبَّه[٤]، وكان أصحابه إذا تكلَّموا في أمر الدُّنيا تحدَّث معهم، وكانوا يَتذاكَرون أمْرَ الجاهليَّة، فيَتضاحكون، ويتبسَّم.

وكان أشجع النَّاس[٥]، قال بعض أصحابه: كنَّا إذا [احمرَّت الحِدَق، واشتدَّ] البأس اتَّقينا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٦]، ولم يكن بالطَّويل البائن، ولا بالقصير، كان رَبعةً مِن القوم[٧].

وكان أزهرَ اللَّون، ولم يكن بالآدم[٨].

وكان رَجِلَ الشَّعر، ليس بالسَّبِط ولا الجَعد القَطِط[٩]، وكان شعره إلى شحمة أُذنه.

= الرَّجُلُ، فَصَافَحَهُ لَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ الَّذِي يَنْزِعُ، وَلَا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَصْرِفُهُ». وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.

(١) أخرجه النَّسائيُّ في «المجتبى» (٤٩٩١) مِن حديث أبي هريرةَ وأبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «كان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلس بين ظهرانَي أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل».

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٢٥) مِن حديث هند بن أبي هالةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) من ذلك ما رواه البخاريُّ (٣٩٠٦)، ومسلمٌ (٨٤٣) في حديث غورث بن الحارث حين خلَّى سبيله.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٦٣٨) عن عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٥) رواه مسلمٌ (٢٣٠٧) مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) رواه مسلمٌ (١٧٧٦) عن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٧) رواه البخاريُّ (٣٣٥٤) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٨) رواه البخاريُّ (٣٥٤٧) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٩) أخرجه البخاريُّ (٣٣٥٥)، ومسلمٌ (٢٣٣٨) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وشعرٌ سَبِطٌ: سائلٌ ليست فيه جعودٌ، وشعرٌ قَطِطٌ: شديد الجعودة. انظر: «جامع الأصول» (١١/ ٢٢٤).

وكان واسع الجبهة، أزجَّ الحواجب[١]، أَدعَجَ العينَين[٢]، أهدب الأشفار[٣]، أقنى العرنِين[٤]، سهل الخَدَّين[٥]، كثَّ اللِّحية[٦]، كأنَّ عُنُقه جِيْدَ دُميةٍ[٧]، عريض الصَّدر، سواء البطن والصَّدر، رَحب الرَّاحة، طويل الزَّندَين، كفُّه أَلين مِن الحرير[٨].

وأمَّا مُعجِزاته صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فإنَّ مَن شاهد أحواله، وسمع أخباره المُشتمِلة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخَلْق، ومحاسنَ إشارته في تفصيل ظاهر الشَّرع الذي تعجز العقلاء [والفقهاء][٩] عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبقَ عنده ريبٌ في أنَّ ذلك لم يكن مُكتسَبًا بحِيلةٍ، وأنَّه لا يُتصوَّر ذلك إلَّا بالاستمداد مِن تأييدٍ سماويٍّ، وقوَّة إلهيَّةٍ، وإنَّ ذلك لا يصحُّ لمُلبِّسٍ ولا كذَّابٍ، بل كانت شمائله وأحواله شواهدَ قاطعةً بصدقه.

ومِن أعظم معجزاته، وأوضح دلالاته القرآن العزيز الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمِثله، ومُعجِز كلِّ نبيٍّ انقضى بذهابه، وهذا المُعجِز باقٍ أبدًا.

ومِن معجزاته انشقاق القمر[١٠]، ونبع الماء مِن بين أصابعه[١١]،......................

---

(١) الزَّجج رِقَّة لحظ الحاجبَين ودقَّتهما وطولهما. «لسان العرب» مادة (زجج).

(٢) الدَّعَج في العين: شدَّة سوادها. «جامع الأصول» (١١/ ٢٢٦).

(٣) أهدب الأشفار: الذي شَعْر أجفانه كثيرٌ مُستطيلٌ، وأشفار العين: الشَّعر المُحيط بالعين. «جامع الأصول» (١١/ ٢٢٦).

(٤) العرنين: الأنف «لسان العرب» (١٣/ ٢٨٣).

(٥) سهل الخَدَّين: أنْ يكونا مُستطيلَين دون ارتفاع. «جامع الأصول» (١١/ ٢٢٦).

(٦) كثُّ اللِّحية: كثير شعرها. «جامع الأصول» (١١/ ٣٣١).

(٧) الدُّمية: الصُّورة المصوَّرة؛ لأنَّه يُبالَغ في تحسينها. «لسان العرب» مادة (دمي).

(٨) روى البخاريُّ (٣٣٦٨)، ومسلمٌ (٢٣٣٠) عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: «ما مَسستُ دِيباجةً ولا حريرًا أَلينَ مِن كفِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ».

(٩) ورد في " المطبوع، خ " [والفصحاء].

(١٠) رواه البخاريُّ (٣٤٣٧)، ومسلمٌ (٢٨٠٠) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(١١) رواه البخاريُّ (٣٣٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٧٩) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

وإطعامه الخَلْق الكثير مِن الطَّعام اليسير[١]، ورميه بحصياتٍ يسيرةٍ، فوصلت إلى أعين الخَلْق الكثير[٢]، وحَنين الجذع إليه كما يَحنُّ العِشار[٣]، وإخباره بالغائبات، فكانت كما قال[٤]، ورَدِّ عين قتادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيده، فكانت أحسنَ عينَيه[٥]، وتَفل في عين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أرمدُ، فصحَّ مِن وقته[٦]، إلى غير ذلك مِن المُعجِزات التي شاعت، ولم يوجدْ سبيلٌ إلى كِتمانها، نسأل الله يوفِّقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنَّه كريمٌ مجيبٌ، والحمد لله ربِّ العالَمِين.

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٨٥)، ومسلمٌ (٢٠٤٠) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) عزاه الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٤) إلى الطَّبرانِيِّ مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: رجاله رجال الصَّحيح. وأنزل الله في شأن هذه الرَّمية ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

(٣) أخرجه البخاريُّ (٨٧٦) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) فمنها ما رواه البخاريُّ (٣٤٢٣)، ومسلمٌ (٢٩١٨) من حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إذا هَلَكَ كِسرَى فلا كِسرَى بَعدَهُ، وإذا هَلَكَ قَيصَرُ فَلا قَيصَرَ بَعدَه»**.

(٥) رواه الطَّبرانِيُّ في «الكبير» (١٢)، وأبو يعلى المَوصِليُّ في «مسنده» (١٥٤٩) عن قتادةَ بن النُّعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) رواه البخاريُّ (٣٩٧٣) عن سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كتاب شرح عجائب القلوب
آخر الربع الثاني، وهو الأول من ربع المهلكات

اعلم أنَّ أشرفَ ما في الإنسان قلبه، فإنَّه العالِم بالله، العامل له، السَّاعي إليه، المُقرَّب المكاشف بما عنده، وإنَّما الجوارح أتباعٌ وخُدَّامٌ له، يستخدمها استخدام الملوك للعبيد.

ومَن عَرَف قَلبه عَرَف ربَّه، وأكثرُ النَّاس جاهلون بقُلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أنْ يمنعه مِن معرفته ومُراقَبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدِّين، وأساس طريق السَّالكِين.

فَصْلٌ

اعلم أنَّ القلب بأصل فِطرته قابلٌ للهدى، وبما وُضع فيه مِن الشَّهوة والهوى مائلٌ عن ذلك، والتَّطارُد فيه بين جندَي الملائكة والشَّياطين دائمٌ، إلى أنْ ينفتحَ القلب لأحدهما، فيَتمكَّن، ويَستوطن، ويكون اجتياز الثَّاني اختلاسًا، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وهو الذي إذا ذُكِر الله تعالى خَنَس، وإذا وَقعت الغَفْلة انبسط، ولا يَطرد جندَ الشَّيطان مِن القلب إلَّا ذكرُ الله تعالى، فإنَّه لا قرارَ له مع الذِّكر.

واعلم أنَّ مَثل القلب كمَثل حصنٍ، والشَّيطان عدوٌّ يُريد أنْ يَدخل الحصن، ويملكه، ويستولي عليه، ولا يُمكن حفظ الحصن إلَّا بحراسة أبوابه، ولا يَقدر على حراسة أبوابه مَن لا يَعرفها، ولا يُتوصَّل إلى دفع الشَّيطان إلَّا بمعرفة مَداخله، ومَداخل الشَّيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرةٌ، إلَّا أنَّا نُشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مَجرى الدُّروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشَّيطان.

فمِن أبوابه العظيمة الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصًا على شيءٍ أعماه حِرصه وأصمَّه، وغطَّى نُور بصيرته التي يعرف بها مَداخل الشَّيطان.

وكذلك إذا كان حَسُودًا، فيَجد الشَّيطان حينَئذٍ الفُرصة، فيُحسِّن عند الحريص كلَّ ما يُوصله إلى شهوته، وإنْ كان مُنكَرًا أو فاحِشًا.

ومِن أبوابه العظيمة الغضب، والشَّهوة، والحِدَّة، فإنَّ الغضب غول العقل، وإذا ضَعُف جند العقل هَجم حينَئذٍ الشَّيطان، فلَعِب بالإنسان، وقد رُوي أنَّ إبليسَ يقول: إذا كان العبد حديدًا، قَلَبناه كما يَقلب الصِّبيان الكُرَة[(١)].

ومِن أبوابه حُبُّ التَّزيين في المنزل والثِّياب والأثاث، فلا يَزال يدعو إلى عمارة الدَّار وتزيين سُقوفها وحِيطانها، والتَّزين بالثِّياب والأثاث، فيَخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومِن أبوابه الشَّبع، فإنَّه يُقوِّي الشَّهوة، ويَشغل عن الطَّاعة.

ومنها الطَّمع في النَّاس، فإنَّ مَن طَمِع في شخصٍ بالَغ بالثَّناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمرْه بالمعروف، ولم يَنهَه عن المُنكَر.

ومِن أبوابه العَجَلة، وترك التَّثبُّت، وقد قال النَّبيُّ: «**العَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَانِ، والتَّأَنِّي مِن اللهِ تَعالَى**»[(٢)].

ومِن أبوابه حُبُّ المال، ومتى تمكَّن مِن القلب أفسده، وحَمَله على طلب المال مِن غيرِ وجهه، وأخرجه إلى البُخل، وخوَّفه الفقر، فمَنَع الحقوق اللَّازمة.

---

(١) ذكره الزَّمخشريُّ في «ربيع الأبرار» (٩٦).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٠٥٨)، وفي «الكبرى» (٢٠٢٧٠)، وأبو يعلى المَوصِليُّ في «مسنده» (٤٢٧١)، عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وروى التِّرمذيُّ (٢٠١٢) عن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأَنَاةُ مِنَ اللهِ وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**». وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.

ومِن أبوابه حَمْل العوامِّ على التَّعصُّب في المذاهِب، دون العمل بمُقتضاها.

ومِن أبوابه أيضًا حَمْل العوامِّ على التَّفكُّر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمورٍ لا تَبلغُها عُقولهم؛ حتى يُشكِّكَهم في أصل الدِّين.

ومِن أبوابه سُوء الظَّنِّ بالمسلِمين، فإنَّ مَن حَكَم على مسلمٍ بسوء ظنِّه احتقره، وأَطلق فيه لسانه، ورأى نفسَه خيرًا منه، وإنَّما يترشَّح سوء الظَّنِّ بخُبث الظَّانِّ؛ لأنَّ المؤمن يَطلب المعاذير للمؤمن، والمُنافِق يبحث عن عُيوبه.

وينبغي للإنسان أنْ يَحترِز مِن مواقِف التُّهَم؛ لئلَّا يُساء به الظَّنُّ.

فهذا طَرَفٌ مِن ذِكْر مَداخل الشَّيطان، وعلاجُ هذه الآفات سَدُّ المَداخِل بتطهير القلب مِن الصِّفات المذمومة، وسيأتي الكلام على هذه الصِّفات إنْ شاء الله تعالى مُفصَّلًا.

وإذا قُلِعت عن القلب أصول هذه الصِّفات بَقِي للشَّيطان بالقلب خطراتٌ واجتيازاتٌ مِن غير استقرارٍ، فيمنعه مِن ذلك ذِكْر الله تعالى، وعمارة القلب بالتَّقوى.

ومَثَل الشَّيطان كمَثَل كلبٍ جائعٍ يقرب منك، فإنْ لم يكنْ بين يدَيك لحمٌ وخبزٌ فإنَّه ينزجر بأنْ تقولَ له: اخسأْ. وإنْ كان بين يدَيك شيءٌ مِن ذلك، وهو جائعٌ لم يندفعْ عنك بمُجرَّد الكلام، فكذلك القلب الخالي عن قُوت الشَّيطان ينزجر عنه بمُجرَّد الذِّكْر.

فأمَّا القلب الذي غَلَب عليه الهوى، فإنَّه يَرفع الذِّكر إلى حَواشِيه، فلا يَتمكَّن الذِّكْر مِن سُويدائه، فيَستقرُّ الشَّيطان في السُّويداء.

وإذا أردتَ مِصداقَ ذلك، فتأمَّل هذا في صَلاتك، وانظر إلى الشَّيطان كيف يُحدِّث قلبك في مِثل ذلك المَوطِن، بذِكْر السُّوق، وحِساب المُعامِلين، وتدبيرِ أَمر الدُّنيا.

واعلم أنَّه قد عفي عن حديث النَّفس، ويدخل في ذلك ما همّت به، ومَن ترك ذلك خوفًا مِن الله تعالى كُتِبتْ له حسنةٌ، وإنْ تركه لعائقٍ رَجَونا له المُسامَحة، إلَّا أنْ يكونَ

عَزْمًا، فإنَّ العَزم على الخَطيئة خطيئةٌ، بدليل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا التَقَى المُسلِمانِ بِسَيفَيهِما فالقاتِلُ والمَقتُولُ في النَّارِ**». قيل: ما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كانَ حَرِيصًا عَلى قَتْلِ صاحِبِه**»(١).

وكيف لا تقع المُؤاخَذة بالعزم والأعمال بالنِّيَّة؟ وهل الكِبْر والرِّياء والعُجْب إلَّا أمورٌ باطنةٌ؟ ولو أنَّ إنسانًا رأى على فِراشه أجنبيَّةً ظنَّها زوجته لم يأثم بوَطئها، ولو رأى زوجته، وظنَّها أجنبيَّةً أَثِم بوَطئها، وكلُّ هذا مُتعلِّقٌ بعقد القلب.

فَصْلٌ

وقد ورد في الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنا عَلى دِينِكَ**(٢)، **يا مُصَرِّفَ القُلُوبِ اصرِفْ قَلبَنا إلى طاعَتِكَ**»(٣).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**مَثَلُ القَلبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ بِأرضِ فَلاةٍ تُقَلِّبُها الرِّياحُ**»(٤).

واعلم أنَّ القلوب في الثَّبات على الخير والشَّرِّ والتَّردُّد بينهما ثلاثةٌ:

الأوَّل: قلبٌ عُمِّر بالتَّقوى، وزُكِّي بالرِّياضة، وطُهِّر على خبائث الأخلاق، فتَنفرِج فيه خواطر الخير مِن خزائن الغَيب، فيَمدُّه المَلَك بالهُدى.

القلب الثَّاني: قلبٌ مخذولٌ، مشحونٌ بالهوى، مُدَنسٌ بالخبائث، مُلوَّثٌ بالأخلاق الذَّميمة، فيَقوى فيه سُلطانُ الشَّيطان؛ لاتِّساع مَكانه، ويَضعف سُلطان الإيمان، ويَمتلِئ

---

(١) رواه البخاريُّ (٣١)، ومسلمٌ (٢٨٨٨) عن أبي بَكرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) هذا الجزء رواه التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وأحمدُ (١٢١٠٧) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه مسلمٌ (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٣٧)، وأحمدُ (١٩٦٦١)، وابن ماجه (٨٨) عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٣٠٧): أخرجه الطَّبرانيُّ في «الكبير»، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بإسنادٍ حسنٍ، وللبزَّار نحوه مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسنادٍ ضعيفٍ.

القلب بدُخان الهوى، فيَعدِم النُّور، ويَصير كالعين المُمتلِئة بالدُّخان، لا يُمكنها النَّظر، ولا يُؤثِّر عنده زَجرٌ ولا وعظٌ.

والقلب الثَّالث: قَلبٌ يبتدئ فيه خاطر الهوى، فيَدعوه إلى الشَّرِّ، فيَلحَقه خاطر الإيمان، فيَدعوه إلى الخير.

مِثاله: أنْ يَحمِل الشَّيطان حَمْلةً على العقل، ويُقوِّيَ داعيَ الهوى، ويقولَ: أمَا تَرَى فلانًا وفلانًا كيف يُطلِقون أنفسهم في هواها؟ حتى يَعدُّ جماعةً مِن العلماء، فتَميل النَّفْس إلى الشَّيطان، فيَحمل المَلَك حَمْلةً على الشَّيطان، ويقول: هل هلك إلَّا مَن نَسِي العاقبة، فلا تَغترَّ بغَفلة النَّاس على أنفسهم، أرأيتَ لو وَقفوا في الصَّيف في الشَّمس، ولك بيتٌ باردٌ أَكُنتَ تُوافِقُهم، أم تطلب المَصلَحة؟ أَفَتُخالِفُهم في حَرِّ الشَّمس، ولا تُخالِفُهم فيما يَؤول إلى النَّار؟

فتَميل النَّفْس إلى قول المَلَك، ويقع التَّردُّد بين الجُندَين، إلى أنْ يغلبَ على القلب ما هو أَولى به، فمَن خُلِق للخير يُسِّرَ له، ومَن خُلِق للشَّرِّ يُسِّر له: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، اللَّهمَّ وَفِّقْنا لِمَا تُحبُّه وترضاه.

كِتَابُ رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَتَهذِيبِ الخُلُقِ وَمُعَالَجَةِ أَمْرَاضِ القَلْبِ

وذلك في فصولٍ:

اعلم أنَّ الخُلُق الحسن صفة الأنبياء والصِّدِّيقِين، وأنَّ الأخلاق السَّيِّئة سُمومٌ قاتلةٌ، تَنخرِط بصاحبها في سلك الشَّيطان، وأمراضٌ تُفوِّت جاهَ الأبد، فينبغي أنْ تَعرِفَ العِلَل، ثُمَّ التَّشمير في مُعالَجتها، ونحن نُشير إلى جُمَلٍ مِن الأمراض، وكيفيَّة مُعالَجتها في الجُملة مِن غيرِ تفصيلٍ، فإنَّ ذلك يأتي مُبيَّنًا إنْ شاء الله تعالى.

الفَصْلُ الأَوَّلُ في فَضِيلَةِ حُسْنِ الخُلُقِ وَذَمِّ سُوءِ الخُلُقِ

وقد ذُكِر شيءٌ مِن ذلك في آداب الصُّحبة.

واعلم أنَّ النَّاس قد تكلَّموا في حُسن الخُلُق مُتعرِّضِين لثَمرته لا لحَقيقته، ولم يَستوعِبوا جميع ثَمراته، بل ذَكَر كلٌّ مِنهم ما حَضَر في ذِهنه، وكَشْفُ الحقيقة في ذلك أنْ يُقال: كثيرًا ما يُستعمَل حُسْن الخَلْقِ مع الخَلْقِ، فيُقال: فلانٌ حَسَنُ الخَلْقِ والخُلُقِ، أي حَسَنُ الظَّاهِر والباطن، فالمُراد بالخَلْقِ الصُّورة الظَّاهرة، والمُراد بالخُلُقِ الصُّورة الباطنة، وذلك أنَّ الإنسان مُركَّبٌ مِن جَسدٍ ونَفْسٍ.

فالجسد مُدرَكٌ بالبصر، والنَّفْس مُدرَكةٌ بالبصيرة، ولكلِّ واحدةٍ منهما هيئةٌ وصورةٌ، إمَّا جميلةٌ أو قبيحةٌ، والنَّفْس المُدرَكة بالبصيرة أعظم قَدْرًا مِن الجسد المُدرَك بالبصر، ولذلك عَظَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرَه فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧١، ٧٢]، فنبَّه على أنَّ الجسد

منسوبٌ إلى الطِّين، والرُّوح منسوبٌ إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالخُلُق عبارةٌ عن هيئةٍ للنَّفْس راسخةٍ تَصدُر عنها الأفعال بسهولةٍ ويُسرٍ مِن غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويَّةٍ، فإنْ كانتِ الأفعال جميلةً سُمِّيت خُلُقًا حسنًا، وإنْ كانت قبيحةً سُمِّيت خُلُقًا سيِّئًا.

وقد زعم بعض مَن غَلَبت عليه البَطالة فاستثقل الرِّياضة أنَّ الأخلاق لا يُتصوَّر تَغييرها، كما لا يُتصوَّر تغيير صورة الظَّاهر.

والجواب: أنَّه لو كانت الأخلاق لا تَقبل التَّغيير لم يكن للمَواعِظ والوصايا معنًى، وكيف تُنكِر تغيير الأخلاق، ونحن نرَى الصَّيد الوحشيَّ يُستأنَس، والكلبَ يُعلَّم ترك الأكل، والفَرَس تُعلَّم حُسْنَ المَشيِ، وجَودة الانقياد؟ إلَّا أنَّ بعض الطِّباع سريعةُ القَبول للصَّلاح، وبعضها مُستصعَبةٌ.

وأمَّا خَيال مَن اعتقد أنَّ ما في الجِبلَّة لا يَتغيَّر، فاعلم أنَّه ليس المقصود قَمْع هذه الصِّفات بالكلِّيَّة، وإنَّما المطلوب مِن الرِّياضة رَدُّ الشَّهوة إلى الاعتدال الذي هو وسطٌ بين الإفراط والتَّفريط، وأمَّا قَمْعُها بالكلِّيَّة فلا، كيف والشَّهوة إنَّما خُلِقَت لفائدةٍ ضروريةٍ في الجِبِلَّة، ولو انقطعت شهوة الطَّعام لهلك الإنسان، أو شهوة الوِقاع لانقطع النَّسل، ولو انعدم الغضب بالكلِّيَّة، لم يدفعِ الإنسانُ عن نفسه ما يُهلِكه، وقد قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، ولا تَصدُر الشِّدَّة إلَّا عن الغضب، ولو بَطَل الغضب لامتنع جِهاد الكفَّار.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل: الفاقِدِين الغيظ.

وكذلك المَطلوب في شهوة الطَّعام الاعتدال دون الشَّرَه والتَّقلل، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، إلَّا أنَّ الشَّيخَ المرشدَ للمُريد إذا رأى له مَيلًا إلى الغضب والشَّهوة، حَسُن أنْ يُبالِغَ في ذمِّهما على الإطلاق؛ ليَردَّه إلى التَّوسُّط، وممَّا يدلُّ على أنَّ المُراد مِن الرِّياضة الاعتدال أنَّ السَّخاء خُلُقٌ مطلوبٌ شرعًا، وهو وسطٌ بين طرفَي التَّبذير والتَّقتير، وقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]، واعلم أنَّ هذا الاعتدال، تارةً يحصل بكمال الفِطرة منحةً مِن الخالق، فكم مِن صبيٍّ يُخلَق صادقًا سخيًّا حليمًا، وتارةً يَحصل بالاكتساب، وذلك بالرِّياضة، وهي حمل النَّفس على الأعمال الجالبة للخُلُق المطلوب، فمَن أراد تحصيل خُلُق الجُود، فليَتكلَّف فِعْل الجَواد مِن البَذل؛ ليصيرَ ذلك طَبْعًا له.

وكذلك مَن أراد التَّواضُع تَكلَّف المُتواضِعِين، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة، فإنَّ للعادة أثَرًا في ذلك، كما أنَّ مَن أراد أنْ يكون كاتبًا تَعاطَى فِعْل الكتابة، أو فَقيهًا تَعاطَى فِعْل الفُقهاء مِن التَّكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلَّا أنَّه لا ينبغي أنْ يطلبَ تأثير ذلك في يومَين أو ثلاثةٍ، وإنَّما يُؤثِّر مع الدَّوام، كما لا يَطلب في النُّمو علوَّ القامة في يومَين أو ثلاثةٍ. وللدَّوام تأثيرٌ عظيمٌ.

وكما لا ينبغي أنْ يُستهان بقليل الطَّاعات، فإنَّ دَوامها يؤثِّر، وكذلك لا يُستهان بقليل الذُّنوب.

وكما أنَّ تَعاطِي أسباب الفضائل يؤثِّر في النَّفْس، ويغيِّر طَبعَها، فكذلك مُساكَنة الكَسل أيضًا يصير عادةً، فيُحرم بسببه كلَّ خيرٍ.

وقد تُكتسب الأخلاق الحسنة بمُصاحَبة أهل الخير، فإنَّ الطَّبع لصٌّ يَسرق الخير والشَّرَّ.

قلتُ: ويؤيِّد ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المَرءُ عَلى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخَالِلْ**»[١].

الفَصْلُ الثَّانِي في بَيَانِ الطَّرِيقِ إلى تَهْذِيبِ الأَخْلَاقِ

قد عرفتَ أنَّ الاعتدال في الأخلاق هو صحَّة في النَّفْس، والمَيل على الاعتدال سقمٌ ومرضٌ، فاعلم أنَّ مثال النَّفْس في عِلاجها كالبَدن في عِلاجه، فكما أنَّ البَدن لا يُخلَق كاملًا، وإنَّما يَكمل بالتَّربية بالغِذاء، كذلك النَّفْس تُخلَق ناقصةً قابلةً للكمال، وإنَّما تكمل بالتَّزكية وتهذيب الأخلاق، والتَّغذية بالعِلم.

وكما أنَّ البَدن إذا كان صحيحًا، فشأن الطَّبيب العمل على حفظ الصِّحَّة، وإنْ كان مريضًا فشأنه جَلْب الصِّحَّة إليه، كذلك النَّفْس إذا كانت زكيَّةً طاهرةً مهذَّبةَ الأخلاق فينبغي أنْ يسعَى بحِفظها وجَلْب مزيد القوَّة إليها، وإنْ كانت عديمة الكمال، فينبغي أنْ يسعَى بجَلْب ذلك إليه.

وكما أنَّ العِلَّة المُوجِبة لمرض البَدن لا تُعالَج إلا بضدِّها إنْ كانت مِن حرارةٍ، فبالبرودة وإنْ كانت مِن البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرَّذيلة التي هي مِن مرض القلب، عِلاجها بضدِّها، فيُعالَج مرض الجهل بالعِلم، ومرض البُخل بالسَّخاء، ومرض الكِبْر بالتَّواضُع، ومرض الشَّرَه بالكفِّ عن المُشتهَى.

وكما أنَّه لا بدَّ مِن احتمال مرارة الدَّواء، وشدَّة الصَّبر عن المُشتهَيات لصلاح الأبدان المريضة، فكذلك لا بدَّ مِن احتمال مرارة المُجاهَدة، والصَّبر على مُداواة مرض القلب، بل أَولى، فإنَّ مرض البَدن يُخلَص منه بالموت، ومرض القلب عذابٌ يدوم بعد الموت أبدًا.

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وأحمدُ (٨٠٢٨) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

وينبغي للذي يطبُّ نفوس المُريدِين ألَّا يهجمَ عليهم بالرِّياضة في فنٍّ مخصوصٍ، حتى يَعرِف أخلاقهم وأمراضهم؛ إذ ليس عِلاج كلِّ مريضٍ واحدًا، فإذا رأى جاهلًا بالشَّرع علَّمه، وإذا رأى مُتكبِّرًا حَمَله على ما يُوجب التَّواضُع، أو شديدَ الغضب ألزمه الحِلْم.

وأشدُّ حاجة الرَّائض لنفسه قوَّة العَزْم، فمتى كان مُتردِّدًا بَعُد فَلاحُه، ومتى أحسَّ مِن نفسه ضعفَ العَزْم تَصبَّر، فإنْ نَقَصت عَزيمتُها عاقبها؛ لئلَّا تعاود، كما قال رجلٌ لنفسه: تَتكلَّمين فيما لا يَعنيكِ؟ لَأُعاقِبنَّكِ بصوم سنةٍ.

الفصل الثالث في علامات مرض القلب وعودة إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

اعلم أنَّ كلَّ عضوٍ خُلِق لفِعْلٍ خاصٍّ، فعلامة مَرَضه أنْ يتعذَّرَ منه ذلك الفعل، أو يَصدر منه مع نوعٍ مِن الاضطراب، فمرض اليد تَعذُّر البطش، ومرض العين تَعذُّر الإبصار، ومرض القلب أنْ يَتعذَّر عليه فعله الخاصُّ به الذي خُلِق لأجله، وهو العِلم، والحكمة، والمعرفة، وحبِّ الله تعالى، وعبادته، وإيثار ذلك على كلِّ شهوةٍ.

فلو أنَّ الإنسان عَرَف كلَّ شيءٍ، ولم يَعرِفِ الله سبحانه، كان كأنَّه لم يَعرفْ شيئًا.

وعلامة المعرفة الحُبُّ، فمَن عَرَف الله أَحبَّه، وعلامة المحبَّة ألَّا يُؤثِر عليه شيئًا مِن المحبوبات، فمَن آثر عليه شيئًا مِن المحبوبات فقلبه مريضٌ، كما أنَّ المَعِدة التي تُؤثِر أكل الطِّين على أكل الخبز، وقد سقطت عنها شهوة الخبز مريضةٌ.

ومرض القلب خفيٌّ قد لا يَعرفه صاحبه، فلذلك يَغفُل عنه، وإنْ عَرَفه صَعُب عليه الصَّبر على مَرارة دوائه؛ لأنَّ دواءه مُخالَفة الهوى، وإنْ وجد الصَّبر لم يَجدْ طبيبًا حاذقًا يُعالِجه، فإنَّ الأطباء هم العلماء، والمرض قد استولَى عليهم، والطَّبيب المريض قلَّما يَلتفِت إلى عِلاجه، فلهذا صار الدَّاء عُضالًا، واندرس هذا العِلم، وأُنكر طِبُّ القلوب

ومرضها بالكلِّيَّة، وأَقبل النَّاس على أعمالٍ ظاهرها عباداتٌ، وباطنها عاداتٌ، فهذه علامة أصل المرض.

وأمَّا عافيته وعَوده إلى الصِّحَّة بعد المُعالَجة فهو أنْ ينظرَ إلى العِلَّة، فإنَّ المرض داء البخل، فعِلاجه بَذْل المال، ولكنَّه لا يُسرِف، ويصير إلى حَدِّ التَّبذير، فيحصل داءٌ آخَرُ فيكون كمَن يُعالج البُرودة بالحرارة الغالبة حتى تَغلب الحرارة، فيكون داءً أيضًا، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردتَ أنْ تعرف الوَسط، فانظر إلى نفسك، فإنْ كان إمساك المال وجمعه أَلَذُّ عندك، وأَيسر عليك مِن بَذْله لمُستحِقِّه، فاعلم أنَّ الغالب عليك خُلُق البخل، فعالِج نفسك على البَذل، وإنْ صار البَذل للمُستحِقِّ أَلَذَّ عندك، وأَخفَّ عليك مِن الإمساك، فقد غلب عليك التَّبذير، فارجع إلى المُواظَبة على الإمساك، ولا تزال تُراقِب نفسك، وتَستدلُّ على خُلُقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال، فلا تميل إلى بَذْله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تَطلب فيه إمساكه لحاجة مُحتاجٍ، أو بَذْله لحاجة مُحتاجٍ، فكلُّ قلبٍ صار كذلك، فقد جاء اللهَ سليمًا في هذا المقام.

ويجب أنْ يكون سليمًا عن سائر الأخلاق، حتى لا يكون له علاقةٌ بشيءٍ مِن الدُّنيا، حتى تَرتحل النَّفْس عن الدُّنيا مُنقطِعةَ العلائق منها، غيرَ مُلتفتةٍ إليها، ولا مُتشوِّقةً إلى أسبابها، فحينئذٍ ترجع إلى ربِّها رجوع النُّفْس المُطمئِنَّة.

ولمَّا كان الوسط الحقيقيُّ بين الطَّرفَين في غاية الغُموض، بل هو أَدقُّ مِن الشَّعر، وأَحَدُّ مِن السَّيف، فلا جَرَمَ مَن استوى على هذا الصِّراط المُستقيم في الدُّنيا، جاز على مِثل هذا الصِّراط في الآخرة، ولأجل عُسر الاستقامة أُمِر العبد أنْ يقولَ في كلِّ يومٍ مرَّاتٍ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ومَن لم يَقدرْ على الاستقامة فلْيجتهِد على القُرب مِن الاستقامة فإنَّ النَّجاة بالعمل الصَّالح.

ولا تصدر الأعمال الصَّالحة إلَّا عن الأخلاق الحَسَنة، فلْيتفقَّد كلُّ عبدٍ صِفاته وأخلاقه، ولْيشتغِل بعِلاجِ واحدٍ بعد واحدٍ، وليصبِر ذو العَزم على مَضَضِ هذا الأمر، فإنَّه سيحلو كما يحلو الفِطام للطِّفل بعد كَراهته له، فلو رُدَّ إلى الثَّدي لَكَرِهه، ومَن عرف قِصَر العُمر بالنِّسبة إلى مدَّة حياة الآخرة حَمَل مَشقَّة سفر أيَّامٍ لِتَنَعُّم الأبد، فعند الصَّباح يَحمد القوم السُّرَى.

واعلم أنَّ الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيرًا بصَّره بعُيوب نَفْسه، فمَن كَمُلت بصيرته لم تَخفَ عليه عُيوبه، وإذا عَرَف العيوب أَمكَنه العلاج، ولكنَّ أكثر النَّاس جاهلون بعُيوبهم، يرى أحدهم القَذَى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه.

فمَن أراد الوقوف على عيب نَفْسه، فله في ذلك أربعُ طُرُقٍ:

الطَّريقة الأُولى: أنْ يَجلس بين يدَي شيخٍ بصيرٍ بعيوب النَّفْس، يُعرِّفه عيوب نفسه [وطريق][1] علاجها، وهذا قد عزَّ في هذا الزَّمان وجوده، فمَن وقع به، فقد وقع بالطَّبيب الحاذق، فلا ينبغي أنْ يُفارِقَه.

الطَّريقة الثَّانية: أنْ يطلبَ صديقًا صَدوقًا بصيرًا مُتديِّنًا، ويُنصِّبه رَقيبًا على نفسه لِيُنبِّهه على المكروه مِن أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «رَحِم الله امرءًا أهدَى إلينا عيوبنا»[2].

وسأل سلمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا قدم عليه عن عيوبه، فقال: سمعتُ أنَّك جَمعتَ بين إدامَين على مائدةٍ، وأنَّ لك حُلَّتَين: حُلَّةً باللَّيل، وحُلَّةً بالنَّهار. فقال: هل بَلَغك غير هذا؟ قال: لا. قال: أمَّا هذان فقد كُفِيتُهما.

---

(١) ورد في "المطبوع" [وطرق].

(٢) رواه الدَّارِميُّ ضمن الحديث رقم (٦٧٥).

وكان عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسأل حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل أنا مِن المُنافِقين؟[١] وهذا لأنَّ كلَّ مَن عَلَت مَرتَبته في اليقظة زاد اتِّهامه لنَفْسه، إلَّا أنَّه قد عزَّ في هذا الزَّمان وُجود صديقٍ على هذه الصِّفة؛ لأنَّه قَلَّ في الأصدقاء مَن يترك المُداهَنة، فيُخبِر بالعيب، أو يَترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السَّلف يُحبُّون مَن يُنبِّهُهم على عُيوبهم، ونحن الآن في الغالب أَبغضُ النَّاس إلينا مَن يُعرِّفنا عُيوبنا.

وهذا دليلٌ على ضَعف الإيمان، فإنَّ الأخلاق السَّيِّئة كالعَقارب، ولو أنَّ مُنبِّهًا نبَّهنا على أنَّ تحت ثوب أَحَدنا عَقربًا لَتقلَّدنا له منَّةً، واشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرَّديئة أعظمُ ضررًا مِن العقرب على ما لا يخفَى.

الطَّريقة الثَّالثة: أنْ يستفيدَ معرفة عيوب نفسه مِن ألسنة أعدائه، فإنَّ عين السُّخط تُبدي المَساوئ، وانتفاع الإنسان بعدوٍّ مُشاجِرٍ يذكر عيوبه أكثرُ مِن انتفاعه بصديقٍ مُداهِنٍ يُخفي عنه عيوبه.

الطَّريقة الرَّابعة: أنْ يُخالِطَ النَّاس، فكلُّ ما يراه مذمومةً فيما بينهم، يجتنبه.

فَصْلٌ

وقد ذَكَرنا أنَّ شهوات النُّفوس لم تُوضَعْ إلَّا لفائدةٍ؛ إذ لولا شهوة المَطعَم ما حصل تناوُل الغِذاء، ولولا شهوة الجِماع لانقطع النَّسل، وإنَّما المذموم فُضول الشَّهوات وطُغيانها، وثَمَّة قومٌ لم يفهموا هذا القَدْر، فأخذوا يتركون كلَّ ما تشتهيه النَّفْس، وهذا طلبٌ لها بإسقاط حقِّها، فإنَّ لها حقًّا، بدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ لِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقًّا**»[٢]. حتى إنَّ قائلاً منهم يقول: لي كذا وكذا سنةً أشتهي كذا، فلا أتناوله.

(١) رواه ابن أبي شيبةَ في «مصنَّفه» (٣٧٣٩٠).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٣) عن سلمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وأخرجه أبو داودَ (١٣٦٩)، وأحمدُ (٢٦٣٠٨) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهذا انحرافٌ عن الحِلِّ، وخلافُ سُنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّه يتناوَل المُشتهَى مِن الحلو والعسل وغيرهما، فلا يُلتفَت إلى زاهِدٍ قَلَّ عِلمه، فحَرَم نفسه حَظَّها مِن المُشتهَى على الإطلاق، فإنَّه إلى الظُّلم أقربُ منه إلى العدل، وإنَّما يُترك المُشتهَى إذا صعبت الطَّريق إليه، مِثل ألَّا يُحصَّلَ إلَّا بوجهٍ مَكروهٍ، أو يَخاف مِن تناوُله انحلال عزمه، فتطمع النَّفس في استدامته، أو يحذر مِن ذلك زيادةَ شبعٍ، فيُثقله عن عبادته، فأمَّا تناوله في بعض الأوقات؛ لتقوية النَّفس فذلك كالطِّبِّ للمريض، يُمدَح ولا يُذَمُّ، ولا بأسَ بالرِّفق بالنَّفْس؛ لتقوى على السُّلوك.

بَيَانُ عَلَامَاتِ حُسْنِ الخُلُقِ

ربَّما جاهَد المُريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثُمَّ ظنَّ أنَّه قد هَذَّب خُلُقه، واستَغنَى عن المُجاهَدة، وليس كذلك، فإنَّ حُسن الخُلُق هو مجموع صفات المؤمنِين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخِر السُّورة.

فمَن أَشكَل عليه حاله فلَيعرض نفسه على هذه الآيات، فوُجود جميع هذه الصِّفات علامةُ حُسنِ الخُلُق، وفَقْد جميعها علامةُ سوء الخُلِق، ووجود بعضها دون البعض يدلُّ على البعض دون البعض، فلْيَشتغِل بحفظ ما وَجَده، وتحصيل ما فَقَدَه.

وقد وصف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمن بصفاتٍ كثيرةٍ، وأشار بها إلى مَحاسن الأخلاق.

ففي «الصَّحيحين»[١] مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**والذي نَفسِي بِيَدِه لا يُؤمِنُ عَبدٌ حتى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفسِه**».

وفيهما[٢] مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَن كانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرْ فَلْيُكرِمْ جارَه، ومَن كانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيرًا أو لِيَصمتْ**».

وفي حديثٍ آخَرَ: «**أَكمَلُ المُؤمِنِينَ إيمانًا أَحسَنُهُم أخلاقًا**»[٣].

ومِن حُسن الخُلُق احتمال الأذى، ففي «الصَّحيحَين»[٤] أنَّ أعرابيًّا جَذَب رداء النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أثَّرت حاشيته في عاتقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قال: يا محمَّدُ، مُر لي مِن مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ ضحك، ثُمَّ أَمَر له بعطاءٍ.

وكان إذا آذاه قومه قال: «**اللَّهمَّ اغفِر لِقَومِي فَإنَّهُم لا يَعلَمُونَ**»[٥].

وكان أويسٌ القَرنِيُّ إذا رماه الصِّبيان بالحِجارة يقول: «يا إخوتاه، إنْ كان ولا بدَّ، فارموني بالصِّغار؛ لئلَّا تُدموا ساقي، فتمنعوني مِن الصَّلاة».

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسلمٌ (٤٨) عن أبي شريحٍ الخزاعيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٦٧٣) عن أبي شريحٍ الخزاعيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسلمٌ (٤٧) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أبو داودَ (٤٦٨٢)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (٤٤٢٢) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٩٨٠)، ومسلمٌ (١٠٥٧) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) رواه البخاريُّ (٣٢٩٠)، ومسلمٌ (١٧٩٢) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وخرج إبراهيمُ بن أدهمَ إلى بعض البراري، فاستقبله جُنديٌّ فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المَقبُرة، فضَرب رأسه فشَجَّه، فلمَّا أُخبِر أنَّه إبراهيمُ جعل يُقبِّل يده ورجله، فقال: أنَّه لمَّا ضرب رأسي سألتُ اللهَ له الجَنَّة؛ لأنِّي علمتُ أنِّي أُوجَر بضربه إيَّاي، فلم أُحبَّ أنْ يكونَ نصيبي منه الخير، ونصيبه منِّي الشَّرُّ.

واجتاز بعضهم في سكَّةٍ، فطُرح عليه رمادٌ مِن السَّطح، فجَعل أصحابه يَتكلَّمون، فقال: مَن استَحَقَّ النَّار فصُولِح على الرَّماد ينبغي له ألَّا يغضبَ[1].

فهذه نفوسٌ ذُلِّلت بالرِّياضة، فاعتدلت أخلاقها، ونُقِّيتْ عن الغِشِّ بواطنها، فأثمرت الرِّضى بالقضاء، ومَن لم يجدْ مِن نفسه بعض هذه العلامات التي وَجدها هؤلاء فينبغي أنْ يُداوِم الرِّياضة؛ لِيصِلَ، فإنَّه بعدُ ما وصل.

فَصْلٌ فِي رِيَاضَةِ الصِّبْيَانِ فِي أَوَّلِ النُّشُوءِ

اعلم أنَّ الصَّبيَّ أمانةٌ عند والدَيه، وقلبه جوهرةٌ ساذجةٌ، وهي قابلةٌ لكلِّ نقشٍ، فإنْ عُوِّد الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومُؤدِّبه في ثوابه، وإنْ عُوِّد الشَّرَّ نشأ عليه، وكان الوزر في عُنق وليِّه، فينبغي أنْ يَصونه ويُؤدِّبه ويُهذِّبه، ويُعلِّمه مَحاسِن الأخلاق، ويَحفظه مِن قُرَناء السُّوء، ولا يُعوِّده التَّنعُّم، ولا يُحبِّب إليه أسباب الزِّينة وأسباب الرَّفاهيَّة، فيضيع عُمره في طَلَبها إذا كَبُر.

بل ينبغي أنْ يُراقِبه مِن أوَّل عمره، فلا يَستعمل في رَضاعه وحضانته إلَّا امرأةً صالحةً مُتديِّنةً تأكل الحلال، فإنَّ اللَّبن الحاصل مِن الحرام لا بَركة فيه، فإذا بَدَت فيه مَخايِل التَّمييز، وأوَّلها الحياء، وذلك علامة النَّجابة، وهي مُبشِّرةٌ بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يُستعان على تأديبه بحيائه.

---

(١) ذكره المناويُّ في «فيض القدير» (٤٧٢٠) وذكر الرَّجل، وهو أبو عثمانَ الحيريُّ.

وأوَّل ما يَغلب عليه مِن الصِّفات شَرَهُ الطَّعام، فينبغي أنْ يُعلَّم آداب الأكل، ويُعوِّده أَكل الخبز وحدَه في بعض الأوقات؛ لئلَّا يَألَف الإدام، فيراه كالحَتم، ويُقبِّح عنده كثرة الأكل، بأنْ يُشبِّه [الكثير][1] الأكل بالبهائم.

ويُحبِّب إليه الثِّياب البِيض دون المُلوَّنة والإبريسم، ويُقرِّر عنده أنَّ ذلك مِن شأن النِّساء والمُخنَّثين، ويَمنعه مِن مُخالَطة الصِّبيان الذي عُوِّدوا التَّنعُّم، ثُمَّ يُشغله في المَكتَب بتعليم القرآن، والحديث، وأحاديث الأخيار؛ ليَغرس في قلبه حُبَّ الصَّالِحين، ولا يَحفظ الأشعار التي فيها ذِكْر العِشق.

ومتى ظهر مِن الصَّبيِّ خُلُقٌ جميلٌ، وفِعْلٌ محمودٌ فينبغي أنْ يُكرَم عليه، ويُجازى بما يَفرح به، ويُمدح بين أَظهُر النَّاس، فإنْ خالَف ذلك في بعض الأحوال تُغُوفِل عنه، ولا يُكاشَف، فإنْ عاد عُوتِب سِرًّا، وخُوِّف مِن اطِّلاع النَّاس عليه، ولا يُكثر عليه العِتاب؛ لأنَّ ذلك يُهوِّن عليه سماع المَلامة، ولْيَكنْ حافظًا هيبةَ الكلام معه.

وينبغي للأمِّ أنْ تُخوِّفه بالأب، وينبغي أنْ يُمنَع النَّوم نهارًا؛ فإنَّه يُورِث الكسل، ولا يُمنَع النَّوم ليلًا، ولكنَّه يُمنَع الفُرُش الوطيئة لتصلب أعضاؤه، ويَتعوَّد الخشونة في المَفرَش والمَلبَس والمَطعَم، ويُعوَّد المشي والحركة والرِّياضة؛ لئلَّا يغلبَ عليه الكسل، ويُمنَع أنْ يفتخرَ على أقرانه بشيءٍ ممَّا يَملِكه أبواه، أو بمَطعَمه أو مَلبَسه، ويُعوَّد التَّواضُع والإكرام لمَن يُعاشِره، ويُمنع أنْ يأخذَ شيئًا مِن صبيٍّ مِثله، ويُعلَّم أنَّ الأخذ دناءةٌ، وأنَّ الرِّفعة في الإعطاء، ويُقبَّح عنده حُبُّ الذَّهب والفضَّة.

ويُعوَّد ألَّا يبصقَ في مَجلِسه، ولا يَتمخَّط، ولا يَتثاءب بحضرة غيره، ولا يَضع رِجلًا على رِجلٍ، ويُمنَع مِن كثرة الكلام، ويُعوَّد ألَّا يَتكلَّم إلَّا جوابًا، وأنْ يُحسِن الاستماع إذا تَكلَّم غيره ممَّن هو أكبر منه، وأنْ يقومَ لمَن هو فوقه، ويَجلس بين يدَيه.

---

(١) سقطت من "الأصل".

ويُمنَع مِن فُحش الكلام، ومِن مُخالَطة مَن يفعل ذلك، فإنَّ أصل حفظ الصِّبيان حفظهم مِن قُرَناء السُّوء.

ويَحسُن أنْ يُفسَح له بعد خُروجه مِن المَكتَب في لعبٍ جميلٍ؛ ليَستريح به مِن تعب التَّأديب، كما قيل: «رَوِّح القلوب تعِي الذِّكْر»[١].

وينبغي أنْ يُعلَّم طاعة والدَيه ومُعلِّمه وتعظيمهم.

وإذا بلغ سبع سنين أُمِر بالصَّلاة، ولم يُسامَح في ترك الطَّهارة؛ ليَتعوَّد، ويُخوَّف مِن الكذب والخيانة، وإذا قارب البلوغ أُلقِيت إليه الأمور.

واعلم أنَّ الأطعمة أدويةٌ، والمقصود منها تقوية البَدن على طاعة الله تعالى، وأنَّ الدُّنيا لا بقاءَ لها، وأنَّ الموت يَقطع نعيمها، وهو مُنتظَرٌ في كلِّ ساعةٍ، وأنَّ العاقل مَن تَزوَّد لآخِرته، فإنْ كان نشؤه صالحًا ثَبَت هذا في قلبه، كما يَثبت النَّقش في الحَجَر.

قال سهل بن عبد الله[٢]: كنتُ ابن ثلاث سنين، وأنا أَقوم باللَّيل أنظر إلى صلاة خالي محمَّد بن سوار[٣]، فقال لي خالي يومًا: أَلاَ تَذكُر الله الذي خَلَقَك؟ قلتُ: كيف أذكره؟ قال: قُل بقلبك ثلاث مرَّاتٍ مِن غير أنْ تُحرِّك لسانك: «الله معي، الله ناظرٌ إليَّ، الله شاهدي». فقلتُ ذلك ليالي، ثُمَّ أعلمتُه، فقال: قُلها في كلِّ ليلةٍ إحدى عشرَ مرَّةً. فقلت ذلك، فوَقع في قلبي حلاوته، فلمَّا كان بعد سنةٍ، قال لي خالي: احفظ ما

---

(١) رواه ابن أبي شيبةَ في «مصنَّفه» (٣٦٢٦٣)، وذكر القائل، وهو قَسامةُ بن زهير.

(٢) سهل بن عبد الله بن يونسَ أبو محمد التَّستريُّ، شيخ العارفين، أبو محمَّدٍ التَّستريُّ، الصُّوفيُّ الزَّاهد، صحب خاله محمَّد بن سوار، روى عنه الحكايات عمر بن واصل، وأبو محمد الجريريُّ، وعبَّاس بن عصام، وطائفة، له كلماتٌ نافعةٌ، ومواعظُ حسنةٌ؛ وقدمٌ راسخٌ في الطَّريق، توفِّي سنة (٢٨٣). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٣/ ٣٣٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٤٣).

(٣) محمَّد بن سوار بن إسرائيلَ، وُلد بدمشقَ سنة ثلاثٍ وستِّمائةٍ، وتوفِّي بها سنة سبعٍ وسبعين وستِّمائةٍ، صحب الشَّيخ عليًّا الحريريَّ، ولبس الخرقة مِن الشَّيخ شهاب الدِّين السَّهرورديِّ، وسمع عليه، وله حِكمٌ وشعرٌ. انظر «فوات الوَفَيات»، صلاح الدِّين بن شاكر، (٢/ ٣٨٢).

عَلَّمتُك، ودُم عليه إلى أنْ تدخلَ قبرك، فلم أزل على ذلك سنين، فوَجدت له حلاوةً في سِرِّي، ثُمَّ قال لي خالي: يا سهلُ مَن كان الله معه، وهو ناظرٌ إليه، وشاهدٌ عليه، هل يَعصيه؟ إيَّاك والمعصيةَ. ومضيتُ إلى المَكتَب، وحَفِظتُ القرآن وأنا ابن ستِّ سنين أو سبعٍ، ثُمَّ كنتُ أَصوم الدَّهر، وقُوْتي مِن خبز الشَّعير، ثُمَّ بعد ذلك كنتُ أقومَ اللَّيل كلَّه.

فَصْلٌ

واعلم أنَّ مَن شاهَد الآخرة بقلبه مُشاهَدةَ يقينٍ أصبح بالضَّرورة مُريدًا لها، زاهدًا في الدُّنيا، فإنْ كان معه خَرَزَةٌ، فرأى جوهرةً نفيسةً، لم يَبقَ له رغبةٌ في الخَرَزة، فإذا قيل له: بِعها بالجوهرة، أسرع في ذلك.

واعلم أنَّ مَن رَزَقه الله تعالى الانتباه لذلك فإنَّ عليه لسلوك الرِّياضة شرطةٌ لا بدَّ مِن تقديمه، ومُعتصَمةٍ لا بدَّ مِن التَّمسُّك به، وحِصنًا لا بدَّ مِن التَّحصُّن به.

فأمَّا الشَّرط فهو رفع الحِجاب بترك الذُّنوب.

وأمَّا المُعتصَم فشيخٌ يدلُّه على الطَّريق؛ لئلَّا تختطفه الشَّياطين في السُّبل.

وأمَّا الحِصن، فالخَلوة، وعليه مِن الوظائف مُخالَفة الهوى، وكثرة الاقتصاد في الأوراد.

ومُنتهَى الرِّياضة أنْ يجدَ قَلبه مع الله أبدًا، ولا يُمكن ذلك إلَّا بأنْ يخلوَ عن غيره، ولا يخلوَ إلَّا بِطُول المُجاهَدة، فهذا مِنهاجُ رياضةِ المُريدِ وتربيته في التَّدريج، وأمَّا تفصيل الرِّياضة في كلِّ صفةٍ فسيأتي إنْ شاء الله تعالى.

كِتابُ كَسْرِ الشَّهوتَيْنِ: شَهوةِ البَطنِ، وشَهوةِ الفَرجِ

شهوة البطن مِن أعظم المُهلِكات، وبها أُخرج آدمُ عَلَيهِ السَّلَامُ مِن الجَنَّة، ومِن شهوة البطن تَحدُث شهوة الفَرْج والرَّغبة في المال، ويَتبَع ذلك آفاتٌ كثيرةٌ، كلُّها مِن بَطَرِ الشِّبَع.

وفي الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال: «**المُؤمِنُ يأكُلُ في مِعيٍ واحِدٍ، [والكافِرُ]**(١) **يَأكُلُ في سَبعةِ أَمعاءَ**»(٢).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**ما مَلَأَ ابنُ آدَمَ وِعاءً شَرًّا مِن بَطنِه، حَسْبُ ابنِ آدَمَ أكلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإنْ كانَ لا مَحالةَ فثُلُثٌ لِطَعامِه، وثُلُثٌ لِشَرابِه، وثُلُثٌ لِنَفَسِه**»(٣).

وقال عُقبةُ الرَّاسبيُّ(٤): دخلتُ على الحسن وهو يتغدَّى، فقال: هلمَّ. فقلتُ: أَكلتُ حتى لا أستطيع. فقال: سبحانَ الله! أَوَيَأكل المسلم حتى لا يستطيع أنْ يأكل؟

وقد بالغ جماعةٌ مِن الزُّهَّاد في التَّقلُّل مِن الأكل، والصَّبر على الجوع، وقد بيَّنَّا عيبَ ما سَلَكوا في غيرِ هذا الكتاب، ومَقام العدل في الأكل رَفع اليد مع بقاء شيءٍ مِن الشَّهوة، ونهاية المَقام الحَسن قوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**فثُلُثٌ لِطَعامِه، وثُلُثٌ لِشَرابِه، وثُلُثٌ لِنَفَسِه**».

فالأكل في مقام العدل يُصحُّ البدن، ويَنفي المرض، وذلك ألَّا يتناولَ الطَّعام حتى يشتهيَه، ثُمَّ يرفع يده وهو يشتهيه، والدَّوام على التَّقلُّل مِن الطَّعام يُضعِف القِوَى، وقد قَلَّل أقوامٌ مَطاعِمَهم حتى قَصَّروا عن الفرائض، وظنُّوا بجهلهم أنَّ ذلك فضيلةٌ، وليس كذلك، ومَن مدح الجوع فإنَّما أشار إلى الحالة التي ذَكَرناها.

---

(١) ورد في "الأصل" [والكافر والمنافق].

(٢) رواه مسلمٌ (٢٠٦٢) عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٨٠) عن المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وقال التِّرمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

(٤) عُقبة بن أبي ثُبيتٍ هو ابن سريج الرَّاسبيُّ، روى عنه شعبةُ وأبو هلالٍ محمَّدٌ ومهديُّ بن ميمونٍ البصريُّ. انظر «التَّاريخ الكبير»، البخاريُّ (٦/ ٤٣٨).

وطريق الرِّياضة في كَسْر شهوة البطن أنَّ مَن تَعوَّد استدامة الشِّبَع فينبغي له أنْ يُقلِّل مِن مَطعَمه يَسيرًا مع الزَّمان، إلى أنْ يقفَ على حَدِّ التَّوسُّط الذي أَشَرنا إليه، وخَير الأمور أوساطها، فالأَولى تَناوُل ما لا يَمنع مِن العبادات، ويكون سببًا لبقاء القوَّة، فلا يُحِسُّ المُتناوِل بجوعٍ ولا شِبَعٍ، فحينئذٍ يَصحُّ البَدن، وتجتمع الهِمَّة، ويصفو الفِكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النَّوم، وبلادة الذِّهن، وذلك بتكثير البُخَار في الدِّماغ، حتى يُغطِّي مكان الفِكر، ومَوضِع الذِّكْر، ويَجلب أمراضًا أُخَر.

ولْيَحذَر مَن ترك شيئًا مِن الشَّهوات أنْ تَتطرَّق إليه آفةُ الرِّياء، وقد كان بعضهم يشتري الشَّهوة، ويُعلِّقها في بيته، وهو زاهدٌ فيها، يَستُر بها زُهده، وهذا هو الزُّهد، في الزُّهد بإظهار ضِدِّه، وهو عَمَل الصِّدِّيقين؛ لأنَّه يُجرِّع نَفْسه كأس الصَّبر مرَّتين، والثَّانية أَمَرُّ.

وأمَّا شهوة الفَرْج، فاعلم أنَّ شهوة الوِقاع سُلِّطت على الآدميِّ لفائِدَتَين:

إحداهما: بقاء النَّسل.

والثَّانية: لِيُدرِكَ لذَّةً يَقيس عليها لذَّات الآخِرة، فإنَّ ما لم يُدرَك جِنسه بالذَّوق، لا يَعظُم إليه الشَّوق، إلَّا أنَّه إذا لم تُرَدَّ هذه الشَّهوة إلى الاعتدال جَلَبت آفاتٍ كثيرةً، ومِحَنًا، ولولا ذلك ما كان النِّساء حبائل الشَّيطان.

وفي الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما تَركتُ في النَّاسِ بَعدِي فِتنَةً أَضَرَّ على الرِّجالِ مِن النِّساءِ**»[(١)].

وقال بعض الصَّالحين: لو ائتمنني رجلٌ على بيت مالٍ لظننتُ أنْ أؤدِّيَ إليه الأمانة، ولو ائتمنني على زنجيَّةٍ أخلو بها ساعةً واحدةً ما ائتمنتُ نفسي عليها[(٢)].

وعن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَخلُوَنَّ رَجُلٌ بامرَأةٍ فَإنَّ ثالِثَهُما الشَّيطانُ**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٠٨)، ومسلمٌ (٢٧٤٠) عن أسامةَ بن زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٢٢٥٥) مِن قول يوسفَ بن أسباطٍ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (١١٧١)، وابن ماجه (٥٥٨٦) عن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشَّهوة حتى تَصرِف هِمَّة الرَّجل إلى كثرة التَّمتُّع بالنِّساء، فيَشغله عن ذِكْر الآخِرة، وربَّما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العِشق، وهو أقبح الشَّهوات، وأَجدرُها أنْ يُستحيَى منه، وقد يَقع عند كثير مِن النَّاس عِشق المال، والجاه، واللَّعب بالنَّرد، والشَّطرنج، والطُّيور، ونحو ذلك، فتَستولي هذه الأشياء على القلوب، فلا يصبرون عنها.

ويَسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور؛ فإنَّ آخِرَها يفتقر إلى علاجٍ شديدٍ، وقد لا ينجع، ومِثاله مَن يَصرف عِنان الدَّابَّة عند توجُّهها إلى بابٍ تُريد دخوله، فما أهونَ منعُها بصَرف عِنانها!

ومِثال مَن يُعالِجه بعد استحكامه مِثال مَن يتركها حتى يدخل الباب وتُجاوِزَه، ثُمَّ يأخذ بِذَنَبِها يَجرُّها إلى وراءٍ، وما أعظمَ التَّفاوت بين الأمرَين!

كِتَابُ آفَاتِ اللِّسَانِ

وآفاته كثيرةٌ متنوِّعةٌ، ولها في القلب حلاوةٌ، ولها بواعثُ مِن الطَّبع، ولا نَجاةَ مِن خطَرِها إلَّا بالصَّمت، فلْنَذْكر أوَّلًا فضيلة الصَّمت، ثُمَّ نُتبِعُه بذِكْر الآفات مُفصَّلةً إنْ شاء الله تعالى.

اعلم أنَّ الصَّمت يَجمع الهِمَّة، ويُفرغ الفِكر.

وفي الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن يَضمَنُ لي ما بَينَ لَحْيَيْهِ، وما بَينَ رِجلَيهِ أَضمَنْ له الجَنَّةَ**»(١).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**لا يَستَقِيمُ إيمانُ عَبدٍ حتى يَستَقِيمَ قَلبُه، ولا يَستَقِيمُ قَلبُه حتى يَستَقِيمَ لِسانُه**»(٢).

وفي حديث معاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في آخره: «**كُفَّ عَلَيكَ هَذا**». فقلتُ: يا رسول الله، وإنَّا لَمُؤاخَذُون بما نَتكلَّم به؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ، وَهَل يُكِبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلى وُجُوهِهِم، أو قال: عَلى مَناخِرِهِم إلَّا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ؟**»(٣).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**مَنْ كَفَّ لِسانَه سَتَرَ اللهُ عَورَتَهُ**»(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٠٩) عن سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٨)، وأحمدُ (١٣٠٤٨) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٣/ ١٠٩): رواه ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت»، والخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق» بسندٍ فيه ضعفٌ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٦١٦)، وأحمد (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) والبيهقي في «الشعب» (٤٦٠٧)، وقال التِّرمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

(٤) قال الحافظ العراقي (٦/ ٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما شيءٌ أحوجُ إلى طُولِ سَجنٍ مِن لساني»(١).

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنصِف أُذنَيك مِن فيك، فإنَّما جُعِلت لك أذنان وفَمٌ واحدٌ لتَسمع أكثرَ ممَّا تَتكلَّم به».

وقال مَخلَد بن الحسين(٢): «ما تكلَّمتُ منذ خمسين سنةً بكلمةٍ أُريد أنْ أَعتذِر منها»(٣).

ذِكْرُ آفاتِ الكلامِ: الآفةُ الأُولى: الكلامُ فيما لا يَعني

واعلم أنَّ مَن عَرَف قَدْر زمانه، وأنَّه رأس ماله لم يُنفقْه إلَّا في فائدةٍ، وهذه المعرفة تُوجِب حَبْس اللِّسان عن الكلام فيما لا يَعني؛ لأنَّه مَن تَرَك ذِكْر الله تعالى، واشتغل فيما لا يَعني، كان كمَن قَدر على أَخْذ جوهرةٍ، فأَخَذ عِوضها مَدرَةً، وهذا خُسران العُمر.

وفي الحديث الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مِن حُسْنِ إسلامِ المَرءِ تَركُهُ ما لا يَعنِيهِ**»(٤).

وقيل للقمانَ الحكيم: ما بلغ مِن حكمتك؟ قال: «لا أسأل عمَّا كُفيتُه، ولا أتكلَّم بما لا يَعنِيني»(٥).

---

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٨٧٤٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٤٩٩).

(٢) مَخلَد بن الحسين أبو محمَّدٍ الأزديُّ، حدَّث عن موسى بن عقبةَ، وهشام بن حسَّان، ويونس بن يزيد، والأوزاعيِّ، وعدَّة، وعنه حجَّاج بن محمد، والحسن بن الربيع، توفِّي سنة (١٩١). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٩/ ٢٣٦).

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٢٦٦).

(٤) رواه التِّرمذيّ (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و والترمذي (٢٣١٨)، أحمد (١٧٣٧) عن علي بن الحسين مرسلًا، وقال الترمذي: وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ذكره أبو عمر النميريُّ في «بهجة المجالس» (ص١١).

وقد رُوي أنَّه دخل على داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يَسرد دِرعًا، فجعل يَتعجَّب ممَّا يرى، فأراد أنْ يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته، فأمسك، فلمَّا فرغ داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قام، ولَبِس الدِّرع، ثُمَّ قال: نِعْمَ الدِّرع للحرب. فقال لقمانُ: الصَّمت حكمٌ، وقليلٌ فاعله[١].

الآفَةُ الثَّانِيَةُ: الخَوْضُ في البَاطِلِ

وهو الكلام في المعاصي، كذِكْر مجالِس الخمر، ومَقامات الفُسَّاق.

وأنواع الباطل كثيرةٌ، وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّ العَبدَ لَيَتكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ يَزِلُّ بِها في النَّارِ أبعَدَ ما بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ**»[٢].

وقريبٌ مِن ذلك الجِدال والمِراء، وهو كثر الملاحاة[٣] للشَّخص؛ لبيان غَلَطه وإفحامه، والباعث على ذلك التَّرفُّع.

فيَنبغي للإنسان أنْ يُنكِر المُنكَر مِن القَول، ويُبيِّن الصَّواب، فإنْ قَبِل منه وإلَّا تَرَكَ المُماراة، هذا إذا كان الأمر مُعلَّقًا بالدِّين، فأمَّا إذا كان في أُمور الدُّنيا، فلا وجهَ للمُجادَلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكَسْر الكِبْر الباعث على إظهار الفَضْل، وأعظم مِن المراء الخصومة، فإنَّها أمرٌ زائدٌ على المِراء.

وعن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**أَبغَضُ الرِّجالِ إلى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ**»[٤].

وهذه الخُصومة نَعني بها الخصومة بالباطل، أو بغير عِلمٍ، فأمَّا مَن له حَقٌّ فالأَولى أنْ يَصدف عن الخصومة مهما أمكن؛ لأنَّها تُوغِر الصَّدْر، وتُهيِّج الغضب، وتُورِث الحقد، وتُخرِج إلى تَناوُل العِرض.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٦٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٨٢) مِن قول أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الحاكم: صحيحٌ على شرط مسلمٍ، ولم يخرِّجاه. ووافقه الذَّهبيُّ.

(٢) رواه البخاريّ (٦١١٢) ومسلم (٢٩٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الملاحاة: المنازعة. انظر لسان العرب مادة (ل ح ي).

(٤) رواه البخاريُّ (٢٣٢٥)، ومسلمٌ (٢٦٦٨) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآفَةُ الثَّالِثَةُ: التَّقَعُّرُ في الكَلامِ

وذلك يكون بالتَّشدُّق، وتكلُّف السَّجْع.

وعن أبي ثعلبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ أبغَضُكُم إليَّ، وأَبعَدُكُم منِّي يومَ القِيامةِ مَساوِيكُم أَخلاقًا، الثَّرثارُونَ المُتَشدِّقُون [المُتَفَهقُون]**[١]»[٢].

ولا يدخل في كراهة السَّجع والتَّصنُّع ألفاظ الخطيب، والتَّذكير مِن غير إفراطٍ، ولا إغرابٍ؛ لأنَّ المقصود مِن ذلك تَحريك القلوب، وتشويقُها، ورشاقة اللَّفظ، ونحوُ ذلك.

الآفَةُ الرَّابِعَةُ: الفُحْشُ والسَّبُّ والبَذاءُ

ونحو ذلك، فإنَّه مذمومٌ مَنهيٌّ عنه، ومَصدره الخُبْث واللُّؤم.

وفي الحديث: «**إيَّاكُم والفُحشَ، فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفُحشَ ولا التَّفَحُّشَ، الجَنَّةُ حَرامٌ على كُلِّ فاحِشٍ**»[٣].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**لَيسَ المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ، ولا الفاحِشِ، ولا البَذِيءِ**»[٤].

---

(١) ورد في "خ" [المتفيهقون].

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٦١٦)، وأحمدُ (١٧٧٣٢)، عن أبي ثعلبةَ الخشنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه التِّرمذيُّ (٢٠١٨) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هذا الوجه، وقال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٤٢٣): أخرجه أحمدُ مِن حديث أبي ثعلبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو عند التِّرمذيِّ مِن حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه.

(٣) رواه أبو داودَ (٤٠٨٩) عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٠٥٥)، وأحمدُ (٦٤٨٧) وابن حبان (٥١٧٦) عن عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٤٢٨): أخرجه النَّسائيُّ في «الكبرى» في التَّفسير، والحاكم، وصحَّحه مِن حديث عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورواه ابن حِبَّانَ مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه التِّرمذيّ (١٩٧٨) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وقال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٤٣٠): أخرجه التِّرمذيُّ بإسنادٍ صحيحٍ مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،=

واعلم أنَّ الفُحش والبَذاء هو التَّعبير عن الأمور المُستقبَحة بالعِبارات الصَّريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجِماع وما يتعلَّق به، فإنَّ أهلَ الخير يَتحاشَون عن تلك العِبارات، ويُكنُّون عنها.

ومن الآفات الغِناء، وقد سبق فيه كلامٌ في غير هذا الموضع.

الآفة الخامسة: المُزاح

أمَّا اليسير منه فلا يُنهَى عنه إذا كان صِدقًا.

فإن النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح، ولا يقول إلَّا حقًّا، فإنَّه قال لرجلٍ: «**يا ذا الأُذُنَين**»(١).

وقال لآخَرَ: «**إنَّا حامِلُوكَ على وَلَدِ النَّاقَةِ**»(٢).

وقال للعجوز: «**إنَّه لا يَدخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ**»(٣). ثُمَّ قرأ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٥، ٣٦].

وقال لأُخرَى: «**زَوجُكِ الذي في عَينَيهِ بَياضٌ؟**»(٤).

فقد اتَّفق في مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقًّا.

= وقال: حسنٌ غريبٌ. وصحَّحه، ورُوي موقوفًا، قال الدَّار قطنيُّ في «العلل»: والموقوف أصحُّ.

(١) رواه التِّرمذيّ (١٩٩٢)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٩٩٨)، والتِّرمذيُّ (١٩٩١) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديث صحيح غريب.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥٥٤٥)، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٤) رواه التِّرمذيُّ في «الشَّمائل» (٢٤٠)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٤٧٧): أخرجه التِّرمذيُّ في «الشَّمائل» مُرسَلًا، وأسنده ابن الجوزيِّ في الوفاء مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

والثَّاني: كونه مع النِّساء والصِّبيان، ومَن يحتاج إلى تأديبه مِن ضُعفاء الرِّجال.

والثَّالث: كونه نادرًا، فلا ينبغي أنْ يحتجَّ به مَن يُريد الدَّوام عليه، فإنَّ حُكم النَّادر ليس كحُكم الدَّائم، ولو أنَّ إنسانًا دار مع الحَبَشة ليلًا ونهارًا ينظر إلى لَعِبهم، واحتجَّ بأنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وقف لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وأذِن لها أنْ تنظُر إلى الحبشة[١] لكان غالطًا، لنُدور ذلك، فالإفراط في المزاح، والمُداوَمة عليه مَنهيٌّ عنه؛ لأنَّه يُسقط الوقار، ويُوجب الضَّغائن والأحقاد، وأمَّا اليسير كما تقدَّم، مِن نحوِ نوعِ مزاح النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ فيه انبساطًا وطِيب نفسٍ.

الآفَةُ السَّادِسَةُ: السُّخْرِيَةُ وَالاسْتِهْزَاءُ

ومعنى السُّخرية الاحتقار والاستهانة، والتَّنبيه على العُيوب والنَّقائص على وجهٍ يُضحك منه، وقد يكون ذلك بالمُحاكات في الفِعل والقَول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكلُّه ممنوعٌ منه في الشَّرع، وَرَد النَّهي عنه في الكتاب والسُّنَّة.

وَالآفَةُ السَّابِعَةُ: إفْشَاءُ السِّرِّ، وَإِخْلَافُ الوَعْدِ، وَالكَذِبُ فِي القَوْلِ وَاليَمِينِ

وكلُّ ذلك مَنهيٌّ عنه، إلَّا ما رُخِّص فيه مِن الكذب لِزَوجته، وفي الحرب، فإنَّ ذلك يُباح.

وضابطه أنَّ كلَّ مقصودٍ محمودٍ لا يُمكن التَّوصُّل إليه إلَّا بالكَذِب، فهو فيه مُباحٌ إنْ كان ذلك المقصود مُباحًا، وإنْ كان المقصود واجبًا، فهو واجبٌ، فينبغي أنْ يُحترَز عن الكذب مهما أَمكنَ.

وتُباح المَعاريض؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ في المَعارِيضِ مَندُوحَةً عَنِ الكَذِبِ**»[٢]. وإنَّما تَصلح المَعارِيض عند الحاجة إليها، فأمَّا مع غير الحاجة، فمكروهةٌ لأنَّها تُشبه الكَذِب.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٣)، ومسلم (٨٩٢) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا.

(٢) رواه البخاريُّ مُعلَّقًا في ترجمة الباب، وأخرجه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٤٥٨) عن مطرف بن =

فمِن المعاريض ما روينا عن عبد الله بن رواحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه أصاب جاريةً له، فعَلِمت امرأته، فأخذت شَفرةً، ثُمَّ أتت فوافقته قد قام عنها، فقالت: أَفَعَلتَها؟ فقال: ما فعلتُ شيئًا. قالت: لَتَقرَأنَّ القرآنَ، أو لَأَبعَجَنَّكَ بها. فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وفِينا رَسُولُ اللهِ يَتلُو كِتابَه ... إذا انشَقَّ مَعرُوفٌ مِن الفَجرِ ساطِعُ
يَبيتُ يُجافِي جَنبَهُ عن فِراشِه ... إذا استَثقَلَتْ بالكافِرِينَ المَضاجِعُ
أَرانا الهُدَى بَعدَ العَمَى فَقُلُوبُنا ... به مُوقِنَاتٌ أنَّ ما قالَ واقِعُ

قالت: آمنتُ بالله، وكذَّبت بصري[١].

وكان النَّخعيُّ[٢] إذا طُلِب قال للجارية: قولي لهم: اطلبوه في المسجد.

الآفَةُ الثَّامِنَةُ: الغِيبَةُ

وقد ورد الكتاب العزيز بالنَّهي عنها، وشَبَّه صاحبها بآكِل الميتة.

وفي الحديث: «**إنَّ دِماءَكُم، وأَموالَكُم، وأَعراضَكُم عَلَيكُم حَرامٌ**»[٣].

وعن أبي بَرزَةَ الأسلميِّ[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:...

= عبد الله، وقال: هذا هو الصَّحيح موقوفًا.

(١) روى القصَّة ابن كثيرٍ في «جامع المسانيد والسُّنن» (٦٣١٦)، وذكرها ابن الأثير في «أُسْد الغابة» (٦/ ٤٢٧).

(٢) أبو عمرانَ إبراهيمَ بن يزيدَ النَّخعيُّ، الإمام الحافظ فقيه العراق، اليمانيُّ ثُمَّ الكوفِيُّ، أحد الأعلام، وكان مفتي أهل الكوفة هو والشَّعبيُّ في زمانهما، وعن الأعمش قال: كان إبراهيمُ صيرفيَّ الحديث، توفي سنة (٩٩هـ). انظر: «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ٥٢٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٧)، ومسلمٌ (١٢١٨) عن أبي بكرة.

(٤) أَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ نَضْلَةُ بنُ عُبَيْدٍ، صَاحِبُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْلَمَ قَدِيماً، وَشَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ رَوَى عِدَّةَ أَحَادِيْثَ، رَوَى عَنْهُ ابْنُهُ؛ المُغِيْرَةُ، وَحَفِيْدَتُهُ مُنْيَةُ بِنْتُ عُبَيْدٍ، وَأَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ وغيرهم، تُوفِّي قَبلَ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة (٦٠)، انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ (٣/ ٤١)، «الأصابة»، ابن حجر العسقلانيُّ، (٦/ ٣٤١)، «أُسد الغابة»، ابن الأثير، (٥/ ٣١).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا مَعشرَ مَن آمَنَ بِلسانِه، ولَم يَدخِلِ الإيمانُ قَلبَه، لا تَغتابُوا المُسلِمِين، ولا تَتَّبِعُوا عَوراتِهِم، فإنَّه مَن تَتَبَّعَ اللهُ عَورَتَه يَفضَحْه في جَوفِ بَيتِه**»(١).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**إيَّاكُم وَالغِيبةَ، فإنَّ الغِيبةَ أَشدُّ مِنَ الزِّنا، إنَّ الرَّجُلَ قَد يَزنِي وَيَشربُ، ثُمَّ يَتوبُ، ويَتوبُ اللهُ عَليهِ، وإنَّ صاحِبَ الغِيبةِ لا يُغفَرُ لَه حتى يَغفِرَ لَه صاحِبُه**»(٢).

وقال عليُّ بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إيَّاك والغيبةَ، فإنَّها إدام كلاب النَّاس»(٣).

والأحاديث والآثار في ذلك كثيرةٌ مشهورةٌ.

ومعنى الغِيبة: أنْ تَذكُر أخاك الغائب بما يَكرَهه إذا بلغه، سواءٌ كان نقصًا في بَدَنه، كالعَمَش، والعَوَر، والحَوَل، والقَرَع، والطُّول، والقِصَر، ونحو ذلك.

أو في نسبه، كقولك: أبوه نبطيٌّ، أو هنديٌّ، أو فاسقٌ، أو خسيسٌ، ونحو ذلك.

أو في خُلُقِه كقولك: هو سيِّء الخُلُق، بخيلٌ، مُتكبِّرٌ، ونحو ذلك.

أو في ثوبه، كقولك: هو طويل الذَّيل، واسعُ الكمِّ، وَسِخ الثِّياب.

والدَّليل على ذلك أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن الغِيبة قال: «**ذِكْرُكَ أَخاكَ بِما يَكرَهُ**». قال: أَرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: «**إنْ كانَ في أَخِيكَ ما تَقُولُ فَقَدِ اغتَبتَهُ، وإنْ لم يَكنْ فِيه ما تَقُولُ فَقَد بَهَتَه**»(٤).

---

(١) رواه أحمدُ (١٩٧٧٦) وأبو داودَ (٤٨٨٠) والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٣٢٧٨) عن أبي برزةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٣٩٧): أخرجه أبو داودَ مِن حديث أبي برزةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسنادٍ جيِّدٍ، وللتِّرمذيِّ مِن حديث ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وحسنه.

(٢) قال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٥٢): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت»، وابن حِبَّانَ في «الضُّعفاء»، وابن مردوية في «التَّفسير».

(٣) رواه زيد بن عليٍّ في «مسنده» (ص٤٠٨)

(٤) رواه مسلمٌ (٢٥٨٩) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واعلم أنَّ كلَّ ما يُفهَم منه مقصود الذَّمِّ فهو داخلُ الغِيبة، سواءٌ كان بكلامٍ أو بغيرِه، كالغَمْز، والإشارة، والكتابة بالقلم، فإنَّ القلم أَحدُ اللِّسانَين.

وأقبح أنواع الغِيبة، غِيبة المُتزهِّدين المُرائين؛ مِثل أنْ يُذكر عندهم إنسانٌ فيقولون: الحمدلله الذي لم يَبتلِنا بالدُّخول على السُّلطان، والتَّبذُّل في طلب الحِطام. أو يقولون: نعوذ بالله مِن قِلَّة الحياء. أو نسأل الله العافية. فإنَّهم يجمعون بين ذَمِّ المذكور، ومدح أنفسهم.

وربَّما قال أحدهم عند ذِكْر إنسانٍ: ذاك المسكين قد بُلي بآفةٍ عظيمةٍ، تاب الله علينا وعليه، فهو يُظهر الدُّعاء، ويُخفِي قَصده.

واعلم أنَّ المُستمِع للغِيبة شريكٌ فيها، ولا يُتخلَّص مِن إثم سماعها إلَّا أنْ يُنكِرَ بلسانه، فإنْ خاف فبقلبه، وإنْ قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلامٍ آخَر، لزمه ذلك.

وقد رُوي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**مَنْ أُذِلَّ عِندَه مُؤمِنٌ، وهو يَقدرُ أنْ يَنصرَه أذَلَّه اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **على رُؤوسِ الخَلائِقِ**»[١].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن حَمَى مُؤمِنًا مِن مُنافِقٍ يَعِيبُه بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يَحمِي لَحمَه يَومَ القِيامةِ مِن نارِ جَهَنَّمَ**»[٢].

ورأى عمرو بن عتبةَ مولاه مع رجلٍ، وهو يقع في آخَرَ فقال له: «ويلكَ، نزِّه سمعك عن استماع الخنا، كما تُنزِّه نَفْسك عن القول به، فالمُستمِع شريك القائل، وإنَّما نَظَر إلى شَرِّ ما في وعائه، فأفرغه في وعائك، ولو رُدَّت كلمة سفيهٍ في فيه لسَعِد بها رادُّها كما شقي بها قائلها»[٣].

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ (٥٥٥٤)، وأحمدُ (١٥٩٥٨)، عن سهل بن حُنيفٍ، عن أبيه، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٧٤): أخرجه الطَّبرانِيُّ مِن حديث سهل بن حُنيف، وفيه ابن لهيعةَ.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٢٢٥)، وأبو داودَ (٤٨٨٤)، أحمدُ (١٥٦٤٩) عن معاذ بن أنسٍ الجهنيِّ، عن أبيه، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٤٥٠): أخرجه أبو داودَ مِن حديث معاذ بن أنسٍ نحوه بسندٍ ضعيفٍ.

(٣) رواه ابن عساكرَ في «تاريخ دمشق» (٤٦/ ٢٧٥).

وقد وردت أحاديثُ في حقِّ المسلم على المسلم، تقدَّمت في كتاب الصُّحبة.

فَصْلٌ في بَيَانِ الأسْبَابِ البَاعِثَةِ عَلَى الغِيبَةِ وذِكْرِ عِلَاجِهَا

أمَّا الأسباب التي تبعث على الغِيبة فكثيرةٌ:

منها: تَشفِّي الغيظ، بأنْ يَجرِي مِن إنسانٍ في حقِّ آخَرَ سببٌ يُوجب غيظه، فكلَّما هاج غضبه تَشفَّى بغِيبة صاحبه.

السَّبب الثَّاني مِن البواعث على الغِيبة: مُوافَقة الأقران، ومُجامَلة الرُّفقاء ومساعدتهم، فإنَّهم إذا كانوا يَتفكَّهون في الأعراض رأى هذا أنَّه إذا أَنكَر عليهم، أو قَطَع كلامهم استثقلوه، ونفروا عنه، فيُساعِدهم، ويرى ذلك مِن حُسْنِ المُعاشَرة.

الثَّالث: إرادة رَفْع نفسه بتَنقيص غيرِه، فيقول: فلانٌ جاهلٌ، وفَهْمه ركيكٌ، ونحو ذلك، وغرضه أنْ يُثبِتَ في ضمن ذلك فضل نفسه، ويُريهم أنَّه أَعلم منه.

وكذلك الحسد في ثَناء النَّاس على شخصٍ، وحُبِّهم له، وإكرامهم، فيَقدح فيه؛ ليقصد زوال ذلك.

الرَّابع: اللَّعب والهزل، فيَذكر غيره بما يُضحِك النَّاس به على سبيل المُحاكاة، حتى إنَّ بعض النَّاس يكون كَسْبه مِن هذا.

وأمَّا عِلاج الغِيبة فَلْيَعلم المُغتاب أنَّه بالغِيبة مُتعرِّض لسخط الله تعالى ومَقته، وأنَّ حسناته تُنقَل إلى المُغتاب إليه، وإنْ لم يكنْ له حسناتٌ نُقل إليه مِن سيِّئات خصمه، فمَنِ استحضر ذلك لم يُطلِق لسانه بالغِيبة.

وينبغي إذا عَرَضتْ له الغِيبة أنْ يتفكَّر في عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، ويستحيي أنْ يُعيِّب وهو مَعيبٌ، كما قال بعضهم:

فـإنْ عِبْـتَ قَومًـا بالـذي فِيـكَ مِثلَـه ... فكَيـفَ يَعيـبُ النَّـاسَ مَـن هـو أعـوَرُ
وإنْ عِبـتَ قَومًـا بالـذي لَيـسَ فِيهِـمُ ... فذلِـكَ عِنـدَ اللهِ والنَّـاسِ أكبَـرُ

وإنْ ظنَّ أنَّه سليمٌ مِن العيوب، فلْيَتأمَّل بالشُّكر على نِعَم الله عليه، ولا يُلوِّث نفسه بأقبح العيوب وهو الغِيبة، وكما لا يَرضَى لنفسه بغِيبة غيره له، فينبغي ألَّا يرضاها لغيره مِن نفسه.

فلينظر في السَّبب الباعث على الغِيبة، فيَجتهد على قَطْعه، فإنَّ علاج العِلَّة يكون بقطع سببها، وقد ذَكَرنا بعض أسبابها، فيُعالِج الغضب بما سيأتي في كتاب الغضب، ويُعالِج مُوافَقة الجُلَّاس بأنْ يعلمَ أنَّ الله تعالى يغضب على مَن طلب رضَى المَخلوقِين بسخطه، بل ينبغي أنْ يغضبَ على رفقائه، وعلى نحو هذا مُعالَجة البواقي.

فصلٌ وقد تحصُلُ الغِيبةُ بالقلبِ، وذلكَ سُوءُ الظَّنِّ بالمُسلمِينَ

والظَّنُّ ما تَركَنُ إليه النَّفس ويميل إليه القلب، فليس لك أنْ تظنَّ بالمسلم شرًّا، إلَّا إذا انكشف أمْرٌ لا يَحتمِل التَّأويل، فإنْ أَخبرك بذلك عدلٌ، فمال قلبك إلى تصديقه كنتَ معذورًا؛ لأنَّكَ لو كذَّبته كنتَ قد أسأتَ الظَّنَّ بالمُخبِر، فلا ينبغي أنْ تُحسن الظَّنَّ بواحدٍ، وتسيئه بآخَرَ، بل ينبغي أنْ تبحثَ، هل بينهما عداوةٌ وحسدٌ؟ فتَتطرَّق التُّهمة حينَئذٍ بسبب ذلك، ومتى خَطَر لك خاطرُ سوءٍ على مسلمٍ فينبغي أنْ تزيد في مُراعاته، وتدعوَ له بالخير، فإنَّ ذلك يغيظ الشَّيطان، ويَدفعه عنك، فلا يُلقي إليك خاطر السُّوء خيفةً مِن اشتغالك بالدُّعاء والمُراعاة.

وإذا تحقَّقت هفوة مسلمٍ فانصحه في السِّرِّ.

واعلم أنَّ مِن ثمرات سوء الظَّنِّ التَّجسُّس، فإنَّ القلب لا يَقنع بالظَّنِّ، بل يَطلب التَّحقيق، فيشتغل بالتَّجسُّس، وذلك مَنهيٌّ عنه؛ لأنَّه يُوصِل إلى هَتك ستر المُسلم، ولو لم ينكشفْ لك، كان قلبك أسلمَ للمسلم.

بيان الأعذار المرخّصة في الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم أنَّ المُرخَّص في ذِكْر مساوئ الغير، وهو غرضٌ صحيحٌ في الشّرع، لا يُمكن التَّوصُّل إليه إلَّا به، وذلك يدفع إثم الغِيبة، وهو أمورٌ:

أحدها: التَّظلُّم، فإنَّ للمظلوم أنْ يذكرَ الظَّالم إذا استعداه إلى مَن يَستوفي حقَّه.

الثَّاني: الاستعانة على تغيير المُنكَر، ورَدِّ الظَّالم إلى منهاج الصَّلاح.

الثَّالث: الاستفتاء، مِثل أنْ يقول للمُفتِي: ظَلَمَني فلانٌ، أو أَخَذ حقِّي، فكيف طريقي في الخلاص، فالتَّعيين مُباحٌ، والأَولى التَّعريض، وهو أنْ يقول: ما تقول في رجلٍ ظَلَمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟

والدَّليل على إباحة التَّعيين حديث هندٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1] حين قالت: إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ. ولم يُنكِر عليها النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

الأمر الرَّابع: تحذير المسلمين، مِثل أنْ تَرى مُتفقِّهًا يَتردَّد إلى مُبتدِعٍ أو فاسقٍ، وتخاف أنْ يتعدَّى إليه ذلك، فلك أنْ تكشف له الحال.

وكذلك إذا عرفتَ مِن عبدك السَّرقة أو الفسق، فتَذكر ذلك للمُشتري.

وكذلك المُستشار في التَّزوُّج، وإيداع الأمانة له أنْ يذكرَ ما يَعرفه على قصد النُّصح للمُستشير، لا على قصد الوقيعة، إذا علم أنَّه لا ينزجر إلَّا بالتَّصريح.

الخامس: أنْ يكونَ معروفًا بلقبٍ، كالأعرج، والأعمش، فلا إثمَ على مَن يَذْكره به، وإنْ وَجد عن ذلك مَعدلًا كان أَولى.

---

(١) هند بنت عتبةَ بن ربيعةَ، صحابيَّةٌ، قرشيَّةٌ، عالية الشُّهرة، وهي أمُّ الخليفة الأُمويِّ معاوية بن أبي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، تزوَّجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول الفاكه بن المغيرة المخزوميِّ، وكانت فصيحةً جريئةً، صاحبة رأيٍ وحزم ونَفْسٍ وأَنَفة، توفِّيت سنة (١٤). انظر «أُسد الغابة»، (٨/ ٩٨)، «طبقات ابن سعد»، (٨/ ١٧٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ٩٨).

(٢) رواه البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (١٧١٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

السَّادس: أنْ يكونَ مُجاهِرًا بالفسق، ولا يستنكفُ أنْ يُذكَرَ به.

وقد رُوي عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحَيَاءِ فَلا غِيبةَ لَه**»(١).

وقيل للحسن: الفاجر المُعلِن بفجوره، ذِكْري له بما فيه غِيبةٌ؟ قال: لا، ولا كرامةَ.

وأمَّا كفَّارة الغِيبة، فاعلم أنَّ المُغتاب قد جنى جنايتَين:

إحداهما: على حقِّ الله تعالى، إذ فَعَل ما نهاه عنه، فكفَّارة ذلك التَّوبة والنَّدم.

والجناية الثَّانية: على عِرض المخلوق، فإنْ كانتِ الغِيبة قد بلغت الرَّجل جاء إليه واستَحلَّه، وأظهر له النَّدم على فِعله.

وقد روى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ كَانَتْ عِندَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ مالٍ أو عِرْضٍ، فَلْيَأْتِه فَلْيَستَحِلَّها مِنهُ قَبْلَ أَنْ يُؤخَذَ وَلَيسَ عِندَهُ دِرْهَمٌ وَلا دِينَارٌ، فَإنْ كَانَتَ لَه حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن حَسَناتِهِ فَأُعطِيَها هَذَا، وَإلَّا أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ هَذَا فَأُلقِيَ عَلَيهِ**»(٢).

وإنْ كانت الغِيبة لم تَبلغ الرَّجل، جُعِل مكان استحلاله الاستغفار له؛ لئلَّا يُخبره بما لا يعلمه، فيُوغر صدره.

وقد ورد في الحديث: «**كَفَّارةُ مَن اغتِيبَ أنْ يُستَغفَرَ لَه**»(٣).

وقال مجاهدٌ(٤): «كفَّارة أَكلك لحم أخيك أنْ تُثنيَ عليه، وتدعوَ له بخيرٍ،..........

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الكبرى» (٢٠٩١٥)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٢/ ١٦٧): أخرجه ابن عديٍّ، وابن حِبَّانَ في «الضُّعفاء» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦١٦٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) قال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٩٢): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت»، والحارث بن أبي أسامةَ في «مسنده» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

(٤) مجاهد بن جبرٍ، أبو الحجَّاج، تابعيٌّ، مولى السَّائب المخزوميِّ المكِّيِّ، قرأ على ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصَحِب ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مدَّةً كبيرةً، وأخذ عنه وحدَّث عنه قتادةُ وعمرو بن دينارٍ وغيرهم، قال قتادةُ: أَعلَمُ مَن بقي بالتَّفسير مجاهدٌ، (٢١ - ١٠٤هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٢م). (انظر: صفة الصَّفوة، ابن الجوزيِّ، ٢/ ٢٠٨، طبقات المفسِّرين، الدَّاوديُّ، ١/ ١١، الأعلام، الزِّركليُّ، ٦/ ٢٧٨).

وكذلك إنْ كان قد مات»[١].

الآفة التاسعة من آفات اللسان: النميمة

وفي الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[٢]. وهو النَّمَّام.

واعلم أنَّ النَّميمة تُطلَق في الغالب على نقل قول إنسانٍ، مِثل أنْ يقول: قال فيك فلانٌ كذا وكذا. وليست مخصوصةً بهذا، بل حَدُّها كَشْف ما يُكرَه كَشفه، سواءٌ كان مِن الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يَدفن مالًا لنفسه فذَكَره فهو نميمةٌ، وكلُّ مَن نُقِلت إليه النَّميمة، مِثل أنْ يُقال له: قال فيك فلانٌ كذا وكذا، أو فعل في حقِّك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستَّة أشياءَ:

الأوَّل: ألَّا يُصدِّق النَّاقل؛ لأنَّ النَّمام فاسقٌ مردود الشَّهادة.

الثَّاني: أنْ ينهاه عن ذلك، وينصحه.

الثَّالث: أنْ يُبغِضه في الله، فإنَّه بغيضٌ عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

الرَّابع: ألَّا يَظنَّ بأخيه الغائب السُّوء.

الخامس: ألَّا يَحملَه ما حُكي له على التَّجسُّس والبحث؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

---

(١) قال ابن حجر العسقلانيُّ في «المطالب العالية» (١١/ ٧٨٢): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت»، وفي «ذمِّ الغيبة»، وفي إسناده محمَّد بن عبد الله اللَّيثيُّ، قال الذَّهبي في «المغني»: ضعَّفوه، وبعضهم تركه. وعليه يُتبيَّن أنَّ ما ورد في كفَّارة الاغتياب مِن أحاديث لا تصلح للاعتبار، فهي أمَّا ضعيفةٌ جدًّا، أو موضوعةٌ، أو بها مبهَمٌ لا نستطيع الحكم على حديثه.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٥٦)، ومسلمٌ (١٠٥) عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

السَّادس: أَلَّا يَرضى لنفسه ما نهى النَّمام عنه، فلا يَحكي نميمته.

ويُروى أنَّ سليمانَ بن عبد الملك[1] قال لرجلٍ: بلغني أنَّك وقعت فِيَّ، وقلتَ كذا وكذا. فقال الرَّجل: ما فعلتُ. فقال سليمانُ: إنَّ الذي أَخبَرني صادقٌ. فقال الرَّجل: لا يكون النَّمام صادقًا. فقال سليمانُ: صدقتَ، اذهب بسلامٍ.

وقال يحيى بن أبي كثيرٍ[2]: يُفسِد النَّمام في ساعةٍ ما لا يُفسد السَّاحر في شهرٍ[3].

وقد حُكي أنَّ رجلًا ساوم بعبدٍ، فقال مولاه: إنِّي أبر إليك مِن النَّميمة والكذب. فقال: نعم، أنتَ بريءٌ منهما. فاشتراه، فجعل يقول لمولاه: إنَّ امرأتك تَبغي وتَفعل، وإنَّها تُريد أنْ تقتلك. ويقول للمرأة: إنَّ زوجك يُريد أنْ يتزوَّج عليك، ويتسرَّى، فإنْ أردتِ أنْ أعطفه عليك، فلا يتزوَّج ولا يتسرَّى، فخُذي المُوس، واحلقي شعرةً مِن حَلْقه إذا نام. وقال للزَّوج: إنَّها تُريد أنْ تقتلك إذا نمتَ. قال: فذهب فتناوَمَ لها، فجاءت الموس لِتَحلِقَ شعرةً مِن حَلْقه، فأخذ بيدها، فقتلها، فجاء أهلها، فاستعدوا عليه، فقتلوه[4].

الآفَةُ العَاشِرَةُ: كَلَامُ ذِي اللِّسَانَيْنِ

الذي يتردَّد بين المُتعادِينَ، وينقل كلام كلٍّ واحدٍ إلى الآخر، ويكلِّم كلَّ واحدٍ بكلامٍ يُوافِقه، أو يَعِدُه أنَّه ينصرُه، أو يُثني على الواحد في وجهه، ويَذمُّه عند الآخَر.

---

(١) سليمانُ بن عبد الملك بن مروانَ الأمويُّ، الخليفة، أبو أيُّوبَ القُرشيّ، وُلد سنة (٥٤هـ)، وبُويع له بعد أخيه الوليد سنة ستٍّ وتسعين، كان دَيِّنًا، فصيحًا، مفوَّهًا، عادلًا، محبًّا للغزو، وتوفِّي سنة (٩٩هـ). انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٥/ ١١٣)، «الأعلام» (٣/ ١٣٠).

(٢) يَحيَى بنُ أَبِي كَثِيرٍ أَبُو نَصْرٍ الطَّائِيُّ مَوْلَاهُم، رَوَى عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ، وأَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وغيرهما، ورَوَى عَنْهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ، وَمَعْمَرٌ، وَالأَوْزَاعِيُّ وغيرهم، توفِّي سنة (١٢٩). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذهبي، (٦/ ٢٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ١٥٠).

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٣/ ٧٠).

(٤) رواه أبو حاتم الدَّارميُّ البستيُّ في «روضة العقلاء» (ص١٧٩).

وفي الحديث: «**إنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الوَجهَينِ الذي يَأتِي هَؤلاءِ بِوَجهٍ، وهَؤلاءِ بِوَجهٍ**»(١).

واعلم أنَّ هذا فيمَن لم يضطرَّ إلى ذلك، فأمَّا إذا اضطرَّ إلى مُداراة الأُمراء جاز.

قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّا لَنُكشِّر في وجوه أقوامٍ، وإنَّ قلوبنا لَتَلعنُهم»(٢) ومتى قدر ألَّا يُظهِرَ مُوافَقتهم لم يجزْ له.

الآفةُ الحادِيةَ عشْرَةَ: المَدْحُ

وله آفاتٌ:

منها ما يتعلَّق بالمادح، ومنها ما يتعلَّق بالممدوح. فأمَّا آفات المادح، فقد يقول ما لا يتحقَّقه، ولا سبيلَ للاطِّلاع عليه، مِثل أنْ يقولَ: إنَّه وَرِعٌ وزاهدٌ، وقد يُفرِط في المدح، فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح مَن ينبغي أنْ يُذَمَّ.

وقد رُوي في حديث: «**إنَّ اللهَ تَعالَى يَغضَبُ إذا مُدِحَ الفاسِقُ**»(٣).

وقال الحسن: «مَن دعا لظالمٍ بالبقاء فقد أَحبَّ أنْ يُعصَى الله»(٤).

وأمَّا الممدوح فإنَّه يُحدِث فيه كبرًا أو إعجابًا، وهما مُهلِكان، ولهذا قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا سمع رجلًا يمدح رجلًا: «**وَيلَكَ، قَطَعتَ عُنُقَ صاحِبِكَ... الحديث**(٥)» وهو مشهورٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧١١)، ومسلمٌ (٢٥٢٦) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) عزاه السُّيوطيُّ في «الجامع الكبير» (٦٢١/ ٩٤)، والمتَّقي الهنديُّ في «كنز العمال» (٨٧٥٤) إلى ابن عساكرَ.

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٥٤٣)، عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ١٣٥): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت»، وابن عديٍّ في «الكامل»، وأبو يعلى، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٨٩٨٦).

(٥) رواه البخاريُّ (٢٥١٩)، ومسلمٌ (٣٠٠٠) عن أبي بكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد روينا عن الحسن قال: كان عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قاعدًا، ومعه الدِّرَّة والنَّاس حوله، إذا أَقبَل الجارود، فقال رجلٌ: هذا سيِّد ربيعةَ، فسمعها عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومَن حوله، وسمعها الجارود، فلمَّا دنا منه خَفَقَه بالدِّرَّة، فقال: ما لي ولك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ما لي ولك؟ أَمَا سَمِعتَها؟ قال: سمعتُها، فمه؟ قال: خشيتُ أنْ يُخالِط قلبك منها شيءٌ فأَحببتُ أنْ أُطأطِئَ منك(١).

ولأنَّ الإنسان إذا أُثني عليه رضي عن نفسه، وظنَّ أنَّه قد بلغ المقصود، فيَفتُر عن العمل، ولهذا قال: «**قَطَعتَ عُنُقَ صاحِبِكَ...**».

فأمَّا إذا سَلِم المدح مِن هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم على أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما مِن الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وعلى الممدوح أنْ يكونَ شديد الاحتراز مِن آفة الكِبْر والعُجْب والفتور عن العمل، ولا ينجو مِن هذه الآفات إلَّا أنْ يعرفَ نفسه، ويتفكَّر في أنَّ المادح لو عَرَف منه ما يَعرِف مِن نفسه ما مدحه.

وقد رُوي أنَّ رجلًا مِن الصَّالحين أُثني عليه، فقال: «اللَّهمَّ إنَّ هؤلاءِ لا يَعرفوني، وأنت تَعرفني»(٢).

الآفةُ الثَّانيةَ عشْرةَ: الخطأُ في فحوى الكلامِ فيما يرتبطُ في أُمورِ الدِّينِ

لا سيَّما فيما يتعلَّق بالله تعالى، ولا يَقدِر على تقويم اللَّفظ بذلك إلَّا العلماء الفُصَحاء، فمَن قَصَّر في عِلمٍ أو فصاحةٍ لم يخلُ كلامه عن الزَّلَل، لكنْ يعفو الله عنه لجهله.

---

(١) عزاه المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمال» (٨٨٣٠) إلى ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت».

(٢) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العِلم» (٢٠٧٣)، وابن الجوزيِّ في «صفة الصَّفوة» (٢/ ١٩٤).

مثال ذلك: ما رُوي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُم: ما شاءَ اللهُ وشِئتَ. ولكنْ لِيَقُلْ: ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئتَ**»[(١)]. وذلك لأنَّ في العطف المُطلَق تشريكًا وتسويةً، وقريبٌ مِن ذلك إنكاره على الخطيب قوله: «ومَن يَعصِهِما فَقَد غَوَى» وقال: «**قُل: ومَن يَعصِ اللهَ ورَسُولَه**»[(٢)].

وقال عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكم: عَبدِي وأَمَتِي، كُلُّكُم عَبِيدُ اللهِ، وكُلُّ نِسائِكُم إماءُ اللهِ، ولَكِنْ لِيَقُل: غُلامِي وجارِيَتِي**»[(٣)].

وقال النَّخعيُّ: إذا قال الرَّجل للرَّجل: «يا حِمارُ، يا خنزيرُ، قيل له يوم القيامة: أَرَأيتَني خلقتُه حمارًا؟ أو أَرَأيتَني خَلقتُه خنزيرًا؟».

فهذا وأمثاله ممَّا يدخل في الكلام، ولا يُمكن حَصره، ومَن تأمَّل ما أوردناه في آفات اللِّسان علم أنَّه إذا أَطلق لسانه لم يَسلَم، وعند ذلك يَعرف سِرَّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَن صَمَتَ نَجَا**»[(٤)]. لأنَّ هذه الآفات مَهالِكُ، وهي على طريق المُتكلِّم، فإنْ سكت سَلِم.

فَصْلٌ

ومِن آفات العوامِّ سؤالهم عن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكلامه.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١١٧)، ونحوه أحمدُ (١٨٣٩) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ١٢٢): أخرجه أبو داودَ، والنَّسائيُّ في «الكبرى» بسندٍ صحيحٍ.

(٢) رواه مسلم (٨٧٠) عن عديِّ بن حاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤١٤)، ومسلمٌ (٢٢٤٩) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٥٠١)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٤٦٩٧) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه إلَّا مِن حديث ابن لهيعةَ. وقال العراقيُّ في «المغني» (٥/ ٤٩٣): أخرجه التِّرمذيُّ مِن حديث عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسندٍ فيه ضَعفٌ، وقال: غريبٌ. وهو عند الطَّبرانيِّ بسندٍ جيِّدٍ.

اعلم أنَّ الشَّيطان يُخيِّل إلى العاميِّ أنَّك بخَوضِك في العِلم تكون مِن العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يُحبِّب إليه ذلك حتى يَتكلَّم بما هو كفرٌ وهو لا يدري، قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُوشِكُ النَّاسُ أنْ يَسألَوا، حتى يَقُولُوا: هَذا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ، فمَنْ خَلَقَ اللهَ؟**»(١).

فسؤال العوامِّ عن غوامض العِلم أعظم الآفات، وبحثُهم عن معاني الصِّفات ممَّا يُفسدهم لا ممَّا يُصلِحهم؛ إذ الواجب عليهم التَّسليم، فالأَولى بالعاميِّ الإيمان بما ورد به القرآن، ثُمَّ التَّسليم لِمَا جاء به الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن غير بحثٍ، واشتغالُهم بالعبادات، فإنَّ اشتغالهم بالبحث عن أسرار العِلم كبحث سائمةِ الدَّوابِّ عن أسرار الملك.

(١) رواه البخاريُّ، (٦٨٦٦) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسلمٌ (١٣٤) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم أنَّ الغضب شعلةٌ مِن النَّار، وأنَّ الإنسان يُنزع فيه عند الغضب عرقٌ إلى الشَّيطان اللَّعين، حيث قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فإنَّ شأن الطِّين السُّكون والوقار، وشأن النَّار التَّلظِّي والاشتعال، والحركة والاضطراب.

ومِن نتائج الغضب الحِقد والحَسد، وممَّا يدلُّ على ذَمِّ الغضب قول النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم للرَّجل الذي قال له: أَوصِني. قال: «**لا تَغضَبْ**». فردَّد عليه مراراً، قال: «**لا تَغضَبْ**»(١).

وفي حديثٍ آخر أنَّ ابن عمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: ماذا يُبعدني مِن غَضَبِ الله عَزَّ وَجَلَّ؟ قال: «**لا تَغضَبْ**»(٢).

وفي المُتَّفَق عليه مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولَيسَ الشَّدِيدُ بالصُّرعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَملِكُ نَفسَه عِندَ الغَضَبِ**»(٣).

وعن عكرمةَ في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، قال: السَّيِّد الذي يَملك نفسه عند الغضب، ولا يغلبه غضبه(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٦٥) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٩٢٩) وأحمدُ (٦٦٣٥)، وقال العراقيُّ في «المغني»: (٧/ ١٣٧): أخرجه الطَّبرانيُّ في «مكارم الأخلاق»، وابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» بإسنادٍ حسنٍ.

(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٦٣)، ومسلمٌ (٢٦٠٩) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) ذكره السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثور» (٢/ ١٨٩) وقال: أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «ذمِّ الغضب».

وروينا أنَّ ذا القَرنَين لَقِي مَلَكًا مِن الملائكة فقال: علِّمني علمًا أزداد به إيمانًا ويقينًا. قال: لا تغضبْ، فإنَّ الشَّيطان أقدرُ ما يكون على ابن آدمَ حين يغضب، فرُدَّ الغضب بالكَظْم، وسكِّنه بالتُّؤدة، وإيَّاك والعجلةَ، فإنَّك إذا عَجِلت أخطأت حظَّكَ، وكنْ سهلًا ليِّنًا للقريب والبعيد، ولا تكن جبَّارًا عنيدًا[١].

وروينا أنَّ إبليسَ لعنه الله بدا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال يا موسى: «إيَّاك والحِدَّة، فإنِّي أَلْعَب بالرَّجُل الحديد كما يلعب الصِّبيان بالكُرَة، وإيَّاك والنِّساءَ، فإنِّي لم أَنصِب فخًّا قطُّ أثبتَ في نفسي مِن فَخٍّ أنصبه بامرأةٍ، وإيَّاك والشُّحَّ، فإنِّي أُفسِد على الشَّحيح الدُّنيا والآخرة»[٢].

وكان يُقال: «اتَّقوا الغضب، فإنَّه يُفسِد الإيمان كما يُفسِد الصبر العَسل، والغضبُ عدوُّ العقل»[٣].

وحقيقة الغضب: غليان دم القلب لطلب الانتقام، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوارنًا يَغلي به دم القلب، وينتشر في العروق، ويَرتفع إلى أعالي البَدن، كما يَرتفع الماء الذي يَغلي في القِدْر، ولذلك يحمرُّ الوجه والعين والبَشَرة، وكلُّ ذلك يَحكي لون ما وراءه مِن حُمرة الدَّمِ، كما تَحكي الزُّجاجة لون ما فيها، وإنَّما يَنبسط الدَّم إذا غضب على مَن دونه، واستشعر القُدرة عليه.

فإنْ كان الغضب صَدَر ممَّن فوقه، وكان معه يأسٌ مِن الانتقام تَولَّد منه انقباض الدَّم مِن ظاهر الجِلْد إلى جَوف القلب، فصار حزنًا، ولذلك يَصفرُّ اللَّون، وإنْ كان الغضب على نظيرٍ يشكُّ فيه، تردَّد الدَّم بين انقباضٍ وانبساطٍ، فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطرب، فالانتقام هو قُوت لقوَّة الغضب.

والنَّاس في قوَّة الغضب على درجاتٍ ثلاثٍ: إفراطٌ، وتفريطٌ، واعتدالٌ.

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (١٣٤٠).

(٢) روى جزأه الأول أبو الشَّيخ في «التَّوبيخ والتَّنبيه» (٤٥/ ٨١).

(٣) رواه البيهقي في الشعب من قول عبد الله بن عمرو (٧٩٤١).

فلا يُحمَد الإفراط فيها؛ لأنَّه يُخرِج العقل والدِّين عن سياستهما، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظرٌ، ولا فكرٌ، ولا اختيارٌ.

والتَّفريط في هذه القوَّة أيضًا مذمومٌ؛ لأنَّه يَبقَى لا حميَّةٍ له ولا غَيرةٍ، ومَن فقد الغضب بالكلِّيَّة عَجَز عن رياضة نَفْسه؛ إذ الرِّياضة إذا تتمُّ بتسليط الغضب على الشَّهوة، فيغضب على نفسه عند المَيل إلى الشَّهوات الخَسيسة، ففَقْدُ الغضب مذمومٌ، فينبغي أنْ يطلب الوسط بين الطَّريقَين.

واعلم أنَّه متى قَوِيت نار الغضب والتهبت أَعمَتْ صاحبها، وأَصمَّته عن كلِّ موعظةٍ؛ لأنَّ الغضب يَرتفِع إلى الدِّماغ، فيُغطِّي على مَعادِن الفِكر، وربَّما تعدَّى إلى مَعادِن الحِسِّ، فتُظلِم عينه حتى لا يرَى بعينه، وتَسودُّ الدُّنيا في وَجهِه، ويكون دِماغه على مِثال كهفٍ أُضرِمت فيه نارٌ، فاسودَّ جوُّه، وحَمِي مُستقرُّه، وامتلأ بالدُّخان، وكان فيه سِراجٌ ضعيفٌ فانطفأ، فلا يَثبتُ فيه قدمٌ، ولا تُسمع فيه كلمةٌ، ولا تُرَى فيه صورةٌ، ولا يُقدَر على إطفاء النار، فكذلك يَفعل الغضب بالقلب والدِّماغ، وربَّما زاد الغضب، فقَتَل صاحبه.

ومِن آثار الغضب في الظَّاهر تَغيُّرُ اللَّون، وشِدَّةُ الرَّعدة في الأطراف، وخُروج الأفعال عن التَّرتيب، واستحالة الخِلْقة، وتَعاطِي فِعْل المَجانين، ولو رأى الغضبان صورته في حال غضبه وقُبحها لأنِف لنفسه مِن تلك الحال، ومعلومٌ أنَّ قُبْح الباطن أعظمُ.

فصلٌ في بيان الأسباب المهيِّجة للغضب وذكر علاج الغضب ثورانًا

قد عَرفتَ أنَّ عِلاج كلِّ عِلَّةٍ بحَسْم مادَّتها، وإزالة أسبابها.

فمِن أسبابه العُجب، والمَزح، والمُماراة، والمُضادَّة، والغَدر، وشِدَّة الحِرص على فُضول المال والجاه، وهذه أخلاقٌ رديئةٌ مذمومةٌ شرعًا، فينبغي أنْ يُقابِلَ كلَّ واحدٍ مِن هذه بما يُضادُّه، فيَجتهد على حَسم موادِّ الغضب، وقطع أسبابه.

وأمَّا إذا هاج الغضب فيُعالج بأمورٍ:

أحدها: أنْ يَتفكَّر في الأخبار الواردة في فَضْل كظم الغيظ، والعفو، والحِلم، والاحتمال، كما جاء في «البخاريِّ» مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رجلًا استأذن على عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأذن له، فقال له: يا ابن الخطَّاب، والله ما تُعطِينا الجزل[١]، ولا تَحكُم بيننا بالعدل. فغضب عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى همَّ أنْ يُوقِعَ به، فقال الحُرُّ بن قيسٍ: يا أميرَ المؤمنين إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال لنبيِّه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإنَّ هذا مِن الجاهِلين. فوالله ما جاوزها عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله عَزَّوَجَلَّ[٢].

الثَّاني: أنْ يُخوِّف نفسه عِقاب الله تعالى، وهو أنْ يقول: قُدرة الله عليَّ أعظمُ مِن قُدرتي على هذا الإنسان، فلو أَمضيت فيه غضبي لم آمنْ أنْ يُمضيَ الله عَزَّوَجَلَّ غَضَبه عليَّ يوم القيامة، فأنا أحوجُ ما أكونُ إلى العفو.

وقد قال الله تعالى في بعض الكُتب: «يا ابن آدمَ، اذكُرني عند الغضب، أذكُرْك حين أغضب، ولا أَمحقْكَ فيمَن أمحق»[٣].

والثَّالث: أنْ يُحذِّر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدوِّ في هدم أعراضه، والشَّماتة بمصائبه، فإنَّ الإنسان لا يخلو عن المصائب، فيُخوِّف نفسه ذلك في الدُّنيا إنْ لم يَخفْ مِن الآخرة، وهذا هو تسليط شهوةٍ على غضبٍ، ولا ثوابَ عليه؛ لأنَّه تقديمٌ لبعض الحظوظ على بعضٍ، إلَّا أنْ يكونَ مَحذوره أنْ يتغيَّر عليه أَمرٌ يُعينه على الآخرة، فيُثاب على ذلك.

---

(١) الجزل: أي الكثير من العطية، يقال عطاء جزل وجزيل. لسان العرب مادة (جزل).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٣٦٦).

(٣) عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى ابن شاهين عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: وفيه عثمانُ بن عطاء الخرسانِيُّ ضَعَّفُوه.

الرَّابع: أنْ يتفكَّر في قُبح صورته عند الغضب على ما تقدَّم، وأنَّه يُشبه حينَئذٍ الكلب الضَّاري، والسَّبُع العادي، وأنَّه يكون مُجانِبًا لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم، لِتَميل نفسه إلى الاقتداء بهم.

الخامس: أنْ يَتفكَّر في السَّبب الذي يدعوه إلى الانتقام، مِثل أنْ يكونَ سبب غضبه أنْ يقول له الشَّيطان: إنَّ هذا يحمل منك العجز، والذِّلَّة والمهانة، وصِغر النَّفْس، وتصير حقيرًا في أعين النَّاس، فليقل لنفسه: تأنفين مِن الاحتمال الآن، ولا تأنفين مِن خِزي يوم القيامة، والافتضاح إذا أَخَذ هذا بيدكِ، وانتقم منكِ، وتحذرين مِن أنْ تَصغري في أعين النَّاس، ولا تَحذرين مِن أنْ تَصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنَّبيِّين؟

وينبغي أنْ يكظمَ غَيظه، فذلك يُعظِّمه عند الله تعالى، فما له وللنَّاس؟ أفلا يَجب أنْ يكونَ هو القائم يوم القيامة إذا نُودي: لِيَقُم مَن وقع أجره على الله. فلا يقوم إلَّا مَن عفا، فهذا وأمثاله ينبغي أنْ يُقرَّره على قلبه.

السَّادس: أنْ يعلمَ أنَّ غَضَبه إنَّما كان مِن شيءٍ جرى على وفق مُراد الله تعالى، لا على وفق مُراده، فكيف يُقدِّم مُراده على مُراد الله تعالى، هذا ما يتعلَّق بالقلب.

وأمَّا العمل فينبغي له السُّكون، والتَّعوُّذ، وتغيير الحال، وإنْ كان قائمًا جلسَ، وإنْ كان جالسًا اضطجع، وقد أُمِرنا بالوضوء أيضًا عند الغضب، فهذه الأمور وَرَدت في الأحاديث.

أمَّا الحكمة في الوضوء عند الغضب فقد بيَّنها في الحديث، كما روى أبو وائل قال: كنا عند عروةَ بن محمَّدٍ، فكلَّمه رجلٌ بكلامٍ، فغضب غضبًا شديدًا، فقام وتوضَّأ، ثُمَّ جاء فقال: حدَّثني أبي، عن جَدِّي عطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكانت له صحبةٌ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الغضبَ مِنَ الشَّيطانِ، وإنَّ الشَّيطانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وإنَّما تُطفَأُ النَّارُ بِالماءِ، فإذا غَضِبَ أَحَدُكُم فَلْيَتَوَضَّأْ**»[(١)].

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٧٨٤)، وأحمدُ (١٧٩٨٥) عن عطيةَ السعديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأمَّا الجلوس والاضطجاع فيُمكن أنْ يكونَ إنَّما أُمِر بذلك لِيَقرُب مِن الأرض التي مِنها خُلِق، فيَذكُر أصله فيَذلَّ، ويُمكن أنْ يكونَ لِيتواضعَ بِذُلِّه؛ لأنَّ الغضب يَنشأ مِن الكِبْر، بدليل ما روى أبو سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه ذَكَر الغضب وقال: «**مَنْ وَجَدَ شَيئًا مِن ذَلِكَ، فَلْيُلصِقْ خَدَّهُ بِالأرضِ**»(١).

وقيل: غضب المهديُّ على رجلٍ، فدعا بالسِّياط، فلمَّا رأى شبيبٌ(٢) شِدَّة غَضَبه، وإطراق النَّاس، فلم يتكلَّموا بشيءٍ قال: يا أمير المؤمنين، لا تُغضِبَنَّ اللهَ بأَشدَّ ممَّا غضب لنفسه، فقال: خلُّوا سبيله.

فَصْلٌ فِي كَظْمِ الغَيْظِ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فذَكَر ذلك في مَعرِض المدح.

وعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ كَظَمَ غَيظًا، وَهو قادِرٌ على أنْ يُنفِذَهُ دَعاهُ اللهُ عَلى رُؤُوسِ الخَلائِقِ حتى يُخَيِّرَه مِن أيِّ الحُورِ شاءَ**»(٣).

ورُوِي عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «مَنِ اتَّقى الله لم يَشفِ غيظه، ومَن خاف الله لم يفعل ما يُريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون»(٤).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢١٩١)، وأحمدُ (١١٥٨٧). وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ١٦٢): أخرجه التِّرمذيُّ، وقال: حسنٌ.

(٢) لعله شبيب بن شيبةَ بن عبد الله التَّميميُّ المنقريُّ الأهتميُّ، أبو مَعمرٍ، أديب الملوك، وجليس الفقراء، وأخو المساكين، مِن أهل البصرة، كان يقال له: الخطيب؛ لفصاحته، وكان شريفًا، مِن الدُّهاة، يُنادم خلفاء بني أُميَّةَ، ويفزع إليه أهل بلده في حوائجهم، توفِّي نحو سنة (١٧٠). انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حَجرٍ العسقلانيُّ، (ص٢٦٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٥٦).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٢١) وأبو داودَ (٤٧٧٧) عن معاذِ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٧٣٦) مِن قول عمرَ بن عبد العزيز، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٥٧) مِن قول عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ في الحِلْمِ

روى أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّمَا العِلمُ بِالتَّعَلُّمِ، والحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**»[(١)]. وقال: «**اطلُبُوا العِلمَ، واطلُبُوا مَعَ العِلمِ السَّكِينةَ والحِلمَ، لِينُوا لِمَن تُعَلِّمُونَ، ولِمَن تَعلَّمُونَ مِنه، ولا تَكونُوا مِن جَبابِرةِ العُلماءِ فيَغلبَ جَهلُكُم عَلَيكُم**»[(٢)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأشجِّ بن قيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ فِيكَ [خُلَّتينِ]**[(٣)] **يُحِبُّهُما اللهُ وَرَسُولُهُ: الحِلمُ والأَناةُ**»[(٤)].

وشتم رجلٌ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلمَّا قضى مقالته، فقال: يا عكرمةُ، انظر هل للرَّجل حاجةٌ فتَقضيَها؟ فنكَس الرَّجل رأسه، واستحيى.

وأَسمَع رَجلٌ معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلامًا شديدًا، فقيل له: لو عاقبتَه؟ فقال: «إنِّي لأستحي أنْ يَضيقَ حِلمي عن ذنب أَحدٍ مِن رعيَّتي».

وقسم معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِطْعًا، فبَعَث منها إلى شيخٍ مِن أهل دمشقَ فلم يُعجبْه، فجعل عليه يمينًا أنْ يضربَ رأس معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأتى معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخبره، فقال له معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوفِ بنذرك، وارفق بالشَّيخ.

وجاء غلامٌ لأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كَسَر رِجلَ شاةٍ له، فقال له: مَن كَسَر رِجل هذه؟ قال: أنا فعلتُه عمدًا لأغيظكَ، فتضربني، فتأثم. فقال: لَأُغِيظَنَّ مَن حَرَّضَك على غيظي. فأعتقه.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٢٥٤) عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٢/ ٨٥٠): أخرجه الطَّبرانيُّ والدَّارقطنيُّ في «العلل» مِن حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

(٢) قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٧/ ١٧٢): أخرجه ابن السُّنِّيِّ في «رياضة المُتعلِّمين» بسندٍ ضعيفٍ.

(٣) ورد في "خ" [خلقين].

(٤) رواه مسلمٌ (١٨) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والأناة: التَّرفُّق والتَّنظُّر.

وشتم رجلٌ عديَّ بن حاتمٍ[١] وهو ساكتٌ، فلمَّا فرغ مِن مقالته قال: إنْ كان بقي عندك شيءٌ فقل قَبل أنْ يأتِيَ شباب الحيِّ، فإنَّهم إنْ سَمِعوك تقول هذا لسيِّدهم لم يَرضوا.

ودخل عمرُ بن عبد العزيز المسجد ليلةً في الظُّلمة، فمرَّ برَجلٍ نائمٍ، فعثر به، فرفع رأسه، وقال: أمجنونٌ أنت؟ فقال عمرُ: لا. فَهَمَّ به الحَرس، فقال عمرُ: مه، إنَّما سَألَني أمجنونٌ؟ فقلت: لا[٢].

ولقي رجلٌ عليَّ بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فسبَّه، فثارت إليه العبيد، فقال: مهلًا. ثُمَّ أقبَل على الرَّجل، فقال: ما سُتِر عنك مِن أمرِنا أكثرُ، ألك حاجةٌ نُعينك عليها؟ فاستحيى الرَّجل، فألَقى عليه خَميصةً[٣] كانت عليه، وأَمَر له بألْف درهمٍ، فكان الرَّجل بعد ذلك يقول: أَشهَد أنَّك مِن أولاد الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال رجلٌ لوهب بن مُنبِّهٍ[٤]: إنَّ فلانًا شَتَمكَ. فقال: ما وَجد الشَّيطان بريدًا غيرك[٥].

---

(١) عَدِيُّ بن حاتِم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطَّائيُّ، أبو وهبٍ، وأبو طريفٍ، صحابيٌّ، أميرٌ مِن الأجواد العقلاء، كان رئيس طيءٍ في الجاهليَّة والإسلام، وقام في حرب الرِّدَّة بأعمالٍ كبيرةٍ، حتى قال ابن الأثير: خير مولدٍ في أرض طيءٍ، وأعظمه بركةً عليهم، وكان إسلامه في السَّنة التَّاسعة للهجرة، وشهد فتح العراق، ثُمَّ سكن الكوفة، وشهد الجمل وصِفِّين والنَّهروان مع عليٍّ رَحِمَهُمَا اللهُ، وفُقِئت عينه يوم صِفِّين، ومات بالكوفة، وروى عنه المحدِّثون ستًّا وستِّين حديثًا، عاش أكثر مِن مائة سنةٍ، وهو ابن حاتمِ الطَّائيِّ الذي يُضرَب بجوده المثل. (...-٦٨هـ/ ...-٦٨٧م). (انظر: الإصابة في تمييز الصَّحابة، ابن حجر العسقلانيُّ، ٤/ ٤٦٩، الأعلام، الزِّركليُّ، ٤/ ٢٢٠).

(٢) رواه قوَّام السُّنَّة في «التَّرغيب والتَّرهيب» (١١٩٤).

(٣) **الخميصة**: كِساءٌ أسودُ مُربَّعٌ له علمان، فإنْ لم تَكنْ مُعلَّمةً فليس بخميصةٍ. لسان العرب مادة (خمص).

(٤) وَهْبُ بنُ مُنَبِّهِ بنِ كَامِلِ بنِ سِيْجٍ بنِ ذِي كِبَارٍ، العَلاَّمَةُ، الأَخْبَارِيُّ، القَصَصِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الأَبْنَاوِيُّ، اليَمَانِيُّ، الذِّمَارِيُّ، الصَّنْعَانِيُّ، أَخَذَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وغيرِهما، حَدَّثَ عَنْهُ وَلَدَاهُ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَعَمْرُو بنُ دِيْنَارٍ وغيرُهم، توفِّي سنة (١١٤). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٥٤٤)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ١٢٥).

(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٣٨٩).

فصل في العفو والرفق

اعلم أنَّ معنى العفو أنَّ تستحِقَّ حقًّا فتُسقطه، وتُؤدِّي عنه مِن قِصاصٍ أو غرامةٍ، وهو غير الحِلم والكظم. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الحديث أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِن مالٍ، وما زادَ اللهُ عَبدًا بِعفْوٍ إلَّا عِزًّا، وما تَواضَعَ أَحَدٌ للهِ إلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[١].

وعن عقبةَ بن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا عُقبةُ، أَلا أُخبِرُكَ بِأَفضَلِ أَخلاقِ أَهلِ الدُّنيا والآخِرةِ؟ تَصِلُ مَن قَطَعَكَ، وَتُعطِي مَن حَرَمَكَ، وتَعفُو عَمَّن ظَلَمَكَ**»[٢].

ورُوي أنَّ مُناديًا يُنادي يوم القيامة: «لِيَقُم مَن وقع أجره على الله؟ فلا يقوم إلَّا مَن عفا عمَّن ظَلَمه».

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعطِي عَلَيهِ ما لا يُعطِي عَلى العُنفِ**»[٣].

وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمرِ كُلِّهِ**»[٤].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**مَن يُحرَمِ الرِّفقَ يُحرَمِ الخَيرَ**»[٥].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٨٨) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٥٨٧)، وأحمدُ (١٧٣٣٤) عن عقبةَ بن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٢٠٠): أخرجه ابن أبي الدُّنيا والطَّبرانيُّ في «مكارم الأخلاق»، والبيهقيُّ في «الشُّعب» بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٣) رواه البخاريُّ (٦٥٢٨)، ومسلمٌ (٢٥٩٣) عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٢) عن جريرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

باب في الحقد والحسد

اعلم أنَّ الغيظ إذا كُظِم لِعَجزٍ عن التَّشفِّي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقَن فيه، فصار حِقدًا.

وعَلامته دوام بُغض الشَّخْص [واستثقاله](١) والنُّفور منه، فالحِقد ثَمرة الغضب، والحَسد مِن نتائج الحقد.

وعن الزُّبير بن العوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢) قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَبَّ إِلَيكُم داءُ الأُمَمِ قَبلَكُمْ الحَسَدُ والبَغضَاءُ**»(٣).

وفي «الصَّحيحَين»(٤) عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَباغَضُوا، ولا تَقاطَعُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا -عِبادَ اللهِ- إِخوَانًا**».

وفي حديثٍ آخَرَ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّ الحَسَدَ يَأكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**»(٥).

---

(١) ورد في " الأصل، خ " [واشتغاله].

(٢) الزُّبير بن العوَّام بن خويلد بن أسد، حواريُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابن عمَّته صفيَّة بنت عبد المطَّلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وأحد السِّتَّة أهل الشُّورى، وأوَّل مَن سلَّ سيفه في سبيل الله، أسلم وهو حدثٌ، له ستَّ عشرةَ سنةً، حدَّث عنه بنوه عبد الله، ومصعبٌ، وعروةُ، وجعفرٌ، ومالك بن أوس بن الحدثان وغيرهم، توفِّي سنة (٣٦). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١/ ٤١)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ٤٣).

(٣) رواه التِّرمذيّ (٢٥١٠)، وأحمد (١٤١٢) عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البخاريّ (٥٧١٨) ومسلم (٢٥٥٩) عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) رواه أبو داودَ (٤٩٠٣) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (١/ ١١٥): أخرجه أبو داودَ مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال البخاريُّ: لا يصحُّ. وهو عند ابن ماجه مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسنادٍ ضعيفٍ، وفي «تاريخ بغداد» بإسنادٍ حسنٍ.

وفي حديثٍ آخَرَ أنَّه قال: «**يَطلُعُ عَلَيكُم مِن هَذا الفَجِّ**[١] **رَجُلٌ مِن أَهلِ الجَنَّةِ**». فطلع رجلٌ، فسُئل عن عمله، فقال: إنِّي لا أَجِد لأَحدٍ مِن المسلِمِين في نفسي غِشًّا ولا حَسدًا، على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه[٢].

وروينا أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: «والحاسِدُ عَدوٌّ نِعمتي، مُتسخِّطٌ لقضائي، غيرُ راضٍ بِقِسمتي بين عِبادي»[٣].

وقال ابن سيرينَ[٤]: «ما حَسَدت أَحدًا على شيءٍ مِن أَمر الدُّنيا؛ لأَنَّه إنْ كان مِن أهل الجَنَّة، فكيف أَحسده على شيءٍ مِن أمر الدُّنيا، وهو يَصير إلى الجَنَّة؟ وإنْ كان مِن أهل النَّار، فكيف أَحسده على شيءٍ مِن أمر الدُّنيا، وهو يَصير إلى النَّار؟»[٥].

وقال إبليسُ لنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إيَّاك والحسدَ، فإنَّه صيَّرني إلى هذه الحال».

واعلم أنَّ الله تعالى إذا أَنعَم على أخيك نعمةً، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أنْ تَكرَه تِلك النِّعمة وتُحِبَّ زوالها، فهذا هو الحسد.

والحالة الثَّانية: ألَّا تكرهَ وُجودها، ولا تُحبَّ زوالها، ولكنَّك تَشتهي لنفسك مِثلها، فهذا يُسمَّى غِبطةً.

---

(١) الفج: الطريق الواسع بين الجبلين. لسان العرب مادة (فجج).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦١٨١)، وأحمدُ (١٢٦٩٧) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٢٢٤): رواه أحمدُ بإسنادٍ صحيحٍ على شرط الشَّيخَين ورواه البزَّار، وسمَّى الرَّجل في روايةٍ له سعدًا، وفيها ابن لهيعةَ.

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٢١٣) مِن قول الأصمعيِّ قال: بلغني أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول...

(٤) محمَّد بن سيرين أبو بكرٍ الأنصاريُّ الأنسيُّ، البصريُّ، مولى أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سمع أبا هريرةَ، وعمران بن حصين، وابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وروى عنه قتادةُ، وأيُّوبُ، ويونسُ بن عبيدٍ وغيرهم، توفِّي سنة (١١٠). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٦٠٦)، «الأعلام»، الزُّركليُّ، (٦/ ١٥٤).

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٣/ ٣٢).

قال المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلتُ: واعلم أنِّي ما رأيتُ أَحدًا حقَّق الكلام في هذا كما ينبغي، ولا بدَّ لي مِن كَشفِه فأقول:

اعلم أنَّ النَّفْس قد جُبِلت على حُبِّ الرِّفعة، فهي لا تُحبُّ أنْ يعلوَها جِنسها، فإذا علا عليها شَقَّ عليها وكَرِهته، وأَحبَّت زوال ذلك؛ ليقع التَّساوي، وهذا أمرٌ مَركوزٌ في الطِّبَاع.

وقد روى أبو هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: **«ثَلاثٌ لا يَنجُو مِنهُنَّ أَحَدٌ: الظَّنُّ، والطِّيَرَةُ، والحَسَدُ، وسَأُحدِّثُكم ما المَخرَجُ مِن ذلكَ، إذا ظَنَنتَ فلا تتحقَّق، وإذا تَطيَّرتَ فامضِ، وإذا حَسَدتَ فلا تَبغِ»**[(١)].

وعلاج الحَسد تارةً بالرِّضى بالقضاء، وتارةً بالزُّهد في الدُّنيا، وتارةً بالنَّظر فيما يتعلَّق بتلك النِّعَم مِن هموم الدُّنيا وحِساب الآخرة، فيَتسلَّى بذلك، ولا يَعمل بمُقتضى ما في النَّفْس أصلًا، ولا يَنطلِق، فإذا فَعَل ذلك لم يَضرَّه ما وُضِع في جِبِلَّتِه.

فأمَّا مَن يَحسد نبيًّا على نُبوَّته [فيحب][(٢)] ألاَّ [يكون][(٣)]، أو عالِمًا على عِلمه، فيُؤثِر ألَّا يُرزَق ذلك، أو يزول عنه، فهذا لا عُذرَ له، ولا تُجبَل عليه إلَّا النُّفوس الكافرة أو الشِّريرة، فأمَّا إنْ أَحبَّ أنْ يَسبِقَ أقرانه، ويطَّلعَ على ما لم يُدرِكوه، فإنَّه لا يأثم بذلك، فإنَّه لم يُؤثِر زوال ما عندهم عنهم، بل أَحبَّ الارتفاع عنهم؛ ليزيد حَظُّه عند ربِّه، كما لو استبَقَ عبدان إلى خِدمة مولاهما، فأَحبَّ أَحَدهما أنْ يَسبِقَ، وقد قال الله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

---

(١) رواه مع اختلافٍ يسيرٍ البغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٣٥٦٣)، وعبد الرَّزَّاق في «مسنده» (٢٠٤٠٦)، قال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٢٢٥) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب «ذمِّ الحسد» مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه يعقوب بن محمَّدٍ الزُّهريِّ، وموسى بن يعقوبَ ضعَّفهما الجمهور.

(٢) ورد في "الأصل، خ" [فيجب].

(٣) ورد في "ن" [تكون]، وزاد في "المطبوع" [نبيًّا].

وفي «الصَّحيحَين»(١) مِن حديث ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**لا حَسَدَ إلَّا في اثنَتَين: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **القرآنَ، فهو يَقومُ بِه آناءَ اللَّيلِ، والنَّهارِ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مَالًا، فَهُو يُنفِقُه في الحَقِّ آناءَ اللَّيلِ، والنَّهارِ**».

والحسد له أسبابٌ:

أحدها العَداوة، والتَّكبُّر، والعُجب، وحُبُّ الرِّياسة، وخُبث النَّفْس، وبُخلِها، وأشدها العَداوة والبَغضاء، فإنَّ مَن آذاه إنسانٌ بسببٍ مِن الأسباب، وخالَفه في غَرَضه، أبغَضه قلبه، ورَسَخ في نَفْسه الحقد.

والحقد يقتضي التَّشفِّي والانتقام، فمَهما أصاب عدوَّه مِن البلاء فَرِح بذلك، وظنَّه مُكافأةً مِن الله تعالى له، ومهما أصابته نِقمةٌ ساءه ذلك، فالحسد يلزم البُغض والعَداوة، ولا يُفارقهما، وإنَّما غاية التَّقيِّ ألَّا يبغيَ، وأنْ يكرهَ ذلك مِن نَفْسه، فأمَّا أنْ يُبغِض إنسانًا، فيستوي عنده مَسرَّته ومُساءته، فهذا غيرُ مُمكِنٍ.

وأمَّا الكِبْر، فهو أنْ يُصيبَ بعض نُظرائه مالًا أو ولايةً، فيَخاف أنْ يَتكبَّرَ عليه، ولا يُطيق تكبُّره، أو يكون مَن أصاب ذلك دونه، فلا يحتمَّل تَرفُّعه عليه أو مُساواته، وكان حسد الكفَّار لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريبًا مِن ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال في حقِّ المؤمنِين: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال في آيةٍ أُخرَى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وقال: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

فعَجِبوا، وأَنِفوا مِن أنْ يَفوزَ برُتبة الرِّسالة بشرٌ مِثلهم فحَسدوهم.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٣٧)، ومسلمٌ (٨١٥)، عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأمَّا حُبُّ الرِّياسة والجاه فمِثاله أنَّ الرَّجل الذي يُريد أنْ يكونَ عديم النَّظير في فَنٍّ مِن الفنون، إذا غَلَب عليه حُبُّ الثَّناء، واستفزَّه الفَرح بما يُمدَح به مِن أنَّه أَوحَد العصر، وفَريد الدَّهر في فَنِّه، إذا سَمِع بنظيرٍ له في أقصَى العالِم ساءه ذلك، وأَحبَّ مَوته، أو زوال النِّعمة التي بها يُشارِكُه في عِلمٍ، أو شجاعةٍ، أو عِبادةٍ، أو صناعةٍ، أو ثروةٍ، أو غيرِ ذلك، وليس ذلك إلَّا لِمَحض الرِّياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود يُنكِرون معرفة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُؤمِنون خَوفًا مِن بُطلان رئاستهم.

وأمَّا خُبثُ النَّفْس وشُحُّها على عِباد الله فإنَّك تجد مِن النَّاس مَن لا يشتغل برئاسةٍ ولا تَكبُّرٍ، وإذا وُصف عنده حُسنُ حال عبدٍ مِن عِباد الله تعالى فيما أنعم عليه به شَقَّ عليه ذلك، وإذا وُصف له اضطراب أُمور النَّاس وإدبارهم، وتَنغيص عيشهم فَرِح به، فهو أبدًا يُحبُّ الإدبار لغيره، ويَبخل بنعمة الله على عِباده، كأنَّهم يأخذون ذلك مِن ملكه وخزانته.

وقد قال بعض العلماء: البخيل مَن يبخل بمال نفسه، والشَّحيح الذي يَبخل بمال غيره، فهذا يَبخل بنعمة الله على عِباده الذين ليس بينهم وبينه عداوةٌ ولا رابطةٌ، وهذا ليس له سببٌ إلَّا خُبث النَّفْس، ورداءة الطَّبع، وهذا مُعالَجته شديدةٌ؛ لأنَّه ليس له سببٌ عارضٌ، فيُعمَل على إزالته، بل سببه خُبْث الجِبلَّة، فيَعسُر إزالته، فهذه أسباب الحسد.

فَصْلٌ

واعلم أنَّما يَكثر الحَسد بين أقوامٍ تكثر بينهم الأسباب التي ذَكَرناها، ويقع ذلك غالبًا بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني العمِّ؛ لأنَّ سبب التَّحاسُد تَوارُد الأغراض على مَقاصِدَ يحصل التَّناقُض فيها، فيثور التَّنافُر والتَّباغُض.

ولذلك ترى العالِم يحسد العالِم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالِم، والتَّاجر يحسد التَّاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزَّاز إلَّا أنْ يكونَ سببٌ آخَرُ؛ لأنَّ مقصد كلِّ واحدٍ مِن هؤلاء غيرُ مقصد الآخَر.

فأصل العداوة التَّزاحُم على غَرَضٍ واحدٍ، والغَرَض الواحد لا يجمع مُتباعِدَين؛ إذ لا رابطةَ بين شخصَين في بلدَين، ولا يكون بينهما مُحاسَدةٌ إلَّا مَن اشتدَّ حِرصه على الجاه، فإنَّه يَحسد كلَّ مَن في العالَم ممَّن يُساهِمه في الخصلة التي يُفاخِر بها.

ومنشأ جميع ذلك حُبُّ الدُّنيا، فإنَّ الدُّنيا هي التي تَضيق على المُتزاحِمين، وأمَّا الآخرة فلا ضِيقَ فيها، فإنَّ مَن أَحبَّ معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبيائه، وملكوت أرضه وسمائه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك؛ لأنَّ المعرفة لا تَضيق على العارِفين، بل المعلوم الواحد يَعرفه أَلْفُ أَلْفِ عالِمٍ، ويفرح بمعرفته غيرَه، فلذلك لا يكون بين علماء الدِّين مُحاسَدةٌ؛ لأنَّ مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحرٌ واسعٌ لا ضِيقَ فيه، وغَرَضهم المَنزِلة عند الله، ولا ضِيقَ فيما عند الله؛ لأنَّ أَجَل ما عند الله مِن النَّعيم لَذَّةُ لقائه، وليس فيه مُمانَعةٌ ولا مُزاحَمةٌ، ولا يضيق بعض النَّاظِرين على بعضٍ، بل يَزيد الأُنس بكَثرتهم، إلَّا أنَّه إذا قَصَد العلماء بالعِلم المالَ والجاهَ تَحاسَدوا.

والفرق بين العِلم والمال أنَّ المال لا يَحُلُّ في يدٍ ما لم يَرتحِلْ عن يدٍ أُخرَى، والعِلم مُستقِرٌّ في قلب العالِم، ويَحُلُّ في قلب غيره بتعليمه مِن غيرِ أنْ يَرتحِلَ عن قلبه، ولا نهايةَ له، فمَن عوَّد نفسه الفِكْر في جلال الله وعظمته وملكه صار ذلك عنده أَلَذَّ مِن كلِّ نعيمٍ؛ لأنَّه لم يكنْ ممنوعًا عنه، ولا مُزاحَمًا فيه، فلا يكون في قلبه حَسدٌ لأحدٍ مِن الخَلْق؛ لأنَّ غيره لو عَرَف مِثْلَ مَعرفته لم ينقصْ مِن لَذَّته، فقد عَرفتَ أنَّه لا حسدَ إلَّا في المُتوارِد على مقصودٍ يَضيق عن الوفاء بالكلِّ.

ولهذا لا ترى النَّاس يَتزاحَمون على النَّظر إلى زِينة السَّماء؛ لأنَّها واسعةُ الأقطار، وافيةٌ بجميع الأبصار، فعليك إنْ كنتَ شَفيقًا على نفسك أنْ تطلبَ نعيمًا لا زَحمةَ فيه، ولَذَّةً لا تَتكدَّر، ولا يوجد ذلك في الدُّنيا إلَّا في معرفة الله تعالى وعجائبِ ملكوته، ولا يُنال ذلك في المعرفة أيضًا، فإنْ كنتَ لا تَشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لَذَّتها، وضَعُفَتْ فيها رَغبَتك، فلستَ برَجُلٍ، إنَّما هذا شأن الرِّجال؛ لأنَّ الشَّوق بعد الذَّوْق، ومَن لم يَذُقْ لم يعرفْ، ومَن لم يعرفْ لم يَشتَقْ، ومَن لم يَشتَقْ لم يَطلُبْ، ومَن لم يَطلُبْ لم يُدرِكْ، ومَن لم يُدرِكْ بقي مِن المَحرومِين.

واعلم أنَّ الحسد مِن الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تُداوى أمراض القلوب إلَّا بالعِلم والعمل، والعِلم النَّافع لمرض الحسد هو أنْ تعرفَ حقيقة أنَّ الحسد ضررٌ عليك في الدِّين والدُّنيا، وأنَّه لا يَضرُّ المحسود في الدِّين ولا في الدُّنيا، بل ينتفع به، والنِّعمة لا تَزول عن المحسود بحَسَدك، ولو لم تكنْ تُؤمن بالبعث لكان مُقتضَى الفِطنة إنْ كنتَ عاقلًا أنْ تَحذَر مِن الحَسَد؛ لِمَا فيه مِن أَلَم القلب مع عدم النَّفع، فكيف وأنتَ تعلم ما فيه مِن العذاب في الآخرة.

وبيان قولنا: إنِّ المحسود لا ضررَ عليه في الدِّين ولا في الدُّنيا، بل يَنتفع بحَسَدك في الدِّين والدِّنيا؛ لأنَّ ما قدَّره الله له مِن نعمةٍ لا بدَّ أنْ تدومَ إلى أَجَله الذي قَدَّره، ولا ضَررَ عليه في الآخرة؛ لأنَّه لا يأثم هو بذلك، بل ينتفع به؛ لأنَّه مظلومٌ مِن جِهتك، لا سيَّما إذا أَخرجَت الحَسَد إلى القول والفعل.

وأمَّا منفعته في الدُّنيا، فهو أنَّ مِن أهمِّ أغراض الخَلْق غمُّ الأعداء، ولا عذابَ أعظم ممَّا أنتَ فيه مِن الحسد.

فإذا تأمَّلتَ ما ذَكَرنا عَلِمتَ أنَّك عدوٌّ لنفسك، وهو صديقٌ لعدوِّك، فما مَثُلك إلَّا كَمَثل مَن يرمي حَجَرًا إلى عدوِّه؛ لِيُصيب مَقتَله فلا يُصيبه، ويرجع الحَجَر على حَدَقَته

اليُمنى فيَقلَعها، فيزيد غضبه، فيَعود ويَرميه بحَجَرٍ أَشدَّ مِن الأوَّل، فيرجع الحَجَر على عينه الأُخرى فيُعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثَّالثة، فيعود الحَجَر على رأسه فيَشدخه، وعدوُّه سالِمٌ يَضحك به.

فهذه الأدوية العِلميَّة، فإذا تفكَّر الإنسان فيها أَخمَدت نار الحسد مِن قلبه.

وأمَّا العمل النَّافع فيه فهو أنْ يَتكلَّف نقيض ما يَأمره به الحسد، فإذا بَعَثه على الحقد والقدح في المحسود كلَّف نفسه المَدح له، والثَّناء عليه، وإنْ حَمَله على الكِبْر، أَلزَم نفسه التَّواضُع له، وإنْ بَعَثه على كفِّ الإنعام عنه أَلزَم نفسه زيادةً في الإنعام، وقد كان جماعةٌ مِن السَّلف إذا بَلَغهم أنَّ شخصًا اغتابهم أهدَوا إليه هديةً.

فهذه أدويةٌ نافعةٌ للحسد جدًّا، إلَّا أنَّها مُرَّةٌ، وربَّما يُسهِّل شربها أنْ تعلمَ أنَّه إذا كان لا يكونُ كلُّ ما تَريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدَّواء الكلِّيُّ، والله أعلمُ.

باب في ذم الدنيا

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدُّنيا، والتَّزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرةٌ، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] **الآية**.

وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقوله: ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وأمَّا الأحاديث ففي «الصَّحيحَين»[(١)] مِن رواية المُستورِد بن شدَّادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَا الدُّنيَا في الآخِرَةِ إلَّا كَمِثلِ ما يَجعَلُ أَحَدُكُم أُصبُعَهُ في اليَمِّ، فَليَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟**».

وفي حديثٍ آخَرَ: «**الدُّنيَا سِجنُ المُؤمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**». رواه مسلمٌ[(٣)].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**لو كانَتِ الدُّنيَا تَعدِلُ عِندَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى مِنهَا كَافِرًا شَربَةَ ماءٍ**». رواه التِّرمذيُّ وصححه[(٤)].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**الدُّنيا مَلعُونةٌ، مَلعُونٌ ما فِيهَا إلَّا مَا كَانَ للهِ مِنهَا**»[(٥)].

وروى أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ أَحَبَّ دُنيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِه، ومَنْ أَحَبَّ آخِرَتَه أَضَرَّ بِدُنيَاه، فآثِرُوا ما يَبقَى عَلى ما يَفنَى**»[(٦)].

وكتب الحسن إلى عمرَ بن عبد العزيز في ذَمِّ الدُّنيا كتابًا طويلًا فيه: «أمَّا بعدُ، فإنَّ الدُّنيا دارُ ظَعْنٍ، ليست بدار مُقامٍ، وإنَّما أُنزل إليها آدمُ عُقوبةً، فاحذرها يا أميرَ المؤمنين،

---

(١) الحديث ليس في «الصَّحيحَين» إنَّما هو في «مسلم» (٢٨٥٨) عن المستورد بن شدَّادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المُستورِد بن شدَّاد القرشيُّ الفهريُّ المكِّيُّ، نزيل الكوفة، له ولأبيه صحبةٌ، روى عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، توفِّي في الإسكندريَّةَ عام (٤٥). انظر «الإصابة»، ابن حجر العسقلاني، (٦/ ٧١)، «الأعلام»، الزركلي، (٧/ ٢١٥).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٩٥٦) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠) عن سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: وفي الباب عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجه.

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٦) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٨٥٤)، وأحمدُ (١٩٦٩٧) عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٢٤٩): أخرجه أحمدُ والبزَّار والطَّبرانيُّ وابن حِبَّانَ والحاكم وصحَّحه.

فإنَّ الزَّادَ منها تَرْكُها، والغِنَى فيها فَقرُها، تُذِلُّ مَن أعزَّها، وتُفقِر مَن جَمَعها، كالسُّمِّ يَأكله مَن لا يَعرِفه وهو حَتْفه، فاحذر هذه الدَّار الغرَّارة الخيَّالة الخدَّاعة، وكُن أَسرَّ ما تكون فيها، احذر ما تكون لها، سُرُورها مَشوبٌ بالحزن، وصَفوُها مَشوبٌ بالكَدَر، فلو كان الخالِق لم يُخبِر عنها خَبرًا، ولم يَضرِب لها مثلًا لكانت قد أيقظتِ النَّائم، ونبَّهتِ الغافل، فكيف وقد جاء مِن الله عَزَّوَجَلَّ عنها زاجرٌ، وفيها واعظٌ، فما لها عند الله سبحانه قَدْرٌ ولا وَزنٌ، ما نظر إليها مُنذ خَلقَها.

ولقد عُرِضتْ على نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضةٍ، فأبَى أنْ يَقبلَها، كَرِه أنْ يُحبَّ ما أبغض خالقه، أو يَرفع ما وَضَع مليكه، زواها الله عن الصَّالحين اختيارًا، وبَسَطَها لأعدائه اغترارًا، أَفَيَظنُّ المغرور بها المُقتدِر عليها أنَّه أُكرِم بها؟ ونَسِي ما صَنع الله بمحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين شَدَّ على بطنه الحَجَر، واللهِ ما أحدٌ مِن النَّاس بُسِط له في الدُّنيا فلم يَخَفْ أنْ يكون قد مُكِرَ به إلَّا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك عن عبدٍ، فلم يَظنَّ أنَّه قد خِيرَ له فيها إلَّا نقص عقله وعجز رأيه»[(١)].

وقال مالك بن دينارٍ[(٢)]: «اتَّقوا السَّحَّارة، فإنَّها تَسحَر قلوب العلماء»، يعني الدُّنيا[(٣)].

ومِن أمثلة الدُّنيا: قال يونس بن عبيدٍ[(٤)]: «شُبِّهَت الدُّنيا برَجُلٍ نائمٍ، فرأى في منامه ما يَكرَهه وما يُحِبُّ، فبينما هو كذلك انتبه»[(٥)].

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ٣١٢).

(٢) مالك بن دينارٍ، عَلَم العلماء الأبرار، معدودٌ في ثقات التَّابعين، ومِن أعيان كَتَبة المصاحف، ولد في أيَّام ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسمع مِن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمَن بعده، وحدَّث عنه، وعن الأحنف بن قيس، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وغريهم، وحدَّث عنه سعيد بن أبي عروبةَ، وعبد الله بن شوذب وغيرهما، توفي سنة(١٣١). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٣٦٢)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ٢٦٠).

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ٣٦٤).

(٤) يونس بن عبيد بن دينار العبديُّ مولاهم، رأى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحدَّث عن الحسن، وابن سيرينَ، وعطاءٍ وغيرهم، وحدَّث عنه حجَّاج بن حجَّاج، وشعبةُ، وغيرهما، توفِّي سنة (١٣٩). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٦/ ٢٨٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ٢٦٢).

(٥) رواه ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ١٨٢).

ومِثل هذا قولهم: «النَّاس نِيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا»[١].

والمعنى أنَّهم يَنتبِهون بالموت، وليس في أيديهم شيءٌ ممَّا رَكَنوا إليه، وفرِحوا به.

قيل: إنَّ عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ رأى الدُّنيا في صورة عجوزٍ هَتماءَ[٢]، عليها مِن كلِّ زينةٍ، فقال لها: كم تَزوَّجتِ؟ قالت: لا أُحصيهم. قال: فكلُّهم مات عنك، أو كلُّهم طلَّقكِ؟ قالت: بل كلُّهم قتَلتُ. فقال عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ: بُؤسًا لأزواجك الباقِين، كيف لا يَعتبِرون بأزواجك الماضِين، كيف تُهلِكينهم واحدًا بعد واحدٍ، ولا يكونون منك على حَذَرٍ.

ورُوي عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: يُؤتى بالدُّنيا يوم القيامة في صورة عجوزٍ شمطاءَ[٣] زرقاءَ، أَنيابها باديةٌ، مُشوَّهٌ خَلقها، فتُشرف على الخَلْق، فيُقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله مِن معرفة هذه. فيُقال: هذه الدُّنيا التي تَشاجَرتُم عليها، وبها تَقاطعتُم الأرحام، وبها تَحاسدتُم، وتَباغضتُم، واغتررتُم، ثُمَّ تُقذَف في جهنَّمَ، فتقول: يا ربِّ، أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: أَلحِقُوا بها أَتباعَها وأَشياعَها[٤].

وعن أبي العلاء قال: رأيتُ في النَّوم عجوزًا كبيرةً، عليها مِن كلِّ زينةٍ، والنَّاس عُكوفٌ عليها مُتعجِّبُون، ينظرون إليها، فقلت لها: مَن أنتِ وَيلَكِ؟ قالت: أَمَا تَعرِفُني؟ قلت: لا. قالت أنا الدُّنيا. فقلت: أعوذ بالله مِن شَرِّكِ. فقالت: إنْ أَحببتَ أنْ تُعاذ مِن شَرِّي فأبغض الدِّرهم[٥].

وقال بعضهم: رأيتُ الدُّنيا في النَّوم عجوزًا مُشوَّهةَ الخِلْقة حدباءَ.

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٧/ ٥٢) من قول سفيانَ الثَّوريِّ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٢/ ٣١٢): لم أجده مرفوعًا، وإنَّما يُعزى إلى عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٢) ليس لها أسنانٌ. لسان العرب مادة (هتم).

(٣) الشَّمَط في الشَّعر: اختلافه بلونَين مِن سوادٍ وبياضٍ. لسان العرب مادة (شمط).

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشعب» (١٠١٨٩) مِن قول ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، وعزاه السُّيوطيُّ في «الجامع الكبير» (٤٢٠/ ٥٦٣) إلى أبي سعيدٍ الأعرابيِّ في «الزُّهد».

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢٨٢٤٣) عن العلاء بن زياد.

مِثالٌ آخَرُ: اعلم أنَّ أحوالَك ثلاثٌ:

حالٌ لم تكنْ فيها شيئًا؛ وهي قَبل أنْ تُوجَدَ.

وحالٌ أُخرَى، وهي مِن ساعة مَوتِك إلى ما لا نِهايةَ له في البقاء السَّرمديِّ؛ فإنَّ لنفسك وُجودًا بعد خُروجها مِن بَدَنك، إمَّا في الجَنَّة أو النَّار، وهو الخُلود الدَّائم.

وبَين هاتَين الحالتَين حالةٌ مُتوسِّطةٌ، وهي أيَّام حياتك في الدُّنيا، فانظر إلى مِقدار ذلك، وانسبه إلى الحالتَين تَعلَمْ أنَّه أقلُّ مِن طَرْفَة عينٍ في مقدار عُمرِ الدُّنيا.

ومَن رأى الدُّنيا بهذه العين لم يَركَنْ إليها، ولم يُبالِ كيف انقضت أيَّامه بها في ضَرَرٍ وضِيقٍ، أو سَعةٍ ورفاهيَّةٍ، ولهذا لم يضعْ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَبِنةً على لَبِنةٍ، ولا قصبةً على قصبةٍ، وقال: «**ما لي ولِلدُّنيا؟ إنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنيَا كَرَاكِبٍ قَالَ[1] تحتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[2].

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الدُّنيا قَنطَرةٌ، فاعبُروها، ولا تعمروها»[3]. هذا مَثَلٌ واضحٌ، فإنَّ الحياة الدُّنيا مَعبَرٌ إلى الآخِرة، والمَهدُ هو الرُّكن الأوَّل على أوَّل القنطرة، واللَّحد هو الرُّكن الثَّاني على آخِر القنطرة.

ومِن النَّاس مَن قطع نصف القنطرة، ومِن النَّاس مَن قطع ثُلُثَيها، ومنهم مَن لم يَبقَ له إلَّا خطوةٌ واحدةٌ، وهو غافلٌ عنها، وكيفما كان فلا بدَّ مِن العُبور، فمَن وَقَف يبني على القنطرة، ويُزيِّنها، وهو يَستحِثُّ للعُبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق.

وقيل: مَثَل طالب الدُّنيا مَثَل شارب ماء البحر، كلَّما ازداد شربًا، ازداد عطشًا حتى يقتله[4].

---

(١) مِن القيلولة: هي النَّوم في الظَّهيرة. «لسان العرب» مادة (قول).

(٢) رواه أحمدُ (٣٧٠٩) والتِّرمذيُّ (٢٣٧٧) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه بمعناه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ١٤٥).

(٤) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (١٤١٨) مِن قول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان بعض السَّلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أُريكم الدُّنيا. فيذهب بهم إلى مَزبلةٍ، فيقول: انظروا إلى ثِمارهم ودَجاجهم وعَسَلهم وسَمْنهم.

مِثالٌ آخرُ: رُوي عن الحسن قال: بَلَغني عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّما مَثلِي وَمَثلُكم، ومَثَلُ الدُّنيا كَمَثَلِ قَومٍ سَلكُوا مَفازَةٍ غَبراءَ، حتَّى إذا لم يَدرُوا ما سَلكُوا مِنهَا أَكثَرُ أو ما بَقِيَ، أَنفَذُوا الزَّادَ، وخَسِرُوا الظَّهْرَ، وبقُوا بَينَ ظَهراني المَفازَةِ، لا زَادَ ولا حَمولةَ، فأَيقَنُوا بِالهَلَكَةِ، فَبينَما هُم كَذلِكَ إذ طَلَعَ عَلَيهِم رَجلٌ في رَحلِه يَقطُرُ رَأسُه، فَقالُوا: إنَّ هَذا قَريبُ عَهدٍ بِرِيفٍ، وما جاءَ هَذا إلَّا مِن قَريبٍ، فلَمَّا انتَهَى إلَيهِم قالَ: يا هؤلاءِ، عَلامَ أَنتُم؟ قالوا: على ما تَرَى، قالَ: أَرأيتكُم إنْ هَديتُكم إلى ماءٍ رواءٍ، ورياضٍ خُضرٍ ما تَعملونَ؟ قالوا: لا نَعصِيكَ شَيئًا. قال: عُهودُكُم ومَواثِيقُكُم بِاللهِ. قال: فأَعطُوه عُهودَهم ومَواثِيقِهم بِاللهِ لا يَعصُونَه شَيئًا. قال: فأَورَدَهم ماءً ورِياضًا خُضرًا، فمَكثَ فِيهم ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ قال: يا هؤلاءِ، الرَّحيلَ. قالوا: إلى أينَ؟ قال: إلى ماءٍ ليسَ كمائِكُم، وإلى رِياضٍ لَيستْ كَرِياضِكُم، فقال أكثرُ القَومِ: واللهِ ما وَجَدنا هَذا حتَّى ظَنَنَّا أنْ لن نَجِدَه، وما نَصنَعُ بِعَيشٍ خَيرٍ مِن هَذا؟ وقالت طائِفةٌ قَليلةٌ: أَلَم تُعطُوا هَذا الرَّجلَ عُهودَكُم ومَواثِيقَكُم بِاللهِ لا [تَعصُوه][1]؟ وقد صَدَقَكُم في أَوَّلِ حَدِيثِه، فواللهِ لَيَصدُقَنَّكُم في آخرِه، قال: فَراحوا فِيمَنِ اتَّبعَهُ، وتَخلَّفَ بَقِيَّتُهم، فَنزَلَ عَدُوٌّ، فَأصبَحُوا بَينَ أَسيرٍ وقَتيلٍ**»[2].

وفي «الصَّحيحَين»[3] مِن حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّما مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يا قَومِ**

---

(١) ورد في "المطبوع" [تعصونه].

(٢) قال العراقيُّ في «المغني» (١/ ١٧٦) أخرجه ابن أبي الدُّنيا هكذا بطوله لأحمدَ والبزَّار والطَّبرانيِّ مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلمٌ (٢٢٨٣) عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَأَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَا، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِن قَومِهِ فَأَدْلَجُوا وانطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ مِنهُم فَأَصبَحُوا مَكانَهُم، فَصَبَّحَهُم الجَيْشُ في مَكانِهِم، فَأَهلَكَهُم، واجتَاحَهُم، فَذَلِكَ مَثَلُ مَن أَطاعَنِي، وَاتَّبَعَ ما جِئتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَن عَصانِي، وَكَذَّبَ بِمَا جِئتُ به مِنَ الحَقِّ».

فَصْلٌ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الدُّنيَا وَالمَذْمُومِ مِنْهَا وَالمَحْمُودِ

قد سمع خَلقٌ كثيرٌ ذَمَّ الدُّنيا مُطلَقًا، فاعتقدوا أنَّ الإشارة إلى هذه الموجودات التي خُلقت للمنافِع، فأعرَضوا عمَّا يُصلِحهم مِن المطاعِم والمشارِب.

وقد وضع الله في الطِّبَاع تَوقان النَّفْس إلى ما يُصلحها، فكلَّما تاقت مَنَعوها، ظنًّا منهم أنَّ هذا هو [المُراد][1]، وجهلاً بحُقوق النَّفْس، وعلى هذا أكثر المُتزهِّدِين، وإنَّما فَعَلوا ذلك لِقِلَّة العِلم، ونحن نَصدع بالحقِّ مِن غير مُحاباةٍ فنقول:

اعلم أنَّ الدُّنيا عِبارةٌ عن أعيانٍ موجودةٍ للإنسان، فيها حَظٌّ، وهي الأرض وما عليها، فإنَّ الأرض مَسكَن الآدميِّ، وما عليها مَلبَسٌ ومَطعَمٌ ومَشرَبٌ ومَنكَحٌ، وكلُّ ذلك عَلَفٌ لراحلة بَدَنه السَّائر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه لا يَبقَى إلَّا بهذه المَصالِح، كما لا تَبقَى النَّاقة في طريق الحجِّ إلَّا بما يُصلِحها، فمَن تَناوَل منها ما يُصلحه على الوجه المأمور به مُدِح، ومَن أَخذ منها فوق الحاجة يَكتنِف الشَّرَه وقع في الذَّمِّ، فإنَّه ليس للشَّرَه في تَناوُل الدُّنيا وجهٌ؛ لأنَّه يخرج عن النَّفع إلى الأذى، ويشغَل عن طلب الأُخرَى، فيُفوِّت المقصود، ويَصِير بمثابة مَن أَقبَل يَعلف النَّاقة، ويَرِد لها الماء، ويُغيِّر عليها ألوانَ الثِّياب، ويَنسَى أنَّ الرِّفقة قد سارت، فإنَّه يبقى في البادية فريسةً للسِّبَاع هو وناقته.

---

(١) ورد في "المطبوع" [الزهد المراد].

ولا وجهَ أيضًا للتَّقصير في تَناوُل الحاجة؛ لأنَّ النَّاقة لا تقوَى على السَّير إلَّا بتَناوُل ما يُصلِحها، فالطَّريق السَّليم هي الوُسطَى، وهي أنْ يُؤخَذ مِن الدُّنيا قَدْر ما يُحتاج إليه مِن الزَّاد للسُّلوك، وإنْ كان مُشتهِيًا، فإنَّ إعطاء النَّفْس ما تَشتهِيه عونٌ لها، وقضاءٌ لِحَقِّها.

وقد كان سفيانُ الثَّوريُّ يأكل في أوقاتٍ مِن طَيِّب الطَّعام، ويَحمل معه في السَّفر الفالوذج.

وكان إبراهيمُ بن أدهمَ يأكل مِن الطَّيِّبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وَجَدنا أَكَلنا أَكْلَ الرِّجال، وإذا فَقَدنا صَبَرنا صَبْرَ الرِّجال.

ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، فإنَّهم ما كان لهم إفراطٌ في تَناوُل الدُّنيا، ولا تفريطٌ في حقوق النَّفْوس.

وينبغي أنْ يَتلمَّحَ حَظَّ النَّفْس في المُشتهَى، فإنْ كان في حَظِّها حِفظُها وما يُقيمها ويصلحها ويُنشطها للخير فلا يَمنعها منه، وإنْ كان حَظُّها مُجرَّد شهوةٍ ليست مُتعلِّقةٍ بمَصالِحها المذكورة فذلك حَظٌّ مذمومٌ، والزُّهد فيه يكون.

باب في ذم البخل والحرص والطمع وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك

اعلم أنَّ المال لا يُذَمُّ لِذَاتِه، بل يَقع الذَّمُّ لمَعنًى مِن الآدميِّ، وذلك المعنى إمَّا شِدَّةُ حِرصه، أو تَناوُله مِن غير حِلِّه، أو حَبْسه عن حَقِّه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المُفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وفي «سنن التِّرمذيِّ» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما ذِئبَانِ جَائِعَانِ أُرسِلَا في غَنَمٍ، بِأَفسَدَ لَهَا مِن حِرْصِ المَرءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[١].

وقد كان السَّلف يَخافُون مِن فتنة المال، وكان عمرُ رضي الله عنه إذا رأى الفُتوح يبكي، ويقول: ما حَبَس الله هذا عن نبيِّه ﷺ وعن أبي بكرٍ لِشَرٍّ أراده الله بهما، وأعطاه عمرَ إرادةَ الخير له.

وقال يحيى بن معاذٍ: الدِّرهم عقربٌ، فإنْ لم تُحسِن رُقيته فلا تأخذه، فإنَّه إنْ لَدَغَك قَتَلك سُمُّه، قيل: ما رُقيته؟ قال: أَخْذه مِن حِلِّه، ووَضعه في حَقِّه[٢].

وقال: مُصيبَتان للعبد في ماله عند موته لا تَسمع الخلائق بمِثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يُؤخَذ منه كلُّه، ويُسأل عنه كلِّه.

بيان مدح المال

قد بيَّنَّا أنَّ المال لا يُذَمُّ لذاته، بل ينبغي أنْ يُمدَح؛ لأنَّه سببٌ للتَّوصُّل إلى مَصالِح الدِّين والدُّنيا، وقد سمَّاه الله تعالى خيرًا، وهو قِوَام الآدميِّ، قال الله تعالى في أوَّل

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٧٦) عن كعب بن مالكٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (١٠/ ٥٩).

سورة النِّساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المُسيِّب: لا خيرَ فيمَن لا يُريد جمع المال مِن حِلِّه، يَكفُّ به وجهه عن النَّاس، ويَصِل به رَحِمه، ويُعطي منه حَقَّه.

وقال أبو إسحاق السَّبيعيُّ(١): كانوا يَرَون السَّعة عَونًا على الدِّين(٢).

وقال سفيانُ: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن.

وحاصل الأمر: أنَّ المال مِثل حَيَّةٍ فيها سُمٌّ وتِرياقٌ، فتِرياقه فوائده، وغوائله سُمُّه، فمَن عَرَف فَوائده وغوائله أمكنه أنْ يَحترِز مِن شَرِّه، ويَستدِرَّ مِن خيره.

أمَّا فوائده فتَنقَسم إلى دُنيويةٍ، ودِينيَّةٍ.

أمَّا الدُّنيويَّة فالخَلْق يعرفونها، ولذلك تَهالَكوا في طَلَبِها.

وأمَّا الدِّينيَّة فتنحصر في ثلاثة أنواعٍ:

أحدها: أنْ يُنفِقَه على نفسه، إمَّا في عِبادةٍ، كالحجِّ والجهاد، وإمَّا في الاستعانة على العِبادة، كالمَطعَم والمَلبَس والمَسكَن وغيرها مِن ضرورات المعيشة، فإنَّ هذه الحاجات إذا لم تَتيسَّرْ لم يَتفرَّغ القلب للدِّين والعِبادة، وما لا يُتَوصَّل إلى العِبادة إلَّا به فهو عِبادةٌ، فأَخْذ الكفاية مِن الدُّنيا للاستعانة على الدِّين مِن الفوائد الدِّينيَّة، ولا يَدخل في هذا التَّنعُّمُ والزِّيادة على الحاجة، فإنَّ ذلك مِن حُظوظ الدُّنيا.

---

(١) أبو إسحاق السَّبيعيُّ عمرو بن عبد الله الهمدانيُّ، الكوفِيُّ، الحافظ، روى عن معاويةَ، وعديِّ بن حاتم، وابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُم وغيرهم، وحدَّث عنه محمَّد بن سيرينَ -وهو مِن شيوخه- والزُّهريُّ، وقتادةُ غيرهم، توفِّي سنة (١٢٧). انظر «تقريب التَّقريب»، ابن حَجرٍ العسقلانيُّ، (ص٤٣٣)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٣٩٢)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ٨١).

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٤/ ٣٤٠)، وقال في آخره: قيل: سفيانُ الثَّوريُّ ذَكَره؟ قال: نعم

النَّوع الثَّاني: ما يَصرفه إلى النَّاس، وهو أربعة أقسامٍ:

أحدها: الصَّدقة، وفضائلها كثيرةٌ مشهورةٌ.

القسم الثَّاني: المروءة، ونعني بها صَرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافةٍ وهديةٍ وإعانةٍ، ونحوِ ذلك، وهذا مِن الفوائد الدِّينيَّة؛ إذ به يَكتسِب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثَّالث: وِقاية العِرض، نحو بذل المال لدفع هَجْر الشُّعراء، وثلب[1] السُّفهاء، وقَطْع ألسنتهم، وكَفِّ شَرِّهم، فهو مِن الفوائد الدِّينيَّة، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما وَقَى الرَّجُلُ به عِرضَهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ**»[2]. وهذا لأنَّه يَمنع المُغتاب مِن معصية الغِيبة، ويحرز منها ما يُثير كلامه مِن العداوة التي تَحمل في الانتقام على مُجاوَزة حُدود الشَّريعة.

القِسم الرَّابع: ما يُعطيه أجرًا على الاستخدام، فإنَّ الأعمال التي يَحتاج إليها الإنسان لِمهنةٍ أسبابها كثيرةٌ، ولو تَولَّاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتَعذَّر عليه سلوك الآخرة بالفِكر والذِّكْر اللَّذَين هما أَعلى مَقامات السَّالكين، ومَن لا مال له يَفتقِر إلى أنْ يتولَّى خِدمة نفسه بنفسه، فكلُّ ما بلغ يُتصوَّر أنْ يقومَ به غيرك، ويَحصل بذلك غَرضك فإنَّ تَشاغُلَك به غُبنٌ؛ لأنَّ احتياجك إلى التَّشاغُل بما لا يَقوم به غيرك مِن العِلم والعمل والذِّكْر والفِكر أَشدُّ.

النَّوع الثَّالث: ما لا يَصرفه الإنسان إلى مُعيَّنٍ، لكن يَحصل به خيرًا عامًّا، كبِناء المساجد، والقناطر، والوقوف المُؤبَّدةِ.

فهذه جُملةٌ مِن فوائد المال في الدِّين سِوى ما يتعلَّق بالحُظوظ العاجلة، مِن الخَلاص مِن ذُلِّ السُّؤال، وحَقارة الفقر، والعِزِّ بين الخَلْق، والكرامة في القلوب، والوقار.

---

(١) ثلبه إذا لامه وعابه وصرح بالعيب. «لسان العرب» مادة (ثلب).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٣٢٢٠)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٦٤٦) عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٤٦٣): أخرجه أبو يعلى، وابن عديٍّ مِن حديث جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وضعَّفه.

وأمَّا غوائل المال وآفاته، فتَنقسم أيضًا إلى دينيَّةٍ ودنيويَّةٍ.

أمَّا الدِّينيَّة فثلاثٌ:

الأُولى: أنَّه يَجرُّ إلى المعاصي غالبًا؛ لأنَّ مَنِ استشعر القُدرة على المعصية انبعثت داعيته إليها.

والمال نوعٌ مِن القدرة، يُحرِّك داعيته إلى المعاصي، ومتى يَئِس الإنسان مِن المعصية لم تتحرَّك داعيته إليها.

ومِن العصمة ألَّا تَجِدَ، فصاحب القُدرة إنِ اقتحم ما يَشتهي هَلَك، وإنْ صبر لَقِي شِدَّةً في مُعاناة الصَّبر مع القُدرة، وفِتنة السَّرَّاء أعظمُ مِن فِتنة الضَّرَّاء.

الثَّانية: أنَّه يُحرِّك إلى التَّنعُّم في المُباحات، حتى تصير له عادةً وإلفًا، فلا يَصبِر عنها، وربَّما لم يَقدرْ على استدامتها إلَّا بكسبٍ فيه شبهةٌ، فيَقتحم الشُّبُهات، ويَترقَّى إلى التَّنعُّم في المُباحات، حتى تصير له عادةً وإلفًا، فلا يَصبِر عنها، وربَّما لم يَقدرْ على استدامتها إلَّا بكسبٍ فيه شبهةٌ، فيقتحم الشُّبُهات، ويَترقَّى إلى آفاتٍ مِن المُداهَنة والنِّفاق؛ لأنَّ مَن كَثُر ماله [خالَطه][1] النَّاس، وإذا خالَطهم لم يَسلَمْ مِن نِفاقٍ وعداوةٍ وحسدٍ وغِيبةٍ، وكلُّ ذلك مِن الحاجة إلى إصلاح المال.

الثَّالثة: وهي التي لا يَنفكُّ عنها أَحدٌ، وهو أنْ يلهيَه ماله عن ذِكْر الله، وهذا هو الدَّاء العُضال، فإنَّ أصل العبادات ذِكْر الله تعالى، والتَّفكُّر في جَلاله وعَظَمته، وذلك يَستدعي قلبًا فارغًا.

وصاحب الضَّيعة يُمسي ويُصبح مُتفكِّرًا في خُصومة الفلاحِين ومُحاسَبتِهم وخَيانتِهم، ويَتفكَّر في مُنازَعة شُركائه في الحدود والماء، وأعوان السُّلطان في الخَراج، والأُجراء على التَّقصير في العمارة، ونحوِ ذلك.

---

(١) ورد في "المطبوع " ن " [خالط].

وصاحب التِّجارة يُمسي ويُصبح مُتفكِّرًا في خيانة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال.

وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المجموع المكنوز يُفكِّر في كيفيَّة حِفظه، وفي الخوف عليه.

ومَن له قُوتُ يومٍ بيومٍ فهو في سلامةٍ مِن جميع ذلك، وهذا سِوى ما يُقاسيه أرباب الأموال في الدُّنيا مِن الخوف والحزن والهمِّ والغمِّ والتَّعب.

فإذًا ترياق المال أَخْذ القُوت منه، وصَرْف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سمومٌ وآفاتٌ.

بيان ذمّ الحرص والطّمع، ومدح القناعة واليأس

واعلم أنَّ الفقر محمودٌ، ولكن ينبغي للفقير أنْ يكون قانعًا، مُنقطعَ الطَّمع عن الخَلْق، غيرَ مُلتفِتٍ إلى ما في أيديهم، ولا حريصًا على اكتساب المال كيف كان، ولا يُمكنه ذلك إلَّا بأنْ يَقنع بقَدْر الضَّرورة مِن المَطعَم والمَلبَس.

وقد رُوي في «صحيح مسلم»(١) عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«قَد أَفلَحَ مَنْ أَسلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»**.

وقال سليمانُ بن داودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: قد جرَّبنا العيش كلَّه، لِينه مِن شديده، فوجدناه يَكفي منه أدناه.

وفي حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«القَنَاعَةُ مالٌ لا يَنفَدُ»**(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٢) رواه القضاعيُّ في «المسند» (٦٣) عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال في «كشف الخفاء» (٢/ ١٠٢): رواه الطَّبرانيُّ والعسكريُّ عن جابرٍ، وكذا عن القضاعيِّ عن أنسٍ، قال الذَّهبيُّ: وإسناده واهٍ.

وقال أبو حازمٍ: ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه كمل عقله: مَن عَرَف نفسه، وحَفِظ لسانه، وقَنَع بما رَزَقه الله عَزَّوَجَلَّ. وقرأ بعض الحكماء: أنتَ أَخو العِزِّ ما التحفتَ بالقناعة.

وأمَّا الحِرص، فقد نهى عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، أَجمِلُوا في الطَّلَبِ، فَإِنَّهُ لَيسَ لِعَبدٍ إلَّا ما كُتِبَ له**»(١).

ونهى عن الطَّمع فقال: «**اجمَعِ اليَأسَ مِمَّا في أَيدِي النَّاسِ**»(٢).

وقال بعضهم: لو قيل للطَّمع: مَن أبوك؟ قال: الشَّكُّ في المَقدور. ولو قيل له: ما حِرْفَتُك؟ قال: اكتساب الذُّلِّ. ولو قيل له: ما غايَتُكَ؟ قال: الحِرمان(٣).

وقيل: الطَّمَع يُذِلُّ الأمير، واليأس يُعِزُّ الفقير.

بيانُ عِلاجِ الحِرصِ والطَّمعِ والدَّواءِ الَّذي تُكتَسبُ بهِ صِفةُ القناعةِ

اعلم أنَّ هذا الدَّواء مُركَّبٌ مِن ثلاثة أركانٍ:

الصَّبر، والعِلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمورٍ:

الأوَّل: الاقتصاد في المعيشة، والرِّفق في الإنفاق، فمَن أراد القناعة فينبغي أنْ يَسدَّ عن نفسه أبوابَ الخَرْج ما أمكنه، ويَرُدَّ نفسه إلى ما لا بدَّ منه، فيقنع بأيِّ طعامٍ كان، وقليلٍ مِن الإدام، وثوبٍ واحدٍ، ويُوطِّن نفسه على ذلك، وإن كان له عيالٌ، فيَرُدُّ كلَّ واحدٍ إلى هذا القَدر.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٤٢) عن أبي حميدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٢٥): أخرجه الحاكم مِن حديث جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بنحوه، وصحَّح إسناده.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١) عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٢٨): أخرجه ابن ماجه، وتقدَّم في الصَّلاة، وللحاكم نحوه مِن حديث سعد بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (١٠/ ٢٣٦) مِن قول أبي بكرٍ الورَّاق.

قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ**»(١).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**التَّدبيرُ نِصفُ المَعِيشَةِ**»(٢).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**ثَلاثٌ مُنجِياتٌ: خَشيَةُ اللهِ تَعالَى في السِّرِّ والعَلانيةِ، والقَصدُ في الغِنَى والفَقرِ، والعَدلُ في الرِّضَى والغَضَبِ**»(٣).

الثَّاني: إذا تيسَّر له في الحال ما يَكفيه فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المُستقبَل، ويُعينه على ذلك قِصَر الأمل، واليقين بأنَّ رزقه لا بدَّ أنْ يأتيه، وليَعلمْ أنَّ الشَّيطان يَعِدُه الفقر.

وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِيَ أَنَّهُ لَيسَ مِنْ نَفْسٌ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتكمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَها، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **فَإِنَّهُ لا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**»(٤).

وإذا انسدَّ عنه بابٌ كان ينتظر الرِّزق منه فلا ينبغي أنْ يضطرب قلبه، فإنَّ في الحديث: «**أَبَى اللهُ أَنْ يَرزُقَ عَبدَهُ المُؤمِنَ إِلَّا مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ**»(٥).

---

(١) رواه أحمدُ (٤٢٦٩)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٦١٤٩)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (١٠١١٨) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٣١): أخرجه أحمدُ والطَّبرانيُّ مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورواه مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بلفظ «**مُقتَصِدٌ**».

(٢) قال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٣٤): رواه أبو منصور الدَّيلميُّ في «مسند الفردوس» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه خلَّاد بن عيسى جهَّله العقيليُّ، ووثَّقه ابن معينٍ.

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٣١) عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقال العراقيُّ في الشعب (٧/ ٣٣٢): أخرجه البزَّار، والطَّبرانيُّ، وأبو نُعيم، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٨٩١) والقضاعي في «مسند الشِّهاب» (١١٥١) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٧٧): رواه ابن أبي الدُّنيا في «القناعة»، والحاكم مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذكَره شاهدًا لحديث أبي حميدٍ وجابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصحَّحهما على شرط الشَّيخَين، وهما مُختصَران، ورواه البيهقيُّ في «شعب الإيمان»، وقال: إنَّه مُنقطِعٌ.

(٥) رواه القضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (٥٨٥) عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني»=

الثَّالث: أنْ يعرفَ ما في القناعة مِن عِزِّ الاستغناء، وما في الطَّمع والحِرص مِن الذُّلِّ.

وليس في القناعة إلَّا الصَّبر عن المُشتهَيات والفُضول، مع ما يحصل له مِن ثواب الآخرة، ومَن لم يُؤثِر عِزَّ نفسه عن شهوته، فهو رَكيك العقل، ناقصُ الإيمان.

الرَّابع: أنْ يكونَ تَفكُّرُه في تَنعُّم اليهود والنَّصارى، وأراذل النَّاس والحمقَى منهم، ثُمَّ ينظر إلى أحوال الأنبياء والصَّالحِين، ويَسمع أحاديثهم، ويُطالِع أحوالهم، ويُخيِّر عقله بين مُشابَهة أرذال العالَمِين، أو صفوة الخَلْق عند الله تعالى، حتى يَهون عليه الصَّبر على القليل، والقناعة باليسير، وأنَّه إنْ تَنعَّم بالأكل فالبهيمة أكثرُ أكلًا منه، وإنْ تَنعَّم بالوطء فالعُصفور أكثر سِفادًا[1] منه.

الخامس: أنْ يَفهم ما في جمع المال مِن الخَطَر، كما ذَكَرنا في آفات المال، ويَنظر إلى ثواب الفقر، ويَتمُّ ذلك بأنْ ينظرَ أبدًا إلى مَن دُونه في الدُّنيا، وإلى مَن فوقه في الدِّين، كما جاء في الحديث مِن رواية مسلم[2] أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**انظُرُوا إلى مَن هُو أَسفَلَ مِنكُم، ولا تَنظُرُوا إلى مَن هُو فَوقَكُم، فَإنَّهُ أَجدَرُ أَلَّا تَزدَرُوا نِعمةَ اللهِ عَليكُم**».

وعماد الأمر الصَّبر، وقِصَر الأمل، وأنْ يَعلمَ أنَّ غاية صبره في الدُّنيا أيَّامٌ قلائلُ لتَمتُّعٍ دائمٍ، فيكون المريضَ الذي يَصبر على مرارة الدَّواء لِمَا يَرجو مِن الشِّفاء.

فَصْلٌ

ينبغي لمَن فَقَد المال أنْ يَستعمِل القناعة كما ذَكَرنا، ولمَن وَجَده أنْ يَستعمِلَ السَّخاء والإيثار، واصطناع المعروف، فإنَّ السَّخاء مِن أخلاق الأنبياء، وهو أصلٌ مِن أصول النَّجاة.

= (٧/ ٣٤٠): أخرجه ابن حِبَّانَ في «الضُّعفاء» مِن حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسنادٍ واهٍ، ورواه ابن الجوزيِّ في «الموضوعات».

(١) السِّفاد للحيوان كالجِماع للإنسان. انظر «لسان العرب» مادَّة (سفد).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٣) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**قال جِبريلُ: قالَ الله** عَزَّوَجَلَّ: **الإسلامُ دِينٌ ارتَضَيتُهُ لِنفسِي، ولَن يُصلِحَهُ إلَّا السَّخاءُ، وحُسْنُ الخُلُقِ، فَأكرِمُوهُ بِهِما ما صَحِبتُمُوهُ**»(١).

وفي حديثٍ آخَرَ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَجَافُوا عن ذُنُوبِ السَّخِيِّ، فَإنَّ اللهَ آخِذٌ بِيَدِه كُلَّمَا عَثَرَ**»(٢).

وفي حديثٍ آخَرَ: «**الجَنَّةُ دارُ الأسخِياءِ، وما جُبِلَ وَلِيُّ اللهِ إلَّا عَلَى السَّخَاءِ**»(٣).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ بُدَلاءَ أُمَّتِي لَم يَدخُلُوا الجَنَّةَ بِعِبادَةٍ، وَلا بِصِيامٍ، وَلَكِنْ دَخَلُوها بِسَخَاءِ النَّفْسِ، وَسَلامَةِ الصُّدُورِ، والنُّصْحِ لِلمُسلِمِينَ**»(٤).

---

(١) قال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٤٥): أخرجه الدَّارقطنيُّ في «المُستجاد».

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٣٦٩)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٥٧١٠)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٤/ ١٠٨)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٥٢): أخرجه الطَّبرانيُّ في «الأوسط»، والخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق». وفيه ليث بن أبي سُليمٍ مُختلَفٌ فيه، ورواه الطَّبرانيُّ فيه، وأبو نُعيمٍ مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه، بإسنادٍ ضعيفٍ، ورواه ابن الجوزيِّ في «الموضوعات» مِن طريق الدَّارقطنيِّ.

(٣) روى الجزء الأول منه القضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (١١٧)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٦١): أخرجه ابن عديٍّ، والدَّارقطنيُّ في «المُستجاد» والخرائطيُّ، قال الدَّارقطنيُّ: لا يصحُّ، ومِن طريقه رواه ابن الجوزيِّ في «الموضوعات». وقال الذَّهبيُّ: حديثٌ مُنكَرٌ ما آفته سوى جحدر، قلت: رواه الدَّارقطنيُّ، فيه مِن طريقٍ آخَرَ وفيه محمَّد بن الوليد الموقريُّ، وهو ضعيفٌ جدًّا.
والجزء الثاني قال السَّخاويُّ في «المقاصد الحسنة» (ص٥٧٨): رواه الدَّيلميُّ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا به مرفوعًا، وسنده ضعيفٌ، وهو عند الدَّارقطنيِّ في «الأجود»، وأبي الشَّيخ وابن عديٍّ، ومِن شواهده حديث أنسٍ مرفوعًا: «**إنَّ بُدلاءَ أُمَّتِي لم يَدخُلوا الجَنَّةَ بِصَومٍ وَلا صَلاةٍ، وَلكِن بِرَحمَةِ اللَّهِ، وَسَخاءِ الأنفُسِ، والرَّحمةِ للمُسلِمِين**». ونحوه عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذا منها عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه: «**إنَّ اللَّهَ بَعَثَ جِبريلَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **إلى إبراهيمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فقال له: يا إبراهيمُ، إنِّي لم أتَّخِذْكَ خَلِيلًا على أنَّكَ أعبدَ عِبادِي، وَلكِنِ اطَّلعتُ عَلى قُلوبِ المُؤمِنِينَ، فلم أجِدْ قَلبًا أسخَى مِنْ قَلبِكَ**». وكلُّها مع ما في الباب في كتابي «الجواهر المجموعة».

(٤) قال العراقي في «المغني» (٧/ ٣٦٧): أخرجه الدَّارقطنيُّ في «المُستجاد»، وأبو بكر بن لالٍ في=

وفي حديثٍ آخَرَ: «عَلَيكُم بِاصطِنَاعِ المَعرُوفِ، فَإِنَّهُ يَمنَعُ مَصَارِعَ السُّوءِ»[١].

وقال ابن السَّمَّاك[٢]: عَجِبت ممَّن يشتري المماليك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه؟[٣].

حِكَايَاتُ الأَسْخِيَاءِ

قد صحَّ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه كان أَجودَ بالخير مِن الرِّيح المُرسَلة[٤]، وأنَّه ما سُئل شيئًا قطُّ، فقال: لا[٥]. وأنَّ رَجلاً سأله، فأعطاه غنمًا بين جبلَين، فأتى الرَّجل قومه، فقال: يا قوم، أسلموا، فإنَّ محمَّدًا يُعطِي عطاءَ مَن لا يخشى الفقر[٦].

وقيل: كان لعثمانَ على طلحةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما خمسون ألف درهمٍ، فخرج إلى المسجد، فقال له طلحةُ: قد تهيَّأ مالُكَ، فاقبضه. فقال: هو لك يا أبا محمَّد معونةً على مروءتك.

= «مكارم الأخلاق» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وفيه محمَّد بن عبد العزيز المبارك الدِّينوريُّ، أورد ابن عديٍّ له مناكيرَ، وفي «الميزان» أنَّه ضعيفٌ مُنكَرُ الحديث، ورواه الخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق» مِن حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ نحوه، صالح المريُّ مُتكلِّم فيه.

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٧٠٤)، والقضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (١٠١)، والطَّبرانِيُّ في «الكبير» (٨٠١٤)، وعزاه السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٥٥٥٤) إلى ابن أبي الدُّنيا في «قضاء الحوائج» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما ورمز له بالصِّحَّة.

(٢) ابن السَّمَّاك عثمانُ بن أحمدَ البغداديُّ، سمع باعتناء والده مِن أبي جعفرٍ محمَّد بن عبيد الله بن المنادي، وأحمدَ بن عبد الجبَّار العطارديِّ، وحنبل بن إسحاقَ، وغيرهم، وحدَّث عنه الدَّارقطنيُّ، وابن شاهينَ، وابن مندةَ، والحاكم، وغيرهم، توفِّي سنة (٣٤٤). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٥/ ٤٤٤)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٤/ ٢٠٢).

(٣) عزاه السُّيوطيُّ في «الصَّغير» (٥٣٩٤) والمتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (١٥٩٧٤) إلى أبي الغنائم النَّرسيِّ في «قضاء الحوائج» عن ابن عمر. وأشار السُّيوطيُّ إليه بالحسن.

(٤) رواه البخاريُّ (١٨٠٣)، ومسلم (٢٣٠٨) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما.

(٥) رواه البخاريّ (٥٦٨٧) ومسلم (٢٣١١) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنهُما.

(٦) رواه مسلمٌ (٢٣١٢) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

وجاء أعرابيٌّ إلى أبي طلحةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فسأله، وتعرَّف إليه برَحِمٍ، فقال: إنَّ هذه الرَّحِم ما سألني بها أَحدٌ قَبلك. فأعطاه ثلاثمائة ألف درهمٍ[(١)].

وقال عروةُ: رأيتُ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تقسم سبعين أَلْفًا، وهي ترفع دِرعها[(٢)].

ورُوي أنَّها قَسَمت في يومٍ ثمانين ومائة أَلْف بين النَّاس، فلمَّا أَمسَت قالت: يا جاريةُ عليَّ فطوري. فجاءتها بخبزٍ وزيتٍ، فقالت لها أمُّ دُرَّةَ: أَمَا استطعتِ فيما قَسَمتِ اليوم أنْ تَشتَرِيَ لنا بدرهمٍ لحمًا نُفطر عليه؟ فقالت: لو ذَكَّرتِني لفعلت[(٣)].

واشترى عبد الله بن عامرٍ[(٤)] مِن خالد بن عقبةَ[(٥)] داره التي في السُّوق بتسعين ألف درهمٍ، فلمَّا كان اللَّيل سمع بكاء أهل خالدٍ، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يَبكون على دَارِهم. قال: يا غلام، ائتهم، فأعلمهم أنَّ المال والدَّار لهم جميعًا.

وبعث رجلٌ إلى عبد الله أنَّه قد وُصِف لي لبن البقر، فابعث لي بقرةً أشرب مِن لبنها. فبعث إليه بسبعِمائة بقرةٍ ورُعاتها، وقال: القرية التي كانت تَرعَى فيها لك.

ودخل عليُّ بن الحسين على محمَّد بن أسامةَ بن زيدٍ في مرضه، فجعل يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دَينٌ. قال: كم هو؟ قال: خمسةَ عشرَ أَلْف دينارٍ، أو بضعةَ عشرَ أَلْف دينارٍ، قال: فهي عليَّ[(٦)].

---

(١) رواه أبو بكرٍ البزَّار في «الغيلانيَّات» (١٠٨٣).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٤٧).

(٣) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٤٧).

(٤) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعةَ العبشميُّ، رأى النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وروى عنه حديثًا، وهو ابن خال عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأبوه عامرٌ هو ابن عمَّة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ البيضاء بنت عبد المطَّلب، ولي البصرة لعثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، توفِّي سنة (٥٩). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٥/ ١٤)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٣/ ١٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٤/ ٩٤).

(٥) خالد بن عقبةَ بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أُميَّة بن عبد شمسٍ الأمويُّ، أخو الوليد، كان مِن مُسلمة الفتح، ونزل الرَّقَّة، وبها عقبه. وذكره صاحب تاريخها فيمَن نزلها مِن الصَّحابة. انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٢/ ٢١٠).

(٦) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ٤١).

وجاء رجلٌ إلى معنٍ، فسأله: فقال: يا غلام، ناقتي الفلانيَّة، وألْف دينارٍ. فدفعها إليه وهو لا يعرفه.

وبَلَغنا عن معنٍ أنَّ شاعرًا أقام ببابه مدَّةً فلم يَتهيَّأ له لقاؤه، فقال لبعض خَدَمه: إذا دخل الأمير البستان فعرِّفني. قال: فلمَّا دَخَل عرَّفه، فكتب الشَّاعر بيتًا على خشبةٍ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، فلمَّا بَصُرَ معنٌ بالخشبة، أخذها، فإذا فيها مكتوبٌ:

أَيَا جُودَ مَعنٍ نَاجِ مَعنًا بِحاجَتِي فَمَا لي إلى مَعنٍ سِواكَ شَفِيعُ

فقال: مَن صاحب هذه؟ فدعا الرَّجل، فقال له: كيف قلتَ؟ فقاله، فأَمَر له بعشر بِدَرٍ[١]، فأَخَذَها، ووَضَع الأمير الخشبة تحت بساطه، فلمَّا كان اليوم الثَّاني أخرجها مِن تحت البساط، وقَرَأ ما فيها، ودعا الرَّجل، فدفع إليه مائة ألف درهمٍ أُخرَى، فلمَّا أخذها الرَّجل، خاف أنْ يعود فيستعيدَها منه، فخرج، فلمَّا كان اليوم الثَّالث، قرأ ما فيها، فدعا الرَّجل، فطُلِب، فلم يُوجد، فقال معنٌ: حقٌّ عليَّ أنْ أُعطيَه حتى لا يَبقَى في بيت مالي درهمٌ ولا دينارٌ.

ومرض قيس بن سعد بن عُبادةَ[٢]، فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنَّهم يَستحيُون ممَّا لك عليهم مِن الدَّين. فقال: أَخزَى الله مالًا يَمنع الإخوان مِن الزِّيارة، ثُمَّ أَمَر مُناديًا يُنادِي: مَن كان عليه لقيسٍ حق فهو منه في حِلٍّ. قال: فانكسرت دَرَجته بالعشيِّ؛ لكثرة مَن عاده.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص[٣] يسأله، فأَمَر له بمائة ألف درهمٍ، فبكى، فقال: سعيدٌ: ما يُبكيك؟ قال: أَبكي على الأرض أنْ تأكلَ مِثلَك. فأمر له بمائة ألف أُخرَى.

---

(١) البِدَر جمع البَدْرةُ، وهي عشرة آلاف درهم. «مختار الصحاح» مادة (ب د ر).

(٢) قيس بن سعد بن عبادةَ بن دليم الأنصاريُّ، صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابن صاحبه، روى عنه عبد الله بن مالك الجيشانيُّ، وعبد الرَّحمن بن أبي ليلى، وأبو عمَّارٍ الهمدانيُّ، وعروةُ، والشَّعبيُّ وغيرهم، توفِّي سنة (٨٥). انظر «الإصابة»، ابن حجرٍ، (٥/ ٣٥٩)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٣/ ١٠٢).

(٣) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ابن أُميَّة، الأُمويُّ القرشيُّ، صحابيٌّ مِن الأمراء الولاة=

فَصْلٌ فِي البُخْلِ وَذَمِّهِ

عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**خَصلتَانِ لا تَجتَمِعانِ في مُؤمِنٍ: البُخلُ، وسُوءُ الخُلُقِ**»(١).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَجتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قَلبِ عَبدٍ أَبَدًا**»(٢).

وفي أفراد مسلمٍ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه كان يقول: «**اللَّهمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبنِ والبُخلِ**»(٣).

وروى جابرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبَنِي سلمةَ: «**مَنْ سَيِّدُكُم؟**» قالوا: جِدُّ بن قَيسٍ، على أنَّنا نُبخِّله. قال: «**وأَيُّ دَاءٍ أَدوَأُ مِنَ البُخلِ؟ بَل سَيِّدُكُم بِشرُ بنِ البَراءِ بنِ مَعرُورٍ**»(٤). وهي أصحُّ مِن ذِكْر عمرو بن الجموح(٥)، وغَلِط بعض الرُّواة، فقال: البراء بن معرورٍ(٦)، والبراء مات قَبل الهجرة.

= الفاتحِين، وولَّاه عثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الكوفة وهو شابٌّ، وهو فاتح طبرستان، وأحد الذين كتبوا المصحف لعثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، توفِّي سنة (٣/ ٩٦). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٣/ ٩٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ٤٤٤).

(١) رواه التِّرمذيّ (١٩٦٢) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه إلاَّ مِن حديث صدقة بن موسى.

(٢) رواه النَّسائيُّ في «الكبرى» (١٨٥٠٨)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٣٩٥٢)، وأحمدُ (٩٦٩٣) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٩٠): أخرجه النَّسائيُّ، وفي إسناده اختلافٌ.

(٣) رواه البخاريُّ (١٠٩)، ومسلمٌ (٢٧٠٦) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٣٥٩)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٢٠٣) عن كعب بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) قال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣٨٧): أخرجه الحاكم، وقال: صحيحٌ على شرط مسلمٍ بلفظ: «**يا بَنِي سَلَمَةَ**» وقال: «**سَيِّدُكُم بِشرُ بنُ البَراءِ**» وأمَّا الرِّواية التي قال فيها «**سَيِّدُكُم عَمرُو بن الجَمُوحِ**» فرواها الطَّبرانيُّ في «الصَّغير» مِن حديث كعب بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسنادٍ حسنٍ.

(٦) البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان الخزرجيُّ، أحد النُّقباء ليلةَ العقبة، وهو ابن عمَّة سعد بن معاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان نقيب قومه بني سلمة، وكان أوَّل مَن بايع ليلةَ العقبة الأُولى، وهو سيِّد قومه، توفِّي سنة (١ قبل الهجرة). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (١/ ٤١٥)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، =

وعن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**ثَلاثٌ مُهلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وإعجَابُ المَرءِ بِنَفسِهِ**»[(١)].

قال الخطَّابيُّ[(٢)]: الشُّحُّ في المنع أبلغ مِن البخل.

وقال سلمانُ الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: إذا مات السَّخيُّ، قالت الأرض والحَفَظَة: رَبِّ تَجاوَزْ عن عبدك في الدُّنيا بسخائه. وإذا مات البخيل قالت: اللَّهمَّ احجب هذا العبد عن الجَنَّة، كما حَجَب عبادك عمَّا جَعَلتَ في يدَيه مِن الدُّنيا.

وقال بعض الحُكماء: مَن كان بخيلًا وَرِث ماله عدوُّه.

ووَصَف أعرابيٌّ رَجلًا فقال: لقد صَغُر في عيني؛ لِعِظَم الدُّنيا في عينه.

= (١/ ٢٦٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ٤٧).

وعمرو بن الجموح بن زيد بن حرام السُّلميُّ، كان في الجاهليَّة مِن سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان له صنمٌ في داره مِن خشبٍ يعظِّمه، وهو آخر الأنصار إسلامًا، استشهد بأُحُدٍ. انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٥/ ٧٥)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١/ ٢٥٢).

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٣١)، والطَّبرانِيُّ في «الأوسط» (٥٤٥٢) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (١/ ٦١): أخرجه البزَّار، والطَّبرانِيُّ، وأبو نُعيمٍ، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٢) هو حمد بن محمَّد بن إبراهيمَ ابن الخطَّاب البستيُّ، أبو سليمان، فقيهٌ محدِّثٌ، مِن أهل بست، مِن نسل زيد بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وُلد سنة بعضَ عشرَ وثلاثِمائةٍ، سمع مِن أبي سعيد بن الأعرابيِّ، وإسماعيلَ بن محمد الصَّفَّار، وغيرهما، وحدَّث عنه أبو عبد الله الحاكم، وأبو حامد الإسفرايينيُّ، وغيرهما، له «معالم السُّنن» في شرح «سنن أبي داودَ»، و«بيان إعجاز القرآن»، و«إصلاح غلط المحدِّثِين»، و«غريب الحديث»، توفِّي سنة (٣٨٨ه). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ (١٧/ ٢٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (٢/ ٢٧٣).

(٣) سلمان أبو عبد اللَّه الفارسيُّ، أصله مِن رامهرمز، وقيل: مِن أصبهان، وكان قد سمع بأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيبعث، فخرج في طلب ذلك، كان أوَّل مشاهده الخندق، وشهد بقيَّة المشاهد، وفتوح العراق، وولي المدائن، روى عنه أنسٌ، وكعب بن عجرة، وابن عبَّاسٍ وغيرهم، توفِّي سنة (٣٦). انظر «الإصابة»، ابن حجر (٢/ ١١٨)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١/ ٨٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١١١).

وذَمَّ أعرابيٌّ قومًا، فقال: يَصُومون عن المعروف، ويُفطِرون على الفواحش[١].

مِنْ حِكَايَاتِ البُخَلَاءِ

رُوي عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان الحاجب رجلًا مِن أَجلِّ العرب، وكان بخيلًا، وكان لا يُوقِد نارًا بليلٍ كراهةَ أنْ يَراها راءٍ، فينتفع بضَوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأَوقَد، ثُمَّ إن بَصُر بمُستضِيءٍ بها أطفأها.

وقيل: كان مروانُ بن أبي حفصةَ[٢] مِن أبخل النَّاس، فخرج يُريد المهديَّ، فقالت له امرأته: ما لي عليك إنْ رَجعتَ بالجائزة؟

قال: إنْ أُعطِيت مائة ألف درهمٍ أعطيتُك درهمًا، فأُعطِي ستِّين ألف درهمٍ، فأعطاها أربعة دوانقَ[٣].

وقيل: كان بعض البُخلاء مُوسِرًا، كثيرَ الأموال، وكان يَنظر في دقائق الأشياء، فاشترى شيئًا مِن الحوائج، ودعا حمَّالًا، وقال: بكم تَحمِل هذه الحوائج؟ قال: بحَبَّةٍ. قال: أبخس. قال: ما أَقلُّ مِن حَبَّةٍ؟ لا أدري ما أقول. قال: نَشتري بالحَبَّة جزرًا، فنجلس جميعًا فنأكله.

فَصْلٌ فِي فَضْلِ الإِيثَارِ وَبَيَانِهِ

اعلم أنَّ السَّخاء والبُخل دَرَجاتٌ:

فأَرفَع دَرجات السَّخاء الإيثار، وهو أنْ تَجُودَ بالمال مع الحاجة إليه.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في بستان الواعظين (ص٢١٧).

(٢) مروان بن أبي حفصةَ الأمويُّ، رأس الشُّعراء، كان مروان بن أبي حفصة مِن أهل اليمامة، فقدم بغداد، ومدح المهديَّ، والرَّشيد، توفِّي سنة (١٨٢). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٨/ ٤٧٩)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٢٠٨).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٧/ ٢٩٦).

وأَشدُّ دَرَجات البُخل، أنْ يبخلَ الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم مِن بخيلٍ يُمسك المال، ويَمرَض فلا يَتَداوَى، ويَشتهِي الشَّهوة فيَمنعه منها البخل.

فكم بين مَن يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين مَن يُؤثِر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عَطايا يَضَعها الله عَزَّوَجَلَّ حيث يشاء.

وليس بعد الإيثار درجةٌ في السَّخاء، وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وكان سبب نزول هذه الآية قصَّة أبي طلحةَ، لمَّا آثر ذلك الرَّجُل المَجهود بقُوته وقُوت صِبيانه، وحكايته مشهورةٌ[(١)].

واستشهد باليرموك عكرمةُ بن أبي جهلٍ[(٢)]، وسهيل بن عمرٍو[(٣)]، والحارث بن هشامٍ[(٤)] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وجماعةٌ مِن بني المغيرة، فأُتُوا بماءٍ وهم صرعى، فتَدافَعُوه، حتى ماتوا، ولم يَذُوقُوه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٨٧)، ومسلمٌ (٢٠٥٤) عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) عكرمة بن أبي جهل القرشيُّ المخزوميُّ، كان كأبيه مِن أشدِّ النَّاس على رسول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثُم أسلم عام الفتح، وخرج إلى المدينة، ثُمَّ إلى قتال أهل الرِّدَّة، ووجَّهه أبو بكرٍ الصِّدِّيق إلى جيش نعمان، فظهر عليهم، ثُمَّ إلى اليمن، ثُمَّ رجع، فخرج إلى الجهاد عام وفاته، فاستشهد عام (١٣). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٤/ ٤٤٣)، «أسد الغابة»، ابن الأثير، (٣/ ٥٦٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٤/ ٢٤٤).

(٣) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشيُّ العامريُّ، مِن لؤيٍّ، خطيب قريشٍ، وأحد سادتها في الجاهليَّة، أسره المسلمون يوم بدرٍ، وافتُدي، فأقام على دِينه إلى يوم الفتح بمكَّة، فأسلم، وسكنها، ثُمَّ سكن المدينة. وهو الذي تولَّى أمر الصُّلح بالحديبية توفِّي سنة (١٨). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٣/ ١٧٧)، «أسد الغابة»، ابن الأثير، (٢/ ٣٢٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٤٤).

(٤) الحارث بن هشام بن المغيرة المخزوميُّ القرشيُّ، أبو عبد الرَّحم، صحابيٌّ، كان شريفًا في الجاهليَّة والإسلام، يُضرب المثل ببناته في الحُسن والشَّرف وغلاء المهر، شهد بدرًا مع المشركِين فانهزم،=

أُتِي عِكرمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالماء فنَظر إلى سهيل بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، ونظر سهيلٌ إلى الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا. وكلٌّ منهم يُؤثِر الآخر على نفسه بالشُّربة، فماتوا كلُّهم قَبل أنْ يشربوا، فمَرَّ بهم خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: بنفسي أنتم[١].

وأُهدِي إلى رَجُلٍ من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رأسُ شاةٍ، فقال: إنَّ أخي أحوَجُ إليه منِّي. فبَعَث به إلى رَجلٍ، فبَعث به ذلك إلى آخَرَ، حتى تَداوَلتْه سبع أبياتٍ، فرَجع إلى الأوَّل.

خرج عبد الله بن جعفرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٢] إلى ضيعةٍ له، فنزل على نخلٍ لقومٍ فيها غلامٌ أسودُ يعمل فيها، إذ أتى الغلام بقُوته، فدخل الحائطَ كلبٌ، فدنا مِن الغلام فرما إليه قرصًا فأكله، ثُمَّ رمَى إليه قرصًا آخَر فأكله، ثُمَّ رمَى إليه الثَّالث فأكله، وعبد الله ينظر فقال: يا غلامُ! كم قُوتك كلَّ يومٍ؟ قال: ما رأيتَ. قال: فلِمَ آثرتَ به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرضِ كلابٍ، جاء مِن مسافةٍ بعيدةٍ جائعًا، فكَرِهت رَدَّه. قال: فما أنتَ صانعٌ؟ قال: أَطوِي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أُلامُ على السَّخاء وهذا أَسخَى منِّي. فاشترى الحائط وما فيه مِن الآلات، واشترى الغلام، وأَعتَقه، ووَهَبه له[٣].

= فعيَّره حسَّان بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأبياتٍ، فاعتذر بأبياتٍ هي أحسن ما قيل في الاعتذار مِن الفرار، وأسلم يوم فتح مكَّةَ، وخرج في أيَّام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأهله وماله مِن مكَّةَ إلى الشَّام، فلم يزل مجاهدًا بالشَّام إلى أنْ مات سنة (١٨)، وقد انتهت إليه سيادة بني مخزوم، وكان مِن المؤلَّفة قلوبهم، وهو أخو أبي جهل. انظر «الإصابة»، ابن حجر، (١/ ٦٩٧)، «أسد الغابة»، ابن الأثير (١/ ٤٢٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ١٥٨).

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٣/ ٦٠).

(٢) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطَّلب الهاشميُّ القرشيُّ، صحابيٌّ، وُلد بأرض الحبشة لمَّا هاجر أبواه إليها، وهو أوَّل مَن ولد بها مِن المسلمين، وأتى البصرة والكوفة والشَّام، وكان كريمًا يُسمَّى بحر الجود، وللشُّعراء فيه مدائحُ، وكان أحد الأمراء في جيش عليٍّ يوم صفِّين، ومات سنة (٨٠). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٤/ ٣٥)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٣/ ٤٥٦)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٤/ ٧٦).

(٣) ذكره الدَّميريُّ في «حياة الحيوان الكبرى» (٢/ ٣٨٤).

واجتمع جماعةٌ مِن الفقراء في مَوضِعٍ لهم، وبين أيديهم أرغفةٌ معدودةٌ لا تَكفيهم فكَسَروا الرُّغْفان، وأَطفَؤوا السِّراج، وجلسوا للأكل، فلمَّا رُفِع الطَّعام، إذا هو بحاله، لم يأكلْ أَحدٌ منهم شيئًا إيثارًا لأصحابه.

فَصْلٌ

وقد تَكلَّم النَّاس في حَدِّ البُخل والسَّخاء، فذهب قومٌ إلى أنَّ حَدَّ البُخل منع الواجـ وأنَّ مَن أدَّى ما يَجب عليه، فليس ببخيلٍ، وهذا غيرُ كافٍ، فإنَّ مَن لم يُسلِّم إلى إلَّا القَدْر الذي يَفرضه الحاكم، ثُمَّ يُضايِقُهم في زيادة لُقمةٍ أو تمـ ؛ فإنَّه معدو البُخلاء، فالصَّحيح أنَّ البراءة مِن البُخل تَحصل بفِعْل الواجب ؛ بطر المروءة، مع طِيْب القلب بالبذل.

فأمَّا الواجب بالشَّرع فهو الزَّكاة، ونفقة العِيال.

وأمَّا اللَّازم بطريق المروءة فهو ترك المُضايَقة والاستقصاء عن ذلك يُستقبَح.

ويَختلِف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يُستقبَح مِن الغنيِّ مـ مِن الفقير، ويُستقبَح مِن الرَّجل المُضايَقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يُسـ الأجانب، فالبخيل الذي يَمنع ما لا يَنبغي أنْ يُمنَعَ، إمَّا بحُكم الشَّرع أو لازمِ الـ ومَن قام بواجب الشَّرع، ولازمِ المروءة فقد تَبرَّأ مِن البخل، لكـ لا يَتَّصف بصـ الجُود ما لم يبذل زيادةً على ذلك.

قال بعضهم: الجواد: هو الذي يُعطي بلا مَنٍّ. وقيل: هو الذي

فأمَّا علاج البخل، فاعلم أنَّ سبب البخل حُبُّ المال.

ولِحُبِّ المال سببان:

أحدهما: حُبُّ الشَّهوات التي لا وصول إليها إلَّا بالمال مع طُول الأمل قَصيرَ الأمل، وله ولدٌ فإنَّه يقوم مَقام طُول الأمل.

واجتمع جماعةٌ مِن الفقراء في مَوضِعٍ لهم، وبين أيديهم أرغفةٌ معدودةٌ لا تَكفيهم فكَسَروا الرُّغْفان، وأَطفَؤوا السِّراج، وجلسوا للأكل، فلمَّا رُفِع الطَّعام، إذا هو بحاله، لم يأكلْ أحدٌ منهم شيئًا إيثارًا لأصحابه.

فَصْلٌ

وقد تَكلَّم النَّاس في حَدِّ البُخل والسَّخاء، فذهب قومٌ إلى أنَّ حَدَّ البُخل منع الواجب، وأنَّ مَن أدَّى ما يَجب عليه، فليس ببخيلٍ، وهذا غيرُ كافٍ، فإنَّ مَن لم يُسلِّم إلى عياله إلَّا القَدْر الذي يَفرضه الحاكم، ثُمَّ يُضايِقُهم في زيادة لُقمةٍ أو ثمرةٍ فإنَّه معدودٌ مِن البُخلاء، فالصَّحيح أنَّ البراءة مِن البُخل تَحصل بفِعْل الواجب بالشَّرع، واللَّازِم بطريق المروءة، مع طِيْب القلب بالبذل.

فأمَّا الواجب بالشَّرع فهو الزَّكاة، ونفقة العِيال.

وأمَّا اللَّازم بطريق المروءة فهو ترك المُضايَقة والاستقصاء عن المُحقَّرات، فإنَّ ذلك يُستقبَح.

ويَختلِف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يُستقبَح مِن الغنيِّ ما لا يُستقبَح مِن الفقير، ويُستقبَح مِن الرَّجل المُضايَقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يُستقبَح مِن الأجانب، فالبخيل الذي يَمنع ما لا يَنبغي أنْ يُمنَعَ، إمَّا بحُكم الشَّرع أو لازمِ المروءة، ومَن قام بواجب الشَّرع، ولازمِ المروءة فقد تَبرَّأ مِن البخل، لكن لا يتَّصف بصفة الجُود ما لم يبذل زيادةً على ذلك.

قال بعضهم: الجواد: هو الذي يُعطي بلا مَنٍّ. وقيل: هو الذي يَفرَح بالإعطاء.

فأمَّا علاج البخل، فاعلم أنَّ سبب البخل حُبُّ المال.

ولِحُبِّ المال سببان:

أحدهما: حُبُّ الشَّهوات التي لا وصول إليها إلَّا بالمال مع طُول الأمل، وإنْ كان قَصيرَ الأمل، وله ولدٌ فإنَّه يقوم مَقام طُول الأمل.

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما، وفضيلة الخمول، ونحو ذلك

رُوي عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّ أَخوَفَ ما أَخافُ على أُمَّتِي الرِّياءُ والشَّهوةُ الخَفِيَّةُ**»[(١)]. وهذه الشَّهوة الخفيَّة يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامَّة العِباد، وإنَّما يُبتلَى بها العلماء والعُبَّاد المُشمِّرون عن ساق الجِدِّ لسلوك سبيل الآخرة، فإنَّهم لمَّا قَهَروا نفوسهم، وفَطَموها عن الشَّهوات، وحَمَلوها بالقهر على أسباب العِبادات لم تطمعْ في المعاصي الظَّاهرة الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التَّظاهر بالعِلم والعمل، ووَجَدت مَخلَصًا مِن شدَّة المُجاهَدة في لَذَّة القَبول عند الخَلْق ونظرهم إليهم بعين الوُقار والتَّعظيم، فأصابت النَّفسَ في ذلك لَذَّةٌ عظيمةٌ، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأَحَدُهم يَظنُّ أنَّه مُخلِصٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وقد أُثبت في ديوان المُنافِقين، وهذه مَكيدةٌ عظيمةٌ، لا يسلم منها إلَّا المُقرَّبون.

ولذلك قيل: آخِرُ ما يَخرج مِن رؤوس الصِّدِّيقين حُبُّ الرِّياسة، وإذا كان ذلك هو الدَّاء الدَّفين الذي هو أَعظم شبكةٍ للشَّياطين وَجَب شرح القول في سببه، وحقيقته، وأقسامه.

اعلم أنَّ أصل الجاه هو حُبُّ انتشار الصِّيت والاشتهار، وذلك خطرٌ عظيمٌ، والسَّلامة في الخُمول، وأهل الخير لم يَقصدوا الشُّهرة، ولم يَتعرَّضوا لها ولا لأسبابها، فإنْ وقعت مِن قِبَل الله تعالى فرُّوا عنها، وكانوا يُؤثِرون الخمول، كما رُوي عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه خرج مِن منزله، فتَبِعَه جماعةٌ، فالتفت إليهم، وقال: «عَلامَ تتَّبِعوني؟ فوالله لو علمتُم ما أُغلِق عليه بابي ما اتَّبعني منكم رجلان»[(٢)].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٤٠٦)، وأحمدُ (٢٣٦٣٠)، قال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٤١٧): رواه ابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد بلفظ «الشِّركُ» بدل «الرِّياء» وفسَّراه بالرِّياء، قلت: بل ضعيفه (يعني إسناد الحديث) وهو عند ابن المبارك في «الزُّهد» (٣٩٣) الحديث ومِن طريقه عند البيهقيِّ في «الشُّعب» بلفظ المُصنِّف.

(٢) رواه الدَّارِميُّ (٥٤٩).

وفي لفظٍ آخَرَ أنَّه قال: «ارجعوا، فإنَّه ذِلَّةٌ للتَّابع، وفتنةٌ للمتبوع»(١).

وكان أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) إذا جلس إليه أكثرُ مِن أربعةٍ قام.

وكان خالد بن معدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣) إذا عَظُمت حَلقته قام وانصرف كراهة الشُّهرة.

وقال الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأينا الزُّهد في شيءٍ أقلَّ منه في الرِّياسة، نرى الرَّجل يذهب في المَطعَم والمال، فإذا نُوزِع الرِّياسة، حامَى عليها وعادَى.

قال رجلٌ لبِشرٍ الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَوصني، فقال: «أَخمِل ذِكرَك، وطيِّب مَطعَمك». وقال: «لا يجد حلاوة الآخرة رَجلٌ يُحبُّ في الدُّنيا أنْ يَعرفَه النَّاس».

وقد رُوي في «صحيح مسلمٍ»(٤) أنَّ عمرَ بن سعدٍ(٥) انطلق إلى أبيه سعدٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهو في غنمٍ له خارجًا عن المدينة، فلمَّا رآه قال: أعوذ بالله مِن شَرِّ هذا الرَّاكب. فلمَّا

---

(١) رواه ابن أبي شيبةَ في «المصنَّف» (١٥٣).

(٢) أبو العالية رفيع بن مهران الرِّياحيُّ البصريُّ، أدرك زمان النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو شابٌّ، وأسلم في خلافة أبي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، سمع مِن عمر، وعليٍّ، وأُبيٍّ، وأبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، توفِّي سنة (٩٣). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٢/ ٤٢٧)، «أسد الغابة»، ابن الأثير، (٥/ ٤١٧)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٢٠٧).

(٣) خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعيُّ، أبو عبد الله، تابعيٌّ، ثقةٌ، ممَّن اشتهروا بالعبادة، أصله مِن اليمن، وإقامته في حمص بالشَّام، حدَّث عن ثوبان، وأبي أمامةَ الباهليِّ، ومعاويةَ، وأبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، روى عنه محمَّد بن إبراهيمَ التَّيميُّ، وحسَّان بن عطيَّةَ، وعامر بن جشيب وغيرهم، وكان يتولَّى شرطة يزيدَ بن معاويةَ، وكان كثير التَّسبيح، فلمَّا مات بقيت أُصبعه تتحرَّك كأنَّه يسبِّح، توفِّي سنة (١٠٤). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، «الذَّهبيُّ، (٤/ ٥٣٦)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ٢٩٩).

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٥) عمر بن سعد بن أبي وقَّاصٍ الزُّهريُّ المدنيُّ، أميرٌ مِن القادة الشُّجعان، سيَّره عبيد الله بن زيادٍ على أربعة آلافٍ لقتال الدَّيلم، وكتب له عهده على الرَّيِّ، ثُمَّ لمَّا علم ابن زيادٍ بمسير الحسين بن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مِن مكَّةَ متَّجِهًا إلى الكوفة كتب إلى صاحب التَّرجمة أنْ يعود بمَن معه، فعاد، فولَّاه قِتال الحسين، فاستعفاه، فهدَّده، فأطاع، وتوجه إلى لقاء الحسين، فكانت الفاجعة بمقتله، وعاش عمرُ إلى أنْ خرج المختار الثَّقفيُّ يتَّبع قَتَلة الحسين، فبعث إليه مَن قتله بالكوفة سنة (٦٦). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٣٤٩)، «الأعلام»، الزركلي، (٥/ ٤٧).

أتاه قال: يا أبتِ أتريد أنْ تكونَ أعرابيًّا في غَنَمك، والنَّاس يَتنازعون في المُلك بالمدينة؟ فضرب سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صدره وقال: اسكت، إنِّي سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ**».

وعن أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصَلَاةِ، أَحْسَنَ عِبادَةَ رَبِّهِ، وأَطَاعَهُ في السِّرِّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابعِ، وَكَانَ رِزقُهُ كَفافًا، فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ**». ثُمَّ نقر بيده، فقال: «**عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ، قَلَّتْ بَوَاكِيهِ، قَلَّ تُرَاثُهُ**» حديثٌ حسنٌ[١].

وكان ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُوصِي أصحابه، فيقول: «كونوا يَنابيع العلم، مَصابيح الهُدَى، أحلاس البيوت، سُرُج اللَّيل، جُدد القلوب، خلقان الثِّياب، تُعرَفون في السَّماء، وتَخْفَوْنَ على أهل الأرض»[٢].

فإنْ قيل: هذا فيه فضيلة الخُمول، وذَمٌّ الشُّهرة، وأيُّ شهرةٍ أكثر مِن شهرة الأنبياء، وأئمَّة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشُّهرة، وأمَّا وُجودها مِن جهة الله تعالى مِن غير طلبِ الإنسان فليس بمذمومٍ، غيرَ أنَّ في وُجودها فتنةٌ على الضُّعفاء، فإنَّ مَثَل الضَّعيف كالغريق القليل الصَّنعة في السِّباحة، إذا تعلَّق به أَحدٌ غَرِق وغَرَّقه، فأمَّا السَّابح النِّحرير فإنَّ تعلُّق الغرقَى به سببٌ لنجاتهم وخلاصهم.

فَصْلٌ

واعلم أنَّ الجاه والمال هما رُكنا الدُّنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المُنتفَع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتَّصرُّف فيها.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٧)، وأحمدُ (٢٢١٦٧)، والطَّبرانيُّ في الكبير (٧٨٦٠) عن أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٤٢٥): أخرجه التِّرمذيُّ وابن ماجه بإسنادَين ضَعيفَين.

(٢) رولاه الدَّارميُّ (٢٦٢)، وعزاه المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٨٧١٥) إلى ابن أبي الدُّنيا في «العزلة».

فالجاه هو قِيام المنزلة في قلوب النَّاس، وهو اعتقاد القلوب نعتًا مِن نعوت الكمال في هذا الشَّخص، إمَّا مِن علمٍ، أو عِبادةٍ، أو نسبٍ، أو قوَّةٍ، أو حُسنِ صورةٍ، أو غيرِ ذلك ممَّا يعتقده النَّاس كمالًا، فبقدر ما يعتقدون له مِن ذلك تُذعِن قلوبهم لطاعته، ومدحه، وخدمته، وتوقيره.

فهذا يُبيِّن أنَّ الجاه محبوبٌ بالطَّبع، وأنَّه أبلغُ مِن حُبِّ المال؛ لأنَّ المال لا يَتعلَّق لغرضٍ بعينه، بل لكونه وسيلةً إلى المحبوبات، فاشتراك الجاه والمال في السَّبب اقتضى الاشتراك في المَحبَّة، والجاه في ذلك أرجحُ مِن المال.

واعلم أنَّ مِنَ الجاه ما يُحمَد وما يُذَمُّ؛ لأنَّ مِن المعلوم أنَّه لا بُدَّ للإنسان مِن مالٍ لضرورة المَطعَم والمَلبَس ونحوهما، فكذلك لا بدُّ له مِن جاهٍ لضرورة المعيشة مع الخَلْق؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو مِن الحاجة إلى سلطانٍ يحرسه، ورفيقٍ يُعينه، وخادمٍ يَخدمه، فحُبُّه ذلك ليس بمذمومٍ؛ لأنَّ الجاه وسيلةٌ إلى الأغراض كالمال.

والتَّحقيق في هذا ألَّا يكونَ المال والجاه مَحبوبَين لأعيانهما، ومتى طَلَب الإنسان قيام جاهه لأجل صفةٍ هو متَّصفٌ بها لغرضٍ صحيحٍ، كقول يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤] أو قَصَد إخفاء عيبٍ مِن عُيوبه؛ لئلَّا تزول منزلته، كان ذلك مباحًا، فإنَّ طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفةٌ ليست فيه، كالعِلم، والوَرَع، والنَّسَب، فذلك محظورٌ.

وكذلك لو حسَّنَ الصَّلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع، فإنَّه يكون مُرائيًا بذلك، فلا يجوز تَملُّك القلوب بتزويرٍ، ولا تَملُّك المال بتلبيسٍ.

بيان علاج حُبِّ الجاه

اعلم أنَّ مَن غَلب على قلبه حُبُّ الجاه، صار مقصورَ الهَمِّ على مُراعاة الخَلْق، مشغوفًا بالتَّردُّد إليهم، والمُرآة لهم، ولا يَزال في أقواله وأفعاله مُلتفِتًا إلى ما يُعظِّم

منزلته عندهم، وذلك بذر النِّفاق، وأصل الفساد؛ لأنَّ كلَّ مَن طلب المنزلة في قلوب النَّاس اضطرَّ أنْ يُنافِقَهم بإظهار ما هو خالٍ عنه، ويَجرَّ ذلك إلى المُرآة بالعبادات، واقتحام المحظورات، والتَّوصُّل إلى اقتناص القلوب.

ولذلك شبَّه الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ حُبَّ المال والشَّرف، وإفسادَهما للدِّين بِذَئبَين ضارِيَين أُرسِلا في غنمٍ[1].

فحُبُّ الجاه إذًا مِن المُهلِكات، فيجب علاجه، وعلاجُه مُركَّبٌ مِن علمٍ وعملٍ، أمَّا الأوَّل، فهو أنْ يعلمَ أنَّ السَّبب الذي لأجله أَحبَّ الجاه هو كمال القدرة على أشخاص النَّاس وقلوبِهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون آخره الموت، فينبغي أنْ يَتفكَّر في نفسه في الأخطار والآفات اللَّاحقة لأصحاب الجاه في الدُّنيا، مِن تَطرُّق الحَسَد إليهم، وقَصْدِهم بالإيذاء، فتَراهم خائِفين على الدَّوام مِن زوال جاههم، مُحترِزين مِن تغيير منزلتهم في القلوب.

والقلوب أَشدُّ تَغيُّرًا مِن القِدْر في غَلَيانها، فالاشتغال بمُراعاة ذلك غمومٌ عاجلةٌ، مُكدِّرةٌ لحِفظ الجاه، فلا يَفِي مرجوُّ الدُّنيا بمَخُوفِها، فضلًا عمَّا يَفوت في الآخرة، فهذا مِن حيث العِلمُ.

وأمَّا العلاج مِن حيث العمل فهو إسقاط الجاه مِن قلوب الخَلْق بأفعالٍ تُوجِب ذلك، كما رُوي أنَّ بعض الملوك قَصَد زيارةَ رجلٍ زاهدٍ، فلمَّا قرب منه استدعى طعامًا وبقلًا ولبنًا، وجعل يأكل بِشَرَهٍ، ويُعظِّم اللُّقمة، فلمَّا نظر إليه المَلِك سقط مِن عينه.

ولمَّا أُريدَ إبراهيمُ النَّخعيُّ على القضاء لَبِس قَميصًا أحمرَ، وقَعَد في السُّوق.

---

(١) روى البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٧٨٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٦)، وأحمدُ (١٥٧٨٤) عن كعب بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَسْرَعَ فَسَادًا مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ**». وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

واعلم أنَّ انقطاع الزَّاهد عن النَّاس يُوجِب جاهًا له عندهم، فإذا خاف مِن تلك الفتنة فلْيُخالِطْهم على وجه السَّلامة، ولْيَمشِ في الأسواق، ولْيَشتَرِ حاجته ويحملها، ولْيقطَع طَمَعه مِن دنياهم، وقد تَمَّ مُراده.

وقد كان بشرٌ الحافي يجلس إلى عطَّارٍ، وما كانوا يُراعون نواميس المُتزهِّدِين اليوم.

فَصْلٌ

واعلم أنَّ أكثر النَّاس إنَّما هَلَكوا؛ لخوف مَذمَّة النَّاس، وحُبِّ مَدحِهم، فصارت حَرَكاتهم كلُّها على ما يُوافِق رضَى النَّاس، رجاءَ المدح، وخوفًا مِن الذَّمِّ، وذلك مِن المُهلِكات، فوَجبت مُعالَجته.

وطريق ذلك أنْ تنظر إلى الصِّفة التي مُدِحت بها، إنْ كانت موجودةً فيك فلا يخلو إمَّا أنْ يكون ممَّا يُفرَح به كالعِلم والوَرَع، أو ممَّا لا يَصلح أنْ يُفرَحَ به، كالجاه والمال.

أمَّا الأوَّل فينبغي أنْ يحذرَ مِن الخاتمة، فإنَّ الخوف منها شغلٌ عن الفرح بالمدح، ثُمَّ إنْ كنتَ تفرح بها على رجاء حُسن الخاتمة فينبغي أنْ يكونَ فرحُك بفضل الله عليك بالعِلم والتَّقوى لا بمَدح النَّاس.

وأمَّا القِسم الثَّاني، وهو المَدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذلك كالفرح بنبات الأرض الذي يصير عن قريبٍ هشيمًا، ولا يَفرح بذلك إلَّا مَن قَلَّ عَقله، وإنْ كنتَ خاليًا عن الصِّفة التي مُدِحتَ بها ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدَّم في كتاب آفات اللِّسان، فلا ينبغي أنْ تَفرحَ به، بل تكرهه، كما كان السَّلف يكرهونه، ويَغضبون على فاعله.

وعلاج كراهية الذي يُفهم مِن علاج حُبِّ المدح، فإنَّه ضِدُّه، والقول الوجيز فيه أنَّ مَن ذَمَّكَ، إمَّا أنْ يكونَ صادقًا فيما قال، قاصدًا للنُّصح لك، فينبغي أنْ تتقلَّد مِنَّته، ولا

تغضبَ، فإنَّه قد أهدَى إليك عُيوبَك، وإنْ لم يقصدْ بذلك النُّصح، فإنَّه يكون قد جنَى هو على دِينه، وانتفعتَ بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه عرَّفك ما لم تكنْ تَعرف، وذكَّرك مِن خطاياك ما نَسيتَ، وإنِ افترى عليك بما أنتَ منه بريءٌ فينبغي أنْ تَتفكَّرَ في ثلاثة أشياءَ:

أحدها: أنَّك إنْ خَلوتَ مِن ذلك العيب لم تَخلُ مِن أمثاله، فما ستر الله عَزَّوَجَلَّ عليك مِن عيوبك أكثرُ، فاشكره إذ لم يُطلعْه على عيوبك، ودَفَعه عنك، فذكر ما أنتَ عنه بريءٌ.

الثَّاني: أنْ ذلك كفَّاراتٌ لذنوبك.

الثَّالث: أنَّه جنى على دِينه، وتعرَّض لغضب الله عليه، فينبغي أنْ تسألَ الله العفوَ عنه، كما رُوي أنَّ رجلًا شَجَّ إبراهيمَ بن أدهمَ، فدعا له بالمغفرة، وقال: صرتُ مأجورًا بسببه، فلا أَجعله مُعاقِبًا بسببي، وقد تقدَّمت هذه الحكاية في فضل الحِلم.

القسم الثاني من الكتاب
في بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ونحو ذلك

قد ورد في ذمِّ الرِّياء في الكتاب والسُّنَّة، مِن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأمَّا الأحاديث فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يَرويه عن ربِّه عزوجل أنَّه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ غَيرِي فَهُو للَّذِي أَشرَكَ، وأَنا مِنهُ بريءٌ**»(١).

وفي حديثٍ آخَرَ: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ أَخوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّرْكَ الأَصغَرَ**». قالوا: يا رسول الله، وما الشِّرك الأصغر؟ قال: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عزوجل لَهُم يَومَ القِيامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأعمَالِهِم: اذهَبُوا إلى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُراؤُونَ في الدُّنيَا، هَل تَجِدُونَ عِندَهُم خيرًا**»(٢).

وقال بشرٌ الحافي: «لَأَنْ أَطلُبَ الدُّنيا بمزمارٍ أَحبُّ إليَّ مِن أنْ أطلبَها بالدِّين».

واعلم أنَّ الرِّياء مُشتَقٌّ مِن الرُّؤية، والسُّمعة مُشتَقَّةٌ مِن السَّماع، فالمُرائي يُري النَّاس ما يَطلب به الحظوة عندهم، وذلك أقسامٌ:

الأوَّل: الرِّياء في الدِّين، وهو أنواعٌ:

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٩٨٥) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٤١٢)، وأحمدُ (٢٣٦٣٠)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٤٣٠١) عن محمود بن لبيدٍ رضي الله عنه، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٤٤١): أخرجه أحمدُ، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث محمود بن لبيدٍ رضي الله عنه، وله روايةٌ، ورجاله ثقاتٌ، ورواه الطَّبرانيُّ مِن رواية محمود بن لبيدٍ عن رافع بن خديجٍ رضي الله عنهما.

أحدها: أنْ يكونَ مِن جهة البَدَن، بإظهار النُّحول والصَّفار؛ ليُرِيَهم بذلك شِدَّة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يُرائي بتَشعُّث الشَّعر؛ ليُظهِر أنَّه مُستغرِقٌ في همِّ الدِّين، لا يَتفرَّغ لتسريح شعره.

ويَقرب مِن هذا خفض الصَّوت، وإغارة العينَين، وذُبول الشَّفتَين؛ ليدلَّ بذلك على أنَّه مُواظِبٌ على الصَّوم.

ولهذا قال عيسى بن مريمَ عليه السلام: «إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويُرجِّل شعره»[1]. وذلك لِمَا يُخاف على الصَّائم مِن آفات الرِّياء، فهذا الرِّياء مِن جهة البَدَن لأهل الدِّين.

وأمَّا أهل الدُّنيا، فيُراؤون بإظهار السِّمَن، وصفاءِ اللَّون، واعتدال القامة، وحُسن الوجه، ونظافة البَدَن.

النَّوع الثَّاني: الرِّياء مِن جهة الزيِّ، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السُّجود على الوجه، وغِلَظ الثِّياب، ولُبْسِ الصُّوف، وتشمير الثِّياب كثيرًا، وتقصير الأكمام، وترك الثَّوب مُخرَّقًا غيرَ نظيفٍ.

ومِن ذلك لُبْس المُرقَّعة، والثِّياب الزُّرق، تَشبُّهًا بالصُّوفيَّة، مع الإفلاس مِن صفاتهم في الباطن.

ومنه التَّقنُّع فوق العمامة؛ لتنصرف إليه الأعين بالتَّمييز بتلك العادة.

وهؤلاء طبقاتٌ:

منهم مَن يطلب المنزلة عند أهل الصَّلاح بإظهار التَّزهُّد بلُبس الثِّياب المُخرَّقة الوسخة الغليظة؛ ليُرائي بذلك، ولو كُلِّف هذا أنْ يلبس ثوبًا وسطًا نظيفًا ممَّا كان السَّلف يَلبَسونه لكان عنده بمنزلة الذَّبح؛ لخوفه أنْ يقولَ النَّاس: قد بدا له مِن الزُّهد، وقد رجع عن تلك الطَّريقة.

---

(١) ذكره ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص٣٨).

وطبقةٌ أُخرى يطلبون القَبول عند أهل الصَّلاح، وعند أهل الدُّنيا مِن الملوك والأمراء والتُّجَّار، فلو لبسوا الثِّياب الفاخرة لم تَقبلهم القُرَّاء أهل الصَّلاح، ولو لبسوا المُخرَّقة الدَّنيَّة لازدرتهم الملوك والأغنياء، فهم يُريدون الجمع بين قَبول أهل الدِّين والدُّنيا، فيطلبون الأثواب الرَّقيقة، والأكسية الرَّفيعة، والفُوَط الرَّفيعة، فيلبسونها، وأقلُّ قيمة ثوب أحدهم قيمةُ ثوب الغنيِّ، ولونه وهيئته لونُ ثياب الصُّلَحاء، فيَلتمِسون القَبول عند الفريقَين.

وهؤلاء لو كُلِّفوا لُبْس ثوبٍ خشنٍ أو وسخٍ لكان عندهم كالذَّبح؛ خوفًا مِن السُّقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كُلِّفوا لُبْس الرَّقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك لَعَظُم ذلك عليهم؛ خوفًا مِن أنْ تَنحطَّ منزلتهم عند أهل الصَّلاح، وكلُّ مُراءٍ بزيٍّ مخصوصٍ ثَقُل عليه الانتقال إلى دُونه أو فَوقه خوفًا مِن المَذمَّة.

وأمَّا أهل الدُّنيا، فمُراءاتهم بالثِّياب النَّفيسة، والمَراكِب الحَسَنة، وأنواع التَّجمُّل في المَلبَس، والمَسكَن، وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يَلبَسون الثِّياب الخشنة، ويَشتدُّ عليهم أنْ يُرَوا بتلك المنزلة.

النَّوع الثَّالث: الرِّياء بالقول، ورياء أهل الدِّين بالوعظ والتَّذكير وحفظ الأخبار والآثار؛ لأجل المُحاوَرة، وإظهار غزارة العلم والدَّلالة على شِدَّة العناية بأحوال السَّلف، وتحريك الشَّفتَين بالذِّكْر في مَحضر النَّاس، وإظهار الغضب للمُنكَرات بين النَّاس، وخفض الصَّوت وترقيقه بقراءة القرآن؛ ليدلَّ بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرِّياء بالعمل، كمُراءاة المُصلِّي بطُول القيام، وتطويل الرُّكوع والسُّجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك، وكذلك بالصَّوم والغَزوِ والحجِّ والصَّدقة ونحو ذلك.

وأمَّا أهل الدُّنيا فمُراءاتهم بالتَّبختُر، والاختيال، وتحريك اليدَين، وتقريب الخُطَى، والأخذ بأطراف الذَّيل، وإمالة العِطفَين؛ ليدلُّوا بذلك على الحِشمة.

النَّوع الخامس: المُراءاة بالأصحاب والزَّائرِين، كالذي يتكلَّف أنْ يستزيرَ عالمًا أو عابدًا؛ ليقال: إنَّ فلانًا قد زار فلانًا، وإنَّ أهل الدِّين يَتردَّدون إليه، ويَتبرَّكون به، وكذلك مَن يُرائي بكثرة الشُّيوخ؛ ليقال: لقي شيوخًا كثيرةً، واستفاد منهم، فيُباهي بذلك.

فهذه مَجامِع ما يُرائي به المُراؤون، يَطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العِباد.

ومنهم مَن يطلب مُجرَّد الجاه، وكم مِن عابدٍ اعتزل في جبلٍ، وراهبٍ انزوى إلى دَيرٍ، مع قَطْع طَمَعِهم مِن مال النَّاس، لكنَّه يُحبُّ مُجرَّد الجاه.

ومنهم مَن يكون قَصْده المال، ومنهم مَن قصده الثَّناء وانتشار الصِّيت.

فإن قيل: هل الرِّياء حرامٌ، أم مكروهٌ، أم مباحٌ؟

فالجواب أنَّ فيه تفصيلًا، وهو إمَّا أنْ يكونَ بالعبادات أو بغيرها، فإنْ كان الرِّياء بالعبادات، فهو حرامٌ، فإنَّ المُرائي بصلاته وصدقته وحَجَّته، ونحو ذلك عاصٍ آثمٌ؛ لأنَّه يقصد بذلك غير الله تعالى المُستحِقِّ للعِبادة وَحدَه، فالمُرائي بذلك في سَخط الله.

وأمَّا إنْ كان بغير العِبادات، فهو كطلب المال على ما تقدَّم لا يَحرم مِن حيث إنَّه طلب منزلةٍ في قلوب العِباد، ولكنْ كما يُمكن كسب المال بتلبيساتٍ وأسبابٍ محظورةٍ فكذلك الجاه، وكما أنَّ كَسْب قليلٍ مِن المال، وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمودٌ فكذلك الجاه، وهو الذي طَلَبه يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

ولا نقول بتحريم الجاه وإنْ كَثُر، إلَّا إذا حَمَل صاحبه على ما يَجوز على نحو ما ذَكَرنا في المال.

وأمَّا سعة الجاه مِن غير حرصٍ على طلبه، ومِن غير اغتمامٍ بزواله إنْ زال، فلا ضررَ فيه؛ إذ لا جاه أوسع مِن جاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلماء الدِّين بعده، ولكن انصراف الهِمَم إلى طلب الجاه نُقصانٌ في الدِّين، ولا يُوصف بالتَّحريم.

وتحسين الثَّوب الذي يَلبَسه الإنسان عند الخروج إلى النَّاس إنَّما هو ليراه النَّاس، وكذلك كلُّ تَجمُّلٍ لأجلهم لا يُقال: إنَّه مَنهيٌّ عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك، فإنَّ أكثر النَّاس يُحبُّون ألَّا يُروا بعين نقصٍ في حالٍ.

وفي أفراد مسلمٍ، مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن في قَلبِه مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**». فقال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يُحبُّ أنْ يكونَ ثوبه حَسَنًا، ونَعلُه حَسَنًا. فقال: «**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمطُ النَّاسِ**»(١).

ومِن النَّاس مَن يُؤثِر إظهار نعمة الله عليه، وقد أُمِر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

فَصْلٌ

واعلم أنَّ بعض أبواب الرِّياء أَشدُّ مِن بعضٍ؛ لأنَّه درجاتٌ.

أَشدُّها وأَغلظها ألَّا يكونَ مُراده بالعبادة الثَّواب أصلًا، كالذي يُصلِّي بين النَّاس، ولو انفرد لم يُصلِّ.

الدَّرجة الثَّانية: أنْ يقصدَ الثَّواب مع الرِّياء قَصدًا ضعيفًا، بحيث لو كان خاليًا لم يفعله، فهو قَريبٌ مِن القِسم الأوَّل في كونهما مُمقوتَين عند الله تعالى.

الثَّالثة: أنْ يكونَ قَصْد الرِّياء، وقَصْد الثَّواب مُتساوِيَين، بحيث لو انفرد كلُّ واحدٍ منهما عن الآخر لم يبعثْه على العمل، فهذا قد أَفسَد مِثل ما أَصلَح، ولا يَسلَم مِن الإثم.

الرَّابعة: أنْ يكونَ اطِّلاع النَّاس عليه مُقويًّا لنشاطه، ولو لم يَطَّلعْ عليه أَحدٌ لم يتركِ العِبادة، فهذا يُثاب على قَصْده الصَّحيح، ويُعاقَب على قَصْده الفاسد، وقريبٌ مِن ذلك

---

(١) رواه مسلمٌ (٩١) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرِّياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يُصلِّي وغرضه تخفيف الرُّكوع والسُّجود، ولا يُطيل القراءة، فإذا رآه النَّاس أَحسَنَ ذلك، فهو أيضًا مِن الرِّياء المحظور؛ لأنَّه يَتضمَّن تعظيم الخَلْق، ولكنَّه دون الرِّياء بأُصول العبادات.

بيانُ الرِّياءِ الخفيِّ الَّذي هو أخفى من دبيبِ النَّملِ

اعلم أنَّ الرِّياء جَلِيٌّ وخَفِيٌّ.

فالجَليُّ: هو الذي يَبعث على العمل، ويَحمل عليه.

وأخفى منه قليلًا رياءٌ لا يبعث على العمل بمُجرَّده، لكن يُخفِّف العمل الذي أُريد به وجه الله تعالى، كالذي يَعتاد التَّهجُّد كلَّ ليلةٍ، ويَثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيفٌ نَشطَ له، وسَهُل عليه.

وأخفى مِن ذلك ما لا يُؤثِّر في العمل ولا في التَّسهيل، لكنَّه مع ذلك مُستبطَنٌ في القلب، ومتى لم يُؤثِّر في الدُّعاء إلى العمل لم يُمكن أنْ يُعرَف إلَّا بالعلامات، وأجلى علاماته أنَّه يُسرُّ باطِّلاع النَّاس على طاعته، فرُبَّ عبدٍ مُخلِصٍ يُخلص العمل، ولا يقصد الرِّياء، بل يَكرهه، ويُتمُّ العمل على ذلك، لكن إذا اطَّلع النَّاس عليه سَرَّه ذلك، وارتاح له، ورَوَّح ذلك عن قلبه شِدَّةَ العِبادة، فهذا السُّرور يدلُّ على رياءٍ خَفِيٍّ منه، يرشح السُّرور، ولولا التفات القلب إلى النَّاس لَمَا ظَهَر سروره عند اطِّلاع النَّاس، فيُعلم أنَّ الرِّياء كان مُستكِنًّا في القلب استكنان النَّار في الحِجْر، فأظهر منه اطِّلاع النَّاس أَثر الفرح والسُّرور، ثُمَّ إذا استشعر تلك اللَّذَّة بالاطِّلاع لم يقابلْ ذلك بكراهةٍ، بل قد يتحرَّك حركةً خفيفةً، ويَتكلَّف أنْ يُطَّلَعَ عليه بالتَّعويض لا بالتَّصريح.

وقد يخفى، فلا يدعو إلى الإظهار بالنُّطق تعريضًا ولا تصريحًا، ولكنْ بالشَّمائل كإظهار النُّحول، والصَّفار، وخفض الصَّوت، ويَبس الشَّفتَين، وآثار الدُّموع، وغَلَبة النُّعاس الدَّالَّة على طُول التَّهجُّد.

وأَخفَى مِن ذلك أنْ يختفيَ بحيث لا يُريد الاطِّلاع عليه، ولكنَّه مع ذلك إذا رأى النَّاس أَحبَّ أنْ يَبدؤوه بالسَّلام، وأنْ يُقابِلوه بالبشاشة والتَّوقير، وينشطوا في قضاء حوائجه، ويُسامِحوه في المُعاملة، ويُوسِّعوا له المكان، فإنْ قصَّر في ذلك مُقصِّرٌ، ثَقُل ذلك على قلبه، كأنَّ نَفْسه تَتقاضَى الاحترام على الطَّاعة التي أخفاها.

ومتى لم يكنْ وُجود العِبادة كعَدَمها في كلِّ ما يَتعلَّق بالخَلْق، لم يكن خاليًا عن شوبِ خفيٍّ مِن الرِّياء، وكلُّ ذلك يُوشِك أنْ يُنقِصَ الأجر، ولا يَسلَم منه إلَّا الصِّدِّيقون.

وقد روينا عن وهب بن منبِّهٍ، أنَّ رجلًا مِن العُبَّاد قال لأصحابه: إنَّا قد فارَقْنا الأموال والأولاد مَخافة الطُّغيان، وإنَّا نخاف أنْ يكونَ قد دَخل علينا في أَمرِنا مِن هذا الطُّغيان أكثر ممَّا دَخَل على أهل الأموال في أموالهم، إنَّ أَحَدنا إذا لُقي أَحَبَّ أنْ يعظم لمكان دِينه، وإنْ كان له حاجةٌ أَحبَّ أنْ تُقضَى لمكان دِينه، وإنِ اشترى شيئًا أَحبَّ أنْ يُرخَّصَ له لمكان دِينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكبه، فإذا السَّهل والجبل قد امتلأ مِن النَّاس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا المَلِك. فقال لصاحبه: ائتني بطعامٍ. فأتاه ببَقْلٍ وزبيبٍ وقلوب الشَّجر، فجعل يَحشو شدقَيه، ويأكل أكلًا عنيفًا، فقال المَلِك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا. فقال: كيف أنتَ؟ قال: كالنَّاس، فقال المَلِك: ما عند هذا خيرٌ. وانصرف عنه، فقال: الحمد لله الذي صَرَفه عنِّي، وهو لائمٌ.

ولم يزل المُخلِصون خائفِين مِن الرِّياء الخفيِّ، يجتهدون في مُخادَعة النَّاس عن أعمالهم الصَّالحة، ويَحرصون على إخفائها أَعظَم ما يَحرص النَّاس على إخفاء فواحشهم، كلُّ ذلك رجاءَ أنْ يخلصَ عملهم؛ ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرِّياء الخفيِّ كثيرةٌ لا تَنحصِر، ومتى أدرك الإنسان مِن نفسه تَفرقةً بين أنْ يُطَّلَع على عبادته أو لا يُطَّلَع ففيه شعبةٌ مِن الرِّياء، ولكنْ ليس كلُّ شوبٍ مُحبِطًا للأجر، ومُفسِدًا للعمل، بل فيه تفصيلٌ.

فإنْ قيل: فما ترى أحدًا ينفكُّ عن السُّرور إذا عَرفتَ طاعته، فهل جميع ذلك مذمومٌ؟

فالجواب أنَّ السُّرور ينقسم إلى محمودٍ ومذمومٍ.

فالمحمود أنْ يكونَ قصده إخفاء الطَّاعة، والإخلاص لله، ولكنْ لَمَّا اطَّلع عليه الخَلْق عَلِم أنَّ الله تعالى أطلَعهم، وأظهر الجميل مِن أحواله، فيُسَرُّ بحُسن صُنع الله، ونظره له، ولطفه به، حيث كان يستر الطَّاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطَّاعة، وسَتَر عليه المعصية، ولا لطفَ أعظم مِن ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فَرَحه بذلك، لا بحمد النَّاس، وقيام المنزلة في قلوبهم، أو يستدلُّ بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه في الدُّنيا، أنَّه كذلك يفعل به في الآخرة، فإنَّه قد جاء معنى ذلك في الحديث.

فأمَّا إنْ كان فَرَحه باطِّلاع النَّاس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه، ويعظِّموه، ويقضوا حوائجه فهذا مكروهٌ مذمومٌ.

فإنْ قيل: فما وجه حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، الرَّجل يعمل العمل فيُسرُّه[١]، فإذا اطُّلِع عليه أعجبه. فقال: «**لَه أَجرَانِ: أَجرُ السِّرِّ، وأَجرُ العَلانَيةِ**»[٢].

فالجواب أنَّ هذا الحديث ضعيفٌ، وقد رواه التِّرمذيُّ، وفسَّره بعض أهل العلم بأنَّ معناه أنْ يُعجِبه ثناء النَّاس عليه بالخير؛ لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَنتُم شُهَدَاءُ اللهِ في الأَرضِ**»[٣].

وقد رُوي في أَفراد مسلمٍ، مِن حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله أرأيتَ الرَّجل يعمل العمل مِن الخير، ويحمده النَّاس عليه؟ فقال: «**تِلكَ عَاجِلُ بُشرَى المُؤمِنِ**»[٤].

---

(١) مِن السِّرِّ ضِدُّ العلانية.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٦)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٦١٠)، والتِّرمذيُّ (٢٣٨٤)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ غريب.

(٣) رواه البخاريُّ (١٣٠١) ومسلمٌ (٩٤٩) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه مسلمٌ (٢٦٤٢).

فأمَّا إذا أعجبه؛ ليعلم النَّاس منه الخير، ويُكرِموه عليه، فهذا رياءٌ.

فصلٌ في بيانِ ما يُحبِطُ العملَ مِنَ الرِّياءِ وما لا يُحبِطُ

إذا ورد على العبد وارد الرِّياء، فلا يخلو:

إمَّا أنْ يكونَ وَرَد بعد فَراغه مِن العِبادة أو قَبله، فإنْ ورد عليه بعد الفراغ سرورٌ بالظُّهور مِن غير إظهارٍ منه فهذا لا يُحبِطُ العمل؛ لأنَّه قد تمَّ على نعت الإخلاص، فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيَّما إذا لم يَتكلَّف هو إظهاره والتَّحدُّث به، فأمَّا إنْ تحدَّث به بعد تمامه وأظهره فهذا مخوفٌ، والغالب عليه أنَّه كان في قلبه وقت مُباشَرة العمل نوعُ رياءٍ، فإنْ سَلِم مِن الرِّياء نقص أجره، فإنَّ بين عمل السِّرِّ والعلانية سبعين درجةً.

وأمَّا إذا ورد الرِّياء قَبل الفراغ مِن العبادة، كالصَّلاة التي عَقَدها على الإخلاص، فإنْ كان مُجرَّد سرورٍ لم يُؤثِّر في العمل، وإنْ كان رياءً باعثًا على العمل، مِثل أنْ يُطيل الصَّلاة؛ ليُرَى مكانه فهذا يُحبِط الأجر.

وأمَّا ما يُقارِن العِبادة، مثل أنْ يبتدئ الصَّلاة على قَصْد الرِّياء، فإنْ أتمَّها على ذلك لم يُعتدَّ بها، وإنْ ندم فيها على فِعله فالذي ينبغي له أنْ يبتدئَها، والله أعلم.

بابٌ في دواءِ الرِّياءِ وطريقةِ معالجةِ القلبِ فيهِ

قد عرفتَ أنَّ الرِّياء مُحبِطٌ للأعمال، وسببٌ لمقت الله تعالى، وأنَّه مِن المُهلِكات، ومَن هذا حاله فجديرٌ بالتَّشمير عن ساق الجِدِّ في إزالته.

وفي [علَاجه][1] مقامان:

أحدهما: في قَلْع عُروقه وأصوله التي منها انشعابه.

---

(١) ورد في " المطبوع " [مُعالَجته].

والثَّاني: في دَفْع ما يَخطر منه في الحال.

المقام الأوَّل: اعلم أنَّ أصل الرِّياء حُبُّ الجاه والمنزلة، وإذا فُصِّل رَجَع إلى ثلاثة أصولٍ:

وهي حُبُّ لَذَّة الحمد، والفرار مِن ألم الذَّمِّ، والطَّمع فيما [في][1] أيدي النَّاس.

ويَشهد لذلك ما في «الصَّحيحَين» مِن حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ الرَّجل يُقاتِل شجاعةً، ويُقاتِل حَميَّةً، ويُقاتِل رِياءً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: **«مَن قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُو فِي سَبِيلِ اللهِ»**[2].

فمعنى قوله: يُقاتِل شجاعةً أي لِيُذكرَ ويُحمَدَ، ومعنى قوله: يُقاتل حَميَّةً أي يأنف أنْ يقهرَ أو يُذمَّ، ومعنى يُقاتِل رياء أي ليُرَى مكانه، وهذا هو لَذَّة الجاه والمنزلة في القلوب.

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنَّه يَحذَر مِن الذَّمِّ، كالجَبَان بين الشُّجعان، فإنَّه يَثبت ولا يفرُّ؛ لئلَّا يُذمَّ، وقد يُفتي الإنسان بغير علمٍ حذرًا مِن الذَّمِّ بالجهل، فهذه الأمور الثَّلاثة هي التي تُحرِّك إلى الرِّياء.

وعِلاجه أنَّ الإنسان إنَّما يَقصد الشَّيء، ويَرغَب فيه إذا ظنَّ أنَّه خيرٌ له ونافعٌ، إمَّا في الحال أو المآل، فإنْ عَلِم أنَّه لذيذٌ في الحال ضارٌّ في المآل سَهُل عليه اجتنابه، وقطع عنه الرَّغبة، كمَن يعلم أنَّ العسل لذيذٌ، ولكنْ إذا بان له أنَّ فيه سُمًّا أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرَّغبة أنْ يَعلمَ ما فيها مِن المَضرَّة، فإنَّ الإنسان متى عَرف مَضرَّة الرِّياء وما يفوته مِن صلاح قلبه، ومِن المنزلة في الآخرة، وما يَتعرَّض له مِن العذاب والمَقت والخِزي هذا مع ما يَتعرَّض له في الدُّنيا مِن تَشتُّت الهَمِّ بسبب مُلاحَظة قلوب الخَلْق، فإنَّ رضى النَّاس غايةٌ لا تُدرَك، فكلُّ ما يَرضَى به فريقٌ يسخط به فريقٌ، ومَن طلب

---

(١) سقطت من "الأصل، خ".

(٢) البخاريُّ (١٢٣)، ومسلمٌ (١٩٠٤).

رضاهم في سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم عليه، ثُمَّ أيُّ غرضٍ له في مدحهم وإيثار ذَمِّ الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقًا ولا أجلًا، ولا ينفعه يومَ فقره وفاقته، وكذلك ذَمُّهم لِمَ يحذر منه؟ ولا يضرُّه ذَمُّهم شيئًا، ولا يُعجِّل أجله، ولا يُؤخِّر رِزقه، فإنَّ العِباد كلَّهم عَجَزَةٌ، لا يملكون لأنفسهم ضَرًّا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، فإذا قَرَّر هذا في نفسه، فَتَرت رَغبته في الرِّياء، وأَقبَل على الله تعالى بقلبه، فإنَّ العاقل لا يَرغب فيما يَضرُّه، ويَقلُّ نفعه.

وأمَّا الطَّمع فيما في أيدي النَّاس، فيُزيله بأنْ يَعلمَ أنَّ الله تعالى هو المُسخِّر للقلوب بالمَنع والإعطاء، وأنَّه لا رازقَ سِواه، ومَن طَمِع في الخَلْق لم يَخلُ مِن الذَّمِّ والخيبة، وإنْ وصل إلى المُراد لم يخل مِن المِنَّة والمهانة، فكيف يَترك ما عند الله برجاءٍ كاذبٍ، ووهمٍ فاسدٍ؟

ومِن الدَّواء النَّافع أنْ يُعوِّد نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تُغلَق الأبواب دون الفواحش، فإنَّه لا دواءَ في الرِّياء مِثل إخفاء الأعمال، وذلك يَشقُّ في بداية المُجاهَدة، فإذا صبر عليه مُدَّةً بالتَّكلُّف سقط عنه ثِقله، [وأيَّده][1] الله بالعون، فعلى العبد المُجاهَدة، ومِن الله التَّوفيق.

المقام الثَّاني: في دَفْع العارِض مِن الرِّياء في أثناء العبادة، وذلك لا بدَّ مِن تَعلُّمه أيضًا، فإنَّ مَن جاهَد نفسه، وقَلَع مَغارِس الرِّياء مِن قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه مِن أعين النَّاس، واحتقار مَدْحهم وذَمِّهم فإنَّ الشَّيطان لا يتركه في أثناء العبارة، بل يُعارِضه بخطرات الرِّياء، فإذا خَطَر له معرفة الخَلْق بعبادته، واطِّلاعهم عليها دفع ذلك بأنْ يقول: ما لكَ ولِلخَلقِ، عَلِموا أو لم يَعلموا، والله عالمٌ بحالِكَ، فأيَّ فائدةٍ في عِلم غيره؟

فإنْ هاجتِ الرَّغبة إلى آفة الحمد ذكَّرها آفات الرِّياء والتَّعرُّض للمَقت، فيُقابِل تلك الرَّغبة بكراهة المَقت، فإنَّ معرفة اطِّلاع النَّاس تُثير شهوةً، ومعرفة آفة الرِّياء تُثير كراهةً.

---

(١) ورد في " المطبوع، ن " [وأمدَّه].

فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

وبيانُ الرُّخصة في كِتمانِ الذُّنوبِ، وكراهةِ اطِّلاعِ النَّاسِ على الذَّنبِ، وذَمِّهم له

أمَّا الأوَّل، فاعلم أنَّ في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنَّجاة مِن الرِّياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب النَّاس في الخير.

ومِن الأعمال ما لم يُمكن الإسرار به كالحجِّ والجهاد.

والمُظهِر للعمل ينبغي أنْ يُراقِب قلبه، حتى لا يكونَ فيه حُبُّ الرِّياء الخفيِّ، بل يَنوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضَّعيف أنْ يخدعَ نفسه بذلك، فإنَّ مِثال الضَّعيف مِثال الغريق الذي يُحسِن سباحةً ضعيفةً، فنظر إلى جماعةٍ مِن الغرقى، فرَحِمهم، وأَقبَل عليهم حتى تَشبَّثوا به، فهَلَكوا وهَلَك معهم.

فأمَّا مَن قَوِيَ، وتمَّ إخلاصه، وصَغُر النَّاس في عينه، واستوى عنده مَدحهم وذَمُّهم فلا بأسَ بالإظهار له؛ لأنَّ التَّرغيب في الخير خيرٌ.

وقد رُوي ذلك عن جماعةٍ مِن السَّلف أنَّهم كانوا يُظهِرون شيئًا مِن أحوالهم الشَّريفة؛ ليُقتدَى بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: لا تبكوا عليَّ، فإنِّي ما أخطأتُ بخطيئةٍ منذ أسلمتُ.

وقال أبو بكر بن عيَّاشٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لابنه: «إيَّاكَ أنْ تَعصيَ الله تعالى في هذه الغُرفة، فإنِّي خَتَمت فيها اثنتي عشرةَ ألفَ ختمةٍ».

ونحو ذلك كثيرٌ مِن كلامهم، والله أعلم.

وأمَّا الرخصة في كتمان الذُّنوب، فربَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ كتمان الخطايا رِياءٌ، وليس كذلك، فإنَّ الصَّادق الذي لا يُرائي إذا وَقَعت منه معصيةٌ، كان له سترها؛ لأنَّ الله يكره ظُهور المعاصي، ويُحبُّ سترها.

وقد رُوي عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنِ ارتَكَبَ شَيئًا مِن هَذِهِ القَاذُورَاتِ، فَليَستَتِرْ بِستِرِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ»[١].

فهذا وإنْ عصى بالذَّنب لم يخلُ قلبه عن مَحبَّة ما أَحبَّه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا ينشأ عن قوَّة الإيمان.

وينبغي أنْ يكره ظهور الذَّنب مِن غيره أيضًا، فهذا أَثَر الصِّدق فيه.

ومِن ذلك أنْ يكرهَ ذَمَّ الناس له، مِن حيث إنَّ ذلك يَشغَل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإنَّ الطَّبع يتأذَّى بالذَّمِّ، وبهذه العِلَّة أيضًا ينبغي أنْ يكرهَ المدح إذا كان يَشغله عن الله تعالى، ويَستغرق قلبه، ويصرفه عن الذِّكر، فإنَّ هذا أيضًا مِن قوَّة الإيمان.

فَصْلٌ

فأمَّا تَرْك الطَّاعات خوفًا مِن الرِّياء فإنْ كان الباعث له على الطَّاعة غيرَ الدِّين فهذا ينبغي أنْ يُتْرَكَ؛ لأنَّه معصيةٌ لا طاعةَ فيه.

وإنْ كان الباعث على ذلك الدِّين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصًا فلا ينبغي أنْ يترك العمل؛ لأنَّ الباعث الدِّين.

وكذلك إذا تَرك العمل خوفًا مِن أنْ يُقال: إنَّه مُراءٍ فلا ينبغي ذلك؛ لأنَّه مِن مَكائِد الشَّيطان.

قال إبراهيمُ النَّخعيُّ: إذا أتاك الشَّيطان وأنتَ في صلاةٍ، فقال: إنَّك مُراءٍ، فزِدها طُولًا[٢].

وأمَّا ما رُوي عن بعض السَّلف أنَّه ترك العبادة خوفًا مِن الرِّياء، كما رُوي عن إبراهيمَ النَّخعيِّ أنَّ إنسانًا دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أنِّي أقرأ كلَّ ساعةٍ[٣].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «السُّنن» (٢٧١٩) ومالكٌ في «الموطَّأ» (١٢) عن زيد بن أسلمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٤٠): رواه الحاكم، وإسناده حسنٌ.

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٤/ ١٣٢) عن الحارث بن قيس.

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٠٤١).

فيُحمل هذا على أنَّهم أحسُّوا مِن نفوسهم بنوع تَزيُّنٍ، فقَطعوا.

فصلٌ في بيانِ ما يَصِحُّ مِنْ نشاطِ العبدِ بسببِ رُؤيةِ الخلقِ وما لا يَصِحُّ

قد يَبيت الرَّجل مع المُتهجِّدين، فيُصلُّون أكثر اللَّيل، وعادته قِيام ساعةٍ، فيُوافقهم، أو يَصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النَّشاط.

فربَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ هذا رِياءٌ، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيلٌ، وهو أنَّ كلَّ مؤمنٍ يَرغب في عبادة الله تعالى، ولكنْ تَعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربَّما كانت مُشاهدة الغير سببًا لزوال الغفلة، واندفاع العوائق، فإنَّ الإنسان إذا كان في منزله تَمكَّن مِن النَّوم على فِراشٍ وطيءٍ، وتَمتَّع بزوجته، فإذا بات في مكانٍ غريبٍ اندفعت هذه الشَّواغل، وحَصَلت له أسبابٌ تَبعث على الخير، منها مُشاهَدة العابِدين.

وقد يَعسُر عليه الصَّوم في منزله؛ لكثرة المَطاعِم، بخلاف غيره، ففي مِثل هذه الأحوال يَنتدِب الشَّيطان للصَّدِّ عن الطَّاعة، ويقول: إذا عَمِلت غير عادتك كنتَ مُرائيًا. فلا ينبغي أنْ يَلتفتَ إليه، وإنَّما ينبغي أنْ ينظرَ إلى قصده الباطن، ولا يَلتفت إلى وسواس الشَّيطان.

ويَختبر أَمْره بأنْ يُمثِّل القوم في مكانٍ يراهم ولا يرونه، فإنْ رأى نفسه تَسخو بالتَّعبُّد فهو لله، وإنْ لم تَسخَ كان سخاؤها عندهم رِياءً، وقِس على هذا.

فهذه جملة آفات الرِّياء، فكنْ بحَّاثًا عنها، وتفقَّد نيَّتك؛ فإنَّ الرِّياء أخفَى مِن دَبيب النَّمل.

وينبغي للمُريد أنْ يُلزِمَ قلبه القناعة بعِلم الله في جميع طاعته، وإنَّما يقنع بذلك مَن خاف الله ورجاه، ولا ينبغي أنْ [يُؤيِّس][1] نفسه مِن الإخلاص بأنْ يقولَ: إنَّما يَقدر

(١) ورد في "الأصل، خ" [يؤنس].

على الإخلاص الأقوياء، وأنا مِن المُخلِّطِين، فيترك المُجاهَدة في تحصيل الإخلاص؛ لأنَّ المُخلِّط إلى ذلك أحوجُ.

قال إبراهيمُ بن أدهمَ: تَعلَّمت المعرفة مِن راهبٍ يُقال له: سمعانَ، دخلتُ على صَومعته، فقلت له: منذ كم أنتَ في صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنةً. قلتُ: ما طعامك؟ قال: كلَّ ليلةٍ حِمِّصةٌ. قلت فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة، قال ترى الذين بحذائك قلتُ: نعم. قال: إنَّهم يأتوني في كلِّ سنةٍ يومًا واحدًا، فيُزيِّنون صومعتي، ويَطوفون حولها يُعظِّموني بذلك، فكلَّما تَثاقَلت نفسي عن العبادة، ذَكَّرتُها عزَّ تلك السَّاعة، فأنا أحتمل جُهد سنةٍ لعِزِّ ساعةٍ، فاحتمل يا حَنيفيُّ جهد ساعة لعِزِّ الأبد. فوَقَر في قلبي المعرفة، فقال: أزيدكَ؟ قلتُ: نعم. قال: انزل عن الصَّومعة. فنزلتُ، فأدلى إليَّ ركوةً فيها عشرين حِمِّصةً، ثُمَّ قال لي: ادخل الدَّير، فقد رأوا ما أَدليتُ إليك، فلمَّا دخلتُ الدَّير، اجتمعتِ النَّصارَى، فقالوا: يا حَنيفيُّ، ما الذي أدلَى إليكَ الشَّيخ؟ قلتُ: شيئًا مِن قُوْته. قالوا: وما تصنع به؟ نحن أحقُّ به، ساوِمْ به. قلتُ: عشرون دينارًا. فأعطوني عشرين دينارًا، فرجعتُ إلى الرَّاهب، فقال: أخطأتَ، لو ساومتَهم عشرين أَلْفًا لَأَعطوكَ، هذا عِزُّ مَن لا يَعبده، فانظر كيف يكون عِزُّ مَن يَعبده، يا حَنيفيُّ، أَقبِل على عبادة ربِّكَ[1].

فقد بان بهذا أنَّ استشعار النُّفوس عِزَّ العَظَمة في القلوب يكون باعثًا إلى الخَلوة، فهذه آفةٌ عظيمةٌ، وعلامةُ سلامته منها أنْ يكونَ الخَلْق عنده والبهائم بمثابةٍ واحدةٍ، ويكون عمله عملَ مَن ليس على وجه الأرض غيره، فإذا خطرت خطراتٌ ضعيفةٌ رَدَّها، والله أعلم.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٨/ ٢٩).

كتاب ذم الكبر والعجب وفيه فصلان

الأوّل في الكِبْر: قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وفي الحديث الصَّحيح مِن أفراد مسلم أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كَانَ في قَلبِه مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**»(١).

وفي «الصَّحيحَين»(٢) عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قَالتِ النَّارُ: أُوثِرتُ بِالمُتكبِّرِينَ**».

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**يُحشَرُ الجَبَّارُونَ والمُتكبِّرُونَ يَومَ القِيامَةِ في صُورةِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوانِهِم عَلى اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»(٣).

وقال سفيانُ بن عُيينةَ رَحِمَهُ اللهُ(٤): مَن كانت مَعصيته في شهوةٍ فأرجُ له التَّوبة، فإنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عصى مُشتهِيًا، فغُفِر له، مَن كانت مَعصيته مِن كِبْر فأخشَ عليه اللَّعنة، فإنَّ إبليسَ عصَى مُستكبِرًا، فلُعِنَ(٥).

---

(١) رواه مسلم (٩١) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاريُّ (٤٥٦٩)، ومسلمٌ (٢٨٤٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه التِّرمذيّ (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٧٧) عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مع اختلاف يسير في الألفاظ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) سفيان بن عُيينةَ بن ميمون الهلاليُّ الكوفيُّ، أبو محمَّدٍ، محدِّث الحرم المكِّيِّ، مِن الموالي، ولد بالكوفة، وسكن مكَّةَ، وتوفِّي بها، كان حافظًا ثقةً، واسعَ العلم كبيرَ القدر، كان أعورَ، وحجَّ سبعين سنةً، سمع زياد بن علاقة، والأسود بن قيس، وعبيد الله بن أبي يزيد وغيرهم، وحدَّث عنه الأعمش، وابن جريجٍ، وشعبةُ وغيرهم، توفِّي سنة (١٩٨). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٨/ ٤٥٤)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٠٥).

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٧/ ٢٧٢).

وفي «الصَّحيحَين»[1] أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خُيَلاءَ لم يَنظُرِ اللهُ إِلَيهِ يَومَ القِيامَةِ**». فقال أبو بكرٍ: يا رسول الله! إنَّ أحد شِقَّي إزاري ليسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَستَ مِمَّنْ يَصنَعُهُ خُيَلاءَ**».

واعلم أنَّ الكِبْر خُلُقٌ باطنٌ تَصدر عنه أعمالٌ هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخُلُق هو رؤية النَّفْس على المُتكبَّر عليه، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون مُتكبِّرًا.

وبهذا ينفصل عن العُجْب، فإنَّ العُجْب لا يستدعي غير المُعجَب، حتى لو قُدِّر أنْ يُخلَق الإنسان وحدَه تُصوِّر أنْ يكون مُعجبًا، ولا يُتصوَّر أنْ يكون مُتكبِّرًا، إلَّا أنْ يكونَ مع غيره، وهو يرى نفسه فوقه، فإنَّ الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حَقَّر مَن دونه وازدراه، وصفة هذا المُتكبِّر أنْ ينظر إلى العامَّة كأنَّه ينظر إلى الحمير استجهالًا واستحقارًا.

وآفة الكِبْر عظيمةٌ، وفيه يهلك الخواصُّ، وقلَّما ينفكُّ عنه العُبَّاد والزُّهَّاد والعلماء. وكيف لا تَعظم آفته وقد أخبر النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّه «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلبِه مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**».

وإنَّما صار حِجابًا دون الجنَّة؛ لأنَّه يَحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأنَّ صاحبه لا يَقدر أنْ يُحبَّ للمؤمنين ما يُحبُّ لنفسه، فلا يَقدر على التَّواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ، وقَبول النُّصح، ولا يسلم مِن الازدراء بالنَّاس واغتيابهم، فما مِن خُلُقٍ ذَميمٍ إلَّا وهو مُضطرٌّ إليه.

ومِن شَرِّ أنواع الكِبْر ما يَمنع مِن استفادة العِلم، وقَبول الحقِّ، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمُتكبِّر، ولكنْ لا تُطاوِعه نفسه على الانقياد للحقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٦٥)، ومسلمٌ (٢٠٨٥) عن عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، [وقال تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [ابراهيم: ١٠] وآياتٌ كثيرةٌ نحو هذا، وهذا تكبرٌ على الله وعلى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد تقدَّم أنَّ التَّكبُّر على العِباد هو احتقارهم، واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضًا يدعو إلى التَّكبُّر على أَمْر الله تعالى، كما حمل إبليسَ كِبْرُه على آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنِ امتنع مِن امتثال أَمْر ربِّه في السُّجود.

وقد شرح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكِبْر فقال: «**الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**»[1]. ومعنى «غَمطُ النَّاس»: الازدراء بهم، واستحقارهم، ويُروى: «**غَمْصُ النَّاسِ**» بمعنى «غَمْطُ النَّاس».

فَصْلٌ

واعلم أنَّ العلماء والعُبَّاد في آفةِ الكِبْر على ثلاث درجاتٍ:

الأُولى: أنْ يكونَ الكِبْر مُستقرًّا في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيرًا مِن غيره، إلَّا أنَّه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكِبْر مغروسةٌ، إلَّا أنَّه قد قطع أغصانها.

الثَّانية: أنْ يُظهر ذلك بأفعاله مِن التَّرفُّع في المَجالِس، والتَّقدُّم على الأقران، والإنكار على مَن يُقصِّر في حقِّه، فترى العالِم يُصعِّر[2] خدَّه للنَّاس كأنَّه مُعرِضٌ عنهم، والعابد يعبس ووجهه كأنَّه مُستقذِرٌ لهم، وهذان قد جهلا ما أدَّب الله به نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الدَّرجة الثَّالثة: أنْ يُظهر الكِبْر بلسانه، كالدَّعاوي والمُفاخَر، وتزكية النَّفْس، وحكايات الأحوال في مَعرِض المُفاخَرة لغيره، وكذلك التَّكبُّر بالنَّسب، فالذي له نَسبٌ شريفٌ يَستحقِر مَن ليس له ذلك النَّسب، وإنْ كان أرفعَ منه عملًا.

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) صعر خده: أي أماله من الكبر. «لسان العرب» مادة (صعر).

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يقول الرَّجل للرَّجل: أنا أكرمُ منكَ. وليس أَحدٌ أكرمَ مِن أَحدٍ إلَّا بالتَّقوى. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وكذلك التَّكبُّر بالمال، والجَمال، والقوَّة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكِبْر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتُّجَّار ونحوهم.

والتَّكبُّر بالجَمال أكثر ما يجري بين النِّساء، ويدعوهنَّ إلى التَّنقُّص والغِيبة، وذِكْر العيوب.

وأمَّا المُتكبِّر بالأتباع والأنصار فيجري بين الملوك بالمُكاثَرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمُكاثَرة بالمُستفيدِين.

وفي الجملة فكلُّ ما يُمكن أنْ يُعتقَد كمالًا فإنْ لم يكنْ في نفسه كمالًا أمكن أنْ يتكبَّر به، حتى إنَّ الفاسق قد يَفتخِر بكثرة شرب الخمر والفجور، لظنِّه أنَّ ذلك كمالٌ.

واعلم أنَّ التَّكبُّر يَظهر في شمائل الإنسان، كصَعَرِ وجهه، ونَظَرِه شَزَرًا، وإطراق رأسه، وجلوسه مُتربعًا ومُتكِّئًا، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضًا في مشيه وتَبختُره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلُّباته.

ومِن خِصال المُتكبِّر أنْ يُحبَّ قيام النَّاس له.

والقيام على ضَربيَن:

قيامٌ على رأسه وهو قاعدٌ، فهذا مَنهيٌّ عنه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ أنْ يَتَمَثَّلَ له الرِّجَالُ قِيامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1]. وهذه عادة الأعاجم والمُتكبِّرين.

الثَّاني: قيامٌ عند مجيء الإنسان، فقد كان السَّلف لا يَكادون يفعلون ذلك.

---

(١) رواه أبو داودَ (٥٢٢٩) والتِّرمذيُّ (٢٧٥٥) وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ.

قال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لم يكن شخصٌ أَحبَّ إلينا مِن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا إذا رأَوه لم يقوموا له؛ لِما يعلمون مِن كراهته لذلك»[١].

وقد قال العلماء: يُستحبُّ القيام للوالدَين والإمام العادل، وفُضَلاء النَّاس، وقد صار هذا الشِّعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حقِّ مَن يصلح أنْ يُفعَلَ في حقِّه لم يأمنْ أنْ يَنسبَه إلى إهانته، والتَّقصير في حقِّه، فيُوجِب ذلك حِقدًا.

واستحباب هذا في حقِّ القائم لا يمنع الذي يُقام له أنْ يكره ذلك، ويَرى أنَّه ليس بأهلٍ لذلك.

ومِن خِصال المُتكبِّر ألَّا يمشيَ إلَّا ومعه أَحدٌ يمشي خَلْفه.

ومنها ألَّا يَزورَ أَحدًا تكبُّرًا على النَّاس.

ومنها أنْ يَستنكِفَ مِن جلوس أَحدٍ إلى جانبه، أو مَشيِه معه.

وقد روى أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانتِ الأَمَة مِن أهل المدينة لَتأخذ بيد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتنطلق به في حاجتها»[٢].

وقال ابن وهبٍ: جلستُ إلى عبد العزيز بن أبي رَوَّادٍ[٣]، وإنْ فَخِذي لتَمس فَخِذه فنَحَّيتُ نفسي عنه، فأخذ ثيابي، فجرَّني إليه، وقال: لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإنِّي لا أعرف منكم رجلًا شرًّا منِّي؟

ومنها ألَّا يَتعاطَى بيده شُغلًا في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه أبو يعلي في مسنده (٣٧٨٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٢٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٤٢٧).

(٣) عبد العزيز بن أبي رَوَّاد الأزديُّ، حدَّث عن سالم بن عبد الله، والضَّحَّاك بن مزاحمٍ، وعكرمةَ، وحدَّث عنه ولده فقيه مكَّة عبد المجيد بن أبي رَوَّاد، وحسينٌ الجعفيُّ، ويحيى القطَّان، توفِّي سنة (١٥٩). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٧/ ١٨٤).

ومنها ألَّا يَحمل مَتاعه مِن سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئًا وحَمَله، وكان أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل الثِّياب إلى السُّوق يتَّجر فيها. واشترى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحمًا، فعلَّقه بيده، وحمله إلى بيته. واشترى عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تمرًا فحمله في مِلحَفةٍ، فقال له قائلٌ: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحقُّ أنْ يَحمِلَ(١).

وأقبل أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا مِن السُّوق وقد حمل حِزمةَ حَطَبٍ، وهو يومَئذٍ خليفةَ مروانَ، فقال لرجلٍ: أَوسِع الطَّريق للأمير(٢).

ومَن أراد أنْ ينفيَ الكِبْر، ويستعمل التَّواضُع فعليه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سَبقَتِ الإشارة إليها في كتاب «آداب المعيشة».

بيانُ مُعالجَةِ الكِبْرِ واكتِسابِ التَّواضُعِ

اعلم أنَّ الكِبْر مِن المُهلِكات، ومُداواته فرضُ عينٍ، ولك في مُعالجته مَقامان:

الأوَّل: في استئصال أصله، وقطع شجرته، وذلك بأنْ يعرفَ الإنسان نفسه، ويعرف ربَّه، فإنَّه إذا عَرَف نفسه حقَّ المعرفة علم أنَّه أَذلُّ مِن كلِّ ذليلٍ، ويَكفيه أنْ ينظرَ في أصل وجوده بعد العدم مِن ترابٍ، ثُمَّ مِن نُطفةٍ خَرَجت مِن مَخرَج البول، ثُمَّ مِن عَلَقةٍ، ثُمَّ مِن مُضغةٍ، فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أنْ كان جَمادًا لا يسمع ولا يبصر، ولا يُحسُّ ولا يتحرَّك، فقد ابتدأ بموته قَبل حياته، وبضَعْفه قَبل قوَّته، وبفقره قَبل غِناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٨، ١٩]، ثُمَّ امتنَّ عليه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٠]، فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدُّنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه وقوَّاه.

---

(١) رواه البخاريُّ في «الأدب المفرَد» (٥٥١).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٨٤).

فمَن هذا بدايته، فأيُّ وجهٍ لكِبْره وفَخْره؟

على أنَّه لو دام له الوجود على اختياره لكان لِطُغيانه طريقٌ، بل قد سَلَّط عليه الأخلاط المُتضادَّة، والأمراض الهائلة، بينما بُنيانه قد تَمَّ؛ إذ هو قد وَهِي وتهدَّمَ، لا يملك الشَّيء لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا، بينما هو يَذكر الشَّيء فينساه، ويَستلذُّ الشَّيء فيُردِيه، ويَروم الشَّيء فلا يَناله، ثُمَّ لا يأمنُ أنْ يُسلَبَ حياته بَغتةً.

هذا أوسط حاله، وذاك أوَّل أَمْره، وأمَّا آخِر أَمْره فالموت الذي يُعيده جمادًا كما كان، ثُمَّ يُلقى في التُّراب فيصير جِيفةً مُنتِنةً، وتَبلَى أعضاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدُّود أجزاءه، ويعود تُرابًا يُعمَل منه الكيزان، ويُعمَر منه البُنيان، ثُمَّ بعد طُول البِلَى تُجمَع أجزاؤه المُتفرِّقة، ويَحضر عَرصةَ القيامة، فيَرى أرضًا مُبدَّلةً، وجِبالًا مُسيَّرةً، وسماءً مُنشقَّةً، ونجومًا مُنكدِرةً، وشمسًا مُكوَّرةً، وأحوالًا مُظلِمةً، وجَحيمًا تَزفر، وصحائفَ تُنشَر، ويُقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]. فيقول: وما كتابي؟ فقال: كان قد وُكِلَ بك في حياتك التي كنت تَفرح بها وتَتكبَّر بنعيمها مَلَكان يُحصِيان ما تنطق به وتعمل، مِن قليلٍ وكثيرٍ، وقيامٍ وقعودٍ، وأكلٍ وشُربٍ، وقد نَسيتَ ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهَلمَّ إلى الحساب عليه، وأَعِدَّ جوابًا له، وإلَّا فأنتَ تُساق إلى النَّار، فما لِمن هذه حاله التَّكبُّر؟ فإنْ صار إلى النَّار فالبهائم أحسنُ حالًا منه؛ لأنَّها تعود إلى التُّراب، ومَن هذا حاله وهو على وَشكٍ مِن العَفو عن أخطائه، كيف يتكبَّر؟ ومَن الذي يَسلَم مِن ذنبٍ يَستحِقُّ به العقوبة، وما مَثَله إلَّا كَمَثل رَجلٍ جَنَى على مَلِكٍ جنايةً استحَقَّ أنْ يُضرَبَ لأجلها أَلْف سَوطٍ، فحُبِس في السِّجن؛ ليُخرَج فيُعاقَب، وهو مُنتظِرٌ أنْ يُدعَى به لذلك، أفتراه يتكبَّر على أهل السِّجن؟ وهل الدُّنيا إلَّا سِجنٌ، وهل المعاصي إلَّا مُوجِبةٌ للعقاب؟

وأمَّا معرفة ربِّه، فيَكفيه أنْ ينظرَ في آثار قُدرته، وعجائب صَنعته، فتَلُوح له العَظَمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العِلاج القالع لأصل الكِبْر.

ومِن العلاج العمليّ التَّواضُع بالفعل لله تعالى ولعِباده، وذلك بالمُواظَبة على استعمال خُلُق المُتواضِعين، وقد تقدَّمتِ الإشارة إلى طريقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان عليه مِن التَّواضُع والأخلاق الجميلة.

المَقام الثَّاني: فيما يَعرض مِن التَّكبُّر بالأنساب، فمَن اعتراه الكِبْر مِن جهة النَّسب فلْيعلمْ أنَّ هذا تَعزُّزٌ بكمال غيره، ثُمَّ يَعلَم أباه وجَدَّه، فإنَّ أباه القريب نُطفةٌ قذرةٌ، وأباه البعيد تُرابٌ.

ومَن اعتراه الكِبْر بالجَمال فلْينظرْ إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومَن اعتراه مِن جهة القوَّة فلْيعلمْ أنَّه لو آلمه عِرقٌ عاد أعجزَ مِن كلِّ عاجزٍ، وإنْ حُمي يومٍ تُحَلِّلُ مِن قوَّته ما لا يعود في مدَّةٍ، وإنَّ شوكةً لو دَخلت في رِجله لأعجزته، وبَقَّةً لو دخلت في أُذنه [القلقلته][1].

ومَن تكبَّر بسبب الغِنَى فإذا تأمَّل خَلْقًا مِن اليهود وجدهم أغنَى منه، فأُفٍّ لشَرَفٍ تَسبق به اليهود، ويَستلبه السَّارق في لحظةٍ، فيعود صاحبه ذليلًا.

ومَن تكبَّر بسبب العِلم فلْيعلمَ أنَّ حُجَّة الله على العالِم آكدُ مِن الجاهل، ولْيتفكَّر في الخطر العظيم الذي هو بِصَدده، فإنَّ خَطَره أعظمُ مِن خَطَر غيره، كما أنَّ قدره أعظمُ مِن قدر غيره.

وليعلمْ أيضًا أنَّ الكِبْر لا يَليق إلَّا بالله سبحانه، وأنَّه إذا تكبَّر صار مَمقوتًا عند الله تعالى، بغيضًا عنده، وقد أَحبَّ الله منه أنْ يَتواضَعَ، وكذلك كلُّ سببٍ يُعالِجه بنقيضه، ويستعمل التَّواضُع.

واعلم أنَّ هذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسطٌ:

فطَرَفه الذي يَميل إلى الزِّيادة يُسمَّى تكبُّرًا.

---

(١) ورد في "المطبوع" [لأقلقته].

وطَرَفه الذي يَميل إلى النُّقصان يُسمَّى تَخاسُسًا، ومَذلَّةً.

والوسط يُسمَّى تَواضُعًا، وهو المحمود، وهو أنْ يَتواضعَ مِن غير مَذلَّةٍ، فخير الأمور أوساطها، فمَن تقدَّم على أقرانه فهو مُتكبِّرٌ، ومَن تأخَّر عنهم فهو مُتواضِعٌ؛ لأنَّه قد وضع شيئًا مِن قدره، فأمَّا إذا أُدخِل على العالِم إسكافٌ أو نحوُه، فتنحَّى له عن مَجلِسه، وأجلسه فيه، ثُمَّ قدَّم له نعله، ومشَى معه إلى الباب فقد تَخاسَس وتَذلَّل، فذلك غيرُ محمودٍ، بل المحمود العدل، وهو أنْ يُعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، لكنَّ تَواضُعه للسُّوقة بالرِّفق في السُّؤال، واللِّين في الكلام، وإجابة الدَّعوة، والسَّعي في الحاجة، ولا يُحقِّره، ولا يَستصغِره، والله أعلم.

الفَصْلُ الثَّاني في العُجْبِ

رُوي عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**بينما رجُلٍ يَتبختَرُ في بُردَينِ، وَقَد أَعجبَتْهُ نَفْسُهُ خَسفَ اللهُ بِه الأَرضَ، فَهُو يَتَجلجَلُ فِيها إلى يَومِ القِيامَةِ**»[١].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلاثٌ مُهلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإعجَابُ المَرءِ بِنَفْسِهِ**»[٢].

ورُوي عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: «الهلاك في شيئَين: العجب، والقنوط»[٣].

وإنَّما جمع بينهما؛ لأنَّ السَّعادة لا تُنال إلَّا بالطَّلب والتَّشمير، والقانط لا يَطلب، والمُعجَب يظنُّ أنَّه قد ظَفر بمُراده، فلا يسعى.

---

(١) رواه البخاريّ (٥٤٥٢) ومسلم (٢٠٨٨).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٣١)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٥٤٥٢) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (١/ ٦١): أخرجه البزَّار، والطَّبرانيُّ، وأبو نُعيمٍ، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٣) رواه أبو نُعيم في «الحلية»، (٧/ ٢٩٨).

قال مطرِّفٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: لَأَنْ أَبيتَ نائمًا، وأصبح نادمًا، أَحبُّ إليَّ مِن أنْ أَبيتَ قائمًا، وأُصبِح مُعجَبًا[٢].

واعلم أنَّ العُجب يدعو إلى الكِبْر؛ لأنَّه أَحد أسبابه، فيَتولَّد مِن العُجب الكِبْر، ومِن الكِبْر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخَلق.

فأمَّا مع الخالق فإنَّ العُجب بالطَّاعات نتيجة استعظامها، فكأنَّه يمنُّ على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويَعمى عن آفاتها المفسِدة لها.

وإنَّما يتفقَّد آفات الأعمال مَن خاف ردَّها دون مَن رَضِيها، وأُعجب بها.

والعُجب إنَّما يكون بوصف كمالٍ مِن عِلمٍ أو عملٍ، فإنِ انضاف إلى ذلك أنْ يرى حقًّا له عند الله كان إدلالًا، فالعُجب يَحصل باستعظام ما عُجب به، والإدلال يُوجب توقُّع الجزاء، مِثل أنْ يتوقَّع إجابة دعائه، وينكر ردَّه.

فَصْلٌ في عِلَاجِ العُجْبِ

اعلم أنَّ الله سبحانه هو المنعِم عليك بإيجادك، وإيجاد أعمالك، فلا معنًى لعُجبِ عاملٍ بعمله، ولا عالِمٍ بعلمه، ولا جميلٍ بجَماله، ولا غنيٍّ بغِناه؛ إذ كلُّ ذلك مِن فضل الله تعالى، وإنَّما الآدميُّ مَحَلٌّ لفيض النِّعَم عليه، وكونه مَحلًّا له نعمةٌ أُخرى.

فإنْ قلتَ: إنَّ العمل حصل بقدرتك، فمِن أين قدرتك؟ ولا يُتصوَّر العمل إلَّا بوجودك، ووجود عملك وإرادتك، وكلُّ ذلك مِن الله تعالى لا منك، فإنْ كان العمل

---

(١) مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير الحرشيُّ العامريُّ، حدَّث عن أبيه، وعن وعليٍّ، وعمَّارٍ، وأبي ذرٍّ، وعثمانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وحدَّث عنه الحسن البصريُّ، وأخوه يزيد بن عبد الله، وأبو التَّيَّاح يزيد بن حميد، وثابتٌ البُنانيُّ وغيرهم، توفِّي سنة (٨٧). انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص٥٣٤)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ١٨٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٢٥٠).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠).

بالقدرة فالقدرة مِفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تُعْطَ المفتاح لا يمكنك العمل، كما لو قعدت عند خِزانةٍ مغلَقةٍ لم تقدر على ما فيها إلَّا أنْ تُعطى مفتاحها.

وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**لن يُدخِلَ أحدًا مِنكُم عَملُه الجَنَّةَ**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أنْ يَتغمَّدِني اللهُ بِرَحمةٍ مِنه وفَضلٍ**»[1].

واعلم أنَّ العُجب يكون بالأسباب التي بها يقع بها الكِبْر، وقد سبق ذِكْرها وعِلاجها، ومِن ذلك العُجب بالنَّسَب، كما يتخيَّل الشَّريف أنَّه ينجو بشرف آبائه، وعِلاجه أنْ يعلمَ أنَّه متى خالف آباءه، وظنَّ أنَّه ملحَقٌ بهم فقد جهل، وإنِ اقتدى بهم فإنَّه لم يكن العُجب مِن أخلاقهم، بل الخوف والإزراء على النَّفْس.

وإنَّما شَرُفوا بالطَّاعة والصِّفات المحمودة، لا بنفس النَّسَب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا فاطِمةُ، لا أُغني عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا**»[2].

فإنْ قلتَ: إنَّما يرجو الشَّريف أنْ يشفعَ فيه ذوو قَرابته.

فالجواب: أنَّ كلَّ المسلِمين يَرجُون الشَّفاعة، وقد يُشفع في الشَّخص بعد إحراقه بالنَّار، وقد يقوى الذَّنب، فلا تُنجي الشَّفاعة.

وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا أَلفيَنَّ أَحَدَكم يَجِيءُ يَومَ القِيامةَ عَلى رَقَبَتِه بَعِيرُ لَه رُغاءٌ، فيَقولُ: يا رَسولَ اللهِ، أَغِثني. فأَقولُ: لا أَملِكُ لَكَ شَيئًا، قَد أَبلَغتُكَ**»[3].

---

(١) رواه البخاريّ (٥٣٤٩) ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٠٢)، ومسلمٌ (٢٠٦) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٩٠٨)، ومسلمٌ (١٨٣١) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومَثل المنهمِك في الذُّنوب اعتمادًا على رجاء الشَّفاعة كمَثل المريض المنهمِك في الشَّهوات اعتمادًا على طبيبه الحاذق المشفِق، وذلك جهلٌ، فإنَّ اجتهاد الطَّبيب ينفع بعض الأمراض، لا كلَّها.

ويوضِّح هذا أنَّ سادات الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعِين كانوا يَخافون مِن الآخرة، فكيف يتَّكل مَن ليس في مِثل مراتبهم؟

ومِن ذلك العُجب بالرَّأي الخطأ، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وعلاج هذا أَشدُّ مِن علاج غيره، فإنَّ هذا متى كان مُعجَبًا برأيه لم يُصغِ إلى نصح ناصحٍ، وكيف يترك ما يعتقده نجاةً؟ وإنَّما عِلاجه في الجملة أنْ يكون متَّهِمًا لرأيه أبدًا، لا يغترُّ به، إلَّا أنْ يشهدَ له قاطعٌ مِن كتابٍ، أو سنَّةٍ، أو دليلٍ عقليٍّ جامعٍ لشروط الأدلَّة، ولن يَعرفَ ذلك إلَّا بمجالَسة أهل العِلم، وممارسة الكتاب والسُّنَّة.

والأَولى لمَن لم يتفرَّغ لاستغراق العُمر في العِلم ألَّا يخوضَ في المذاهِب، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل، وأنَّ الله سبحانه واحدٌ لا شريكَ له، ليس كمِثله شيءٌ، وهو السَّميع البصير، وأنَّ رسوله صادقٌ فيما جاء به، ويُؤمِن بما جاء به القرآن مِن غير بحثٍ ولا تنقيرٍ، ويصرف زمنه في التَّقوى، وأداء الطَّاعات، فمتى خاض في المذاهِب، ورام ما لا يصلُ إلى معرفته هلك.

كِتَابُ الغُرُورِ وَأَقْسَامِهِ وَدَرَجَاتِهِ

مِن النَّاس مَن غَرَّته الدُّنيا، فقال: النَّقد خيرٌ مِن النَّسيئة، والدُّنيا نقدٌ، والآخرة نسيئةٌ، وهذا مَحلُّ التَّلبيس؛ فإنَّ النَّقد لا يكونُ خيرًا مِن النَّسيئة إلَّا إذا كان مِثل النَّسيئة، ومعلومٌ أنَّ عُمر الإنسان بالإضافة إلى مدَّة الآخرة ليس بجزءٍ مِن ألف جزءٍ إلى أنْ ينقطع النَّفس، وإنَّما أراد مَن قال: النَّقد خيرٌ مِن النَّسيئة، إذا كانتِ النَّسيئة مِثل النَّقد، وهذا غرورُ الكفَّار.

فأمَّا مُلابِسو المعاصي مع سلامة عقائدهم فإنَّهم قد شارَكوا الكفَّار في هذا الغرور؛ لأنَّهم آثَروا الدُّنيا على الآخرة، إلَّا أنَّ أمرهم أسهل مِن أَمْر الكفَّار مِن جهة أنَّ أصل الإيمان يَمنعهم مِن عِقاب الأبد.

ومِن العُصاة مَن يَغترُّ، فيقول: إنَّ الله كريمٌ، وإنَّما نتَّكل على عفوه. وربَّما اغترُّوا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: مَن رجا شيئًا طَلَبه، ومَن خاف شيئًا هَرَب منه[1]، ومَن رجا الغفران مع الإصرار فهو مغرورٌ.

وليُعلم أنَّ الله تعالى مع سعة رحمته شديد العِقاب، وقد قضى بتخليد الكفَّار في النَّار مع أنَّه لا يَضرُّه كفرهم، وقد سلَّط الأمراض والمِحن على خَلْقٍ مِن عباده في الدُّنيا، وهو سبحانه قادرٌ على إزالتها، ثُمَّ خوَّفنا مِن عِقابه، فكيف لا نخاف؟

فالخوف والرَّجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يَبعث على العمل فهو غرورٌ. يُوضِّح هذا أنَّ رجاء أكثر الخَلْق يَحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٩٩).

والعَجَب أنَّ القرن الأوَّل عملوا وخافوا، ثُمَّ أهل هذا الزَّمان أَمِنوا مع التَّقصير واطمأنُّوا، أَتُراهم عَرفوا مِن كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصَّالحون؟

ولو كان هذا الأمر يُدرَك بالمُنى، فلِمَ تعب أولئك، وكَثُر بكاؤهم؟ وهل ذُمَّ أهل الكتاب بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] إلَّا لمِثل هذه الحال؟

وأمَّا مَنِ اغترَّ بصلاح آبائه، فلا يَذكر قصَّة نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع ابنه، وإبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع أبيه، ومحمَّدٍ مع أمِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ(١)، وعلى سائر النَّبيِّين.

ويَقرب مِن هذا الغرور غرور أقوامٍ لهم طاعاتٌ ومعاصٍ، إلَّا أنَّ معاصيهم أكثرُ، وهم يظنُّون أنَّ حسناتهم ترجح، فترى الواحد منهم يتصدَّق بدرهمٍ، ويكون قد تناول مِن الغصب أضعافَ ذلك، ولعلَّ الذي تصدَّق به مِن المغصوب، ويتَّكل على تلك الصَّدقة، وما هو إلَّا كمَن وضع درهمًا في كِفَّة، وألفًا في أُخرى، ثُمَّ رجا أنْ يرجح الدِّرهم بألفٍ.

ومنهم مَن يظنُّ أنَّ طاعاته أكثرُ مِن معاصيه، وسبب ذلك أنْ يحفظَ عدد حسناته، ولا يُحاسِب نفسه على سيِّئاته، ولا يتفقَّد ذنوبه، كالذي يستغفر الله ويسبِّحه مائة مرَّةٍ في اليوم ثُمَّ يظلُّ طول نهاره يغتاب المسلمين، ويتكلَّم بما لا يرضَى، فهو ينظر في فضائل التَّسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغِيبة والكلام المنهيِّ عنه.

---

(١) فإنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ استأذن أنْ يزورَ قبر أُمِّه، ويستغفر لها، فأُذِن له بالزِّيارة، ولم يُؤذَن له بالاستغفار. رواه مسلم (٩٧٦) عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

فَصْلٌ

ويقع الاغترار في الأغلب في حقِّ أربعة أصنافٍ:

العلماء، والعُبَّاد، والمُتصوِّفة، والأغنياء.

فأمَّا أهل العلم، فالمُغترُّون منهم فِرَقٌ:

منهم فرقةٌ أحكموا العلوم الشَّرعيَّة والعقليَّة، وأهملوا تفقُّد الجوارح وحِفظها عن المعاصي، وإلزامها الطَّاعات، واغترُّوا بعِلمهم، وظنُّوا أنَّهم مِن الله بمكانٍ، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، عَلِموا أنَّ عِلم المعامَلة لا يُراد به إلَّا العمل، ولولا العمل لم يكن له قَدْره.

قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولم يقل: «قد أفلح مَن تعلَّم كيف يزكيها»، فإنْ تلا عليه الشَّيطان فضائل أهل العِلم فلْيذكر ما ورد في العالِم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، و: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

ومنهم فرقةٌ أُخرى أحكموا العِلم والعمل الظَّاهر، ولم يتفقَّدوا قلوبهم ليمحوا الصِّفات المذمومة منها، كالكِبْر والحسد والرِّياء، وطَلَبِ العُلوِّ، وطلب الشُّهرة، فهؤلاء زيَّنوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونَسَوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكِمُ وأَموالِكُم، إنَّما يَنظرُ إلى قُلوبِكُم وأَعمالِكُم**»(١).

فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلبُ هو الأصل؛ إذ لا ينجو إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ومِثال هؤلاء كمِثل رجلٍ زَرَع زرعًا، فنبت، ونبَت معه حشيشٌ يُفسده، فأَمَر بقَلْعه، فأخذ يَجزُّ رُؤوسه وأطرافه، ويترك أصوله، فلم تزل أُصوله تقوى.

وفرقةٌ أُخرى عَلِموا أنَّ هذه الأخلاق الباطنة مذمومةٌ، إلَّا أنَّهم بعُجبهم بأنفسهم يظنُّون أنَّهم مُنفكُّون عنها، وأنَّهم أرفعُ عند الله أنْ يبتليَهم بذلك، وإنَّما يَبتلي بذلك العوامَّ دون مَن بلغ مَبلَغَهم مِن العِلم، فإذا ظهر عليهم مخايل الكِبْر والرِّياسة قال أحدهم: ما هذا بكِبْر، وإنَّما هو طلب عزِّ الدِّين، وإظهار شرف العِلم، وإرغام المُبتدِعين، فإنِّي لو لبست الدُّون مِن الثِّياب، وجلست في الدُّون مِن المجالِس، شمتت بي أعداء الدِّين، وفَرِحوا بِذُلِّي، وفي ذُلِّي ذُلُّ الإسلام، ويَنسى الغرور، وأنَّ إبليسَ هو الذي سوَّل له هذا، بدليل أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه كانوا يَتواضعون ويُؤثِرون الفقر والمَسكَنة.

وقد روينا عن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه لمَّا قدم الشَّام عَرضت له مخاضةٌ، فنزل عن بعيره، ونزع خُفَّيه، وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره. فقال له أبو عبيدةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد صَنَعت اليوم صُنعًا عظيمًا عند أهل الأرض، فصَكَّ في صدره وقال: «أَوَّهُ، لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدةَ، إنَّكم كنتم أَذلَّ النَّاس، وأحقرَ النَّاس، فأعزَّكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العِزَّ بغيره يُذلَّكم الله»[١].

وفي روايةٍ عنه: لمَّا قدم الشَّام، استقبله النَّاس وهو على بعيره، فقيل له: لو ركبت بِرْذَونًا[٢] تلقى به عُظماء النَّاس ووجوههم؟ فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا أراكم ها هنا، إنَّما الأمر مِن ها هنا -وأشار بيده إلى السَّماء- خلُّوا سبيل جَمَلي»[٣].

ثُمَّ العَجَب مِن مغرورٍ يَطلب عِزَّ الدُّنيا بالثِّياب الرَّفيعة، والخيول الفارهة، ونحوِ ذلك. وإذا خطَر له خاطرُ الرِّياء قال: إنَّما غَرَضي بهذا إظهار العِلم والعمل؛ لاقتداء

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٧٨٤٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٧).

(٢) البِرذَون جمعه بَراذِين، والبراذين مِن الخيل ما كان مِن غير نِتاج العراب. «لسان العرب» مادة (برذن).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٤٧)، و ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٥٨٤).

النَّاس بي؛ ليهتدوا إلى الدِّين، ولو كان هذا قَصده لفَرِح باقتداء النَّاس بغيره، كما يَفرح باقتدائهم به؛ لأنَّ مَن كان قصده صلاح الخَلْق يفرح بصلاحهم على يد مَن كان، وكذلك مَن يدخل منهم على سلطانٍ، ويتودَّد إليه، ويُثني عليه، ويَتواضَع له ويقول: إنَّما غَرَضي بهذا أنْ أشفعَ في مسلمٍ، أو أَدفع عنه الضَّرر. والله يعلم أنَّه لو ظهر لبعض أقرانه قَبولٌ عند السُّلطان لَثَقُل عليه ذلك.

وقد ينتهي غرور بعضهم إلى أنَّه يأخذ مِن مالهم الحرام، ويقول: هذا مالٌ لا مالكَ له، وهو لمَصالِح المسلمِين، وأنتَ إمامٌ مِن أئمَّتهم. فيَغترُّ بهذا التَّلبيس مِن جهة نظره إلى نفسه، وربَّما كان دَجَّالًا مِن الدَّجَّالين مِن جهة قوله: هذا مالٌ لا مالكَ له. وغاية الأمر وُقوع الاختلاط في الأموال، وذلك لا يمنع كونها حرامًا، وقد يكون عالِمًا بهذا أخذ منه المال.

وفرقةٌ أُخرى أَحكموا العِلم، وطهَّروا جوارحهم، وزيَّنوها بالطَّاعات، وتفقَّدوا قلوبهم بتصفيتها مِن الرِّياء والحسد والكِبْر ونحوِ ذلك، ولكنْ بقيت في زوايا القلب خفايا مِن مكائد الشَّيطان، وخدع النَّفس لم يَفطنوا لها، وأهملوها، فترى أحدهم يُسْهِرُ ليله، ويُنْصِب نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرى أنَّ باعثه على ذلك الحرص على إظهار دِين الله تعالى، وربَّما كان الباعث لذلك طلب الذِّكر، وانتشار الصِّيت، ولعلَّه لا يخلو في تصنيفه مِن الثَّناء على نفسه، إمَّا صريحًا بالدَّعاوى الطَّويلة العريضة، وإمَّا ضمنًا بالطَّعن في غيره؛ ليبيِّن في طعنه في غيره أنَّه أفضل مِن ذلك الغير، وأعظم منه عِلمًا، فهذا وأمثاله مِن خفايا العيوب التي لا يَفطن لها إلَّا الأكياس[1] الأقوياء، ولا مَطمَع فيه لأمثالنا مِن الضُّعفاء، إلاَّ أنَّ أقلَّ الدَّرجات أنْ يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويحرص على صلاحها.

ومِن سرَّته حَسَنته، وساءته سيِّئته، فهو مرجوٌّ أَمْره، بخلاف مَن يزكِّي نفسه، ويظنُّ أنَّه مِن خِيار الخَلْق، فهذا غرور الذين حصَّلوا العلوم المهمَّة، فكيف بالذين قَنعوا مِن العلوم بما لا يُهمهم، وتَركوا المُهمَّ.

---

(١) جمع كيس وهو العاقل.

فمنهم مَنِ اقتصر على عِلم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدُّنيوية الجارية بين الخَلْق لصلاح المعايش، وربَّما ضيَّعوا الأعمال الظَّاهرة، وارتكبوا بعض المعاصي مِن الغِيبة والنَّظر إلى ما لا يَحِلُّ، والمشي إلى ما لا يجوز، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرِّياء وجميع المُهلِكات، فهؤلاء مغرورون مِن وجهَين: أحدهما: مِن حيثُ العمل، والآخر: مِن حيث العِلم.

ومِثالهم مِثال المريض إذا تعلَّم نسخة الدَّواء، واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مَثَلهم مَثَل مَن به علَّة البِرسام وهو مُشرِفٌ على الهلاك، فاشتغل بتعلُّم دواء الاستحاضة، وجعل يكرِّر ذلك، وذلك غاية الغرور.

وسبب غروره ما سَمع في النَّقل مِن تعظيم الفقه، ولم يدرِ أنَّ الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المَخوفة والمَرجوَّة؛ ليستشعر القلب الخوف، ويُلازم التَّقوى.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية، والذي يحصل به الإنذار غيرُ هذا العِلم، فإنَّ مقصود هذا العِلم حفظ الأموال بشروط المُعامَلات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودَفْع القتل والجِراحات.

والمال في طريق الله تعالى آلةٌ، والبدن مَركَبٌ.

وإنَّما العِلم المُهمُّ معرفة سلوك الطَّريق، وقَطْع عقبات القلب التي هي مِن الصِّفات المذمومة، فهي الحِجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومِثال مَن اقتصر على ذلك، كمِثل مَن اقتصر في سلوك طريق الحجِّ على عِلم حرز الرَّاوية والخُفِّ، ولا شكَّ أنَّه لا بدَّ مِن ذلك، ولكن ليس مِن الحجِّ في شيءٍ.

ومِن هؤلاء مَن اقتصر على عِلم الخلاف، ولا يهمُّه إلَّا طريق المجادَلة، والإلزام، والإفحام، ودفع الحقِّ لأجل الغَلَبة، فهو أَسوأ حالًا ممَّن ذُكِر قَبلهم، وجميع دقائق الجدل في الفقه بدعةٌ لم يَعرفها السَّلف.

وأمَّا أدلَّة الأحكام فيشتمل عليها عِلم المذهَب، وهي كتاب الله وسنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمَّا حِيَل الجدل مِن الكسر، والقلب، وفساد الوضع، والتَّركيب، والتَّعدية فإنَّما أُبدِعت لإظهار الغَلَبة والإفحام.

وفرقةٌ أُخرى اشتغلوا بعِلم الكلام والمجادَلة في الأهواء، والرَّدِّ على المُخالِفِين.

ثُمَّ هؤلاء طائفتان: ضالَّةٌ، ومُحِقَّةٌ، فالضَّالَّة التي تدعو إلى غير السُّنَّة، والمُحِقَّة التي تدعو إلى السُّنَّة، والغرور شاملٌ لجميعهم.

أمَّا الضَّالَّة فاغترارها ظاهرٌ، وأمَّا المُحِقَّة فاغترارها مِن حيث إنَّها ظنَّت أنَّ الجدل هو أهمُّ الأمور، وأفضلُ القُربات في دِين الله تعالى، وزعمت أنَّه لا يتمُّ لأحدٍ دِينه ما لم يَبحث، وأنَّ مَن صَدَّق الله ورسوله مِن غير تحرير دليلٍ فليس بكامل الإيمان، فلهذا الظَّنِّ الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلُّم الجدل، والبحث عن المَقالات، وعَمِيت بصائرهم، فلم يلتفتوا إلى القَرن الأوَّل، وأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهِد لهم بأنَّهم خير الخَلْق[(١)]، وأنَّهم قد أدركوا كثيرًا مِن البِدَع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودِينهم عَرَضًا للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقُّد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلَّموا فيه إلَّا لضرورة ردِّ الضَّلال، فإنْ رأَوه مُصرًّا على بِدعته هجروه مِن غير مماراةٍ ولا جدلٍ.

وقد رُوي في الحديث: «**ما ضَلَّ قَومٌ قطُّ بعدَ هُدًى إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ**»[(٢)].

وفرقةٌ أُخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبةً مَن يتكلَّم في أخلاق النَّفس، وصفات القلب، مِن الخوف والرَّجاء والصَّبر والشُّكر والتَّوكُّل والزُّهد واليقين والإخلاص،

---

(١) فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيرُ القُرُونِ قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم...**» رواه البخاريُّ (٢٥٠٨)، ومسلمٌ (٢٥٣٥).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمدُ (٢٢١٦٤) عن أبي أمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وقال التِّرمذيُّ حسنٌ صحيحٌ.

وهم يظنُّون أنَّهم إذا تكلَّموا بهذه الصِّفات وهم مُنفكُّون عنها أنَّهم مِن أهلها، فهؤلاء يَدعون إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم النَّاس غرة.

ومِن هؤلاء مَن يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلى الشَّطح وتلفيق كلامٍ خارجٍ عن قانون الشَّرع والعقل طلبًا للإغراب.

ومنهم مَن يستشهد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أنْ يُكثر الصِّياح في مجالسهم والتَّواجُد، ولو على أغراضٍ فاسدةٍ، فهؤلاء شياطين الإنس.

ومنهم فرقةٌ استغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث، وجمع رواياته، وأسانيده الغريبة والعالية، فهَمُّ أحدِهم أنْ يدورَ البلاد، ويرى الشُّيوخ ليقول: أنا أروي عن فلانٍ، ولقيتُ فلانًا، ولي مِن الإسناد ما ليس لغيري.

ومنهم فرقةٌ اشتغلوا بعِلم النَّحو واللُّغة والشِّعر، وزَعَموا أنَّهم علماء الأُمَّة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النَّحو واللُّغة، ولو عَقَلوا لَعَلِموا أنَّ مُضيِّع عُمره في معرفة لغة العرب كالمُضيِّع عمره في معرفة لغة التُّرك، وإنَّما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشَّريعة بها، فيَكفي مِن اللُّغة عِلم الغريبَين: غريب القرآن، والحديث، ومِن النَّحو ما يُقوَّم به اللِّسان.

فأمَّا التَّعمُّق إلى درجاتٍ لا تتناهى فذلك يَشغل عمَّا هو أجودُ منه وألزمُ.

ومِثال التَّعمُّق في ذلك مِثال مَن ضيَّع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مُقتصِرًا على ذلك، وذلك غرورٌ؛ لأنَّ المقصود مِن الحروف المعاني، وإنَّما الحروف ظروفٌ وأدواتٌ، ومَنِ احتاج إلى شرب السَّكَنْجَبِين لإزالة الصَّفراء، فضيَّع عُمره في تحسين القدح الذي يشرب فيه، فهو مغرورٌ، والسَّعيد مِن أَخذ مِن كلِّ شيءٍ مِن هذا حاجته المُهمَّة لا غيرُ، وتجاوز إلى العمل، واجتهد فيه، وفي تصفيته مِن الشَّوائب، فهذا هو المقصود.

وفرقةٌ أرى عِظَم غرورهم، فوضعوا الحِيل في دفع الحقوق، وظنُّوا أنَّ ذلك ينفعهم، بل ذلك غرورٌ، فإنَّ الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أنْ تُبرئه مِن حقِّها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى.

وكذلك هبة الرَّجل مال الزَّكاة في آخِر الحول لزوجته، واتِّهابه مالَها حيلةٌ لإسقاط الزَّكاة، ونحو ذلك مِن أنواع الحِيَل.

الصِّنْف الثَّاني: أرباب التَّعبُّد والعمل، وهم فِرَقٌ:

فرقةٌ أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالنَّوافل والفضائل، وربَّما تعمَّقوا في استعمال الماء حتى خَرجوا إلى الوسوسة في الوضوء، فتَرى أحدهم لا يَرضَى بالماء المحكوم له بالطَّهارة شرعًا، بل يُقدِّر له الاحتمالات البعيدة في التَّنجيس، ولا يُقدِّر ذلك في مَطعَمه، فلو انقلب هذا الاحتياط مِن الماء إلى المَطعَم لَكان أشبهَ بسير السَّلف، فإنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توضَّأ مِن جرَّةِ نصرانيَّةٍ مع ظهور احتمال النَّجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعًا مِن الحلال خوفًا مِن الوقوع في الحرام.

وقد صحَّ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم توضَّأ مِن مزادةِ مُشرِكةٍ[1].

ثُمَّ منهم مَن يَخرج إلى الإسراف في الماء، ويَطُول به الأمر حتى تَضيع الصَّلاة، ويخرج وقتها.

ومنهم مَن غَلَبت عليه الوسوسة في تكبيرة الإحرام في الصَّلاة، حتى ربَّما فاتته ركعةٌ مع الإمام.

ومنهم مَن يَتوسوس في إخراج حُروف الفاتحة وسائر الأذكار مِن مَخارجها، فلا يزال يَحتاط في التَّشديدات والفَرْق بين الضَّاد والظَّاء فوق الحاجة، ونحو ذلك، بحيث يَهتمُّ بذلك، حتى لا يتفكَّر فيما سواه، ويذهل عن معنى القرآن والاتِّعاظ به، وهذا مِن

---

(١) ذكره الشوكاني في نيل الأوطار (١/ ٧٠) ومر عليه فلم يخرجه ولم يتكلم عليه من حيث ثبوته ووروده بشيء.

أقبح أنواع الغرور، فإنَّ الخلق لم يَتكلَّفوا مِن تحقيق مَخارِج الحروف في تلاوة القرآن إلَّا ما جَرَت به العادة في الكلام.

ومِثال هؤلاء مِثال مَن حَمل رسالةً إلى سلطانٍ، فأخذ يُؤدِّي الرِّسالة [بالتَّلفُّق][1] في مَخارِج الحروف وتكرارها، وهو غافلٌ عن مقصود الرِّسالة ومُراجعةِ حُرمة المَجلِس، فما أحراه بالطَّرد والتَّأديب.

وفرقةٌ أُخرى اغترُّوا بقراءة القرآن، فهم يهذُّونه هذًّا[2]، وربَّما ختموا في اليوم مرَّتَين، فلسانُ أحدهم يجري به، وقلبه يتردَّد في أودية الأماني، ولا يتفكَّر في معاني القرآن، ولا يتَّعظ بمواعظه، ولا يقف عند أَوامره ونواهيه، فهذا مغرورٌ يَظنُّ أنَّ المقصود مِن القرآن التِّلاوة فقط.

ومِثال هذا مِثال عبدٍ كَتَب إليه مولاه كِتابًا يأمره فيه وينهاه، فلم يَصرف عنايته إلى فهمه، والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظانًّا أنَّ ذلك هو المُراد منه، مع مُخالَفته أَمْر مولاه ونهيه.

ومنهم مَن يتلذَّذُ بصوته بالقرآن، مُعرِضًا عن معانيه، فينبغي أنْ يتفقَّد قلبه، فيعرف هل التَّلذُّذ بالنَّظم، أو بالصَّوت، أو بالمعاني؟

وفرقةٌ أُخرى اغترُّوا بالصَّوم، وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغِيبة والفُضول، ولا بطونهم مِن الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم عن الرِّياء.

ومنهم مَن اغترَّ بالحجِّ، فيخرج إليه مِن غير خروجٍ عن المَظالِم، وقضاء الدُّيون، واسترضاء الوالدَين، وطلب الزَّاد الحلال، وقد يَفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحجِّ، ويضيِّعون في الطَّريق العبادة والفرائض، ويَعجزون عن طهارة الثَّوب والبَدَن، ولا يَحترزون مِن الرَّفث والخِصام، وهم مع ذلك يظنُّون أنَّهم على خيرٍ، وهم مغرورون.

---

(١) ورد في " المطبوع، ن " [بالتَّأنُّق].

(٢) الهَذُّ: سرعة القطع وسرعة القراءة، ويهذُّ القرآن هذًّا أي يَسرده. «لسان العرب» مادة (هذذ).

وفرقةٌ أُخرى أخذوا في الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ونَسَوا أنفسهم.

ومنهم مَن يَؤمُّ في مسجدٍ، ولو تقدَّم عليه أورعُ منه وأعلمُ ثَقُل عليه.

ومنهم مَن يؤذِّن، ويَظنُّ أنَّ ذلك لله، ولو أذَّن غيره في غَيبته اشتدَّ عليه ذلك، وقال: قد زاحمني في مرتبتي.

ومنهم مَن يجاور بمكَّةَ أو بالمدينة، وقلبه مُتعلِّقٌ ببلاده، وقول النَّاس: فلانٌ مُجاوِرٌ بمكَّةَ أو المدينة، ثُمَّ إنَّه يُجاوِر ويطمع في أوساخ النَّاس، وقد يَجمع ذلك، ويشحُّ به، ويجتمع له جملةٌ مِن المُهلِكات.

وما مِن عملٍ إلَّا وفيه آفاتٌ، فمَن لم يَعرفْها وقع فيها، ومَن أراد أنْ يعرفَها فلينظر في كتابنا هذا، فينظر في آفات الرِّياء الحاصل في العِبادات مِن الصَّوم والصَّلاة، وفي جميع القُربات في الأبواب المُرتَّبة في هذا الكتاب، وإنَّما الغرض الآن الإشارة إلى مَجامِع ما سبق.

وفرقةٌ أُخرى زَهدت في المال، وقَنعت بالدُّون مِن اللِّباس والطَّعام، وقَنعت مِن المسكن بالمساجِد، فظنَّت أنَّها أدركت رُتبة الزُّهَّاد، وهم مع هذا شديدوا الرَّغبة في الرِّياسة والجاه، فقد تَركوا أهونَ الأمرَين، وباؤوا بأعظم المُهلِكَين.

وفرقةٌ أُخرى حرصت على النَّوافل، ولم تعتنِ بالفرائض، فترى أحدهم يَفرح بصلاة الضُّحى وصلاة اللَّيل، ولا يجد للفريضة لذَّةً، ولا يحرص على المُبادَرة إليها في أوَّل الوقت، وينسى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يرويه عن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ: «**ما تَقرَّبَ المُتقرِّبُونَ إليَّ بِمِثلِ أَداءِ ما افترَضتُ عَلَيهِم**»[1].

الصَّنف الثَّالث: المُتصوِّفة، والمغرورون منهم فِرقٌ:

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٣٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فرقةٌ منهم اغترُّوا بالزَّيِّ والنُّطق والهيئة، فتَشبَّهوا بالصَّادقِين مِن الصُّوفيَّة بالظَّاهر، ولم يُتعِبوا أنفسهم في المجاهَدة والرِّياضة، ثُمَّ هم يَتكالَبون على الحرام والشُّبُهات وأموال السَّلاطِين، ويُمزِّق بعضهم أعراض بعضٍ إذا اختلفوا في غرضٍ، وهؤلاء غرورهم ظاهرٌ.

ومِثالهم مِثال عجوزٍ سمعت أنَّ الشُّجعان والأبطال مِن المُقاتِلين تثبت أسماؤهم في الدِّيوان، ويُقطع كلُّ واحدٍ منهم قطرًا مِن أقطار البلاد، فاشتاقت نفسها إلى ذلك، فلَبِست دِرعًا، ووضعت على رأسها مِغفَرًا، وتعلَّمت مِن رَجَزِ الأبطال أبياتًا، وتعلَّمت زيَّهم وجميع شمائلهم، ثُمَّ توجَّهت إلى العَسكر، فكُتب اسمها في ديوان الشُّجعان، فلمَّا حَضَرت في ديوان العَرض أُمرت بتجريد المِغفَر والدِّرع لِيُنظر ما تحته، وتُمتحَن بالمبارزة، فلمَّا جُرِّدت إذا هي عجوزٌ ضعيفةٌ زَمِنةٌ، فقيل لها: جئتِ تَستهزئين بالمَلِك وأهل حَضرته، خُذوها وأَلقوها بين أيدي الفيل. فأُلقيت إليه.

فهكذا يكون حال المُدَّعِين التَّصوُّف في القيامة إذا كُشف عنهم الغِطاء، وعُرِضوا على الحاكم الأكبر الذي يَنظر إلى القلب، لا إلى المُرقَّعات والزَّيِّ.

وفرقةٌ أُخرى ادَّعت عِلم المعرفة، ومشاهدة الحقِّ، ومُجاوَزة المَقامات والأحوال، والوصول إلى القُرب، ولا يَعرفون مِن تلك الأمور إلا الأسماء، فتَرى أحدهم يُردِّدها، ويظنُّ أنَّ ذلك أَعلى مِن عِلم الأوَّلِين والآخِرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمُحدِّثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلًا عن العوامِّ، حتى إنَّ بعض العامَّة يُلازمهم الأيام الكثيرة، ويتلقَّف منهم تلك الكلمات المُزيَّفة، ويُردِّدها كأنَّه يتكلَّم عن الوحي، ويَحتقِر في ذلك جميع العلماء والعُبَّاد، ويقول: إنَّهم مَحجوبون عن الله، وإنَّه هو الواصل إلى الحقِّ، وإنَّه مِن المُقرَّبين، وهو عند الله مِن الفُجَّار المُنافِقين، وعند أرباب القلوب مِن الحمقى الجاهلِين، لم يُحكِمْ علمًا ولم يُهذِّبْ خُلقًا، ولم يُراقِبْ قلبًا سوى اتِّباع الهوى، وحفظ الهذيان.

وفرقةٌ منهم طَوَوا بِساط الشَّرع، ورفضوا الأحكام، وسوَّوا بين الحلال والحرام، وبعضهم يقول: إنَّ الله مُستغنٍ عن عملي، فلِمَ أُتعب نفسي؟

وبعضهم يقول: لا قَدر للأعمال بالجوارح، وإنَّما النَّظر إلى القلوب، وقلوبنا والِهةٌ بحُبِّ الله تعالى، وواصلةٌ إلى معرفته، وإنَّما نخوض في الدُّنيا بأبداننا، وقُلوبنا عاكفةٌ في الحضرة الرَّبانيَّة، فنحن مع الشَّهوات بالظَّواهر لا بالقلوب، ويَزعمون أنَّهم قد تَرقَّوا عن رتبة العوامِّ، واستغنَوا عن تهذيب النَّفس بالأعمال البدنيَّة، وأنَّ الشَّهوات لا تَصدُّهم عن طريق الله تعالى؛ لقُوَّتهم فيها، ويَرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء؛ لأنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا يَبكون على خطيئةٍ واحدةٍ سنين.

وأصنافُ غرور أهل الإباحة لا تُحصَى، وكلُّ ذلك أغاليطُ ووساوسُ خَدَعهم الشَّيطان بها؛ لاشتغالهم بالمُجاهَدة قَبل إحكام العِلم، مِن غير اقتداءٍ بشيخٍ صاحب عِلمٍ ودِين صالحٍ للاقتداء به.

ومنهم فرقةٌ أُخرى جاوزوا هذا الطَّريق، واشتغلوا بالمُجاهَدة، وابتدؤوا بسُلوك الطَّريق، وانفتح لهم باب المعرفة، فلمَّا استنشقوا مَبادِئ ريح المعرفة، تَعجَّبوا منها، وفَرِحوا بها، وأَعجبهم غريبها، فتَقيَّدت قلوبهم بالالتفات إليها، والتَّفكُّر فيها، وكيفيَّة انفتاح بابها عليهم، وانسداده عن غيرهم، وكلُّ ذلك غرورٌ؛ لأنَّ عجائب طريق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس لها نهايةٌ، ولو وقف مع كلِّ أعجوبةٍ، وتقيَّد بها، قَصرت خطاه، وجرَّه الوصل إلى القصد، وكان مِثاله مِثال مَن قصد مَلِكًا، فرأى على بابه روضةً فيها أزهارٌ لم يكن رأى مِثلها، فوقف ينظر إليها، حتى فاته الوقت الذي يُمكن فيه لقاء المَلِك.

الصِّنف الرَّابع: أرباب الأموال:

وهم فِرقٌ:

ففرقةٌ منهم يَحرصون على بناء المساجد والمدارس والرِّباطات والقناطر وما يظهر للنَّاس، ويكتبون أسماءهم عليها؛ ليتخلَّد ذِكرهم، ويبقى بعد الموت أَثرهم، ولو كُلِّف

أحدهم أنْ يُنفقَ دينارًا، ولا يَكتب اسمه في الموضع الذي أنفق عليه لشقَّ عليه، ولولا أنَّه يُريد وجه النَّاس لا وجهَ الله لَمَا شقَّ عليه ذلك، فإنَّ الله يطَّلع عليه، سواءٌ كَتب اسمه أو لم يَكتبه.

وبعضهم يَصرف المال في زخرفة المسجد، وتزيينه بالنُّقوش التي هي منهيٌّ عنها، وشاغلةٌ للمُصلِّين، فإنَّ المقصود مِن الصَّلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يُفسد قلوب المُصلِّين.

فأمَّا إنْ كان المال الذي صَرَفه في ذلك حرامًا كان أَشدَّ في الغرور.

قال مالك بن دينارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أتى رجلٌ مسجدًا، فوقف على الباب، وقال: مِثلي لا يدخل بيت الله. فكُتب في مكانه صِدِّيقًا(١).

فهكذا ينبغي أنْ تُعظَّم المساجد، وهو أنْ يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد، لا أنْ يرى تلويث المسجد بالحرام، أو بزُخرف الدُّنيا منَّةً على الله تعالى، فغرور هذا مِن حيث إنَّه يرى المُنكَر مَعروفًا.

وفرقةٌ أُخرى يَحفظون الأموال، ويُمسكونها بُخلًا، ثُمَّ يشتغلون بالعبادات البدنيَّة التي لا تحتاج إلى نفقة المال، كالصِّيام والصَّلاة وختم القرآن، وهم مغرورون؛ لأنَّ البخل مُهلِكٌ، وقد استولى على قلوبهم، فهم مُحتاجون إلى قَمعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا عنه بفضائلَ لا تجب عليهم.

ومِثالهم مِثال مَن دخلت في ثوبه حيَّةٌ، فاشتغل عنه بطبخ السكنجبين؛ لتسكن به الصَّفراء.

ومنهم مَن لا تَسمح نفسه إلَّا بأداء الزَّكاة فقط، فيُخرج الرَّديء مِن المال، أو يُعطي مِن الفقراء مَن يخدمه، ويتردَّد في حاجاته، أو مَن يحتاج إليه في المستقبل، أو مَن له فيه غرضٌ.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٧٨).

ومنهم مَن يُسلِّم ذلك إلى بعض الأكابر ليُفرِّقه؛ لينال بذلك عنده منزلةً، ويقوم بحوائجه، وكلُّ ذلك مُفسِدٌ للنيَّة، وصاحبه مغرورٌ؛ لأنَّه يَطلب بعبادة الله تعالى عِوضًا عن غيره.

وفرقةٌ أُخرى مِن أرباب الأموال وغيرهم اغترُّوا بحضور مَجالِس الذِّكر، وظنُّوا أنَّ نفس الحضور يُغنيهم عن العمل والاتِّعاظ، وليس كذلك؛ لأنَّ مَجلِس الذِّكر إنَّما فُضِّل لكونه مُرغِّبًا في الخير، وكلُّ ما يُراد لغيره إذا لم يُوصل إلى ذلك الغير فلا وَقْعَ له، وربَّما سمع أحدهم التَّخويف، فلا يزيد على قوله: يا سلامُ سَلِّم، أو أعوذ بالله. ويظنُّ أنَّه قد أتى المقصود.

ومِثال هذا كمَثل مريضٍ يحضر عند الأطباء، فيسمع ما يَجري، أو الجائع يَحضر عند مَن يَصف له الأطعمة اللَّذيذة، ثُمَّ ينصرف، فلا يُغني ذلك عنه، فكذلك سماع وصف الطَّاعات دون العمل بها، فكلُّ وَعْظٍ لم يُغيِّر منك صفةً تَتغيَّر بها أفعالك فهو حُجَّةٌ عليك.

فإنْ قيل: فما ذَكَرتَه مِن مَداخِل الغرور أَمْرٌ لا يكاد يُخلَص منه.

فالجواب: أنَّ مَدار أَمْر الآخرة على معنًى واحدٍ، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلَّا مَن لم تَصدُق نيَّته، فإنَّ الإنسان لو اهتمَّ بأَمْر الآخرة كما يَهتمُّ بأَمْر الدُّنيا لَنالها، وقد فعل ذلك السَّلف الصَّالح ومَن تَبِعهم بإحسانٍ.

ويُستعان على التَّخلُّص مِن الغرور بثلاثة أشياءَ:

العقل: وهو النُّور الأصليُّ الذي يُدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التي يَعرف بها الإنسان نفسه وربَّه ودنياه وآخرته.

وفي كتاب المحبَّة، وشرح عجائب القلب، والتَّفكُّر، وكتاب الشُّكر إشاراتٌ إلى وصف النَّفس، ووصف جلال الله سبحانه.

ويَستعين على معرفة الدُّنيا والآخرة بما ذُكِر في كتاب «ذمِّ الدُّنيا»، وكتاب «ذِكر الموت»، فإذا حَصَلت هذه المعارف، ثار مِن القلب بمعرفة الله تعالى حُبُّ الله،

وبمعرفة الآخرة حُبُّ شِدَّة الرَّغبة فيها، وبمعرفة الدُّنيا شِدَّة الرَّغبة عنها، فيَصير أهم أموره إليه ما يُوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غَلبت هذه الإرادة على قلبٍ، صحَّت نيَّته في الأمور كلِّها، واندفع عنه كلُّ غرورٍ.

فإذا غلب حُبُّ الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه، واحتاج إلى الأمر الثَّالث وهو العِلم، ونَعني به العلم بكيفيَّة سلوك الطَّريق إلى الله تعالى وآفاتها، والعِلم بما يُقرِّبه منه ويهديه، وجميع ذلك في كتابنا هذا.

فيَعرف مِن ربع العبادات والعادات ما هو مُحتاج إليه، وما هو مُستغنٍ عنه، ويتأدَّب بأدب الشَّرع.

ويَعرف مِن ربع المُهلِكات جميع العَقَبات المانعة مِن طريق الله تعالى، وهي الصِّفات المذمومة في الخَلْق.

ويَعرف مِن ربع المُنجيات الصِّفات المحمودة التي لا بدَّ أنْ تُوضعَ خَلْفًا مِن المذمومة بعد مَحوِها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أَمكَنه الحذر مِن الأنواع التي أَشَرنا إليها مِن الغرور، والله أعلمُ.

وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أنْ يكونَ خائفًا أنْ يخدعه الشَّيطان، ويدعوَه إلى الرِّياسة، ويُخاف عليه أيضًا مِن الأمن مِن مَكْر الله تعالى، ولذلك قيل: والمُخلصون على خطرٍ عظيم.

وقال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للشَّيطان حين قال له عند الموت: فُتَّني. فقال: لا بعدُ[1]. فلا ينبغي أنْ يُفارِق الخوفُ قلوبَ الأولياء أبدًا، نسأل الله تعالى السَّلامة مِن الغرور، وحُسن الخاتمة، إنَّه قريبٌ مُجيبٌ.

آخر الغرور، وبه تمَّ رُبع المُهلِكات، ونَشرع الآن في رُبع المُنجيات.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٨٢٦)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٩/ ١٨٣).

الربع الرابع ربع المنجيات

كتاب التوبة، وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم أنَّ الذُّنوب حِجابٌ عن المحبوب، والانصراف عمَّا يُبعد عن المحبوب واجبٌ.

وإنَّما يتمُّ ذلك بالعِلم والنَّدم والعزم، فإنَّه متى لم يَعلمْ أنَّ الذُّنوب أسبابُ البُعد عن المحبوب لم يندمْ على الذُّنوب، ولم يَتوجَّع بسبب سلوكه طريق البُعد، وإذا لم يَتوجَّعْ لم يَرجعْ.

وقد أمر الله تعالى بالتَّوبة فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أَيُّها النَّاسُ تُوبُوا إلى رَبِّكُم، فَإنِّي أَتُوبُ إلى اللهِ في اليَومِ مِائةَ مَرَّةٍ**»[١].

وفي «الصَّحيحَين»[٢] مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ**[٣] **مَهْلِكَةٍ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ، وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ، وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ**».

والأحاديث في هذا كثيرةٌ، والإجماع مُنعقِدٌ على وجوب التَّوبة؛ لأنَّ الذُّنوب مُهلِكاتٌ مُبعِداتٌ عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور.

والتَّوبة واجبةٌ على الدَّوام، فإنَّ الإنسان لا يخلو عن معصيةٍ، ولو خلا عن معصيةٍ بالجوارح لم يخلُ عن الهَمِّ بالذَّنب بقلبه، وإنْ خلا عن ذلك لم يخلُ عن وسواس الشَّيطان بإيراد الخواطر المُتفرِّقة المُذهِلة عن ذِكر الله تعالى، ولو خلا عنه لم يخلُ عن غَفلةٍ وقصورٍ في العِلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكلُّ ذلك نقصٌ، ولا يَسلم أَحدٌ مِن هذا النَّقص، وإنَّما الخَلْق يَتفاوتون في المقادير، وأمَّا أصل ذلك فلا بدَّ منه.

ولهذا قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّه لَيُغانُ عَلى قَلبِي، فَأَستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ واللَّيلةِ سَبعِينَ مَرَّةً**»[٤] فأمَّا غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التَّوبة كانت صحيحةً مقبولةً، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٧٠٢).

(٢) رواه البخاريّ (٥٩٤٩) ومسلم (٢٧٤٤) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الدَّوِّيَّة: الفلاة المستوية والواسعة البعيدة الأطراف. «لسان العرب» مادة (دوا).

(٤) أخرجه مسلمٌ (٢٧٠٢) عن الأغرِّ المزنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ مائة مرة.

وفي الحديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرغِرْ**»(١). والأحاديث في ذلك كثيرةٌ.

فَصْلٌ في بَيَانِ أقْسَامِ الذُّنُوبِ

اعلم أنَّ للإنسان أخلاقًا وأوصافًا كثيرةً، لكن تنحصر مَثارات الذُّنوب في أربع صفاتٍ:

أحدها: صفاتٌ ربوبيَّةٌ، ومنها يَحدث الكِبْر، والفَخر، ويُحبُّ المدح والثَّناء، والعزَّ وطلب الاستعلاء، ونحو ذلك، وهذه ذنوبٌ مُهلِكاتٌ، وبعض النَّاس يغفل عنها، فلا يعدُّها ذُنوبًا.

الثَّانية: صفاتٌ شيطانيَّةٌ، ومنها يتشعَّب الحسد، والبغي، والحِيَل، والخِداع، والمَكر، والغشُّ، والنِّفاق، والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الثَّالثة: الصِّفات البهيميَّة، ومنها يتشعَّب الشَّرُّ، والحِرص على قضاء شهوة البطن والفَرج، فيتشعَّب مِن ذلك الزِّنى واللِّواطة والسَّرقة، وأَخْذ الحُطام لأجل الشَّهوات.

الرَّابعة: الصِّفات السَّبُعيَّة، ومنها يتشعَّب الغضب، والحقد، والتَّهجُّم على النَّاس بالقتل والضَّرب، وأَخْذ الأموال، وهذه الصِّفات لها تدرُّجٌ في الفِطرة.

فالصِّفة البهيميَّة هي التي تَغلب أوَّلًا، ثُمَّ تتلوها الصِّفة السَّبُعيَّة ثانيًا، فإذا اجتمعت هاتان استَعملتا العقل في الصِّفات الشَّيطانيَّة، مِن المَكر، والخِداع، والحِيَل، ثُمَّ تغلب الصِّفات الرُّبوبيَّة.

فهذه أُمَّهات الذُّنوب ومنابعها، ثُمَّ تتفجَّر الذُّنوب مِن هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها في القلب، كالكفر، والبدعة، والنِّفاق، وإضمار السُّوء، وبعضها في العين،

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٣٧)، وأحمدُ (٦١٦٠) عن عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

الأوَّل: حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قالوا: يا رسول الله: وما هنَّ؟ قال: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**»(١).

الثَّاني: حديث ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُئل: أيُّ الذَّنب أكبرُ؟ قال: «**أنْ تجعلَ للهِ نِدًّا وهُو خَلَقَكَ**». قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «**أنْ تقتلَ ولَدكَ خشيةَ أنْ يطعَمَ معَكَ**» قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «**أنْ تُزانِيَ حَليلَةَ جارِكَ**»(٢).

الثَّالث: حديث عبد الله بن عمرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**الكَبائِرُ الإشراكُ بِاللهِ، وَعُقوقُ الوَالِدَينِ**»(٣).

الرَّابع: «**ألَا أُنبِئُكُم بِأكبرِ الكَبائِرِ؟ قَولُ الزُّورِ -أو قال- شَهادَةُ الزُّورِ**»(٤).

الخامس: حديث أبي بَكْرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذُكِرت عنده الكبائر قال: «**الإشراكُ بِاللهِ، وَعُقوقُ الوَالِدَينِ**». وكان مُتَّكِئًا فجلس، فقال: «**ألَا وَقولُ الزُّورِ، وَشَهادَةُ الزُّورِ**». فما زال يُكرِّرها حتى قُلنا: ليته سكته(٥).

وقد اختلف العلماء فيها على أقوالٍ كثيرةٍ، والأحاديث في الكبائر لا تدلُّ على حَصرها فيها، ولعل الشَّارع قَصَد الإبهام؛ ليكونَ النَّاس على وَجَلٍ مِن الذُّنوب، لكنْ يُعرَف مِن الأحاديث أجناس الكبائر، ويُعرف أيضًا أكبر الكبائر، فأمَّا أصغر الصَّغائر فلا سبيلَ إلى معرفته.

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٦١٥)، ومسلمٌ (٨٩) عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٩٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٥١٠) ومسلمٌ (٨٨).

(٤) رواه البخاريُّ (٥٦٣٢)، ومسلمٌ (٨٨) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) رواهما البخاريُّ (٢٥١١) ومسلمٌ (٨٧) عن أبي بكرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقد تَكلَّم العلماء في عدد الكبائر، فرُوي عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «هي أربعٌ»[(١)].

ورُوي عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «هي سَبْعٌ».

وكان ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا بلغه قول ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنَّها سَبعٌ» قال: «هي إلى سبعين أقربُ منها إلى سَبعٍ»[(٢)].

وقال أبو صالحٍ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هي ما أوجب الحَدَّ في الدُّنيا.

وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الكبائر مِن فاتحة النِّساء إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١][(٣)].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠١٩).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٩٠).

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٧/ ٢٤٨)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٨٢): الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنِّف عن أبي طالبٍ المكِّيِّ أنَّه قال: الكبائر سبع عشرةَ جميعها مِن جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع مِن قول ابن عبَّاسٍ وابن مسعودٍ وابن عمرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم: الشِّرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط مِن رحمته، والأمن مِن مكره، وشهادة الزُّور، وقذف المحصَن، واليمين الغموس، والسِّحر، وشرب الخمر والمسكِر، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الرِّبا، والزِّنا، واللِّواط، والقتل، والسَّرقة، والفرار مِن الزَّحف، وعقوق الوالِدين، وسأذكر ما ورد منها مرفوعًا، وقد تقدَّم أربعةٌ منها في حديث عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث أبي هريرةَ: «اجتنبوا السَّبع الموبقات...» ولهما مِن حديث أبي بكرةَ «ألَا أُنبكم بأكبر الكبائر...» ولهما مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئل عن الكبائر قال: «الشرك بالله، وقتل النفس...»، ولهما مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيُّ الذَّنب أعظم... وللطَّبرانيِّ مِن حديث سلمةَ بن قيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّما هي أربعٌ: لا تشركوا بالله شيئًا...» وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث عُبادةَ بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بايعوني على ألَّا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تسرقوا»، وفي «الأوسط» للطَّبرانيِّ مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «الخمر أمُّ الفواحش وأكبر الكبائر»، وفيه موقوفًا على عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أعظم الكبائر شرب الخمر» وكِلاهما ضعيفٌ، وللبزَّار مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسنادٍ حسنٍ: أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الشِّركُ باللهِ، والإياسُ مِن روحِ اللهِ، والقُنوطُ مِن رحمةِ»، وله مِن حديث بُريدة «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضل الماء، ومنع الفحل» وفيه صالح بن حبَّانَ، ضعَّفه ابن معينٍ والنَّسائيُّ وغيرهما، وله مِن حديث=

= أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «الكبائر أولهنَّ الإشراك بالله» وفيه: «والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته»، وفيه خالد بن يوسف السَّمين، ضعيفٌ، وللطَّبرانيِّ في «الكبير» مِن حديث سهل بن أبي حثمةَ في الكبائر «والتَّعرُّب بعد الهجرة»، وفيه ابن لهيعةَ، وله في «الأوسط» مِن حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «الكبائر سبعٌ» وفيه: «والرُّجوع إلى الأعرابيَّة بعد الهجرة». وفيه أبو بلالٌ الأشعريُّ ضعَّفه الدَّارقطنيُّ، وللحاكم مِن حديث عبيد بن عمير، عن أبيه «الكبائر تسعٌ» فذكر منها «واستحلال البيت الحرام»، وللطَّبرانيِّ مِن حديث واثلةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «إنَّ مِن أكبر الكبائر أنْ يقول الرَّجل عليَّ ما لم أقل». وله أيضًا مِن حديثه «إنَّ مِن أكبر الكبائر أنْ ينتفيَ الرَّجل مِن ولده»، ولمسلمٍ مِن حديث جابرٍ «بين الرَّجل وبين الشِّرك أو الكفر ترك الصَّلاة»، ولمسلمٍ مِن حديث عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «مِن الكبائر شتم الرَّجل والديه». ولأبي داودَ مِن حديث سعيد بن زيدٍ «مِن أربى الرِّبا الاستطالة في عِرض المسلم بغير الحقِّ». وفي «الصَّحيحَين مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ على قَبرين فقال: «إنَّهما لَيُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبيرٍ، وإنَّه لَكبيرٌ، أمَّا أحدهما فكان يمشي بالنَّميمة، وأمَّا الآخر فكان لا يستتر مِن بوله». الحديث، ولأحمدَ في هذه القصَّة مِن حديث أبي بكرةَ «أمَّا أحدهما فكان يأكل لحوم النَّاس» الحديث. ولأبي داودَ والتِّرمذيِّ مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «عُرضت عليَّ ذنوب أُمَّتي فلم أرَ ذنبًا أعظمَ مِن سورةٍ مِن القرآن أو آيةٍ أوتيها رجلٌ ثُمَّ نسيها» سكت عليه أبو داودَ، واستغربه البخاريُّ والتِّرمذيُّ. وروى ابن أبي شيبةَ في التَّوبة مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «لا صغيرةَ مع إصرارٍ» وفيه أبو شيبةَ الخراسانيُّ، والحديث منكرٌ يُعرَف به.

وأمَّا الموقوفات فروى الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ في «الشُّعب» عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «الكبائر الإشراك بالله، والأمن مِن مكر الله، القنوط مِن رحمة الله، واليأس مِن روح الله». وروى البيهقيُّ فيه عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الكبائر الإشراك بالله، واليأس مِن روح الله، والأمن مِن مكر الله، وعقوق الوالدَين، وقتل النَّفس التي حرَّم الله، وقذف المُحصَنات، وأكل مال اليتيم، والفرار مِن الزَّحف، وأكل الرِّبا، والسِّحر، الزِّنا، واليمين الغموس الفاجرة، والغلول، ومنع الزَّكاة، وشهادة الزُّور، وكتمان الشَّهادة، وشرب الخمر، وترك الصَّلاة متعمِّدًا، وأشياء ممَّا فرضها الله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم». وروى ابن أبي الدُّنيا في التَّوبة عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كلُّ ذنبٍ أصرَّ عليه العبد كبيرةٌ»، وفيه الرَّبيع بن صبيح مختَلفٌ فيه. وروى أبو منصورٍ الدَّيلميُّ في «مسند الفردوس» عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «لا صغيرةَ مع الإصرار»، وإسناده جيِّدٌ، فقد اجتمع مِن المرفوعات والموقوفات ثلاثةٌ وثلاثون، أو اثنان وثلاثون، إلَّا أنَّ بعضها لا يصحُّ إسناده كما تقدَّم، وإنَّما ذَكرتُ الموقوفات حتى يُعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف. وللبيهقيِّ في «الشُّعب» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قيل له: الكبائر سبعٌ؟ فقال: هي إلى السبعين أقربُ. وروى البيهقيُّ أيضًا فيه عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كلُّ ما نهى الله عنه كبيرةٌ» والله أعلم.

وقال سعيد بن جُبيرٍ[1] وغيره: هي كلُّ ذنبٍ أوعد الله عَزَّوَجَلَّ عليه النَّار.

وقال أبو طالبٍ المكِّيُّ[2]: الكبائر سبعَ عشرةَ، جَمعتُها مِن جملة الأخبار، أربعةٌ في القلب: الشِّرك، والإصرار على المعصية، والقنوط مِن رحمة الله، والأمن مِن مَكْر الله تعالى.

وأربعة في اللِّسان: شهادة الزُّور، وقَذْف المُحصَنات، واليمين الغَموس، والسِّحر.

وثلاثةٌ في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظُلمًا، وأكل الرِّبا.

واثنتان في الفرج: الزِّنا، واللِّواطة.

واثنتان في اليدين: القتل، والسَّرقة.

وواحدةٌ في الرِّجلَين: الفرار مِن الزَّحف.

وواحدةٌ في جميع البَدن: وهي عقوق الوالدَين.

وهذا يُمكن أنْ يُزاد عليه، ويُنقص منه، فإنَّ ضَرْب اليتيم وتعذيبه أكبر مِن أكل ماله، والله أعلمُ.

---

(١) هو سعيد بن جبيرٍ الأسديُّ بالولاء، الكوفيُّ، أبو عبد الله، تابعيٌّ، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشيُّ الأصل، أَخَذ العلم عن عبد الله بن عبَّاسٍ وابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كان ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول: أتسألونني وفيكم ابن أمِّ دهماءَ؟ يعني سعيدًا. قتله الحجَّاج بواسط، سنة (٤٥) قال الإمام أحمدُ بن حنبل: قَتَل الحجَّاج سعيدًا وما على وجه الأرض أحدٌ إلَّا وهو مفتقِرٌ إلى علمه. (انظر: حلية الأولياء، أبو نُعيم، ٤/ ٢٧٢، تهذيب التَّهذيب، ابن حجر العسقلانيُّ، ٢/ ٩، وَفَيات الأعيان، ابن خِلِّكان، ٢/ ٣٧١، الأعلام، الزِّركليُّ، ٣/ ٩٣).

(٢) محمَّد بن عليِّ بن عطيَّةَ الحارثيُّ، أبو طالبٍ، واعظٌ، زاهدٌ، فقيهٌ، مِن أهل الجبل بين بغداد وواسط، نشأ واشتهر بمكَّةَ، ورحل إلى البصرة فاتُّهم بالاعتزال، وسكن بغداد، فوعظ فيها، فحفظ عنه النَّاس أقوالًا هجروه مِن أجلها، وتوفِّي ببغداد سنة (٣٨٦). انظر «وفيات الأعيان»، ابن خلكان، (١/ ١٤٩١)، «الأعلام» الزركلي، (٦/ ٢٧٤).

فصلٌ في كيفيَّة توزُّع الدَّرجات في الآخرة على الحسنات والسَّيِّئات في الدُّنيا

اعلم أنَّ النَّاس يَتفاوَتون في الآخرة، كما يَتفاوَتون في الدُّنيا، وينقسمون إلى أربعة أقسامٍ: هالكِين، ومُعذَّبِين، وناجِين، وفائزِين.

ومِثال ذلك أنْ يستوليَ مَلِكٌ مِن الملوك على إقليمٍ، فيقتل بعض أهله، ويُعذِّب بعضهم ولا يَقتلهم، ويُخلِّي بعضهم، فهم النَّاجون، ويخلع على بعضهم، وهم الفائزون.

وإذا كان المَلِك عادلًا فلا يَقسمهم كذلك إلَّا باستحقاق، ولا يقتل إلَّا جاحدًا لاستحقاق المَلِك، مُعانِدًا له في أصل الوِلاية، ولا يُعذِّب إلَّا مَن قصَّر في خدمته مع الاعتراف له بالمُلْك، ولا يُخلِّي إلَّا مُعترِفًا له بالمُلْك، ولم يُقصِّر، ولا يخلع إلَّا على مَن أبلى عمره في الخِدمة والنُّصرة، وكلُّ واحدٍ مِن هذه الأقسام يَتفاوَتون في النَّعيم والتَّعذيب على حسب أحوالهم، ويشهد لذلك ما ورد في الحديث أنَّ مِن الناس مَن يَمرُّ على الصِّراط كالبرق الخاطف[1]، ومنهم مَن يبقى في النَّار سبعة آلاف سنة، وبين اللَّحظة وسبعة آلاف سنة تَفاوُتٌ كثيرٌ.

وأمَّا اختلاف العذاب بالشِّدَّة فلا نهايةَ لأعلاه، وأدناه التَّعذيب بالمُناقَشة في الحساب، كما أنَّ المَلِك قد يُعذِّب بعض المُقصِّرين في الأعمال بالمُناقَشة في الحساب، ثُمَّ يعفو، وقد يَضرب بالسِّياط، أو يُعذِّب بغيرها مِن أنواع العذاب.

وتَفاوُت مَنازِل أهل السَّعادة على نحو ذلك في النَّعيم، فهذه الأمور الكلِّيَّة معلومةٌ بالنَّقل، ونور المعرفة.

فأمَّا مِن جهة التَّفصيل، فنقول: كلُّ مَن أَحكَم أصل الإيمان، واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، ولم يكن منه إلَّا صغائرُ مُتفرِّقةٌ لا يُصرُّ عليها، فيشبه أنْ يُعفى عنه، فقد نصَّ القرآن على أنَّ اجتناب الكبائر مُكفِّرٌ للصَّغائر.

---

(١) رواه مسلمٌ (١٩٥) عن أبي هريرةَ وحذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وهذا إمَّا أنْ يلتحقَ بالمُقرَّبين، أو بأصحاب اليمين، وذلك بحسب إيمانه ويقينه، فإنْ قلَّ أو ضَعفَ، دَنَت منزلته، وإنْ كَثُر وقَوِي عَلَت منزلته.

ثُمَّ إنَّ المُقرَّبين يَتفاوَتون بحسب تَفاوُت معرفتهم بالله تعالى، ودرجات العارِفِين في المعرفة لا تنحصر؛ لأنَّ بحر المعرفة لا ساحلَ له، وإنَّما يغوص فيه الغوَّاصون بقدر قواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين أدنى درجات المُقرَّبين، هذا حال مَن اجتنب الكبائر، وأدَّى الفرائض.

فأمَّا مَن ارتكب كبيرةً، أو أَهمَل أركان الإسلام، فإنَّه إنْ تاب توبةً نصوحًا قَبل قُرب الأجل التحق بمَن لم يرتكبْ؛ لأنَّ التَّائب مِن الذَّنْب كمَن لا ذَنْبَ له، والثَّوب المغسول كالذي لم يتَّسخْ أصلًا.

فأمَّا إنْ مات قَبل التَّوبة فأَمْره خطرٌ؛ إذ ربَّما يكون موته على الإصرار سببًا لتزلزل إيمانه، فيُختم له بسوء الخاتمة، لا سيَّما إذا كان إيمانه تقليدًا، فإنَّه قابلٌ للانحلال بأدنى شكٍّ وخيالٍ، والعارف المُوقِن أبعدُ مِن أنْ يُخاف عليه سوء الخاتمة، ثُمَّ إنَّ عذاب الميت عن غير توبةٍ يكون بحسب قُبح الكبائر، ومدَّة الإصرار، ثُمَّ يَنزل البُله المُقلِّدون الجُنَّة، ويَنزل العارفون المُستبصِرون أعلى عِلِّيين، وما ذَكرناه مِن مراتب العِباد في المَعاد حُكمٌ ظاهر الأسباب، يُضاهي حُكم الطَّبيب على مريضٍ بأنَّه يموت لا محالةَ، ولا يقبل إصلاح العلاج، وعلى مريضٍ آخَرَ بأنَّ عارِضه خفيفٌ، وعلاجه هيِّنٌ، فإنَّ ذلك ظنٌّ يُصيب غالبًا، وقد تَثوب إلى الهلاكِ نفسه مِن حيث لا يشعر الطَّبيب، وقد يُساق إلى ذي العراض الخفيف أجله مِن حيث لا يطَّلع عليه، وذلك أسرار الله تعالى الخفيَّة، وفي أرواح الأحياء غموضٌ للأسباب التي رتَّبها المُسبِّب، وليس في قوَّة البشر الوقوف على كُنهها، وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسبابٌ خفيَّةٌ، ليس في قوَّة البشر الاطِّلاع عليها، وكذلك يجوز العفو عن العاصي، وإنْ كَثرت سيِّئاته، والغضب

على المُطيع، وإنْ كثرت طاعاته الظَّاهرة، فإنَّ الاعتماد على التَّقوى، والتَّقوى في القلب، وأحوال القلب قد تَخفى على صاحبه، فكيف على غيره؟

وأمَّا النَّاجون، ونعني بالنَّجاة السَّلامة فقط دون السَّعادة والفوز، وهم قومٌ لم يُخدَموا فيُخلع عليهم، ولم يُقصِّروا فيُعذَّبوا، ويشبه أنْ يكون هذا حال المَجانين، وأولاد الكفَّار، والذين لم تَبلغهمُ الدَّعوة، فلم يكنْ لهم معرفةٌ، ولا جحودٌ، ولا طاعةٌ، ولا معصيةٌ، ويصلح أنْ يكونوا على الأعراف.

وأمَّا الفائزون فهم العارفون، وهم المُقرَّبون والسَّابقون، وهؤلاء الذين لا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم مِن قُرَّة أَعينٍ، وليس حِرصهم على الجَنَّة، بل على لقاء الله سُبحانَهُ وتعالَى، والنَّظر إليه.

ومِثالهم مِثال المُحبِّ، فإنَّه في تلك الحال غافلٌ عن نفسه، لا يُحسُّ بما يُصيبه في بَدَنه، ولا همَّ له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قُرَّة أَعينٍ، لا تَخطر على قلب بَشرٍ، فهذا القدر كافٍ في بيان توزُّع الدَّرجات على الحسنات.

فَصْلٌ في بيانِ ما تَعظُمُ بهِ الصَّغائرُ مِنَ الذُّنوبِ

اعلم أنَّ الصَّغيرة تكبر بأسبابٍ: منها الإصرار والمُواظَبة.

وفي الحديث مِن رواية ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**لا صَغِيرةَ مَع إصرارٍ، ولا كَبيرةَ مَع الاستِغفارِ**»(١).

واعلم أنَّ العفوَ عن كبيرةٍ قدِ انقضتْ، ولم يُتبعها مِثلها أَرجى مِن العفو عن صغيرةٍ يُواظِب عليها العبد.

---

(١) رواه القضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (٨٥٣) عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومِثال ذلك قَطراتٌ مِن الماء تقع على حَجَرٍ مُتوالِيات، فإنَّها تُؤثِّر فيه، ولو جُمِعت تلك القطرات في مَرَّةٍ، وصُبَّت عليه لم تؤثِّر، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَبُّ العَمَلِ إلى اللهِ أَدوَمُه وإنْ قَلَّ**»[1].

ومِن الأسباب التي تَعظم بها الصَّغائر أنْ يَستصغِر الذَّنب، فإنَّ الذَّنب كلَّما استعظمه العبد صَغُر عند الله تعالى، وكلَّما استصغره العبد كَبُر عند الله تعالى، فإنَّ استعظامه يَصدُر عن نفور القلب منه، وكراهيتِه له.

قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إنَّ المؤمن يَرى ذُنوبه كأنَّه في أصل جبلٍ، يخاف أنْ يقعَ عليه، وإنَّ الفاجر يَرى ذُنوبه كذُبابٍ وقع على أنفه، فقال به هكذا**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[2].

وإنَّما يَعظُم الذَّنب في قلب المؤمن لعِلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عَظَمة مَن عَصى رأى الصَّغيرة كبيرةً.

وفي «البخاريِّ» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ**»[3].

وقال بلال بن سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تنظر إلى صِغَر الخطيئة، ولكن انظر إلى عَظَمة مَن عَصيتَ»[4].

ومِن الأسباب أنْ يفرح بالصَّغيرة، ويتمدَّح بها، كما يقول: أَمَا رأيتَني كيف مَزَّقتُ عِرْض فلانٍ، وذَكَرت مساويه حتى خجلته؟ أو يقول التَّاجر: أَمَا رأيتَ كيف روَّجتُ عليه الزَّائف، وكيف خَدَعتُه وغَبنتُه؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصَّغائر.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٩٩)، ومسلمٌ (٧٢٨) عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٢) رواه البخاريُّ (٥٩٤٩) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولم يذكره مسلمٌ.
(٣) رواه البخاريُّ (٦١٢٧).
(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٨٢)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٥٨٢٢٣).

ومنها أنْ يَتهاوَن بستر الله تعالى، وحِلمه عنه، وإمهاله إيَّاه، ولا يدري أنَّ ذلك قد يكون مَقتًا؛ ليزداد بالإمهال إثمًا.

ومنها أنْ يأتي بالذَّنب، ثُمَّ يَذكره بمَحضرٍ مِن غيره، وفي «الصَّحيحَين»[١] مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ العَمَلَ بِاللَّيْلِ، ثُمَّ يُصْبِحَ، وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا. وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ اللهُ عليهِ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ**».

ومنها أنْ يكونَ المُذنِب عالِمًا يُقتدى به، فإذا عُلم منه الذَّنب كَبُر ذنبه، كلُبْسه الحرير، ودُخوله على الظَّلَمة مع تَرْك الإنكار عليهم، وإطلاق اللِّسان في الأعراض، واشتغاله مِن العلوم بما لا يُقصد منه إلَّا الجاه كعِلم الجدل، فهذه ذُنوبٌ يُتَّبع العالِمُ عليها، فيموت، ويبقى شرُّه مُستطِيرًا في العالَم، فطُوبى لمَن إذا مات ماتت معه ذنوبه.

وفي الحديث: «**مَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كانَ عَليهِ وُزرِها، وَوِزرُ مَن عَمِلَ بِها بَعدَه مِن غَيرِ أنْ يَنقصَ مِن أَوزارِهِم شَيءٌ**»[٢].

فعلى العالِم وَظيفتان:

إحداها: ترك الذَّنب، والثَّانية: إخفاؤه إذا أتاه.

وكما تَتضاعَف أوزار العُلماء إذا اتُّبِعوا على الذُّنوب كذلك تَتضاعَف حسناتهم إذا اتُّبِعوا على الخير.

وينبغي للعالِم أنْ يَتوسَّط في مَلبَسه ونفقته، وليكن إلى التَّقلُّل أميلَ، فإنَّ النَّاس يَنظرون إليه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٢١)، ومسلمٌ (٢٩٩٠) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٢) رواه أحمدُ (١٠٥٥٦) والتِّرمذيُّ (٢٦٧٥) وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وينبغي له الاحتراز بما يُقتدَى به فيه، فإنَّه متى ترخَّص في الدُّخول على السَّلاطين، وجمع الحطام، فاقتدى به غيره كان الإثم عليه، وربَّما سَلِم هو في دُخوله، ولم [يَفهموا](١) كيفيَّة سلامته.

وقد روينا أنَّ مَلِكًا كان يُكْرِهُ النَّاس على أكل لحم الخنزير، فجِيء برجلٍ عالِمٍ، فقال له حاجب المَلِك: قد ذَبحتُ لك جديًا فكُل منه. فلمَّا دَخل قُرِّب إليه، فلم يأكلْ، فأُمِر بقتله، فقال له الحاجب: أَلَم أقلْ لك إنَّه جديٌ؟ فقال: ومَن أين يَعلم حالي مَن يقتدي بي.

فَصْلٌ فِي شُرُوطِ التَّوْبَةِ

اعلم أنَّ التَّوبة عِبارةٌ عن ندمٍ يُورث عَزمًا وقَصدًا، وذلك النَّدم يُورث العِلم بأنْ تكون المعاصي حائلًا بين الإنسان وبين محبوبه.

والنَّدم هو تَوجُّع القلب عنده شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طُول الحزن والبكاء، فإنَّ مَن استشعر عُقوبةً نازلةً بوَلَده أو مَن يعزُّ عليه طال بكاؤه، واشتدَّت مُصيبته، وأيُّ عزيزٍ أعزُّ عليه مِن نَفْسه؟ وأيُّ عقوبةٍ أَشدُّ مِن النَّار؟ وأيُّ سببٍ أدلُّ على نُزول العقوبة مِن المعاصي؟ وأيُّ مُخبرٍ أَصدقُ مِن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ولو أَخبَره طبيبٌ أنَّ ولده لا يبرأ مِن مرضه لاشتدَّ في الحال حُزنُه، وليس ولده بأعزَّ مِن نَفْسه، ولا الطَّبيب بأعلمَ مِن الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا الموت بأَشدَّ مِن النَّار، ولا المرض أَدلَّ على الموت مِن المعاصي على سخط الله عَزَّوَجَلَّ، والتَّعرُّض بها للنَّار.

وينبغي للتَّائب أنْ يتفقَّد ما عليه مِن صلاةٍ فائتةٍ، أو بغير شَرْطها؟ مِثل أنْ يكونَ صلَّاها في ثوبٍ نَجسٍ، أو بنِيَّةٍ غيرِ صحيحةٍ؛ لجهله بذلك، فيَقضيها كلَّها.

وكذلك إنْ كان عليه صومٌ، أو زكاةٌ، أو حجٌّ، أو غيرُ ذلك مِن الواجبات، يَقضيها كلَّها، ويُفتِّش على ذلك، ويتداركه.

---

(١) ورد في "ن" [يعلموا].

وأمَّا المعاصي فينبغي أنْ يُفتِّش مِن أوَّل بُلوغه عن كلِّ معصيةٍ صَدَرت منه، وينظر فيها، فما كان مِن ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فالتَّوبة منه النَّدم والاستغفار.

ثُمَّ ينظر إلى مَقادير ذنوبه، فيَطلُب لكلِّ معصيةٍ منها حسنةً تُناسبها، فيأتي مِن الحسنات بمِقدار تلك السَّيِّئات. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسنَةَ تَمحُهَا**»[١].

مِثال ما ذَكرنا: أنْ يُكفِّر سَماع الملاهي بسماع القرآن، ومَجالِس الذِّكْر، ويُكفِّر مَسَّ المُصحف بغير طهارةٍ بإكرامه، وكثرة القراءة فيه، وإنْ أمكنه أنْ يكتبَ مصحفًا، ويَقفَه فليفعل، ويُكفِّر شُرب الخمر بالتَّصدُّق بالشَّراب الحلال. وعلى هذا فاسلك سبيل المُضادَّة، فإنَّ الأمراض تُعالَج بضِدِّها، فهذا حُكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأمَّا مَظالِم العِباد، ففيها أيضًا معصية الله تعالى؛ لأنَّه نُهِيَ عن ظُلم العِباد[٢]، فالظَّالم لهم قد ارتكَب نَهيَه تعالى، فيَتدارَك ذلك بالنَّدم والعزم على ترك مِثل ذلك في المُستقبَل، والإتيان بالحسنات المُضادَّة لتلك المظالِم كما تقدَّم في القسم الأوَّل، فيُقابِل إيذاء النَّاس بالإحسان إليهم، ويُكفِّر غَصْب الأموال بالتَّصدُّق بماله الحلال، ويُكفِّر تَناوُل أعراضهم بالثَّناء على أهل الدِّين، ويُكفِّر قَتْل النُّفوس بالعِتق.

هذا فيما يَتعلَّق بحقِّ الله تعالى، فإذا فَعَل ذلك لم يَكفِه حتى يخرج مِن مَظالِم العِباد.

ومَظالِمُهم إمَّا في النُّفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

أمَّا الأوَّل فإنَّه إذا قَتل نَفسًا خَطأً أوصل الدِّيَة إلى مُستحِقِّها، إمَّا منه أو مِن عاقلته، وإنْ قَتل عَمدًا، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أنْ يبذلَ نَفْسه لوليِّ الدَّم، إنْ شاء

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٦٦٠)، والتِّرمذيُّ (١٩٨٧) أحمدُ (٢١٣٥٤)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) للحديث الذي رواه مسلم (٢٥٧٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا».

قَتَله، وإنْ شاء عَفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أَمْره، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حَدُّ الله تعالى، فإنَّه لا يَلزمه في التَّوبة أنْ يفضحَ نَفْسه، بل عليه أنْ يستُرَ نفسه، فإنْ رُفع أَمْره إلى الوليِّ حتى أقام عليه الحَدَّ وقع ذلك مَوقِعه، وكانت توبته صحيحةً مقبولةً عند الله تعالى، بدليل قصَّة ماعزٍ والغامديَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهُما[١].

وكذلك حَدُّ القَذْف لا بدَّ فيه مِن تحكيم المُستحِقِّ فيه.

الثَّاني: المظالِم المُتعلِّقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتَّلبيس في المُعامَلات، فيجب عليه رَدُّ ذلك إلى أصحابه، والخروج منه.

ولْيكتبْ إلى أصحاب المظالِم، ولْيؤدِّ إليهم حُقوقهم، ويَستحلَّهم، فإنْ كَثُر ظُلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فلْيفعلْ ما يقدر عليه مِن ذلك، ولم يبقَ له طريقٌ إلَّا الاستكثار مِن الحسنات؛ لِتُؤخَذ منه في القصاص يوم القيامة، فتُوضع في موازين أرباب المظالِم، فإنَّها إنْ لم تَفِ بذلك أُخِذ مِن سيِّئاتهم، فتُوضَع فوق سيِّئاته.

هذا حُكم المظالِم الثَّابتة في الذِّمَّة والأموال الحاضرة، فإنْ كان عنده مالٌ مِن شيءٍ مِن ذلك لم يعرفْ مالكه، ولا وَرَثته، تصدَّق به عنه، وإنِ اختلط الحلال بالحرام عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدَّق بمقداره.

الثَّالث: الجِناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أنْ يطلبَ كلَّ واحدٍ منهم، لِيستحلَّه، ولِيعرِّفه قدر الجناية، فإنَّ الاستحلال المُبهَم لا يكفي، وربَّما لو عرف ذلك لم تَطب نفسه بالإحلال، إلَّا أنْ تكونَ تلك الجناية إذا ذُكرت كَثر الأذى، كنِسبته إلى عيبٍ مِن خفايا عيوبه، أو كزناه بجاريته، فلْيجتهدْ في اللُّطف به، والإحسان إليه، ثُمَّ ليستحلَّه مُبهِمًا، ولا بدَّ أنْ يبقى في مثل ذلك مَظلَمةٌ تُجبَر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك مَن مات مِن هؤلاء، فإنَّه يُفوِّت أَمْره، ولا يُتدارَك إلَّا بتكثير الحسنات؛ لِتؤخَذَ منه عِوضًا يوم القيامة، ولا خلاصَ إلَّا برُجحان الحسنات.

---

(١) حين رجمهما النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقصتهما في الصحيحين.

فَصْلٌ

ومِن شرط التَّوبة الصَّحيحة العزم على ألَّا يعودَ في المُستقبَل إلى تلك الذُّنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزمًا مُؤكَّدًا.

مِثال ذلك المريض الذي يَعلم أنَّ الفاكهة تضرُّه في مرضه، فيعزم عزمًا جزمًا ألَّا يتناوَلَ شيئًا مِن الفاكهة ما دام في مرضه ذلك، فإنَّ هذا العزم يتأكَّد في الحال، وإنْ كان يَتصوَّر أنْ تغلبَه الشَّهوة في ثاني الحال، ولكنْ لا يكون تائبًا ما لم يتأكَّد عزمُه في الحال، ولا يُتصوَّر أنْ يتمَّ ذلك للتَّائب في أوَّل أمره إلَّا بالعُزلة، والصَّمت، وقِلَّة الأكل والنَّوم، وإحراز قُوتٍ حلالٍ، ويَترك الشُّبهات والشَّهوات مِن المأكولات والملبوسات.

قال بعضهم: مَن صَدَق في ترك الشَّهوة، وجاهد نفسه فيها سبعِ مرَّاتٍ لم يُبتَلَ بها. وقال: مَن تاب مِن ذنبٍ، واستقام سبع سنين لم يَعدْ إليه أبدًا.

بَيَانُ أَقْسَامِ العِبَادِ فِي دَوَامِ التَّوْبَةِ

النَّاس في التَّوبة أربعُ طبقاتٍ:

الطَّبقة الأُولى: تائبٌ يستقيم على التَّوبة إلى آخِر عمره، ويَتدارَك ما فَرط مِن أَمْره، ولا يُحدِّث نفسه بالعَود إلى ذُنوبه، إلَّا الزَّلَّات التي لا يَنفكُّ عنه البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التَّوبة، وصاحبها هو السَّابق بالخيرات.

وتُسمَّى هذه التَّوبة النَّصوح، وتُسمَّى هذه النَّفْس المُطمئِنَّة، وهؤلاء يَختلفون، منهم مَن سَكَنت شهوته تحت قَهْر المعرفة، ففتر نزاعها، ومنهم مَن تُنازعه نفسه، وهو مليءٌ بمُجاهَدتها.

الطَّبقة الثَّانية: تائبٌ قد سَلك طريق الاستقامة في أمَّهات الطَّاعات، وكبائر الفواحش، إلَّا أنَّه لا ينفكُّ عن ذُنوبٍ تعتريه، لا عن عمدٍ، ولكنَّه يُبتلَى بها في مَجاري أحواله مِن غير أنْ يُقدِّم عزمًا على الإقدام عليها، وكلَّما أتى شيئًا منها لام نفسه، ونَدِم، وعَزَم على الاحتراز مِن أسبابها، فهذه هي النَّفْس اللَّوَّامة؛ لأنَّها تَلوم صاحبها على ما يستهدف له مِن الأحوال الذَّميمة، فهذه رُتبةٌ عاليةٌ أيضًا، وإنْ كانت نازلةً عن الطَّبقة الأُولى، وهي أغلبُ أحوال التَّائبين؛ لأنَّ الشَّرَّ معجونٌ بطينة الآدميِّ، فقَلَّما ينفكُّ عنه، وإنَّما غاية سَعيِه أنْ يغلبَ خيرُه شرَّه، حتى يَثقل ميزانه، فتَرجح حسناته، فأمَّا أنْ تخلوَ كِفَّة السَّيِّئات، فبعيدٌ.

وهؤلاء لهم حُسن الوعد مِن الله سبحانه؛ إذ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] وإلى هذه الرُّتبة الإشارة بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُؤمِنَ المُفتَنَ التَّوَّابَ**»[(١)].

الطَّبقة الثَّالثة: أنْ يتوبَ، ويستمرَّ على الاستقامة مُدَّةً، ثُمَّ تَغلبه شهوته في بعض الذُّنوب، فيُقدِم عليها؛ لعجزه عن قهر الشَّهوة، إلَّا أنَّه مع ذلك مُواظِبٌ على الطَّاعات، وترك جُملةٍ مِن الذُّنوب، مع القدرة عليها، والشَّهوة لها، وإنَّما قَهَرته شهوةٌ واحدةٌ، أو شهوتان، وهو يَودُّ لو أَقدره الله عَزَّوَجَلَّ على قَمعها، وكفاه شَرَّها، فإذا انتهت ندم، لكنَّه يَعِدُ نفسه بالتَّوبة عن ذلك الذَّنب، فهذه النَّفْس تُسمَّى المسؤولة، وصاحبها مِن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] فأمر هذا مِن حيث مُواظَبته على الطَّاعات، وكراهيته لِمَا يَتعاطاه مَرجوٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا

---

(١) رواه أحمدُ (٦٠٥) وأبو داودَ (١٥٢٠) عن عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في المغني (٨/ ٦٥): رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» وأبي يَعلى بسندٍ ضعيفٍ مِن حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] وعاقبته مُخطَرةٌ مِن حيث تأخيره وتسويفه، فربَّما يُختطَف قَبل التَّوبة؛ فإنَّ الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكون الخوف مِن الخاتمة، وكلُّ نَفَسٍ يُمكن أنْ يتَّصلَ به الموت، فتكون الخاتمة، فليُراقِب الأنفاس، ولْيحذر وقوع المحذور.

الطَّبقة الرَّابعة: أنْ يتوبَ، ويَجريَ مُدَّةً على الاستقامة، ثُمَّ يعود إلى الذُّنوب مُنهمِكًا مِن غير أنْ يُحدِّث نَفْسه بالتَّوبة، ومِن غير أنْ يَتأسَّف على فِعله، فهذا مِن المُصرِّين، وهذه النَّفْس هي الأمَّارة بالسُّوء، ويُخاف على هذا سُوء الخاتمة.

فإنْ مات هذا على التَّوحيد فإنَّه يُرجَى له الخلاص مِن النَّار، ولو بعد حينٍ، ولا يَستحيل أنْ يشملَه عموم العفو بسببٍ خفيٍّ لا يطَّلع عليه، إلَّا أنَّ التَّعويل على هذا لا يصلحُ، فإنَّ مَن قال: إنَّ الله تعالى كريمٌ، وخزانته واسعةٌ، ومعصيتي لا تضرُّه، ثُمَّ تراه يركب البِحار في طلب دينارٍ، فلو قيل له: فإذا كان الحقُّ كريمًا فاجلس في بيتك لعلَّه يرزقك، استجهل قائلَ هذا، وقال: إنَّما الأرزاق بالكسب. فيُقال له: هكذا النَّجاة بالتَّقوى.

فَصْلٌ

وقد ذَكَرنا أنَّ التَّائب ينبغي له أنْ يأتِيَ بحسناتٍ تُضادَّ ما عَمِل مِن السَّيِّئات؛ لِتمحُوَها وتُكفِّرَها، والحسنات المُكفِّرة تكون بالقلب واللِّسان والجوارح على حسب السَّيِّئات، فما كان بالقلب، فنحو التَّضرُّع والتَّذلُّل، وأمَّا اللِّسان، فالاعتراف بالظُّلم والاستغفار، مِثل أنْ يقول: «ربِّ ظَلَمتُ نَفْسي فاغفر لي».

ورُوي في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«ما مِنْ رَجُلٍ يُذنِبُ ذَنْبًا، فيَتَوَضَّأُ، وَيُحسِنُ الوُضوءَ، ثُمَّ يُصلِّي رَكعتَينِ، وَيَستغفِرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، إلَّا غُفِرَ لَه»**(١).

وأمَّا الجوارح فبالطَّاعات، والصَّدقات، وأنواع العِبادات.

---

(١) رواه أحمدُ (٢) وابن ماجه (١٣٩٥)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٥٠٢٦).

فَصْلٌ فِي دَوَاءِ التَّوْبَةِ، وَطَرِيقِ عِلَاجِ حَلِّ عُقَدِ الإِصْرَارِ

اعلم أنَّه لا يقف على الدَّواء مَن لا يقف على الدَّاء؛ إذ لا معنًى للدَّواء إلَّا مُناقَضة أسباب الدَّاء، ولا يَبطل الشَّيء إلَّا بضِدِّه، وسبب الإصرار الغَفْلة والشَّهوة، ولا تُضادُّ الغَفْلة إلَّا بالعِلم، ولا تُضادُّ الشَّهوة إلَّا بالصَّبر على قَطْع الأسباب المُحرِّكة للشَّهوة.

والغَفْلة رأس الخطايا، فلا دواءَ إذًا للتَّوبة إلَّا معجونٌ يُعجَن مِن حلاوة العِلم، ومَرارة الصَّبر، كما يُجمع في السكنجبين حلاوة السُّكَّر، وحُموضة الخَلِّ، فيَحصل بمجموعهما قمع الصَّفراء.

والأطباء لهذا المرض هم العلماء؛ لأنَّه مرض القلوب، ومرض القلوب أكثرُ مِن مرض الأبدان، وإنَّما صار مرضها أكثر لأمورٍ:

أحدها: أنَّ المريض لا يَدري أنَّه مريضٌ.

الثَّاني: أنَّ عاقبته غيرُ مُشاهَدةٍ في هذا العالَم، بخلاف مرض الأبدان، فإنَّ عاقبته موتٌ مُشاهَدٌ يَنفر الطَّبع عنه، وما بعد الموت غيرُ مُشاهَدٍ، فقَلَّت النَّفرة عن الذُّنوب، وإنْ عَلِمها مُرتكِبها، فلذلك تراه يتَّكل على فضل الله عَزَّوَجَلَّ في مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن مِن غير اتِّكالٍ.

الأمر الثَّالث: وهو الدَّاء العُضال، فَقدُ الطَّبيب، فإنَّ الأطباء هم العلماء، وقد مَرِضوا في هذه الأعصار؛ لأنَّ الدَّاء المُهلِك هو حُبُّ الدُّنيا، وقد غَلَب هذا الدَّاء على الأطباء، فلم يَقدروا على تحذير الخَلْق استنكافًا مِن أنْ يُقال لهم: فما لكم تَأمُرون بالعلاج، وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السَّبب عَمَّ الدَّاء، وانقطع الدَّواء.

فإنْ قيل: فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه مِن الخَلْق؟

فالجواب: أنَّ ذلك يطول، لكنَّا نُشير إلى الأعمال النَّافعة في ذلك، وهي أربعة أنواعٍ:

الأوَّل: أنْ يَذكرَ ما في القرآن العزيز مِن الآيات المُخوِّفة للمُذنِبين، وما ورد في الأخبار والآثار مِن ذلك، ويَمزج ذلك بمدح التَّائِبين.

النَّوع الثَّاني: حكايات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والسَّلف الصَّالح، وما أصابهم مِن المَصائب بسبب الذُّنوب، كحال آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما لَقِي في عصيانه مِن الإخراج مِن الجَنَّة، وما جرى لداودَ وسليمانَ ويوسفَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولم يردِ القرآن هذه الأشياء إلَّا للاعتبار.

وكان مِن سعادتهم مُعاجَلتُهم بذلك، والأشقياء يُمهَلون؛ ليزدادوا إثمًا، ولأنَّ عذاب الآخرة أشدُّ، فينبغي أنْ يُكثر مِن هذا على أسماع المُصِرِّين، فإنَّه نافعٌ في تحريك دواعي التَّوبة.

النَّوع الثَّالث: أنْ يُقرِّر عندهم أنَّ تعجيل العقوبة في الدُّنيا مُتوقَّعٌ، وأنَّ كلَّ ما يُصيب العبد مِن المصائب فهو سبب جناياته، فرُبَّ عبدٍ يَتساهَل في أَمْر الآخرة يَخاف عقوبة الدُّنيا أكثرَ؛ لفَرْط جهله، والذُّنوب قد يُتعجَّل في الدُّنيا شُؤمها، كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ العَبدَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بِالذَّنبِ يُصِيبُهُ**»[١].

وقال الفضيل بن عياضٍ[٢]: إنِّي لأَعصي الله، فأعرف ذلك في خُلُق حِماري وخادمي[٣].

وقال أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ[٤]: ....

---

(١) رواه ابن حبان (٨٧٢) عن ثوبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الفُضيل بن عياض بن مسعودٍ التَّميميُّ اليربوعيُّ، أبو عليٍّ، شيخ الحرم المكِّيِّ، مِن أكابر العِباد الصُّلحاء، وُلد سنة ١٠٥هـ، كان ثقةً في الحديث، حدَّث عن منصورٍ، والأعمش، وجعفرٍ الصادق، وأخذ عنه خَلقٌ، منهم الإمام الشَّافعيُّ ويحيى القطَّان، وابن المبارك. وُلد في سمرقندَ، ونشأ بأبيوردَ، ودخل الكوفة، وأصله منها. ثُمَّ سكن مكَّةَ، وتوفِّي بها سنة ١٨٧هـ. انظر «سير أعلام النُّبلاء» (٨/ ٤٢١)، «الأعلام» (٥/ ١٥٣).

(٣) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٩).

(٤) أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ عبد الرَّحمن بن أحمد وقيل: عبد الرَّحمن بن عطيَّةَ العنسي المذحجي الإمام، الكبير، زاهد العصر، مِن أهل داريًّا (بغوطة دمشقَ) رحل إلى بغدادَ، وأقام بها مدَّةً، ثُمَّ عاد إلى الشَّام،=

الاحتلام عقوبةٌ(١). ولا تَفوت أَحدًا صلاةٌ إلاَّ بذَنْبٍ يُذنبه.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن المؤمن إذا أذنب كانَ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ** عَزَّ وَجَلَّ **في كِتابِهِ:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» قال التِّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ(٢).

وقال الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الحسنة نورٌ في القلب، وقوَّةٌ في البدن، والسَّيِّئة ظُلمةٌ في القلب، ووهنٌ في البدن.

النَّوع الرَّابع: ذكر ما ورد مِن العقوبات في آحاد الذُّنوب، كشُرب الخمر، والزِّنى، والقتل، والكبر، والحسد، والغِيبة.

وينبغي أنْ يكون طبيبًا يَعلم الدَّاء، ويدري كيف يَصنع الدَّواء، فإنَّ رجلًا سأل النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أوصني. قال: «**لا تَغضَبْ**»(٣).

وقال آخَرُ: أوصني. فقال: «**عَليكَ بِاليَأسِ مِمَّا في أَيدِي النَّاسِ**»(٤).

فكأنَّه تخايَلَ في الأوَّل مَخايِل الغضب، وفي الثَّاني مَخايِل الطَّمع.

وهذا الذي ذَكَرنا هو علاج الغَفلة، فيبقى علاج الشَّهوة، وطريق علاجها يُؤخَذ ممَّا ذكرنا في كتاب «رياضة النَّفْس» ولا بدَّ مِن الصَّبر، فإنَّ المريض إنَّما يطول مرضه؛

= وتوفِّي في بلده. كان مِن كِبار المُتصوِّفين، له أخبارٌ في الزُّهد، ولد في حدود الأربعين ومائةٍ، روى عن سفيانَ الثَّوريِّ، وأبي الأشهب العطارديِّ، وعلقمةَ بن سويدٍ، وعنه أحمدُ بن أبي الحواريِّ، وهاشم بن خالدٍ، وحميد بن هشام العنسيِّ، انظر «سير أعلام النُّبلاء»، (١٠/ ١٨٢)، «تقريب التَّهذيب»، (ص٣٤٢)، «الأعلام»، (٣/ ٢٩٣).

(١) ذكره أبو نُعيم في «الحلية» (٩/ ٢٦٦).

(٢) التِّرمذيُّ (٣٣٣٤).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٦٥) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه الحاكم (٧٩٢٨) وقال: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد، ولم يُخرِّجاه، ووافقه الذَّهبيُّ.

لتناوله ما يَضرُّه، وإنَّما يَحمله على ذلك شدَّةُ شهوته، أو غَفلتِه عن مَضرَّته، فلا بدَّ مِن مرارة الصَّبر، وكذلك يُعالج الشَّهوة في المعاصي، كالشَّابِّ مثلًا إذا غَلَبته الشَّهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السَّعي وراء الشَّهوة، فينبغي أنْ يستحضر المُخوِّفات التي جاءت في كتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا اشتدَّ خوفه تباعَد عن الأسباب المُهيِّجة للشَّهوة.

والذي يُهيِّج الشَّهوة مِن خارجٍ، هو حُضور المُشتهَى، والنَّظر إليه، وعلاجه الجوع، والصَّوم الدَّائم، وكلُّ ذلك لا يتمُّ إلَّا بصبْرٍ، ولا يَصبر إلَّا عن خوفٍ، ولا يَخاف إلَّا عن عِلمٍ، ولا يَعلم إلَّا عن بصيرةٍ، فأوَّل الأمر حُضور مجالِس الذِّكْر، والاستماع بقلبٍ مُجرَّدٍ عن الشَّواغل، ثُمَّ التَّفكُّر فيما قيل، فينبعث الخوف، ويسهل الصَّبر، وتتيسر الدَّواعي لطلب العلاج، وتوفيقُ الحقِّ سبحانه مِن وراء ذلك كلِّه.

فإنْ قيل: ما بال الإنسان يقع في الذَّنب مع عِلمه بقُبح عواقبه؟

فعن ذلك أجوبةٌ، منها: أنَّ العقاب الموعود ليس بحاضرٍ.

ومنها: أنَّ المؤمِن إذا أذنب لا بدَّ أنْ يعزمَ على التَّوبة، وقد وُعد أنَّ التَّوبة تَجبر ما فَعَل، وطُول الأمل غالبٌ على الطِّبَاع، فلا يَزال يُسوِّف بالتَّوبة، فلمَّا رجا التَّوبة أَقبل على الذَّنب.

ومنها: أنْ يرجوَ عفوَ الله عنه.

وعلاجُ هذه الأسباب أنْ يفكِّر في نفسه أنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ؛ وأنَّه لا يأمَن هجوم الموت، ويُعالِج التَّسويف بالفِكر في أنَّ أكثر صِياح أهل النَّار مِن التَّسويف، والمُسوِّف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعلَّه لا يبقى، وإنْ بقيَ فرُبَّما لم يقدر على التَّرك غدًا كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلَّا لغَلَبة الشَّهوة، وهي غيرُ مُفارِقةٍ له غدًا؟ بل يتأكَّد بالاعتياد، ومِن هذا هلك المُسوِّفون؛ لأنَّهم يَظنُّون الفرق بين المُتماثِلَين، وما مِثال المُسوِّف إلَّا احتاج إلى قلع شجرةٍ، فرآها قويَّةً لا تَنقلع إلَّا بمشقَّةٍ

شديدةٍ، فقال: أُؤخِّرها سنةً، ثُمَّ أعود إليها، وهو لا يَعلم أنَّ الشَّجرة كلَّما بقيت ازداد رُسوخها، وهو كلَّما طال عمره ازداد ضَعفه، فالعجب مِن عجزه مع قُوَّته عن مُقاوَمتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغَلَبة إذا ضعفت وقويت.

وأمَّا انتظار عفو الله تعالى فعفوُ الله سبحانه مُمكِنٌ، إلَّا أنَّ الإنسان ينبغي له الأخذ [بالحزم][1]، وما مِثال ذلك إلاَّ كمَثل رَجلٍ أنفق أمواله كلَّها، وترك نفسه وعياله فقراءَ [منتظراً][2] مِن الله تعالى أنْ يرزقَه العُثور على كنزٍ في خُربةٍ، وهذا مُمكِنٌ، إلاَّ أنَّ صاحبه مُلقَّبٌ بالأحمق، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلمُ.

---

(١) ورد في " الأصل، خ " [بالجزم].
(٢) ورد في " المطبوع " [ينتظر].

كتاب الصبر والشكر

وهو شَطران:

الأوَّل في فضل الصَّبر، وحقيقته، وأقسامه، ونحوِ ذلك. وقد ذكر الله تعالى الصَّبر في القرآن في نحوٍ مِن تسعين مَوضِعًا، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدَّرجات، وجَعَلها ثمرةً له، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما مِن قُربة إلَّا وأَجرُها بتقديرٍ وحسابٍ، إلَّا الصَّبر، ولأجل كَون الصَّوم مِن الصَّبر قال الله تعالى: «**الصَّومُ لِي، وأَنَا أَجزِي بِه**»[(١)]. وقد وَعد الله الصَّابرين بأنَّه معهم، وجَمَع للصَّابِرين بين أُمورٍ لم يَجمعْها لغيرهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] والآيات في هذا كثيرةٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٠٥٤)، ومسلمٌ (١١٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا الأحاديث ففي «الصَّحيحَين»(١) مِن حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**ما أُعطِيَ أَحَدٌ عَطاءً خَيرًا وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ**». وفي حديثٍ آخَرَ: «**الصَّبرُ مِنَ الإيمَانِ بِمَنزِلَةِ الرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ**»(٢).

وقال الحسن: الصَّبر كنزٌ مِن كنوز الخير، لا يُعطيه الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا لعبدٍ كريمٍ عنده.

وكان بعض العارفِين في جَيبه رقعةٌ يُخرجها كلَّ ساعةٍ، فيُطالِعها، وفيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

واعلم أنَّ الصَّبر مِن خاصِّيَّة الإنسان، ولا يُتصوَّر في البهائم؛ لنقصانها، وغَلَبةِ الشَّهوات عليها مِن غيرِ شيءٍ يُقابِلها، ولا يُتصوَّر الصَّبر أيضًا في الملائكة؛ لكمالها، فإنَّ الملائكة جُرِّدوا للشَّوق إلى حَضرة الرُّبوبيَّة، ولم تُسلَّط عليهم شهوةٌ صارفةٌ عنها حتى يَحتاج إلى مُصادَمةِ ما يَصُدُّها عن حَضرة الجلال.

وأمَّا الإنسان فإنَّه خلَق في ابتداء الصِّبى ناقصًا مِثل البهيمة، لم يُخلَقْ فيه إلَّا شهوةُ الغِذاء الذي هو مُحتاجٌ إليه، ثُمَّ تظهر فيه شهوة اللَّعب والزِّينة، ثُمَّ شهوة النِّكاح، وليس له قوَّة الصَّبر، فإذا تَحرَّك العقل وقَوي ظهرت مَبادِئ إشراق نور الهداية عند سنِّ التَّمييز، وينمو على التَّدرُّج إلى سنِّ البلوغ، كما يبدو نُور الصُّبح إلى أنْ يَطلعَ قرص الشَّمس، ولكنَّها هدايةٌ قاصرةٌ لا مُرشِدَ لها إلى مَصالِح الآخرة، فإذا عَقَد بمعرفة الشَّرع تَلمَّح ما يَتعلَّق بالآخرة، وكَثُر سلاحه، إلَّا أنَّ الطَّبع يقتضي ما يُحبُّ، وباعث الشَّرع والعقل يَمنع، والحرب بينهما قائمةٌ، ومعركة هذا القِتال قلب العبد، فالصَّبر عبارةٌ عن ثبات باعث الدِّين في مُقابَلة باعث الشَّهوات، فإنْ ثبت حتى قَهَر الشَّهوة

---

(١) رواه البخاريُّ (١٤٠٠)، ومسلمٌ (١٠٥٣).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٠) وابن أبي شيبةَ في «مصنَّفه» (٣٠٤٣٩) مِن قول عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ١٥١): أخرجه أبو منصورٍ الدَّيلميُّ في «مسند الفردوس» مِن رواية يزيدَ الرَّقاشيِّ عن أنسٍ مرفوعًا، ويزيدُ ضعيفٌ.

الْتَحَق بالصَّابِرِين، وإنْ ضَعُف حتى غَلبت الشَّهوة، ولم يصبر على دَفْعها، الْتَحق بأتباع الشَّياطين، وإذا ثبت أنَّ الصَّبر عِبارةٌ عن ثبات باعث الدِّين في مُقاوَمة الهوى، فهذه المُقاوَمة مِن خاصَّة الآدميِّين.

فَصْلٌ

اعلم أنَّ الصَّبر على ضربَين:

أحدها: بدنيٌّ، كتحمُّل المَشاقِّ بالبدن، وكتَعاطي الأعمال الشَّاقَّة مِن العبادات، أو مِن غيرها.

الضَّرب الآخَر: هو الصَّبر النَّفسانِيُّ عن مُشتهَيات الطَّبع، ومقتضيات الهوى، وهذا الضَّرب إنْ كان صبرًا عن شهوة البطن والفرج سمِّي عِفَّةً، وإنْ كان الصَّبر في قِتالٍ سمِّي شجاعةً، وإنْ كان في كظم غيظٍ سمِّي حِلمًا، وإنْ كان في نائبةٍ مضجرةٍ سمِّي سعة صدرٍ، وإنْ كان في إخفاء أمرٍ سمِّي كتمان سرٍّ، وإنْ كان في فضول عيشٍ سمِّي زُهدًا، وإنْ كان صبرًا على قدرٍ يسيرٍ مِن الحظوظ سمِّي قناعةً.

وأمَّا المصيب فإنَّه يُقتصر فيها على اسم الصَّبر، فقد بان بما ذكرنا أنَّ أكثر أخلاق الإيمان داخلةٌ في الصَّبر، وإنِ اختلفت الأسماء باختلاف المتعلَّقات.

ثُمَّ اعلم أنَّ العبد لا يستغني عن الصَّبر في كلِّ حالٍ مِن الأحوال، وذلك أنَّ جميع ما يَلقى العبد في الدُّنيا لا يخلو مِن نوعَين:

أحدهما: ما يُوافِق هواه، مِن الصِّحة، والسَّلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيرة والأتباع، وجميع ملاذِّ الدُّنيا، فالعبد مُحتاجٌ إلى الصَّبر في جميع هذه الأمور، فلا يَركن إليها، ولا يَنهمك في التَّلذذ بها، ويُراعي حقَّ الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحقِّ.

ومتى لم يضبطْ نفسه عن الانهماك في المَلاذِّ، والرُّكون إليها أخرجه ذلك إلى البَطَر والطُّغيان، حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلَّا صدِّيقٌ.

وقال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ابتُلينا بالضَّرَّاء فصبرنا، وابتُلينا بالسَّرَّاء، فلم نصبر(١).

ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

[فالرَّجل مَن يصبر](٢) على العافية، وهذا الصَّبر متَّصِل بالشُّكر، فلا يتمُّ إلاَّ بالقيام بحقِّ الشُّكر، وإنَّما كان الصَّبر على السَّرَّاء شديدًا؛ لأنَّه مقرونٌ بالقُدرة، والجائع عند غَيبة الطَّعام أقدرُ على الصَّبر منه عند حضور الطَّعام اللَّذيذ.

النَّوعُ الثَّاني المُخَالِفُ لِلْهَوَى، وَهُوَ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ

أحدها: الطَّاعات، فيَحتاج العبد إلى الصَّبر عليها؛ لأنَّ النَّفس بطبعها تنفر عن العبوديَّة.

ثُمَّ مِن العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصَّلاة، ومنها ما يُكره بسبب البُخل، كالزَّكاة، ومنها ما يُكره بسببهما جميعًا، كالحجِّ، والجهاد.

ويَحتاج المُريد إلى الصَّبر على طاعته في ثلاثة أحوالٍ:

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٦٤)، وعبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (٢١٩٢٢).

(٢) ورد في " المطبوع، ن " [فالرجل كل الرجل من يصبر]، وفي " خ " [فالرجل كامل من يصبر].

حالٌ قَبل العِبادة، وهي تصحيح النِّيَّة، والإخلاص والصَّبر عن شوائب الرِّياء.

وحالٌ في نفس العِبادة، وهي ألَّا يغفلَ عن الله تعالى في أثناء العِبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسُّنن، فيُلازم الصَّبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ مِن العمل.

الحالة الثَّالثة بعد الفراغ مِن العمل، وهي الصَّبر عن إفشائه، والتَّظاهر به لأجل الرِّياء والسُّمعة، وعن كلِّ ما يُبطل عمله، فمَن لم يصبر بعد الصَّدقة عن المَنِّ والأذى أبطلها.

القسم الثَّاني: الصَّبر عن المعاصي، وما أحوجَ العبد إلى ذلك.

ثُمَّ إنْ كان ذلك الفِعل ممَّا تيسَّر فِعْله، كمعاصي اللِّسان مِن الغيبة والكذب والمِراء ونحوه كان الصَّبر عليه أثقلَ، فترى الإنسان إذا لبس حريرًا، استنكر ذلك، ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، ومَن لم يملك لسانه في المحاوَرات، ولم يقدر على الصَّبر، فلم يُنجِّه إلَّا العزلة.

القسم الثَّالث: ما لا يَدخل تحت الاختيار، كالمَصائب، مِثل موت الأحبَّة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصِّحَّة، وسائر أنواع البلاء، فالصَّبر على ذلك مِن أعلى المَقامات؛ لأنَّ مستنده اليقين.

وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِه خَيرًا يُصِبْ مِنهُ**»[1].

وقريبٌ مِن هذا القسم الصَّبر على أذى النَّاس، كالذي يؤذَى بقولٍ أو فعلٍ أو جنايةٍ على نفسه أو ماله، والصَّبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصَّبر على أذى النَّاس مِن أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

---

(١) رواه البخاريّ (٥٣٢١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقد رُوي عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**الصَّبْرُ ثلاثةٌ: صَبْرٌ على المُصيبَةِ، وصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وصَبْرٌ عِنِ المَعْصِيَةِ، فَمَنْ صَبرَ على المُصيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بُحسْنِ عَزائِها كَتَبَ اللَّهُ له ثَلَاثَمَائَةِ درجةٍ، ما بين الدَّرجَةِ إلى الأُخرَى كما بين السَّماء والأَرْضِ، وَمَنْ صَبرَ على الطَّاعَة كُتِبَتْ لَهُ سِتمَائَةِ دَرَجَةٍ ما بين الدَّرجَةِ إلى الأُخرى كما بَيْنَ تُخُومِ الأَرْضِ إلى مُنْتَهى العَرْشِ، وَمَنْ صَبرَ عَنِ المعصِيَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعمائَةِ دَرجَةٍ، ما بين الدَّرَجَةِ إلى الدَّرَجَةِ كَمَا بين تُخُومِ الأَرضِ إلى مُنْتَهى العَرْشِ مَرَّتَيْنِ**»[١].

والأحاديث في فضائل الصَّبر كثيرةٌ، منها ما أخرجاه في «الصَّحيحَين»[٢] عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِن مُصِيبةٍ تُصِيبُ المُسلِمَ إلَّا كَفَّر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بها عنه، حتَّى الشَّوكةِ يُشاكُها**».

وفي حديثٍ آخر: «**ما يُصِيبُ المُسلِمَ مِن وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حَزنٍ، ولا أذًى، ولا غَمٍّ، حتَّى الشَّوكَةِ يُشاكُها إلَّا كَفَّرَ اللهُ لَه مِن خَطاياهُ**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[٣].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**لا يَزالُ البَلاءُ بِالمُؤمِنِ أو المُؤمِنَةِ في جَسَدِهِ وفي مالِهِ وفي وَلَدِهِ، حتَّى يَلقَى اللهَ وما عَلَيهِ خَطِيئَةٌ**»[٤].

---

(١) عزاه السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٥١٣٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (٦٥١٥) إلى ابن أبي الدُّنيا في «الصَّبر»، وأبي الشَّيخ في «الثَّواب»، عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورمز له السُّيوطيُّ بالضَّعف.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٣١٧)، ومسلمٌ (٢٥٧٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٣١٨)، ومسلمٌ (٢٥٧٣) عن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠١) وقال حديث حسن صحيح.

وفي حديث سعد بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ النَّاس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأمْثَلُ فَالأمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ في دِينِه صَلابَةٌ زِيدَ في بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنهُ، وما يَزَالُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ ولَيسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(١). قال التِّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وروينا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**قالَ اللهُ تعالَى: إذا وَجَّهتُ إلى عَبدٍ مِن عِبادِي مُصيبةً في بَدَنِهِ أو مالِه أو وَلَدِهِ، ثُمَّ استقبَلَ ذَلكَ بصَبرٍ جَميلٍ استَحيَيتُ مِنهُ يَومَ القِيامَةِ أنْ أنصِبَ له مِيزانًا، أو أنْشُرَ له دِيوانًا**»(٢).

فَصْلٌ

ومِن آداب الصَّبر استعماله في أوَّل صدمةٍ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّما الصَّبرُ عِندَ الصَّدمَةِ الأولى**»(٣). حديثٌ صحيحٌ.

ومِن الآداب الاسترجاع عند المصيبة؛ لحديث أمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو مِن رواية مسلمٍ(٤).

ومِن الآداب سكونُ الجوارح واللِّسان، فأمَّا البكاء فجائزٌ، قال بعض الحكماء: الجزَع لا يردُّ الفائت، ولكن يَسُرُّ الشَّامت.

ومِن حُسن الصَّبر ألَّا يظهر أثر المُصيبة على المُصاب، كما فَعلتْ أمُّ سُليمٍ امرأةُ أبي طلحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمَّا مات ابنها، وحديثها مشهورٌ في «صحيح مسلمٍ»(٥).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٩٩) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) رواه القضاعيُّ (١٤٦٢)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ١٧٢): أخرجه ابن عديٍّ مَن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

(٣) رواه البخاريُّ (١٢٢٣)، ومسلمٌ (٩٢٦).

(٤) رواه مسلمٌ (٩١٨).

(٥) رواه البخاريُّ (٥١٣٥)، ومسلمٌ (٢١٤٤).

وقال ثابتٌ البُنانِيُّ(١): مات عبد الله بن مُطرِّفٍ، فخرج مُطرِّفٌ على قومه في ثيابٍ حسنةٍ، وقد ادَّهن، فغضبوا، وقالوا: يموت عبد الله، ثُمَّ تخرج في ثيابٍ مِن هذه مدَّهِنًا؟ قال: أفأستكين لها، وقد وعدني ربِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثلاث خصالٍ، كلُّ خصلةٍ منها أحبُّ إليَّ مِن الدُّنيا وما فيها. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]. وقال مطرِّفٌ: ما شيءٌ أُعطى به في الآخرة قَدر كوزٍ مِن ماءٍ إلَّا وَدِدتُ أنَّه أُخذ منِّي في الدُّنيا(٢).

وكان صِلة بن أشيمَ(٣) في مغزًى له، ومعه ابنه، فقال: أي بُنيَّ، تقدَّم فقاتِل حتى أَحتسِبكَ. فحَمل فقاتل حتى قُتل، ثُمَّ تقدَّم فقُتل، فاجتمع النِّساء عند أمِّه معاذةَ العدويَّة(٤)، فقالت: مرحبًا إنْ كنتُنَّ جئتُنَّ تهنِّئنني، وإنْ كنتُنَّ جئتُنَّ لغير ذلك فارجِعنَ(٥).

وإذا كانت المصيبة ممَّا يُمكن كتمانها، فكتمانها مِن نِعم الله عَزَّوَجَلَّ الخفيَّة.

وروى أبو هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَيَقُولُ: انْظُرَا مَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ. فَإِنْ هُوَ حَمِدَ اللهَ تَعَالَى إذا دَخَلُوا عَلَيهِ رَفَعَا**

---

(١) ثابت بن أسلم أبو محمَّدٍ البُنانِيُّ، حدَّث عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبير، وأنس بن مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وغيرهم، وحدَّث عنه عطاء بن أبي رباح، وقتادة، وابن جدعان وغيرهم، توفِّي سنة بضعٍ وعشرين. انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص١٣٢)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٢٢٠).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٦٩١)

(٣) صلة بن أشيم أبو الصَّهباء العدويُّ، مِن التَّابعين، حدَّث عنه زوجته معاذة، والحسن، وحميد بن هلال، وثابت البنانيُّ، وغيرهم، توفِّي سنة (٣٥). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٣/ ٣٧٤)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٣/ ٤٩٧).

(٤) معاذة بنت عبد الله أمُّ الصَّهباء العدويَّة، روت عن عليِّ بن أبي طالبٍ، وعائشةَ، وهشام بن عامر، وحدَّث عنها أبو قلابة الجرميُّ، ويزيد الرشك، وعاصمٌ الأحول وغيرهم، توفِّيت سنة (٨٣). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٥٠٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٢٥٩).

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ٢٣٩).

ذَلِكَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: لِعَبْدِي إِنْ أَنَا تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ خَطَايَاهُ»[١].

وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِن إجلال الله، ومعرفة حقِّه ألَّا تشكوَ وجعك، ولا تذكر مصيبتكَ[٢].

وقال الأحنف[٣]: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنةً، ما ذكرتُها لَأحدٍ[٤].

وقال رجلٌ للإمام أحمدَ: كيف تجدكُ يا أبا عبد الله؟ قال: بخيرٍ في عافيةٍ. فقال له: حُمِمتَ البارحة. قال: إذا قلتُ لك: أنا في عافيةٍ فحسبُك، لا تُخرجني إلى ما أكره.

وقال شقيقٌ البلخيُّ: مَن شكا مصيبةً به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوةً أبدًا[٥].

وقال الحكماء: مِن كنوز البرِّ كِتمان المصائب، وقد كانوا يَفرحون بالمصائب نظرًا إلى ثوابها، وحكاياتهم مشهورةٌ في ذلك.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٤٧١)، ومالكٌ في «الموطَّأ» (٢/ ٩٤٠) وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٤٨٣): أخرجه مالكٌ في «الموطَّأ» مرسَلًا مِن حديث عطاء بن يسارٍ، ووصله ابن عبد البَرِّ في «التَّمهيد» مِن روايته عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه عبَّاد بن كثيرٍ الثَّقفيُّ ضعيف الحديث، وللبيهقيِّ مِن حديث أبي هريرةَ «**قَالَ اللهُ تَعالَى: إذا ابتَليتُ عَبدِي المُؤمِنَ، فلم يَشكُني إلى عُوَّادِهِ أطلَقتُه مِن أسارِي، ثُمَّ أُبدله لَحمًا خيرًا مِن لَحمِه، وَدَمًا خَيرًا مِن دَمِه، ثُمَّ يَستأنِفُ العَمَلَ**» وإسناده جيِّدٌ.

(٢) قال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ١٧٧): لم أجده مرفوعًا، وإنَّما رواه ابن أبي الدُّنيا في المرض والكفَّارات مِن رواية سفيانَ عن بعض الفقهاء قال: «مِن الصَّبر ألَّا تَتحدَّث بمصيبتكَ ولا بوجعكَ، ولا تزكِّي نفسك».

(٣) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التَّميميُّ، اسمه ضحَّاك، وقيل: صخر. وشهر بالأحنف؛ لحَنَف رِجلَيه، وهو العوج والميل، كان سيِّد تميم، أسلم في حياة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفد على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حدَّث عن عمر، وعليٍّ، وأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وحدَّث عنه عمرو بن جاوان، والحسن البصريُّ، وعروةُ بن الزُّبير توفي سنة (٧٢). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٨٦)، «الأعلام»، الزِّركليُّ (١/ ٢٧٦).

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٥٨٣).

(٥) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٦٠١).

منها ما رُوي أنَّ عبد الملك بن عمرَ بن عبد العزيز لمَّا مات دفنه عمرُ، وسوَّى عليه، ثُمَّ استوى قائمًا، فأحاط به النَّاس، فقال: رحمكَ الله يا بُنيَّ، قد كنت برًّا بأبيك، والله ما زلتُ منذ وهبكَ الله لي مسرورًا بك، ولا والله ما كنتُ قطُّ أشدُّ بك سرورًا، ولا أرجى بحظِّي مِن الله تعالى فيك منذ وضعتُك في هذا المنزل الذي صيَّرك الله إليه.

فإنْ قيل: إنْ كان المُراد مِن الصَّبر عدم كراهية المصائب فلا قدرة للآدميِّ على ذلك، وإنْ كان الفرح بوجودها كما حكيتُم، فهو أبعدُ.

والجواب: أنَّ الصَّبر لا يكون إلَّا عن محبوبٍ، أو على مكروهٍ، ولا يُنهى عمَّا لا يدخل تحت الكَسب، وهو انزعاج الباطِن، وإنَّما يُنهى عن المكتسَب، كشقِّ الجُيوب، ولطم الخُدود، والقول باللِّسان، فأمَّا ما ذَكَرنا مِن فَرَح بعضهم فذلك فَرحٌ شرعيٌّ لا طبعيٌّ؛ إذ الطَّبع لا بدَّ له مِن كراهة المصائب.

ومِثال هذا مِثال رجلٍ مريضٍ وُصف له شربةٌ لمرضه، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالًا، فلمَّا تمَّت، فَرِح بتمامها، وتناولها لِما يرجو لها مِن العافية، فأمَّا طبعه، فما زالت عنه كراهةُ التَّناول أصلًا، ولو أنَّ مَلِكًا قال لرجلٍ فقيرٍ: كلَّما ضربتُك بهذا العُود اللَّطيف ضربةً أعطيتُكَ ألف دينارٍ. لأحبَّ كثرة الضَّرب، لا لأنَّه لا يُؤلِم، ولكنْ لِما يرجو مِن عاقبته، وإنْ أنكاه الضَّرب، فكذلك السَّلف تلمَّحوا الثَّواب، فهان عليهم البلاء.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ دَوَاءِ الصَّبْرِ وَمَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَيْهِ

اعلم أنَّ الذي أنزل الدَّاء أنزل الدَّواء، ووعد بالشِّفاء، فالصَّبر وإنْ كان شاقًّا فتحصيله مُمكِنٌ بمعجون العِلم والعمل، فمنهما تُركَّب الأدوية لأمراض القلوب كلِّها، فيَحتاج كلُّ مرضٍ إلى عِلمٍ وعملٍ يليق به، فإنَّ العِلل إذا اختَلفت اختَلف العِلاج؛ إذ معنى العلاج: مضادَّة العِلَّة.

ونضرب لك مثالًا، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصَّبر عن شهوة الجِماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياءَ:

أحدها: مواظَبة الصَّوم، والاقتصار عند الإفطار على قليلٍ مِن الطَّعام.

الثَّاني: قطع أسبابه المُهيِّجة، إنَّما يُهيَّج بالنَّظر، والنَّظر بالقلب، والقلب يحرِّك الشَّهوة، ودواءُ هذا العزلةُ، والاحترازُ عن مَظانِّ وقوع البصر على الصُّوَر المشتهاة، فإنَّ النَّظر سهمٌ مسمومٌ مِن سهام إبليسَ، ولا يَمنع عنه إلَّا [قميص][1] الجفن أو الهرب.

الثَّالث: تسلية النَّفس بالمُباح مِن جنس المشتهَى، وذلك بالنِّكاح، وكلُّ ما يشتهيه الطَّبع مِن الحرام، ففي المباحات غُنيةٌ عنه، وهذا هو العلاج الأرفع في حقِّ أكثر النَّاس؛ لأنَّ قطع الغِذاء يُضعِف، ولا يَقمع الشَّهوة بخلاف هذا.

وينبغي للإنسان أنْ يعوِّد نفسه المجاهَدة، فإنَّ مَن عوَّد نفسه مخالَفة الهوى غلبها متى أراد.

واعلم أنَّ أَشدَّ أنواع الصَّبر والمجاهَدة كفُّ الباطِن مِن حديث النَّفس، وإنَّما يَشتدُّ ذلك على مَن تفرَّغ واعتزل، فإنَّ الوساوس لا تزال تُجاذِبه، ولا علاجَ لهذا إلَّا قطع العلائق، وجَعْل الهَمِّ همًّا واحدًا، وصَرْف الفِكر إلى ملكوت السَّموات والأرض، وعجائب صنع الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله مجاذَبة الشَّيطان ووسواسه، وإنْ لم يكنْ له سير الباطِن فلا يُنجيه إلَّا الأوراد المتواصِلة مِن القراءة، والأذكار، والصَّلوات، ويَحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور؛ فإنَّ الفِكر الباطِن هو الذي يَستغرق القلب دون الأوراد الظَّاهرة، فهذا الذي يُمكن أنْ يُنال بالاكتساب والجهد.

---

(١) ورد في "المطبوع" [غمض].

فأمَّا مقادير ما ينكشف، ومبالِغ ما يرد مِن لطف الله تعالى مِن الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصَّيد، وهو بحسب الرِّزق، فقد يَقِّل الجهد، ويكثر الصَّيد، وقد يطول الجهد، ويقلُّ الصيد، والمعوَّل وراء هذا الاجتهاد على جذبةٍ مِن جذبات الرَّحمن عَزَّوَجَلَّ، فإنَّها تُوازي أعمال الثَّقلَين، وليس ذلك إلى اختيار العبد، بل اختياره أنْ يتعرَّض لتلك الجذبة، بأنْ يُقلع عن قلبه جواذب الدُّنيا، فإنَّ المجذوب إلى أسفل سافِلين لا يُجذب إلى أعلى عِلِّيِّين، وكلُّ منهومٍ بالدُّنيا هو منجذبٌ إليها، فقطع العلائق الجاذبة هو المُراد بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ لِرَبِّكُم في أَيَّامِ دَهرِكُم نَفَحاتٍ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَها**»(١).

فالذي علينا تفريغ المَحَلِّ، والانتظار لنزول الرَّحمة، كالذي يُصلح الأرض وينقِّيها مِن الحشيش، ويضع فيها البذر، وكلُّ ذلك لا ينفع إلَّا بمطرٍ، ولا يدري متى يقدِّر الله أسباب المطر، إلَّا أنَّه يثق بفضل الله تعالى أنَّه لا يخلي سَنَةً عن مطرٍ، وكذلك قلَّما تخلو سَنَةٌ وشهرٌ ويومٌ عن جذبةٍ مِن الجذبات، ونفحةٍ مِن النفحات.

فينبغي أنْ يكون قد طهَّر القلب مِن حشيش الشَّهوات، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص، وعرَّضه لمهابِّ ريح [المطر](٢)، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الرَّبيع عند ظهور الغيم، كذلك انتظار تلك النَّفحات في الأوقات الشَّريفة، وعند اجتماع الهِمم ونشاط القلوب، كيوم عرفةَ، ويوم الجمعة، وفي رمضانَ، والهِمم والأنفاس أسبابٌ لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في «الكبير» (٥١٩)، و«الأوسط» (٢٨٥٦)، ورمز له السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٢٣٩٨) بالضَّعف، وقال العراقيُّ في «المغني» (٢/ ٤٧): أخرجه الحكيم في «النَّوادر» والطَّبرانِيُّ في «الأوسط» مِن حديث محمَّد بن مسلمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» نحوه مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورواه ابن أبي الدُّنيا في «كتاب الفرج» مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واختُلف في إسناده.

(٢) ورد في " المطبوع، ن " [الرحمة].

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

وقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقَطَع بالمزيد مع الشُّكر فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [ابراهيم: ٧]، مع كونه وقف أشياءَ كثيرةً غيره على المشيئة كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٥].

ولمَّا عَرف إبليسُ قدر الشُّكر قال في الطَّعن على بني آدمَ: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ورُوي أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام حتى تفطَّرت قدماه، فقالت له عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أتصنع هذا وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم مِن ذَنْبِك وما تأخَّر؟ قال: «**أَفَلا أَكُونُ عَبدًا شَكُورًا**»[١].

وعن معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أُحِبُّكَ، فَقُلْ: اللَّهمَّ أَعِنِّي عَلى ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبادَتِكَ**»[٢].

فَصْلٌ

والشُّكر يكون بالقلب، واللِّسان، والجوارح.

أمَّا بالقلب فهو أنْ يقصدَ الخير، ويُضمره للخَلْق كافَّةً.

وأمَّا باللِّسان فهو إظهار الشُّكر لله بالتَّحميد.

وأمَّا بالجوارح فهو استعمال نِعم الله في طاعته، والتَّوقِّي مِن الاستعانة بها على معصيته، فمِن شُكر العينَين أنْ تستر كلَّ عيبٍ تراه لمسلمٍ، ومِن شُكر الأذنَين أنْ تستر كلَّ عيبٍ تسمعه، فهذا يدخل في جملة شُكر هذه الأعضاء.

والشُّكر باللِّسان: إظهارُ الرِّضى عن الله تعالى، وهو مأمورٌ به، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التَّحدُّثُ بِالنِّعَمِ شُكْرٌ، وَتَركُها كُفرٌ**»[٣].

ورُوي أنَّ رَجلَين مِن الأنصار التقيا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحتَ؟ فقال: الحمد لله. فقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُولُوا هَكَذا**»[٤].

---

(١) رواه مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البخاريُّ (٤٥٥٧)، ومسلمٌ (٢٨٢٠)، ومِن حديث المغيرة بن شعبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البخاريُّ (١٠٧٨)، ومسلمٌ (٢٨١٩).

(٢) رواه أبو داودَ (١٥٢١)، وأحمدُ (٢٢١١٩) وابن السُّنِّيِّ في «عمل اليوم واللَّيلة» (١١٨).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤١٠٥)، و«أحمد» (١٨٤٤٩)، و«الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٨٤).

(٤) روى نحوه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٣٧) و«الأوسط» (٤٣٧٧)، وقال الحافظ العراقيُّ في «المغني» (٨/ ١٩٢): أخرجه الطَّبرانيُّ في الدُّعاء مِن رواية الفضيل بن عمرو مرفوعًا نحوه، قال في الثَّالثة: أحمد الله. وهذا مُعضَلٌ، ورواه في المعجم الكبير مِن حديث عبد الله بن عمرٍو، ليس فيه تكرار=

ورُوي أنَّ رَجلًا سلَّم على عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرَدَّ عليه، ثُمَّ قال له عمرُ: كيف أصبحتَ؟ قال: أَحمدُ الله. فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذاكَ الذي أردتُ(١).

وقد كان السَّلف يتساءلون، ومُرادهم استخراج الشُّكر لله، فيكون الشَّاكر مُطيعًا، والمستنطِق مُطيعًا.

وقال أبو عبد الرَّحمن الحُبليُّ(٢): إنَّ الرَّجل إذا سلَّم على الرَّجل، وسأله كيف أصبحتَ؟ فقال له الآخر: أَحمد الله إليكَ، قال: يقول المَلَك الذي عن يساره للذي عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: اكتبه مِن [الحامِدِين](٣). فكان أبو عبد الله إذا سُئل: كيف أصبحتَ؟ يقول: أحمد الله إليكَ، وإلى جميع خَلْقه.

فَصْلٌ

اعلم أنَّ فِعْل الشُّكر وترك الكُفران، لا يتمُّ إلَّا بمعرفة ما يُحبِّه الله تعالى؛ إذ معنى الشُّكر استعمال نِعَمه في محابِّه، ومعنى الكُفران نقيض ذلك، إمَّا بترك الاستعمال، أو استعماله فيما يكرهه.

ولتمييز ما يُحبُّه الله فيما يَكرهه مدركان:

أحدهما: السَّمع، ومستنَده بالآيات.

= السُّؤال، وقال: أحمد الله إليك، وفيه راشد بن سعدٍ، ضعَّفه الجمهور؛ لسوء حِفظه، ورواه مالكٌ في «الموطَّأ» موقوفًا على عمرَ بإسنادٍ صحيحٍ.

(١) رواه البخاريُّ في «الأدب المفرَد» (١١٣٢)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٤١٣٦)، ومالكٌ في «الموطَّأ» (٩٢٦).

(٢) عبد الله بن يزيدَ أبو عبد الرَّحمن الحُبليُّ المعافريُّ المِصريُّ، روى عن جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وروى عنه بكر بن سوادةَ الجذاميُّ، وأبو هانئٍ حميد بن هانئٍ الخولانيُّ، وغيرهما، توفِّي بأفريقيَّةَ سنة (١٠٠). انظر «مغاني الأخبار»، بدر الدِّين العينيِّ، (٢/ ١٥٣).

(٣) ورد في "خ، ن" [الحمادين].

والثَّاني: بصيرة القلب، وهو النَّظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسيرٌ عزيزٌ، ولذلك أرسل الله تعالى الرُّسل، وسهَّل بهم الطُّرُق على الخَلْق، ومعرفة ذلك تُبنى على معرفة جميع أحكام الشَّرع في أفعال العِباد، فمَن لا يطَّلع على حُكم الشَّرع في جميع أفعاله لم يُمكنه القيام بحقِّ الشُّكر أصلًا.

وأمَّا الثَّاني: وهو النَّظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كلِّ موجودٍ خَلَقه؛ إذ ما خلق الله تعالى شيئًا في العالَم إلَّا وفيه حكمةٌ، وتحت الحكمة مقصودٌ، وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسِمةٌ إلى جليَّةٍ وخفيةٍ.

أمَّا الجلية، فكالعالِم بأنَّ الحكمة في خَلْق الشَّمس أنْ يحصل اللَّيل والنَّهار، فيكون النَّهار مَعاشًا، واللَّيل سُباتًا، فتتيسَّر الحركة عند الإبصار، والسُّكون عند الاستتار، فهذا مِن جُملة حِكَم الشَّمس، لا كلُّ الحكمة فيها، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار.

وأمَّا الحكمة في خَلْق الكواكب فخفيَّةٌ لا يطَّلع عليها كلُّ الخَلْق، وقد يطَّلعون على بعض ما فيها مِن الحِكَم، نحو كونها زينةً للسَّماء، وجميع أجزاء العالَم لا تخلو منه ذَرَّةٌ عن حكمةٍ، وكذلك أعضاء الحيوان، منها ما تَبين حكمته بيانًا ظاهرًا، كالعِلم بأنَّ العين للأبصار، واليد للبطش، والرِّجل للمشي.

فأمَّا الأعضاء الباطِنة، كالمَرارة، والكلية والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها مِن التَّجاويف والرِّقَّة والغِلظة فلا يَعرف الحكمة فيها كلُّ النَّاس، والذين يَعرفونها إنَّما يعرفون منها قَدرًا يَسيرًا بالنِّسبة إلى عِلم الله تعالى، فكلُّ مَنِ استعمل شيئًا في جهةٍ غيرِ الجهة التي خُلِق لها ذلك الشَّيءُ على غير الوجه الذي أُريد به، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه، فمَن ضَرب غيره بيده بغير حقٍّ فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد؛ لأنَّها خُلِقت؛ ليَدفع بها عن نفسه ما يُؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا لِيؤذيَ بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى مُحرَّم فقد كفر نعمتها، ونعمة الشَّمس أيضًا؛ إذ الإبصار يتمُّ بها، فالعين والشَّمس خُلِقتا ليُبصِر بهما ما ينفعه في دِينه ودنياه، ويتَّقيَ بهما ما يَضرُّه فيهما.

واعلم أنَّ المُراد مِن خَلْق الخَلْق، وخَلْق الدُّنيا وأسبابها أنْ يستعينَ بها الخَلْق على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصولَ إليه إلَّا بمحبَّته، والأُنس به في الدُّنيا، والتَّجافِي عن غرور الدُّنيا، ولا أنسَ إلَّا بدوام الذِّكر، ولا محبَّة إلَّا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفِكر، ولا يُمكن الدَّوام على الذِّكر والفِكر إلَّا بدوام البَدَن، ولا يبقى البدن إلَّا بالأرض والماء والهواء، ولا يتمُّ ذلك إلَّا بخَلْق السَّماء والأرض، وخلق جميع الأعضاء الباطِنة والظَّاهرة، وكلُّ ذلك لأجل البَدَن، والبَدَن مَطيَّة النَّفس، والرَّاجع إلى الله هي النَّفس المطمئنَّة بطُول العِبادة والمعرفة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكلُّ مَنِ استعمل شيئًا في غير طاعة الله فقد كفر نِعمة الله في جميع الأسباب التي لا بدَّ منها، لإقدامه على تلك المَعصية.

ولنَذكر مثالًا واحدًا للحِكَم الخفية التي ليست في غاية الخفاء، حتى يُعتبر بها، ويُعلم طريق الشُّكر والكفران على النِّعم، فنقول: مِن نعم الله تعالى خَلْق الدَّراهم والدَّنانير اللَّذين بهما قوام الدُّنيا، وهما حَجَران لا منفعةَ في أعيانهما، ولكنْ يضطرُّ الخَلْق إليهما، مِن حيث إنَّ كلَّ إنسانٍ يحتاج إلى أعيانٍ كثيرةٍ، في مطعَمه، ومشرَبه، وملبَسه، ومركَبه، وسائر حاجاته، وقد يعجز عمَّا يَحتاج إليه، ويملك ما يَستغني عنه، كمَن يملك قدرًا مِن الزَّعفران مثلًا، وهو يحتاج إلى جَمَلٍ يركبه، وآخَر يَملك الجَمَل، وربَّما استغنَى عنه، ويَحتاج إلى الزَّعفران، فلا بدَّ بينهما مِن معاوَضةٍ، ولا بدَّ في مقدار العِوض مِن تقديرٍ؛ إذ لا يَبذل صاحب الجَمَل جَمَله بكلِّ مقدارٍ مِن الزَّعفران، ولا مناسبةَ بين الزَّعفران والجَمَل، حتى يُعطى مِثله في الوزن والصُّورة.

وكذا مَن يشتري دارًا بثيابٍ، أو عبدًا بخفٍّ، أو دقيقًا بحمارٍ، فهذه الأشياء لا تَناسُب بينها، فخَلَق الله تعالى الدَّراهم والدَّنانير، حاكِمَين ومتوسِّطَين بين سائر الأموال، حتى تقدَّر بهما، فيُقال: هذا الجَمَل يُساوي مائةً، وهذا القَدر مِن الزَّعفران يُساوي مائةً، فحصل التَّساوي بينهما حينَئذٍ، وإنَّما أَمكَن التَّعديل بينهما بالنَّقدَين؛ إذ لا غرَض في

أعيانهما، فإنَّه لو كان في أعيانهما غرضٌ لم ينتظمْ الأمر، فخلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي، ويكونا حاكِمَين بين الأموال بالعدل، وجعلهما عزيزَين في أنفسهما، ونِسبتهما إلى سائر الأموال نسبةٌ واحدةٌ، فمَن مَلكهما فكأنَّه مَلَك كلَّ شيءٍ.

إذا عرفت حكمتهما فكلُّ مَن عمل فيهما عملًا يُخالف المقصود منهما، ولا يليق بحكمتهما قد كَفَر نعمة الله فيهما، فمَن كَنَزهما فقد أبطلهما، وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمَن حبس الحاكم بين المسلِمِين في سجنٍ يمتنع مِن الحُكم بسببه؛ لأنَّه ضيَّعهما، ومنع الأيدي مِن تداولهما، ولمَّا كان كثيرٌ مِن الخَلْق عاجزِين عن قراءة الأسطر الإلهيَّة المكتوبة على صفحات الموجودات بخطٍّ إلهيٍّ لا يُدرَك بعين البصر، بل بعين البصيرة، أخبرهم الله تعالى بكلامٍ سمعوه بواسطة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وكلُّ مَنِ اتَّخذ الدَّراهم والدَّنانير آنيةً فقد كفر نعمة الله فيهما؛ لأنَّه أسوأ حالًا ممَّن كَنَزهما.

ومِثال ذلك مَنِ استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي يقوم بها أخسُّ النَّاس، وذلك أنَّ الحديد والنُّحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذَّهب والفضَّة في حفظ المائعات، ولا تكفي تلك الأعيان عنهما، ولا يقوم مقامهما فيما أُريد بهما مِن كونهما قيم الأشياء، فمَن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرَّحمة الإلهيَّة، قيل له: «**مَنْ شَرِبَ في إناءِ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ، فَإنَّما يُجرجِرُ في بَطنِه نارُ جَهَنَّمَ**»(١). وكذلك كلُّ مَن عامَل

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٣١١)، ومسلم (٢٠٦٥) عن أمِّ سلمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوجِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دون ذكر الذهب، ومع ذِكر الذَّهب رواه مسلم (٢٠٦٥)، وقال البيهقيُّ في «الكبرى» بعد الحديث (٩٩): وأخرجه مسلمٌ عن أبي بكر بن أبي شيبةَ، والوليد بن شجاع، عن عليِّ بن مسهرٍ، عن عبيد الله بن عمرَ، عن نافعٍ، زاد: «**إنَّ الذي يَأكُلُ وَيَشرَبُ في آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ**». وذِكر الأكل والذَّهب غيرُ محفوظٍ في غير رواية عليِّ بن مسهرٍ. وقد رواه غير مسلمٍ، عن أبي بكر بن أبي شيبةَ، والوليد بن شجاعٍ دون ذِكرهما.

بالرِّبا في الدَّراهم والدَّنانير، فقد أَخرَجهما عن مقصودهما، فهذا مِثال لحكمةٍ خَفيَّةٍ مِن حِكَم النَّقدَين.

فينبغي أنْ تُعتبر شكر النِّعمة وكفرها بهذا المِثال في غيره مِن جميع أمورك، في حركتك، وسكونك، ونطقك، وسكوتك في كلِّ فصلٍ صادرٍ منك، إمَّا شكرًا أو عكسه، وهو الكفر، وبعض ذلك تصفه بالكراهة، وبعضه بالحظر.

ومِن ذلك أنَّ الله تعالى خَلَق لك يدَين، وجعل إحداهما أقوى مِن الأُخرى، فاستحقَّت بمزيد القوَّة رُجحانًا وشَرفًا على الأخرى، وقد أَحوَجك مَن أعطاك اليدَين إلى أعمالٍ، بعضها شريفةٍ كأَخْذ المصحف، وبعضها خسيسةٌ، كإزالة النَّجاسة، فإذا أَخذت المصحف باليسار، وأزلت النَّجاسة باليمين فقد عَكَست المقصود، وخَصَصت الشَّريف بما هو خسيسٌ، فظلمتَه.

وكذلك في الرِّجلَين إذا ابتدأت باليُسرى في لُبس الخفِّ، فقد ظلمت اليمنى؛ لأنَّ الخفَّ وقايةٌ للرِّجل، وقس على ذلك.

وكذلك نقول: مَن كسر غُصنًا مِن شجرةٍ لغير حاجةٍ مهمَّةٍ وغرضٍ صحيحٍ فقد خالَف الحكمة في خَلْق الأشجار؛ لأنَّها خُلقت للمنفعة بها، فإنْ كان كسره لغرضٍ صحيحٍ فلا بأسَ، وإنْ فعل ذلك في مِلك غيره فهو ظالمٌ، وإنْ كان مُحتاجًا، إلَّا أنْ يأذن صاحبه.

فَصْلٌ في بيانِ النِّعَمِ وحقيقتِها وأقسامِها

اعلم أنَّ كلَّ مطلوبٍ يُسمَّى نعمةً، ولكنَّ النِّعمة في الحقيقة هي السَّعادة الأُخرويَّة، وتسمية ما عداها نعمةً تجوُّزٌ، والأمور كلُّها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسامٍ:

أحدها: ما هو نافعٌ في الدُّنيا والآخرة جميعًا، كالعِلم، وحُسن الخُلق، وهو النِّعمة الحقيقيَّة.

الثَّاني: ما هو ضارٌّ فيهما جميعًا، وهو البلاء حقيقةً.

القسم الثَّالث: ما ينفع في الحال، ويضرُّ في المآل، كالتَّلذُّذ، واتِّباع الشَّهوات، فهو بلاءٌ عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنُّه نعمةً.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلًا فيه سُمٌّ، فإنَّه يَعدُّه نعمةً إنْ كان جاهلًا، فإذا عَلِم ذلك عدَّه بلاءً.

القسم الرَّابع: الضَّارُّ في الحال، النَّافع في المآل، وهو نعمةٌ عند ذوي الألباب، بلاءٌ عند الجُهَّال.

ومثاله: الدَّواء الشَّنيع مَذاقه في الحال، الشَّافي في المآل مِن الأسقام، فالصَّبيُّ الجاهل إذا كُلِّف شربه ظنَّه بلاءً، والعاقل يَعدُّه نعمةً، وكذلك إذا احتاج الصَّبيُّ إلى الحِجامة فإنَّ الأب يدعوه إليها، ويأمره بها؛ لِما يَلحظ في عاقبتها مِن الشِّفاء، والأمُّ تمنعه مِن ذلك؛ لفرط حبّها وشَفَقتها؛ لكونها جاهلةً بالمصلحة في ذلك، فالصَّبيُّ يتقلَّد منَّة أُمِّه بجهله، ويأنَس إليها دون أبيه، ويقدِّر أباه عدوًّا، ولو عَقل لعَلِم أنَّ الأمَّ هي العدوُّ الباطِن في صورة صديقٍ؛ لأنَّ منعَها إيَّاه مِن الحجامة يسوقه إلى أمراضٍ أَلَمُها أَشدُّ مِن ألم الحِجامة، فالصَّديق الجاهل شرٌّ مِن العدوِّ العاقل، وكلُّ إنسانٍ صديقُ نفسه، ولكنَّ النَّفس صديقٌ جاهلٌ، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدوُّ.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ كَثْرَةِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَسَلْسُلِهَا وَخُرُوجِهَا عَنِ الْحَصْرِ وَالْإِحْصَاءِ

اعلم أنَّ النِّعَم تنقسم إلى ما هو غايةٌ مطلوبةٌ لِذَاتها، وإلى ما هو مطلوبٌ لأجل الغاية.

أمَّا الغاية فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمورٍ: بقاءٌ لا فناءَ له، وسرورٌ لا غَمَّ فيه، وعِلمٌ لا جهلَ معه، وغنًى لا فقرَ بعده، وهي السَّعادة الحقيقيَّة.

وأمَّا القسم الثَّاني: فهو الوسائل إلى السَّعادة المذكورة، وهي أربعة أقسامٍ:

أعلاها: فضائل النَّفس، كالإيمان، وحُسن الخُلق.

الثَّاني: فضائل البَدَن، مِن القوَّة والصِّحَّة ونحوهما.

الثَّالث: النِّعَم [المُطبقة](١) بالبدن، مِن المال والجاه والأهل.

الرَّابع: الأسباب التي جُمع بينها وبين ما يُناسب الفضائل، مِن الهداية والإرشاد، والتَّسديد، والتَّأييد، وكلُّ هذه نِعَمٌ عظيمةٌ.

فإنْ قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النِّعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما؟

قلنا: هذه الأشياء جاريةٌ مجرى الجناح المُباح، والآلة المستعمَلة للمقصود.

أمَّا المال فإنَّ طالب العِلم إذا لم تكن معه كفايةٌ كان كساعٍ إلى الهيجاء بغير سلاحٍ، ولأنَّه يبقى مستغرِق الأوقات في طلب القُوت، فيشغله عن تحصيل العِلم، وعن الذِّكر، والفِكر، ونحو ذلك.

وأمَّا الجاه فيه فيَدفع الإنسان عن نفسه الذُّلَّ والضَّيم، ولا ينفكُّ عن عدوٍّ يُؤذيه، وظالمٍ يهوِّش عليه، فيَشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنَّما تُدفع هذه الشَّواغل بالعِزِّ والجاه.

وأمَّا الصِّحَّة والقوَّة وطول العمر ونحوها فهي نِعمٌ؛ إذ لا يتمُّ عِلمٌ ولا عملٌ إلَّا بذلك.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**نِعمَتانِ مَغبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، والفَرَاغُ**»(٢).

---

(١) ورد في "المطبوع، ن" [المُطيفة].

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٤٩) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ولمَّا سُئل: مَن خير النَّاس؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ طالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُه**»[(١)].

وأمَّا المال والجاه، وإنْ كانا نِعمتَين، فقد ذَكَرنا ما فيهما مِن الآفات فيما تقدَّم، وأنَّهما ليسا بمذمومَين على الإطلاق.

وأمَّا الهداية والرُّشد والتَّسديد والتَّأييد فلا خفاءَ في كونها مِن أعظم النِّعم، فلا يَستغني أَحدٌ عن الحاجة إلى التَّوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ للفَتَى ... فَأَكثَرُ ما يَجنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ[(٢)]

فَصْلٌ

واعلم أنَّا قد ذَكَرنا جملةً مِن النِّعم، وجعلنا صحَّة البدن نعمةً واحدةً مِن النِّعم الواقعة في الرُّتبة الثَّانية، فلو أردنا أنْ نستقصيَ الأسباب التي بها تمَّت هذه النِّعمة لم نقدر عليها، ولكن الأكل أَحد أسباب الاستقصاء، فنقول: مِن جملة نِعم الله عليك أنْ خَلَق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواسِّ الخمس التي هي آلةٌ للإدراك.

فأوَّلهما: حاسَّة اللَّمس، وهو أوَّل حِسٍّ يُخلق للحيوان، وأنقص درجات الحِسِّ أنْ يُحسَّ بما يُلاصِقه، فإنَّ الإحساس بما يَبعد منه أتمُّ لا محالةَ، فافتقرتَ إلى حِسٍّ تُدرِكُ به ما بَعُد عنكَ، فخَلَق لك الشَّمَّ تُدرك به الرَّائحة مِن بُعدٍ، ولكنْ لا تدري مِن أي ناحيةٍ جاءت الرَّائحة، فتَحتاج أنْ تَطوف كثيرًا حتى تَعثر على الذي شَمِمتَ رائحته، وربَّما لم تَعثر، فخَلَق لك البَصر؛ لتُدرِكَ به ما بَعُد عنكَ، وتُدرِك جهته، فتقصدها بعينها، إلَّا أنَّه لو لم يَخلق لك إلَّا هذا لكنتَ ناقصًا؛ إذ لا تُدرِكُ بذلك ما وراء الجدار والحجاب،

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٢٩)، وأحمدُ (١٧٦٨٠) عن عبد الله بن بُسْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هذا الوجه.

(٢) ذكره المِقرِّيُّ التِّلمسانيُّ في «نفح الطِّيب» (٦/ ١٧٧).

فربَّما قَصَدك عدوٌّ بينك وبينه حِجابٌ، وقرب منك قَبل أنْ يكشفَ الحجاب، فتَعجز عن الهرب، فخَلَق لك السَّمع حتى تُدرك به الأصوات مِن وراء الحُجُرات عند جريان الحَرَكات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حِسُّ الذَّوق؛ إذ به تَعلم ما يُوافِقك وما يضرُّك، بخلاف الشَّجرة، فإنَّه يَصبُّ في أصلها كلُّ مائعٍ، ولا ذَوق لها فتجذبه، وربَّما يكون ذلك سبب جفافها، ثُمَّ أكرمك الله تعالى بصفةٍ أُخرى هي أشرف مِن الكلِّ، وهو العقل، فبه تُدرِك الأطعمة ومنفعتها، وما يضرُّ في المآل، وبه تُدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحَّتِكَ، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذَكَرنا مِن الحواسِّ الخمس الظَّاهرة فهي بعض الإدراكات.

ولا تظنَّ أنَّنا استوفينا شيئًا مِن ذلك؛ فإنَّ البصر واحدٌ مِن الحواسِّ، والعين آلةٌ له، وقد رُكِّبت العين مِن عشر طبقاتٍ مختلفةٍ، بعضها رطوباتٌ، وبعضها أغشيةٌ مختلِفةٌ، لكلِّ واحدةٍ مِن الطَّبقات العشر صفةٌ، وصورةٌ، وشكلٌ، وهيئةٌ، وتدبيرٌ، وتركيبٌ، لو اختلَّت طبقةٌ واحدةٌ منها أو صفةٌ واحدةٌ لاختلَّ البصر، وعجز عنه الأطبَّاء كلُّهم، فهذا في حِسٍّ واحدٍ، وقِس حاسَّة السَّمع وسائر الحواسِّ، ولا يُمكن أنْ يستوفَى ذلك في مُجلَّداتٍ، فكيف ظنُّكَ بجميع البدن؟

ثُمَّ انظر بعد ذلك في خَلْق الإرادة والقُدرة، وآلات الحركة مِن أصناف النِّعم، وذلك أنَّه لو خُلِق لك البصر حتى تُدرك به الطَّعام، ولم يُخلق لك في الطَّبع شوقٌ إليه وشهوةٌ تستحثُّك على الحركة لكان البصر معطَّلًا، فكم مِن مريضٍ يَرى الطَّعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخَلَق لك الله شهوةَ الطَّعام، وسلَّطها عليك، كالمتقاضي الذي يضطرُّك إلى تناول الغذاء.

ثُمَّ هذه الشَّهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة مِن الطَّعام لأسرفتَ وأهلكتَ نفسك، فخَلَق الله الكراهة عند الشِّبع؛ لتترك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوِقاع لحكمة بقاء النَّسل.

ثُمَّ خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغِذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتمِلتان على مفاصِلَ كثيرةٍ لتتحرَّك في الجهات، وتمتدَّ، وتنثنيَ، ولا تكونَ كخشبةٍ منصوبةٍ.

ثُمَّ جعل رأس اليد عريضًا، وهو الكتِف، وقسمه خمسة أقسامٍ: وهي الأصابع، وجَعَلها مختلِفةً في الطُّول والقِصَر، ووَضَعها في صَفَّين، بحيث يكون الإبهام في جانبٍ، ويدور على الأصابع البواقي، ولو كانت مجتمِعةً متراكِمةً، لم يحصل تمام الغرض، ثُمَّ خَلَق لها أظافرًا، وأسند إليها رؤوس الأصابع لتقوى بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدَّقيقة التي لا تَحويها الأصابع، ثُمَّ هَبْ أنَّك أخذت الطَّعام باليد، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللَّحيين، خَلَقهما مِن عَظمَين، وركَّب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطَّعام، فبعضها قواطعُ كالرَّباعيَّات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحنُ كالأضراس، وجَعَل اللَّحيَّ الأسفل متحرِّكًا حركةً دوريَّةً، واللَّحيَّ الأعلى ثابتًا لا يتحرَّك، فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى، وإنَّ كلَّ رحًى صَنَعها الخَلْق يثبَّت منها الحجر الأسفل، ويدور الأعلى، إلَّا هذه الرَّحى التي هي صُنع الله سُبحانَهُ وتَعالَى، فإنَّه يدور منها الأسفل على الأعلى؛ إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشَّريفة التي يحتوي عليها.

ثُمَّ انظر كيف أَنعم الله عليك بخَلْق اللِّسان، فإنَّه يطوف في جوانب الفم، ويَردُّ الطَّعام مِن الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالمِجرَفة التي تَردُّ الطَّعام إلى الرَّحى، هذا مع ما فيه مِن عجائب قوَّة النُّطق.

ثُمَّ هب أنَّك قَطَعت الطَّعام [وطحنته][1] وهو يابسٌ، فما تقدر على الابتلاع إلاَّ بأنْ ينزلق إلى الحَلْق بنوع رطوبةٍ.

---

(١) ورد في "المطبوع" [وعجنته].

فانظر كيف خَلَق الله تعالى تحت اللِّسان عَينًا يفيض منها اللُّعاب، وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطَّعام.

ثُمَّ هذا الطَّعام المطحون المعجون مَن يُوصله إلى المَعِدة وهو في الفم؟ فإنَّه لا يُمكن إيصاله باليد، فهيَّأ الله تعالى المريء والحَنجرة، وجعل رأسها طبقاتٍ ينفتح لأخذ الطَّعام، ثُمَّ ينطبق وينضغط حتى يقلِّب الطَّعام، فيهوي في دِهليز المريء إلى المَعِدة، فإذا وَرَد الطَّعام إلى المَعِدة وهو خبزٌ وفاكهةٌ مقطَّعةٌ فلا يصلح أنْ يصير لحمًا وعَظْمًا ودمًا على هذه الهيئة حتى يُطبخ طبخًا تامًّا، فجعل الله المَعِدة على هيئة قِدْرٍ يقع فيها الطَّعام، فتحتوي عليه، وتُغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدَّى إليها مِن الأعضاء الأربعة، وهي الكَبِد مِن جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والثرب مِن أمامها، ولحم الصُّلب مِن خلفها، فينضج الطَّعام، ويصير مائعًا متشابِهًا يَصلح للنُّفوذ في تجاويف العُروق، ثُمَّ يَنصبُّ الطَّعام مِن العروق إلى الكَبِد، فيستقرُّ فيها ريثما يصلح له بطبخ آخرُ، ثُمَّ يتفرَّق في الأعضاء، ويبقى منه ثفلٌ، ثُمَّ يندفع... ولو استوفينا الكلام في ذلك لطال.

وفي الآدميِّ مِن العضلات والعروق ما لا يُحصى، مُختلِفٌ بالصِّغر والكِبَر، والدِّقَّة والغِلَظ، ولا شيءَ منها إلَّا وفيه حكمةٌ، وكلُّ ذلك مِن الله سبحانه، ولو سَكَن مِن جُملتها عِرقٌ متحرِّكٌ، أو تحرَّك عِرقٌ ساكنٌ لهلكتَ يا مِسكينُ.

فانظر إلى نِعَم الله تعالى عليك؛ لتقوى على الشُّكر، فإنَّك لا تَعرف مِن نعمة الله تعالى إلَّا نعمة الأكل، وهي أخسُّها، ثُمَّ لا تعرف منها إلَّا أنَّك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضًا تعرف أنَّها تجوع وتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتُجامع، وإذا لم تعرف أنتَ مِن نفسك إلَّا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر الله تعالى؟ وهذا الذي رَمَزنا إليه على الإيجاز قطرةٌ مِن بحرٍ مِن نِعَم الله تعالى، فقِس على ذلك.

وجملة ما عَرَفنا وعَرَفه الخَلْق كلُّهم مِن نِعَم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه، أقلُّ مِن قطرةٍ في بحرٍ، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [ابراهيم: ٣٤].

فَصْلٌ

واعلم أنَّ الأطعمة كثيرةٌ مختلِفةٌ، ولله تعالى في خَلْقها عجائبُ لا تُحصى، وهي تنقسم إلى أغذيةٍ وأدويةٍ وفواكهَ وغيرِها.

فنتكلَّم على بعض الأغذية، فنقول: إذا كان عندك شيءٌ مِن الحنطة، فلو أَكلتَها لفَنِيت وبقيتَ جائعًا، فما أحوجك إلى عملٍ ينمو به حبُّ الحنطة ويتضاعف، حتى يَفيَ بتمام حاجتكَ، وهو زَرْعها، وهو أنْ تَجعلها في أرضٍ فيها ماءٌ يمتزج ماؤها بالأرض، فيصير طِينًا، ثُمَّ لا يكفي الماء والتُّراب؛ إذ لو تُركت في الأرض نديَّةً صلبةً، لم تُنبت؛ لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرضٍ متخلخِلةٍ يتغلغل الهواء فيها، ثُمَّ الهواء لا يتحرَّك إليها بنفسه، فيحتاج إلى ريحٍ تُحرِّك الهواء، وتَصرفه بقهرٍ على الأرض، حتى يَنفذ فيها، ثُمَّ كلُّ ذلك لا يُغني، فيحتاج إلى حرارة الرَّبيع والصَّيف، فإنَّه لو كان في البرد المُفرِط لم ينبت.

ثُمَّ انظر إلى الماء الذي تحتاج إليه هذه الزِّراعة كيف خَلَقه الله تعالى؟ فَجَّر العيون، وأجرى منها الأنهار، ولمَّا كان بعض الأرض مُرتفِعًا لا يناله الماء أرسل إليها الغيوم، وسلَّط عليها الرِّياح؛ لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالَم، وهي سُحُبٌ ثِقالٌ، ثُمَّ يُرسله على الأرض مِدرارًا في وقت الحاجة.

وانظر كيف خَلَق الله الجِبال حافظةً للماء، تنفجر منها العيون تدريجًا، فلو خرجت دفعةً واحدةً لغرقت البلاد، وهلك الزَّرع وغيره.

وانظر كيف سخَّر الشَّمس وخَلَقها مع بُعدِها عن الأرض، [مسخِّنةً][(١)] لها في وقتٍ دون وقتٍ؛ ليحصل البَرْد عند الحاجة إليه، والحَرُّ عند الحاجة إليه.

وخَلَق القمر، وجَعَل مِن خاصِّيَّته التَّرطيب، كما جعل مِن خاصِّيَّة الشَّمس التَّسخين، فهو يُنضِج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير، وكلُّ كوكبٍ خُلِق في السَّماء فهو مسخَّرٌ لنوع فائدةٍ، كما سُخِّرتِ الشَّمس والقمر، فيهما حِكَم أُخَر غير ما ذكرنا لا تُحصى.

ولمَّا كانت كلُّ الأطعمة لا تُوجد في كلِّ مكانٍ سخَّر الله تعالى التُّجَّار، وسلَّط عليهم الحِرص على جمع المال، مع أنَّه لا يُغنِيهم في غالب الأمر شيءٌ، بل يجمعون الأموال، فإمَّا أنْ تغرقَ بها السُّفن، أو تنتهبها قُطَّاع الطُّرُق، أو يموتون في بعض البلاد، فتأخذها السَّلاطين، وأحسَن أحوالهم أنْ يأخذها وَرَثتهم، وهم أَشدُّ أعدائهم لو عرفوا، فانظر كيف سلَّط الله عليهم الأمل والغَفْلة، حتى يُقاسوا الشَّدائد في طلب الرِّبح في رُكوب البِحار، وركوب الأخطار، فيَحملون الأطعمة وأنواع الحوائج مِن أقصى الشَّرق والغرب إليكَ.

واعلم أنَّ الخَلْق لم يُقصِّروا عن شكر النِّعمة إلَّا للجهل والغَفْلة، فإنَّهم مُنعوا بذلك عن معرفة النِّعَم، ولا يُتصوَّر شكر النِّعمة إلَّا بعد معرفتها، ثُمَّ إنْ عرفوا نعمةً ظنُّوا أنَّ الشُّكر عليها أنْ يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشُّكر لله، ولم يَعرفوا أنَّ معنى الشُّكر أنْ تُستعمَل النِّعمة في إتمام الحِكمة التي أُريدت بها، وهي طاعة الله تعالى.

أمَّا الغفلة عن النِّعم فلها أسبابٌ:

أحدها: أنَّ النَّاس لجهلهم لا يَعدُّون ما يَعمُّ الخَلْق في جميع أحوالهم نِعمةً، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذَكرناه مِن النِّعم، لأنَّها عامَّةٌ للخَلْق، مبذولةٌ لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى واحدٌ منهم اختصاصًا به، فلا يعدُّه نعمةً، فلا تراهم يشكرون الله على

---

(١) ورد في "الأصل، خ" [مسجية].

روح الهواء، ولو أخذ بمخنقهم لحظةً حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حُبسوا في حمَّامٍ أو بئرٍ ماتوا غمًّا، فإنِ ابتُلي أحدهم بشيءٍ مِن ذلك، ثُمَّ نجا قدَّر ذلك نعمةً يشرك الله عليها، وهذا غاية الجهل؛ إذ صار شركهم موقوفًا على أنْ تُسلَب عنهم النِّعمة، ثُمَّ تُردُّ إليهم في بعض الأحوال، فالنِّعم في جميع الأحوال أَولى بالشُّكر، فلا ترى البصير يشكر صحَّة البصر إلَّا أنْ يعمَى، فإذا أُعيد بصره أحسَّ بالنِّعمة، وشَكرها حينَئذٍ، وعدَّها نعمةً، وهو مثل عبد السُّوء يُضرب دائمًا، فإذا ترك ضربه ساعةً شكر وتقلَّد ذلك منَّةً، وإنْ ترك ضربه أصلًا غلبه البَطر، وترك الشُّكر، فصار النَّاس لا يشكرون إلَّا على المال الذي يطرق الاختصاص إليه مِن حيث الكثرة والقِلَّة، ويَنسَون جميع نِعم الله تعالى عليهم.

كما رُوي أنَّ بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شِدَّة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرُّك أنَّك أعمى ولك عشرة آلاف درهمٍ؟ قال: لا. قال: أيسرُّك أنَّك أخرسُ ولك عشرة آلاف درهمٍ؟ قال: لا. قال: أيسرُّك أنَّك أقطعُ اليدَين والرِّجلَين ولك عشرون ألفًا؟ قال: لا. قال: أيسرُّك أنَّك مجنونٌ ولك عشرة آلافٍ؟ قال: لا. قال: أَمَا تستحي أنْ تشكو مولاك، وله عندك عروضٌ بخمسين ألفًا؟

وحُكي عن بعض الفقراء أنَّه اشتدَّ به الفقر حتى ضاق به ذَرْعًا، فرأى في المنام كأنَّ قائلًا يقول له: أتودُّ أنَّا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينارٍ؟ قال: لا. قال: فسورة هودٍ؟ قال: لا. قال: فسورة يوسفَ؟ قال: لا. قال: فمعك قيمة مائة ألف دينارٍ وأنت تشكو؟ فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السَّمَّاك[1] على الرَّشيد في عِظةٍ، فبكى، ثُمَّ دعا بماءٍ في قدحٍ، فقال: يا أمير المؤمنين، لو مُنعت هذه الشُّربة إلَّا بالدُّنيا وما فيها، أكنتَ تفديها بها؟ قال: نعم.

---

(١) عثمانُ بن أحمد بن عبيد الله بن يزيد، أبو عمرو الدَّقاق، ابن السَّمَّاك، مُسنِد بغداد، وبها وفاته،كان ثقةً ثبتًا، سمع مِن أبي جعفرٍ محمَّد بن عبيد الله بن المنادي، وأحمد بن عبد الجبَّار العطارديُّ، وحنبل بن إسحاق، وغيرهم، حدَّث عنه الدَّارقطنيُّ، وابن شاهين، وابن مندة، والحاكم وغيرهم، توفِّي سنة (٣٤٤). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٥/ ٤٤٤)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٤/ ٢٠٢).

قال: فاشرب ريًّا، بارك الله فيك. فلمَّا شرب، قال له: يا أمير المؤمنين، أرأيتَ لو مُنعت إخراج هذه الشربة منك إلَّا بالدُّنيا وما فيها، أكنتَ تفتدي ذلك؟ قال: نعم. قال: فما تصنع بشيءٍ شربة ماءٍ خيرٌ منه؟(١)

وهذا يبيِّن أنَّ نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماءٍ عند العطش أعظم مِن ملك الأرض، ثُمَّ تسهيل خُروج الحدث مِن أعظم النِّعم، وهذه إشارةٌ وجيزةٌ إلى النِّعم الخاصَّة.

اعلم أنَّ ما مِن عبدٍ إلَّا إذا أمعن النَّظر رأى عليه مِن نِعم الله نِعمًا كثيرةً لا يُشاركه فيها عموم النَّاس، بل قد يُشاركه في ذلك كثيرٌ منهم، مِن ذلك العقل، فما مِن عبدٍ إلَّا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنَّه أعقلُ النَّاس، وقلَّما يَسأل اللهَ العقلَ، وإذا كان ذلك اعتقاده فيجب عليه أنْ يشكر الله تعالى على ذلك.

ومِن ذلك الخَلْق، فإنَّه ما مِن عبدٍ إلَّا ويَرى مِن غيره عيوبًا يكرهها، وأخلاقًا يذمُّها، ويرى نفسه بريئًا منها، فينبغي أنْ يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خَلْقه، وابتلى غيره.

ومِن ذلك أنَّ ما مِن أحدٍ إلَّا وهو يعرف مِن بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفردٌ به، ولو كُشف الغطاء عنه حتى اطَّلع عليه أَحدٌ مِن الخَلْق لافتضح، فكيف لو اطَّلع النَّاس كافَّةً؟ فلِمَ لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل، وستر القبيح، ولننزل إلى طبقةٍ أعمَّ مِن هذا القبيل، فنقول: ما مِن عبدٍ إلَّا وقد رزقه الله تعالى في صورته، أو أخلاقه، أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه، أو بلده، أو رفيقه، أو أقاربه، أو جاهه، أو سائر محابِّه أمورًا لو سُلب ذلك، وأُعطي ما خُصِّص به مِن ذلك غيره لكان لا يرضى به، وذلك مِثل أنْ جعله مؤمِنًا لا كافرًا، وحيًّا لا جَمادًا، وإنسانًا لا بهيمةً، وذكرًا لا أنثى، وصحيحًا لا مريضًا، وسليمًا لا معيبًا، فإنَّ كلَّ هذه خصائص.

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٧٧٦).

فإنْ كان لا يَرى أنْ يبدِّل حاله بحال غيره، مِثل ألَّا يعرف شخصًا يرتضي لنفسه حاله بدلًا عن حال نفسه، إمَّا على الجملة، أو في أمرٍ خاصٍّ، فإنَّ لله عليه نِعمًا ليست له على أَحدٍ مِن عباده سواه، وإنْ كان يرى أنَّه يبدِّل حال نفسه بحال بعضهم دون بعضٍ فلينظر إلى عدد المغبوطِين عنده، فإنَّه يراهم عنده لا محالةَ أقلَّ مِن غيرهم، فيكون مَن دونه في الحال أكثر بكثيرٍ ممَّن فوقه، فما باله ينظر إلى مَن فوقه، ولا ينظر إلى مَن دونه؟

وفي «الصَّحيحَين»[1] عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا نَظرَ أَحَدُكُم إلى مَن فُضِّلَ عَلَيه في المالِ والخَلقِ فَلْيَنظُرْ إلى مَن هو أَسفَلُ مِنهُ مِمَّن فُضِّلَ عَلَيهِ**».

وقد رواه التِّرمذيُّ بلفظٍ آخرَ: «**انظُرُوا إلى مَن هو أَسفَلُ مِنكُم، ولا تَنظُرُوا إلى مَن فَوقَكُم، فَإنَّه أَجدَرُ أَلَّا تَزدَرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُم**»[2].

فإنَّ مَن اعتبر حال نفسه، وفتَّش على ما خُصَّ به وجد لله تعالى عليه نِعمًا كثيرةً، لا سيَّما مَن خُصَّ بالإيمان، والقرآن، والعلم، والسُّنَّة، ثُمَّ الفراغ، والصِّحَّة والأمن، وغير ذلك.

وقد رُوي في بعض الأحاديث: «**مَن قَرَأَ القُرآنَ فَهو غَنيٌّ**».

وفي لفظٍ: «**القُرآنُ غِنًى لا فَقرَ بَعدَه، ولا غِنًى دُونَه**»[3].

وفي حديثٍ آخرَ: «**مَن أَصبَحَ آمِنًا في سِربِه، مُعافًى في بَدَنِه، وعِندَه قُوتُ يَومِه، فَكأَنَّما حِيزَتِ الدُّنيا لَه بِحَذافِيرِها**»[4].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٢٥)، ومسلمٌ (٢٩٦٣).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٣)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٣٧٦)، وأبو يعلى المَوصِليُّ (٢٧٧٣)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٧٣٨)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٢٣٢): أخرجه أبو يَعلى والطَّبرانيُّ مِن حديث أنسٍ بسندٍ ضعيفٍ.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٦) والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٨٧٤)، وابن ماجه (٤١٤١) دون قوله:=

وقال بعضهم:

إذا ما القُوتُ يأتِي لَكَ والصِّحَّةُ والأَمنُ   وَأَصبَحتَ أَخا حُزنٍ فَلا فارَقَكَ الحُزنُ[1]

فإنْ قيل: فما عِلاج القلوب الغافلة عن شكر نِعم الله تعالى؟

فالجواب: أمَّا القلوب المُبصِرة فتتأمَّل ما رمز إليه مِن أصناف نِعم الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا القلوب البليدة التي لا تَعدُّ النِّعمة نعمةً إلَّا إذا نزل بها البلاء، فسبيل صاحبها أنْ ينظر أبدًا إلى مَن دونه، ويَفعل ما كان يفعله بعض القُدماء، فإنَّه كان يحضر دار المرضى؛ ليُشاهِد أنواع البلاء عليهم، ثُمَّ يتأمَّل صحَّته وسلامته، ويُشاهد الجُناة الذين يُقتلون، وتُقطع أيديهم وأرجلهم، ويُعذَّبون، فيشكر الله على سلامته مِن تلك العقوبات، ويَحضر المقابر فيعلم أنَّ أحبَّ الأشياء إلى الموتى أنْ يُردُّوا إلى الدُّنيا؛ ليتدارك مَن عصا عصيانه، وليزيدَ في الطَّاعة مَن أطاع، فإنَّ يوم القيامة يوم التَّغابُن، فإذا شاهد المَقابِر، وعلم أَحبَّ الأشياء إليهم فليصرف بقيَّة عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال، بأنْ يصرفَ العمر إلى ما خُلِق لأجله، وهو التَّزوُّد للآخرة.

وممَّا ينبغي أنْ تُعالَج به القلوب البعيدة عن الشُّكر أنْ يعرف أنَّ النِّعمة إذا لم تُشكَر زالت.

كان الفُضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يقول: عليكم بمداومة الشُّكر على النِّعم، فقلَّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ اجْتِمَاعِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ عَلَى وَجْهٍ وَاحِدٍ

لعلَّك تقول: قد ذَكرتَ أنَّ لله تعالى في كلِّ موجودٍ نعمةً، وهذا يُشير إلى أنَّ البلاء لا وجود له أصلًا، فما معنى الصَّبر، وإنْ كان البلاء موجودًا، فما معنى الشُّكر على

= «بِحَذافِيرِها»، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(١) ذكره المقريُّ التِّلمسانيُّ في «نفح الطِّيب» (٤/ ٣٣٠).

البلاء؟ وكيف يجتمع الصَّبر والشُّكر؟ فإنَّ الصَّبر يستدعي أَلَمًا، والشُّكر يستدعي فَرَحًا، وهما مُتضادَّان، فاعلم أنَّ البلاء موجودٌ، كما أنَّ النِّعمة موجودةٌ، وأنَّه ليس كلُّ بلاءٍ يُؤمَر بالصَّبر عليه، مِثل الكفر، فإنَّه بلاءٌ، ولا معنًى للصَّبر عليه، وكذا المعاصي، إلَّا أنَّ الكافر لا يعلم أنَّ كُفره بلاءٌ، فيكون كمَن به عِلَّةٌ، وهو لا يتألَّم بها بسبب غَشيته، والعاصي يعرف عِصيانه، فعليه ترك المعصية، وكلُّ بلاءٍ يقدر الإنسان دفعه لا يُؤمَر بالصَّبر عليه، فلو تَرك شرب الماء مع العطش حتى عَظُم أَلَمه، لم يُؤمَر على ذلك، بل يُؤمَر بإزالة الألم، وإنَّما يكون الصَّبر على أَلمٍ ليس إلى العبد إزالتُه، فإذن يَرجع الصَّبر في الدُّنيا إلى ما ليس ببلاءٍ مطلَقٍ، بل يجوز أنْ يكونَ نِعمةً مِن وجهٍ، فلذلك يُتصوَّر أنْ يجتمعَ عليه وظيفة الشُّكر ووظيفة الصَّبر، فإنَّ الغنى مثلًا يجوز أنْ يصير سبب هلاك الإنسان، حتى يُقصد قتله بسبب ماله، والصِّحَّة أيضًا كذلك، فما مِن نعمةٍ مِن نِعم الدُّنيا إلَّا ويجوز أنْ تصير بلاءً، وقد يكون على العبد في بعض الأمور بلاءٌ، وفيه نعمةٌ.

مثال ذلك جهل الإنسان بأجله، فإنَّه نعمةٌ عليه؛ إذ لو عَرَفه تنغَّص عليه العيش، وطال بذلك غَمُّه، وكذلك جهله بما يُضمره بعض النَّاس له؛ إذ لو اطَّلع عليه لطال ألمه وحِقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصِّفات المذمومة مِن غيره؛ إذ لو عرف منه ذلك أبغضه وآذاه، فكان ذلك وبالًا عليه.

ومِن ذلك إبهام القيامة، وليلة القَدر، وساعة الجمعة، وكلُّ ذلك نِعمةٌ؛ لأنَّ الجهل يوفِّر الدَّواعي على الطَّلب والاجتهاد، فهذه وجوه نِعم الله تعالى في الجهل، فكيف في العلم؟

وقد قلنا: إنَّ لله سبحانه في كلِّ موجودٍ نِعمةً، حتى إنَّ الآلام قد تكون نِعمةً في حقِّ المتألِّم، وقد تكون نِعمةً في حقِّ غيره، كألم الكفَّار في النَّار في الآخرة، فإنَّه نِعمةٌ في حقِّ أهل الجنَّة؛ إذ لو لم يعذَّب قومٌ، ما عرف المُتنعِّمون قَدر نعيمهم، وإنَّما يتضاعَف فَرَح أهل الجنَّة إذا ذَكَروا أَلم أهل النَّار، أَلا ترى أنَّ أهل الدُّنيا لا يَشتدُّ فَرَحهم بنور الشَّمس، مع شِدَّة حاجتهم إليها مِن جهة أنَّها عامَّةٌ مبذولةٌ، ولا بالنَّظر إلى زينة السَّماء،

وهي أَحسن مِن كلِّ نبتٍ؛ لأنَّها عامَّةٌ، فلذلك لم يَشعروا بها، ولم يَفرحوا بسببها، فإذا صحَّ قولنا: إنَّ الله تعالى لم يَخلق شيئًا إلَّا وفيه حكمةٌ ونعمةٌ، إمَّا على جميع العِباد، أو على بعضهم، ففي خَلْق الله تعالى البلاء نعمةٌ أيضًا إمَّا على المبتلَى، أو على غيره، فيجتمع على العبد وظيفة الشُّكر والصَّبر في كلِّ حالةٍ لا تُوصف بأنَّها بلاءٌ مطلَقٌ، ولا نعمةٌ مطلَقةٌ، فإنَّ الإنسان قد يفرح بالشَّيء الواحد مِن وجهٍ، ويغتمُّ به مِن وجهٍ، فيكون الصَّبر مِن حيث الاغتمام، والشُّكر مِن حيث الفرح.

واعلم أنَّ في كلِّ فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وبلاءٍ في الدُّنيا، خمسةَ أشياءَ ينبغي أنْ يَفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

أحدها: أنَّ كلَّ مصيبةٍ ومرضٍ يُتصوَّر أنْ يكونَ عليه أكثر منها؛ لأنَّ مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو أضعفها الله عَزَّوَجَلَّ على العبد فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم.

الثَّاني: أنَّ المصيبة لم تكن في الدِّين.

قال عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ما ابتُليتُ ببلاءٍ إلَّا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نِعَمٍ: إذ لم يكن في دِيني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أُحرم الرِّضى به، وإذ أرجو الثَّواب عليه[(١)].

قال رجلٌ لسهل بن عبد الله: دخل اللِّصُّ بيتي، وأخذ متاعي. فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشَّيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومَن استحقَّ أنْ يضربَك مائة سوطٍ، فاقتصر على عشرةٍ، فهو مستحقٌّ للشُّكر.

الثَّالث: أنَّ ما مِن عقوبةٍ إلَّا كان يُتصوَّر أنْ تُؤخَّر إلى الآخرة، ومصائب الدُّنيا يُتسلَّى عنها فتَخفُّ، ومصيبة الآخرة دائمةٌ وإنْ لم تَدُم، فلا سبيلَ إلى تخفيفها، ومَن عُجِّلت عقوبته في الدُّنيا لم يُعاقَب ثانيًا، كذا ورد في الحديث عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[(٢)].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٥٠٧) بمعناه عن شريح.

(٢) روى التِّرمذيُّ (٢٦٢٦) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَعُجِّلَ=

وفي «صحيح مسلمٍ»: «**إنَّ كُلَّ مَا يُصابُ بِهِ المُسلِمُ يَكُونُ كَفَّارَةً لَه، حتَّى النَّكبَةِ يُنْكَبُهَا، والشَّوكَةِ يُشاكُها**»(١).

الرَّابع: أنَّ هذه المصيبة كانت مكتوبةً عليه في أمِّ الكتاب، ولم يكن بدٌّ مِن وُصولها إليه، فقد وصلت واستراح منها، فهي نعمةٌ.

الخامس: أنَّ ثوابها أكثر منها، فإنَّ مصائب الدُّنيا طُرُقٌ إلى الآخرة، كما يكون لمنعٍ مِن أسباب اللَّعب نعمةٌ في حقِّ الصَّبيِّ، فإنَّه لو خُلِّي واللَّعب، لكان يمنعه ذلك مِن العِلم والأدب فكان يَخسر طول عمره، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء قد تكون سببًا لهلاكه، فالملحِدون غدًا يتمنَّون أنْ لو كانوا مجانينَ وصبيانًا، ولم يتصرَّفوا بعُقولهم في دِين الله تعالى، فما مِن شيءٍ مِن هذه الأسباب يُوجد مِن العبد، إلَّا ويُتصوَّر أنْ يكونَ له في ذلك خِيرةٌ دِينيَّةٌ، فعليه أنْ يُحسن الظَّنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ، ويقدِّر الخِيرة فيما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، فإنَّ حِكمة الله تعالى واسعةٌ، وهو أعلم بمصالِح العِباد منهم، وغدًا يَشكره العابد على البلاء إذا رأَوا ثوابه، كما يشكر الصَّبيُّ بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ رأى ثمرة ما استفاد مِن التَّأديب.

والبلاء تأديبٌ مِن الله تعالى، ولطفه بعباده أتمُّ وأوفَى مِن عناية الآباء بالأولاد.

وفي الحديث: «**لا يَقضِي اللهُ لِلمُؤمِنِ قَضاءً إلَّا كانَ خَيرًا لَه**»(٢). وأيضًا فاعلم أنَّ رأس الخطايا المهلِكة حبُّ الدُّنيا، ورأس أسباب النَّجاة التَّجافي بالقلب عنها، ومُواتاة النِّعم على وفق المُراد مِن غير امتزاجٍ ببلاءٍ ومصيبةٍ تُورث طمأنينة القلب إلى الدُّنيا

= عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّي عَلَى عَبْدِهِ العُقُوبَةَ فِي الآخِرَةِ، وَمَنْ أَصَابَ حَدًّا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ» وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٧٤).

(٢) رواه أحمدُ (٢٠٢٨٣)، والقضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (٥٩٦)، وابن حِبَّانَ (٧٢٨).

والأُنس بها، فإذا كَثرت المصائب انزعج القلب عن الدُّنيا، ولم يكنَّ إليها، فصارت سِجنًا له، فكانت نجاته منها غاية المراد، كخلاص المسجون مِن السِّجن.

وأمَّا التَّألُّم فهو ضروريٌّ، وذلك يُضاهي فرحك بمَن يَحجمك أو يسقيك دواءً نافعًا بلا أَجرٍ، فإنَّك تتألَّم وتفرح، فتصبر على الألم، وتشكر على سبب الفرح، فمَن عَرف هذا تُصوِّر منه أنْ يشكرَ على البلاء، ومَن لا يُؤمن أنَّ ثواب المصيبة أكثر منها لم يُتصوَّرْ منه الشُّكر على المصيبة.

وقد رُوي أنَّ أعرابيًّا عزَّى ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأبيه، فقال:

اصبِرْ نكُنْ بِكَ صابِرِينَ فَإنَّما ... صَبْرُ الرَّعِيَّةِ عِندَ صَبْرِ الرَّاسِ
خَيرٌ مِنَ العَبَّاسِ [أجرك][1] بَعدَهُ ... وَاللهُ خَيرٌ مِنكَ للعَبَّاسِ

فقال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما عزَّاني أَحدٌ أَحسن مِن تعزيته[2]. وقد سبق ذِكر أنواع البلاء، وثواب الصَّبر عليها.

فإنْ قال قائلٌ: الأخبار الواردة في فضل الصَّبر تدلُّ على أنَّ البلاء في الدُّنيا خيرٌ مِن النَّعيم، فهل لنا أنْ نسأَلَ الله عَزَّوَجَلَّ البلاء؟

فالجواب: أنَّه لا وجهَ لذلك، فإنَّ في الحديث مِن رواية أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد رجلًا مِن المسلِمين صار مِثل الفرخ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل كُنتَ تَدعُو بِشَيءٍ، أو تَسأَلُه؟**» قال: نعم، كنتُ أقول: اللَّهمَّ ما كنتَ مُعاقِبي به في الآخرة، فعجِّله لي في الدُّنيا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ! لا تُطِيقُهُ، ولا تَستَطِيعُه، فَهلَّا قلتَ: اللَّهمَّ آتِنا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنا عَذَابَ النَّارِ**»[3].

---

(١) ورد في «المطبوع» [صبرك].
(٢) ذكره أبو طالبٍ المكيُّ في «قوت القلوب» (١/ ٣٥٣).
(٣) رواه مسلم (٢٦٨٨).

ومِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، أنَّ رجلًا قال: يا نبيَّ الله، أيُّ الدُّعاء أفضلُ؟ قال: «**سَلِ اللهَ العفوَ وَالعافِيَةَ في الدُّنيا وَالآخِرةِ**». ثُمَّ أتاه الغد، فقال: يا رسول الله، أيُّ الدُّعاء أفضلُ؟ قال: «**سَلِ اللهَ العَفوَ وَالعافِيَةَ في الدُّنْيا وَالآخِرةِ**». ثُمَّ أتاه اليوم الثَّالث، فقال: «**سَلِ اللهَ العَفوَ وَالعافِيَةَ في الدُّنيا وَالآخِرةِ، فَإِنْ أُعطِيتَ العَفوَ وَالعافِيَةَ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ فَقَد أَفلَحتَ**»(١).

وفي «الصَّحيحَين» أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِن جَهْدِ البَلاءِ، ودَرَكِ الشَّقَاءِ، وسُوءِ القَضاءِ، وَشَماتَةِ الأَعدَاءِ**»(٢).

وقال مُطرِّفٌ: لَأَنْ أُعافَى فأشكر، أَحبُّ إليَّ مِن أنْ أُبتلى فأصبر(٣).

فَصْلٌ في بَيانِ أيِّهِما أفْضَلُ الصَّبْرُ أمِ الشُّكْرُ

واختلف النَّاس، هل الصَّبر أفضل مِن الشُّكر، أو بالعكس؟ وفي ذلك كلامٌ طويلٌ، ذَكَره المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، وتلخيص القول فيه أنَّ لكلِّ واحدٍ مِن الصَّبر والشُّكر درجاتٍ، فأقلُّ درجات الصَّبر ترك الشَّكوى مع الكراهة، ووراءها الرِّضَى، وهو مقامٌ وراء الصَّبر، ووراء ذلك الشُّكر على البلاء، وهو وراء الرِّضَى.

ودرجات الشُّكر كثيرةٌ، فإنَّ حياء العبد مِن تتابع نِعم الله عليه شكرٌ، ومعرفته بتقصيره عن الشُّكر شكرٌ، والمعرفة بعظيم حِلم الله وستره شكرٌ، وحُسن التَّواضع في النِّعم والتَّذلُّل فيها شكرٌ، وشكر الوسائط شكرٌ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَشكُرُ اللهَ مَن لا يَشكُرُ النَّاسَ**»(٤). وقِلَّة الاعتراض وحُسن الأدب بين يدَي المنعِم شكرٌ، وتلقِّي النِّعَم

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٤٨)، والطبراني في الدعاء (١٢٩٨)، وأحمد (١٢٢٩١)، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بالحسن.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٤٢)، ومسلمٌ (٢٧٠٧)، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ٢٠٠)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٤١٢١).

(٤) رواه أبو داودَ (٤٨١١)، والتِّرمذيُّ (١٩٥٤)، وأحمدُ (٧٥٠٤) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، =

بحُسن القَبول واستعظام صغيرها شكرٌ، فما يندرج مِن الأعمال والأقوال تحت اسم الشُّكر والصَّبر لا ينحصر، وهي درجاتٌ مختلِفةٌ، فكيف يُمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر؟

لكن نقول: إذا أُضيف الصَّبر إلى الشُّكر الذي هو صرف المال إلى الطَّاعة فالشُّكر أفضلُ؛ لأنَّه تضمَّن الصَّبر أيضًا، وفيه فرحٌ بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه احتمال ألمٍ في صَرفه إلى الفقراء، وترك صَرفه إلى التَّنعُّم المُباح، فهو أفضلُ مِن الصَّبر بهذا الاعتبار.

وأمَّا إذا كان شكر المال ألَّا يستعينَ به على معصيةٍ، بل يصرفه إلى التَّنعُّم المُباح، فالصَّبر هنا أفضلُ مِن الشُّكر، والفقير الصَّابر أفضل مِن المُمسِك ماله الصَّارف له في المُباحات؛ لأنَّ الفقير قد جاهَد نفسه، وأحسن الصَّبر على بلاء الله تعالى، وجميع ما ورد مِن تفضيل أجزاء الصَّبر على الشُّكر إنَّما أُريد به هذه الرُّتبة على الخصوص؛ لأنَّ السَّابق إلى أفهام النَّاس مِن نعمة الأموال والغنى بها، والسَّابق إلى الأفهام مِن الشُّكر أنْ يقول الإنسان: الحمد لله. فإذن الصَّبر الذي يَعتمده العامَّة أفضل مِن هذا الشُّكر الذي يفهمونه، ومتى لحظتَ المعنى الذي ذكرناه علمتَ بأنَّ لكلٍّ واحدٍ مِن القولَين وجهًا في بعض الأحوال، فرُبَّ فقيرٍ صابرٍ أفضلُ مِن غنيٍّ شاكرٍ كما ذكر، ورُبَّ غنيٍّ شاكرٍ أفضلُ مِن فقيرٍ صابرٍ، وذلك هو الغنيُّ الذي يرى نفسه مِثل الفقير الذي لا يُمسك لنفسه مِن المال إلَّا قدر الضَّرورة، ويصرف الباقي في الخيرات، أو يُمسكه على اعتقاده أنَّه خازنٌ للمحتاجِين، وإنَّما ينتظر حاجةً تسنح حتى يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاهٍ، ولا تقليد مِنَّةٍ، فهذا أفضل مِن الفقير الصَّابر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلمُ.

= وقال التِّرمذيُّ: حديثٌ صحيحٌ، ورواه التِّرمذي عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٩٥٥)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. وقال العراقيُّ في «المغني» (٢/ ١٨١): أخرجه التِّرمذيُّ، وحسَّنه مِن حديث أبي سعيدٍ، وله ولأبي داودَ وابن حِبَّانَ نحوه مِن حديث أبي هريرةَ، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

كِتابُ الرَّجاءِ والخَوْفِ

اعلم أنَّ الرَّجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقرَّبون إلى كلِّ مقامٍ محمودٍ، ومطيَّتان بهما يُقطع مِن طريق الآخرة كلُّ عقبةٍ كؤودٍ، ولا بدَّ مِن بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلَّق بذلك، ونحن نذكرهما في شطرَين:

الأوَّل: في الرَّجاء.

والثَّاني: في الخوف.

واعلم أنَّ الرَّجاء مِن جملة مقامات السَّالكِين وأحوال الطَّالبِين، وإنَّما يُسمَّى الوصف مقامًا إذا ثبت وأقام، فإنْ كان عارضًا سريع الزَّوال سمي حالًا، كما أنَّ الصُّفرة تنقسم إلى ثابتةٍ، كصُفرة الذَّهب، وإلى سريعةٍ، كصُفرة الوجل، وإلى ما بينهما، كصُفرة المَرَض، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام، وإنَّما سُمِّي غير الثَّابت حالًا؛ لأنَّه يَحول عن القلب.

واعلم أنَّ كلَّ ما يُلاقيك مِن محبوبٍ أو مكروهٍ ينقسم إلى موجودٍ في الحال، وإلى موجودٍ فيما مضَى.

فالأوَّل يُسمَّى وَجْدًا وذَوقًا وإدراكًا، والثَّاني يُسمَّى ذِكرًا.

وإنْ كان قد خطر ببالك شيءٌ في الاستقبال، وغلب على قلبك سُمِّي انتظارًا وتوقُّعًا، فإنْ كان المنتظَر محبوبًا سُمِّي رجاءً، وإنْ كان مكروهًا سُمِّي خوفًا.

فالرَّجاء: هو ارتياحٌ لانتظار ما هو محبوبٌ عنده، ولكن ذلك المتوقَّع لا بدَّ له مِن سببٍ حاصلٍ، فإنْ لم يكنِ السَّبب معلومَ الوجود، ولا معلومَ الانتفاء سُمِّي تمنِّيًا؛ لأنَّه

انتظارٌ مِن غير سببٍ، ولا يُطلَق اسم الرَّجاء والخوف إلَّا على ما يتردَّد فيه، فأمَّا ما يُقطع به فلا؛ إذ لا يُقال: أرجو طلوع الشَّمس، وأخاف غروبها؛ لأنَّ ذلك مقطوعٌ به عند طلوعها وغروبها، ولكن يُقال: أرجو نزول المطر، وأخاف انقطاعه.

وقد عَلم أرباب القلوب أنَّ الدُّنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطَّاعات جاريةٌ مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار ومساقي الماء إليها.

وإنَّ القلب المستغرِق بالدُّنيا، كالأرض السَّبخة التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أَحدٌ إلَّا ما زرع، ولا ينمو زرعٌ إلَّا مِن بذر الإيمان، وقلَّ أنْ ينفعَ إيمانٌ مع خُبث القلب وسُوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر في الأرض السَّبْخة.

فينبغي أنْ يُقاس رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاء صاحب الزَّرع، فكلُّ مَن طلب أرضًا طيِّبةً، وألقى فيها بذرًا جيِّدًا غير مسوِّسٍ ولا عَفِنٍ، ثُمَّ ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقَّى الأرض مِن الشَّوك والحشيش وما يُفسد الزَّرع، ثُمَّ جلس ينتظر مِن فضل الله تعالى دفع الصَّواعق والآفات المفسِدة، إلى أنْ يتمَّ الزَّرع، ويبلغ غايته، فهذا يُسمَّى انتظارُه رجاءً.

فأمَّا إنْ بذر في أرضٍ سبخةٍ صلبةٍ لا يصلُّ إليها الماء، ولم يتعاهدها أصلًا، ثُمَّ انتظر الحصاد، فهذا يُسمَّى انتظاره حمقًا وغرورًا، لا رجاءً.

وإنْ بثَّ البذر في أرضٍ طيِّبةٍ، ولكن لا ماءَ لها، وأَخَذ ينتظر مياه الأمطار سُمِّي انتظارُه تمنيًا لا رجاءً.

فإذن اسم الرَّجل إنَّما يَصدق على انتظار محبوبٍ تمهَّدت أسبابه الدَّاخلة تحت اختيار العبد، ولم يبقَ إلَّا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع

المُفسِدات، فالعبد إذا بثَّ بذر الإيمان، وسقاه ماء الطَّاعات، وطهَّر القلوب مِن شوك الأخلاق الرَّديئة، وانتظر مِن فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحُسن الخاتمة المُفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاءً محمودًا باعثًا على المواظبة على الطَّاعات، والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإنْ قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطَّاعات، أو ترك القلب مشحونًا برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذَّات الدُّنيا، ثُمَّ انتظر المغفرة كان ذلك حمقًا وغرورًا، قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وذَمَّ القائل: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦].

وروى شدَّاد بن أوسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكَيِّسُ مَن دانَ نَفسَه، وعَمِلَ لِمَا بَعدَ المَوتِ، والعاجِزُ مَنْ أَتبعَ نَفسَهُ هَواها، وتَمنَّى عَلى اللهِ** عَزَّوَجَلَّ»[2].

وقال معروفٌ الكرخيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: رجاؤك لرحمةِ مَن لا تُطيعه خذلانٌ وحمقٌ. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨].

---

(١) شدّاد بن أوس بن ثابتٍ الخزرجيُّ، ابن أخي حسَّان بن ثابتٍ، حدَّث عنه ابنه يعلى، وأبو إدريس الخولانيُّ، وأبو أسماء الرَّحبيُّ وغيرهم، توفِّي سنة (٥٨). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٣/ ٢٥٨)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٢/ ٤٦٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٥٨).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٩)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٠٦٢)، أحمدُ (١٧١٢٣)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ.

(٣) معروفٌ الكرخيُّ أبو محفوظٍ البغداديُّ، روى عن الرَّبيع بن صبيح، وبكر بن خنيس، وابن السَّمَّاك، وغيرهم، وعنه خلف بن هشام، وزكريَّا بن يحيى بن أسدٍ، ويحيى بن أبي طالبٍ، توفِّي سنة (٢٠٠). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٩/ ٣٣٩)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٢٦٩).

المعنى أولئك الذين يستحقُّون أنْ يرجوا، ولم يُرِد به تخصيص وجود الرَّجاء؛ لأنَّ غيرهم أيضًا قد يَرجو ذلك.

واعلم أنَّ الرَّجاء محمودٌ؛ لأنَّه باعثٌ على العمل، واليأس مذمومٌ؛ لأنَّه صارفٌ عن العمل؛ إذ مَن عَرف أنَّ الأرض سبخةٌ، وأنَّ الماء مغورٌ، وأنَّ البذر لا ينبت، ترك تفقُّد الأرض، ولم يَتعب في تعاهُدها.

وأمَّا الخوف فليس بضدِّ الرَّجاء، بل رفيقٌ له، كما سيأتي بيانه إنْ شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

وحالُ الرَّجاء يُورث طريق المجاهَدة بالأعمال، والمواظَبة على الطَّاعات كيفما تقلَّبتِ الأحوال، ومِن آثاره التَّلذُّذ بدوام الإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ، والتَّنعُّم بمناجاته، والتَّلطُّف في التَّملُّق له، فإنَّ هذه الأحوال لا بدَّ أنْ تَظهر على كلِّ مَن يرجو مَلِكًا مِن الملوك، أو شخصًا مِن الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ فمتى لم يظهر استُدلَّ به على حرمان مقام الرَّجاء، فمَن رجا أنْ يكونَ مُرادًا بالخير مِن غير هذه العلامات، فهو مغرورٌ.

فَصْلٌ فِي فَضِيلَةِ الرَّجَاءِ

رُوي في «الصَّحيحَين»[(١)] مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**قالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **أنا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي**» وفي روايةٍ أُخرى «**فَلْيَظُنَّ بِي ما شَاءَ**»[(٢)].

وفي حديثٍ آخَرَ مِن رواية مسلمٍ[(٣)] أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إلَّا وَهُو يُحسِنُ الظَّنَّ باللهِ**».

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٩٧٠)، ومسلمٌ (٢٦٧٥).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٧٢)، ابن حِبَّانَ (٦٣٣)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٢١٠).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٨٧٧).

وأوحى الله تعالى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَحِبَّني، وأَحِبَّ مَن يُحِبُّني، وحَبِّبني إلى خَلْقي. قال: يا ربِّ، كيف أُحبِّبُكَ إلى خَلْقِكَ؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني[1].

وعن مجاهدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[2] قال: يُؤمَر بالعبد يوم القيامة إلى النَّار، فيقول: ما كان هذا ظنِّي. فيقول: ما كان ظنُّكَ؟ فيقول: أنْ تغفرَ لي. فيقول: خلُّوا سبيله[3].

فَصْلٌ في دَوَاءِ الرَّجَاءِ والسَّبَبِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ

اعلم أنَّ دواء الرَّجاء يحتاج إليه رجلان:

إمَّا رجلٌ قد غَلب عليه اليأس، حتى ترك العِبادة.

وإمَّا رجلٌ غَلب عليه الخوف، حتى أَضرَّ بنفسه وأهله.

فأمَّا العاصي المغرور المتمنِّي على الله مع الإعراض عن العِبادة فلا ينبغي أنْ يُستعمَل في حقِّه إلَّا أدوية الخوف، فإنَّ أدوية الرَّجاء تُقلب في حقِّه سُمومًا، كما أنَّ العسل شفاءٌ لمَن غَلبت عليه البرودة، مُضِرٌّ لمَن غَلبت عليه الحرارة، ولهذا يجب أنْ يكونَ واعظَ النَّاس متلطِّفًا، ناظرًا إلى موضِع العِلل، معالِجًا كلَّ عِلَّةٍ بما يليق بها، وهذا الزَّمان لا ينبغي أنْ يُستعمل فيه مع الخَلْق أسباب الرَّجاء، بل المبالَغة في التَّخويف، وإنَّما يَذكر الواعظ فضيلة أسباب الرَّجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه؛ لإصلاح المرضي.

---

(١) قال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٢٧٧): لم أجد له أصلاً، وكأنَّه مِن الإسرائيليَّات.

(٢) مجاهد بن جبرٍ، أبو الحجَّاج، تابعيٌّ، مولى السَّائب المخزوميِّ المكِّيِّ، قرأ على ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصَحِب ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مدَّةً كبيرةً، وأخذ عنه وحدَّث عنه قتادةُ وعمرو بن دينارٍ وغيرهم، قال قتادةُ: أَعلَمُ مَن بقي بالتَّفسير مجاهدٌ، (٢١ - ١٠٤هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٢م). (انظر: صفة الصَّفوة، ابن الجوزيِّ، ٢/ ٢٠٨، طبقات المفسِّرين، الدَّاوديُّ، ١/ ١١، الأعلام، الزِّركليُّ، ٦/ ٢٧٨).

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٣/ ٢٩٢).

وقد قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّما العالِمُ الذي لا يُقنِّطُ النَّاسَ مِن رَحمَةِ اللهِ، ولا يُؤَمِّنُهُم مَكْرَ اللهِ**»(١).

إذا عَرفت هذا، فاعلم أنَّ مِن أسباب الرَّجاء، ما هو مِن طريق الاعتبار، ومنها ما هو مِن طريق الأخبار، أمَّا الاعتبار فهو أنْ يتأمَّل جميع ما ذَكرناه مِن أصناف النِّعم في كتاب الشُّكر، فإذا عَلم لطائف الله تعالى بعباده في الدُّنيا، وعجائب حكمته التي راعاها في فِطرة الإنسان، وأنَّ لطفه الإلهيَّ لم يُقصَر على عباده في دقائق مصالِحهم في الدُّنيا، ولم يَرضَ أنْ تفوتَهم الزِّيادات في الرُّتبة، فكيف يَرضَى سياقتهم إلى الهلاك المؤبَّد؟ فإنَّ مَن لطف في الدُّنيا يَلطف في الآخرة؛ لأنَّ مدبِّر الدَّارَين واحدٌ.

وأمَّا استقراء الآيات والأخبار، فمِن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤].

وأَخبر تعالى أنَّه أَعدَّ النَّار لأعدائه، وإنَّما خوَّف بها أولياءه، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

---

(١) قال العراقيُّ في «المغني» (١/ ٨٥): رواه أبو بكر بن لال في «مكارم الأخلاق»، وأبو بكر بن السُّنِّيِّ، وابن عبد البرِّ مِن حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ابن عبد البرِّ: أكثرهم يُوقفونه عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومِن الأخبار ما روى أبو سعيدٍ الخدريُّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ إبْلِيسَ قَالَ لِرَبِهِ** عَزَّوَجَلَّ: **بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَادَامَتِ الأَرْوَاحُ فِيهِمْ. فَقَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**»[١].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَالذي نَفسِي بِيَدِه، لو لم تُذنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجاءَ بِقَومٍ يُذنِبُونَ، فَيَستَغفِرُونَ فَيَغفِرُ لَهُم**». رواه مسلمٌ[٢].

وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**سَدِّدُوا، وقَارِبُوا، وأَبشِرُوا، فَإِنَّه لَن يُدخِلَ أَحدًا الجَنَّةَ عَمَلُه**». قال: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «**ولا أَنا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنهُ بِرَحمَتِهِ**»[٣].

وفي «الصَّحيحَين»[٤] مِن حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**يَقولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **يومَ القِيامةِ: يا آدمُ، قُم فابعَثْ بَعثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: لَبَّيكَ وَسَعدَيكَ، وَالخَيرُ في يَدَيكَ، يا ربِّ، وَما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كُلِّ أَلفٍ تِسعُمائةٍ وَتِسعةٌ وَتِسعُونَ. فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ المَولُودُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَملٍ حَملَها، وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى، وَما هُم بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**». فشقَّ ذلك على النَّاس، حتى تغيَّرت وجوههم، وقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا ذلك الواحد؟ فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مِن يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ تِسعُمائةٍ وَتِسعَةٌ وَتِسعُونَ، وَمِنكُمْ واحِدٌ**». فقال النَّاس: الله أكبر. فقال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَرجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهلِ الجَنَّةِ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهلِ الجَنَّةِ،**

---

(١) رواه أبو يعلى المَوصِليُّ (١٢٧٣)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٨٧٨٨)، وأحمدُ (١١٢٣٧) قال في «مجمع الزوائد» (١٧٥٧٣): رواه أحمدُ وأبو يعلى بنحوه والطَّبرانيُّ في «الأوسط»، وأحد إسنادَي أحمدَ رجاله رجال الصَّحيح، وكذا أحد إسنادَي أبي يعلى.

(٢) رواه مسلمٌ (٢٧٤٩).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٨١٦) عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) رواه البخاريُّ (٣١٧٠)، ومسلمٌ (٢٢٢).

وَاللهِ إنِّي لأَرجُو أنْ تكُونُوا نِصفَ أَهلِ الجَنَّةِ»، فكَبَّر النَّاس، فقال: «**ما أَنتُم يَومَئذٍ في النَّاسِ إلَّا كَالشَّعرَةِ البَيضاءِ في الثَّورِ الأسود، أَو كَالشَّعرَةِ السَّوداءِ في الثَّورِ الأبيَضِ**».

فانظر كيف جاء بالتَّخويف، فلمَّا أَزعج جاء باللُّطف، ومتى اطمأنَّتِ القلوب إلى الهوى فينبغي أنْ تُزعَج، فإذا اشتدَّ قلقُها ينبغي أنْ تُسكَّنَ ليَعتدلَ الأمر.

وقال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: لَيغفرَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة مغفرةً لم تَخطر على قلبِ بشرٍ[1].

ورُوي أنَّ مَجوسيًّا استضاف إبراهيمَ الخليل عَلَيهِ السَّلَامُ فلم يُضفه، وقال: إنْ أسلمت أضفتُكَ، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيمُ منذ تسعين سنةً أَطعمه على كفره فسعى إبراهيمُ عَلَيهِ السَّلَامُ خَلْفه، فردَّه وأخبره في الحال، فتعجَّب مِن لطف الله تعالى، فأسلم.

فهذه الأسباب التي تُجتلَب بها روح الرَّجاء إلى قلوب الخائفِين واليائسِين، فأمَّا الحمقى المغرورون فلا ينبغي أنْ يسمعوا شيئًا مِن ذلك، بل يُسمَعون ما سنُورده في أسباب الخوف، فإنَّ أكثر النَّاس لا يُصلَحون إلَّا على ذلك، كعبد السُّوء الذي لا يستقيم إلَّا بالعصى.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٢٧) من قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٣٢): رواه الطَّبرانِيُّ في «الكبير» و«الأوسط»، وفي إسناد «الكبير» سعد بن طالبٍ أبو غيلانَ، وثَّقه أبو زُرعةَ، وابن حِبَّانَ، وفيه ضَعفٌ، وبقيَّة رجال «الكبير» ثِقاتٌ.

الشطر الثاني من الكتاب في الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم أنَّ الخوف عبارةٌ عن تألُّم القلب واحتراقه بسبب توقُّع مكروهٍ في الاستقبال.

مِثال ذلك مَن جنى على مَلِكٍ جنايةً، ثُمَّ وقع في يده، فهو يخاف القتل، ويجوِّز العفو، ولكن يكون تألُّم قلبه بحسب قوَّة عِلمه بالأسباب المُفضية إلى قتله، وتفاحُش جنايته، وتأثيرها عند المَلِك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جنايةٍ، بل عن صفة المَخوف وعظمته وجلاله؛ إذ قد علم أنَّ الله سبحانه لو أهلك العالَمِين لم يُبالِ، ولم يمنعه مانعٌ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى استغنائه، وأنَّه لا يُسأل عمَّا يَفعل، يكون خوفه.

وأخوف النَّاس أَعرفُهم بنفسه وبربِّه، ولذلك قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنا أَعرَفُكُم باللهِ، وَأَشَدُّكُم له خَشيةً**»[1]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. وإذا كَملت المعرفة أثَّرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثُمَّ ظهر على الجوارح والصِّفات بالنُّحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يُفضي إلى الموت، وقد يَصعد إلى الدِّماغ فيفسد العقل.

وأمَّا ظهور أثره على الجوارح فبكفِّها عن المعاصي، وإلزامها الطَّاعات تلافيًا لِمَا فَرَط، واستعدادًا للمستقبَل.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٧٦)، ومسلمٌ (١١٠٨).

قال بعضهم: مَن خاف أدلجَ[١]. وقال آخرُ: ليس الخائف مَن بكى، إنَّما الخائف مَن ترك ما يقدر عليه[٢].

ومِن ثمرات الخوف أنَّه يقمع الشَّهوات، ويكدِّر اللَّذَّات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهةً، كما يصير العسل مكروهًا عند مَن يشتهيه إذا عَلم أنَّ فيه سُمًّا، فتحترق الشَّهوات بالخوف، وتتأدَّب الجوارح، ويَذلُّ القلب ويَستكين، ويُفارقه الكِبْر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهَمِّ لخوفه، والنَّظر في خطر عاقبته، فلا يتفرَّغ لغيره، ولا يكون له شغلٌ إلَّا المراقَبة، والمحاسَبة، والمجاهَدة، والضِّنَّة[٣] بالأنفاس واللَّحظات، ومؤاخَذة النَّفْس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال مَن وقع في مخالِب سَبُعٍ ضارٍ لا يدري أيَغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلَّا ما وقع فيه، فقوَّة المراقَبة والمحاسَبة بحسب قوَّة الخوف، وقوَّة الخوف بحسب قوَّة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النَّفْس، وما بين يدَيها مِن الأخطار والأهوال.

وأقلُّ درجات الخوف ممَّا يظهر أثره في الأعمال أنْ يَمنع المحظورات، فإنْ منع ما يتطرَّق إليه إمكان التَّحريم سُمِّي وَرَعًا، وإنِ انضمَّ إليه الجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش فهو الصِّدق.

فَصْلٌ

اعلم أنَّ الخوف سَوط الله تعالى يسوق به عِباده إلى المواظَبة على العِلم والعمل؛ لينالوا بهما رُتبة القُرب مِن الله تعالى.

والخوف له إفراطٌ، وله اعتدالٌ، وله قُصورٌ.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٠)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٨٥٥) مِن قول النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٢) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (١٧٦) مِن قول إسحاق بن خلفٍ.

(٣) الضَّنُّ: البخل وشِدَّة المحاسبة.

والمحمود مِن ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة السَّوط للبهيمة، فإنَّ الأصلح للبهيمة ألَّا تخلو عن سَوطٍ، وليس المبالَغة في الضَّرب محمودةً، ولا المتقاصر عن الخوف أيضًا محمودٌ، وهو كالذي يَخطر بالبال عند سماع آيةٍ، أو سببٍ هائلٍ، فيُورث البكاء، فإذا غاب ذلك السَّبب عن الحِسِّ رجع القلب إلى الغَفلة، فهو خوفٌ قاصرٌ، قليل الجَدوى، ضعيف النَّفع، وهو كالقضيب الضَّعيف الذي يُضرب به دابَّةٌ قويَّةٌ، فلا يُؤلِمها ألمًا مُبرِّحًا، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يَصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على النَّاس كلِّهم، إلَّا العارفِين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عَزَّ وجودهم، وأمَّا المرتسِمون برسوم العِلم فإنَّهم أبعدُ النَّاس عن الخوف.

وأمَّا القِسم الأوَّل، وهو الخوف المُفرط، فهو كالذي يقوِّي ويُجاوز حَدَّ الاعتدال حتى يَخرج إلى اليأس والقُنوط، فهو أيضًا مذمومٌ؛ لأنَّه يمنع مِن العمل، وقد يُخرج إلى المرض والوله والموت، وليس ذلك محمودًا، وكلُّ ما يُراد لأمرٍ، فالمحمود منه ما يقضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذمومٌ، وفائدة الخوف الحذر، والورع، والتَّقوى، والمجاهَدة، والفِكر، والذِّكر، والتَّعبُّد وسائر الأسباب التي تُوصل إلى الله تعالى، وكلُّ ذلك يستعدي الحياة، مع صحَّة البَدن، وسلامة العقل، فإذا قَدح في ذلك شيءٌ، كان مذمومًا.

فإن قيل: فما تقول فيمَن مات مِن الخوف؟

فالجواب: أنَّه ينال لموته على تلك الحال مرتبةً لا ينالها لو مات مِن غير خوفٍ، إلَّا أنَّه لو عاش وترقَّى إلى درجات المعارف والمعامَلة كان أفضل، فإنَّ أفضل السَّعادة طول العُمر في طاعة الله تعالى، فكلُّ ما أبطل العمر والعقل والصِّحَّة فهو نقصانٌ وخسرانٌ.

بيانُ أقسامِ الخوفِ

اعلم أنَّ مقامات الخائفِين تختلف، فمنهم مَن يغلب على قلبه خوف الموت قَبل التَّوبة، ومنهم مَن يغلب عليه خوف الاستدراج بالنِّعم، أو خوف الميل عن الاستقامة،

ومنهم مَن يَغلب عليه خوف سوء الخاتمة، وأعلى مِن هذا خوف السَّابقة؛ لأنَّ الخاتمة فرع السَّابقة، والله تعالى يَرفع مَن يشاء مِن غير وسيلةٍ، ويضع مَن يشاء مِن غير وسيلةٍ، لا يُسأل عمَّا يَفعل.

وقد قال: هؤلاء في الجَنَّة ولا أُبالي، وهؤلاء في النَّار ولا أُبالي[1].

ومِن أقسام الخائفِين مَن يخاف سكرات الموت وشِدَّته، أو سؤال مُنكَرٍ ونكيرٍ، أو عذاب القبر.

ومنهم مَن يخاف هيبة الوقوف بين يدَي الله تعالى، والخوف مِن المناقَشة، والعبور على الصِّراط، والخوف مِن النَّار وأهوالها، أو حرمان الجَنَّة، أو الحِجاب عن الله سُبحانَهُ وتَعالَى، وكلُّ هذه الأسباب مكروهةٌ في أنفسها مَخوفةٌ.

فأعلاها رتبةً خوف الحِجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفِين، وما قَبل ذلك خوف الزَّاهِدين والعابِدين.

فَصْلٌ في فَضِيلَةِ الخَوْفِ والرَّجاءِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الغَالِبَ مِنْهُمَا

فضيلة كلِّ شيءٍ بقدر إعانته على طلب السَّعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقُرب منه، فكلُّ ما أعان على ذلك فهو فضيلةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وفي الحديث عن النَّبيِّ صَلَّىٰللهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إذا اقشَعَرَّ جِلدُ العَبدِ مِن مَخافَةِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **تَحاتَّتْ عَنهُ ذُنوبُهُ، كَما يَتحاتُّ عَنِ الشَّجَرةِ اليَابِسةِ وَرَقُهَا**»[2].

---

(١) رواه أحمدُ (١٧٥٩٣)، والبزَّار (٤١٤٣) وابن حِبَّانَ (٣٣٨)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٩٣٧٥).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٨٢)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٨٣٤٥)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٣٣٧): أخرجه الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ فيه مِن حديث العبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ.

وفي حديثٍ آخر: «لَن يَغضَبَ اللهُ عَلى مَن كانَ فِيهِ مَخافَةٌ»(١). وقال النَّبيُّ ﷺ: «قالَ عَزَّوَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، لا أَجمَعُ عَلى عَبدِي خَوفَينِ، وَلا أَجمَعُ لَه أَمنَينِ، إنْ أَمِنَنِي في الدُّنيَا أَخَفتُهُ يومَ القِيامةِ، وإنْ خافَنِي في الدُّنيَا أَمَّنتُهُ يَومَ القِيامَةِ»(٢).

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «عَينَانِ لا تَمَسُّهُما النَّارُ أَبدًا: عَينٌ بَكَتْ مِن خَشيَةِ اللهِ، وَعَينٌ باتَتْ تَحرسُ في سَبِيلِ اللهِ»(٣).

واعلم أنَّ قول القائل: أيُّهما أفضلُ الخوف أو الرَّجاء؟ كقوله: أيُّهما أفضلُ الخبز أو الماء؟

وجوابه: أنْ يُقال: الخبز للجائع أفضلُ، والماء للعطشان أفضلُ، فإنِ اجتمعا نُظر إلى الأغلب، فإنِ استويا، فهما متساويان، والخوف والرَّجاء دواءان يُداوَى بهما القُلوب، ففضلهما بحسب الدَّاء الموجود، فإنْ كان الغالب على القلب الأمن مِن مَكر الله عَزَّوَجَلَّ فالخوف أفضلُ، وكذلك إنْ كان الغالب على العبد المعصية، وإنْ كان الغالب عليه اليأس والقنوط فالرَّجاء أفضلُ، ويجوز أنْ يُقال مطلَقًا: الخوف أفضلُ. كما يُقال: الخبز أفضل مِن السَّكْنَجِبين؛ لأنَّ الخبز يُعالَج به مرض الجوع، والسكنجبين يُعالج به مرض الصَّفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة إلى الخبز أكثرُ، فهو أفضل بهذا الاعتبار؛ لأنَّ المعاصي والاغترار مِن الخَلْق أغلبُ.

وإنْ نظرنا إلى موضِع الخوف والرَّجاء، فالرَّجاء أفضلُ؛ لأنَّ الرَّجاء يُستقى مِن بحر الرَّحمة، والخوف يُستقى مِن بحر الغضب.

---

(١) أورده ابن الجوزيِّ في «الموضوعات» (٣/ ١٦٣) وقال: قال العقيليُّ: الفضل بن عطاءٍ، عن الفضل بن شعيبٍ إسنادٌ مجهولٌ لا يُعرف إلَّا مِن هذا الوجه.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٧٧)، وقال العراقيُّ في «المغني» (١/ ٢٤٧): أخرجه ابن حِبَّانَ في «صحيحه»، والبيهقيُّ في «الشُّعب» مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، ورواه ابن المبارك في «الزُّهد»، وابن أبي الدُّنيا في «كتاب الخائفِين» مِن رواية الحسن مُرسَلًا.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (١٦٣٩) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

وأمَّا المُتَّقي فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرَّجاء، ولذلك قيل: لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لَاعتدلا[١].

قال بعض السَّلف: لو نُودي: لِيدخل الجَنَّة كلُّ النَّاس إلَّا رجلًا واحدًا لخشيتُ أنْ أكونَ أنا ذلك الرَّجل، ولو نُودي: لِيدخل النَّار كلُّ النَّاس إلَّا رجلًا واحدًا لرجوتُ أنْ أكونَ أنا ذلك الرَّجل[٢].

وهذا ينبغي أنْ يكونَ مُختصًّا بالمؤمن المُتَّقي.

فإنْ قيل: كيف اعتدال الخوف والرَّجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التَّقوى؟ فينبغي أنْ يكونَ رجاؤه أقوى.

فالجواب: أنَّ المؤمن غيرُ مُتيقِّنٍ صحَّة عمله، فمَثله مَثل مَن بذر بذرًا، ولم يُجرِّب جِنسه في أرضٍ غريبةٍ، والبذر الإيمان، وشروط صحَّته دقيقةٌ، والأرض القلب، وخفايا خُبثه وصفائه مِن النِّفاق، وخبايا الأخلاق غامضةٌ، والصَّواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكلُّ هذا يُوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟ وهذا عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسأل حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل أنا مِن المنافِقِين؟[٣] وإنَّما خاف أنْ تلتبسَ حاله عليه، ويستر عيبه عنه، فالخوف المحمود هو الذي يَبعث على العمل، ويُزعج القلب عن الرُّكون إلى الدُّنيا.

وأمَّا عند نزول الموت فالأصلح للإنسان الرَّجاء، لأنَّ الخوف كالسَّوط الباعث على العمل، وليس ثَمَّة عملٌ، فلا يستفيد الخائف حينَئذٍ إلَّا تقطيع نِياط قلبه، والرَّجاء في هذه الحال يُقوِّي قلبه، ويُحبِّب إليه ربَّه، فلا ينبغي لأَحدٍ أنْ يُفارقَ الدُّنيا إلَّا مُحِبًّا لله تعالى، مُحِبًّا للقائه، حَسَنَ الظَّنِّ به.

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ٢٠٨)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٩٤) مِن قول مطرِّفٍ.

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (١/ ٥٣) عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه بمعناه أبو شيبةَ في «مصنَّفه» (٢٨٢).

وقد قال سليمانُ التَّيميُّ(١) عند الموت لمَن حضره: حدِّثني بالرُّخص، لعلِّي أَلقى الله وأنا أُحسِن الظَّنَّ به(٢).

فصلٌ في بيانِ الدواءِ الذي يُستجلَبُ به الخوفُ

وذلك يحصل بِطريقَين أحدهما أعلى مِن الآخَر، مِثاله أنَّ الصَّبيَّ إذا كان في بيتٍ، فدخل عليه سَبُعٌ، أو حَيَّةٌ، ربَّما لم يَخفْ منه، وربَّما مَدَّ يده إلى الحَيَّة ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها هرب الصَّبيُّ وخاف موافَقةً لأبيه، فخوف الأب عن معرفةٍ، وخوف الولد مِن غير معرفةٍ، بل هو تقليدٌ لأبيه.

فإذا عرفت هذا فاعلم أنَّ الخوف مِن الله تعالى على مقامَين:

أحدهما: الخوف مِن عذابه، وهذا خوف عامَّة الخَلْق، وهو حاصلٌ بالإيمان بالجَنَّة والنَّار، وكونهما جزاءَين على الطَّاعة والمعصية، ويَضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوَّة الغَفلة.

وزوال الغَفلة يَحصل بالتَّذكُّر، والتَّفكُّر في عذاب الآخرة، ويزيد بالنَّظر إلى الخائفِين، ومُجالَستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثَّاني: الخوف مِن الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفِين، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البُعد والحِجاب.

---

(١) سليمان بن قتة التَّيميُّ مولاهم البصريُّ، سمع مِن معاويةَ، وعمرو بن العاص، وحدَّث عنه موسى بن أبي عائشةَ، وحميد الطَّويل، وأبان بن أبي عيَّاش. انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٥٩٦).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٧٧).

قال ذو النُّون[1]: خوف النَّار عند خوف الفراق، كقطرةٍ في بحرٍ، ولِعامَّة النَّاس حَظٌّ مِن هذا الخوف، ولكنْ بمجرَّد التَّقليد، فهو يُضاهي خوف الصَّبيِّ مِن الحيَّة تقليدًا لأبيه، فلذلك يضعف، فإنَّ العقائد التَّقليديَّة ضعيفةٌ في الغالب، إلَّا إذا قَوِيت بمشاهَدة أسبابها المولِّدة لها على الدَّوام، وبالمواظَبة على مقتضاها في تكثير الطَّاعات، واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى، خافه بالضَّرورة، ولا يحتاج إلى علاجٍ يَجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضَّرورة.

ومَن قصَّر فسبيله أنْ يعالِجَ نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيُطالع أحوال الخائفِين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الرَّاجِين المغرورِين، فلا يتمارَى في أنَّ الاقتداء بهم أَولى؛ لأنَّهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفي «صحيح مسلمٍ»[2] مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دُعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنازة غلامٍ مِن الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى لهذا، عصفورٌ مِن عصافير الجنَّة، لم يُدرِكِ الشَّرَّ ولم يعمله، قال: «**أَوَغَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إِنَّ اللَّهَ** عَزَّ وَجَلَّ **خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ**».

ومِن أعجب ما ظاهِره الرَّجاء وهو شديد التَّخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فإنَّه علَّق المغفرة على أربعة شروطٍ، يبعد تصحيحها.

---

(١) ذو النُّون المصريُّ ثوبانُ بن إبراهيمَ الزَّاهد، شيخ الدِّيار المصريَّة، روى عن: مالك، والليث، وابن لهيعة وغيرهم، وعنه: أحمد بن صبيح الفيومي، وربيعة بن محمد الطائي، ورضوان بن محيميد وغيرهم. توفي سنة (٢٤٥). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١١/ ٥٣٢)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ١٠٢).

(٢) رواه مسلمٌ (٢٦٦٢).

ومِن المُخوِّفات قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١،٢]، ثُمَّ ذَكَر بعدها أربع شروطٍ، بها يقع الخلاص مِن الخسران، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

ومعلومٌ أنَّه لو كان الأمر مستأنَفًا لامتدَّتِ الأطماع في التَّحيُّل، فأمَّا ما حُقَّ في القِدم، فلا يُمكن تداركه، فليس إلَّا التَّسليم، ولولا أنَّ الله تعالى لَطف بعارفِيه، وروَّح قلوبهم بالرَّجاء لاحترقت مِن نار الخوف.

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما أَحدٌ أَمِن على إيمانه أنْ يسلبه عند الموت إلَّا سلبه[١].

ولمَّا حضرت سفيانَ الثَّوريَّ الوفاةُ جعل يبكي، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الله، أراك كثير الذُّنوب. فرفع شيئًا مِن الأرض، وقال: والله لَذُنوبي أهونُ عندي مِن هذا، ولكن أخاف أنْ أُسلب الإيمان قَبل الموت[٢].

وكان سهلٌ رَحِمَهُ اللهُ تعالى يقول: المُريد يخاف أنْ يُبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أنْ يُبتلى بالكفر[٣].

ويُروى أنَّ نبيًّا مِن الأنبياء شكا إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إليه: أما رضيتَ أنْ عَصَمتُ قلبك أنْ يَكفرني حتى تسألني الدُّنيا؟ فأخذ التُّراب، فوضعه على رأسه، وقال: بلى قد رضيتُ، فاعصمني مِن الكفر[٤].

فإذا كان هذا خوف العارفِين مِن سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضُّعفاء؟

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٣/ ٢٩٠).
(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٧/ ١٢).
(٣) رواه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٨١).
(٤) رواه السفيري في «المجالس الوعظيَّة» (١/ ٣٠١).

ولسُوء الخاتمة أسبابٌ تتقدَّم على الموت، مِثل البدعة، والنِّفاق، والكِبر، ونحو ذلك مِن الصِّفات المذمومة، ولذلك اشتدَّ خوف السَّلف مِن النِّفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أنِّي بريءٌ مِن النِّفاق، كان أَحبَّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس(١). ولم يُريدوا بذلك نفاق العقائد، إنَّما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد في الحديث الصَّحيح: «**آيةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أَخلَفَ، وَإذا ائتُمِنَ خانَ**»(٢).

وسوء الخاتمة على رُتبتَين:

إحداهما أعظمُ، وهي أنْ يَغلب على القلب والعياذ بالله شَكٌّ أو جحودٌ عند سكرات الموت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدَّائم.

والثَّانية دونها، وهي أنْ يسخط الأقدار، ويتكلَّم بالاعتراض، أو يَجور في وصيَّته، أو يموت مُصِرًّا على ذنبٍ مِن الذُّنوب.

وقد رُوي أنَّ الشَّيطان لا يكون في حالٍ أَشدَّ على ابن آدمَ مِن حال الموت، يقول لأعوانه: دُونكم هذا، فإنَّه إنْ فاتكم اليوم لم تلحقوه(٣).

وقد رُوي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه كان يدعو: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أنْ يَتَخبَّطَنِي(٤) الشَّيطَانُ عِندَ المَوتِ**»(٥).

قال الخطَّابيُّ: وذلك أنْ يستوليَ على الإنسان حينَئذٍ، فيُضلَّه، ويحولَ بينه وبين التَّوبة، أو يمنعه الخروج عن مظلَمةٍ، أو يُؤيسه مِن رحمة الله، ويكره إليه الموت، فلا يرضى بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) اخرجه ابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (١٠٥٩)، وأبو بكر بن الخلال في «السُّنَّة» (١٦٦١).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٣)، ومسلمٌ (٥٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ذكره العظيم آبادي في «عون المعبود» (٤/ ٢٨٧).

(٤) يتخبَّطني: تخبَّطه الشَّيطان إذا صَرَعه ولَعِب به. انظر «جامع الأصول» (٤/ ٣٦١).

(٥) رواه أبو داودَ (١٥٥٢)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٣٨١)، و«أحمد» (١٥٥٢٣) عن أبي اليَسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والأسباب التي تُفضي إلى سوء الخاتمة لا يُمكن انحصارها على التَّفصيل، لكنْ يُمكن الإشارة إلى مجامع ذلك، أمَّا الختم على الشَّكِّ والجحود فسببه البِدعة، ومعناها أنْ يعتقدَ في ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحقِّ، إمَّا تقليدًا، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت بان له بُطلان ما اعتقده، فيظنُّ أنَّ جميع ما اعتقده هكذا لا أصلَ له.

ومَن اعتقد في الله سبحانه وصفاته اعتقادًا مجمَلًا على طريقة السَّلف مِن غير بحثٍ ولا تنقيرٍ، فهو بمعزلٍ عن هذا الخطر إنْ شاء الله تعالى.

وأمَّا الختم على المعاصي فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يُورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مُطفِئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حُبُّ الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضَعفًا؛ لاستشعاره فراق الدُّنيا، فإنَّ السَّبب الذي يُفضي إلى مِثل هذه الخاتمة هو حُبُّ الدُّنيا، والرُّكون إليها، مع ضعف الإيمان المُوجِب لضعف حُبِّ الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن وجد في قلبه حُبَّ الله تعالى أغلبَ مِن حُبِّ الدُّنيا، فهو أَبعدُ مِن هذا الخطر، وكلُّ مَن مات على مَحبَّة الله تعالى، قُدِم به قُدوم العبد المُحسِن المُشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه مِن الفرح والسُّرور بمجرَّد القُدوم، فضلًا على ما يستحقُّه مِن الإكرام.

ومَن فارقه الرُّوح في حالٍ خَطَر بباله فيها الإنكار على الله سبحانه في فِعْله، أو كان مُصِرًّا على مخالَفته، قَدِم على الله قُدوم مَن قُدِم به قهرًا، فلا يخفى ما يستحقُّه مِن النَّكال.

فمَن أراد طريق السَّلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أنَّ العِلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفِين.

وقد ورد في «الصَّحيحَين»(١) مِن حديث سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ، وَإنَّه لَمِنْ أَهلِ الجَنَّةِ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ، وَإنَّه لَمِنْ أَهلِ النَّارِ**».

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٤٢)، ومسلمٌ (١١٢).

ورُوي: «إن العبد إذا عُرج بروحه إلى السَّماء قالت الملائكة: سبحان الله، نجا هذا العبد مِن الشَّيطان، يا ويحه! كيف نجا؟»

وإذا عرفتَ معنى سوء الخاتمة فاحذر أسبابها، وأَعِدَّ ما يَصلح لها، وإيَّاك والتَّسويف بالاستعداد، فإنَّ العُمر قَصيرٌ، وكلُّ نَفَسٍ مِن أنفاسك بمنزلة خاتمتك؛ لأنَّه يُمكن أنْ تُخطف فيه روحكَ، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه.

واعلم أنَّه لا يَتيسَّر لك الاستعداد بما يَصلح، إلَّا أنْ تَقنَع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك مِن أخبار الخائفين ما نرجو أنْ يُزيل بعض القساوة مِن قلبك، فإنَّك متحقِّقٌ أنَّ الأنبياء والأولياء كانوا أعقلَ منك، فتفكَّر في اشتداد خوفهم، لعلَّك تَستعدُّ لنفسك.

ذِكرُ خوفِ الملائكةِ عليهم السَّلامُ

قال الله تعالى في صِفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد روينا عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**إنَّ للهِ مَلائِكَةً تَرعدُ فَرائِصُهُمْ مِنْ مَخافَتِهِ**»[١]. وذكر تمام الحديث.

وبَلَغَنا أنَّ حَمَلة العرش مَن تسيل عينَيه مِثل الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تُخشى حقَّ خشيتك. فيقول الله: لكن الذين يحلفون باسمي كاذبِين لا يعلمون ذلك[٢].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لمَّا كانَ لَيلَةَ أُسرِيَ بِي رَأَيتُ جِبريلَ** عَلَيهِ السَّلَامُ **[كالحلس]**[٣] **البالِي مِن خَشيَةِ اللهِ تَعالَى**»[٤].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٨٨٦)، وأبو الشَّيخ في «العَظَمة» (٥١٥).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٥١٦).

(٣) ورد في «المطبوع» [كالشن].

(٤) عزاه المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (١٥١٦٣) إلى الطَّبرانيِّ في «الأوسط» عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبَلَغنا أنَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكي فقال له: «ما يُبكِيكَ؟ قال: **ما جَفَّت لي عَينٌ مُنذُ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ مَخافَةَ أنْ أَعصِيَهُ، فَيُلقِيَنِي فِيها**»[١].

وعن يزيدَ الرَّقاشيِّ[٢] قال: إنَّ لله تعالى ملائكةً حول العرش تَجرِي أعينهم مِثل الأنهار إلى يوم القيامة، يَميدون كأنَّما تنفضهم الرِّيح مِن خشية الله تعالى، فيقول لهم الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: يا ملائكتي ما الذي يُخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا ربِّ، لو أنَّ أهل الأرض اطَّلعوا مِن عِزَّتك وعظمتك على ما اطَّلعنا عليه، ما أساغوا طعامًا ولا شرابًا، ولا انبسطوا في فُرُشِهم، ولَخَرَجوا إلى الصَّحارَى يَخورُون كما تَخور البقر.

وقال محمَّد بن المنكدر[٣]: لمَّا خُلِقت النَّار طارت أفئدة الملائكة مِن أماكنها، فلمَّا خَلَق آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عادت[٤].

ورُوِي أنَّه لمَّا ظهر مِن إبليسَ ما ظهر، طفق جبريلُ وميكائيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يبكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: ما هذا البكاء؟ قالا: يا ربِّ، ما نأمن مِن مكرك. فقال تعالى: هكذا فكُونا[٥].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٨٨٧) عن أبي عِمرانَ الجَونِيِّ مُرسَلاً.

(٢) يزيد ابن أبان الرَّقَاشيُّ بتخفيف القاف، ثُمَّ معجمةٌ، أبو عمرو البصريُّ القاصُّ بتشديد المهمَلة، زاهدٌ ضعيفٌ، مِن الخامسة، مات قَبل العشرين. انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص٥٩٩).

(٣) محمَّد بن المنكدِر بن عبد الله القرشيُّ التَّيميُّ، وُلد سنة بضعٍ وثلاثين، وحدَّث عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن سلمانَ، وأبي رافعٍ، وأسماءَ بنت عميسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وعنه عمرو بن دينارٍ، والزُّهريُّ، وهشام بن عروةَ وغيرهم، توفِّي سنة (١٣٠). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٣٥٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ١١٢).

(٤) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ١٥٠).

(٥) رواه أبو الشَّيخ في «العظمة» (٣٨٣)، وقال ابن حَجَرٍ في «المطالب العالية» (١٣/ ٥٤٥): وسنده مقطوعٌ.

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهبٌ: بكى آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على الجنَّة ثلاثَمائة عامٍ، وما رفع رأسه إلى السَّماء بعد ما أصاب الخطيئة[(١)].

وقال وهيب بن الورد[(٢)]: لمَّا عاتب الله تعالى نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ في ابنه فقال: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] بكى ثلاثَمائة عامٍ حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول مِن البكاء.

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان يُسمع لصدر إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا قام إلى الصَّلاة أزيزٌ مِن بُعدٍ خوفًا مِن الله عَزَّ وَجَلَّ[(٣)].

وقال مجاهدٌ: لمَّا أصاب داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الخطيئةُ خرَّ لله ساجدًا أربعين يومًا حتى نبَت مِن دموع عينَيه مِن البقل ما غطَّى رأسه، ثُمَّ نادى: يا ربِّ، قَرِح الجبين، وجَمدت العين، وداودُ لم يَرجع إليه في خطيئته شيءٌ. فنودي: أجائعٌ أنتَ فتُطعَم؟ أم مريضٌ فتُشفى؟ أم مظلومٌ فتُنصر؟ فنَحَب نحيبًا هاج كلُّ شيءٍ نبت، فعند ذلك غُفر له[(٤)].

وقيل: كان داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يعوده النَّاس يظنُّون أنَّه مريضٌ، وما به إلَّا شِدَّة الفَرَق مِن الله عَزَّ وَجَلَّ[(٥)].

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ٧٧) بمعناه ولكنه قال: سبعين عامًا.

(٢) وُهيب بن الورد المكيُّ، حدَّث عن حميدٍ الأعرج، وعمر بن محمد بن المنكدر، وغيرهما، وعنه بِشر بن منصورٍ السُّلميُّ، وابن المبارك، وعبد الرَّزَّاق وغيرهم، توفِّي سنة (١٥٣). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٧/ ١٩٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ١٢٦).

(٣) أخرج معناه القاضي البيضاوي في «تحفة الأبرار» (٤٤٤).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد والرَّقائق» (٤٧٤).

(٥) رواه الحكيم التِّرمذيُّ في «نوادر الأصول» (٩١٢).

وكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا ذَكَر الموت يقطر جلده دمًا[١].

وبكى يحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حتى بدت أضراسه، فاتَّخذت أُمُّه قطعتَين مِن لبودٍ فألصقتهما بخدَّيه.

ذِكرُ خوفِ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ مُستجمِعًا [ضحكًا][٢]، حتى أرى لهواته[٣] إنَّما كان يتبسم، وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرِف ذلك في وجهه، فقلتُ: يا رسول الله، النَّاس إذا رأَوا الغيم فَرِحوا رجاء أنْ يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفَتِ الكراهةُ في وجهك. فقال: «**يَا عَائِشَةُ، ما يُؤمِنُني أنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ قَدْ عُذِّبَ قَومٌ بِالرِّيحِ، وَقَد رَأَى قَومٌ العَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمطِرُنا**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[٤].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلِّي ولِجَوفه أزيزٌ كأزيز المِرجَل مِن البكاء[٥].

ذِكرُ خوفِ أصحابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم

روينا عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان يُمسك لسانه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد[٦].

---

(١) أخرجه المناويُّ في «فيض القدير» (٢/ ٨٦).

(٢) ورد في " المطبوع، خ، ن " [ضاحكًا].

(٣) اللَّهاة: اللَّحمة المُشرفة على الحَلْق، وجمعها لَهَوات ولَهَيات. انظر «لسان العرب» مادة (لهو)

(٤) رواه البخاريُّ (٤٥٥١)، ومسلمٌ (٨٩٩).

(٥) رواه أبو داودَ (٩٠٤)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (٥٤٩)، وأحمدُ (١٦٣١٢)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (١٨٨٩)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٧٢٩).

(٦) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٥٩٦)، والبزَّار في «مسنده» (٨٤).

وقال: يا ليتني كنتُ شجرةً تُعضَد، ثُمَّ تُؤكَل[١].

وكذلك قال طلحةُ وأبو الدَّرداء[٢] وأبو ذرٍّ[٣] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وكان عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسمع آيةً، فيَمرض فيُعاد أيامًا. وأَخذ يومًا [تبنةً][٤] مِن الأرض فقال: يا ليتني كنتُ هذه التِبنة، يا ليتني لم أكُن شيئًا مذكورًا، يا ليت أمِّي لم تَلِدني[٥]. وكان في وجهه خطَّان أسودان مِن البكاء[٦].

وقال عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَدِدتُ أنِّي إذا مِتُّ لا أبعث[٧].

وقال أبو عبيدةَ بن الجرَّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَدِدتُ أنِّي كنتُ كبشًا فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحَسوا مرقي[٨].

وقال عمرانُ بن حصينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٩]: يا ليتني كنتُ رمادًا تذروه الرِّياح[١٠].

وقال حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَدِدتُ أنَّ لي إنسانًا يكون في مالي، ثُمَّ أُغلِق عليَّ بابي، فلا يدخل عليَّ أَحدٌ حتى ألحق بالله عَزَّ وَجَلَّ[١١].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٦٨)

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٦٨)

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٦٤)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٤١٧٢).

(٤) ورد في " الأصل "[بنتة].

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٩)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٤١٧٦)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٨٩).

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٥١)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٤١٧٦)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٨٥).

(٧) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٤٥٤٩).

(٨) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٩٠).

(٩) عمران بن حصينٍ، صحابيٌّ، روى عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدَّة أحاديثَ، وكان إسلامه عامَ خيبر، وغزا عدَّة غزواتٍ، وكان صاحب راية خُزاعة يوم الفتح، حدَّث عنه مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، وأبو رجاءٍ العطارديُّ وغيرهما، توفِّي سنة (٥٢). انظر «أسد الغابة»، ابن الأثير، (٣/ ٧٧٨)، «الإصابة»، ابن حجر، (٤/ ٥٨٤)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٢/ ٥٠٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ٧٠).

(١٠) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٩٠).

(١١) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٨)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٥).

وكان مجرى الدموع في خدِّ ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كالشِّراك البالي.

وقالت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يا ليتني كنتُ نسيًا مَنسيًّا[١].

وقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والله لقد رأيتُ أصحاب محمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يُصبحون شُعثًا غُبرًا، بين أعينهم أمثال رُكَب المِعزى، قد باتوا لله سُجَّدًا وقيامًا، يَتلُون كتاب الله تعالى، يُراوحون بين جِباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذَكَروا الله عَزَّوَجَلَّ، مادوا كما يَميد الشَّجر في يوم الرِّيح، وهملت أعينهم حتى تبلَّ ثيابهم، والله لَكأنَّ القوم باتوا غافلين[٢].

ذِكْرُ خَوْفِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ

قال هَرِم بن حيَّانَ[٣]: وَدِدتُ والله أنِّي شجرةٌ أكَلتني ناقةٌ، ثُمَّ قذفتني بعرًا، ولم أُكابد الحساب يوم القيامة، إنِّي أخاف الدَّاهية الكبرى[٤].

وكان عليُّ بن الحسين إذا توضَّأ اصفرَّ وتغبَّر، فيقال: ما لك؟ فيقول: أتدرون بين يدَي مَن أُريد أنْ أقوم؟[٥]

وكان محمَّد بن واسعٍ يبكي عامَّة اللَّيل لا يكاد يَفتر.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٩٠).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١/ ٧٦).

(٣) هَرِم بن حيَّان العبديُّ البصريُّ، حدَّث عن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وروى عنه الحسن البصريُّ وغيره، وَلِي بعض الحروب في أيَّام عمرَ وعثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ببلاد فارس، توفِّي بعد سنة (٢٦). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٤٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ٨٢).

(٤) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ١١٩).

(٥) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٧٨٧).

كتاب الزُّهد والفقر

اعلم أنَّ حُبَّ الدُّنيا رأس كلِّ خطيئةٍ، وبُغْضها أساس كلِّ طاعةٍ، وقد سبق ذَمُّ الدُّنيا في رُبع المهلِكات، ونحن نذكر الآن فَضْل البغض لها، والزُّهد فيها، فإنَّه رأس المُنجِيات، ومقاطَعتها إمَّا أنْ تكونَ بانزوائها عن العبد، ويُسمَّى ذلك فقرًا، وإمَّا بانزواء العبد عنها، ويُسمَّى ذلك زهدًا؛ ولكلِّ واحدٍ منهما درجةٌ في نيل السَّعادات، وحَظٌّ في الأعانة على الفوز والنَّجاة، ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلَّق بهما في شطرَين:

الشَّطر الأوَّل من الكتاب في الفقر

اعلم أنَّ الفقير إلى الشَّيء هو المحتاج إليه، وكلُّ موجودٍ سوى الله تعالى فهو فقيرٌ؛ لأنَّه مُحتاجٌ إلى دوام الوجود، وذلك مُستفادٌ مِن فضل الله تعالى.

وأمَّا فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يُحصَر، ومِن جملة حاجاته ما يُتوصَّل إليه بالمال، ثُمَّ يُتصوَّر أنْ يكون له خمسة أحوالٍ عند فقره:

الأُولى: أنْ يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذَّى به، وهرب مِن أخذه بُغضًا له، واحترازًا مِن شَرِّه وشغله، وصاحب هذه الحالة يُسمَّى زاهدًا.

الحالة الثَّانية: أنْ يكون بحيث لا يَرغب فيه رغبةً يَفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهةً يتأذَّى بها، وصاحب هذه الحالة يُسمَّى راضيًا.

الثَّالثة: أنْ يكونَ وجود المال أَحبَّ إليه مِن عدمه؛ لرغبةٍ له فيه، ولكنْ لم يبلغ مِن رغبته أنْ ينهضَ لطلبه، بل إنْ أتاه عفوًا أو صفوًا أخذه وفَرِح به، وإنِ افتقر إلى تعبٍ في طلبه لم يَشتغلْ به، وصاحب هذه الحالة يُسمَّى قانعًا.

الرَّابعة: أنْ يكونَ تَرْكه للطَّلب لعجزه، وإلَّا فهو راغبٌ فيه، لو وجد سبيلًا إلى طلبه بالتَّعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يُسمَّى الحريص.

الخامسة: أنْ يكون مُضطَرًّا إلى ما قصده مِن المال، كالجائع والعاري الفاقد للمأكول والملبوس، ويُسمَّى صاحب هذه الحالة مُضطَرًّا، كيفما كانت رغبته في الطَّلب ضعيفةً أو قوِّيةً.

وأعلى هذه الخمسة الحالة الأُولى، وهي الزُّهد، ووراءها حالةٌ أُخرى أعلى منها، وهي أنْ يستويَ عنده وجود المال وعدمه، فإنْ وجده لم يَفرحْ به، ولم يتأذَّ إنْ فقده، كما روينا عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها جاءها مالٌ في غرارتَين[1]، ففرَّقته في يومها، فقالت لها جاريتها: أَمَا استطعتِ أنْ تشتري لنا ممَّا قسمتِ لحمًا بدرهمٍ نُفطر عليه؟ فقالت: لو ذكَّرتِني لفعلتُ[2].

فمَن هذه حاله لو كانت الدُّنيا بحذافيرها في يده لم تَضرَّه؛ إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى، لا في يد نفسه.

وينبغي أنْ يُسمَّى صاحب هذه الحالة المستغني؛ لأنَّه غنيٌّ عن فقد المال ووجوده جميعًا، ومتى كان الزَّاهد في الدُّنيا لا يرغب في وجودها ولا عدمه، فهو في غاية الكمال.

قال أحمدُ بن أبي الحواري[3] لأبي سليمانَ الدَّارانِيِّ: قال مالك بن دينارٍ للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذِ الزَّكاة التي أهديتَها لي، فإنَّ الشَّيطان يُوسوس لي أنَّ اللِّصَّ قد أخذها. فقال أبو سليمانَ: هذا مِن ضعف الزُّهد، هو قد زهد في الدُّنيا، ما عليه من أخذها.

---

(١) الغرارة: كيس كبير من الصُّوف أو الشَّعر. انظر «معجم لغة الفقهاء» مادة (غرر).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٤٧).

(٣) أحمد بن أبي الحَواريِّ عبد الله بن ميمون التَّغلبيُّ، سمع مِن سفيانَ بن عيينةَ، وعبد الله بن إدريس، وأبي معاويةَ، وغيرهم، وحدَّث عنه سلمةُ بن شبيب، وأبو زُرعة الدِّمشقيُّ، وأبو زُرعة الرَّازيُّ وغيرهم، توفِّي سنة (٢٤٦). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٢/ ٨٥).

فالهرب مِن المال، والزُّهد فيه في حقِّ الضُّعفاء كمالٌ، فأمَّا في حقِّ الأنبياء والأقوياء فسواءٌ عليهم وجوده وعدمه، وقد يُظهر القويُّ النِّفار مِن المال؛ ليقتدي به الضُّعفاء في التَّرك، والله أعلمُ.

فَصْلٌ فِي فَضِيلَةِ الفَقْرِ وَتَفْضِيلِ الفَقْرِ عَلَى الغِنَى

أمَّا الآيات فقد قال الله تعالى في معرِض المدح في حقِّ الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]... الآية.

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]... الآية.

وأمَّا الأخبار فكثيرةٌ:

منها قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قُمتُ على بَابِ الجَنَّةِ فإذا عَامَّةُ مَن يَدخُلُها الفُقَرَاءُ، إلَّا أنَّ أَصحَابِ الجِدِّ مَحبُوسُونَ»**. وذكر تمام الحديث، وهو في «الصَّحيحَين»[١].

وفيهما[٢] مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«اللَّهمَّ اجعَلْ رِزقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا»**.

وفيهما[٣] مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ما شَبع آل محمَّدٍ منذ قَدِم المدينة مِن طعام البُرِّ ثلاث ليالٍ تِباعًا حتى قُبض.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٠)، ومسلمٌ (٢٧٣٦) عن أسامةَ بن زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٩٥)، ومسلمٌ (١٠٥٥).
(٣) رواه البخاريُّ (٥١٠٠)، ومسلمٌ (٢٩٧٠).

وفي أفراد مسلمٍ[١] مِن حديث عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقد رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَظَلُّ اليومَ يلتوي، ما يجد دَقَلًا يملأ بطنه.

وروى أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**يَدخُلُ فُقَرَاءُ المُؤمِنِينَ الجَنَّةَ قَبلَ أَغنِيائِهِم بِخَمسِمِائةِ عامٍ**». وقال التِّرمذيُّ: حديثٌ صحيحٌ[٢].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إيَّاكِ وَمُجالَسَةَ الأَغنِياءِ**»[٣].

وقال: «**يُؤْتَى بِالْعَبدِ يَوْم الْقِيَامَةِ، فَيَعتَذِرُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **إِلَيْهِ كَمَا يعتَذرُ الرَّجُلُ إلى الرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا زَويتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِهَوانِكَ عَليَّ، وَلَكِن لِمَا أَعددْتُ لَكَ مِن الْكَرَامَةِ، اخْرُج يَا عَبدِي إِلَى هَذِه الصُّفُوفِ، فَمن أَطعَمَكَ فِيَّ أَو كَساكَ يُرِيدُ بِذلِكَ وَجْهي فَخذ بِيَدِهِ فَهُوَ لَك**»[٤].

وقيل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا رأيتَ الفقر مُقبِلًا فقل: مرحبًا بشِعار الصَّالحِين، وإذا رأيتَ الغِنى مقبلًا فقل: ذَنْبٌ عُجِّلت عُقوبته[٥].

وقال أبو الدَّرداء: حِساب ذي الدِّرهمَين أَشدُّ حسابًا مِن ذي الدِّرهم[٦]. وكان الفقراء يتقدَّمون في مجلس سفيانَ الثَّوريِّ على الأغنياء[٧].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٩٧٨) عن النُّعمان بن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والدَّقل: أردأ التَّمر. انظر «لسان العرب» مادة (دقل).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٥٤)، وأحمدُ (٧٩٤٦)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (١٧٨٠) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ. وقال أيضًا: ومعنى قوله: «**إيَّاكَ وَمُجَالَسةَ الأغنِياءِ**». هو نحو ما رُوي عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**مَنْ رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الخَلْقِ وَالرِّزْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ هُوَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا يَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ**» وحديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا في «الصَّحيحَين».

(٤) قال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٤١٢): أخرجه أبو الشَّيخ في «كتاب الثَّواب» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسنادٍ ضعيفٍ، وأخرج أوَّله أبو نُعيمٍ في «الحلية».

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ١٣٧).

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣) عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ٣٦٥).

وجاء رَجلٌ إلى إبراهيمَ بن أدهمَ بعشرة آلاف درهمٍ، فلم يقبلها، وقال: تُريد أنْ تمحوَ اسمي مِن ديوان الفقراء؟ لا أفعل[١].

وقال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيشُهُ كَفَافًا، وَقَنعَ بِما آتاهُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ»[٢].

وقد ذكرنا في القناعة وذَمِّ الحرص والطَّمع في كتاب ذَمِّ المال ما يُغني عن الإعادة، ولا يُقدَر على ذلك إلَّا بعد قوَّة الصَّبر.

وأمَّا التَّفضيل بين الغنيِّ والفقير فظاهر النَّقل يدلُّ على تفضيل الفقير، ولكنْ لا بدَّ مِن تفصيلٍ، فنقول: إنَّما يُتصوَّر الشَّكُّ والخلاف في فقيرٍ صابرٍ ليس بحريصٍ، بالإضافة إلى غنيٍّ شاكرٍ، يُنفِق ماله في الخَيرات، أو فقيرٍ حريصٍ مع غنيٍّ حريصٍ؛ إذ لا يخفى أنَّ الفقير القانع أفضل مِن الغنيِّ الحريص المُمسِك، وأنَّ الغنيَّ المُنفِق ماله في الخيرات أفضل مِن الفقير الحريص، فإنْ كان الغنيُّ مُتمتِّعًا بالمال في المُباحات فالفقير القنوع أفضلُ منه.

وكَشْف الغطاء في هذا أنَّ ما يُراد لغيره ولا يُراد لعينه ينبغي أنْ يُضاف إلى مقصوده؛ إذ به يظهر فَضْله، والدُّنيا ليست محذورةً لعينها، بل لكونها عائقةً عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوبًا لعينه، ولكن لأنَّ فيه فَقْد العائق عن الله تعالى، وعدم التَّشاغُل عنه.

وكم مِن غنيٍّ لا يَشغله الغنَى عن الله تعالى، كسليمانَ عَلَيهِ السَّلَامُ، وكذلك عثمان، وعبد الرَّحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا.

وكم مِن فقيرٍ شَغله فقره عن المقصود، وصَرَفه عن حُبِّ الله تعالى والأُنس به، وإنَّما الشَّاغل له حُبُّ الدُّنيا؛ إذ لا يجتمع معه حُبُّ الله تعالى، فإنَّ المُحِبَّ للشَّيء مشغولٌ به، سواءٌ كان في فراقه، أو في وصاله، بل قد يكون شُغله في الفراق أكثرَ.

---

(١) رواه السُّوسيُّ في «المعسول» (٣٤٦/٢٤).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٩)، وأحمدُ (٢٣٩٤٤)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٧٨٦) عن فضالةَ بن عبيدٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ صحيحٌ.

والدُّنيا معشوقة الغافلِين، فالمحروم منها مشغولٌ بطلبها، والقادر عليها مشغولٌ بحِفظها والتَّمتُّع بها، وإنْ أَخذتَ الأمر باعتبار الأكثر فالفقير عن الخطر أبعدُ؛ لأنَّ فتنة السَّرَّاء أَشدُّ مِن فتنة الضَّرَّاء، ومِن العصمة ألَّا تجدَ، ولمَّا كان ذلك طبع الآدميِّين إلَّا القليل منهم جاء الشَّرع بذَمِّ الغِنى وفضل الفقر، وقد تقدَّم ما يدلُّ على فضله.

ومِن ذلك ما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْتَقَى مُؤْمِنَانِ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مُؤْمِنٌ غَنِيٌّ، وَمُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، كَانَا فِي الدُّنْيَا، فَأُدْخِلَ الْفَقِيرُ الْجَنَّةَ، وَحُبِسَ الْغَنِيُّ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُحْبَسَ، ثُمَّ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَلَقِيَهُ الْفَقِيرُ، فَقَالَ: أَيْ أَخِي، مَاذَا حَبَسَكَ؟ وَاللَّهِ لَقَدِ احْتُبِسْتَ حَتَّى خِفْتُ عَلَيْكَ. فَقَالَ: أَيْ أَخِي، حُبِسْتُ بَعْدَكَ مَحْبِسًا فَظِيعًا كَرِيهًا، وَمَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى سَالَ مِنِّي مِنَ الْعَرَقِ مَا لَوْ وَرَدَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ كُلُّهَا آكِلَةُ حَمْضٍ لَصَدَرَتْ عَنْهُ رِوَاءً**»[١].

واعلم أنَّ فراق المحبوب شديدٌ، فإذا أحببت الدُّنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قُدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لِما تُحبِّه، وكلُّ مَن فارَق محبوبًا كان أذاه في فراقه بقدر حُبِّه له، وأُنسه به، فيَنبغي أنْ تُحبَّ مَن لا يُفارقك، وهو الله تعالى، ولا تُحبَّ الدَّنيا التي تُفارقك.

فَصْلٌ في آدَابِ الفَقِيرِ في فَقْرِهِ

ينبغي له ألَّا يكونَ كارهًا لِما ابتلاه الله به مِن الفقر، وأرفع مِن هذا أنْ يكونَ راضيًا فَرِحًا، ويكون مُتوكِّلًا على الله سبحانه، واثقًا به، ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخَلْق، ولا يشكر الله تعالى، كان الفقر عقوبةً في حقِّه، فلا ينبغي له إظهار الشَّكوى،

---

(١) رواه أحمد (٢٧٧١) وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٤٩٠): وفيه دُريدٌ غير منسوبٍ يُحتاج إلى معرفته، قال أحمدُ: حديثه مِثله.

بل يُظهِر التَّعفُّف والتَّجمُّل، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وينبغي للفقير ألَّا يتواضع لغنيٍّ لأجل غناه[١]، ولا يرغب في مجالسته.

وينبغي له أيضًا ألَّا يفتر عن العِبادة بسبب فقره، ولا يَمنع بَذْل ما فَضل عنه، فإنَّ ذلك جُهد المُقِلِّ، روى أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الصَّدقة أفضلُ؟ قال: «**جَهْدٌ مِن مُقِلٍّ إلى فَقِيرٍ في السِّرِّ**»[٢].

بَيَانُ آدَابِهِ فِي قَبُولِ العَطَاءِ

إذا جاءه بغير سؤالٍ ينبغي أنْ يُلاحظَ فيما جاءه ثلاثة أمورٍ: نَفْس المال، وغَرض المُعطِي، وغَرضه في الأخذ.

أمَّا في نفس المال فينبغي أنْ يكون خاليًا عن الشُّبهات كلِّها، فإنْ كان فيه شُبهةٌ فليحترز عن أَخْذه.

وقد تقدَّم في كتاب الحلال والحرام درجات الشُّبهة، وما يجب اجتنابه، وما يُستحبُّ.

وأمَّا غرض المُعطي فلا يخلو إمَّا أنْ يكون طلبًا للمَحبَّة، وهو الهدية، فلا بأسَ بقَبولها إذا لم تكن رشوةً، ولم يكن فيها مِنَّةٌ.

---

(١) لقول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَضَعْضَعَ لِغَنِيٍّ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ» رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٥٧٣)، والحكيم التِّرمذيُّ في «نوادر الأصول» (١٤٦٤).

(٢) رواه ابن حِبَّانَ (٣٦١)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٧٨٧١)، و«الأوسط» (٤٧٢١)، وروواه أحمدُ (٨٧٠٢) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثَّاني: أنْ يكون غرض المُعطي الثَّواب، وهو الزَّكاة والصَّدقة، فعليه أنْ ينظرَ في صفات نِفْسه، هل هو مُستحِقٌّ أم لا؟ فانِ اشتبه عليه فهو مَحلُّ شُبهةٍ، وإنْ كان صدقةً، فكان المُعطي إنَّما يُعطيه لدِينه فلينظر إلى باطنه، فإنْ كان مقارِنًا لمعصيةٍ في السِّرِّ يعلم أنَّ المُعطي لو عَلم بذلك لَنفر طبعه، ولَمَا تقرَّب إلى الله بالصَّدقة عليه لم يأخذه، كما لو أعطاه لظنِّه أنَّه عالِمٌ، فلم يكن.

الثَّالث: أنْ يكون غرض المُعطي الشَّهوة والرِّياء والسُّمعة، فينبغي أنْ يَردَّ عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه؛ لأنَّه إذا قَبِله يكون مُعينًا له على قصده الفاسد.

وأمَّا غرضه في الأخذ فلينظر أهو محتاجٌ إليه أو مستغنٍ عنه؟ فإنْ كان مُستغنيًا عنه لم يأخذه، وإنْ كان مُحتاجًا إليه، وقد سَلِم مِن الشُّبهة والآفات التي ذَكرناها، فالأفضل له الأخذ؛ لِمَا رُوي عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ما جاءَكَ مِنْ هَذا المالِ وأَنتَ غَيرُ مُشرِفٍ وَلا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لا فَلا تُتْبِعْهُ نَفسَكَ**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[١].

وفي حديثٍ آخَرَ: «**مَنْ جَاءَهُ مِن أَخِيهِ مَعرُوفٌ مِن غَيرِ إِشرَافٍ وَلا مَسأَلَةٍ فَلْيَقبَلْهُ، وَلا يَرُدَّهُ، فَإِنَّمَا هُو رِزقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيهِ**»[٢].

فَصْلٌ فِي بَيَانِ تَحْرِيمِ السُّؤَالِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَآدَابِ الفَقِيرِ المُضْطَرِّ فِي السُّؤَالِ

اعلم أنَّه قد ورد في السُّؤال أحاديثُ في النَّهي عنه، وفي التَّرخيص فيه.

---

(١) رواه البخاريُّ (١٤٠٤)، ومسلمٌ (١٠٤٥).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٣٢٧٣)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٤١٢٤)، وأحمدُ (١٧٩٣٦)، وأبو يعلى المَوصِليُّ (٩٢٥) عن خالد بن عديٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٤٤٣): رواه أحمدُ أبو يعلى والطَّبرانيُّ بإسنادٍ جيِّدٍ مِن حديث خالد بن عديٍّ الجُهنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا الترخيص فكقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**للسَّائِلِ حَقٌّ، وإنْ جاءَ عَلَى فَرَسٍ**»[(١)].

وفي بعض الأحاديث: «**رُدُّوا السَّائِلَ، وَلَو بِظَلَفٍ مُحتَرَقٍ**»[(٢)]. ولو كان السُّؤال حرامًا لَمَا جاز إعانة المُعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانةٌ.

وأمَّا أحاديث النَّهي عن السُّؤال فروى ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تَزالُ المَسأَلةُ بِأَحدِكُم حَتَّى يَلقَى اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **وَلَيسَ في وَجهِهِ مُزْعَةُ لَحمٍ**» أخرجاه في «الصَّحيحَين»[(٣)].

وفيهما[(٤)] أيضًا أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ذَكَر التَّعفُّف عن المسألة فقال: «**اليَدُ العُليَا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلَى، وَاليَدُ العُليَا المُعطِيَةُ، وَالسُّفلَى السَّائِلَةُ**».

وفي حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن سَأَلَ وَلَه مَا يُغنِيهِ جَاءَتْ مَسأَلَتُه يَومَ القِيامَةِ خُدُوشًا أو كُدُوحًا في وَجهِهِ**»[(٥)] إلى آخره. وهو حديثٌ حسنٌ، وفي المعنى أحاديثُ كثيرةٌ.

---

(١) رواه أبو داودَ (١٦٦٥)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٣١٢٤)، وأحمدُ (١٧٣٠) عن حسين بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٤٤٧): رواه أبو داودَ مِن حديث الحسين بن عليٍّ، ومِن حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا، وفي الأوَّل يعلى بن أبي يحيى جهَّله أبو حاتمٍ، ووثَّقه ابن حِبَّانَ، وفي الثَّاني شيخٌ لم يُسَمَّ، وسكت عليهما أبو داودَ، وما ذكره ابن صلاحٍ في «علوم الحديث» أنَّه بَلَغه عن أحمدَ بن حنبلٍ قال: أربعة أحاديثَ تدور في الأسواق ليس لها أصلٌ منها «**لِلسَّائِلِ حَقٌّ**» الحديث. فإنَّه لا يَصحُّ عن أحمدَ، فقد أخرج حديث الحسين بن عليٍّ في مسنده.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٣١٢٧)، وأحمدُ (١٦٦٤٨)، ومالكٌ في «الموطَّأ» (٣٤١٥)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (٢٣٥٧)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٤٥٠): رواه أبو داودَ، والتِّرمذيُّ، وقال: حسنٌ صحيحٌ، والنَّسائيُّ، واللَّفظ له مِن حديث أمِّ بُجيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا. وقال ابن عبد البرِّ: حديثٌ مضطَربٌ. وقال ابن الأثير في «جامع الأصول» (٦/ ٤٥٠): الظلف: خُفُّ الشَّاة، وفي كونه مُحرَّقًا مبالغةٌ في غاية ما يُعطَى مِن القِلَّة.

(٣) رواه البخاريّ (١٤٠٥) ومسلم (١٠٤٠).

(٤) رواه البخاريُّ (١٣٦٢)، ومسلمٌ (١٠٣٣) عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا.

(٥) رواه أبو داودَ (١٦٢٦)، والتِّرمذيُّ (٦٥١)، وأحمدُ (٣٦٧٥)، وقال التِّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ.

وكَشْف الغِطاء في هذا أنْ نقولَ: السُّؤال في الأصل حرامٌ؛ لأنَّه لا ينفكُّ عن ثلاثة أمورٍ:

أحدها: الشَّكوى.

والثَّاني: إذلال نفسه، وما ينبغي للمؤمن أنْ يُذِلَّ نفسه[1].

والثَّالث: إيذاء المسؤول غالبًا.

وإنَّما يُباح السُّؤال في حال الضَّرورة والحاجة المُهمَّة القريبةِ مِن الضَّرورة، أمَّا المُضطَرُّ فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتًا أو مرضًا، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يُواريه.

وأمَّا المحتاج حاجةً مُهمَّةً، فهو كمَن له جُبَّةٌ ولا قميصَ تحتها في الشِّتاء، فهو يتأذَّى بالبرد تأذِّيًا لا ينتهي إلى حَدِّ الضَّرورة، فكذلك مَن يقدر على المشي لكن بمَشقَّةٍ يجوز له أنْ يسأل أجرةً يكتري بها للرُّكوب، وتَرْكه أَولى، ومَن وجد الخبز وهو يحتاج إلى الأدم، فله أنْ يسألَ مع الكراهة، وكذلك إنْ سأل المَحمل مَن هو قادرٌ على الرَّاحلة.

وينبغي في مِثل هذه المسألة أنْ يُظهِر الشُّكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال مُحتاجٍ، بل يقول: أنا مُستغنٍ بما أملكه، وإنَّما النَّفْس تُطالبني، فيخرج بهذا عن حَدِّ الشَّكوى لله تعالى.

وينبغي أنْ يسألَ أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه، أو السَّخيَّ الذي قد أَعدَّ ماله للمكارم، فيخرج بذلك مِن الذُّلِّ.

وإنْ أَخذ ممَّن يعلم أنَّه إنَّما أعطاه حياءً، لم يجز له الأخذ، ويجب ردَّه إلى صاحبه.

ولا يجوز للفقير أنْ يسألَ إلَّا مِقدار ما يحتاج إليه، مِن بيتٍ يَكنُّه، وثوبٍ يستره، وطعامٍ يقيمه.

---

(١) لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**»، قِيلَ: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لا يُطِيقُ**». رواه التِّرمذيُّ (٢٢٥٤)، وأحمدُ (٢٣٤٤٤) عن حذيفةَ بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

ويُراعي في هذه الأشياء ما يدفع الزَّمان مِن غير تنوق في شيءٍ مِن ذلك، فإنْ كان يعلم أنَّه يجد مَن يسأله كلَّ يومٍ لم يجز أنْ يسألَ أكثر مِن قوت يومه وليلته، وإنْ خاف ألَّا يجدَ مِن يُعطيه، أو خاف أنْ يعجز عن السُّؤال أُبيح له السُّؤال أكثرَ مِن ذلك.

ولا يجوز له في الجُملة أنْ يسألَ فوق ما يكفيه [لسَنَة][1]، وعلى هذا يَتنزَّل الحديث المرويُّ في تقدير الغنى بخمسين درهمًا، فإنَّها تكفي المُنفرِد المُقتصِد [لسَنَته][2]، فأمَّا ذو العائلة فلا.

بيانُ أحوالِ السَّائِلِين

كان بشرٌ الحافي يقول: الفقراء ثلاثةٌ: فقيرٌ لا يَسأل، وإنْ أُعطي لا يأخذ، فهذا مِن الرُّوحانيِّين.

وفقيرٌ لا يَسأل، وإنْ أُعطي أخذ، فذاك مِن أهل حظيرة القُدس.

وفقيرٌ إذا احتاج سأل، فكفَّارة مسألته صِدقه في السُّؤال.

قال الشَّيخ جمال الدِّين رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: وفصل الخِطاب أنَّه متى قدر الفقير على دفع الزَّمان مِن غير سؤالٍ لم يجزْ له أنْ يسألَ، فإنْ كان يندفع على مضضٍ نظرت، فإنْ كان مِثله يُحتمل، ولا يُخاف منه التَّلف فالسُّؤال مُباحٌ، وتَرْكه فضيلةٌ، وإنْ كان مثله لا يُحتمل، وجب عليه أنْ يَسألَ.

قال سفيانُ الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللهُ: مَن جاع فلم يَسأل حتى مات دخل النَّار[3].

(١) ورد في " المطبوع، ن " [لسنته].

(٢) ورد في " المطبوع، خ " [لسنة].

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ٣٩٠).

الشطر الثاني من الكتاب وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم أنَّ الزُّهد في الدُّنيا مقامٌ شريفٌ مِن مقامات السَّالكِين، والزُّهد عبارةٌ عن انصراف الرَّغبة عن الشَّيء إلى ما هو خيرٌ منه، وشرط المرغوب عنه أنْ يكونَ مرغوبًا فيه بوجهٍ مِن الوجوه، فمَن رغب عن شيءٍ ليس مرغوبًا فيه، ولا مطلوبًا في نفسه، لم يُسمَّ زاهدًا، كمَن ترك التُّراب لا يُسمَّى زاهدًا.

وقد جرتِ العادة بتخصيص اسم الزَّاهد بمَن ترك الدُّنيا، ومَن زهد في كلِّ شيءٍ سوى الله تعالى، فهو الزَّاهد الكامل، ومَن زهد في الدُّنيا مع رغبته في الجَنَّة ونعيمها فهو أيضًا زاهدٌ، ولكنَّه دون الأوَّل.

واعلم أنَّه ليس مِن الزُّهد ترك المال وبذله على سبيل السَّخاء والقوَّة واستمالة القلوب، وإنَّما الزُّهد أنْ يَتركَ الدُّنيا؛ للعِلم بحقارتها بالنِّسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومَن عرف أنَّ الدُّنيا كالثَّلج يذوب، والآخرة كالدُّرِّ يبقى قويت رغبته في بيع هذه بهذه، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

ومِن فضيلة الزُّهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «مَن أَصبحَ وهَمُّه الدُّنيا شَتَّتَ اللهُ عَليهِ أَمرَهُ، وفَرَّقَ عَليهِ ضَيعَتَه، وجَعلَ فَقرَه بَينَ عَينَيه، ولم يَأتِه مِنَ الدُّنيا إلَّا ما كُتِبَ له، ومَن أَصبحَ وهَمُّهُ الآخِرةُ جَمَعَ اللهُ له هَمَّهُ، وحَفِظَ عَليهِ ضَيعتَه، وجَعلَ غِناهُ في قَلبِه، وَأَتَتْه الدُّنيا وهِيَ راغِمَةٌ»(١).

وقال الحسن: يُحشر النَّاس عُراةً ما خلا أهل الزُّهد(٢).

وقال: إنَّ أقوامًا أَكرموا الدُّنيا فصلبتهم على الخشب فأَهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها.

وقال الفضيل: جُعل الشَّرُّ كلُّه في بيتٍ، وجُعل مفتاحه حُبُّ الدُّنيا، وجُعل الخير كلُّه في بيتٍ، وجُعل مفتاحه الزُّهد في الدُّنيا(٣).

وكان بعض السَّلف يقول: الزُّهد في الدُّنيا يُريح القلب والبَدن، والرَّغبة فيها تُكثِّر الهَمَّ والحزن(٤).

فَصْلٌ في دَرجاتِ الزُّهْدِ وأَقْسامِهِ

مِن النَّاس مَن يزهد في الدُّنيا وهو لها مُشتَهٍ، لكنَّه يُجاهد نفسه، وهذا يُسمَّى المُتزهِّد، وهو مبتدأ الزَّهد.

الدُّرجة الثَّانية: أنْ يزهدَ فيها طَوعًا لا يُكلِّف نفسه ذلك، لكنَّه يَرى زهده، ويلتفت إليه، فيكاد يُعجَب بنفسه، ويرى أنَّه قد ترك شيئًا له قدر لِما هو أعظم قدرًا منه، كما يترك درهمًا لأخذ درهمَين، وهذا أيضًا نقصانٌ.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٦٠٦)، وابن ماجه (٤١٠٥)، وأحمدُ (٢١٥٩٠) عن زيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وروى التِّرمذيُّ نحوه (٢٤٦٥) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢١٣٢).

(٣) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٨/ ٩١).

(٤) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٦/ ٢٨٨).

الدَّرجة الثَّالثة: وهي العُليا أنْ يزهدَ طَوعًا، ويزهد في زهده، فلا يرى أنَّه ترك شيئًا؛ لأنَّه عرف أنَّ الدُّنيا ليست بشيءٍ، فيكون كمَن ترك خِرقةً، وأخذ جوهرةً، فلا يرى ذلك معاوضةً، فإنَّ الدُّنيا إلى نعيم الآخرة أحسن مِن خرقةٍ بالإضافة إلى جوهرةٍ، فهذا هو الكمال في الزُّهد.

واعلم أنَّ مَثل مَن ترك الدُّنيا مَثل مَن منعه عن باب المَلِك كلبٌ على بابه، فألقى إليه لقمةً مِن خبزٍ فشَغله بذلك ودخل، فقَرُب مِن المَلِك، أفتراه يرى لنفسه بُدًّا عند المَلِك بلقمةٍ ألقاها إلى كلبه في مقابَلة ما قد ناله؟

فالشَّيطان كلبٌ في باب الله عَزَّوَجَلَّ، يمنع النَّاس مِن الدُّخول، مع أنَّ الباب مفتوحٌ، والحِجاب مرفوعٌ، والدُّنيا كلقمةٍ، فمَن تَركها لينال عِزَّ الملك، فكيف يَلتفت إليها؟ ثُمَّ إنَّ نِسبتها أعني ما سلم لكلِّ شخصٍ منها ولو عُمِّر ألف سنةٍ بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقلُّ مِن لقمةٍ بالإضافة إلى ملك الدُّنيا؛ لأنَّ الفاني لا نسبةَ له إلى الباقي، كيف ومُدَّة العُمر قصيرةٌ، ولذَّات الدُّنيا مُكدَّرةٌ.

وأمَّا الزُّهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، فعلى ثلاث درجاتٍ:

أحدها: الزُّهد للنَّجاة مِن العذاب والحساب والأهوال التي بين يدَي الآدميِّ، وهذا زُهد الخائفِين.

الدَّرجة الثَّانية: الزُّهد للرَّغبة في الثَّواب والنَّعيم الموعود به، وهذا زُهد الرَّاجِين، فإنَّ هؤلاء تركوا نعيمًا لنعيمٍ.

الدَّرجة الثَّالثة: وهي العُليا، وهو ألَّا يزيدَ في الدُّنيا للتَّخلُّص مِن الآلام، ولا للرَّغبة في نيل اللَّذَّات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زُهد المُحسِنِين العارفِين، فإنَّ لذَّة النَّظر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإضافة إلى لذَّات الجنَّة كلذَّة ملك الدُّنيا، والاستيلاء عليها بالإضافة إلى لذَّة الاستيلاء على عصفورٍ واللَّعب به.

فصل في بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضَّروريَّات المُهمَّات سبعة أشياءَ: المَطعَم، والمَلبَس، والمَسكَن، وأثاثه، والمَنكَح، والمال، والجاه.

فأمَّا الأوَّل -وهو المَطعَم- فاعلم أنَّ هِمَّة الزَّاهد منه ما يَدفع به الجوع ممَّا يُوافق بَدَنه مِن غير قصد الالتذاذ، وفي الحديث: «**إنَّ عِبَادَ اللهِ لَيسُوا بِالمُتَنَعِّمِينَ**»[1].

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا لعروةَ: كان يمرُّ بنا هلالٌ، وهلالٌ، وهلالٌ ما يُوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نارٌ. قال: قلتُ: يا خالةُ فعلى أيِّ شيءٍ كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودَين، الماء والتَّمر[2]. والأحاديث في ذلك كثيرةٌ مشهورةٌ.

وقد كان جمهورٌ مِن الزُّهَّاد يخشنون المَطعَم، وكان فيهم مَن لا يطيق ذلك، فكان الثَّوريُّ حَسن المَطعَم، وربَّما حُمل في سفرته اللَّحم المَشويَّ والفالوذج.

وفي الجملة فالزُّهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التَّنعُّم، إلَّا أنَّ الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحتمل التَّخشُّن.

وقد يَدَّخر بعض النَّاس الزَّاد الحلال بتقوُّته، فلا يُخرجه ذلك مِن الزُّهد، فقد كان السَّبتيُّ يَعمل مِن السَّبت إلى السَّبت ويتقوَّته.

وورِث داودُ الطَّائيُّ عشرين دينارًا، فأنفقها في عشرين سنةً.

الثَّاني: المَلبَس، فالزَّاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحَرَّ والبرد، ويستر العورة، ولا بأسَ أنْ يكونَ فيه نوع تَجمُّلٍ؛ لئلَّا يُخرجه التَّقشُّف إلى الشُّهرة، وكان أكثر لباس السلف خشنًا، فصار لُبس الخشن شهرةً.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٥٧٦٦)، وأحمدُ (٢٢١٠٥) عن معاذ بن جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ.
(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٢٨)، ومسلمٌ (٢٩٧٢).

وقد رُوي عن أبي بُردةَ[(١)] قال: أخرجت إلينا عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كساءً مُلبَّدًا، وإزارًا غليظًا، وقالت: قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذَين. أخرجاه في «الصَّحيحَين»[(٢)].

وعن الحسن قال: خطب عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو خليفةٌ، وعليه إزارٌ فيه اثنتا عشرةَ رقعةً.

الثَّالث: المَسكَن، فللزَّاهد فيه ثلاث درجاتٍ:

أعلاها: ألَّا يَطلب موضعًا خاصًّا لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصُّفَّة.

وأوسطها: أنْ يطلبَ مَوضِعًا خاصًّا لنفسه، مِثل كوخٍ مِن سَعفٍ، أو خُصٍّ وما أشبه ذلك.

وأدناها: أنْ يطلبَ حُجرةً مَبنيَّةً، ومتى طَلب السَّعة وعلوَّ السَّقف فقد جاز حَدَّ الزُّهد في المَسكَن، وقد تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يضع لبنةً على لبنةٍ[(٣)].

قال الحسن: كنتُ إذا دخلتُ بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نِلتُ السَّقف.

وفي الحديث: «إنَّ الرَّجل يُؤجَر في نفقته كلِّها إلَّا في التُّراب»[(٤)].

وقال إبراهيمُ النَّخعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: إذا كان البُنيان كفافًا فلا أَجرَ ولا وزرَ[(٥)].

وفي الجملة: إنَّ كلَّ ما يُراد للضَّرورة فلا ينبغي أنْ يُجاوِز حَدَّ الزُّهد.

---

(١) أبو بردةَ بن أبي موسى الأشعريُّ، حدَّث عن أبيه، وعليٍّ، وعائشةَ، وأسماءَ بنت عميس وغيرهم، وحدَّث عنه بنوه سعيدٌ، ويوسفُ، والأمير بلالٌ، وحفيده بريد بن عبد الله بن أبي بردةَ، والشَّعبيُّ وغيرهم، توفِّي سنة (١٠٤). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٧/ ٣١)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٣٤٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٩٤١)، ومسلمٌ (٢٠٨٠).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٢٤٠)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ١٥٤) عن الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٢٢٨)، وفي «الكبرى» (٢١١٣٢) بلفظ «**كُلُّ مَا أَنْفَقَ الْعَبْدُ مِنْ نَفَقَةٍ فَعَلَى اللهِ خَلَفُهَا ضَامِنًا إِلَّا نَفَقَةً فِي بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ**».

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٤/ ٢٣٠).

الرَّابع: أثاث البيت، فينبغي للزَّاهد أنْ يقتصرَ فيه على الخوف، ويَستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القصعة، ويشرب فيها، ومَن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزُّهد.

ولينظر إلى سيرة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي «صحيح مسلمٍ»[١]، مِن حديث عمرَ ابن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: دخلتُ على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُضطجعٌ على حصيرٍ، وإذا الحصير قد أثَّر في جنبه، فنظرتُ في خزانة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أنا بقبضةٍ مِن شعيرٍ نحو الصَّاع. وفي رواية البخاريِّ[٢]: فوالله ما رأيتُ شيئًا يَردُّ البصر. والحديث مشهورٌ في «صحيح مسلمٍ».

وقال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: تزوَّجتُ فاطمةَ وما لي ولها فراشٌ إلَّا جِلد كبشٍ كنَّا ننام عليه باللَّيل، ونَعلف عليه النَّاضح بالنَّهار، وما لي خادمٌ غيرها[٣]، ولقد كانت تعجن، وإنَّ [قُصتها][٤] لَتضرب حرف الجَفنة مِن الجهد الذي بها.

ودخل رجلٌ على أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فجَعل يُقلِّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذرٍّ، ما أرى في بيتك متاعًا ولا أثاثًا. فقال: إنَّ لنا بيتًا نوجِّه إليه صالح مَتاعنا. فقال: إنَّه لا بدَّ لك مِن متاعٍ ما دمت ههنا. فقال: إنَّ صاحب المنزل لا يَدَعنا فيه[٥].

الخامس: المَنكح، لا معنى للزُّهد في أصل النِّكاح، ولا في كثرته.

قال سهل بن عبدالله: حبِّب إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النِّساء[٦].

---

(١) رواه مسلمٌ (١٤٧٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٦٢٩).

(٣) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (١٣٦١).

(٤) ورد في "الأصل" [قبضتها].

(٥) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٩٠٦).

(٦) رواه أحمدُ (١٢٢٩٣)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٥٢٠٣)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (١٣٤٥٤) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكان عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن أزهد الصَّحابة، وكان له أربع نسوةٍ، وبضعَ عشرةَ سريَّةً.

وكان أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ يقول: كلُّ ما شَغَلك عن الله مِن أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهو مشؤومٌ.

وكشف الغطاء عن ذلك أنْ نقولَ: مَن غَلَبت عليه شهوته، وخاف على نفسه، تعيَّن عليه النِّكاح، فأمَّا مَن لا يخاف، فهل النِّكاح في حقِّه أفضلُ أو التَّعبُّد؟ فيه اختلافٌ بين العلماء، والنَّاس مختلِفون فيه، منهم مَن يقصد النِّكاح لطلب النَّسل، ويُمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يَقدح ذلك في دِينه، ولا يتشتَّت قلبه، بل يَجمع النِّكاحُ هَمَّه، ويَكفُّ بصره، ويَردُّ فِكره، فهذا غايةٌ في الفضيلة، وعليه يُحمل حال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحال عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومَن جرى مجراهما، ولا التفات إلى قول مَن يرى الزُّهد بترك [الاسلتذاذ][1] بالنِّكاح، فإنَّ ذلك يقع ضمنًا وتَبَعًا للمقصود.

وقد كان بعض السَّلف يختار المرأة الدُّون على الجميلة، وذلك محمولٌ على أنْ تلك تكون إلى الدِّين أَميلَ، والنَّفقة عليها أقلُّ، والاهتمام بأمرها يسيرٌ، بخلاف المُستحسَنة، فإنَّها تُشتِّت القلب، وتَشغله، وتُريد زيادةً في النَّفقة، وربَّما لم يكن.

وقد قال مالك بن دينارٍ: يَعمد أحدهم فيتزوَّج دِيباجة الحيِّ، فتقول: أريد مرطًا[2] فَتَمْرُطُ دينَه.

السَّادس: المال: وهو ضروريٌّ في المَعيشة، فالزَّاهد يَقتصر منه على ما يَدفع به الوقت، وكان في الصَّالحِين مَن يَتشاغَل بالتِّجارة، ويقصد بها العَفاف.

وكان حمَّاد بن سلمةَ[3] إذا فتح حانوته، وكسب حبَّتَين قام.

---

(١) ورد في " المطبوع، ن " [الالتذاذ].

(٢) المرط: كساءٌ مِن صوفٍ أو خزٍّ كان يُؤتزَر به. انظر «جامع الأصول» (٨/ ٦٣٢).

(٣) حمَّاد بن سلمةَ بن دينارٍ البصريُّ، سمع ابن أبي مليكةَ، وأنس بن سيرينَ، ومحمَّد بن زياد القرشيِّ، وغيرهم، وحدَّث عنه ابن جريجٍ، وابن المبارك، ويحيى القطَّان، وغيرهم، توفِّي سنة (١٦٧). «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٧/ ٤٤٤)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ٢٧٢).

وكان سعيد بن المُسيِّب يتَّجر في الزِّيت، وخلَّف أربعَمائة دينارٍ، وقال: إنَّما تركتها لأصون بها عِرضي ودِيني.

السَّابع: الجاه، ولا بدَّ للإنسان مِن جاهٍ حتى في قلب خادمه، واشتغال الزَّاهد بالزُّهد يُمهِّد له الجاه في القلوب، فينبغي أنْ يتحرَّز مِن شَرِّ ذلك.

وفي الجملة فإنَّ الحوائج الضَّروريَّة ليست مِن الدُّنيا، وكان كثيرٌ مِن السَّلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أنْ يُفسد علينا دِيننا.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ عَلَامَاتِ الزُّهْدِ

قد تَظنَّ أنَّ تارك المال زاهدٌ، وليس كذلك، فإنَّ ترك المال، وإظهار التَّخشُّن سهلٌ على مَن أَحبَّ المدح بالزُّهد، فكم مِن راهبٍ قد لازم الدَّير، وقلَّل المَطعَم، وقوَّاه على ذلك حُبُّ المَحمَدة، كما سبق ذِكره في كتاب الرِّياء.

ولا بدَّ مِن الزُّهد في فُضول الأموال والجاه جميعًا، حتى يكمل الزُّهد في حُظوظ النَّفس، فأوَّل معرفة الزُّهد مُشكِلٌ.

وقد قال ابن المُبارك: أفضل الزُّهد إخفاء الزُّهد[(١)].

وينبغي أنْ يُعوَّل في هذا على ثلاث علاماتٍ:

الأُولى: ألَّا يفرح بموجودٍ، ولا يحزنَ على مفقودٍ، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] وهذا علامة الزُّهد في المال.

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٧١) عن ابن المبارك قال: سمعتُ وهيب بن الورد...

الثَّاني: أنْ يستويَ عنده ذامُّه ومادحه، وهذه علامة الزُّهد في الجاه.

الثَّالث: أنْ يكون أُنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطَّاعة.

فأمَّا محبَّة الدُّنيا ومحبَّة الله تعالى، فهُما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلامَ مَن أفضى بهم الزُّهد؟ قال: إلى الأنس بالله(١).

قال يحيى بن معاذ: الدُّنيا كالعروس، ومَن يَطلبها ماشطتُها، والزَّاهد يُسخِّم وجهها، وينتف شعرها، ويَخرِق ثوبها، والعارف مُشتغِلٌ بالله تعالى عنها(٢).

فهذا ما أردنا ذِكره مِن حقيقة الزِّهد وأحكامه.

وإذا كان الزُّهد لا يتمُّ إلَّا بالتَّوكُّل فلنشرع في بيانه إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (١٠/ ١٣٦)، والدَّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٢٠٧٩) قال المَضاء لسَبَّاعٍ المَوصِليِّ: يا أبا محمَّدٍ إلى أيِّ شيءٍ أفضى بهم الزُّهد؟ قال: إلى الأُنس بالله.

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «حلية الأولياء» (١٠/ ٥٣).

كتاب التوحيد والتوكل بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقال: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وفي الحديث: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَر أنَّه يدخل الجنَّة مِن أُمَّته سبعون ألفًا لا حسابَ عليهم، ثُمَّ قال: «**هُمُ الذين لا يَكتَوُونَ، وَلا يَستَرْقُونَ، وَلا يَتَطيَّرُون، وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»(١).

وعن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَو أَنَّكُم تَوَكَّلْتُمْ عَلى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كَما يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغدُو خِماصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(٢).

وكان مِن دعاء النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسأَلُكَ التَّوفِيقَ لِمَحَابِّكَ مِنَ الأَعمَالِ، وَصِدْقَ التَّوَكُّلِ عَلَيكَ، وَحُسنَ الظَّنِّ بِكَ**»(٣).

والتَّوكُّل يبتني على التَّوحيد، والتَّوحيد طبقاتٌ:

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٣٧٨)، ومسلمٌ (٢١٨) عن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) والبيهقيُّ في «الشُّعب» (١١٣٩)، وأحمدُ (٢٠٥)، عن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ لا نعرفه إلى مِن هذا الوجه، وقال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٨٢): أخرجه التِّرمذيُّ وابن ماجه مِن حديث عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال التِّرمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٢٤)، وعزاه المتقي الهدي في كنز العمال (٣٦٥٤) إلى أبي نعيم عن الأوزاعي مرسلًا والحكيم الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

منها أنْ يُصدِّق القلب بالوحدانيَّة المُترجَم عنها قولك: «لا إله إلَّا الله وحده لا شريكَ له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ». فيصدق بهذا اللَّفظ، ولكن مِن غير معرفة دليلٍ، فهو اعتقاد العامَّة.

الثَّانية: أنْ يَرى الأشياء المختلِفة، فيراها صادرةً عن الواحد، وهذا مقام المُقرَّبين.

الثَّالثة: أنَّ الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أنْ لا فاعلَ سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف، وله الرَّجاء، وبه الثِّقة، وعليه التَّوكُّل؛ لأنَّه في الحقيقة هو الفاعل وحدَه فسبحانه، والكلُّ مُسخَّرون له، فلا يَعتمد على المطر في خروج الزَّرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الرِّيح في سَير السَّفينة، فإنَّ الاعتماد على ذلك جهلٌ بحقائق الأمور، ومَن انكشفت له الحقائق عَلِم أنَّ الرِّيح لا تَتحرَّك بنفسها، ولا بدَّ لها مِن مُحرِّكٍ، فالْتِفات العبد في النَّجاة إلى الرِّيح يُضاهي الْتِفات مَن أُخذ لتُضرب عنقه، فوَقَّع له المَلِك بالعفو عنه، فأخذ يشتغل بذِكر الحبر والكاغد والقلم الذي كُتب به التَّوقيع، ويقول: لولا هذا القلم ما تَخلَّصتُ. فيرى نجاته مِن القلم، لا مِن مُحرِّك القلم، وهذا غاية الجهل، ومَن عَلِم أنَّ القلم لا حُكم له في نفسه شكر الكاتب دون القلم.

وكلُّ المخلوقات في قهر تسخير الخالق أبلغُ مِن القلم في يد الكاتب، فسبحان مُسبِّب الأسباب، الفعَّال لِمَا يُريد.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَحْوَالِ التَّوَكُّلِ وَأَعْمَالِهِ وَحَدِّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

اعلم أنَّ التَّوكُّل مأخوذٌ مِن الوَكالة، يُقال: وَكَّلَ فلانٌ أمره إلى فلانٍ، أي فوَّض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتَّوكُّل عِبارةٌ عن اعتماد القلب على المُوكَّل، ولا يَتوكَّل الإنسان على غيره إلَّا إذا اعتقد فيه أشياء: الشَّفقة، والقوَّة، والهداية، فإذا عرفتَ هذا، فقس عليه التَّوكُّل على

الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنَّه لا فاعلَ سواه، واعتقدتَ مع ذلك أنَّه تامُّ العلم والقُدرة والرَّحمة، وأنَّه ليس وراء قدرته قدرةٌ، ولا وراء عِلمه عِلمٌ، ولا وراء رحمته رحمةٌ اتَّكل قلبك عليه وحدَه لا مَحالةَ، ولم تلتفت إلى غيره بوجهٍ، فإنْ كنتَ لا تجد هذه الحالة مِن نفسك فسببه أَحد أمرَين:

إمَّا ضعف اليقين بأحد هذه الخصال.

وإمَّا ضعف القلب باستيلاء الجُبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإنَّ القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له مِن غير نقصانٍ في اليقين، فإنَّه مَن كان يتناول عسلًا فشبه بين يدَيه بالعذرة، ربَّما نفر طبعه منه، وتعذَّر عليه تناوله.

ولو كُلِّف العاقل أنْ يبيتَ مع الميت في قبرٍ أو فراشٍ أو بيتٍ نَفَر طبعه مِن ذلك، وإنْ كان مُتيقِّنًا كونه ميتًا جمادًا في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبنٌ في القلب، وهو نوع ضعفٍ قلَّما يخلو الإنسان منه، وقد يقوى حتى يصير مرضًا، حتى يَخاف أنْ يبيتَ في البيت وحده مع غَلْق الباب وإحكامه.

فإذًا لا يتمُّ التَّوكُّل إلَّا بقوَّة القلب، وقوَّة اليقين جميعًا، فإذا انكشف لك معنى التَّوكُّل، وعَلمتَ الحالة التي تُسمَّى توكُّلًا، فاعلم أنَّ تلك الحالة لها في القوَّة والضَّعف، ثلاث درجاتٍ:

الأُولى: ما ذكرناه، وهو أنْ يكونَ حاله في حقِّ الله تعالى الثِّقة بكفالته وعنايته، كحاله في الثِّقة بالوكيل.

الدَّرجة الثَّانية: وهي أقوى، أنْ يكونَ حاله مع الله تعالى كحال الطِّفل مع أمِّه، فإنَّه لا يَعرف غيرها، ولا يَفزع إلى سواها، ولا يَعتمد إلَّا إيَّاها، وإنْ نابه أمرٌ كان أوَّلَ خاطرٍ يخطر على قلبه، وأوَّلَ سابقٍ إلى لسانه: يا أمَّاه. فمَن كان تألُّهه إلى الله، ونظره إليه، واعتماده عليه، كَلِف به كما يَكلف الصَّبيُّ بأمِّه، فيكون مُتوكِّلًا حقًّا.

والفرق بين هذا وبين الأوَّل أنَّ هذا مُتوكِّلٌ قد فني في تَوكُّله عن توكُّله؛ إذ لا يلتفت إلى غير المُتوكَّل عليه، ولا مجالَ في قلبه لغيره.

وأمَّا الأوَّل فهو مُتوكِّلٌ بالتَّكليف والكسب، وليس فانيًا عن توكُّله، بل له الْتِفاتٌ إليه، وذلك شغلٌ صارفٌ عن ملاحظة المُتوكَّل عليه وحدَه.

الدَّرجة الثَّالثة: وهي أعلى منهما، أنْ يكون بين يدَي الله تعالى مِثل الميت بين يدَي الغاسل، لا يُفارقه إلَّا أنَّه لا يرى نفسه ميتًا، وهذا يُفارق حالَ الصَّبيِّ مع أمِّه، فإنَّه يفزع إلى أمِّه، ويصيح ويتعلَّق بذيلها.

وهذه الأحوال تُوجد في الخَلْق، إلَّا أنَّ الدَّوام يَبعد، ولا سيَّما المقام الثَّالث.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَعْمَالِ الْمُتَوَكِّلِينَ

قد يَظنُّ بعض النَّاس أنَّ معنى التَّوكُّل تَرْك الكسب بالبدن، وتَرْك التَّدبير بالقلب، والسُّقوط على الأرض كالخِرقة، وكلحمٍ على وضمٍ[1]، وهذا ظنُّ الجُهَّال، فإنَّ ذلك حرامٌ في الشَّرع.

والشَّرع قد أثنى على المُتوكِّلين، وإنَّما يظهر تأثير التَّوكُّل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعي العبد إمَّا أنْ يكونَ لجلب نفعٍ مفقودٍ كالكسب، أو لحفظ موجودٍ كالادخار، وإمَّا لدفع ضررٍ لم ينزل، كدفع الصَّائل، أو لإزالة ضررٍ قد نزل، كالتَّداوي مِن المرض، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة.

الفنُّ الأوَّل: في جلب المنافع، فنقول: الأسباب التي بها تُجلب المنافع على ثلاث درجاتٍ.

(١) الوضم: كلُّ شيءٍ يُجعل عليه اللَّحم مِن خشبٍ أو باريةٍ يُوقَى به مِن الأرض. «لسان العرب» مادة (وضم).

أحدها: سببٌ مقطوعٌ به، كالأسباب التي ارتبطت بها المسبِّبات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطًا مُطَّرِدًا لا يختلف، مثاله أنْ يكون الطَّعام بين يدَيك، وأنت جائعٌ، فلا تَمدُّ يدك إليه، وتقول: أنا مُتوكِّلٌ، وشرط التَّوكل ترك السَّعي، ومَدُّ اليد إلى الطَّعام سعيٌ، وكذلك مَضغه وابتلاعه. فهذا جنونٌ محضٌ، وليس مِن التَّوكُّل في شيءٍ، فإنَّك إذا انتظرتَ أنْ يَخلقَ الله فيك شِبعًا دون أكل الطَّعام، أو يَخلقَ في الطَّعام حركةً إليك، أو يُسخِّر مَلَكًا ليمضغه، ويُوصله إلى معدتك، فقد جَهِلت سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك لو لم تَزرع، وطَمِعت أنْ يَخلق الله تعالى نباتًا مِن غير بذرٍ، أو تلد الزَّوجة مِن غير وِقاعٍ، فكلُّ ذلك جنونٌ، وليس التَّوكُّل في هذا المقام ترك العمل، بل التَّوكُّل فيه بالعِلم والحال.

أمَّا العِلم فهو أنْ تَعلم أنَّ الله تعالى خَلَقَ الطَّعام، واليد، والأسباب، وقوَّة الحركة وأنَّه الذي يُطعمك ويسقيك.

وأمَّا الحال فهو أنْ يكونَ قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطَّعام؛ لأنَّه ربَّما جفَّت يدك، وبَطَلت حركتك، وربَّما سلَّط الله عليك مَن يغلبك على الطَّعام، فمَدُّ اليد إلى الطَّعام لا يُنافي التَّوكُّل.

الدَّرجة الثَّانية: الأسباب التي ليست مُتيقَّنةً، لكن الغالب أنَّ المُسبَّبات لا تَحصل دونها، مِثاله مَن يُفارق الأمصار، ويخرج مُسافِرًا إلى البَوادي التي لا يَطرقها النَّاس إلَّا نادرًا، ولا يَستصحب معه شيئًا مِن الزَّاد، فهذا كالمُجرِّب على الله تعالى، وفِعله مَنهيٌّ عنه، وحَمْله للزَّاد مأمورٌ به، فإنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا سافر تزوَّد، واستأجر دليلًا إلى المدينة.

الدَّرجة الثَّالثة: مُلابَسة الأسباب التي يُتوهَّم إفضاؤها إلى المُسبَّبات مِن غير ثقةٍ ظاهرةٍ، كالذي يستقصي في التَّدبيرات الدَّقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى

كان قصده صحيحًا، وفِعله لا يخرج عن الشَّرع لم يخرج عن التَّوكُّل، لكنَّه ربَّما دخل في أهل الحِرص إذا طَلب فضول العيش.

وترك التَّكسُّب ليس مِن التَّوكُّل في شيءٍ، إنَّما هو مِن فِعل البطَّالِين الذين آثروا الرَّاحة، وتَعلَّلوا بالتَّوكُّل.

قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المُتوكِّل الذي يُلقي حَبَّه في الأرض، ويَتوكَّل على الله[١].

الفنَّ الثَّاني في التَّعرُّض للأسباب: الادخار، ومَن وجد قوتًا حلالًا يشغله كسب مِثله عن جمع هَمِّه، فادخاره إيَّاه لا يُخرجه عن التَّوكُّل، خصوصًا إذا كان له عائلةٌ.

وفي «الصَّحيحَين»[٢] مِن حديث عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبيع نخل بني النَّضير، ويَحبس لأهله قوت سَنَتهم.

فإنْ قيل: فقد نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يدَّخر[٣]، فالجواب: أنَّ الفقراء كانوا عنده كالضَّيف، فما كان ينبغي أنْ يدَّخر فيجوعون، بل الجواب: أنَّ حال بلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمثاله مِن أهل الصُّفَّة كان مُقتضاها عدم الادخار، فإنْ خالَفوا كان التَّوبيخ على الكذب في دَعوى الحال، لا على الادخار الحلال.

الفنُّ الثَّالث: مباشرة الأسباب الدَّافعة للضَّرر: ليس مِن شرط التَّوكُّل ترك الأسباب الدَّافعة للضَّرر، فلا يجوز النَّوم في الأرض المسبعة[٤]، أو مجرى السَّيل، أو تحت الجِدار الخراب، فكلُّ ذلك مَنهيٌّ عنه.

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٣٠٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٥٠٤٢)، ومسلمٌ (١٧٥٧).

(٣) فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنْفِقْ بِلَالُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا**». رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٢٨٣)، والبزَّار في «مسنده» (١٣٦٦)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٠٢٠)، و«الأوسط» (٢٥٧٢).

(٤) أرض مسبعة: أرض ذات سباع. «لسان العرب» مادة (سبع).

وكذلك لا يَنقض التَّوكُّل لُبس الدِّرع، وإغلاق الباب، وشدُّ البعير بالعقال، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله أعقِلها وأتوكَّل، أو أُطلقها وأتوكَّل؟ قال: «**اعقِلْهَا وتَوكَّلْ**»(١).

ويتوكَّل في ذلك كلِّه على المُسبِّب لا على السَّبب، ويكون راضيًا بكلِّ ما يَقضي الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ومتى عَرض له إذا سُرق متاعه أنَّه لو احترز لم يُسرَق، أو أخذ يشكو ما جرى عليه فقد بان بُعده عن التَّوكُّل.

ولْيَعلم أنَّ القدَر له كالطَّبيب، فإنْ قَدَّم إليه الطَّعام فرح، وقال: لولا أنَّه علم أنَّ الغِذاء يَنفعني ما قَدَّمه، وإنْ منعه فرح، وقال: لولا أنَّه عَلم أنَّ الغذاء يُؤذيني لَمَا مَنَعني.

واعلم أنَّ كلَّ مَن لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الطَّبيب الحاذق الشَّفيق لم يصحَّ تَوكُّله، فإنْ سُرق متاعه رضي بالقضاء، وأحلَّ الآخذ شفقةً على المسلمِين، فقد شكا بعض النَّاس إلى بعض العلماء أنَّه قُطع عليه الطَّريق، وأُخذ ماله فقال: إنْ لم يكن غمُّكَ كيف صار بالمسلمِين مَن يفعل هذا أكثرَ مِن غمِّكَ بمالك، فما نصحت المسلمين.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٧) وقال: حديثٌ غريبٌ مِن حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وقال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ٧٣): أخرجه التِّرمذيُّ مِن حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال يحيى القطَّان: مُنكَرٌ. ورواه ابن خزيمةَ في التَّوكُّل، والطَّبرانيُّ مِن حديث عمرو بن أُميَّةَ الضَّمريِّ بإسنادٍ جيِّدٍ.

الفنُّ الرَّابع: السَّعي في إزالة الضَّرر، كمداواة المريض، ونحو ذلك.

اعلم أنَّ الأسباب المُزيلة للمرض تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

إلى مقطوعٍ به كالماء المُزيل لضرر العطش، والخبز المُزيل لضرر الجوع، فهذا القِسم ليس تركه مِن التَّوكُّل في شيءٍ.

القسم الثَّاني: أنْ يكون مظنونًا كالفصد، والحجامة، وشرب المُسهِل، ونحو ذلك، فهذا لا يُناقض التَّوكُّل، فإنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تداوى، وأمر بالتَّداوي(١).

وقد تداوى خلقٌ كثيرٌ مِن المسلمِين، وامتنع عنه أقوامٌ توكُّلًا، كما رُوي عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قيل له: ألَّا ندعو لك طبيبًا؟ فقال: رآني الطَّبيب. قيل: فما قال لك؟ قال: قال: إنِّي فعَّالٌ لِما أُريد(٢).

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: والذي ننصره أنَّ التَّداوي أفضلُ، نَحمل حال أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قد تداوى، ثُمَّ أمسك بعد انتفاعه بالدَّواء، أو يكون قد عَلم قُرب أجله بأماراتٍ.

واعلم أنَّ الأدوية أسبابٌ مُسخَّرةٌ بإذن الله تعالى.

القِسم الثَّالث: أنْ يكون السَّبب مَوهومًا، كالكيِّ، فيخرج عن التَّوكُّل؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف المُتوكِّلين بأنَّهم لا يكتوون(٣).

وقد حمل بعض العلماء الكيَّ المذكور في قوله: «**لا يَكتَوُونَ**» على ما كانوا يَفعلونه في الجاهليَّة، فإنَّهم كانوا يكتوون ويَستَرقُون في زمن العافية؛ لئلَّا يمرضوا، فإنَّ النَّبيَّ

---

(١) روى أبو داودَ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَدَاوَوْا، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يَضَعْ دَاءً إلا وضع له دَوَاءً غيرَ داءٍ واحدٍ الهرَمُ**» ونحوه التِّرمذيُّ (٢٠٣٨)، وأحمدُ (١٨٤٥٤)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (١١٥٦)، والطَّبرانيُّ في «الصَّغير» (٥٥٩)، و«الكبير» (٤٦٣).

(٢) ذَكَره السُّيوطيُّ في «الجامع الكبير» (٢٤١) وعزاه إلى ابن سعدٍ، وأحمدَ في «الزُّهد»، وأبو نُعيمٍ في «الحلية»، وهَنَّادٍ.

(٣) سبق تخريجه.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَرقي، ويُعلِّم الرُّقيَة بعد نزول المرض[١]، وقد كُوي أسعد بن زرارةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢].

وأمَّا شكوى المريض فهي مُخرِجةٌ عن التَّوكُّل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض؛ لأنَّه يُترجِم عن الشَّكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضًا بلا عُوَّادٍ[٣].

وقال رجلٌ للإمام أحمدَ: كيف أنتَ؟ قال: بخيرٍ. قال: حممتَ البارحة؟ قال: إذا قلتُ لك: أنا بخيرٍ. فلا تُخرجني إلى ما أكره[٤].

فأمَّا إذا وَصف المريض للطَّبيب ما يَجده، فإنَّه لا يضرُّه، وقد كان بعض السَّلف يفعل ذلك، ويقول: إنَّما أَصف قدرة الله فِيَّ. ويُتصوَّر أنْ يصف ذلك لتلميذٍ يُقوِّيه على الضَّرَّاء، ويرى ذلك نعمةً، فيَصف ذلك كما يَصف النِّعمة شكرًا لها، ولا يكون ذلك شكوَى.

وقد روينا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُم**»[٥].

آخر التَّوكُّل.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٤١٠)، ومسلمٌ (٢١٩٣).

(٢) الحديث أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٥٠)، وأحمدُ (١٦٦١٨)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.
وقال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ٨٧): رواه الطَّبرانيُّ مِن حديث سهل بن حنيفٍ بسندٍ ضعيفٍ، ومِن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذِكر سهل.
وأسعد بن زرارةَ هو أبو أمامةَ الأنصاريُّ الخزرجيُّ النَّجَّاريُّ، قديم الإسلام، شهد العقبتَين، وكان نقيبًا على قبيلته، ولم يكن في النُّقباء أصغر سنًّا منه، توفِّي في السَّنة الأُولى للهجرة. انظر «الإصابة»، ابن حجر، (١/ ٢٠٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (١/ ٣٠٠).

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٩٦).

(٤) أخرجه ابن الجوزيِّ في «مناقب الإمام أحمد» (ص٥٤٠).

(٥) رواه البخاريُّ (٥٣٢٤)، ومسلمٌ (٢٥٧١) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

اعلم أنَّ المَحبَّة لله تعالى هي الغاية القُصوى مِن المقامات، فما بَعد إدراك المحبَّة مقامٌ إلَّا وهو ثمرةٌ مِن ثمارها، وتابعٌ مِن توابعها، كالشَّوق، والأُنس، والرِّضى، ولا قَبل المحبَّة مقامٌ إلَّا وهو مِن مقدِّماتها، كالتَّوبة، والصَّبر، والزُّهد وغيرها.

واعلم أنَّ الأُمَّة مُجمِعةٌ على أنَّ الحُبَّ لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرضٌ، ومِن شواهد المحبَّة قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهذا دليلٌ على إثبات الحُبِّ لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات التَّفاوت فيه.

وفي الحديث الصَّحيح: أنَّ رجلًا سأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن السَّاعة فقال: «**مَا أَعدَدتَ لَهَا؟**» قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها مِن كثرة صلاةٍ ولا صيامٍ، إلَّا أنِّي أُحبُّ الله ورسوله. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المَرْءُ مَعَ مَن أَحَبَّ، وَأَنتَ مَع مَن أَحبَبتَ**». فما فَرِح المسلمون بعد الإسلام فرحَهم بها[1].

ورُوي أنَّ مَلَك الموت جاء إلى الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيقبض روحه، فقال له: هل رأيت خليلًا يُميت خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت حبيبًا يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا مَلَك الموت اقبض[2].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٨٥)، ومسلمٌ (٢٦٤٠) عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) قال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ١٢١): لم أجد له أصلاً.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن عَرف ربَّه أحبَّه، ومَن أَحبَّ غير الله تعالى لا مِن حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته.

فأمَّا حُبُّ الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم فذلك لا يكون إلَّا عن حُبِّ الله تعالى، وكذلك حُبُّ العلماء والأتقياء؛ لأنَّ محبوب المحبوب محبوبٌ، بل إنَّ ما يَفعل المحبوب محبوبٌ، ورسول المحبوب محبوبٌ، وكلُّ ذلك يَرجع إلى حُبِّ الأصل، ولا محبوبَ في الحقيقة عند ذوي البصائر إلَّا الله تعالى، ولا مُستحِقَّ للمحبَّة سواه.

وإيضاح ذلك يَرجع إلى أسبابٍ:

أحدها: أنَّ الإنسان يُحبُّ نَفْسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، ويكره ضدَّ ذلك مِن الهلاك والعدم والنُّقصان، وهذا جِبِلَّةُ كلِّ حيٍّ لا يُتصوَّر أنْ ينفكَّ عنها، وهذا يقتضي غاية المحبَّة لله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الإنسان إذا عَرف ربَّه عرف قطعًا أنَّ وجوده ودوامه وكماله مِن الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه المُختَرِع له، المُوجِد لِذَاته بعد أنْ كان عدمًا مَحضًا لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقصٌ بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتَّكميل، ولذلك قال الحسن البصريُّ: مَن عَرف ربَّه أَحبَّه، ومَن عَرف الدُّنيا زهد فيها[1].

وكيف يُتصوَّر أنْ يُحبَّ الإنسان نفسه، ولا يُحبَّ ربَّه الذي به قوام نَفْسه؟

السَّبب الثَّاني: أنَّ الإنسان بالطَّبع يُحبُّ مَن أَحسن إليه، ولاطفه، وواساه، وانتدب لنُصرته، وقمع أعدائه، وأعانه على جميع أغراضه، فإنَّه محبوبٌ عنده لا مَحالةَ.

وإذا عَرف الإنسان حَقَّ المعرفة عَلم أنَّ المُحسِن إليه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقط، وأنواع إحسانه لا يُحيط به حصرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [ابراهيم: ٣٤].

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٣/ ١٠٨) عن الْحَجَّاجُ بْنُ فُرَافِصَةَ.

وقد أَشرنا إلى طرفٍ مِن ذلك في كتاب الشُّكر، ولكنَّا نُبيِّن أنَّ الإحسان مِن النَّاس غيرُ مُتصوَّرٍ إلَّا بالمَجاز، وأنَّ المُحسِن في الحقيقة هو الله تعالى.

بيان ذلك أنَّا نَفرض أنَّ شخصًا أَنعم عليك بجميع خزائنه وما يَملك، ومَكَّنك فيها لتتصرَّف كيف شئتَ، فإنَّك تظنُّ أنَّ هذا الإحسان منه، وهو غلطٌ، فإنَّه إنَّما تمَّ إحسانه بماله، وبقدرته على المال، وبداعيته الباعثة له على صرف المال، فمَن الذي أَنعم بخَلْقه، وخَلْق ماله، وخَلْق إرادته وداعيته؟ ومَن الذي حَبَّبك إليه، وصرف وجهه إليك، وألقى في نفسه أنَّ صلاح دِينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذلك ما أعطاك، فكأنَّه صار مقهورًا في التَّسليم لا يستطيع مُخالَفته. فالمُحسِن هو الذي اضطرَّه وسخَّره لك، فهو جارٍ مجرى خازن أميرٍ أَمَره أنْ يُسلِّم إلى الإنسان خلعةً خَلَعها عليه الأمير، فإنَّ الخازن لا يُرى مُحسِنًا بتسليم خلعة الأمير، لأنَّه مُضطرٌّ إلى طاعته، ولو خلَّاه الأمير ونفسه لَمَا سلَّم ذلك، وكذلك كلُّ مُحسِنٍ لو خلَّاه الله ونفسه لم يبذل حبَّةً مِن ماله حتى يُسلِّط الله عليه الدَّواعيَ، ويُلقي في نفسه أنَّ حظَّه في بذل ذلك فيبذله، فينبغي للعارف ألَّا يُحبَّ إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ الإحسان مِن غيره مُحالٌ.

السَّبب الثَّالث: أنَّ المُحسِن في نفسه وإنْ لم يَصل إليك إحسانه محبوبٌ في الطِّبَاع، فإنَّه إذ بلغك عن مَلِكٍ مِن الملوك أنَّه عالِمٌ، عادلٌ، عابدٌ، رفيقٌ بالنَّاس، مُتلطِّفٌ بهم، وهو في قُطرٍ بعيدٍ، فإنَّك تُحبُّه، وتجد في نفسك ميلًا كثيرًا إليه. فهذا حُبُّ المُحسِن مِن حيث إنَّه مُحسِنٌ، فضلًا عن أنْ يكون مُحسِنًا إليك، وهذا يقتضي حُبَّ الله تعالى، بل يقتضي ألَّا يُحَبَّ غيره، إلَّا بحيث أنْ يتعلَّق منه بسببٍ، فإنَّه سبحانه هو المُحسِن إلى الكلِّ كافَّةً، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي مِن ضروراتهم وترفيههم، إلى غير ذلك مِن النِّعم التي لا تُحصى، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [ابراهيم: ٣٤].

فكيف يكون غيره مُحسِنًا؟ وذلك المُحسِن حسنةٌ مِن حسنات قُدرته، فمَن عَرف هذا لم يُحبَّ إلَّا الله تعالى.

وكذلك نقول: كلُّ مَن كان مُتَّصِفًا بالعِلم، أو بالقدرة، أو كان مُتنزِّهًا عن الصِّفات الرَّذيلة، فإنَّ ذلك يُوجِب له المَحبَّة، فصفات الصِّدِّيقين الذين تُحبُّهم القلوب طبعًا تَرجِع إلى عِلمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم، وإلى تنزيههم عن الرَّذائل والخبائث، ولمِثل هذه الصِّفات تُحَبُّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، وإذا نَسبتَ هذه الصِّفات إلى صفات الله تعالى، وجدتَها مُضمحِلَّةً بالنِّسبة إلى صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أمَّا العِلم فإنَّ عِلم الأوَّلين والآخِرين مِن عِلم الله تعالى الذي يُحيط بالكلِّ، حتى لا يَعزب عنه مِثقال ذرَّةٍ في السَّماوات ولا في الأرض، وقد خاطب الخَلْق كلَّهم فقال: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥].

ولو اجتمع أهل الأرض والسَّماوات على أنْ يُحيطوا بعِلمه وحكمته في تفصيل خَلْق نملةٍ أو بعوضةٍ لم يَطَّلعوا على عُشرِ عُشرِ ذلك، ولا يُحيطون بشيءٍ مِن علمه إلَّا بما شاء، والقَدْر اليسير الذي عَلِمه الخَلْق كلُّهم بتعليمه عَلِموه، ففضل عِلم الله سبحانه على عِلم الخلائق كلِّهم خارجٌ عن النِّهاية، ومعلوماته لا نهايةَ لها.

وأمَّا صفة القُدرة فهي أيضًا صفة كمالٍ، فإذا نَسبتَ قدرة الخَلْق كلِّهم إلى قدرة الله تعالى وجدتَ أعظم الأشخاص قوَّةً، وأوسعهم ملكًا، وأقواهم بطشًا، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره غايةُ قُدرته أنْ يقدرَ على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا، ولا يَملك موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، بل لا يقدر على حِفظ عينه مِن العمى، ولا على حِفظ لسانه مِن الخَرس، ولا آذانه مِن الصَّمم، ولا بدنه مِن المرض، ولا يقدر

على ذَرَّةٍ مِن ذرات المخلوقات، وما هو قادرٌ عليه مِن نفسه وغيره، فليست قُدرته مِن نفسه، بل الله خالُقه، وخالُق قُدرته، وخالُق أسبابه، والمُمكِّن له مِن ذلك، ولو سَلَّط بعوضةً على أعظم مَلِكٍ وأقوى شخصٍ لأهلكته، فليس للعبد قدرةٌ إلَّا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى في حَقِّ أعظم ملوك الأرض ذي القرنَين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلَّا بتمكين الله تعالى، فنَواصي الخَلْق جميعهم في قبضته وقدرته، إنْ أهلكهم لم يَنقصْ مِن ملكه وسلطانه ذَرَّةٌ، وإنْ خَلَقَ أمثالهم أَلْف مرَّةٍ لم يَعبأْ بخَلْقه، فلا قادرَ إلَّا هو، فله الكَمال والعَظَمة والبَهاء والكِبرياء والقَهر والاستيلاء. فإنْ تُصُوِّرَ أنْ تُحِبَّ قادرًا لكمال قُدرته وعظمته وعلمه، فلا يَستحِقُّ ذلك سواه، ولا يُتصوَّر كمال التَّقديس والتَّنزيه إلَّا له سبحانه، فهو الواحد الذي لا نِدَّ له، الفرد الذي لا ضِدَّ له، الصمد الذي لا مُنازِع له، الغنيُّ الذي لا حاجةَ له، القادر الذي يَفعل ما يشاء، ويَحكم ما يُريد، لا رادَّ لحُكمه، ولا مُعقِّبَ لقضائه، العالِم الذي لا يَعزب عنه مِثقال ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السَّماء.

وكمال معرفة العارفِين الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المُستحِقُّ لكمال المحبَّة استحقاقًا لا يُساهم فيه أصلًا.

فصلٌ في بيانِ أنَّ أجلَّ اللَّذاتِ وأعلاها معرفةُ اللهِ سُبحانه والنَّظرُ إلى وجهِهِ الكريمِ وأنَّه لا يُتصوَّرُ أنْ يُؤثِرَ على ذلكَ لذَّةً أُخرى إلَّا مَنْ حُرِمَ هذهِ اللَّذةَ

اعلم أنَّ اللَّذَّات تابعةٌ للإدراكات، والإنسان جامعٌ لجملةٍ مِن القوى والغرائز، ولكلِّ قوَّة غريزة لَذَّةٍ، ولم تُخلَقْ هذه الغرائز عبثًا، بل لأمرٍ مِن الأمور، وهو مقتضاها بالطَّبع، فغريزة شهوة الطَّعام خُلِقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، ولَذَّة البصر والسَّمع في الأبصار والأسماع.

وكذلك في القلب غريزةٌ تُسمَّى النُّورَ الإلهيَّ، وقد تُسمَّى العقل، وتُسمَّى البصيرة الباطِنة، وتُسمَّى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خُلقت ليُعلم بها حقائق الأمور كلِّها بطبعها، فمقتضى طبعها العِلم والمعرفة، وذلك لَذَّتها.

وليس يَخفى أنَّ العِلم والمعرفة ولو في شيءٍ خسيسٍ يُفرَح به، وأنَّ مَن يُنسَب إلى الجهل ولو في شيءٍ خسيسٍ يَغتمُّ به، وكلُّ ذلك لفرط لَذَّة العِلم، وما يَستشعره مِن كمال ذاته، فإنَّ العِلم مِن أحسن الصِّفات، ومُنتهَى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أُثني عليه بالذَّكاء وغزارة العِلم، ثُمَّ ليس لَذَّةُ العِلم بالحراثة والخياطة كلَذَّة العِلم بسياسة المُلك، وتدبير أَمر الخَلْق، ولا لَذَّة العِلم بالشِّعر والنَّحو، كلَذَّة العِلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السَّموات والأرض، بل لَذَّة العِلم بقَدر شرف العِلم، وشرفُ العِلم بقدر شرف المعلوم، فبهذا استبان أنَّه أَلذُّ المعارف أشرفُها، وشرفُها بحسب شرف المعلوم، فإنْ كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعِلم به أَلذُّ العلوم لا مَحالةَ وأشرفها.

وليت شِعري هل في الوجود شيءٌ أجلُّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم مِن خالِق الأشياء كلِّها ومُكمِّلِها، ومُزيِّنها ومُبديها ومُعيدها ومُدبِّرها ومُرتِّبها؟ وهل يُتصوَّر أنْ يكونَ حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم مِن الحضرة الرَّبانيَّة التي لا يُحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصِفين؟

فينبغي أنْ تَعرف أنَّ لَذَّة المعرفة أقوى مِن جميع اللَّذَّات المُدرَكة بالحواسِّ الخمس، فإنَّ المعاني الباطِنة أغلبُ على ذوي الكمال مِن اللَّذَّات الظَّاهرة. فلو خُيِّر الرَّجل بين لَذَّة أكل الدَّجاج السَّمين واللَّوزينج، وبين لَذَّة الرِّياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء فإنْ كان المُخيَّر خَسيس الهِمَّة، ميت القلب، شديد الشَّهوة البهيميَّة اختار اللَّحم والحلواء، وإنْ كان عَلِيَّ الهِمَّة، كامل العقل، فإنَّه يَختار الرِّياسة، ويَهون عليه الجوع والصَّبر على ضرورة القُوت أيَّامًا.

فاختياره للرِّياسة دليلٌ على أنَّه أَلَذُّ عنده مِن المطعومات الطَّيِّبة، وكما أنَّ لَذَّة الرِّياسة أغلبُ اللَّذَّات على مَن جاور نقصان النَّاقص الهِمَّة، فلَذَّة معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنَّظر إلى أسرار الأُمور الإلهيَّة أَلَذُّ مِن الرِّياسة التي هي أعلى اللَّذَّات الغالبة على الخَلْق، وهذا لا يَعرفه إلَّا مَن ذاق اللَّذَّتين جميعًا، فإنَّه لا محالةَ يُؤثِر التَّبتُّل والتَّفرُّد والفكر والذِّكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرِّياسة، ويَحتقر الخَلْق؛ لعلمه بفناء رياسته، وفناء مَن عليه رياسته، وكون ذلك مَشوبًا بالكَدَر، مقطوعًا بالموت، وتعظم عنده معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومُطالَعة صِفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنَّها خاليةٌ عن المُزاحِمات والمُكدِّرات، مُتَّسِعةٌ للمُتوارِدين عليها، لا تضيق عنهم، فلا يزال العارف بمُطالَعتها في جَنَّةٍ عَرضها السَّموات والأرض، يَرتع في رِياضها، ويَقطف مِن ثمارها، ويَكرع مِن حياضها، وهو آمنٌ مِن انقطاعها؛ إذ هي أبديَّةٌ سرمديَّةٌ، لا يَقطعها الموت؛ لأنَّ الموت لا يَهدم مَحلَّ معرفة الله تعالى؛ إذ مَحلُّها الرُّوح، وإنَّما الموت يُغيِّر أحوالها، أمَّا أنْ يَعدِمها فلا.

والعارفون درجاتٌ عند الله تعالى يَتفاوتون، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر، وهذه الأمور لا تُدرَك إلَّا بالذَّوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى، فهذا القدر ينبِّهك على أنَّ معرفة الله تعالى أَلَذُّ الأشياء، وأنَّه لا لَذَّةَ فوقها، ولهذا قال أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ لله عبادًا ليس يَشغلهم عن الله عَزَّوَجَلَّ خوف النَّار ولا رجاء الجَنَّة، فكيف تَشغلهم الدَّنيا عن الله تعالى؟»

وقال بعض أصحاب معروفٍ: قلتُ له: أيُّ شيءٍ أَهاجك على العِبادة؟ فسكت، فقلتُ: ذِكر الموت؟ فقال: وأيُّ شيءٍ الموت؟ قلتُ: ذِكر القبر؟ وقال: وأيُّ شيءٍ القبر؟ قلتُ: خوف النَّار ورجاء الجَنَّة؟ فقال: وأيُّ شيءٍ هذا؟ إنَّ مَلِكًا هذا كلُّه بيده، إنْ أحببتَه أنساك جميع ذلك، وإنْ كانت بينك وبينه معرفةٌ كفاك جميع ذلك.

وقال أحمدُ بن الفتح: رأيتُ بشر بن الحارث في منامي، فقلتُ له: ما فعل معروفٌ الكرخيُّ؟ فحرَّكَ رأسه، ثُمَّ قال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحُجب، إنَّ معروفًا لم يعبد الله شوقًا إلى جَنَّته، ولا خوفًا مِن ناره، وإنَّما عبده شوقًا إليه، فرَفَعه الله إلى الرَّفيق الأعلى، ورفع الحُجب بينه وبينه(١).

فمتى حَصَلت مَحبَّة الله تعالى لشخصٍ صار قلبه مُستغرِقًا بها، ولا يَلتفت إلى جَنَّةٍ، ولا يخاف مِن نارٍ، فإنَّه قد بلغ النَّعيم الذي ليس فوقه نعيمٌ، قال بعضهم:

وَهَجْـرُهُ أَعظَـمُ مِـنْ نَـارِهِ ... وَوَصْلُـهُ أَطيَـبُ مِـنْ جَنَّتِـهْ

وإنَّما أراد بهذا لَذَّة القلب في معرفة الله تعالى، وإنَّها مُفضَّلةٌ على لَذَّة الأكل والشُّرب والنِّكاح، فإنَّ الجَنَّة معدن تمتُّع الحواسِّ، وأمَّا القلب فلَذَّته في لقاء الله تعالى فقط.

واعلم أنَّ لَذَّة النَّظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدُّنيا، وقد اقتضت سُنَّة الله تعالى أنَّ النَّفس ما دامت مَحجوبةً بعوارض البَدن، ومقتضى الشَّهوات، وما يغلب عليها مِن الصِّفات البَشريَّة لا تنتهي إلى المُشاهَدة، بل هذه الحياة حِجابٌ عنها بالضَّرورة كحِجاب الأجفان عن رؤية الأبصار.

والقول في سبب كونه حِجابًا يطول، فإذا ارتفع الحِجاب بالموت بقيت النَّفس، وفيها نوع تلوُّث الدُّنيا، فإذا أُدخل أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وقد صَفوا مِن الأكدار تجلَّى لهم الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على قدر معرفتهم في الدُّنيا.

فكلُّ مَن لا يَعرف الله تعالى في الدُّنيا لا يراه في الآخرة، وما يستأنف لأَحدٍ في الآخرة ما لم يصحبه في الدُّنيا، ولا يحصد أَحدٌ إلَّا ما زَرع، ولا يموت المرء إلَّا على ما عاش عليه، فما صحبه مِن المعرفة هو الذي يتنعَّم به بعينه، إلَّا أنَّه يَنقلب مشاهَدةً بكشف الغِطاء، فتُضاعَف اللَّذَّة، والعيش عيش الآخرة. ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٢٢٤).

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء في الحديث: «**خَيرُ النَّاسِ مَن طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»[(١)] وذلك لأنَّ المعرفة إنَّما تكمل وتكثر وتتَّسع في العُمر الطَّويل بمُداوَمة الفِكر والذِّكر، والمُواظَبة على المُجاهَدة، والانقطاع عن علائق الدُّنيا، والتَّجرُّد للطَّلب، فقد عرفتَ بما ذَكرنا معنى المَحبَّة، ومعنى لَذَّة المعرفة، ومعنى الرُّؤية ولَذَّتها، ومعنى كونها أَلَذَّ مِن سائر اللَّذَّات عند أهل الكمال.

فَصْلٌ في بيانِ الأسبابِ المقوِّيةِ لحُبِّ اللَّهِ تعالى وتفاوتِ النَّاسِ في الحُبِّ وبيانِ السَّببِ في قصورِ أفهامِ الخَلْقِ عن معرفةِ اللَّهِ تعالى

اعلم أنَّ أَسعَدَ النَّاس وأحسنهم حالًا في الآخرة أقواهم حُبًّا لله تعالى، فإنَّ الآخرة معناها القُدوم على الله تعالى، ودَرْك سعاد لقائه، وما أعظم نعيم المُحبِّ إذا قدم على محبوبه بعد طُول شوقه، وتمكَّن مِن مشاهدته مِن غير مُنغِّصٍ ولا مُكدِّرٍ، إلَّا أنَّ هذا النَّعيم على قَدْر المَحبَّة، فكلَّما ازداد الحُبُّ ازدادت اللَّذَّة.

وأصل الحُبِّ لا ينفكُّ عنه مُؤمِنٌ؛ لأنَّه لا ينفكُّ عن أصل المعرفة، وأمَّا قوَّة الحُبِّ واستيلاؤه فذلك ينفكُّ عنه الأكثرون، وإنَّما يحصل ذلك بشيئَين:

أحدهما: قَطع علائق الدُّنيا، وإخراج حُبِّ غيرِ الله مِن القلب، فأَحد أسباب ضعف حُبِّه قوَّة حُبِّ الدُّنيا، وبقدر ما يَأنس القلب بالدُّنيا ينقص أُنسه بالله عَزَّوَجَلَّ، والدُّنيا والآخرة ضَرَّتان، وسبيل قطع الدُّنيا عن القلب سلوك طريق الزُّهد، ومُلازَمة الصَّبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرَّجاء، وما ذَكَرناه مِن المَقامات كالتَّوبة والصَّبر والشُّكر والزُّهد والخوف وغير ذلك.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٣٠)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٥١٢)، والطَّبرانِيُّ في «الصَّغير» (٨١٨)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

السَّبب الثَّاني لقوَّة المحبَّة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبَّة، ولا يُوصِل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدُّنيا مِن القلب إلَّا الفكرُ الصَّافي، والذِّكر الدَّائم، والتَّشمير في الطَّلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه، وأقلُّ أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السَّموات.

والشَّمس على ما يُرى مِن صغر حجمها مِثل الأرض مائةً ونيفًا وستِّين مرَّةً، فالنَّظر[١] إلى صِغر الأرض بالإضافة إليها، ثُمَّ النَّظر[٢] إلى صِغر الشَّمس بالإضافة إلى فَلَكها الذي هي مركوزةٌ فيه، وهي في السَّماء الرَّابعة، والسَّماء الرَّابعة صغيرةٌ بالنِّسبة إلى ما فوقها مِن السَّموات، ثُمَّ السَّموات السَّبع في الكرسيِّ كحَلَقةٍ مُلقاةٍ في فلاةٍ، والكرسيُّ في العرش كذلك[٣].

ثُمَّ انظر إلى الآدميِّ المَخلوق مِن التُّراب الذي هو جزءٌ مِن الأرض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صِغره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه مِن الحيوانات البعوض، فانظر فيه بعقلٍ حاضرٍ، كيف خَلَقه الله عَزَّوَجَلَّ على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحَين، وانظر كيف شَقَّ سَمْعه وبَصَره، وخَلَق في باطنه مِن أعضاء الغِذاء وآلاته، ودبَّره في سائر أحواله مِن القوى الجاذبة والدَّافعة والهاضمة، وانظر كيف خَلَق له الطَّيران يطير إذا طَلب، وجَعَل له خُرطومًا مُحدَّدًا يَمصُّ به الدَّم.

وانظر إلى النَّحل في تناولها الأزهار مِن الأنوار، واحترازها عن الأقذار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنَّه يَقتل كلَّ ما ورد عليه، وقد أَكَل مُستقذَرًا، وإلى اختيارها الشَّكل المُسدَّس، فلا تَبني بيتًا مُربَّعًا، ولا مُستديرًا، ولا مُخمَّسًا، بل مُسدَّسًا؛ لخاصِّيَّته في

---

(١) لعلها فانظر.

(٢) لعلها انظر.

(٣) روى أبو الشَّيخ في «العَظَمة» عن أَبي ذَرٍّ الغفاريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ؟، قَالَ: «آيَةُ الْكُرْسِيِّ»، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ».

الشَّكل المُسدَّس، فإنَّ أوسع الأشكال وأحواها المُستدير وما يَقرب منه، فإنَّ المُربَّع تخرج منه الزَّوايا ضائعةً، ثُمَّ لو بناها مُستديرةً لبقيت خارج البيوت فُرَجٌ ضائعةٌ، فإنَّ الأشكال المُستديرة إذا جُمِعت لم تَجتمع مُتراصَّةً، فلا شكلَ في الأشكال ذوات الزَّوايا يَقرُب في الاحتواء مِن المُستدير، ثُمَّ تتراصُّ الجملة منه، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فُرجةً إلى المُسدَّس، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صِغر حَجمه وضَعفه، فاعتبر بهذه اللُّمعة اليسيرة مِن مُحقَّرات الحيوانات فالنَّظر في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبَّة.

وأمَّا السَّبب في تفاوُت النَّاس في الحُبِّ.

فاعلم أنَّ النَّاس مُشترِكون في أصل الحُبِّ، لكنَّهم يتفاوَتون؛ لتفاوُت المعرفة، فكثيرٌ مِن النَّاس ليس لهم مِن معرفة الله تعالى إلَّا الصِّفات والأسماء التي قَرعت أسماعهم، والعالِم البصير يُطالِع في تفصيل صنع الله تعالى حتى يَرى ما يُبهر عقله، فتزداد عظمة الله في قلبه، فيزداد حُبًّا له، وتَجرُّ هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحرٍ لا ساحلَ له.

وأمَّا السَّبب في قُصور أفهام الخَلْق عن معرفة الله تعالى فاعلم أنَّ كلَّ مَن صنع شيئًا دَلَّ المصنوع على وجود صانعه، وعلى عِلمه وحياته وقدرته دلالةً جليةً ظاهرةً، وإنْ كانت هذه الصِّفات لا تُدرَك بشيءٍ مِن الحواسِّ الخمس، فوجود الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدرته وعلمه وسائر صفاته يَشهد له بالضَّرورة كلَّ ما نُشاهده مِن حَجَرٍ وشجرٍ ومَدَرٍ ونباتٍ وحيوانٍ وأرضٍ وسماءٍ وكوكبٍ وبَرٍّ وبحرٍ، بل أوَّل شاهدٍ علينا أنفسنا وأجسامنا، وتقلُّب أحوالنا، وتغيُّر قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما في العالَم شواهدُ ناطقةٌ، وأدلَّةٌ شاهدةٌ بوجود خالقها ومُدبِّرها ومُصرِّفها ومُحرِّكها، ودالَّةٌ على عِلمه وقدرته وحياته ولُطفه وحِكمته وعَظَمته وجَلاله؛ إذ كلُّ ذَرَّةٍ تُنادي بلسان حالها: إنَّه ليس وجودها بنفسها، وإنَّما تحتاج إلى مُوجِدٍ لها، لكنَّ

عُقولنا بالنِّسبة إلى إدراك الحضرة الإلهيَّة كالخفاش بالنِّسبة إلى النَّهار، فإنَّه لضعف بصره يُبصر باللَّيل، ولا يُبصر بالنَّهار، وليس عدم إبصاره بالنَّهار لخفائه، بل لشِدَّة ظُهوره واستنارته وضعف أَعين الخفاش، فكذلك عقولنا ضعيفةٌ عن إدراك الحضرة الإلهيَّة، فسبحان مَن احتجب بإشراق نوره، واختفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السَّبب في قصور الأفهام عن معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانضمَّ إلى ذلك أيضًا أنَّ المُدرَكات الشَّاهدة لله تعالى إنَّما يُدركها الإنسان في حال الصِّبا قَبل حضور العقل عنده، ثُمَّ تبدو فيه غريزة العقل قليلًا قليلًا، وهو مُستغرِق الهَمِّ، مشغولٌ به، وقد أَنِس بمُدرَكاته وأَلِفها، فسقط وَقْعها عن قلبه بطُول الأُنس.

وكذلك إذا رأى فجأةً حيوانًا غريبًا، أو نباتًا، أو فعلًا مِن أفعال الله تعالى عجيبًا خارقًا للعادة انطلق لسانه بالتَّعجُّب، فقال: سبحان الله! [سبحان الله!][1] وهو يرى طول النَّهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميع الحيوانات المألوفة، وكلُّها شواهدُ قاطعةٌ، فلا يَحسُّ بشهادتها؛ لطول الأُنس بها.

ولو فُرض أنَّ أعمَى بلغ عاقلًا، ثُمَّ انقشعت غِشاوة عينه، فامتدَّ بصره إلى السَّماء، والأرض، والأشجار، والنَّبات والحيوان دفعةً واحدةً لَخِيف على عقله أنْ ينبهرَ؛ لِعِظَم تعجُّبه مِن مشاهَدة هذه العجائب، وشهادتها لِخالقها، فهذا وأمثاله مِن الأسباب مع الانهماك في الشَّهوات، هو الذي سَدَّ على الخلق في سبيل الاستضاءة بنور المعرفة، والسِّباحة في بِحارها الواسعة، والله أعلمُ.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ مَعْنَى الشَّوْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

قد تقدَّم الكلام في المحبَّة وإثباتها بالأدلَّة، وأنَّ الشَّوق ثمرةٌ مِن ثِمارها، فإنَّ مَن أَحَبَّ شيئًا اشتاق إليه.

(١) سقطت من "الأصل،خ".

واعلم أنَّ الشَّوق لا يُتصوَّر إلَّا لشيءٍ أُدرِك مِن وجهٍ، ولم يُدرَكْ مِن وجهٍ.

فأمَّا ما لا يُدرَك أصلًا فلا يَشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرُّؤية، وإنَّما يكون ذلك في الآخرة.

واعلم أنَّ الأمور الإلهيَّة لا نهايةَ لها، وإنَّما يُكشَف لكلِّ عبدٍ مِن العِباد بعضها، ويَبقى أمورٌ لا نهايةَ لها، والعارف يَعلم وجودها، وكونها معلومةً لله تعالى، ويَعلم أنَّ ما غاب عن عِلمه مِن المعلومات أكثر ممَّا حَضَر، فلا يزال العبد مُتشوِّقًا إلى أنْ يحصلَ له أصل المعرفة، وينتهي الشَّوق الأوَّل في الدَّار الآخرة بالمعنى الذي يُسمَّى رؤيةً ولقاءً ومُشاهَدةً، ولا يُتصوَّر أنْ يَسكنَ قلب المُشتاق في الدُّنيا.

وكان إبراهيمُ بن أدهمَ مِن المُشتاقِين، فقال يومًا: يا ربِّ، إنْ كنتَ أعطيتَ أَحدًا مِن المُحبِّين لك ما يُسكِّن به قلبه قَبل لقائك فأعطني، فقد أَضرَّ بي القَلَق. قال: فرأيته عَزَّوَجَلَّ في النَّوم، فقال: يا إبراهيمُ، أَمَا استحييتَ مني؟ تسألني أنْ أُعطيك ما يُسكِّن به قلبك قَبل لقائي، وهل يَسكُن قلب المُشتاق قَبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا ربِّ، [تُهْتُ](1) في حُبِّك فلم أَدرِ ما أقول(2).

فهذا الشَّوق يسكن في الآخرة، وأمَّا غيرُ ذلك ممَّا هو معلومٌ لله فلا نهايةَ له، فلا يتَّضِح للعبد ولا يُحيط به، فهو مشغولٌ بلَذَّة ما ظهر له، ولا يزال النَّعيم واللَّذَّة مُتزايِدَين حتى يَشتغل عن الإحساس بالشَّوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر مِن أنوار البصائر كاشف لحقائق الشَّوق ومعانيه.

ومِن شواهد الأخبار ما رُوي أنَّ رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عَلَّم رجلًا دعاءً، وأَمَره أنْ يتعاهَد به أهله كلَّ يومٍ، فذَكَر فيه: «**أَسأَلُكَ اللَّهمَّ الرِّضَى بَعدَ القَضاءِ، وَبَردَ العَيشِ بَعدَ المَوتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجهِكَ، وَشَوقًا إلى لِقائِكَ**»(3).

---

(١) ورد في "الأصل، خ" [نهبت].

(٢) رواه ابن الملقِّن في «طبقات الأوليا» (ص٧).

(٣) رواه أحمدُ (٢١٦٦٦)، وأبو يعلى المَوصِلِيُّ (١٦٢٤)، والحاكم (١٩٠٠)، وقال العراقيُّ في =

وفي التَّوراة: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشدُّ شوقًا[١].

وفي بعض ما أَوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى بعض عِباده: إنَّ لي عِبادًا مِن عبادي، يُحبُّوني وأُحبُّهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إليَّ، ويذكروني وأذكرهم، فإنْ حذوتَ طريقهم أحببتُكَ، وإنْ عَدلتَ عنهم مَقتُّك. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يَراعون الظِّلال بالنَّهار، كما يَرعى الرَّاعي الشَّفيق غنمه؟ ويَحنُّون إلى غروب الشَّمس كما تَحنُّ الطَّير إلى أَوكارها عند الغروب، فإذا جَنَّهُمُ اللَّيل، واختلط الظَّلام، وفُرِشت الفُرُش، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، نَصَبوا أقدامهم، وافترَشوا وجوههم، وناجَوني بكلامي، وتَمَلقوني بإنعامي، فبين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوِّهٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راكعٍ وساجدٍ، بعيني ما يتحمَّلون مِن أجلي، وبسمعي ما يَشكُون مِن حُبِّي[٢].

فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأمَّا محبَّة الله تعالى للعبد فاعلم أنَّ شواهد القرآن مُتظاهِرةٌ على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، الآية.

ونبَّه على أنَّه لا يُعذِّب مَن يُحبُّه؛ لأنَّه رَدَّ على مَن ادَّعى أنَّه حبيبه بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ

= «المغني» (٣/ ٥٢): أخرجه أحمدُ، والحاكم عن زيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أثناء حديثٍ، وقال: صحيح الإسناد.

(١) قال العراقيُّ في «المغني» (٦/ ٢١٨): لم أجد له أصلاً، إلاَّ أنَّ صاحب «الفردوس» أخرجه مِن حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يذكر له ولده في «مسند الفردوس» إسنادًا.

(٢) رواه الشَّنقيطيُّ في «كوثر المعاني» (١١/ ١١).

خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وشَرَط للمحبَّة غفران الذُّنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي الحديث الصَّحيح مِن رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ: ما يَزَالُ عَبدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»[١]، إلى آخره، وهو حديثٌ مشهورٌ.

ومِن عَلَامة حُبِّ الله تعالى للعبد قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ إذا أَحبَّ عَبْدًا ابتِلَاهُ**»[٢].

ومِن أقوى العلامات حُسن التَّدبير له، يُربِّيه مِن الطُّفولة على أَحسن نظام، ويَكتب الإيمان في قلبه، ويُنوِّر له عقله، فيَتَّبع كلَّ ما يُقرِّبه، ويَنفر عن كلِّ ما يُبعد عنه، ثُمَّ يتولاه بتيسير أموره، مِن غير ذُلٍّ للخَلْق، ويُسدِّد ظاهره وباطنه، ويَجعل همَّه هَمًّا واحدًا، فإذا زادت المحبَّة شَغَله به عن كلِّ شيءٍ.

وأمَّا محبَّة العبد لله تعالى فاعلم أنَّ المحبَّة يدَّعيها كلُّ أَحدٍ، فما أَسهلَ الدَّعوى، وأَعزَّ المعنى! فلا ينبغي أنْ يَغترَّ بتلبيس الشَّيطان، وخِداع النَّفس إذا ادَّعت محبَّة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويُطالِبْها بالبراهين، فمِن العلامات حُبُّ لقاء الله تعالى في الجَنَّة، فإنَّه لا يُتصوَّر أنْ يُحِبَّ القلب محبوبًا إلَّا ويُحبُّ لقاءه ومُشاهَدته، وهذا لا يُنافِي كراهة الموت، فإنَّ المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومِن السَّلف مَن أَحبَّ الموت، ومنهم مَن كَرِهه، إمَّا لضعف محبَّته، أو لكونها مشوبةً بحُبِّ شيءٍ مِن الدُّنيا، أو لأنَّه يَرى ذنوبه فيُحبُّ أنْ يبقى ليتوب.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٣٧).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٣٢٩)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٤٠٨): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في كتاب المرض والكفَّارات مِن حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بإسنادٍ فيه لينٌ.

ومنهم مَن يرى نفسه في ابتداء مقام المحبَّة، فيكره عجلة الموت قَبل أنْ يَستعدَّ للقاء الله تعالى، وهذا كمُحِبٍّ يَصله الخبر بقُدوم حبيبه عليه، فيُحبُّ أنْ يتأخَّر قدومه ساعةً؛ ليُهيِّئ له داره، ويُعدِّل له أسبابه، فيَلقاه كما يهواه، فارغَ القلب عن الشَّواغل، خفيفَ الظَّهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السَّبب لا تُنافِي كمال المحبَّة، وعلامةُ هذا الدُّؤوب في العمل، واستغراق الهَمِّ في الاستعداد.

ومنها أنْ يكونَ مُؤثِرًا ما أَحبَّه الله تعالى على ما يُحبه في ظاهره وباطنه، فيَجتنب اتِّباع الهوى، ويُعرض عن دَعَة الكَسَل، ولا يَزال مُواظِبًا على طاعة الله تعالى مُتقرِّبًا إليه بالنَّوافل.

مَن أَحبَّ الله فلا يعصيه، إلَّا أنَّ العِصيان لا يُنافِي أصل المحبَّة، إنَّما يُضادُّ كَمالَها، فكم مِن إنسانٍ يُحبُّ الصِّحَّة، ويأكل كلَّ ما يَضرُّه، وسببه أنَّ المعرفة قد تَضعف، والشَّهوة قد تَغلب، فيَعجز عن القيام بحَقِّ المَحبَّة، ويدلُّ على ذلك حديث نعمان رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّه كان يُؤتَى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيَحدُّه[1]، إلى أنْ أُتِي به يومًا، فحَدَّه، فلعنه رجلٌ، وقال: ما أكثرَ ما يُؤتَى به! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَلعَنْهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[2]. فلم تُخرجه المعصية عن المحبَّة، وإنَّما تُخرجه عن كمال المحبَّة.

ومِن العلامات أنْ يكون مُسْتَهْتَرًا بذِكر الله تعالى، لا يَفتُرُ عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإنْ أَحبَّ شيئًا أكثرَ مِن ذِكْره بالضَّرورة، ومِن ذِكر ما يَتعلَّق به.

فعلامة حُبِّ الله حُبُّ ذِكْره، وحُبُّ القرآن الذي هو كلامه، وحُبُّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أي يقيم عليه الحد، وهو نعيمان بن عمرو بن رفاعة، وكان كثير المزاح.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٩٨) عن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وفيه أنَّ رجلاً على عهد النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقَّب حِمارًا، وكان يُضحِك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض السَّلف: كنتُ قد وجدتُ حلاوة المناجاة، فكنتُ أُدمن قراءة القرآن، ثُمَّ لَحِقَتني فترةٌ، فانقطعتُ، فرأيتُ في المنام قائلًا يقول:

إنْ كُنتَ تزعمُ حُبِّي فَلِمْ هَجَرْتَ كِتَابِي
أَمَا تَدَبَّرتَ مَا فِيـ ـهِ مِن [لطفِ][1] عِتَابِي

ومنها أنْ يكونُ أُنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيُواظب على التَّهجُّد، ويَغتنم هدوء اللَّيل، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإنَّ أقلَّ درجات الحُبِّ التَّلذُّذ بالخلوة بالحبيب، والتَّنعُّم بمُناجاته.

رُوي أنَّ عابدًا عَبَد الله في غَيضةٍ دهرًا، فنظر إلى طائرٍ قد عَشَّش في شجرةٍ يأوي إليها، ويُصفِّر عندها، فقال: لو حولتُ مسجدي إلى تلك الشَّجرة كنتُ آنس بصوت هذا الطَّائر. ففَعَل، فأوحى الله تعالى إلى نبيِّهم: قلْ لفلانٍ العابد: استأنستَ بمخلوقٍ، لَأَحُبطَنَّكَ دَرجةً لا تَنالها بشيءٍ مِن عملك أبدًا.

فإذن علامة المحبَّة كمال الأُنس بمناجاة المحبوب، وكمال التَّنعُّم بالخلوة، وكمال الاستيحاش مِن كلِّ ما يَنقض عليه الخلوة.

ومتى غَلب الحُبُّ والأُنس صارت الخلوة والمناجاة قرَّةَ عينٍ تَدفَع جميع الهموم، بل يستغرق الحُبُّ والأُنس قَلبه، حتى لا يَفهم أُمور الدُّنيا، ما لم تَتكرَّر على سمعه مِرارًا، مِثل العاشق الولهان.

ومنها أنْ يتأسَّف على ما يفوته مِن ذِكر الله تعالى، ويَتنعَّم بالطَّاعة، لا يَستثقلها، ويُسقِط عنه تَعَبها.

---

(١) ورد في "المطبوع، ن" [لطيف].

قال ثابتٌ البُنانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كابدتُ الصَّلاة عشرين سنةً، وتنعَّمتُ بها عشرين سنةً[١].

وقال الجنيد[٢]: عَلامَة المَحبَّة دوام النَّشاط، والدَّؤوب بشهوةٍ يفتر بدنه، ولا يفتر قلبه، وكلُّ هذا موجود المِثال في المُشاهَدات، فإنَّ المُحبَّ لا يَستثقِل السَّعي في مُراد محبوبه، ويَستلذُّ خِدمته بقَلبه، وإنْ كان شاقًّا على بَدَنه، وكلُّ حُبٍّ قاهرٌ لا مَحالةَ، فمَن كان محبوبه أَحبَّ إليه مِن الكسل تَرك الكسل في خِدمته، وإنْ كان أَحبَّ إليه مِن المال ترك المال في حُبِّه.

ومنها أنْ يكون شَفيقًا على جميع عِباد الله عَزَّوَجَلَّ، رحيمًا بهم، شديدًا على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، ولا تأخذه في الله لَومةُ لائمٍ، ولا يَصرفه عن الغضب له صارفٌ.

فهذه علامات المَحبَّة، فمَن اجتمعت فيه فقد تمَّت محبَّته، وصفا في الآخرة شَرابه، ومَن امتزج بحبِّه حُبُّ غير الله، تنعَّم في الآخرة بقَدْر حُبِّه، فيُمزَج شَرابه بشيءٍ مِن شَراب المُقرَّبين، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ

---

(١) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢٠).

(٢) أبو القاسم الجُنيد بن محمَّد بن الجنيد النَّهاونديُّ، سمع مِن السَّريِّ السَّقَطيِّ، وصحبه، ومِن الحسن بن عرفةَ، وصحب أيضًا الحارث المحاسبيَّ، وأبا حمزةَ البغداديَّ، وحدث عنه جعفرٌ الخلديُّ، وأبو محمَّد الجُريريُّ، وأبو بكرٍ الشِّبليُّ وغيرهم، توفِّي (٢٩٧). «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٤/ ٦٦)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ١٤١).

بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٠-٢٨] فقُوبل الخالص بالصَّرف، والمَشوب بالمَشوب، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومنها أنْ يكونَ في حُبِّه خائفًا بين الهيبة والتَّعظيم، فإنَّ الخوف لا يضادُّ المحبَّة، ولخصوص المُحبِّين مَخاوِفُ في مَقام المَحبَّة ليست لغيرهم، وبعضها أَشدُّ مِن بعضٍ، فأوَّلها خوف الإعراض، وأَشدُّ منه خوف الحِجاب، وأَشدُّ منه خوف الإبعاد.

ومنها كتمان الحُبِّ، واجتناب الدَّعوى، والتَّوقِّي مِن إظهار الوَجد والمحبَّة تعظيمًا للمحبوب، وإجلالًا له، وهيبةً وغَيرةً على سِرِّه، فإنَّ الحُبَّ سِرٌّ مِن أسرار الحبيب، وقد يقع المُحبُّ في دهشٍ وسُكْرٍ، فيَظهر عليه الحُبُّ مِن غير قَصْدٍ، فهو في ذلك مَعذورٌ، كما قال بعضهم:

وَمَـنْ قَلبُـهُ مَـعَ غَيـرِه كَيـفَ حَالُـه ... وَمَـنْ سِـرُّهُ فـي جَفنِـهِ كَيـفَ يَكتُـمُ[1]

فصلٌ في بيانِ معنى الأُنسِ باللهِ والرِّضى بقضاءِ اللهِ

اعلم أنَّ مَن غلب حال الأُنس لم تكن شهوته إلَّا في الانفراد والخلوة؛ لأنَّ الأُنس بالله يُلازمه التَّوحُّش مِن غيره، ويكون أثقلَ الأشياء على القلب كلُّ ما يعوق عن الخلوة، قال عبد الواحد بن زيدٍ: قلتُ لراهبٍ: لقد أعجبتكَ الخلوة. فقال: لو ذُقتَ حلاوة الخلوة لاستوحشتَ إليها مِن نفسك. قلتُ: متى يذوق العبد حلاوة الأُنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الودُّ خلصت المعاملة. قلتُ: متى يصفو الودُّ؟ قال: إذا اجتمع الهَمُّ، فصار هَمًّا واحدًا في الطَّاعة[2].

فإنْ قيل: ما علامة الأُنس؟ قيل: علامته الخاصَّة ضِيق الصَّدر عن مُعاشَرة الخَلْق، والتَّبرُّم بهم، وإنْ خالط فهو كمُنفرِدٍ غائبٍ مُخالِطٍ بالبَدن، مُنفرِدٍ بالقلب.

---

(١) البيت لصفيِّ الدِّين الحلِّيِّ وهو في «ديوانه» (ص٦٣٤).

(٢) ذكره بهاء الدِّين الهمذانيُّ في «الكشكول» (٢/ ٢٠٥).

واعلم أنَّ الأُنس إذا دام وغلب واستحكم قد يُثمر نوعًا مِن الانبساط والإدلال، وقد يكون ذلك مُنكَرًا في الصُّورة؛ لِما فيه مِن الجراءة وقِلَّة الهَيبة، وإنْ كانَ مُحتمَلًا ممَّن أُقِيم مقام الأُنس، وأمَّا إذا صَدَر ممَّن لا يَفهم ذلك المقام أَشرَف به على صاحبه على الكفر، وذلك كما يُروى عن أبي حفصٍ أنَّه كان يمشي يومًا، فاستقبله رجلٌ مدهوشٌ، فقال: ما لك؟ قال: ضلَّ حِماري، ولا أَملك غيره. فوقف أبو حفصٍ، وقال: وعِزَّتِكَ لا أَخطو خطوةً ما لم تَردَّ عليه حماره. فظهر الحمار.

ورُوي عن برخٍ العابد أنَّه خرج يستسقي فقال: يا رب، أنتَ بالبخل لا تُرمَى، أَنفِذ ما عندك، اسقنا السَّاعة.

ولا يُستبعَد أنْ يُحتمَل مِن شخصٍ ما لم يُحتمَل مِن غيره.

وأمَّا الرِّضى بقضاء الله تعالى فهو مِن أعلى مَقامات المُقرَّبين، وهو مِن ثِمار المحبَّة، وحقيقته غامضةٌ، ولا ينكشف الأمر فيه إلَّا لِمَن يَفهمه عن الله تعالى.

ومِن فضائل الرِّضى ما ورد في الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أَرَادَ اللهُ بِعَبدٍ خَيرًا أَرضَاهُ بِما قَسَمَ لَهُ**»(١).

وأوحى الله تعالى إلى داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا داودُ، إنَّك لن تلقاني بعملٍ هو أَرضى لي عنك، ولا أَحطُّ لِوِزرك مِن الرِّضى بقضائي(٢).

ونظر عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عديِّ بن حاتمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣) كَئيبًا، فقال: يا عديُّ، ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ فقال: وما يمنعني، فقد قُتل ابناي، وفُقئت عيني. فقال: يا

---

(١) عزاه السُّيوطيُّ في «الجامع الكبير» (١١٢٠)، والمُتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٧١١٧) إلى الدَّيلميِّ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٥/ ٤٥).

(٣) عَدِيُّ بن حاتِم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطَّائيُّ، أبو وهبٍ، وأبو طريفٍ، صحابيٌّ، أميرٌ مِن الأجواد العقلاء، كان رئيس طيءٍ في الجاهليَّة والإسلام، وقام في حرب الرِّدَّة بأعمالٍ كبيرةٍ، حتى=

عديٌّ، مَن رَضي بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجرٌ، ومَن لم يرضَ بقضاء الله جرى عليه، وحَبط عمله[(١)].

ودخل أبو الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على رجلٍ وهو يموت، وهو يحمد الله تعالى، فقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَصبتَ، إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ إذاً قضَى قضاءً أَحبَّ أنْ يُرضَى به[(٢)].

وقال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنَّ الله تعالى بِقسطه وعِلمه جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرِّضى، وجَعَل الهَمَّ والحَزَن في الشَّكِّ والسُّخط[(٣)].

وقال علقمةُ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١] قال: هي المُصيبة تُصيب الرَّجل، فيَعلم أنَّها مِن عند الله، فيُسلِّم لها، ويَرضَى[(٤)].

وقال أبو معاويةَ الأسود[(٥)] في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] قال: الرِّضى والقناعة[(٦)].

= قال ابن الأثير: خير مولدٍ في أرض طيءٍ، وأعظمه بركةً عليهم، وكان إسلامه في السَّنة التَّاسعة للهجرة، وشهد فتح العراق، ثُمَّ سكن الكوفة، وشهد الجمل وصِفِّين والنَّهروان مع عليٍّ رَحِمَهُمَا اللهُ، وفُقِئت عينه يوم صِفِّين، ومات بالكوفة، وروى عنه المحدِّثون ستًّا وستِّين حديثًا، عاش أكثر مِن مائة سنةٍ، وهو ابن حاتمٍ الطَّائيِّ الذي يُضرَب بجوده المثل. (...-٦٨هـ/ ...-٦٨٧م). (انظر: الإصابة في تمييز الصَّحابة، ابن حجر العسقلانيُّ، ٤/ ٤٦٩، الأعلام، الزِّركليُّ، ٤/ ٢٢٠).

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٦٨٩).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزُّهد والرَّقائق» (٢/ ٢٣).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٠٣)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٠٥١٤)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٤/ ١٢١)، مِن قول النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال البيهقيُّ: محمَّد بن مروانَ ضعيفٌ، ورُوي ذلك عن ابن مسعودٍ مِن قوله مرَّةً، ومرفوعًا أُخرى. وقال الهيثميُّ في «مَجمَع الزَّوائد» (٦٢٩١): رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير»، وفيه خالد بن يزيدَ العمريُّ، واتُّهم بالوضع.

(٤) ذكره ابن رجب الحنبلي في تفسيره (٢/ ٤٧٦).

(٥) أبو معاوية الأسود مِن كبار أولياء الله، صَحِب سفيانَ الثَّوريَّ، وإبراهيمَ بن أدهمَ، وله مواعظُ وحكمٌ. انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٩/ ٧٨).

(٦) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة بعد الحديث رقم (٧٧٩).

وفي الحديث: أنَّ نبيًّا مِن الأنبياء شكا إلى ربِّه عَزَّوَجَلَّ الجوع والفقر عشر سنين، فما أُجيب إلى ما أراد، ثُمَّ أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندي في أمِّ الكتاب قَبل أنْ أَخلق السَّموات والأرض، وهكذا سَبَق لك منِّي، وهكذا قَضيتُ عليك قَبل أنْ أَخلق الدُّنيا، أَفَتُريد أنْ أُعيد خَلْق الدُّنيا مِن أَجلك؟ أَم تُريد أنْ أُبدِّل ما قدَّرتُ لك؟ فيكون ما تُحبُّ فوق ما أُحبُّ، ويكون ما تُريد فوق ما أُريد، وعزَّتي وجلالي، لَئنْ تَلجلَج هذا في صدرك مرَّة أُخرى لأمحونك مِن ديوان النُّبوَّة.

وفي «زبور داودَ عَلَيهِ السَّلَامُ»: هل تدري مَن أسرع النَّاس مَرًّا على الصِّراط؟ الذين يَرضَون بحُكمي، وألسنتهم رطبةٌ مِن ذِكري[(١)].

وقال داودُ عَلَيهِ السَّلَامُ: يا ربِّ، أيُّ عِبادك أبغضُ إليكَ؟ قال: عبدٌ استخارني في أمرٍ، فخِرتُ له، فلم يرضَ[(٢)].

وقال عمرُ بن عبد العزيز: ما بَقيَ لي سرورٌ إلَّا في مواقع القدر[(٣)].

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله عَزَّوَجَلَّ[(٤)].

وقال الحسن: مَن رضي بما قُسم له، وَسِعه، وبارك الله له فيه، ومَن لم يرضَ لم يَسَعْه، ولم يُبارَك له فيه[(٥)].

وقال عبد الواحد بن زيدٍ: الرِّضى باب الله الأعظم، وجَنَّة الدُّنيا، ومُستراح العابدِين[(٦)].

وقال بعضهم: لن يَرِدَ الآخرةَ أرفعُ درجاتٍ مِن الرَّاضِين عن الله تعالى على كلِّ حالٍ، فمَن وُهب له الرِّضَى، فقد بلغ أفضل الدَّرجات[(٧)].

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ١٩٧).

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٤/ ٥٥).

(٣) رواه الأماسي في «روض الأخبار» (ص٣٦٣).

(٤) رواه الأنجري في البحر المديد (١/ ٢٧١).

(٥) رواه ابن أبي الدُّنيا في «الرِّضا» (٩٥).

(٦) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ١٥٦).

(٧) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٣٤٩).

وأصبح أعرابيٌّ، وقد مات له أباعرُ كثيرةٌ، فقال[١]:

لا وَالـذي أَنَـا عَبـدٌ فـي عِبادَتِـهِ ... لَـولا شَـمَاتَةُ أَعـدَاءٍ ذَوِي إِحَـنِ

مَـا سَـرَّنِي أَنَّ إِبْلِـي فـي مَبَارِكِهـا ... وَأَنَّ شَـيئًا قَضَـاهُ اللهُ لَـم يَكُـنِ

فَصْلٌ

ويُتصوَّر الرِّضى فيما يُخالِف الهوى، وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان آلالمٌ فتارةً يُحسُّ به، ويُدرك أَلَمَه، ولكنَّه يكون راضيًا به، راغبًا في زيادته بعقله، وإنْ كان كارهًا له بطبعه؛ لِمَا يُؤمله مِن الثَّواب، مِثاله أنْ يلتمسَ مِن الحَجَّام الحِجامة والفَصد، فإنَّه يُدرِك أَلَم ذلك، إلَّا أنَّه راضٍ به، وراغبٌ فيه، ومُتقلِّدٌ مِنَّة الحَجَّام.

وكذلك كلُّ مَن يُسافِر في طلب الرِّبح، فإنَّه يُدرِك مَشقَّة السَّفر، لكنَّ حُبَّه لثمرة سفره طَيَّبَ عنده تلك المَشقَّة، وجَعَله راضيًا بها، وكلُّ مَن أصابه بليةٌ مِن الله تعالى، وكان له يقينٌ، فإنَّه يَتوقَّع الأجر فوق ما فاته، فيَرضَى بما أَصابَه، ويَشكُر الله تعالى عليه، ويَجوز أنْ يغلبه الحُبُّ، بحيث يكون حَظُّ المُحِبِّ في مُراد محبوبه، ويَبطل الأحساس بالألم؛ لِفَرط الحُبِّ، وليس ذلك بعجيبٍ، فإنَّ الرَّجل المُحارِب في حال غضبه أو خوفه، تُصيبه الجِراحات، ولا يُحسُّ بها، ولا يشعر بها في تلك الحال، وذلك لأنَّ قلبه مُستغرِقٌ، وإذا كان القلب مُستغرِقًا بأَمرٍ مِن الأمور لم يُدرِك ما عداه، وذلك موجودٌ في المُشاهَدات.

قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: سألت سريًّا: هل يجدُ المُحِبُّ ألم البلاء؟ قال: لا[٢].

وقد روينا عن خَلْقٍ كثيرٍ مِن أهل البلاء أنَّهم كانوا يقولون: لو قُطِّعنا إربًا إربًا، ما ازددنا له إلَّا حُبًّا[٣].

---

(١) ذكرها الجاحظ في «البيان والتَّبيين» (٣/ ١٦٤)، والدِّينوريُّ في «عيون الأخبار» (٣/ ١٣١).

(٢) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحِكَم» (ص٤٨٧).

(٣) رواه الكلاباذيُّ في «بحر الفوائد» (ص٢٢) عن رابعة العدوية أو غيرها.

وقد تقدَّم أنَّ فَرْط الحُبِّ يُزيل إحساس الألم، وهو منصورٌ في حُبِّ الخَلْق، كما حكى بعضهم، قال: كان في جيراننا رجلٌ له جاريةٌ يُحبُّها، فاعتلَّت، فجلس يُصلِح لها حَسَاءً، فبينما هو يُحرِّك القِدر، قال: أوَّه. فدُهش وسقطت المِلعَقة مِن يده، وجَعَل يُحرِّك القِدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم.

ويُؤيِّد هذا قصَّة النِّسوة حين شاهدنَ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّهنَّ قَطَّعنَ الأيدي، وما أَحسسنَ بألمٍ(١)، فقد بان بما ذَكَرنا أنَّ الرِّضى بما يُخالِف الهوى ليس مُستحِيلاً، وإذا كان ذلك مُمكِنًا في حَقِّ الخَلْق وحظوظهم كان مُمكِنًا في حَقِّ الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بِطريق الأَولى، وإمكانُ ذلك في ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: عِلم المؤمن بأنَّ تدبير الله تعالى خيرٌ مِن تدبيره.

وقد قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا قَضَى اللهُ لِمُؤمِنٍ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيرًا لَهُ**»(٢).

وعن مكحولٍ قال: سمعتُ ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: إنَّ الرَّجل يَستخير الله، فيختار له، فيسخط، فلا يلبث أنْ ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خير له(٣).

وعن مسروقٍ(٤) قال: كان رجلٌ بالبادية له كلبٌ وحمارٌ وديكٌ، فالدِّيك يُوقِظ للصَّلاة، والحمار يَنقلون عليه الماء، ويحمل خِباءهم، والكلب يَحرسهم، فجاء

---

(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

(٢) رواه بمعناه البزَّار (٢٠٨٨) عن صهيبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن يونسَ إلاَّ عبد الحكيم بن منصور الواسطيُّ، وقد رواه سليمانُ بن المغيرة، عن ثابتٍ، عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى، عن صهيبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه ابن المبارك في «الزُّهد والرَّقائق» (٢/ ٣٢).

(٤) مسروق بن الأجدع بن مالك الوادعيُّ الهمدانيُّ، حدَّث عن أُبيِّ بن كعبٍ، وعمرَ، وأبي بكرٍ الصِّدِّيق وغيرهم، وعنه الشَّعبيُّ، وإبراهيمُ النَّخعيُّ، ويحيى بن وثَّاب وغيرهم، توفِّي سنة (٦٣). «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٦٣)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٢١٥).

الثَّعلب فأخذ الدِّيك، فحزنوا، فقال الرَّجل: عسى أنْ يكونَ خيرًا. ثُمَّ جاء ذئبٌ فخَرَق بطن الحمار، فحزنوا، فقال الرَّجل: عسى أنْ يكون خيرًا. ثُمَّ أُصيب الكلب. فقال الرَّجل: عسى أنْ يكونَ خيرًا. ثُمَّ أصبحوا ذات يومٍ، فنظروا فإذا قد سُبِي مَن حولهم وبَقُوا هم، وإنَّما أُخِذ أولئك بما كان عندهم مِن الصَّوت والجَلَبة، ولم يكن عند أولئك شيءٌ يجلب، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم[1].

وعن سعيد بن المُسيِّب قال: قال لقمانُ لابنه: يا بُنيَّ لا ينزلِنَّ بك أمرٌ رَضيتَه أو كَرهتَه، إلَّا جَعلتَ في الضَّمير أنَّ ذلك خيرٌ لك، قال: أمَّا هذه فلا أقدر أنْ أُعطيكَها دون أنْ أَعلم ما قلتَ أنَّه كما قلتَ. قال: يا بُنيَّ فإنَّ الله قد بَعث نبيًّا هَلمَّ حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلتُ لك. قال: اذهب بنا إليه. فخرج على حمارٍ، وابنه على حمارٍ، وتزوَّدا ما يُصلِحهما، ثُمَّ سارا أيَّامًا وليالِيَ، حتى تلقَّتْهما مفازةٌ، فأخذا أُهبتَهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أنْ يَسيرًا، حتى تعالى النَّهار، واشتدَّ الحَرُّ، ونَفِدَ الماء والزَّاد، فاستبطأ حمارَيهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمانُ أمامه، فإذا هو بسوادٍ ودخانٍ، فقال في نفسه: السَّواد شجرٌ، والدُّخان عمرانٌ وناسٌ، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وَطِئ ابن لقمانَ على عظمٍ على الطَّريق، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر مِن أعلاها، فخرَّ مَغشيًّا عليه، فحانت مِن لقمانُ التفاتةٌ، فإذا هو بابنه صريعٌ، فوثب إليه فضمَّه إلى صدره، واستخرج العَظْم بأسنانه، وشَقَّ عمامةً كانت عليه، فعصب رِجله، ثُمَّ نظر إلى وجه ابنه، فذرفت عيناه، فقطرت قطرةٌ مِن دموعه على خَدِّ الغلام، فانتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكي، فقال: يا أبتِ، أنتَ تبكي، وأنتَ تقول: هذا خيرٌ لي، فكيف ذلك، وأنت تبكي، وقد نَفِد الطَّعام والماء، وبقيتُ أنا وأنتَ في هذا المكان؟ قال: أمَّا بكائي يا بُنيَّ، فوَدِدتُ أنِّي افتديتُك بجميع حَظِّي مِن الدُّنيا، ولكنِّي والدٌ، ومنِّي رِقَّة الوالد، وأمَّا قولك: كيف يكون هذا خيرًا لي؟ فلعلَّ ما صُرف عنك أعظم ممَّا ابتُليت

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٤٨٧٧).

به، ولعلَّ ما ابتُليت به أَيسر ممَّا صُرف عنك. فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمانُ أمامه، فلم يرَ الدُّخان والسَّواد، فقال في نفسه: لم أرَ شيئًا. ثُمَّ قال: قد رأيتُ، ولكن لعلَّه أنْ يكونَ قد أَحدث ربِّي بما رأيتُ شيئًا، فبينما هو يَتفكَّر في ذلك إذ نظر فإذا هو بشخصٍ قد أَقبل على فرسٍ أبلقَ، عليه ثيابٌ بِيضٌ، يمسح الهواء مَسحًا، فلم يَزل يَرمقه بعينيه حتى كان منه قريبًا، فتوارى عنه، ثُمَّ صاح به، فقال: أنتَ لقمانُ؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السَّفيه؟ قال: يا عبد الله، مَن أنتَ؟ أَسمع كلامك، ولا أرى وجهك. قال: أنا جبريلُ، لا يَراني إلَّا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، أو نبيٌّ مُرسَلٌ، لولا ذلك لَرَأيتَني، فما قال لك ابنك هذا السَّفيه؟ قال: أَمَا علمتَ ذلك؟ فقال جبريلُ عَلَيهِ السَّلَامُ: ما لي بشيءٍ مِن أمركما عِلمٌ، إلَّا أنَّ حَفَظَتَكما أَتوني، وقد أَمَرني ربِّي تعالى بخَسف هذه المدينة وما فيها ومَن يليها، فأَخبَروني أنَّكما تُريدان هذه المدينة، فدَعوت ربِّي أنْ يَحبِسَكما عنِّي بما شاء، فحَبَسكما عنِّي بما ابتُلي به ابنُك، ولولا ذلك لَخُسِف بكما مع مَن خُسِف به. ثُمَّ مَسَح جبريلُ عَلَيهِ السَّلَامُ بيده على قَدم الغلام، فاستوى قائمًا، ومسح يده على الذي كان فيه الطَّعام فامتلأ طعامًا، ومسح على الذي كان فيه ماءٌ فامتلأ ماءً، ثُمَّ حَملهما وحِمارَيهما، فرَحل بهما كما يرحل الطَّير، فإذا هما في الدَّار التي خَرجا منها بعد أيَّامٍ وليالٍ[١].

الوجه الثَّاني: الرِّضَى بالألم لِما يُتوقَّع مِن الثَّواب المُدَّخَر، كما تقدَّم مِن الرِّضى بالفَصْد والحِجامة وشرب الأدوية انتظارًا للشِّفاء.

الوجه الثَّالث: الرِّضَى به لا لِحظٍّ وراءه، بل لكونه مُرادَ المحبوب، فكون أَلذَّ الأشياء عنده ما فيه رِضَى محبوبه، ولو كان في ذلك هلاكُ نفسه، كما قال بعضهم:

فما لِجُرحٍ إذا أَرضاكُمُ أَلَمُ[٢]

---

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «الرِّضا» (٢٩).

(٢) هذا شطرٌ مِن قصيدةٍ للمتنبيِّ يمدح بها سيف الدَّولة. «الدُّرُّ الفريد» (٢/ ٤٣٢).

وقد سبق أنَّ الحُبَّ يَستولي بحيث يُدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أنْ يُنكِر ذلك مِن فقده مِن نفسه؛ لأنَّه إنَّما فَقَده؛ لفَقْد سببه، وهو فَرْط حُبِّه؛ ومَن لم يَذُقْ طَعم الحُبِّ لم يَعرف عَجائِبه، ولَعَمْري إنَّ مَن فقد السَّمع أنكر لَذَّة الألحان والنَّغمات، فمَن فَقَد القلب، فلا بدَّ أنْ يُنكِر هذه اللَّذَّات التي لا مَظنَّة لها سوى القلب.

فَصْلٌ

واعلم أنَّ الدُّعاء لا يُناقِض الرِّضَى، وكذلك كراهة المعاصي ومَقت أهلها وأسبابها، والسَّعي في إزالتها.

أمَّا الدُّعاء فقد تَعبَّدَنا اللهُ تعالى به، وقد أثنى الله تعالى على بعض عِباده بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، ودعاءُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وغيره مِن الأنبياء والصَّالحِين معلومٌ.

وأمَّا إنكار المعاصي، وعدم الرِّضَى بها، فقد تَعبَّدَنا الله تعالى به، وذَمَّ الرَّاضي به، وكذلك بعض الكفَّار والفجَّار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرةٌ جِدًّا.

فإنْ قيل: فقد وردت الأخبار بالرِّضَى بقضاء الله تعالى، فإنْ كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو مُحالٌ، وإنْ كانت بقضائه فكراهتها كراهةٌ لقضائه، فكيف الجمع بين هذَين الحالَين؟

فاعلم أنَّ هذا ممَّا يَلتبس على القاصرِين على الوقوف على أسرار العِلم، حتى التبس على قومٍ، فرأَوا السُّكوت عن الإنكار مَقامًا مِن مقامات الرِّضَى، وسَمَّوه حُسن الخُلُق، وهو جهلٌ مَحضٌ، بل نقول: الرِّضَى والكراهة يَتضادَّان إذا تَواردا على شيءٍ واحدٍ مِن جهةٍ واحدةٍ، على وجهٍ واحدٍ، فأمَّا إذا رَضيتَ بشيءٍ مِن وجهٍ، وكَرهتَه مِن وجهٍ آخَرَ فليس ذلك بمُتضادٍّ، نحو أنْ يموت عدوُّك الذي هو أيضًا عدوٌّ لبعض أعدائك، وساعٍ في إهلاكه، فتكره موته مِن حيث إنَّه مات عدوُّ عدوِّك، وترضاه مِن حيث إنَّه عدوُّك،

وكذلك للمعصية وجهان: وجهٌ لله تعالى، مِن حيث إنَّها اختياره وإرادته، فترضى بها مِن هذا الوجه تسليمًا للمُلك إلى مالك المُلك، ووجهٌ إلى العبد مِن حيث إنَّه كَسبه ووصفه وعلامة؛ لكونه ممقوتًا عند الله تعالى، وبغيضًا عنده، حيث سَلَّط عليه أسباب البُعد والمَقت، فهو مِن هذا الوجه مُنكَرٌ ومذمومٌ، ولا ينكشف هذا إلَّا بمِثالٍ، فلنفرض محبوبًا مِن الخَلْق قال بين يدي مُحبِّه: إنِّي أُريد أنْ أُميِّز بين مَن يُحبُّني ويُبغضني، وأنصب لذلك مِعيارًا صادقًا، وهو أنِّي أقصد إلى فلانٍ، فأضربه ضربًا شديدًا يضطرُّه ذلك إلى الشَّتم لي، حتى إذا شتمني أبغضتُه، واتَّخذتُه عدوًّا، فكلُّ مَن أحبَّه عَلمتُ أنَّه أيضًا عدوٌّ لي، وكلُّ مَن أبغضه عَلمتُ أنَّه مُحبِّي وصديقي. ثُمَّ فَعل ذلك، وحصل مُراده مِن الشَّتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة، فحقَّ على كلِّ مَن هو صادقٌ في مَحبَّته أنْ يقولَ: أَمَّا تدبيرك في ضرب هذا الشَّخص وأذاه فأنا مُحبٌّ له، فإنَّه رأيك وتدبيرك وفِعلك، وأمَّا شتمه إيَّاكَ مِن حيث نِسبته إلى هذا الشَّخص فإنَّه عدوانٌ منه وتهجُّمٌ عليك، فأنا كارهٌ له مِن حيث نِسبته إليه إذا كان حقُّه أنْ يصبِرَ، ولا يشتمَ، فكذلك تسليط الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى دواعيَ الشَّهوة والمعاصي على العبد، وبغضه على عصيانه.

فواجبٌ على كلِّ عبدٍ مُحِبٍّ لله أنْ يُبغض مَن أبغضه الله عَزَّوَجَلَّ، ويُعاديَ مَن عاداه وأَبعَده عن حضرته، وإنِ اضطرَّه بقهره وقدرته إلى مُعاداته ومخالَفته، فإنَّه بَعيدٌ مطرودٌ، والمُبعَد عن درجات القُرب ينبغي أنْ يكون بغيضًا إلى جميع المُحبِّين، موافَقةً لمحبوبهم، بإظهار الغضب على مَن أظهر المحبوب الغضبَ عليه بإبعاده.

وبهذا يَتقرَّر جميع ما وردت به الأخبار مِن البغض في الله والحُبِّ في الله، والتَّشديد على الكفَّار، والتَّغليظ عليهم، والمُبالَغة في مَقتِهم، مع الرِّضى بقضاء الله تعالى، مِن حيث إنَّه قضاؤه، وهذا كلُّه يُستمَدُّ مِن سِرِّ القَدَر الذي لا رُخصةَ في إفشائه،

وهو أنَّ الخير والشَّرَّ كِلاهما داخلان في المَشيئة والإرادة، ولكنَّ الشَّرَّ مُرادٌ مكروهٌ، والخير مُرادٌ مَرضِيٌّ به.

والأَولى السُّكوت والتَّأدب بأدب الشَّرع، والوقوف مع ما تَعبَّد به الخَلْق، مِن الجمع بين الرِّضَى بقضاء الله تعالى، ومَقت المعاصي، والله تعالى أعلمُ.

وممَّا يَتعلَّق بالمحبَّة قيل: أَوحى الله تعالى إلى داودَ عَلَيهِ السَّلَامُ: لو يَعلم المُدبِرون عنِّي كيف انتظاري لهم، ورِفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقًا إليَّ، وتَقطَّعت أوصالهم مِن محبَّتي.

يا داودُ، هذه إرادتي في المُدبِرين عنِّي، فكيف إرادتي في المُقبِلين عليَّ؟

يا داودُ، أحوجُ ما يكون العبد إليَّ إذا استغنَى عنِّي، وأجلُّ ما يكون عندي إذا رَجع إليَّ.

وكانت امرأةٌ مُتعبِّدةٌ تقول: والله لقد سئمتُ الحياة، حتى لو وجدتُ الموت يُباع لاشتريته شوقًا إلى الله تعالى، وحُبًّا للقائه. فقيل لها: فعلى ثقةٍ أنتِ مِن عملك؟ قالت: لا، ولكنِّي لحُبِّي إيَّاه، وحُسن ظنِّي به، أَفَتراه يُعذِّبني وأنا أُحبُّه؟

بَابٌ في النِّيَّةِ والإخْلاصِ والصِّدْقِ

اعلم أنَّه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنَّه لا وصولَ إلى السَّعادة إلَّا بالعِلم والعِبادة.

فالنَّاس كلُّهم هلكَى إلَّا العالِمين، والعالِمون كلُّهم هلكَى إلَّا العاملِين، والعاملون كلُّهم هلكَى إلَّا المُخلِصين، والمُخلِصون على خَطرٍ عظيمٍ.

فالعمل بغير نيَّةٍ عناءٌ، والنِّيَّة بغير إخلاصٍ رياءٌ، والإخلاص مِن غير تحقيقٍ هباءٌ، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وليت شِعري، كيف تصلح نيَّة مَن لا يعرف حقيقة النِّيَّة؟ أو كيف يخلص من صحح النِّيَّة إذا لم يَعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف يُطالِب المُخلِص نفسه بالصِّدق إذا لم يتحقَّق معناه؟

فالوظيفة الأُولى على كلِّ عبدٍ أراد طاعة الله تعالى أنْ يعلم النِّيَّة أوَّلًا؛ لتحصل له المعرفة، ثُمَّ يُصحِّحها بالعمل بعد فهم حقيقة الصِّدق والإخلاص اللَّذين هما وسيلتان للعبد إلى النَّجاة، ونحن نَذكر ذلك في ثلاثة فصولٍ:

الفَصْلُ الأَوَّلُ في النِّيَّةِ وحَقِيقَتِها وفَضْلِها ومَا يَتعلَّقُ بذلِكَ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمُراد بالإرادة النِّيَّة.

وعن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا وَإِلَى امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيتَ الرَّجل يُقاتِل شجاعةً، ويُقاتِل حَميَّةً، ويُقاتِل رِياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**». أخرجاهما في «الصَّحيحَين»(٢).

وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَدْ خَلَّفتُم بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا سَلَكتُمْ طَرِيقًا، إِلَّا شَرَكُوكُم فِي الأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**»أخرجه مسلمٌ، وأخرجه البخاريُّ مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣).

وفي «الصَّحيحين» مِن حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَم يَعمَلْها كُتِبَتْ لَه حَسَنَةٌ**»(٤).

وعن أبي كبشةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ، كَمَثَلِ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ، يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ**»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ مَالًا ولم يؤته علمـًا فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه ورجل لم يؤته الله مالاً وَعِلْمًا فَيَقُولُ: لَوْ**

(١) رواه البخاريُّ (١)، ومسلمٌ (١٩٠٧) عن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) رواه البخاريُّ (١٢٣)، ومسلمٌ (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) رواه البخاريُّ (٤١٦١)، ومسلمٌ (١٩١١).
(٤) رواه البخاريُّ (٤٢)، ومسلمٌ (١٣٠).

كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»**(١).

وعن أبي عمرانَ الجَونِيِّ(٢) قال: تصعد الملائكة بالأعمال، فيُنادي المَلَك: ألقِ تلك الصَّحيفة. قال: فتقول الملائكة: ربَّنا قال خيرًا، وحفظناه عليه. فيقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إنَّه لم يُرِدْ به وجهي. قال: ويُنادي المَلَك: اكتب لفلانٍ كذا وكذا، مرَّتين، فيقول: يا ربِّ، إنَّه لم يعملْه، فيقول عَزَّ وَجَلَّ: إنَّه قد نواه(٣).

وقال عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أفضلُ الأعمال أداءً ما افترض الله تعالى، والورع عمَّا حرَّم الله تعالى، وصِدق النِّيَّة فيما عند الله تعالى(٤).

وكان بعضهم يقول: دُلُّوني على عملٍ لا أَزال به عاملًا لله تعالى، فقيل له: إنَّه الخير، فإنَّك لا تزال عاملًا، وإنْ لم تَعمل، فالنِّيَّة تعمل وإنْ عدم العمل، فإنَّه مَن نوى أنْ يُصلِّيَ باللَّيل فنام كُتِب له ثوابُ ما نوى أنْ يفعله.

وقد جاء في الحديث: **«مَا مِن رَجُلٍ يَكُونُ لَه سَاعَةٌ مِنَ اللَّيلِ يَقُومُها، فَيَنَامُ عَنْهَا إلَّا كُتِبَ لَه أَجرُ صَلَاتِهِ، وَكَانَ نَومُهُ صَدَقَةً تُصُدِّقَ بِهَا عَلَيهِ»**(٥).

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٢٨)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٨٦٢)، وأحمدُ (١٨٠٢٤)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ٢٠٤): أخرجه ابن ماجه مِن حديث أبي كبشةَ الأنماريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ جيِّدٍ.

(٢) أبو عمران الجونيُّ عبد المَلِك بن حبيبٍ، رأى عمرانَ بن حصينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وروى عن جندب البُجليِّ، وأنس بن مالكٍ، وعبد الله بن الصَّامت، وأبي بكر بن أبي موسى، وطائفةٍ، وحدَّث عنه شعبةُ، والحمَّادان، وأبان العطَّار وغيرهم، توفِّي سنة (٢٨). انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص ٦٦١)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٢٥٥).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣١٣)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣٥٣٥).

(٤) رواه ابن رجب الحنبليُّ في «جامع العلوم والحِكَم» (١/ ٧١).

(٥) رواه أحمدُ (٢٤٣٤١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد جاء في الحديث: «نِيَّةُ المُؤمِنِ خيرٌ مِنْ عَمَلِهِ»(١).

والنِّيَّة، والإرادة، والقصد، عبارات مُتوارِدةٌ على معنًى واحدٍ.

واعلم أنَّ الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: المعاصي، فلا تَتغيَّر عن موضعها بالنِّيَّة، مِثل مَن يَبني مسجدًا بمالٍ حرامٍ يَقصد بذلك الخير، فإنَّ النِّيَّة لا تُؤثِّر فيه، فإنَّ قَصْدَ الخير بالشَّرِّ شَرٌّ آخرُ، فإنَّ الخيرات إنَّما تُعرَف كونها خيراتٍ بالشَّرع، فكيف يُمكن أنْ يكون الشَّرُّ خيرًا؟ هيهات.

واعلم أنَّ مَن تقرَّب مِن السَّلاطِين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام كان كتَقَرُّب علماء السُّوء بتعليم العِلم للسُّفهاء والأشرار المشغولين بالفِسق، فإنَّ هؤلاء إذا تعلَّموا كانوا قُطَّاع طريق الله تعالى، يَتكالَبون على الدُّنيا، ويتَّبعون الهوى، ووبال ذلك راجعٌ إلى مُعلِّمهم، إذا عَلِم فَساد نيَّاتِهم ومَقاصدهم.

ومِن هذا القَبيل تَعلُّم القُصَّاص القصص، فإنَّ مقاصِدَ أكثرهم معروفةٌ، وقصدهم اجتلاب الدُّنيا، وأَخْذ الأموال كيف اتَّفق، فتعليمهم إعانةٌ على الفساد، فقد علمت أنَّ الطَّاعة تَنقلب معصيةً بالقصد.

وأمَّا المعصية فلا تَنقلب طاعةً بالقصد أصلًا، بل إذا انضاف إليها قصدٌ خبيثٌ تَضاعَف وِزرها، وعظم وَبالها.

القِسم الثَّاني: الطَّاعات، وهي مُرتبِطةٌ بالنِّيَّات في أصل صِحَّتها، وفي تضاعُف فضلها، أمَّا الأصل فهو أنْ ينويَ عِبادة الله تعالى لا غيرُ، فإنْ نوى الرِّياء صارت معصيةً.

وأمَّا تضاعُف الفضل فبكثرة النِّيَّات الحسنة، فإنَّ الطَّاعة الواحدة يُمكن أنْ يُنوى بها خيراتٌ كثيرةٌ، فيكون له بكلِّ نيَّةٍ ثوابٌ؛ إذ كلُّ واحدةٍ منها حسنةٌ، ثُمَّ تُضاعَف كلُّ حسنةٍ عشر أمثالها.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٤٤٧)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٥٩٤٢)، و قال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ٢١٩): أخرجه الطَّبرانيُّ مِن حديث سهل بن سعدٍ، ومِن حديث النَّواس بن سمعانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكِلاهما ضعيفٌ.

مِثال ذلك القعود في المسجد، فإنَّه طاعةٌ، ويُمكن أنْ يَنوي بها نيَّاتٍ كثيرةً: منها أنْ يَنويَ بدخوله انتظار الصَّلاة، ومنها الاعتكاف وكفُّ الجوارح؛ فإنَّ الاعتكاف كفٌّ، ومنها دفع الشَّواغل الصَّارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذِكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النِّيَّات، فقِس على ذلك سائر الطَّاعات؛ إذ ما مِن طاعة إلَّا وتَحتمِل نيَّاتٍ كثيرةً.

القسم الثَّالث: المُباحات، فما مِن شيءٍ مِن المُباحات إلَّا ويَحتمِل نيَّةً أو نيَّاتٍ، تصير بها قُرُباتٍ، ويُنال بها معالي الدَّرجات، فما أعظمَ خُسران مَن يغفل عنها، ويتعاطاها تعاطي البهائم المُهمَلة!

ولا ينبغي أنْ يحتقر العبد الخطرات والخطوات واللَّحظات؛ فكلُّ ذلك يُسأل عنه في القيامة، لِمَ فَعَله؟ وما الذي قَصد به؟

مِثال ما يُنوى به القربة مِن المُباحات أنْ يَتطيَّب، ويَنوي بالطِّيِّب اتِّباع السُّنَّة، واحترام المسجد، ودفع الرَّوائح الكريهة التي تُؤذِي مُخالِطِيه.

وقال الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن طاب ريحه زاد عقله[1].

وكذلك مُعالَجة رأسه تزيد فِطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مُهمَّات دِينه.

وقال بعض السَّلف: إنِّي لَأستَحبُّ أنْ يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيَّةٌ، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخَلاء، وكلُّ ذلك ممَّا يُمكن أنْ يُقصَد به التَّقرُّب إلى الله تعالى؛ لأنَّ كلَّ ما هو سببٌ لبقاء البَدن وفراغ القلب مِن مُهمَّات الدِّين، فمَن قصد مِن الأكل التَّقوى على العِبادة، ومِن النِّكاح تحصين دِينه، وتطييب قلب أهله، والتَّوصُّل إلى ولدٍ يعبد الله بعده أُثيب على ذلك كلِّه، ولا تحتقر شيئًا مِن حركاتك وكلماتك،

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العِلم» (٢٢٢٧).

وحاسب نفسك قَبل أنْ تُحاسَب، وصحِّح نيَّتكَ قَبل أنْ تفعل ما تَفعله، وانظر في نيَّتكِ فيما تتركه أيضًا.

واعلم أنَّ النِّيَّة هي انبعاث النَّفس ومَيلها إلى ما ظهر لها أنَّه مَصلَحةٌ لها، إمَّا في الحال أو المآل، وربَّما سمع بعض الجُهَّال ما أوصينا به مِن تحسين النِّيَّة، فقال عند أكله: نَويتُ أنْ آكل لله، أو عند قراءته: نويتُ أنْ أقرأ لله، وظنَّ أنَّ ذلك نيَّةٌ، وليس كذلك، إنَّما النِّيَّة انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح مِن الله تعالى، وليست النِّيَّة داخلةً تحت الاختيار، فقد تتيسَّر في بعض الأوقات، وقد تتعذَّر، وإنَّما تتيسَّر في الغالب لِمَن قلبه يميل إلى الدِّين دون الدُّنيا.

والنَّاس في النِّيَّات على أقسامٍ:

منهم مَن يكون عِمله للطَّاعة إجابةً لباعث الخوف.

ومنهم مَن يكون عِمله إجابةً لباعث الرَّجاء.

وثَمَّة مَقامٌ أرفع مِن هذَين، وهو أنْ يعمل الطَّاعة على نيَّة جلال الله تعالى؛ لاستحقاقه الطَّاعة والعبوديَّة، وهذه لا تتيسَّر لراغبٍ في الدُّنيا، وهي أعزُّ النِّيَّات وأعلاها، وقليلٌ مَن يفهمها، فضلًا عن أنْ يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يُجاوِز ذِكر الله تعالى والفكر في جلاله حُبًّا له.

وقد حكَى أحمدُ بن خضرويه[1] أنَّه رأى ربَّ العِزَّة في منامه، فقال له: كلُّ النَّاس يَطلبون منِّي، وأبو زيدٍ يطلبني.

وغرضُنا مِن هذه النِّيَّات متفاوتةٌ في الدَّرجات، ومَن غَلب على قلبه واحدةٌ منها، فربَّما لم يتيسَّر له العدول إلى غيرها، ومَن حضرت له نيَّةٌ في المُباح، ولم تحضر في فضيلةٍ، فالمُباح أَولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

---

(١) أحمد بن خضرويه أبو حامدٍ البلخيُّ الزَّاهد الكبير، الرَّبانيُّ الشَّهير، وهو مِن أصحاب حاتمٍ الأصمِّ، توفِّي سنة (٢٤٠). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١١/ ٤٨٧).

مِثال ذلك أنْ تَحضره نيَّةٌ في الأكل والنَّوم؛ ليتقوَّى بذلك على العِبادة، ويُريح بَدنه، ولم تَنبعثْ نيَّته في المال إلى الصَّلاة والصَّوم، فالأكل والنَّوم أفضلُ، بل لو مَلَّ العِبادة؛ لكثرة مواظبته عليها، وعَلِم أنَّه لو تَرفَّه ساعةً بمُباحٍ عاد نشاطه، فذلك أفضلُ مِن التَّعبُّد حينئذٍ.

قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: روِّحوا القلوب، واطلبوا لها طُرف الحِكمة، فإنَّها تَملُّ كما تَملُّ الأبدان(١).

وقال بعضهم: رَوِّحوا القلوب تَعِ الذِّكر(٢).

وهذه دقائقُ لا تُدركها إلَّا بممارَسة العلماء، فإنَّ الحاذق في الطِّبِّ قد يُعالِج المحرور باللَّحم مع حرارته، ويَستبعِد ذلك القاصر في الطِّبِّ، وإنَّما يبتغي به أنْ تَعود قوَّته؛ ليحتمَّل المُعالَجة، وكذلك الخبير بالقِتال، قد يَفرُّ مِن بين يدَي قِرنه حيلةً منه؛ ليستجرَّه إلى مضيقٍ، فسلوك طريق الله تعالى كلُّه حَربٌ مع الشَّيطان، ومعالَجةٌ للقلب، والمُبصِر المُوفَّق يقف في تلك الطَّريق على لطائفَ مِن الحِيل يَستبعدها الضُّعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خَفِي عليهم، بل يُسلِّمون لأصحاب الأحوال، إلى أنْ ينكشفَ لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

الفصل الثَّاني في الإخْلاصِ وفضيلَتِهِ وحقيقَتِهِ ودرجاتِهِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٤، ٥].

وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]. وغير ذلك مِن الآيات.

---

(١) رواه القرطبيُّ في «جامع بيان العلم» (٤٠٨)، وابن حُجَّة الحمويُّ في «ثمرات الأوراق» (ص١٥٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢) عن قسامة بن زهير.

وقال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَخلِصْ دِينَكَ يَكفِكَ القَلِيلُ مِنَ العَمَلِ**»(١).

وفي حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: «**إذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ جَاءَتِ المَلَائِكَةُ بِصُحُفٍ مُختَّمَةٍ، فَيَقُولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **أَلقُوا هَذا، واقبَلُوا هَذَا. فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: وَعِزَّتِكَ مَا كَتَبنَا إلَّا مَا كَانَ، فَيَقُولُ: إنَّ هَذا كَانَ لِغَيرِي، وَلَا أَقبَلُ اليَومَ إلَّا مَا كَانَ لِي**»(٢).

وعن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَرفَعُونَ عَمَلَ الْعَبْدِ فَيُكَثِّرُونَهُ وَيُزَكُّونَه يُوحِي اللَّهُ** عَزَّ وَجَلَّ **إِلَيْهِمْ، أَنتُمْ حَفَظَةٌ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي، وَأَنَا رَقِيبٌ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ إِنَّ عَبْدِي لَمْ يُخْلِصْ لِي عَمَلَهُ فَاجْعَلُوهُ فِي سِجِّينٍ، وَيَصْعَدُونَ بِعَمَلِ العَبْدِ يَسْتَقِلُّونَهُ فَيُوحِي إِلَيْهِمْ إِنَّكُمْ حَفَظَةٌ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي، وَأَنَا رَقِيبٌ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ، فَضَاعِفُوه وَاجْعَلُوهُ فِي عِلِّيِّينَ**»(٣).

ويُروى عن الحسن قال: كانت شجرةٌ تُعبَد مِن دون الله، فجاء إليها رجلٌ فقال: لَأَقطَعَنَّ هذه الشَّجرة. فجاء إليها لِيقطعها غضبًا لله، فلَقِيه الشَّيطان في صورة إنسانٍ، فقال: ما تُريد؟ قال: أُريد أنْ أقطع هذه الشَّجرة التي تُعبَد مِن دون الله. قال: إذا أنتَ لم تعبدها فما يَضرُّك من [عبادتها](٤)؟ قال: لَأَقطعَنَّها. فقال له الشَّيطان: هل لك فيما هو خيرٌ لك مِن ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحتَ عند وسادتك. قال: فمَن لي

---

(١) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٤٤) ولم يوافقه الذَّهبيُّ، وعزاه السُّيوطيُّ في «الجامع الصَّغير» (٢٩٨) وفي «الكبير» (٨٣٧) إلى ابن أبي الدُّنيا في الإخلاص، والحاكم في «المستدرك» وأبي نُعيمٍ في «الحلية» عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورمز له بالصِّحَّة.

(٢) رواه الدَّارقطنيُّ (١٣٢)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٢٦٠٣)، وقال الهيثميُّ في «مَجمَع الزَّوائد» (١٨٣٩٥): رواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» بإسنادَين، ورجال أحدهما رجال الصَّحيح.

(٣) رواه أبو الشَّيخ في «العَظَمة» (٥٢٠)، وقال المُتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٧٥٠٨): رواه ابن المبارك عن ضمرة بن حبيبٍ مُرسَلًا.

(٤) ورد في " المطبوع، ن " [عبدها].

بذلك؟ قال: أنا لك. فرجع، فأصبح، فوجد عند وسادته دينارَين، ثُمَّ أصبح فلم يجد شيئًا، فقام غضبان لِيقطعها، فتمثَّل له الشَّيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أُريد أنْ أقطع هذه الشَّجرة التي تُعبَد مِن دون الله. قال: كذبتَ، ما لك إلى قَطْعها سبيلٌ، فذهب لِيَقطَعها، فضرب به الأرض، وخنقه حتى كاد يقتله، ثُمَّ قال له: أتدري مَن أنا؟ فأخبره أنَّه الشَّيطان، وقال: جئت أوَّلَ مرَّةٍ غضبًا لله، فلم يكن لي عليك سبيلٌ، فخَدعتُك بالدِّينارَين فتركتها، فلمَّا فقدتَهما جئتَ غضبًا للدِّينارَين، فسُلِّطتُ عليك(١).

وكان معروفٌ الكرخيُّ يضرب نفسه ويقول: يا نفسُ أخلصي وتخلَّصي.

وقال أبو سليمانَ: طوبى لِمَن صَحَّت له خطوةٌ واحدةٌ لا يُريد بها إلَّا الله تعالى(٢).

وحكي أنَّ رجلًا كان يَخرج في زيِّ النِّساء، فيَحضر حيث يَحضرنَ مِن عرسٍ، أو مأتمٍ، فاتَّفق أنَّه حضر يومًا مَوضِعًا فيه مَجمَع النِّساء، فسُرِقت درَّةٌ، فصاحوا: أغلقوا الباب حتى نفتِّش، ففتَّشوا واحدةً واحدةً، حتى بلغت النَّوبة إلى الرَّجل وإلى امرأةٍ معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إنْ نجوتُ مِن هذه الفضيحة لا أعود إلى مِثل هذا، فوُجِدت الدُّرَّة مع تلك المرأة، فصاحوا: أطلقوا الحُرَّة، فقد وَجدنا الدُّرَّة.

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أنَّ كلَّ شيءٍ يُتصوَّر أنْ يَشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخَلص عنه سُمِّي إخلاصًا.

والإخلاص يُضادُّه الإشراك، فمَن ليس مُخلِصًا، فهو مُشرِكٌ، إلَّا أنَّ الشِّرك درجاتٌ.

فالإخلاص في التَّوحيد يُضادُّه الشِّرك في الإلهيَّة.

والشِّرك منه جليٌّ، ومنه خفيٌّ، وكذلك الإخلاص، وقد ذَكرنا درجات الرِّياء فيما تقدَّم في بابه، وإنَّما نَتكلَّم الآن فيمَن انبعث لقصد التَّقرُّب، ولكنِ امتزج بهذا الباعث باعثٌ آخرُ، إمَّا مِن الرِّياء، أو مِن غيره مِن حظوظ النَّفْس.

---

(١) ذكر القصة قوَّام السُّنَّة في «التَّرغيب والتَّرهيب» (١٢٥).

(٢) ذكره السَّفيريُّ في «المجالس الوعظيَّة» (١/ ١٢٥).

ومِثال ذلك أنْ يصومَ؛ لينتفع بالحِميَة الحاصلة بالصَّوم مع قصد التَّقرُّب، أو يُعتِق عبدًا؛ ليتخلَّص مِن مؤونته وسوء خُلُقه، أو يَحجَّ؛ لِيَصحَّ مِزاجه بحركة السَّفر، أو للتَّخلُّص مِن شَرٍّ يعرض له، أو يغزو؛ لِيُمارِس الحرب، ويتعلَّم أسبابها، أو يُصلِّي باللَّيل، وله غرضٌ في دَفع النُّعاس عن نفسه؛ ليُراقِب رَحلَه أو أهله، أو يَتعلَّم العِلم؛ ليسهل عليه طلب ما يَكفيه مِن المال، أو يشتغل بالتَّدريس لِيفرح بلذَّة الكلام، ونحو ذلك، فمتى كان باعثه التَّقرُّب إلى الله تعالى، ولكنِ انضاف إليه خاطرٌ مِن هذه الخواطر حتى صار العمل أَخفَّ عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حَدِّ الإخلاص.

والإنسان قلَّما ينفكُّ فِعلٌ مِن أفعاله، وعِبادةٌ مِن عباداته عن شيءٍ من هذه الأمور، فلذلك قيل: مَن سَلِم له في عمره لحظةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجه الله تعالى، نجا؛ وذلك لعِزَّة الإخلاص، وعُسر تنقية القلب مِن هذه الشَّوائب؛ لأنَّ الخالص هو الذي لا باعثَ عليه إلَّا طلب القرب مِن الله تعالى.

قيل لسهلٍ: أيُّ شيءٍ أَشدُّ على النَّفس؟ قال: الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيبٌ[1].

واعلم أنَّ الشَّوائب المُكدِّرة للإخلاص مُتفاوِتة، بعضها جليٌّ، وبعضها خفيٌّ، وقد ذَكَرنا درجات الرِّياء في بابه.

ومِن الرِّياء ما هو أخفى مِن دبيب النَّمل، فلْيُطلب هناك، وحاصله أنَّ ما دام العامل يفرِّق بين مُشاهَدة الإنسان والبهيمة في حالةٍ مِن العمل، فهو خارجٌ عن صفر الإخلاص، ولا يَسلم مِن الشَّيطان إلَّا مَن دَقَّ نظرُه، وسَعِد بعصمة الله تعالى وتوفيقه.

وقد قيل: ركعتان مِن عالِمٍ أفضل مِن سبعين ركعةً مِن جاهلٍ، وأُريد به العالِم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العِبادة، وقيراطٌ مِن الذَّهب الذي يَرتضيه النَّاقد خيرٌ مِن دينارٍ يرتضيه الغِرُّ الغبيُّ.

(١) ذكره الغمريُّ في «فتح المنَّان» (٢/ ٣١٢).

فصلٌ في حُكم العمل المَشُوب واستحقاق الثَّواب به

أمَّا العمل الذي لا يُريد به إلَّا الرِّياء فهو على صاحبه لا له، وهو سببٌ للعقاب، كما أنَّ العمل الخالص لوجه الله تعالى سببٌ للثَّواب، ولا إشكالَ في هذَين القِسمَين، وإنَّما النَّظر في العمل المَشوب المُمتزِج بشوب الرِّياء، وحظوظ النَّفْس.

وقد اختلَف النَّاس في ذلك، هل يَقتضي ثوابًا أو عقابًا، أو لا يقتضي شيئًا أصلًا؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارضٍ في ذلك.

والذي يتَّضح لنا فيه -والعلم عند الله تعالى- أنْ ننظر إلى قدر قوَّة البواعث، فإنْ كان الباعث الدِّينيُّ مُساوِيًا للباعث النَّفسانِيِّ تقاوَما وتساقَطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإنْ كان باعث الرِّياء أقوى ضَرَّ، وأوجب العِقاب، لكن عِقابه دون عِقاب مَن تجرَّد للرِّياء، وإنْ كان الباعث الدِّينيُّ أقوى مِن الآخَر، فله ثوابٌ بقدر ما فَضَل مِن قوَّته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

ويشهد لِما ذَكَرنا إجماع الأمة على أنَّ مَن خرج حاجًّا، ومعه تجارةٌ، صحَّ حَجُّه، وأُثيب عليه، وقد امتزج به حَظٌّ مِن حظوظ النَّفْس، إلَّا أنَّه متى كان الحجُّ هو المُحرِّكَ الأصليَّ لم ينفكَّ عن ثوابٍ، وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة، ويكون قصد الغنيمة على سبيل التَّبع حَصَل له الثَّواب، ولكنَّه لا يُساوي ثواب مَن لا يلتفت إلى الغنيمة أصلًا، والله تعالى أعلمُ.

الفصل الثالث في الصدق وحقيقته

عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيكُم بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا**». رواه البخاريُّ ومسلمٌ[١].

وقال بشرٌ الحافي: مَن عامَل الله بالصِّدق استوحش مِن النَّاس[٢].

واعلم أنَّ لفظ الصِّدق قد يُستعمَل في معانٍ:

أحدها: الصِّدق في القول، فحَقٌّ على كلِّ عبدٍ أنْ يحفظ ألفاظه، ولا يتكلَّم إلَّا بالصِّدق، والصِّدق باللِّسان هو أشهر أنواع الصِّدق وأظهرها، وينبغي أنْ يحترز عن المعاريض، فإنَّها تُجانِس الكذب، إلَّا أنْ تمسَّ الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوةً ورَّى بغيرها[٣]؛ لئلَّا ينتهي الخبر إلى الأعداء، فيتهيَّؤوا لقتاله، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَيسَ بِكَاذِبٍ مَنْ أَصلَحَ بَينَ اثنَينِ، فَقَالَ خَيرًا، أَو نَمَى خَيرًا**»[٤].

وينبغي أنْ يُراعيَ معنى الصِّدق في ألفاظه التي يُناجي بها ربَّه، كقوله: وجَّهتُ وجهي للذي فَطَر السَّموات والأرض حنيفاً. فإنْ كان قلبه منصرِفًا عن الله، مشغولًا بالدُّنيا فهو كاذبٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٤٣)، ومسلمٌ (٢٦٠٧).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٨/ ٣٤٧).

(٣) روى البخاريُّ في «صحيحه» (٢٩٤٨) عن كعب بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا**».

(٤) رواه أبو داودَ (٤٩٢٠)، والتِّرمذيُّ (١٩٣٨)، وأحمدُ (٢٧٢٧٣)، عن أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الثاني: الصِّدق في النيَّة والإرادة، وذلك يَرجع إلى الإخلاص، فإنْ مازَج عمله شوبٌ مِن حظوظ النَّفْس بَطَل صدق النيَّة، وصاحِبه يجوز أنْ يكون كاذبًا كما في حديث الثَّلاثة[١]، العالِم، والقارئ، والمُجاهِد، لمَّا قال القارئ: قرأتُ القرآن إلى آخره، إنَّما كذبه في إرادته ونيَّته، لا في نَفْس القراءة، وكذلك صاحباه.

الثَّالث: الصِّدق في العَزم والوفاء به.

أمَّا الأوَّل: فنحو أنْ يقول: إنْ آتاني الله مالًا تصدَّقتُ بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقةً، وقد يكون فيها تَردُّدٌ.

وأمَّا الثَّاني: فنحو أنْ يَصدق في العزم، وتسخو النَّفس بالوعد؛ لأنَّه لا مَشقَّة فيه إذا تحقَّقت الحقائق، وانجلت العزيمة، وغلبت الشَّهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

الرَّابع: الصِّدق في الأعمال، وهو أنْ تستويَ سريرته وعلانيته، حتى لا تدلُّ أعماله الظَّاهرة مِن الخشوع ونحوه على أمرٍ في باطنه، ويكون الباطِن بخلاف ذلك، قال مطرِّفٌ: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عَزَّوَجَلَّ: هذا عبدي حقًّا[٢].

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٤)، ونحوه مرفوعًا عند ابن ماجه (٤٢٠٠).

الخامس: الصِّدق في مقامات الدِّين، وهو أعلى الدَّرجات، كالصِّدق في الخوف والرَّجاء والزُّهد والرِّضى والحُبِّ والتَّوكُّل، فإنَّ هذه الأمور لها مبادئُ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثُمَّ لها غاياتٌ وحقائقُ، فالصَّادق المُحقِّق مَن نال حقيقتها، وإذا غلب الشَّيء وتمَّت حقيقته سُمِّي صادقًا، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنضرب للخوف مَثَلًا، فنقول: ما مِن عبد يؤمن بالله إلَّا وهو خائفٌ مِن الله خوفًا ينطلق عليه الاسم، وهو غير بالغٍ إلى درجة الحقيقة، ألَا تراه إذا خاف سلطانًا كيف يصفر ويرتعد خوفًا مِن وقوع المحذور، ثُمَّ إنَّه يخاف النَّار، ولا يظهر عليه شيءٌ مِن ذلك عند فِعل المعصية، ولذلك قال عامر بن عبد قيسٍ: عجبتُ للجَنَّة نام طالبُها، وعجبتُ للنَّار نام هاربها(١).

والتَّحقيق في هذه الأمور عزيزٌ جدًّا، فلا غايةَ لهذه المَقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكلٍّ حظٌّ بحسب حاله، إمَّا ضعيفٌ، وإمَّا قويٌّ، فإذا قوي سُمِّي صادقًا، وإذا عَلم اللهُ مِن عبدٍ صِدقًا صغا له، والصَّادق في جميع هذه المقامات عزيزٌ، وقد يكون للعبد صدقٌ في بعضها دون بعضٍ، ومِن علامات الصِّدق كِتمان المصائب والطَّاعات جميعًا، وكراهة اطِّلاع الخَلْق على ذلك.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٦٠١)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٣٨٣) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (١٦٣٨) عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] إلى آخرها، فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

وتحقَّق أرباب البصائر أنَّهم لا يُنجيهم مِن هذه الأخطار إلَّا لزوم المُحاسَبة لأنفسهم وصدق المُراقَبة، فمَن حاسَب نفسه في الدُّنيا خفَّ في القيامة حسابه، وحَسُن مُنقلَبه، ومَن أهمل المُحاسَبة دامت حسراته، فلمَّا عَلِموا أنَّهم لا يُنجيهم إلَّا الطَّاعة، وقد أمرهم الله تعالى بالصَّبر والمُرابَطة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم أوَّلًا بالمُشارَطة، ثُمَّ بالمُراقَبة، ثُمَّ بالمُحاسَبة، ثُمَّ بالمُعاقَبة، ثُمَّ بالمُجاهَدة، ثُمَّ بالمُعاتَبة، فكانت لهم في المُرابَطة سِتُّ مقاماتٍ، وأصلها المُحاسَبة، ولكن كلُّ حسابٍ يكون بعد مُشارَطةٍ ومُراقَبةٍ، ويتبعه عند الخسران المُعاتَبة والمُعاقَبة، ولا بدَّ مِن شرح ذلك المقام.

المقام الأول: المشارطة

اعلم أنَّ التَّاجر كما يستعين بشريكه في التِّجارة طلبًا للرِّبح، ويُشارِطه ويُحاسِبه، كذلك العقل يَحتاج إلى مُشارَكة النَّفس، ويوظِّف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشُّروط، ويُرشِدها إلى طريق الفلاح، ثُمَّ لا يغفل عن مُراقَبتها، فإنَّه لا يأمن خِيانتها وتضييعها رأس المال، ثُمَّ بعد الفراغ ينبغي أنْ يُحاسِبَها ويُطالِبَها بالوفاء بما شرط عليها، فإنَّ هذه التِّجارة رِبحها الفردوس الأعلى، فتدقيق الحساب في هذا مع النَّفْس أهمُّ مِن تدقيقه بكثيرٍ مِن أرباح الدُّنيا، فحتمٌ على كلِّ ذي عزمٍ آمن بالله واليوم الآخر ألَّا يغفلَ عن مُحاسَبة نفسه، والتَّضييق عليها في حَرَكاتها وسَكَناتها وخَطَراتها، فإنَّ كلَّ نَفَسٍ مِن أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسةٌ لا عوضَ لها.

فإذا فرغ العبد مِن فريضة الصُّبح، ينبغي أنْ يُفرغَ قلبه ساعةً لمُشارَطة نَفْسه، فيقول للنَّفْس: ما لي بضاعةٌ إلَّا العمر، فإذا فني منِّي رأس المال وقع اليأس مِن التِّجارة، وطلب الرِّبح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأخَّر أجلي، وأنعم عليَّ به، ولو تُوفَّاني لكنتُ أتمنَّى أنْ يُرجِعني إلى الدُّنيا حتى أعمل صالحًا، فاحسبي يا نَفْسُ أنَّك قد تُوفِّيت، ثُمَّ رُدِدتِ، فإيَّاكِ إيَّاكِ أنْ تُضيِّعي هذا اليوم، واعلمي أنَّ اليوم واللَّيلة أربعٌ وعشرون ساعةً، وأنَّ العبد يُنشر له بكلِّ يومٍ أربعٌ وعشرون خزانةً مصفوفةً، فيُفتح له منها خزانةٌ، فيراها مملوءةً نورًا مِن حسناته التي عَمِلها في تلك السَّاعة، فيحصل له مِن السُّرور بمُشاهدة تلك الأنوار ما لو وُزِّع على أهل النَّار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النَّار، ويُفتح له خزانةٌ أُخرى سوداءُ مظلمةٌ يَفوح ريحها، ويغشاه ظلامها، وهي السَّاعة التي عصى الله تعالى فيها، فيحصل له مِن الفزع [والحزن](١) ما لو قُسم على أهل الجَنَّة لنغَّص عليهم نعيمهم، ويُفتح له خزانةٌ أُخرى فارغةٌ ليس فيها ما يَسوؤه ولا

(١) ورد في "المطبوع" [الخزي].

يَسرُّه، وهي السَّاعة التي نام فيها أو غَفِل أو اشتغل بشيءٍ مِن المُباح، ويَتحسَّر على خُلوِّها، ويناله ما نال القادر على الرِّبح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تُعرَض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أنْ تعمري خزانتك، ولا تَدَعيها فارغةً، ولا تَميلي إلى الكسل والدَّعَة والاستراحة، فيفوتكِ مِن درجات عِلِّيِّين ما يُدركه غيرك.

قال بعضهم: هبْ أنَّ المُسيء قد عُفي عنه، أليس قد فاته ثواب المُحسنِين؟ فهذه وصيَّته في نفسه في أوقاته، ثُمَّ يُستأنف لها وصيَّةٌ أُخرى في أعضائه السَّبعة، وهي العين والأذن واللِّسان والبطن والفرج واليد والرِّجل، وتَسليمها إلى النَّفْس، فإنَّها رعايةٌ خادمةٌ لها في هذه التِّجارة المُخلَّدة، بها يتمُّ أعمالها، ويُعلمها أنَّ أبواب جَهنَّمَ سبعةٌ على عدد هذه الأعضاء، فتعيَّن تلك الأبواب لِمَن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيُوصيها بحفظها عن معاصيها.

أمَّا العين فيحفظها عن النَّظر إلى ما لا يحلُّ النَّظر إليه، أو إلى مسلِمٍ بعين الاحتقار، وعن كلِّ فُضولٍ مُستغنًى عنه، ويَشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النَّظر إلى ما خُلقت له مِن عجائب صُنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنَّظر إلى أعمال الخير في كتاب الله تعالى، وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومُطالَعة كُتب الحِكَم للاتِّعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أنْ يتقدَّم إلى كلِّ عضوٍ بالوصيَّة بما يليق به، لا سيَّما اللِّسان والبطن، وقد ذَكَرنا آفات اللِّسان فيما تقدَّم، فيشغله بما خُلق له مِن الذِّكر والتَّذكير، وتَكرار العِلم والتَّعليم، وإرشاد عِباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك مِن الخير.

وأمَّا البطن فيُكلِّفه ترك الشَّره، واجتناب الشُّبهات والشَّهوات، ويقتصر على قَدْر الضَّرورة، ويَشترط على نفسه إن خالفتِ شيئًا مِن ذلك أنْ يُعاقِبها بالمنع مِن شهوات

البطن؛ ليفوتها أكثر ممَّا نالت بشهوتها، وهكذا في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول، وكذا ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثُمَّ يستأنف وصيَّتها في وظائف العِبادات التي تتكرَّر في اليوم واللَّيلة، في النَّوافل التي يَقدِر عليها، وعلى الاستكثار منها، وهذه شروطٌ يُفتقر إليها كلَّ يومٍ إلى أنْ تتعوَّد النَّفْس ذلك، فيستغني عن المُشارَطة، ولكن لا يخلو كلُّ يومٍ مِن حادثةٍ لها حُكمٌ جديدٌ لله تعالى عليه في ذلك حقٌّ، ويَكثر هذا على مَن يشتغل بشيءٍ مِن أعمال الدُّنيا مِن ولايةٍ أو تجارةٍ أو نحوِ ذلك؛ إذ قلَّ أنْ يخلوَ يومٌ عن واقعةٍ جديدةٍ يَحتاج إلى أنْ يقضيَ حقَّ الله عَزَّوَجَلَّ فيها، فعليه أنْ يشرطَ على نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحقِّ، وعن شدَّاد بن أوسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعدَ المَوتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتبَعَ نَفسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»[1].

وقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قَبل أنْ تُحاسَبوا، وزِنوها قَبل أنْ تُوزَنوا، وتَهيَّؤوا للعَرْضِ الأكبرِ[2]. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]».

المَقَامُ الثَّاني: المُرَاقَبَةُ

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذَكَرناه، لم يبقَ إلَّا المُراقَبة لها ومُلاحَظتها، وفي الحديث الصَّحيح في تفسير الإحسان، لمَّا سُئل عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**أنْ تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنْ لَم تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ**»[3]، أراد بذلك استحضارَ عَظَمة الله، ومُراقَبته في حال العِبادة.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٩)، وأحمدُ (١٧١٢٣)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٧١٤٣)، وابن ماجه (٤٢٦٠) عن شداد بن أوسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٨)، والتِّرمذيُّ (٢٤٥٩).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلمٌ (٨).

قيل: دخل [الشَّبليُّ](١) على أبي الحسين [النُّوريِّ](٢) وهو قاعدٌ ساكنٌ لا يتحرَّك مِن ظاهره شيءٌ، فقال له: ممَّن أخذتَ هذه المُراقَبة والسُّكون؟ فقال: مِن سِنَّورٍ كانت لنا، إذا أرادت الصَّيد رابطت رأس الجِحر حتى لا يتحرَّكُ لها شعرةٌ.

وينبغي أنْ يُراقِبَ الإنسان نفسه قَبل العِلم وفي العمل، هل حرَّكه عليه هوى النَّفس، أو المُحرِّك له هو الله تعالى خاصَّةً؟ فإنْ كان الله تعالى أمضاه، وإلَّا تركه، وهذا هو الإخلاص.

قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند هَمِّه، فإنْ كان لله مضى، وإنْ كان لغيره تأخَّر(٣).

فهذه مُراقَبة العبد في الطَّاعة، وهو أنْ يكون مُخلِصًا فيها، ومُراقَبته في المعصية تكون بالتَّوبة والنَّدم والإقلاع، ومُراقَبته في المُباح تكون بمراعاة الأدب، والشُّكر على النَّعيم، فإنَّه لا يخلو مِن نعمةٍ لا بدَّ له مِن الصَّبر عليها، [وكلُّ ذلك](٤) مِن المُراقَبة.

وقال وهب بن منبِّهٍ في حِكمة آل داودَ(٥): حقٌّ على العاقل ألاَّ يُشغل عن أربع ساعاتٍ: ساعةٍ يُناجي فيها ربَّه، وساعةٍ يُحاسب فيها نفسه، وساعةٍ يفضي بها إلى إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعةٍ يخلِّي بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحلُّ ولا يحرم، فإنَّ هذه السَّاعة عونٌ على هذه السَّاعات، وإجمامٌ للقوَّة. وهذه التي هو مشغولٌ فيها بالمَطعَم والمَشرَب لا ينبغي أنْ تخلوَ عن عملٍ هو أفضل الأعمال،

(١) الشِّبْليُّ أبو بكرٍ دلف بن جحدرٍ البغداديُّ شيخ الطَّائفة، له شعرٌ، وألفاظٌ وحِكَمٌ وحالٌ وتمكُّنٌ، لكنَّه كان يحصل له جفاف دماغ وسُكر، فيقول أشياءَ يعتذر عنه، توفِّي في بغداد سنة (٣٤٣). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٥/ ٣٦٧)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٢/ ٣٤١)، ورد في « خ « [السبكي].

(٢) أبو الحسين النُّوريُّ أحمدُ بن محمَّدٍ، بغداديُّ المنشأ والمولِد، خُراسانيُّ الأصل، يُعرف بابن البغويِّ، وكان مِن أجلِّ مشايخ القوم وعلمائهم، لم يكن في وقته أحسنَ طريقةً منه، ولا ألطفَ كلامًا، صَحِب سَريًّا السَّقَطيَّ، ومحمَّد بن عليٍّ القصَّاب، ورأى أحمدَ بن أبي الحواريِّ، توفِّي سنة (٢٩٥). انظر «طبقات الصُّوفيَّة»، أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ، (ص١٣٥)، ورد في « الأصل، خ « [الثوري].

(٣) ذكره ابن القيِّم في «مصباح التَّفاسير» (٢١/ ٧٧).

(٤) ورد في " المطبوع " [وكل ذلك لا يخلو].

(٥) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٣٥٢) مختصرًا.

وهو الذِّكر والفِكر، فإنَّ الطَّعام الذي يتناوله فيه مِن العجائب ما لو تفكَّر فيه كان أفضل مِن كثيرٍ مِن أعمال الجوارح.

المقامُ الثَّالثُ: المُحاسَبة بعدَ العمَلِ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨] وهذه إشارةٌ إلى المُحاسَبة بعد مُضيِّ العمل، ولذلك قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسِبوا أنفسكم قَبل أنْ تُحاسَبوا»[١].

وقال الحسن: المُؤمن قَوَّام على نفسه، يُحاسِب نفسه[٢].

وقال: إنَّ المُؤمن يَفجأه الشَّيء يُعجبه، فيقول: والله إنِّي لأشتهيكَ، وإنَّك لَمِن حاجتي، ولكن والله ما مِن حِيلةٍ إليك، هيهاتَ، حِيل بيني وبينك، ويفرط منه الشَّيء فيَرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردتِ إلى هذا، ما لي ولهذا؟ واللهِ لا أعود إلى هذا أبدًا إنْ شاء الله، إنَّ المؤمنِين قومٌ أَوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هَلَكَتهم، إنَّ المُؤمن أسيرٌ في الدُّنيا، يَسعى في فَكاكِ رَقَبته، لا يأمنُ شيئًا حتى يلقى الله عَزَّوَجَلَّ، يَعلم أنَّه مأخوذٌ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذٌ عليه في ذلك كلِّه[٣].

واعلم أنَّ العبد كما ينبغي أنْ يكونَ له وقتٌ في أوَّل النَّهار يُشارِط فيه نفسه، كذلك ينبغي أنْ يكونَ له ساعةٌ يُطالِب فيها نفسه في آخِر النَّهار، ويُحاسِبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التُّجَّار في الدُّنيا مع الشُّركاء في آخِر كلِّ سَنةٍ أو شهرٍ أو يومٍ.

ومعنى المُحاسَبة أنْ يَنظر في رأس المال، وفي الرِّبح، وفي الخسران؛ لتتبيَّن له الزِّيادة مِن النُّقصان، فرأس المال في دِينه الفرائض، وربحه النَّوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، ولْيحاسبْها أوَّلًا على الفرائض، وإنِ ارتكب معصيةً اشتغل بعِقابها ومُعاقَبتها لِيستوفِيَ منها ما فرط.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٨)، وذكره التِّرمذيُّ بعد الحديث (٢٤٥٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٢٣).

(٣) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٢/ ١٥٧)، وابن أبي شيبةَ في «مصنَّفه» (٣٥٢٠٩).

قيل: كان توبة بن الصِّمَّة بالرَّقَّة، وكان مُحاسِبًا لنفسه، فحسب يومًا فإذا هو ابن ستِّين سَنةً، فحسب أيَّامها فإذا هي أحدٌ وعشرون ألف يومٍ وخمسُمائة يومٍ، فصرخ وقال: يا ويلنا! ألْق [المليك][1] بأحدٍ وعشرين ألف ذنبٍ وخمسِمائة ذنبٍ؟ كيف وفي كلِّ يومٍ عشرة آلاف ذنبٍ؟ ثُمَّ خرَّ مَغشيًّا عليه، فإذا هو ميتٌ، فسمعوا قائلًا يقول: يا لها ركضةٌ إلى الفردوس الأعلى![2]

فهكذا ينبغي للعبد أنْ يُحاسِب نفسه على الأنفاس، وعلى معصية القلب والجوارح في كلِّ ساعةٍ، فإنَّ الإنسان لو رمى بكلِّ معصيةٍ يفعلها حَجرًا في داره لامتلأت داره في مدَّةٍ يسيرةٍ، ولكنَّه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

المَقامُ الرَّابعُ: مُعاقبةُ النَّفسِ على تقصيرِها

اعلم أنَّ المُريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيرًا، أو فعلت شيئًا مِن المعاصي فلا ينبغي أنْ يُهملَها، فإنَّه يسهل عليه حينَئذٍ مُقارفة الذُّنوب، ويعسر عليه فِطامها، بل ينبغي أنْ يُعاقِبها عقوبةً مُباحةً كما يُعاقِب أهله وولده.

وكما رُوي عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه خرج إلى حائطٍ له، ثُمَّ رجع وقد صلَّى النَّاس العصر، فقال: إنَّما خرجتُ إلى حائطي، ورجعتُ وقد صلَّى النَّاس العصر، حائطي صدقةٌ على المساكين. قال اللَّيث: إنَّما فاتته في الجماعة[3].

وروينا عنه أنَّه شَغله أمرٌ عن المغرب حتى طلع نجمان، فلمَّا صلَّاها أعتق رقبتَين[4].

---

(١) ورد في "المطبوع" [الملك].

(٢) ذَكر القِصَّة ابن القيِّم في «مصباح التَّفاسير» (٢١/ ٧٨).

(٣) رواه ابن كثيرٍ في «مسند الفاروق» (٥٢).

(٤) ذكره المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٢١٨١٩) وعزاه إلى ابن المبارك في «الزُّهد».

وحُكي أنَّ تميمًا الدَّاريَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نام ليلةً لم يَقم يتهجَّد فيها حتى أصبح، فقام سَنةً لم ينم فيها عقوبةً للذي صنع[١].

ومرَّ حسانُ بن سنانٍ بغرفةٍ فقال: متى بُنيت هذه؟ ثُمَّ أقبل على نفسه، فقال: تسألين عمَّا لا يَعنيك؟ لَأُعاقبنَّك بصوم سَنةٍ، فصامها[٢].

فأمَّا العقوبات بغير ذلك ممَّا لا يَحِلُّ فيحرم عليه فِعله، مِثال ذلك: ما حُكي أنَّ رجلًا مِن بني إسرائيلَ وضع يده على فَخِذ امرأةٍ، فوضعها في النَّار حتى شَلَّت، وأنَّ آخر حَوَّل رِجله لِينزل إلى امرأةٍ، ففكَّر، وقال: ماذا أردتُ أنْ أصنع؟ فلمَّا أراد أنْ يُعيد رِجله، قال: هيهاتَ، رِجلٌ خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي، فتركها حتى تقطَّعت بالمطر والرِّياح، وأنَّ آخر نظر إلى امرأةٍ، فقلع عينَيه، فهذا كلُّه مُحرَّمٌ، وإنَّما كان جائزًا في شريعتهم، وقد سلك نحو ذلك خَلقٌ مِن أهل مِلَّتنا، حَمَلهم على ذلك الجهل بالعِلم، كما حُكي عن غزوانَ الزَّاهد أنَّه نظر إلى امرأةٍ، فلطم عينه حتى نفرت[٣].

وروينا عن بعضهم أنَّه أصابته جنابةٌ، وكان البرد شديدًا، وأنَّه وَجد في نفسه تَوقُّفًا عن الغُسل، فآلى ألَّا يغتسل إلَّا في مُرقَّعته، وألَّا ينزعَها، ولا يعصرَها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رَطلًا، وهذا مِن الجهل بالعِلم، فإنَّه ليس للإنسان أنْ يَتصرَّف في نفسه بمِثل هذا، وقد ذَكَرتُ كثيرًا مِن هذا الفنِّ الصَّادر عن المُتعبِّدِين على الجهل في كتابي المسمَّى بـ«تلبيس إبليسَ».

المَقامُ الخامِسُ: المجَاهَدَةُ

وهو أنَّه إذا حاسَب نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصيةً أنْ يُعاقِبها كما سبق، فإنْ رآها تَتوانَى بحُكم الكسل في شيءٍ مِن الفضائل، أو وِردٍ مِن الأوراد، فينبغي أنْ يُؤدِّبها

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٩٣٥).
(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٤٧٣١).
(٣) رواه القرطبيُّ في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٣).

بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه فاتته صلاةٌ في جماعةٍ، فأحيا اللَّيل كلَّه تلك اللَّيلة. وإذا لم تُطاوعه نفسه على الأوراد فإنَّه يُجاهدها ويُكرِهها ما استطاع.

وقال ابن المبارك: إنَّ الصَّالحِين كانت أنفسهم تُواتيهم على الخير عفوًا، وإنَّ أنفسنا لا تُواتينا إلَّا كرهًا[١].

وممَّا يُستعان به عليها أنْ يُسمعها أخبار المُجتهِدِين، وما ورد في فضلهم، ويصحب مَن يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله.

قال بعضهم: كنتُ إذا اعترتني فترةٌ في العبادة نظرتُ إلى وجه محمَّد بن واسعٍ وإلى اجتهاده، فعملتُ على ذلك أسبوعًا[٢].

وقد كان عامر بن عبد قيسٍ[٣] يصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ[٤]، وكان الأسود بن يزيدَ[٥] يصوم حتى يَخضرَّ ويَصفرَّ[٦]، وحجَّ مسروقٌ، فما نام إلاَّ ساجدًا[٧]. وكان داودُ الطَّائيُّ يشرب الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آيةً[٨]. وكان كُرز بن وبرةَ[٩] يختم كلَّ

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في «محاسبة النَّفس» (١٤٥).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٧) عن جَعْفَرٍ قَالَ: «كُنْتُ إِذَا وَجَدْتُ مِنْ قَلْبِي قَسْوَةً نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ نَظْرَةً وَكُنْتُ إِذَا رَأَيْتُ وَجْهَ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ حَسِبْتُ أَنَّ وَجْهَهُ وَجْهَ ثَكْلَى».

(٣) عامر بن عبد قيس التَّميميُّ العنبريُّ البصريُّ، روى عن عمرَ، وسلمانَ، وعنه الحسن، ومحمَّد بن سيرينَ، وأبو عبد الرَّحمن الحُبليُّ، وغيرهم، توفِّي في زمن معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر «صفة الصَّفوة»، ابن الجوزيِّ، (٢/ ١١٩)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ١٤).

(٤) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٩١٠).

(٥) الأسود بن يزيدَ بن قيسٍ أبو عمرٍو النَّخعيُّ، حدَّث عن معاذ بن جبلٍ، وبلالٍ، وابن مسعودٍ، وغيرهم، وحدَّث عنه ابنه عبد الرَّحمن، وإبراهيمُ النَّخعيُّ، وعمارة بن عمير وغيرهم، توفِّي سنة (٧٥). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٥٠)، الأعلام، الزِّركليُّ، (١/ ٣٣٠).

(٦) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٣).

(٧) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٩٦٢)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٦٠١٢).

(٨) رواه الدِّينوريُّ في «المجالسة وجواهر العلم» (٥٤).

(٩) كرز أبو عبد الله بن وبرةَ الحارثيُّ الكوفِيُّ، حدَّث عن أنس بن مالكٍ، والرَّبيع بن خثيم، ونعيم بن أبي هندٍ وغيرهم، وحدَّث عنه أبو طيبةَ عيسى بن سليمانَ الدَّارِميُّ، وعبيد الله الوصافِيُّ، وسفيانُ الثوريُّ، =

يومٍ ثلاثَ ختماتٍ[١]، وكان عمرُ بن عبد العزيز، وفتحُ المَوصِلِيُّ يبكيان الدَّم[٢]، وصلَّى أربعون نَفْسًا مِن القدماء الفجر بوضوء العَتمة، وجاور أبو محمَّدٍ الحريريُّ[٣] سَنةً، فلم ينم، ولم يتكلَّم، ولم يَستندْ إلى حائط، ولم يَمدَّ رِجله، فقال له أبو بكرٍ الكتانِيُّ[٤]: بِمَ قَدرت على هذا؟ قال: عَلِم صدق باطني، فأعانني على ظاهري[٥]. ودخلوا على زحلةَ العابدة فكلَّموها بالرِّفق بنفسها فقالت: إنَّما هي أيَّام مُبادَرةٍ، فمَن فاته اليوم شيءٌ لم يُدرِكه غدًا، والله يا إخوتاه لأُصلِّيَنَّ لله ما أقلَّتني جوارحي، ولأَصومَنَّ له في أيَّام حياتي، ولأَبكيَنَّ ما حَملتِ الماءَ عيناي.

ومَن أراد أنْ ينظر في سَير القوم، ويَتفرَّج في بساتين مُجاهَداتهم، فلْينظر في كتابي المُسمَّى بـ«صفة الصَّفوة» فإنَّه يرى مِن أخبار القوم ما يَعدُّ نفسه بالإضافة إليهم مِن الموتى، بل مِن أخبار المُتعبِّدات مِن النِّسوة ما يَحتقر نفسه عند سماعه.

المَقامُ السَّادِسُ: في مُعاتَبةِ النَّفْسِ وتَوْبيخِها

قال أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن مَقَت نفسه في ذات الله آمنه الله مِن مَقْته»[٦].

= وغيرهم، توفِّي سنة (١١٠). «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٦/ ٨٤)، «الأعلام»، الزَّركليُّ، (٥/ ٢٢١).

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٥/ ٧٩).

(٢) رواه أبو الفرج ابن الجوزيِّ في «جامع المواعظ والرَّقائق» (ص٦٥٧).

(٣) أبو محمَّدٍ القاسم بن عليِّ بن محمَّدٍ الحريريُّ، سمع من أبي تمَّام محمَّد بن الحسن بن موسى، وأبي القاسم الفضل القصبانِيِّ، وروى عنه ابنه أبو القاسم عبد الله، والوزير عليُّ بن طراد، وقوَّام الدِّين عليُّ بن صدقة، وغيرهم، توفِّي سنة (٥١٦). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٩/ ٤٦٠)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ١٧٧).

(٤) أبو بكرٍ محمَّد بن عليِّ بن جعفرٍ الكتَّانِيُّ حكى عن أبي سعيدٍ الخرَّاز، وإبراهيم الخوَّاص، وحكى عنه جعفرٌ الخلديُّ، ومحمَّد بن عليٍّ التَّكريتيُّ، وأبو القاسم البصريُّ، وآخرون، ومات مجاورًا بمكَّةَ سنة (٣٢٢). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٤/ ٥٣٣).

(٥) رواه ابن الملقِّن في «طبقات الأولياء» (ص٧٢).

(٦) عزاه المُتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٨٧٥٢) إلى ابن أبي الدُّنيا في محاسبة النَّفس.

وقال أنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سمعتُ عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ودخل حائطًا، فسمعتُه يقول وبيني وبينه جدار عمرَ بن الخطَّاب أمير المؤمنِين: بخٍ بخٍ، والله لَتتقِيَنَّ الله يا ابن الخطَّاب، أو لَيُعذِّبنَّكَ[١].

وقال البختريُّ بن حارثةَ: دخلتُ على عابدٍ فإذا بين يدَيه نارٌ قد أَججَّها، وهو يُعاتِب نفسه، فلم يزل يُعاتِبها حتى مات[٢].

وكان بعضهم يقول إذا ذَكَر الصالحون: فأُفٍّ لي وتُفٍّ[٣].

واعلم أنَّ أعدَى عدوٍّ لك نفسك التي بين جنبَيك، وقد خُلقتْ أمَّارة بالسُّوء، ميَّالةً إلى الشَّرِّ، وقد أُمرتَ بتقويمها وتزكيتها وفِطامها عن مواردها، وأنْ تقودَها بسلاسل القهر إلى عِبادة ربِّها، فإنْ أهملتَها جَمحتْ وشَردتْ، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإنْ لزمتَها بالتَّوبيخ رجونا أنْ تصير مُطمئنَّةً، فلا تَغفلَنَّ عن تذكيرها، وسبيلك أنْ تقبلَ عليها، فتُقرِّر عندها جهلها وغباوتها، وتقول: يا نَفسُ، ما أعظم جَهلك، تَدَّعين الذَّكاء والفِطنة، وأنتَ أَشدُّ النَّاس غَباوةً وحمقًا، أَمَا تَعلمين أنَّك صائرةٌ إلى الجَنَّة أو النَّار؟ فكيف يلهو مَن لا يدري إلى أيَّتهما يصير؟ وربَّما اختُطِف في يومه أو في غده، أَمَا تَعلمين أنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، وأنَّ الموت يأتي بغتةً مِن غير موعدٍ، ولا يَتوقَّف على سِنٍّ دون سِنٍّ، بل كلُّ نَفَسٍ مِن الأنفاس يُمكن أنْ يكونَ فيه الموت فجأةً، وإنْ لم يكن الموت فجأةً كان المرض فجأةً، ثُمَّ يُفضي إلى الموت، فما لكِ لا تَستعدِّين للموت [وهو][٤] قريبٌ منكِ؟ يا نَفْسُ، إنْ كانت جرأتكِ على معصية الله تعالى الاعتقاد أنَّ الله لا يراكِ فما أعظم كفركِ! وإنْ كانت مع عِلمكِ باطِّلاعه عليكِ فما أَشدَّ رَقاعتكِ، وأقلَّ

---

(١) رواه مالكٌ في «الموطَّأ» (٣٦٣٨).

(٢) ذكره ابن رجب الحنبليُّ في «تفسيره» (٢/ ٣٤٢).

(٣) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦٣).

(٤) سقطت من "الأصل".

حياءكِ! أَلكِ طاقةٌ على عذابه؟ جرِّبي ذلك بالقُعود ساعةً في الحمَّام، أو قرِّبي أصبعكِ مِن النَّار، يا نَفْسُ إنْ كان المانع لكِ مِن الاستقامة حُبُّ الشَّهوات، فاطلبي الشَّهوات الباقية الصَّافية عن الكدر، ورُبَّ أكلةٍ مَنَعت أكلاتٍ.

وما قولكِ في عقل مريضٍ أشار عليه الطَّبيب بترك الماء ثلاثة أيَّامٍ ليَصِحَّ ويتهيَّأ لشُربه طول العمر؟ فما مقتضى العقل في قضاء حقِّ الشَّهوة؟ أَيصبِر ثلاثة أيَّامٍ ليَتنعَّم طُول العُمر، أم يقضي شهوته في الحال، ثُمَّ يلزمه الألم أبدًا؟ فجميع عمركِ بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدَّة نعيم أهل الجنَّة، وعذاب أهل النَّار أَقلُّ مِن ثلاثة أيَّام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقلُّ مِن لحظةٍ بالإضافة إلى عمر الدُّنيا، وليت شِعري أَلَمُ الصَّبر عن الشَّهوات أشدُّ وأطول، أم أَلَمُ النَّار في الدَّركات؟ فمَن لا يطيق الصَّبر على ألم المُجاهَدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حُبُّ الجاه؟ أَمَّا بعد ستِّين سنةً أو نحوها لا تبقِين أنتِ ولا مَن كان لك عنده جاهٌ، هلا تركتِ الدُّنيا لخِسَّة شُركائها، وكثرة عَنائها، وخوفًا مِن سرعة فنائها؟ أَتستبدلين بجوار ربِّ العالَمِين صفَّ النِّعال في صُحبة الحَمقى؟ قد ضاع أكثر البِضاعة، وقد بقيتْ مِن العمر صبابةٌ، فلو استدركتِ ندمتِ على ما ضاع، فكيف إذا أضفتِ الأخير إلى الأوَّل؟ اعملي في أيَّامٍ قِصارٍ لأيَّامٍ طِوالٍ، وأعدِّي الجواب للسُّؤال، اخرجي مِن الدُّنيا خروج الأحرار قَبل أنْ يكونَ خُروج اضطرارٍ، إنَّه مَن كانت مَطيَّته اللَّيل والنَّهار سِير به، وإنْ لم يَسرْ، تفكَّري في هذه المَوعظة، فإنْ عدمتِ تأثيرها فابكي على ما أُصبتِ به، فمُستقَى الدَّمع مِن بحر الرَّحمة.

باب التفكر والتدبر(١)

قد أَمر الله سبحانه بالتَّفكُّر والتَّدبُّر في كتابه العزيز، وأثنى على المُتفكِّرين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وعن عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَفكَّرُوا في آلاءِ اللهِ، وَلا تَفكَّرُوا في اللهِ**»(٢).

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَفكُّر ساعةٍ خيرٌ مِن قِيام ليلةٍ(٣).

وقال وهب بن منبِّهٍ: ما طالت فكرة امرئ قطُّ إلَّا فهم، وما فهم إلَّا عَلِم، وما عَلِم إلَّا عمل(٤).

وقال بشرٌ الحافي: لو تفكَّر النَّاس في عَظَمة الله تعالى لَمَا عَصَوه(٥).

وقال الفريابيُّ(٦) في قوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا

---

(١) سقطت من "المطبوع، ن".

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١١٩)، وأبو الشَّيخ في «العَظَمة» (١)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٦٣١٩)، وقال البيهقيُّ: هذا إسنادٌ فيه نظرٌ. وقال الطَّبرانيُّ: لم يروِ هذا الحديث عن سالمٍ إلَّا الوازع، تفرَّد به عليُّ بن ثابتٍ. وقال الهيثميُّ في «مَجمَع الزَّوائد» (٢٥٤): رواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط»، وفيه الوازع ابن نافعٍ، وهو متروكٌ.

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١١٧)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (١/ ٢٠٨).

(٤) رواه أبو الشَّيخ في «العَظَمة» (٥٦).

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٣٣٧).

(٦) محمَّد بن يوسفَ بن واقدٍ الضَّبِّيُّ بالولاء، التُّركيُّ الأصل، أبو عبد الله الفريابيُّ، عالمٌ بالحديث، مِن=

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: أَمنَع قلوبهم التَّفكُّر في أمري[١].

وكان داودُ الطَّائيُّ [قدس سره][٢] على سطحٍ في ليلةٍ قمراءَ، فتفكَّر في ملكوت السَّموات والأرض، فوقع في دار جارٍ له، فوثب عُريانًا وبيده السَّيف، فلمَّا رآه قال: يا داودُ، ما الذي ألقاكَ؟ قال: ما شعرتُ بذلك.

وقال يوسفُ بن أسباط[٣]: إنَّ الدُّنيا لم تُخلق لِيُنظَر إليها، بل لِيُنظَر بها إلى الآخرة[٤].
وكان سفيانُ مِن شدَّة تفكُّره يبول الدَّم[٥].

وقال أبو بكرٍ الكتانِيُّ: روعةٌ عند انتباهةٍ مِن غَفلةٍ، وانقطاعٍ عن حظٍّ نفسانِيٍّ، وارتعادٌ مِن خوف قطيعةٍ أفضلُ مِن عِبادة الثَّقلَين[٦].

بَيَانُ مَجَارِي الفِكْرِ وَثَمَرَاتِهِ

اعلم أنَّ الفِكر قد يجري في أمرٍ يتعلَّق بالدِّين، وقد يجري في أمرٍ يتعلَّق بغيره، وإنَّما غَرَضُنا ما يتعلَّق بالدِّين، وشَرْح ذلك يطول، فلْينظرِ الإنسان في أربعة أنواعٍ: الطَّاعات،

= الحفَّاظ، سمع مِن يونسَ بن أبي إسحاقَ، وفطر بن خليفةَ وغيرهما، وعنه البخاريُّ، وأحمدُ بن حنبلٍ، ومحمَّد بن يحيى وغيرهم، ونزل قِيساريةَ بفلسطينَ وتوفِّي بها سنة (٢١٢). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٠/ ١١٤)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ١٤٧).

(١) رواه أبو الشَّيخ في «العَظَمة» (١١).

(٢) سقطت من " المطبوع، ن ".

(٣) يوسفُ بن أسباطٍ الزَّاهد، مِن سادات المشايخ، له مواعظُ وحكمٌ، روى عن محلِّ بن خليفةَ، والثَّوريِّ، وزائدةَ بن قدامةَ، وعنه المُسيِّب بن واضحٍ، وعبد الله بن خبيق، وغيرهما. انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٩/ ١٦٩).

(٤) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٢٤٠).

(٥) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٢٢)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٧/ ٢٣).

(٦) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٨٤٣).

والمعاصي، والصِّفات المُهلِكات، والصِّفات المُنجِيات، فلا تَغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المُباعِدة عن الله، والمُقرِّبة إليه، وينبغي لكلِّ مُريدٍ أنْ تكون له جريدةٌ يُثبت فيها جملة الصِّفات المُهلِكات، وجملة الصِّفات المُنجِيات، وجملة المعاصي والطَّاعات، ويَعرض ذلك على نفسه كلَّ يومٍ، ويكفيه مِن المُهلِكات النَّظر في عَشرةٍ، فإنَّه إنْ سَلِم منها سَلِم مِن غيرها، وهي البخل، والكِبْر، والعُجب، والرِّياء، والحسد، وشدَّة الغضب، وشَرَه الطَّعام، وشَرَه الوِقاع، وحُبُّ المال، وحُبُّ الجاه.

ومِن المُنجِيات عشرةٌ: النَّدم على الذُّنوب، والصَّبر على البلاء، والرِّضى بالقضاء، والشُّكر على النَّعماء، واعتدال الخوف والرِّياء، والزُّهد في الدُّنيا، والإخلاص في الأعمال، وحُسن الخُلُق مع الخَلْق، وحُبُّ الله تعالى، والخشوع، فهذه عشرون خصلةً: عَشرةٌ مذمومةٌ، وعَشرةٌ محمودةٌ، فمتى كُفي مِن المذمومات واحدةً خَطَّ عليها في جريدته، وترك الفِكر فيها، وشكر الله تعالى على كِفايته إيَّاها، ولْيعلمْ أنَّ ذلك لم يتمَّ إلَّا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثُمَّ يُقبِل على التِّسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يَخطَّ على الجميع، وكذلك يُطالِب نَفْسه بالاتِّصاف بالصِّفات المُنجِيات، فإذا اتَّصف بواحدةٍ منها، كالتَّوبة والنَّدم مثلًا، خَطَّ عليها، واشتغل بالباقي، وهذا يَحتاج إليه المُريد المُشمِّر.

فأمَّا أكثر النَّاس مِن المعدودِين في الصَّالِحِين فينبغي أنْ يُثبتوا في جرائدهم المعاصي الظَّاهرة، كأكل الشُّبهات، وإطلاق اللِّسان بالغِيبة والنَّميمة، والمِراء، والثَّناء على النَّفْس، والإفراط في موالاة الأولياء، ومُعاداة الأعداء، والمُداهَنة في ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، فإنَّ أكثر مَن يَعدُّ نَفْسه مِن وجوه الصَّالحِين لا ينفكُّ عن جملةٍ مِن هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تَطهر الجوارح مِن الآثام لا يُمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره.

وكلُّ فريقٍ مِن النَّاس يَغلب عليهم نوعٌ مِن هذه الأمور، فينبغي أنْ يكونَ تفقُّدُهم لها وتفكُّرُهم فيها مِثاله العالِم الورع، فإنَّه لا يخلو في غالب الأمور مِن إظهار نَفْسه

بالعِلم، وطلب الشُّهرة، وانتشار الصِّيت، إمَّا بالتَّدريس، أو بالوعظ، ومَن فعل ذلك فقد تصدَّى لِفتنةٍ عظيمةٍ لا ينجو منها إلَّا الصِّدِّيقون، وربَّما ينتهي العِلم بأهل العِلم إلى أنْ يَتغايَروا كما يَتغايَر النِّساء، وكلُّ ذلك مِن رسوخ الصِّفات المُهلِكات في سِرِّ القلب التي يَظنُّ العالِم النَّجاة منها، وهو مغرورٌ فيها.

ومَن أحسَّ مِن نفسه هذه الصِّفات، فالواجب عليه الانفراد والعُزلة، وطلب الخمول والمُدافَعة للفتاوى، فقد كان الصَّحابة يَتدافَعون الفتاوى، وكلٌّ منهم يودُّ لو أنَّ أخاه كَفاه، وعند هذا يَنبغي أنْ يتَّقي شياطين الإنس، فإنَّهم قد يقولون: هذا سببٌ لاندراس العِلم، فليقل لهم: دِين الإسلام مُستغنٍ عنِّي، ولو متُّ لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مُستغنٍ عن إصلاح قلبي، فليكن فِكر العالِم في التَّفطُّن لخفايا هذه الصِّفات مِن قلبه، نسأل الله أنْ يُصلح فساد قلوبنا، وأنْ يُوفِّقنا لِما يَرضاه عنَّا.

فَصْلٌ

قد تقدَّم أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَفكَّرُوا في آلاء اللهِ، ولا تَفكَّرُوا في اللهِ**»[١] فالتَّفكُّر في ذاته سبحانه ممنوعٌ منه، وذلك أنَّ العُقول تتحيَّر في ذلك، فإنَّه أعظم مِن أنْ تُمثِّله العقول بالتَّفكُّر، أو تَتوهَّمه القلوب بالتَّصوير: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأمَّا التَّفكُّر في مخلوقات الله تعالى فقد ورد القرآن بالحثِّ على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]... الآيات.

وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) تقدَّم قريبًا.

ومِن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق مِن نطفةٍ، فيتفكَّر الإنسان في نفسه، فإنَّ في خَلْقه مِن العَجائب الدَّالَّة على عَظَمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عُشر عُشره وهو غافلٌ عن ذلك، وقد أَمَره الله تعالى بالتَّدبر في نفسه، فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقد تقدَّم في كتاب الشُّكر الكلام على بعض خَلْق الإنسان، فليُطلَب هناك.

ومِن آياته الجواهر المُودَعة في الجِبال، والمَعادن مِن الذَّهب والفضَّة والفيروزج ونحوها، وكذلك النِّفط والكبريت والقار وغيرها، ومِن آياته البِحار العظيمة العميقة المُكتنِفة لأقطار الأرض، التي هي قِطَع مِن البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، ولو جُمع المكسوف مِن الأرض مِن البراري والجِبال لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرةٍ صغيرةٍ في بحرٍ عظيمٍ، وفي البحر عجائبُ أضعاف ما نُشاهده في البرِّ.

وانظر كيف خَلَق اللُّؤلؤ، ودوَّره في صَدَفه تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان في صمِّ الصُّخور تحت الماء، وكذلك ما عداه مِن العَنبر وأصناف ما يَقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السُّفُن كيف أَمسَكها الله تعالى على وجه الماء، وسيَّرها في البحار تَسوقها الرِّياح، وأعجب مِن ذلك الماء، فإنَّه حياة كلِّ ما على الأرض مِن [حيوانٍ ونباتٍ][1]، فلو احتاج العبد إلى شربة ماءٍ، ومُنع منها لَبَذل جميع خزائن الدُّنيا في تَحصيلها لو مَلَك ذلك، ثُمَّ إذا شَرِبها ومُنِع خروجها لَبَذل جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النِّعمة.

ومِن آياته الهواء، وهو جسمٌ لطيفٌ لا يُرى بالعين، ثُمَّ انظر إلى شدَّته وقوَّته، وانظر إلى عجائب الجوِّ، وما يَظهر فيه مِن الغيوم والرَّعد والبرق والمطر والثَّلج والبَرَد والشُّهب والصَّواعق، وغيرِ ذلك مِن العجائب، وانظر إلى الطَّير تَسبَح بأجنحتها

(١) ورد في "الأصل" [الحيوان والنبات].

بالهواء كما يَسبَح حيوان البحر في الماء، ثُمَّ انظر إلى السَّماء وعِظَمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكبٌ إلَّا ولله تعالى فيه حكمةٌ في لونه وشكله وموضعه، وانظر إلى إيلاج اللَّيل في النَّهار، والنَّهار في اللَّيل، وانظر مَسير الشَّمس كيف اختَلف في الصَّيف والشَّتاء والرَّبيع والخريف.

وقد قيل: إنَّ الشَّمس مِثل الأرض مائةً ونيِّفًا وستِّين مرَّةً، وإنَّ أصغر كوكبٍ في السَّماء مِثل الأرض ثمان مرَّاتٍ، فإذا كان هذا قدر كوكبٍ واحدٍ، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السَّماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صِغَرها، والعجب منك أنَّك تَدخل بيت غنيٍّ مزخرفًا مموَّهًا بالذَّهب، فلا ينقطع تعجبُّك منه، ولا تزال تَذكره، وأنتَ تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثُمَّ لا تَلتفت إلى نحوه بقلبك، ولا تتفكَّر في بِناء خالِقك، فلقد نسيتَ نفسك وربَّك، واشتغلتَ ببطنك وفَرْجك، فما مَثَلك في غفلتك إلَّا كمَثَل نملةٍ تخرج مِن بيتها الذي حَفَرَته في حائط قصر المَلِك، فتلقى أُختها، فتتحدَّث معها في حديثِ بيتها، وكيف بَنَته وما جَمَعت فيه، ولا تَذكر قَصْر المَلِك، ولا مَن فيه، فهكذا أنتَ في غفلتكَ، فما تعرف مِن السَّماء إلَّا ما تَعرفه النَّملة مِن سقف بيتك.

فهذا بيان معاقِد الجمل التي يَجول فيها فِكر المُتفكِّرين، والأعمار تقصر، والعلوم تَقِلُّ عن الإحاطة ببعض المَخلوقات، إلَّا أنَّك كلَّما استكثرتَ مِن معرفة عجائب المصنوعات كانت معرفتُك بجلال الصَّانع أتمَّ، فتفكَّر فيما أشرنا إليه ههنا مع ما قدَّمناه مِن الإشارة في كتاب الشُّكر، فمَن نظر في هذه الأشياء مِن حيث إنَّها فِعل الله وصُنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعَظَمته، ومَن قَصَر النَّظر عليها مِن حيث تأثيرُ بعضها في بعضٍ، لا مِن حيث ارتباطُها بمسبِّب الأسباب شَقِي، نعوذ بالله مِن مَزَلَّة أقدام الجُهَّال، ومِن الرُّكون إلى أسباب الضَّلال، ولا وجهَ للتَّفكُّر فيما لا نراه مِن الملائكة والجِنِّ، فلذلك عَدَلنا عنه إلى ما نراه، والله أعلم.

باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم أنَّ المُنهمِك في الدُّنيا المُكِبَّ في غرورها يغفل قلبه لا محالةَ عن ذِكر الموت فلا يذكره، وإنْ ذَكَره كَرِهه ونفر منه، ثُمَّ النَّاس إمَّا مُنهمِكٌ، أو تائبٌ مُبتدئٌ، أو عارفٌ مُنتَهٍ.

فأمَّا المُنهمِك فلا يَذكره، وإنْ ذَكَره فيَذكره للتَّأسُّف على دُنياه، ويشتغل بذَمِّه، وهذا لا يزيده ذِكر الموت مِن الله تعالى إلَّا بُعدًا.

وأمَّا التَّائب، فإنَّه يكثر ذِكر الموت؛ لِينبعث به مِن قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التَّوبة، وربَّما يَكره الموت خِيفة أنْ يختطفه قَبل تمامها أو قَبل إصلاح الزَّاد، وهو معذورٌ في كراهة الموت، ولا يدخل بهذا تحت قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»[1] فإنَّه إنَّما يَخاف لقاء الله؛ لقصوره وتقصيره، فهو كالذي يتأخَّر عن لقاء الحبيب مُشتغِلًا بالاستعداد للقائه على وجهٍ يرضاه، فلا يُعدُّ كارهًا للقائه، وعلامة هذا أنْ يكون دائم الاستعداد له، لا شغلَ له سواه، وإلَّا الْتَحق بالمُنهمِك.

وأمَّا العارف فإنَّه يذكر الموت دائمًا؛ لأنَّه مَوعِد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى مَوعِد لقاء حبيبه، وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت، ويحبُّه؛ ليتخلَّص مِن دار العاصِين، وينتقل إلى جِوار ربِّ العالَمِين، كما قال بعضهم: حبيبٌ جاء على فاقةٍ.

فإذًا التَّائب معذورٌ في كراهة الموت، وهذا معذورٌ في حُبِّ الموت وتمنِّيه، وأعلى منهما مَن فوَّض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يَختار لنفسه موتًا ولا حياةً، بل تكون الأشياء إليه أحبُّها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحُبِّ والوَلاء إلى مقام التَّسليم والرِّضى، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كلِّ حالٍ ففي ذِكر الموت ثوابٌ وفضلٌ، فإنَّ المُنهمِك في الدُّنيا قد يستفيد بذِكر الموت التَّجافي عن الدُّنيا؛ لأنَّ ذِكره يُنغِّص عليه نعيمه ويكدِّره.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٤٢)، ومسلمٌ (٢٦٨٣) عن عُبادةَ بن الصَّامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»[١].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رجلًا ذُكر عند النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، فأحسنوا عليه الثَّناء، فقال النَّبيُّ صل الله عليه وسلم: «**كَيفَ كَانَ ذِكرُ صَاحِبُكُمْ لِلمَوتِ؟**» قالوا: ما كنَّا نسمعه يذكر الموت. قال: «**فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيسَ هُنَاكَ**»[٢].

وعن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم سُئل: أيُّ المؤمنِين أكيسُ؟ قال: «**أَكثَرُهُم لِلمَوتِ ذَاكِرًا، وَأَحسَنُهُم لِمَا بَعدَه استِعدَادًا، أُولَئكَ الأكيَاسُ**»[٣].

وقال الحسن البصريُّ: فضحَ الموت الدُّنيا، فلم يترك لذي لُبٍّ فيها فرحًا[٤]، وما ألزم عبدٌ قلبَه ذِكر الموت إلَّا صَغرت الدُّنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا ذُكر الموت انتفض انتفاض الطَّير، وكان يجمع كلَّ ليلةٍ الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثُمَّ يبكون، حتى كأنَّ بين أيديهم جنازةٌ[٥].

وكان حامدٌ القيصريُّ يقول: «كلُّنا قد أيقن الموت، وما نرى له مُستعِدًّا، وكلُّنا قد أيقن بالجَنَّة، وما نرى لها عاملًا، وكلُّنا قد أيقن بالنَّار، وما نرى لها خائفًا، فعلامَ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٠٧)، وأحمدُ (٧٩٢٥) عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٢) قال الهيثميُّ في «مَجمَع الزَّوائد» (١٨٢٠٧): رواه البزَّار، وفيه يوسفُ بن عطيَّةَ، وهو متروكٌ. وقال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ٣١٩): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في الموت مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ ضعيفٍ، وابن المبارك في «الزُّهد» قال: أخبرنا مالك بن مغول... فذكره بلاغًا بزيادةٍ فيه.

(٣) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١/ ٣١٣)، وروواه بمعناه ابن ماجه (٤٢٥٩)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٧/ ٣١١): أخرجه ابن ماجه مِن حديث ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه ابن أبي الدُّنيا في «الموت» وإسناده جيِّدٌ.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٩).

(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٢٩) ولكن عن عمر بن عبد العزيز.

تفرحون؟ وما عسيتم تنتظرون الموت؟ فهو أوَّل واردٍ عليكم مِن أَمْر الله بخيرٍ، أو بِشَرٍّ، فيا إخوتاه، سيروا إلى ربِّكم سيرًا جميلًا»[١].

وقال شميط بن عجلانَ: مَن جعل الموت نُصب عينيه لم يُبالِ بضِيق الدُّنيا، ولا بسعتها[٢].

واعلم أنَّ خَطَر الموت عظيمٌ، وإنَّما غَفِل النَّاس عنه لقِلَّة فِكرهم وذِكرهم له، ومَن يذكره منهم إنَّما يذكره بقلبٍ غافلٍ، فلهذا لا ينجح فيه ذِكر الموت، والطَّريق في ذلك أنْ يُفرِّغ العبدُ قلبَه لذِكر الموت الذي هو بين يدَيه، كالذي يُريد أنْ يُسافر إلى مفازةٍ مُخطِرةٍ، أو يركب البحر، فإنَّه لا يتفكَّر إلَّا في ذلك، وأنفع طريقٍ في ذلك ذِكر أشكاله وأقرانه الذين مَضوا قَبله، فيَذكر موتهم ومصارعهم تحت الثَّرى.

قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «السَّعيد مَن وُعِظ بغيره»[٣].

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا ذُكِر الموتى فعُدَّ نفسك كأحدهم»[٤].

وينبغي أنْ يُكثر دخول المقابر، ومتى سَكَنت نفسه إلى شيءٍ في الدُّنيا فلْيتفكَّرْ في الحال أنَّه لا بدَّ مِن مُفارَقته، ويقصر أمله.

وقد رُوي عن عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمَنكبيَّ فقال: «**كنْ في الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيلٍ**»[٥].

وكان ابن عمرَ يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخُذ مِن صِحَّتك لمرضك، ومِن حياتك لموتك»[٦].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٣٠٢).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ١٢٩).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الاعتقاد» (ص٢٣٢)، ورواه القضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (٧٦) عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٤) رواه الأمير الصَّنعانيُّ في «التَّنوير شرح الجامع الصَّغير» (١٣٩٤).

(٥) رواه البخاريُّ (٦٤١٦).

(٦) رواه البخاريُّ (٦٠٥٣).

وفي حديثٍ آخر: «**إنَّ أخوفَ مَا أخَافُ عَلَى أُمَّتِي الهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ، فَأَمَّا الهَوَى فَيُضِلُّ عَنِ الحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنسِي الآخِرَةَ**»(١).

وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: «**أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أنْ يَدخُلَ الجَنَّةَ؟**» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «**قَصِّرُوا الأَمَلَ، وأثبِتُوا آجالَكُم بَينَ أَبصارِكُمْ، واستَحيُوا مِنَ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **حَقَّ حَيائِهِ**»(٢).

وعن أبي زكريَّا التَّيميِّ(٣) قال: بينما سليمانُ بن عبد الملك في المسجد الحرام، إذ أُتي بحَجرٍ مَنقوشٍ، فطَلَب مَن يقرأه، فإذا فيه: ابنَ آدم، لو رأيتَ قُرب ما بقيَ مِن أجلكَ لَزَهدتُ في طُول أَمَلِك، ولَرَغبتَ في الزِّيادة مِن عملك، ولَقصَّرت مِن حِرصكَ وحِيلكَ، وإنَّما يلقاكَ ندمكَ لو قد زلَّت بك قَدَمكَ، وأسلمكَ أهلكَ وحَشَمكَ، فبان منك الولد والنَّسب، فلا أنتَ إلى دنياك عائدٌ، ولا في حسناتك زائدٌ، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والنَّدامة(٤).

واعلم أنَّ السَّبب في طول الأمل شيئان:

أحدهما: حُبُّ الدُّنيا، والثَّاني: الجهل.

أمَّا حُبُّ الدُّنيا فإنَّ الإنسان إذا أَنِس بها وبشهواتها ولذَّاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارَقتها، فامتنع قلبه مِن الفِكر في الموت الذي هو سبب مُفارَقتها، وكلُّ مَن كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغولٌ بالأماني الباطلة، فيُمنِّي نفسه أبدًا بما يُوافق مُراده

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠١٢٩)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (١/ ٧٦).

(٢) قال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ٣٣١): أخرجه ابن أبي الدُّنيا فيه هكذا مِن حديث الحسن مُرسَلاً.

(٣) زكريَّا بن عُديٍّ التَّيميُّ مولاهم، حدَّث عن حمَّاد بن زيدٍ، وشريكٍ، وأبي الأحوص، وغيرهم، وحدَّث عنه إسحاق بن راهويه، وإسحاق الكوسج، وعبد بن حميدٍ، وغيرهم، توفِّي سنة (٢١١). انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص٣١٦)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٠/ ٤٤٢).

(٤) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٤/ ٦٩).

مِن البقاء في الدُّنيا، وما يحتاج إليه مِن مالٍ وأهلٍ ومسكَنٍ وأصدقاء وسائر أسباب الدُّنيا، فيَصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذِكر الموت، ولا يقدر قُربه، فإنْ خَطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّف بذلك، ووعد نفسه، وقال: الأيَّام بين يدَيكَ إلى أنْ تكبر ثُمَّ تتوب. وإذا كبر قال: إلى أنْ يصيرَ شيخًا، وإنْ صار شيخًا قال: إلى أنْ يَفرغَ مِن بناء هذه الدَّار، وعِمارة هذه الضَّيعة، أو يرجع مِن هذه السَّفرة، فلا يزال يسوِّف ويؤخِّر ولا يحرص في إتمام شغلٍ إلَّا ويتعلَّق بإتمام ذلك الشُّغل عشرة أشغالٍ، وهكذا على التَّدريج يؤخِّر يومًا بعد يومٍ، ويشتغل بشغلٍ بعد شغلٍ، إلى أنْ تختطفه المنيَّة في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأكثر صِياح أهل النَّار مِن «سوف» يقولون: واحسرتاه! مِن «سوف». وأصل هذه الأماني كلِّها حُبُّ الدُّنيا والأُنس بها، والغَفلة عن قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحبِبْ مَا شِئتَ فَإنَّكَ مُفارِقُهُ**»[(١)].

السَّبب الثَّاني: الجهل، وهو أنَّ الإنسان يعوِّل على شبابه، ويستبعد قُرب الموت مع الشَّباب، أَوَليس يتفكَّر المسكين في أنَّ مشايخ بلده لو عُدُّوا كانوا أقلَّ مِن العَشر؟ وإنَّما قَلُّوا؛ لأنَّ الموت في الشَّباب أكثرُ، وإلى أنْ يموت شيخٌ قد يموت ألف صبيٍّ وشابٍّ، وقد يغترُّ بصحَّته، ولا يدري أنَّ الموت يأتي فجأةً، وإنِ استبعد ذلك، فإنَّ المرض يأتي فجأةً، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكَّر وعَلِم أنَّ الموت ليس له وقتٌ مخصوصٌ مِن صيفٍ وشتاءٍ وربيعٍ وخريفٍ وليلٍ ونهارٍ، ولا هو مُقيَّدٌ بسِنٍّ مخصوصٍ مِن شابٍّ وشيخٍ أو كهلٍ أو غيره لَعَظُم ذلك عنده، واستعدَّ للموت.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (١٠٠٥٨)، والطَّبرانيُّ في «الصَّغير» (٧٠٤)، و«الأوسط» (٤٢٧٨)، وأبو نُعيمٍ في «الحلية» (٣/ ٢٠٢)، وقال الهيثميُّ في «مَجمَع الزَّوائد» (٣٥٢٩): رواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط»، وفيه زافر بن سليمانَ وثَّقه أحمدُ وابن معين وأبو داودَ، وتَكلَّم فيه ابن عديٍّ وابن حِبَّانَ بما لا يَضرُّ.

فَصْلٌ

والنَّاس مُتفاوِتون في طول الأمل تفاوتًا كثيرًا، منهم مَن يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم مَن لا ينقطع أمله بحالٍ، ومنهم مَن هو قصير الأمل، فرُوي عن أبي عثمانَ النَّهديِّ[١] أنَّه قال: بلغت ثلاثين ومائة سنةً، وما مِن شيءٍ إلاَّ قد عرفتُ فيه النُّقصان إلاَّ أملي فإنَّه كما هو.

وحُكي في قصر الأمل أنَّ امرأة حبيبِ أبي محمَّدٍ[٢] قالت: كان يقول لي -يعني أبا محمَّدٍ-: إنْ متُّ اليوم فأرسلي إلى فلانٍ يُغسِّلني، ويفعل كذا وكذا، واصنعي كذا، فقيل لها: أُرِي رؤيا؟ قالت: هكذا يقول كلَّ يومٍ.

وعن إبراهيمَ بن سبط قال: قال لي أبو زُرعةَ[٣]: لأَقولَنَّ لك قولاً ما قُلته لأَحدٍ سِواك: ما خرجتُ مِن المسجد منذ عشرين سنةً، فحدَّثتني نفسي أنْ أرجع إليه.

وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل مِن ذلك[٤].

وعن محمَّد بن أبي توبةَ قال: أقام معروفٌ الصَّلاة، ثُمَّ قال لي: تقدَّم. فقلت: إنِّي إنْ صلَّيتُ بكم هذه الصَّلاة لم أُصلِّ بكم غيرَها. فقال معروفٌ: أنتَ تُحدِّث نفسك أنَّك تصلِّي صلاةً أُخرى؟ نعوذ بالله مِن طول الأمل، فإنَّه يمنع خير العمل[٥].

---

(١) أبو عثمانَ النَّهديُّ عبد الرَّحمن بن مُلٍّ، حدَّث عن عمرَ، وعليٍّ، وابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهم، وحدَّث عنه قتادةُ، وعاصمٌ الأحول، وحميد الطَّويل، توفِّي (١٠٠). انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص٣٥١)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ١٧٥).

(٢) حبيبٌ العجميُّ أبو محمَّدٍ البصريُّ، روى عن الحسن البصريِّ، وشهر بن حوشبٍ، وغيرهما، وعنه حمَّاد بن سَلمةَ، وأبو عَوانةَ، وجعفر بن سليمانَ، وغيرهم. انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٦/ ١٤٣).

(٣) أبو زُرعةَ الرَّازيُّ، عبيد الله بن عبد الكريم، سمع مِن محمَّد بن سابقٍ، وقرَّةَ بن حبيبٍ، وأبي نعيم، وغيرهم، وحدَّث عنه أبو حفصٍ الفلَّاس، وحرملةُ بن يحيى، وإسحاقُ بن موسى الخطميُّ، وغيرهم، توفِّي سنة (٢٦٤). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (١٣/ ٦٥)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٤/ ١٩٤).

(٤) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ٢٧٠).

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٣٦١).

فهذه أحوال الزُّهَّاد في قِصَر الأمل، وكلَّما قَصُر الأمل جاد العمل؛ لأنَّه يُقدِّر أنْ يموت اليوم، فيستعدُّ استعداد ميتٍ، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السَّلامة، وقدَّر أنَّه يموت تلك اللَّيلة فيُبادر إلى العمل.

وقد ورد الشَّرع بالحثِّ على العمل والمبادرة إليه، ففي «صحيح البخاريِّ» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعمَتَانِ مَغبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لرجلٍ وهو يَعِظه: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»(٢).

وقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التُّؤدة في كلِّ شيءٍ خيرٌ، إلَّا ما كان مِن أمر الآخرة(٣).

وكان الحسن يقول: عجبًا لقومٍ أمروا بالزَّاد، ونُودي فيهم بالرَّحيل، وحُبس أوَّلهم على آخرهم، وهم قعودٌ يلعبون(٤).

وقال سحيم مولى بني تميمٍ: جلستُ إلى عبد الله بن عبد الله، فأوجز في صلاته، ثُمَّ أقبل عليَّ، وقال: أَرِحني بحاجتك، فإنِّي أُبادر. فقلت: وما تبادر؟ قال: مَلَك الموت. وكان يُصلِّي كلَّ يومٍ ألف ركعةٍ(٥).

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٤٩) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٧٦٧) والحاكم في «المستدرَك» (٨٧٤٦) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الحاكم على شرط الشَّيخَين، ووافقه الذَّهبيُّ.

(٣) رواه ابن أبي شيبةَ في «مصنَّفه» (٩٨) مِن قول عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه مِن قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيهقيُّ في «الكبرى» (٢٠٨٠٣)، وأبو يعلَى المَوصِليُّ في «مسنده» (٧٩٢)، والحاكم في «المستدرَك» (٢١٣)،، وقال الحاكم: على شرطهما. ووافقه الذَّهبيُّ.

(٤) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ١٦٥) ولكن من قول صالح المرِّيِّ.

(٥) ذكره الولوليُّ في «البحر المحيط الثَّجَّاج» (٣).

وكانوا يُبادرون بالأعمال غاية ما يُمكن، فكان ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقوم في اللَّيل، فيتوضَّأ، ويُصلِّي، ثُمَّ يغفي إغفاءَ الطَّير، ثُمَّ يقوم، فيتوضَّأ، ويُصلِّي، ثُمَّ يغفي إغفاءَ الطَّير، ثُمَّ يقوم، فيتوضَّأ، ويُصلِّي، يفعل ذلك مِرارًا(١).

وكان عمير بن هانئٍ(٢) يُسبِّح كلَّ يومٍ مائة ألف تسبيحةٍ(٣).

وقال أبو بكر بن عيَّاشٍ(٤): ختمتُ القرآن في هذه الزَّاوية ثمانيةَ عشرَ ألف ختمةٍ(٥).

فَصْلٌ فِي ذِكْرِ شِدَّةِ المَوْتِ وَمَا يُسْتَحَبُّ مِنَ الأَحْوَالِ عِنْدَهُ

اعلم أنَّه لو لم يكن بين يدَي العبد المسكين كربٌ ولا هولٌ سِوى الموت لَكان جديرًا أنْ يتنغَّص عليه عيشه، ويتكدَّر عليه سروره، وتطول فيه فِكرته، والعَجب أنَّ الإنسان لو كان في أعظم اللَّذَّات، فانتظر أنْ يدخلَ عليه جنديٌّ يضربه خمس ضرباتٍ، لكدَّرت عليه عيشه ولذَّته، وهو في كلِّ نَفَسٍ بصدد أنْ يدخل عليه مَلَك الموت بسَكَرات النَّزع، وهو غافلٌ عن ذِكر ذلك، وليس لهذا سببٌ إلَّا الجهل والغرور.

---

(١) ذكره المروزيُّ في «مختصَر قيام اللَّيل» (ص٤٦).

(٢) عُمير بن هانئٍ العنسيُّ الدَّارانِيُّ، أبو الوليد، تابعيٌّ، مِن رِجال الدَّولة الأُمويَّة. مِن أهل داريًا بالشَّام، استنابه الحجَّاج على الكوفة، وولي خراج دمشقَ لعمر بن عبد العزيز، ولمَّا ولي الوليد بن يزيدَ اتُّهم عميرٌ بالتَّحريض على قتله، ولمَّا ثار أهل الغوطة على مروانَ بن محمَّدٍ، وولَّوا عليهم يزيدَ بن خالدٍ القسريَّ، وحاصروا دمشقَ، كان عميرٌ مِن كبارهم، وقُتل صبرًا مع يزيدَ بن خالدٍ على أبواب دمشقَ، وحُمل رأسه على رمحٍ إلى مروانَ بن محمَّدٍ، وكان بحمصَ، توفِّي سنة (١٢٧). انظر «تاريخ الإسلام»، الذَّهبيُّ، (٥/ ١١٩)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٥/ ٨٩).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٤١٥).

(٤) أبو بكر بن عيَّاش بن سالمٍ الأسديُّ، حدَّث عن عاصمٍ، وأبي إسحاقَ السَّبيعيِّ، وعبد الملك بن عمير، وغيرهم، وحدَّث عنه ابن المبارك، والكِسائيُّ، ووكيعٌ، وغيرهم، توفِّي سنة (١٩٣). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٨/ ٤٩٥).

(٥) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٨/ ٣٠٤).

اعلم أنَّ الموت أَشدُّ مِن ضرب السَّيف، وإنَّما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوَّته، وأمَّا الميت عند موته فإنَّه يَنقطع صوته مِن شِدَّة ألمه؛ لأنَّ الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه، وعلى كلِّ موضِعٍ منه، وضعفت كلُّ جارحةٍ فيه، فلم يبقَ فيه قوَّةٌ لاستغاثةٍ، ويودُّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصِّياح والاستغاثة، وتُجذَب الرُّوح مِن جميع العُروق، ويموت كلُّ عضوٍ مِن أعضائه تدريجًا، فتبرد أوَّلًا قدماه، ثُمَّ ساقاه، ثُمَّ فَخِذاه، حتى تبلغ الحُلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدُّنيا وأهلها، ويُغلق دونه باب التَّوبة، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يَقبَلُ التَّوبَةَ مِنَ العَبدِ مَا لَم يُغَرْغِرْ**»(١).

وقد رُوي أنَّ المَلَكَين المُوكلَين بالعبد يتراءيان له عند الموت، فإنْ كان صالحًا أثنيا عليه، وقالا: جزاكَ الله خيرًا. وإنْ كان صَحِبهما بِشَرٍّ قالا: لا جزاك الله خيرًا.

عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ** عَزَّ وَجَلَّ **وَكَّلَ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مَلَكَيْنِ يَكْتُبَانِ عَمَلَهُ، فَإِذَا مَاتَ قَالَ: قَدْ مَاتَ، أَتَأْذَنُ لنا أَنْ نَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **إِنَّ سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلَائِكَتِي يُسَبِّحُونِي. فَيَقُولَانِ** [ص:٩٨٠]: **فَتَأْذَنُ لَنَا فَنُقِيمُ فِي الْأَرْضِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **أَرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلْقِي يُسَبِّحُونِي. فَيَقُولَانِ: فَأَيْنَ نُقِيمُ؟ فَيَقُولُ: قُومَا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي، فَسَبِّحَانِي وَاحْمَدَانِي، وَكَبِّرَانِي، وَهَلِّلانِي، وَاكْتُبَا ذَلِكَ لِعَبْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(٢).

وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث عُبادةَ بن الصَّامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ المُؤمِنَ إذا حَضَرَهُ المَوتُ بُشِّرَ بِرِضوانِ اللهِ وَكَرامَتِه، فَلَيسَ شَيءٌ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا أَمامَهُ، وَأَمَّا صَاحِبُ النَّارِ الذي خُتِمَ لَه بِسُوءٍ فَهو يُبَشَّرُ بِها، وهو في تِلكَ الأَهوَالِ**»(٣).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٣٧)، وأحمدُ (٦١٦٠) عن عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (٥٠٣)، وقال المتقي الهندي في كنز العمال (٤٢٩٧٦): رواه المروزيُّ في «الجنائز»، وأبو بكرٍ الشَّافعيُّ في «الغيلانيَّات»، وأبو الشَّيخ في «العظمة»، والبيهقيُّ في «الشُّعب»، والدَّيلميُّ، وأورده ابن الجوزيِّ في «الموضوعات» فلم يُصِبْ.

(٣) رواه بمعناه مختصَرًا البخاريُّ (٦١٤٢)، ومسلمٌ (٢٦٨٣).

وقد كان كثيرٌ مِن السَّلف يَخافون سوء الخاتمة، وقد ذَكَرنا ذلك في كتاب الخوف، وهو لائقٌ بهذا المكان، نسأل الله الكريم أنْ يرحمَنا برحمته التي وَسعت كلَّ شيءٍ، وأنْ يلطف بنا، وأنْ يختم لنا بخيرٍ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

وأمَّا ما يُستحبُّ مِن الأحوال عند المُحتضِر فأنْ يكونَ قلبه يُحسن الظَّنَّ بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشَّهادة، والسُّكون مِن علامات اللُّطف، وهو أَمارةٌ على أنَّه قد رأى الخير، وقد رُوي أنَّ روح المؤمن تخرج رشحًا، ويُستحَبُّ تلقينه: لا إله إلَّا الله كما جاء في الحديث الصَّحيح مِن رواية مسلمٍ: «**لَقِّنُوا مَوتَاكُم لا إلَهَ إلَّا اللهُ**»(١).

وينبغي للمُلقِّن أنْ يَرفق به، ولا يُلحَّ عليه، وقد جاء في حديثٍ آخَرَ: «**احْضَرُوا مَوْتَاكُمْ وَلَقِّنُوهُمْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَبَشِّرُوهُمْ بِالْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْحَلِيمَ الْعَلِيمَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يَتَحَيَّرُ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَصْرَعِ، وَإِنَّ إِبلِيسَ عَدُوَّ اللهِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ العَبدِ في ذَلِكَ المَوطِنِ**»(٢)، وذَكَر الحديث إلى آخره.

وفي الحديث الصَّحيح: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إلَّا وَهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ**»(٣).

ورُوي أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ دخل على رَجلٍ وهو يموت فقال: «**كَيفَ تَجِدُكَ؟**» قال: أرجو الله، وأخاف ذُنوبي. فقال: «**مَا اجتَمَعَا في قَلبِ عَبدٍ في مِثلِ هَذَا المَوطِنِ إلَّا أَعطَاهُ اللهُ الذي يَرجُو، وأَمَّنَهُ مِنَ الذي يَخَافُ**»(٤).

---

(١) رواه مسلمٌ (٩١٦) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٢) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٥/ ١٨٦) عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنهُ.

(٣) رواه مسلمٌ (٢٨٧٧) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، والنَّسائيُّ في «عمل اليوم واللَّيلة» (١٠٦٢)، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ غريبٌ، وقد روى بعضهم هذا الحديث، عن ثابتٍ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مُرسَلًا. وقال العراقيُّ في «المغني» (٨/ ٢٧٣): رواه التِّرمذيُّ، وقال: غريبٌ، والنَّسائيُّ في «الكبرى»، وابن ماجه مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وقال النَّوويُّ: إسناده جيِّدٌ.

والرَّجاء عند الموت أفضلُ؛ لأنَّ الخوف سوطٌ يُساق به، وعند الموت يقف البصر، فينبغي أنْ يتلطَّف به، ولأنَّ الشَّيطان يأتي حينَئذٍ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه، ويخوِّفه فيما بين يدَيه، فحُسن الظَّنِّ أَقوى سلاحٍ يُدفع به العدوُّ، وقال سليمانُ التَّيميُّ لابنه عند الموت: يا بُنيَّ حدِّثني بالرُّخص، لعلِّي ألقى الله تعالى، وأنا أُحسن الظَّنَّ به.

باب ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

اعلم أنَّ في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوةٌ حَسنةٌ في كلِّ أحواله، ومعلومٌ أنَّه ليس في المخلوقِين أَحدٌ أَحبَّ إلى الله تعالى منه، ولم يُؤخِّره الله تعالى حين انقضى أجله.

وقد لقي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن الموت شِدَّةً، فروى البخاريُّ في «صحيحه» مِن حديث عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان بين يدَي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركوةٌ أو علبةٌ فيه ماءٌ، فجَعل يُدخل يده في الماء، فيَمسح بها وجهه، ويقول: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ، إنَّ لِلمَوتِ لَسَكَرَاتٍ**»[1].

وفي «صحيح البخاريِّ» مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لمَّا ثقل النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جعل يتغشَّاه الكَرب، فقالت فاطمةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: واكرب أبتاه! فقال لها: «**لَيسَ عَلى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعدَ اليَومِ**»[2].

وروى ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اجتمعنا في بيت عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فنظر إلينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدمعت عيناه، فنعى إلينا نفسه، وقال: «**مَرحَبًا، حَيَّاكُمُ اللهُ بِالسَّلامِ، حَفِظَكُمُ اللهُ، رَعَاكُمُ اللهُ، جَمَعَكُمُ اللهُ، نَصرَكُمُ اللهُ، وَفَّقَكُمُ اللهُ، نَفَعَكُمُ اللهُ، رَفَعَكُمُ اللهُ، سَلَّمَكُمُ اللهُ، أُوصِيكُمْ بِتقوَى اللهِ، وَأُوصِي اللهَ بِكُم، وَأَستَخلِفُهُ عَلَيكُمْ**». قلنا: يا رسول الله، متى أجلك؟ قال: «**قَد دَنَا الأَجَلُ، وَالمُنقَلَبُ إلى اللهِ، وَإلى سِدرَةِ المُنتَهى، وَجَنَّةِ المَأْوَى، وَالفِردَوسِ الأَعلَى**». قلنا: يا رسول الله، ففيم نُكفِّنك؟ قال: «**في ثِيابِي هَذِهِ إنْ شِئتُمْ، أَو يَمِنيَّةٍ، أو بيَاضٍ**». فقلنا: يا رسول الله، مَن يُصلِّي عليك؟ وبكينا، فقال: «**مَهلًا، رَحِمَكُمُ اللهُ، وَجَزاكُم عن نَبِيِّكُم خَيرًا، إذا غَسَلتُمُونِي وَكَفَّنتُمُونِي، فَضَعُونِي**

(١) رواه البخاريُّ (٤١٤٥).

(٢) رواه البخاريّ (٤١٩٣).

عَلى سَرِيرِي هَذا عَلى شَفِيرِ قَبرِي، ثُمَّ اخرُجُوا عنِّي ساعَةً، فَإِنَّ أَوَّلَ مَن يُصَلِّي عَلَيَّ خَلِيلي وحَبِيبِي جِبريلُ، ثُمَّ مِيكَائِيلُ، ثُمَّ إسرَافِيلُ، ثُمَّ مَلَكُ المَوتِ، ثُمَّ مَلائِكَةٌ كَثِيرَةٌ، ثُمَّ ادخُلُوا عَلَيَّ فَوجًا فَوجًا، فَصَلُّوا عَلَيَّ وسَلِّمُوا تَسلِيمًا، ولا تُؤذُونِي بِتَذكِيَةٍ، وَلا بِرَنَّةٍ، وَلا بِصَيحَةٍ، وَلْيَبدَأْ بِالصَّلَاةِ عَلَيَّ رِجالُ أَهلِ بَيتِي، ثُمَّ نِساؤُهُم، ثُمَّ أَنتُم بَعدُ، واقرَؤُوا السَّلامَ عَلَى مَن غَابَ عنِّي مِن أَصحابِي، وَعَلى مَن تابَعَنِي عَلَى دِينِي إلى يَومِ القِيامَةِ، أَلَا وإِنِّي أُشهِدُكُم أَنِّي قَد سَلَّمتُ عَلى كُلِّ مَن دَخَلَ في الإِسلَامِ»(١).

ولقد دخل عليه جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبل موته بثلاثة أيَّام فقال: يا أحمدُ؟ إنَّ الله أرسلني إليك يسألني عمَّا هو أعلمُ به منك، يقول: كيف تجدكَ؟ فقال: «أَجِدُنِي يَا جِبرِيلُ مَغمُومًا، وَأَجِدُنِي يَا جِبرِيلُ مَكرُوبًا». ثُمَّ أتاه في اليوم الثَّاني فأعاد الكلام، وأعاد عليه الجواب، ثُمَّ جاءه في اليوم الثَّالث، وأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الجواب، فإذا مَلَك الموت يستأذن، فقال جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا أحمدُ، هذا مَلَك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدميٍّ قَبلك، ولا يستأذن على آدميٍّ بعدك. فقال: «ائذَنْ لَهُ». فدخل، فوقف بين يدَيه، وقال: إنَّ الله أرسلني إليك، وأَمَرني أنْ أُطيعك، فإنْ أمرتني أنْ أقبض نفسك قبضتُها، وإنْ أمرتَني أنْ أتركها تركتها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَتَفعَلُ يَا مَلَكَ المَوتِ». قال: كذلك أُمرت أنْ أطيعك. فقال جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا أحمدُ، إنَّ الله قد اشتاق إليك. فقال: «فامضِ لِمَا أُمِرتَ بِهِ يَا مَلَكَ المَوتِ». فقال جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: السَّلام عليكَ يا رسول الله، هذا آخِر موطِني في الأرض، إنَّما كنتَ حاجتي مِن الدُّنيا(٢).

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٤/ ٧٣)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٢٦٧٦)، و«الأوسط» (٣٩٩٦)، وقال العراقيُّ في «المغني» (٩/ ٣٧٦): رواه ابن سعدٍ في «الطَّبقات» عن محمَّد عن عمرَ وهو الواقديُّ بإسنادٍ ضعيفٍ إلى ابن عوفٍ، عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مُرسَلٌ ضعيفٌ.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٨٩٠) قال العراقيُّ في «المغني» (٤/ ٤٧٣) رواه الطَّبرانيُّ، وهو مُنكَرٌ فيه عبد الله بن ميمون القدَّاح قال البخاريُّ: ذاهب الحديث.

فتُوفِّي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُستنِدًا إلى صدر عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في كساءٍ مُلبَّدٍ، وإزارٍ غليظٍ. وقامت فاطمةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تندب وتقول: يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه، جَنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريلَ ننعاه، يا أبتاه، مِن ربِّه ما أدناه. فلمَّا دُفِن قالت: يا أنسُ أَطابت أنفسكم أنْ تَحثوا التُّراب على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)؟

وقال أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:(٢)

لَمَّا رَأيتُ نبيَّنا مُتجدِّلًا ... ضَاقَتْ عَليَّ بِعَرضِهِنَّ الدُّورُ
وَارتَعتُ رَوعَةَ مُستَهامٍ والِهٍ ... وَالعَظمُ مِنِّي وَاهِنٌ مَكسُورُ
أَعتِيقُ وَيحَكَ إنَّ حِبَّكَ قَد ثَوَى ... وَبَقِيتَ مُنفَرِدًا وَأَنتَ حَسِيرُ
يَا لَيتَنِي مِن قَبلِ مَهْلِكَ صَاحِبِي ... غُيِّبْتُ في جَدَثٍ عَلَيَّ صُخُورُ

وَفَاةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

روى أبو المليح(٣) أنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمَّا حضرته الوفاة أرسل إلى عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: إنِّي أُوصيك بوصيةٍ، إنْ أنتَ قَبلتَ عني: إنَّ لله عَزَّ وَجَلَّ حقًّا باللَّيل لا يَقبله بالنَّهار، وإنَّ الله حقًّا بالنَّهار لا يقبله باللَّيل، وإنَّه لا يَقبل النَّافلة حتى تُؤدَّى الفريضة، وإنَّما ثَقُلت موازين مَن ثَقُلت موازينه في الآخرة باتِّباعهم الحقَّ في الدُّنيا، وثَقُل ذلك عليهم، وحُقَّ لميزانٍ يُوضَع فيه الحقُّ أنْ يكونَ ثقيلًا، وإنَّما خَفَّت موازين مَن خفت

---

(١) تقدَّم تخريجه في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيسَ عَلى أَبيكِ كَربٌ بَعدَ اليَومِ».
(٢) ذكرها النُّويريُّ في «نهاية الأرب» (١٨/ ٤٠٠).
(٣) أبو المليح بن أسامةَ بن عميرٍ الهذليُّ، حدَّث عن أبيه، وعن عائشةَ، وعوف بن مالكٍ الأشجعيِّ، وغيرهم، وروى عنه قتادةُ، وأيُّوبُ، وخالدُ الحَذَّاء، وغيرهم، توفِّي سنة (١١٢). انظر «تقريب التَّهذيب»، ابن حجر، (ص٦٧٥)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٥/ ٩٥).

موازينه في الآخرة باتِّباعهم الباطل، وخِفَّته عليهم في الدُّنيا، وحُقَّ لميزانٍ يُوضع فيه الباطل أنْ يكونَ خفيفًا.

ألم ترَ أنَّ الله أنزل آية الرَّجاء عند آية الشِّدَّة، وآية الشِّدَّة عند آية الرَّجاء؛ ليكون العبد راغبًا راهبًا لا يُلقي بيدَيه إلى التَّهلُكة، ولا يتمنَّى على الله غير الحقِّ، فإنْ أنتَ حَفِظتَ وصيَّتي هذه، فلا يَكونَنَّ غائبٌ أَحبُّ إليكَ مِن الموت، ولا بدَّ لكِ منه، وإنْ أنتَ ضيَّعت وصيَّتي هذه فلا يكونَنَّ غائبٌ أبغضَ إليك مِن الموت، ولا بدَّ لك منه، ولستَ تعجزه.

وقيل: لمَّا احتضر جاءت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فتمثَّلت بهذا البيت:

لَعَمْـرُكَ مـا يُغنـي الثَّـراءُ عـن الفَتـى إذا حَشْـرَجَتْ يَومًـا وَضَـاقَ بِهـا الصَّـدْرُ[1]

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩]، انظروا ثوبَيَّ هذَين، فاغسلوهما، وكفِّنوني فيهما، فإنَّ الحيَّ أحوج إلى الجديد مِن الميت.

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وعن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رأس عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حِجري بعدما طُعن، وكان مرضه الذي توفِّي فيه، فقال: ضع خدِّي على الأرض. فقلتُ: وما عليكَ إنْ كان في حِجري أم على الأرض؟ وظننتُ أنَّ ذلك تبرُّمٌ به، فلم أفعل، فقال: ضع خدِّي على الأرض لا أمَّ لك، ويلي وويل أمِّي إنْ لم يرحمني ربِّي[2].

ورُوي أنَّه لَمَّا طُعن وحُمل إلى بيته، وجاء النَّاس يُثنون عليه، جاء رجلٌ شابٌّ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببُشرى الله لك، صُحبةٌ مِن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَدَمٌ في

---

(١) الحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردد النفس. «لسان العرب» مادة (حشرج).
(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١/ ٥٢).

الإسلام ما قد علمتَ، ثُمَّ وُلِّيتَ فعَدلتَ، ثُمَّ شهادةٌ. فقال: وددتُ أنَّ ذلك كان كفافًا، لا لي ولا عليَّ. ثُمَّ قال: يا عبد الله بن عمرَ، انطلق إلى عائشةَ أمِّ المؤمِنِين رَضِيَ اللَّهُ عَنها، فقل: عمرُ يقرأ عليكِ السَّلام، ولا تقل: أمير المؤمِنِين، فإنِّي لستُ اليوم للمؤمِنِين أميرًا، وقل: يستأذن عمرُ بن الخطَّاب أنْ يُدفَن عند صاحبَيه. فمضى، وسلَّم، واستأذن عليها، ثُمَّ دخل، فوجدها قاعدةً تبكي، فقال: عمرُ يَقرأ عليك السَّلام، ويستأذن أنْ يُدفَن عند صاحبَيه. فقالتْ: كنتُ أُريده لنفسي، ولَأُوثِرَنَّه اليوم على نفسي. فلمَّا أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمرَ قد جاء، قال: ارفعوني. فأسنده رَجلٌ إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تُحبُّ يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد لله، ما كان شيءٌ أَحبَّ إليَّ مِن ذلك، فإذا أنا متُّ فاحملوني، ثُمَّ سلِّم، وقل: يستأذن عمرُ بن الخطَّاب، فإنْ أَذنتْ، فأدخلوني، وإنْ ردَّتْني، فرُدُّوني إلى مقابر المسلمين[١].

وفي أفراد مسلمٍ مِن حديث المسور بن مخرمةَ، أنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: والله لو أنَّ لي طِلاع الأرض[٢] ذهبًا، لَافتديت به مِن عذاب الله قَبل أنْ أراه[٣].

وفي حديثٍ آخَرَ: والله لو أنَّ لي ما طلعت عليه الشَّمس أو غربت لَافتديتُ به مِن هذا المطلَع.

وَفَاةُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ

عن نائلةَ بنت الفرافصة[٤] امرأةِ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قالت: لَمَّا كان اليوم الذي قُتل فيه عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، ظلَّ في اليوم الذي قَبله صائمًا، فلمَّا كان عند إفطاره، سألهم الماء

(١) رواه البيهقيُّ في «الكبرى» (٧٠٨٢)، ورواه مختصرًا البخاريُّ (١٣٢٨).

(٢) طلاع الأرض ملؤها حتى يطلع أعلاه أعلاها فيساويها. «لسان العرب» مادة (ط ل ع)

(٣) الحديث مِن أفراد البخاريِّ، وليس مِن أفراد مسلمٍ كما ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فقد رواه البخاريُّ (٣٤٨٩) عن مسور بن مخرمة.

(٤) نائلةُ بنت الفَرافِصة بن الأحوص الكلبيَّة، زوجة أمير المؤمنين عثمانَ بن عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، كانت=

العَذْب فلم يُعطوه، فنام، ولم يُفطِر، فلمَّا كان وقت السَّحَر أَتيتُ جاراتٍ لي على أجاجير متَّصِلةٍ، فسألتهم الماء العَذْب، فأعطوني كُوزًا مِن ماءٍ، فأتيتُه، فحركتُه، فاستيقظ، فقلتُ: هذا ماءٌ عَذْبٌ. فرفع رأسه فنظر إلى الفجر، فقال: إنِّي قد أصبحتُ صائمًا، وإنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اطَّلع عليَّ مِن هذا السَّقف ومعه ماءٌ عَذبٌ، فقال: «اشرب يا عثمانُ». فشربتُ حتى رويتُ، ثُمَّ قال: «ازدد». فشربتُ حتى نهلتُ، ثُمَّ قال: «إنَّ القوم سيُنكِرون عليكَ، فإنْ قاتلتَهم ظفرتَ، وإنْ تركتَهم أفطرتَ عندنا». قالت: فدخلوا عليه مِن يومه فقتلوه[١].

وعن العلاء بن الفضيل، عن أبيه، قال: لمَّا قُتل عثمانُ بن عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فتَّشوا خزانته، فوجدوا فيها صندوقًا مُقفَلًا، ففتحوه، فوجدوا فيه حقَّةً فيها ورقةٌ مكتوبٌ فيها: هذه وصيَّة عثمانَ، بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، عثمانُ بن عفَّانَ يشهد أنْ لا إلهَ إلَّا الله وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأنَّ الجنَّة حقٌّ، وأنَّ النَّار حقٌّ، وأنَّ الله يَبعث مَن في القبور ليومٍ لا ريبَ فيه، إنَّ الله لا يُخلف الميعاد، عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نُبعث إنْ شاء الله تعالى[٢].

وفاة عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

عن الشَّعبيِّ قال: لمَّا ضُرب عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تلك الضَّربة، قال: ما فُعِل بضاربي؟ قالوا: أخذناه، قال: أطعموه مِن طعامي، وأسقوه مِن شرابي، فإنْ أنا عِشتُ رأيتُ فيه رأيي، وإنْ أنا متُّ فاضربوه ضربةً واحدةً، لا تزيدوه عليها[٣]. ثُمَّ أوصى الحسن أنْ يغسله،

= خطيبةً، شاعرةً، مِن ذوات الرَّأي والشَّجاعة، ولها مواقفُ بعد حِصار عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. انظر «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٧/ ٣٤٢).

(١) ذكره المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٣٦٢٩٥) ونسبه إلى ابن منيعٍ، وابن أبي عاصمٍ.

(٢) ذكره المتَّقي الهنديُّ في «كنز العمَّال» (٣٦٣٣٩) ونسبه إلى ابن عساكر.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «مقتل عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» (٢٣).

وقال: لا تُغالي في الكفن، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا تُغَالُوا في الكَفَنِ، فَإِنَّهُ يُسلَبُ سَلْبًا سَرِيعًا**»[١]. امشوا بي المشيتَين، لا تُسرعوا بي، ولا تُبطئوا، فإنْ كان خيرًا عجَّلتُموني إليه، وإنْ كان شَرًّا ألقيتموني عن [أعناقكم][٢].

ورُوي أنَّه لمَّا كانت اللَّيلة التي أُصيب فيها عليٌّ رضي الله عنه أتاه ابن السَّياج حين طلع الفجر يُؤذنه بالصَّلاة وهو مُضطجِعٌ مُتثاقِلٌ، فعاد الثَّانية وهو كذلك، ثُمَّ عاد فقام يمشي وهو يقول:

اشْدُدْ حَيازَيمَكَ لِلمَوتِ ... فَإنَّ المَوتَ لَاقِيكَ
وَلا تَجزَعْ مِنَ المَوتِ ... وإنْ حَلَّ بِنَادِيكَ

فلمَّا بلغ الباب الصَّغير شَدَّ عليه عبد الرَّحمن بن مُلجمٍ، فضَرَبه[٣].

ذِكرُ كلماتٍ نُقِلَت عن جماعةٍ عِندَ موتِهم مِنَ الصَّحابةِ وغيرِهم وذِكرُ زيارةِ القبورِ ونحوُ ذلك

لمَّا نزل الموت بالحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: أَخرجوا فِراشي إلى صحن الدَّار. فأُخرج، فقال: اللَّهمَّ إنِّي أحتسب نفسي عندك، فإنِّي لم أُصَب بمثلها[٤].

وقد ذَكَرنا ما تقدَّم مِن كلام الخُلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

ورُوي أنَّ معاذ بن جبلٍ لمَّا حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأُتي، فقيل: لَم تُصبح. حتى أُتي في بعض ذلك، فقيل له: قد أَصبحنا. فقال: أعوذ بالله مِن ليلةٍ

---

(١) روى حديث الكفن أبو داودَ (٣١٥٤) عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.
(٢) ورد في " المطبوع " [أكتافكم].
(٣) ذكره السيوطي في الجامع الكبير (٢٣٤٧) وعزاه إلى ابن عساكر.
(٤) رواه ابن أبي الدُّنيا في «محاسبة النَّفس» (١٢٣).

صباحها إلى النَّار. ثُمَّ قال: مرحبًا بالموت زائرٌ مُغيَّبٌ، وحبيبٌ جاء على فاقةٍ، اللَّهمَّ إنِّي كنتُ أخافكَ، وأنا اليوم أرجوكَ، اللَّهمَّ إنَّك تعلم أنِّي لم أكن أُحبُّ الدُّنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشِّتاء، ومُكابَدة السَّاعات، ومُزاحَمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذِّكر(١).

وقال أبو مسلمٍ: جئتُ أبا الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يجود بنفسه، ويقول: ألَا رجلٌ يَعمل لِمِثل مصرعي هذا؟ ألَا رجلٌ يعمل لمِثل يومي هذا؟ ألَا رجلٌ يعمل لمِثل ساعتي هذه؟ ثُمَّ قُبض رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

وبكى سلمانُ الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موته، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: عَهِد إلينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يكونَ زادُ أحدنا كزاد الرَّاكب، وحولي هذه الأزواد(٣). وقيل: إنَّما كان حوله إجَّانَة وجَفنَة ومطهرة.

وروى المزنِي قال: دخلتُ على الشَّافعيِّ في مرضه الذي مات فيه، فقلتُ له: كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ مِن الدُّنيا راحلًا، وللإخوان مُفارِقًا، ولسُوء عَملي مُلاقيًا، ولكأس المنيَّة شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدري أرُوحي تصير إلى الجَنَّة فأهنِّئها، أم إلى النَّار فأُعزِّيها، ثُمَّ أنشأ يقول:(٤)

ولمَّـا قَسَـا قَلبِـي وضاقَـتْ مَذاهِـبِـي ... جَعَلْـتُ الرَّجَـا مِنِّـي بِعَفْـوِكَ سُـلَّما

تَعاظَمَنِـي ذَنبِـي فَلمَّـا قَرَنْتُـهُ ... بعَفـوِكَ رِبِّـي كَانَ عفُـوكَ أَعظَمـا

وَمَا زِلـتَ ذا عَفـوٍ عَنِ الذَّنـبِ لَـم تزَلْ ... تَجُـودُ وَتَعفُـو مِنَّـةً وَتَكَرُّمـا

---

(١) رواه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (١/ ٢٣٩).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٩٧).

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٩١١).

(٤) ذكره القاري في «مرقاة المفاتيح» (١/ ٢٣).

قيل: كان أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك، فقال: أَجلس إلى قومٍ يُذكِّروني مَعادي، وإنْ غِبتُ لم يغتابوني.

وقال ميمون بن مهرانَ: خرجت مع عمرَ بن عبد العزيز إلى المقبرة، [فلمَّا نظر إلى القبور بكى، ثُمَّ أَقبل عليَّ فقال: يا ميمونُ، هذه قبور آبائي بني أمَّيَة، كأنَّهم لم يُشاركوا أهل الدُّنيا في لذَّاتهم وعيشهم، أَمَا تراهم صرعَى قد حلَّت بهم المَثُلات، واستحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوامُّ مَقيلًا في أبدانهم؟ ثُمَّ بكى وقال: والله ما أعلم أَحدًا أنعمَ ممَّن صار إلى هذه القبور، وقد أَمِن مِن عذاب الله تعالى[١].

وتُستحبُّ زيارة القبور، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**زُورُوا القُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِـرَةَ**»[٢]. ومَن زار قبرًا فلْيستقبِل وجه الميت، ولْيقرأ شيئًا مِن القرآن ويهديه له، ولْتكن الزِّيارة يوم الجمعة.

وقد رُوي أنَّه لَمَّا مات عاصم الجحدريُّ[٣] رآه رجلٌ مِن أهله في المنام بعد موته بسنتَين فقال له: ألستَ قد مت؟ قال: بلى، قال: وأين أنتَ؟ قال عاصمٌ: أنا والله في روضةٍ مِن رياض الجَنَّة، أنا ونفرٌ مِن أصحابي، نجتمع كلَّ ليلة جمعةٍ وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزنيِّ نتلاقى أخباركم، قال: قلتُ له: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! بليت الأجسام، وإنَّما تتلاقى الأرواح، قلتُ: فهل تعلمون بزيارتنا إيَّاكم؟

---

(١) رواه الدُّولابيُّ في «الكنى والأسماء» (٥٥٩).

(٢) رواه ابن ماجه (١٥٦٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٧٨)، ورواه بمعناه مسلمٌ (٩٧٧)، وأبو داودَ (٣٢٣٥) والتِّرمذيُّ (١٠٥٤).

(٣) عاصم بن العجاج الجحدريُّ، أبو المجشر، مِن عبَّاد أهل البصرة وقُرائهم، أخذ القراءة عرضًا عن سليمان بن قتةَ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقرأ أيضًا على نصر بن عاصمٍ والحسن، وقرأ عليه عرضًا أبو المنذر سلام بن سليمانَ، وعيسى بن عمرَ الثَّقفيُّ، وروى عنه الحروف أحمد بن موسى اللُّؤلؤيُّ، وهيثم بن الشداخ، مات سنة (١٢٩). انظر «غاية النِّهاية في طبقات القرَّاء»، ابن الجوزيِّ، (١/ ٣٤٩)، «مشاهير علماء الأمصار»، أبو حاتمٍ البستيُّ، (ص١٥٢).

قال: نعلم بها عشيَّة الجمعة، ويوم الجمعة كلَّه، ويوم السَّبت إلى طلوع الشَّمس. قلتُ: وكيف ذلك دون الأيام كلِّها؟ قال: لشرف يوم الجمعة وعِظَمه[(١)].

وحكى عثمان بن سواد الطَّفاويُّ وكانت أمُّه مِن العابدات، وكان يُقال لها: راهبة. قال: لمَّا احتضرت رفعت رأسها إلى السَّماء، وقالت: يا ذُخري، ويا ذَخيرتي، ومَن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مماتي، لا تخذلني عند الموت، ولا تُوحشني في قبري، قال: فماتت، فكنتُ آتيها كلَّ جمعةٍ وأدعو لها، وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتُها ليلةً في منامي فقلت لها: يا أماه، كيف أنتِ؟ قالت: يا بُني، إنَّ الموت لكربٌ شديدٌ، وأنا بحمد الله في برزخٍ محمودٍ، يُفترش فيه الرَّيحان، ويُتوسَّد فيه السُّندس والإستبرق إلى يوم النُّشور، فقلتُ: ألكِ حاجةٌ؟ قالت: نعم، لا تدع ما كنتَ تصنع مِن زيارتنا، فإنِّي لَأسرُّ بمجيئكَ يوم الجمعة إذا أقبلتَ مِن أهلك، فيُقال لي: يا راهبةُ، هذا ابنك قد أقبل، فأُسرُّ ويُسرُّ بذلك مَن حولي مِن الأموات[(٢)].

وعن أنس بن منصورٍ قال: كان رجلٌ يختلف إلى الجنائز، فيشهد الصَّلاة عليها، فإذا أمسى وقف على باب المقابر، فقال: آنَسَ الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن سيِّئاتكم، وقَبِل حسناتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال ذلك الرَّجل: فأمسيتُ ذات ليلةٍ، ولم آتِ المقابر فأدعو كما كنتُ أدعو، فبينا أنا نائمٌ إذا أنا بخَلْقٍ كثيرٍ قد جاؤوني، فقلتُ: مَن أنتم؟ وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، إنَّك كنتَ عوَّدتَنا منكَ هديَّةً، فقلتُ: وما هي؟ قالوا: الدَّعوات التي كنتَ تدعو بها، قلت: فإنِّي أعود لذلك. فما تركتُها بعد[(٣)].

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٨٨٦١).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٧٩٠٦).

(٣) رواه الشِّيرازيُّ في «شد الإزار» (١/ ٣٥).

وقال بشار بن غالبٍ: رأيتُ رابعةَ[1] في منامي، وكنتُ كثير الدُّعاء لها، فقالت لي: يا بشارُ، هداياك تأتينا على أطباقٍ مِن نورٍ، مخمَّرةً بمناديل الحرير. قلتُ: وكيف ذلك؟ قالت: هكذا دعاء الأحياء إذا دعَوا للموتى، واستُجيب لهم، جُعل ذلك الدُّعاء على أطباق النُّور، وخُمِّر بمناديل الحرير، ثُمَّ أُتي به إلى الذي دُعي له مِن الموتى، فقيل له: هذه هديَّة فلان إليك][2].

فَصْلٌ

والذي تدلُّ عليه الآيات والأخبار أنَّ حقيقة الموت هو مفارَقة الرُّوح للجسد، وأنَّ الرُّوح تكون بعد ذلك باقيةً، إمَّا معذَّبةً أو منعَّمةً، فإنَّ الرُّوح قد تتألَّم بنفسها بأنواع الحزن والغمِّ، وتتنعَّم بأنواع الفرح والسُّرور مِن غير تعلُّق لها بالأعضاء، فكلُّ ما هو وصفٌ للرُّوح بنفسها يبقى معها بعد مفارقة الجسد، وكلُّ ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطَّل بموت الجسد إلى أنْ تُعاد الرَّوح إلى الجسد، ولا يَبعد أنْ تُعاد الرُّوح إلى الجسد في القبر، ولا يَبعد أنْ تُؤخَّر إلى يوم البعث، والله سبحانه أعلمُ بما حَكَم به على كلِّ عبدٍ مِن عباده.

فمعنى الموت انقطاع تصرُّف الرُّوح عن البدن، وخروج البدن عن أنْ يكون آلةً لها، وسَلْب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالَمٍ آخَرَ لا يُناسب هذا العالَم، فإنْ كان له بالدُّنيا شيءٌ يَفرح به، ويستريح إليه عَظُمت حسرته عليه بعد الموت، وإنْ كان لا يفرح إلَّا بذِكر الله تعالى والأُنس به عظم نعيمه، وتمَّت سعادته إذا خُلِّي بينه وبين محبوبه، وقُطِعت عنه العوائق والشَّواغل؛ لأنَّ جميع شواغل الدُّنيا شاغلةٌ عن ذِكر الله تعالى.

---

(١) رابعة العدويَّة، أم عمرو بنت إسماعيلَ العتكيَّة الزَّاهدة، العابدة، الخاشعة، لها أخبارٌ في العِبادة والنُّسُك، ولها شعرٌ، توفِّيت سنة (١٣٥). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٨/ ٢٤١)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٣/ ١٠).

(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٩٢٩٩)، سقطت من « ن ».

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفًا في حال الحياة، كما ينكشف للمُتيقِّظ ما لم يكن مكشوفًا له عند النَّوم، والنَّاس نِيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأوَّل ما ينكشف له ما يَضرُّه وما ينفعه مِن حسناته وسيِّئاته، وقد كان ذاك مسطورًا في كتابٍ مطويٍّ في سِرِّ قلبه، وكان يشغله عن الاطِّلاع عليه شواغلُ الدُّنيا، فلمَّا انقطعت انكشف له جميع أعماله، فلا يَنظر إلى سيِّئة إلَّا ويتحسَّر عليها تحسُّرًا يُؤثِر أنْ يخوض غمرة النَّار للخلاص مِن تلك الحسرة، وكلُّ ذلك ينكشف له عند الموت، وهذه آلام تهجم على العاصي قَبل الدَّفن، نسأل الله العافية.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الرُّوح لا تنعدم بالموت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قال مسروقٌ: سألنا عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أرواحهم في جوف طيرٍ خُضرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرش، تَسرح مِن الجنَّة حيث شاءت، ثُمَّ تأوي إلى تلك القناديل... وذَكَر تمام الحديث[١].

وجاء في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، أَخبَر أنَّهم يُعذَّبون بعد الموت.

وفي «الصَّحيحين» عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٢].

وقد تقدَّم أنَّ الإنسان إذا انكشفت له سيِّئاته تحسَّر وتألَّم تألُّمًا عظيمًا، فأمَّا المؤمن، فقال عبد الله بن عمرَ: مَثل المؤمن حين تخرج نفسه مَثل رجلٍ كان في سجنٍ، فأُخرج منه، فهو [ينفسخ][٣] في الأرض، ويتقلَّب فيها[٤].

---

(١) رواه البغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٢٦٢٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣١٣)، ومسلمٌ (٢٨٦٦).

(٣) ورد في "المطبوع" [يتفسَّح].

(٤) رواه ابن المبارك في «الزُّهد» (٥٩٧).

وهو صحيحٌ، فإنَّ المؤمن ينكشف عليه عَقيب الموت مِن فضل الله وكرامته ما تكون الدُّنيا بالإضافة إليه كالسِّجن، فيكون كمحبوسٍ في بيتٍ مُظلِمٍ فُتح له بابٌ إلى بستانٍ واسعِ الأكناف، فيه أنواعُ الأشجار، فلا يَسرُّه الرُّجوع إلى الدُّنيا كما لا يَسرُّه الرُّجوع إلى بطن أُمِّه، وقال مجاهدٌ: إنَّ المؤمن ليبشر بصلاح ولده مِن بعده؛ لِتقرَّ بذلك عينه][1].

فَصْلٌ فِي ذِكْرِ القَبْرِ

رُوي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**القَبرُ رَوضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ، او حُفرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**»[2].

ورُوي أيضًا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**يَقُولُ الْقَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوضَعُ فِيهِ: وَيْحَكَ ابْنَ آدَمَ، مَا غَرَّكَ؟ الَمْ تعْلَمْ انِّي بَيْتُ الظُّلْمَةِ، وَبَيْتُ الْوَحْدَةِ، وَبَيْتُ الدُّودِ؟**»[3].

وروى التِّرمذيَّ[4] عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُصلَّاه، فرأى ناسًا كأنَّهم يُكثرون، فقال: «**اما إِنَّكُمْ لَوْ اكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَادمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا ارَى، فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادمِ اللَّذَّاتِ المَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى القَبرِ يَوْمٌ إِلَّا تَكَلَّمَ فَيَقُولُ: انَا بَيْتُ الغُرْبَةِ، انَا بَيْتُ الوَحْدَةِ، انَا بَيْتُ التُّرَابِ، انَا بَيْتُ الدُّودِ، فَإِذَا دُفِنَ العَبْدُ المُؤْمِنُ قَالَ لَهُ القَبْرُ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا امَا إِنْ كُنْتَ لَأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهرِي إِلَيَّ،**

---

(١) سقطت من " ن ".

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٦٠)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٨٦١٣) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعرفه إلاَّ مِن هذا الوجه. وقال الطَّبرانيُّ: لم يَروِ هذا الحديث عن الأوزاعيِّ إلَّا أيُّوبُ بن سويد، تفرَّد به ابنه.

(٣) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٩٤٢)، عن أبي الحجَّاج الثُّماليِّ، وقال العراقي في «المغني» (٩/٤٢٨): أخرجه ابن أبي الدُّنيا في كتاب القبور، والطَّبرانيُّ في مسند الشَّاميِّين، وأبو أحمدَ الحاكم في «الكنز» مِن حديث أبي الحجَّاج الثُّماليِّ، بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٦٠)، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعرفه إلاَّ مِن هذا الوجه.

فَإِذْ وُلِّيتُكَ اليَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ وَإِذَا دُفِنَ العَبْدُ الفَاجِرُ اوِ الكَافِرُ قَالَ لَهُ القَبْرُ: لا مَرْحَبًا وَلا أَهْلًا اَمَا إِنْ كُنْتَ لأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ [وُلِّيتُكَ][1] اليَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ قَالَ: فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَلْتَقِيَ عَلَيْهِ وَتَخْتَلِفَ اَضْلاَعُهُ».وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصابعه، فأدخل بعضها في بعضٍ قال: «**وَيُقَيَّضُ لَهُ سَبْعونَ تِنِّينًا لَوْ اَنَّ وَاحِدًا مِنْهَا نَفَخَ فِي الاَرْضِ مَا اَنْبَتَتْ شَيْئًا مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا فَيَنْهَشْنَهُ وَيَخْدِشْنَهُ حَتَّى يُفْضَى بِهِ إِلَى الْحِسَابِ**». قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ اَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**».

وقال كعبٌ: إذا وُضع الرَّجل الصَّالح في قبره، [احتوشته][2] أعماله الصَّالحة: الصَّلاة، والصِّيام، والحجُّ، والجهاد، والصَّدقة. قال: وتجيء ملائكة العذاب مِن قِبَل رِجلَيه، فتقول الصَّلاة: إليكم عنه، فلا سبيلَ لكم عليه، فقد أطال بي القيام لله عَزَّوَجَلَّ، قال: فيأتونه مِن قِبَل رأسه، فيقول الصِّيام: لا سبيلَ لكم عليه، فقد أطال بي الصِّيام، قال: فيأتونه مِن قِبل جسده، فيقول الحجُّ والجهاد: إليكم عنه، فقد اَنصَب نفسه، وَاتعَب بَدَنه، وحجَّ وجاهَد لله عَزَّوَجَلَّ، لا سبيل لكم عليه، فيأتونه مِن قِبَل يدَيه، فتقول الصَّدقة: كم مِن صدقةٍ خَرَجت مِن هاتَين اليدَين، حتى وُضعت في يد الله ابتغاء وجهه، فلا سبيلَ لكم عليه. قال: فيُقال له: هنيئًا طِبتَ حيًّا، وطِبتَ ميتًا. قال: وتأتيه ملائكة الرَّحمة، فتفرشه فِراشًا في الجنَّة ودِثارًا مِن الجنَّة، فيُفسَح له مدَّ بصره، ويُؤتَى بقنديلٍ مِن الجَنَّة يَستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله مِن قبره[3].

وعن أنس بن مالك أنَّ نبيَّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ اَصْحَابُهُ، حتى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، اَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ**

(١) ورد في " الأصل " [أوليتك].

(٢) ورد في " ألأصل " [احتوته].

(٣) أخرجه أبو نُعيمٍ في «الحلية» (٦/ ١٨٩) مختصرًا بمعناه عن ثابتٍ البُنانيِّ.

تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولَانِ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ». قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الفَاجِرُ أو الْمُنَافِقُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ». أخرجاه في «الصَّحيحين»[1].

وفيهما مِن حديث أسماء بنت أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «أُوحِيَ إليَّ أَنَّكُم تُفتَنُونَ في قُبُورِكُم مِثلَ -أو قال: قَرِيبًا مِن- فِتنَةِ المَسِيح الدَّجَّالِ، يُقَالُ: مَا عِلمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤمِنُ فَيَقُولُ: أَشهَدُ أَنَّهُ عَبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». وذكر باقي الحديث[2].

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لمَّا أُخرِجت جنازة سعد بن معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسوَّينا عليها، التفَتَ إلينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ما مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إلَّا وَلَه ضَغطَةٌ في قَبرِهِ، وَلَو كان مُنفَلِتًا مِنهَا أَحَدٌ لانفلَتَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ». وذكر باقي الحديث[3].

وعن عبد الله الصَّنعانِيِّ قال: رأيتُ يزيدَ بن هارون[4] في المنام بعد موته بأربع ليالٍ، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ قال: تقبَّلَ منِّي الحسنات، وتجاوَزَ عنِّي السَّيِّئات، قلتُ: وما

---

(١) رواه البخاريُّ (١٢٧٣)، ومسلمٌ (٢٨٧٠).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٦)، ومسلمٌ (٩٠٥).

(٣) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٣٣) وقال: هذا حديث لا يصح وآفته من القاسم قال أحمد بن حنبل هو منكر الحديث حدث عنه علي بن يزيد أعاجيب وما أراها إلَّا من القاسم وقال ابن حِبَّانَ كان يروي من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعضلات. وقال العراقي (٤/ ٥٠٣) في تخريج الإحياء بعد أن أورد نحوه عن عائشة رواه أحمد بإسناد جيد.

(٤) يزيدُ بن هارونَ بن زاذي السُّلميُّ مولاهم، سمع مِن عاصم الأحول، ويحيى بن سعيد الأنصاريِّ القاضي، وسليمانَ التَّيميِّ، وغيرهم، وحدَّث عنه بقيَّة بن الوليد، وعليُّ بن المدينيِّ، وغيرهما، توفِّي=

كان بعد ذلك؟ قال: وهل يكون مِن الكريم إلَّا الكرم؟ غَفر لي ذنوبي وأدخلني الجَنَّة. قلتُ: بِمَ نِلتَ الذي نلتَ؟ قال: بمجالِس الذِّكْر، وقَولي الحقَّ، وصدقي في الحديث، وطول قيامي في الصَّلاة، وصبري في الفقر، قلتُ: مُنكَرٌ ونكيرٌ حقٌّ؟ قال: إي والله الذي لا إلهَ إلَّا هو، لقد أقعداني وسألاني: مَن ربُّك؟ وما دِينك؟ ومَن نبيُّك؟ فجَعَلتُ أنفض لِحيتي البيضاء مِن التَّراب، وقلتُ: مِثلي يُسأل؟ أنا يزيد بن هارون الواسطيُّ، كنتُ في دار الدُّنيا ستِّين سنةً أُعلِّم النَّاس. فقال أحدهما: صَدَق، هو يزيد بن هارون، نَمْ نَومة العروس، فلا روعةَ عليك بعد اليوم[١].

وقال المروزيُّ: رأيت أحمدَ بن حنبلٍ في النَّوم، وعليه حُلَّتان خضراوان، وعلى رأسه تاجٌ مِن النُّور، وإذا هو يمشي مِشيةً لم أكن أعرفها له، فقلتُ: يا أحمد، ما هذه المِشية التي لم أكن أعهدها لك؟ فقال: هذه مشية الخدَّام في دار السَّلام. فقلتُ: وما هذا التَّاج الذي أراه على رأسك؟ فقال: إنَّ ربِّي عَزَّوَجَلَّ أوقفني وحاسبني حسابًا يسيرًا، وكساني وحَبانِي وقرَّبني، وأنا أنظر إليه، وتوَّجني بهذا التَّاج، وقال لي: يا أحمدُ، هذا تاج الوَقار توَّجتُك به، كما قلتُ: القرآن كلامي غيرُ مخلوقٍ[٢].

فَصْلٌ فِي أَحْوَالِ المَيِّتِ مِنْ وَقْتِ نَفْخَةِ الصُّورِ إِلَى حِينِ الاسْتِقْرَارِ فِي الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ

قد أشرنا إلى أهوال القبر، وأَشدُّ مِن ذلك نفخ الصُّور والبعث والحساب ونصب الميزان والصِّراط، وهذه أهوالٌ يجب الإيمان بها، وينبغي تطويل الفكر فيها، وجمهور النَّاس لم يتمكَّن مِن قلوبهم الإيمان بالآخرة، ولو أنَّ الإنسان لم يُشاهد

= سنة (٢٠٦). انظر «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٩/ ٣٥٨)، «الأعلام»، الزِّركليُّ، (٨/ ١٩٠).

(١) رواه اللالَكائيُّ في «شرح أصول الاعتقاد» (٢١٤٧).

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٩/ ١٨٩) مع اختلافٍ يسيرٍ.

توالُد الحيوانات، ثُمَّ قيل له: إنَّ صانعًا يَصنع مِن هذه النُّطفة القذرة مِثل هذا الآدميِّ المُتصوِّر العاقل المُتكلِّم لَاشتدَّ نُفور طبعه عن التَّصديق بذلك، فخلقه على ما فيه مِن الأعاجيب، يزيد على بعثه وإعادته، وكيف يُنكر ذلك -مِن قُدرة الله تعالى وحكمته- مَن يُشاهد البداية؟ فإنْ كان في إيمانك ضعفٌ فقوِّ الإيمان بالنَّظر في النَّشأة الأُولى، فإنَّ الثَّانية مِثلها وأسهل منها، وإنْ كنتَ قويَّ الإيمان بها فأَشعِر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأَكثِر فيها التَّفكُّر والاعتبار، وليحثَّك ذلك على الجِدِّ والتَّشمير، وأوَّل ما يَقرع أسماع الموتى صوت إسرافيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يَنفخ ذلك في الصُّور، فصوِّرْ نفسك وقد قُمت ذاهلًا مبهوتًا شاخصًا نحو النِّداء، قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كَيفَ أَنعمُ وَصاحِبُ الصُّورِ قَدْ حَنَى جَبهَتَهُ، وَأَصغَى بِسَمعِهِ، يَنتَظِرُ أَنْ يُؤمَرَ أَنْ يَنفُخَ في الصُّورِ فَيَنفُخُ؟**» قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قُولُوا: حَسبُنا اللهُ وَنِعمَ الوَكِيلُ، وَتَوَكَّلْنا عَلَى اللهِ**»(١).

ثُمَّ انظر كيف يُحشر النَّاس يوم القيامة، فيُساقون بعد البعث حُفاةً عُراةً إلى أرض المَحشر، وهي قاعٌ ليس فيها رَبوةٌ يختفي الإنسان بفنائها.

وفي «الصَّحيحَين»(٢) قال النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ**».

ثُمَّ تفكَّر في ازدحام النَّاس، وقُرب الشَّمس مِن رؤوسهم، وشِدَّة العَرَق، مع ما في القلوب مِن القلق.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٣١)، وابن حِبَّانَ (٨٢٣)، والطَّبرانِيُّ في «الصَّغير» (٤٥)، وأحمدُ (٣٠٠٨)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦١٥٦)، ومسلمٌ (٢٧٩٠) عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث: «إِنَّ العَرَقَ يَأْخُذُ النَّاسَ عَلَى قَدرِ أَعمَالِهِم»[(١)].

وتفكَّر يا مسكينُ في سؤال ربِّك لك عن أعمالك بغير واسطةٍ، فقد رُوي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطَايَرُ الصُّحُفُ فِي الأَيْدِي، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ»[(٢)].

وعن أبي [بردةَ][(٣)] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ عَمِلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[(٤)].

وعن صفوانَ بن محرزٍ[(٥)] قال: كنتُ آخذًا بيد ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إذ عرض له رَجلٌ فقال: كيف سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في النَّجوى يوم القيامة؟ فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدنِي المُؤمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيهِ كَنَفَهُ، وَيَستُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِه، وَيَقُولُ: أَتعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِه، وَرَأَى فِي نَفسِه أَنَّه قَد هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَترتُهَا عَلَيكَ فِي الدُّنيَا، وَأَنَا أَغفِرُهَا لَكَ اليَومَ، قَالَ: ثُمَّ يُعطَى كِتابَ حَسَناتِهِ. وَأَمَّا الكُفَّارُ والمُنافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشهَادُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[(٦)].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٤) عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٢٥)، وقال: ولا يصحُّ هذا الحديث، مِن قِبَل أنَّ الحسن لم يسمع مِن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ورد في " المطبوع، خ " [برزة].

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٧) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٥) صفوانُ بن مُحرِزٍ تابعيٌّ مشهورٌ، حدَّث عن أبي موسى الأشعريِّ، وعمرانَ بن حصينٍ، وحكيم بن حزامٍ، وغيرهم، روى عنه جامع بن شدَّادٍ، وبكرٍ المُزنيِّ، وقتادةُ، وثابتٌ، وغيرهم، توفِّي سنة (٧٤). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٢/ ٣٧٩)، «سير أعلام النُّبلاء»، الذَّهبيُّ، (٤/ ٢٨٦).

(٦) رواه البخاريُّ (٢٣٠٩) ومسلمٌ (٢٧٦٨).

وفي «الصَّحيحَين»(١) مِن حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**يُضرَبُ جِسرٌ عَلَى جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ [يَجِيزُ]**(٢)؟»

وفيهما(٣) أيضًا، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُؤتَى بِالجِسرِ فَيُجعَلُ بَينَ ظَهرَي جَهَنَّمَ**» قالوا: يا رسول الله، ما الجسر؟ قال: «**مَدحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيهَا خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، يَمُرُّ [المُؤمِنُ]**(٤) **عَلَيهِ كَالطَّرْفِ، وَكَالبَرقِ الخَاطِفِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسلَّمٌ، ونَاجٍ مَخدُوشٌ، حتَّى يَمرُّ آخِرُهُم يُسحَبُ سَحبًا [سَحبًا]**(٥)».

ذِكرُ جَهنَّمَ أعاذَنا اللهُ مِنْها

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنَّا عند النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، فَسَمِعنا وَجبَةً، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هَذَا حَجَرٌ أُرسِلَ فِي جَهَنَّمَ مُنذُ سَبعِينَ خَرِيفًا، فَالآنَ انتَهَى إِلَى قَعرِهَا**». رواه مسلمٌ(٦).

وفي «الصَّحيحَين»(٧)، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ مَا يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**». قالوا: والله إنْ كانت لَكافيةً يا رسول الله. قال: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا تِسعَةً وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**».

وفي أفراد مسلمٍ(٨)، مِن حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**».

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٧٣) ومسلمٌ (١٨٢).
(٢) ورد في "الأصل" [يجتز].
(٣) رواه البخاريُّ (٧٠٠٠) ومسلمٌ (١٨٣).
(٤) ورد في "المطبوع" [المؤمنون].
(٥) سقطت من "المطبوع".
(٦) رواه مسلمٌ (٢٨٤٤).
(٧) رواه البخاريُّ (٣٠٩٢)، ومسلمٌ (٢٨٤٣).
(٨) رواه مسلم (٢٨٤٢).

وعن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يلقى مِن أهل النَّار الجوع، فيعدل عندهم ما فيه مِن العذاب، فيستغيثون بالطَّعام، فيُغاثون بالضَّريع لا يُسمِن ولا يُغنِي مِن جوعٍ، فيستغيثون، فيُغاثون بطعامٍ ذي غُصَّةٍ، فيذكرون أنَّهم كانوا يُجيزون الغُصَّة بالشَّراب، فيستغيثون بالشَّراب، فيُغاثون بالحميم، ينالونه بكلاليبَ مِن حديدٍ، فإذا دنا منهم شوَى وجوههم، وإذا دخل بطونهم قطَّع ما في بطونهم، فيطلبون إلى خزنة جهنَّم: أن ادعوا ربَّكم يُخفِّف عنَّا يومًا مِن العذاب. فيُجيبونهم: أَوَلَم تكُ تأتيكم رسلكم بالبيِّنات؟ قالوا: بلى. قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلَّا في ضلالٍ. فيقولون: سلوا مالكًا. فيقولون: يا مالكُ، لِيَقضِ علينا ربُّك. فيقول: إنَّكم ماكثون. فيقولون: ربَّنا أخرجنا منها، فإنْ عُدنا فإنَّا ظالمون. فيقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فعند ذلك ييأسون مِن كلِّ خيرٍ، ويأخذون في الشَّهيق والويل والثُّبور[(١)].

وتفكَّر في حيَّاتها وعقاربها، ففي الحديث: «**إنَّ حَيَّاتِها أَمثالُ أَعناقِ البُختِ، وَعَقَارِبَها كَالبِغَالِ المُوكَفةِ**»[(٢)].

وعن الحسن: أنَّ النَّار تأكلهم كلَّ يومٍ سبعين ألف مرَّةٍ، ثُمَّ يعودون كما كانوا[(٣)].

واعلم أنَّ صفة جهنَّم تطول، وأيسر اليسير مِن ذلك ينبغي أنْ يكفي في التَّخويف، فإنْ كنتَ مؤمنًا بهذا فانتبه لنفسك، وخف ما بين يدَيك، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يجمع على عبدٍ خوفَين، ولسنا نعني بالخوف رِقَّة النِّساء، فتبكي ساعةً، ثُمَّ تترك العمل، وإنَّما نُريد

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٥٨٦)، وقال العراقيُّ في «المغني» (١٠/ ١١): أخرجه التِّرمذيُّ مِن رواية سَمُرةَ بن عطيَّةَ، عن شهر بن حوشبٍ، عن أمِّ الدَّرداء، عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الدَّارميُّ: والنَّاس لا يَعرفون هذا الحديث، وإنَّما رَوى عن الأعمش عن سَمُرة بن عطيَّة، عن شهرٍ، عن أمِّ الدَّرداء، عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله.

(٢) رواه أحمدُ (١٧٧١٢)، وابن حِبَّانَ (٢٦١٣)، والحاكم (٨٣٦٦)، وصحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، وقال العراقيُّ في «المغني» (١٠/ ١٤): أخرجه أحمدُ مِن وراية ابن لَهيعةَ، عن درَّاجٍ، عن عبد الله بن الحارث بن جزءٍ.

(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٣٨٧).

خوفًا يمنع عن المعاصي، ويحثُّ على الطَّاعة. فأمَّا خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأنْ يقولوا: استعنَّا بالله، نعوذ بالله، يا ربِّ سلِّم. وهم مع ذلك مُصرُّون على القبائح، والشَّيطان يسخر بهم كما يسخر ممَّن قصده سَبُعٌ ضارٍ، وهو إلى جانب حصنٍ، فيقول: أعوذ بالله مِن هذا. وهو لا يدخل الحصن، ولا يبرح مكانه.

فَصْلٌ

وكن في الدُّنيا مُحبًّا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حريصًا على تعظيم سُنَّته، لعلَّه يشفع فيك في الآخرة، فإنَّ له شفاعةً يتقدَّم فيها على الأنبياء كلِّهم، ويَسأل الله في أهل الكبائر مِن أُمَّته فيُنجيهم، واستكثر مِن الإخوان الصَّالحِين، فلكلِّ مؤمنٍ شفاعةٌ، ولا تحملنَّك الغرَّة على التَّواني، وتُسمِّي ذلك رجاءً، فإنَّ مَن رجا شيئًا طلبه، واحترزْ مِن المظالِم، فإنَّ مَن كانت عليه مظالَمُ، ومات قَبل رَدِّها، فإنَّ غرماءه يُحيطون به في القيامة، فهذا يقول: ظَلَمَني. وهذا يقول: استهزأ بي. وهذا يقول: أساء جواري. وهذا يقول: غشَّني. فلا خلاصَ لك مِن أيديهم، فإذا توهَّمتَ الخلاص قيل: لا ظُلَمَ اليوم.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ يَومَ الْقِيامَةِ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ**»[(١)].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**أَتَـدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ فِيكُمْ؟**» قالوا: المفلِس فينا مَن لا درهمَ له ولا متاعَ. قال: «**إِنَّ الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَام وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْضِي هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاريّ (٦١٧٠).

(٢) رواه مسلمٌ (٢٥٨١).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»[(١)].

وهذه الأحاديث كلُّها في الصِّحاح، فانظر وفَّقك الله إلى بُعْدِ سلامة حسناتك لدخول ما يُبطلها مِن الرِّياء والغِيبة، فإنْ سَلِمت أخذها الخصوم، فتيقَّظ لنفسك، ولا تُفرِّط في أوقاتك، فإنَّ المسكين مَن آثر لذَّةً مُتقطِّعةً، واشترى بها عذابًا شديدًا دائمًا، نسأل الله السَّلامة والتَّوفيق.

ذِكْرُ صِفَةِ الجَنَّةِ نَسْأَلُ اللَّهَ العَظِيمَ مِنْ فَضْلِهِ

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنَّة، ما بِناؤها؟ قال: «**لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لا يَمُوتُ، لا تَبلَى ثِيابُهُ، وَلا يَفنَى شَبَابُهُ**»[(٢)].

وفي حديث أسامةَ بن زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال يومًا وذَكَر الجنَّة: «**أَلَا مُشَمِّرٌ لَهَا؟ هِيَ وَرَبِّ الكَعبةِ رَيحانةٌ تَهتَزُّ، وَنُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَنَهرٌ مُطَّرِدٌ، وَزَوجةٌ لا تَمُوتُ، فِي حُبُورٍ وَنَعِيمٍ، وَمَقَامٍ فِي أَبَدٍ**». فقالوا: نحن المُشمِّرون لها يا رسول الله. قال: «**قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ**»[(٣)].

وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **قَالَ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٥٢٦)، وأحمدُ (٨٠٤٣)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ ليس إسناده بذاك القويِّ، وليس هو عندي بمتَّصلٍ.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٣٣٢)، والبزَّار في «المسند» (٢٥٩١)، وقال البزَّار: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا أسامةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولا نعلم له طريقًا عن أسامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلَّا هذا الطَّريق، ولا نعلم رواه عن الضَّحَّاك المعافري إلَّا هذا الرَّجل محمَّد بن مهاجرٍ.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٠٧٢)، ومسلمٌ (٢٨٢٤).

وفيهما أيضًا مِن حديثه عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لا يَبُولُونَ، وَلا يَتَغَوَّطُونَ، وَلا يَتْفُلُونَ، وَلا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرِيحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ الألنجوج**[١]**، أَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ**». وفي روايةٍ أُخرى: «**لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، مِنَ الْحُسْنِ، لا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا**»[٢].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[٣].

وفيهما مِن حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضًا عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ لا يَرَوْنَ الآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ**»[٤].

واعلم أنَّ الله تعالى ذَكر نعيم الجنَّة مبسوطًا في مواضِع القرآن، ثُمَّ جمعه في آياتٍ، منها قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، ثُمَّ زاد على ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وصفات الجنَّة كثيرةٌ، اقتصرنا منها على هذا.

---

(١) الألوة والألنجوج: هو العود الذي يُتبخَّر به. «جامع الأصول» (١٠/ ٥٢٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٢١٩٤)، ومسلمٌ (٢٨٣٤).
(٣) رواه البخاريُّ (٤٥٩٧)، ومسلمٌ (١٨٠).
(٤) رواه البخاريُّ (٣٠٧١)، ومسلمٌ (٢٨٣٨).

وأفضل ما يُنال في الجَنَّة رؤية الله تعالى، وفي «الصَّحيحَين»[1] مِن حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قيل: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا؟ فقال: «**فَهَلْ تُضَامُونَ في القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ لَيسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**» قالوا: لا. قال: «**فَإنَّكُم تَرونَهُ يَومَ القِيامَةِ كَذَلِكَ**».

(١) رواه البخاريُّ (٧٠٠٠)، ومسلمٌ (١٨٣).

باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بذِكر سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، نرجو بذلك فضله؛ إذ ليس لنا أعمالٌ نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك مِن رحمته وكرمه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا قَضَى اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **الخَلْقَ كَتَبَ في كِتَابٍ، فَهُوَ عِندَهُ فوقَ العَرشِ: إنَّ رَحمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**». أخرجاه في «الصَّحيحَين»[1].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ للهِ** عَزَّوَجَلَّ **مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْهَوامِّ وَالْبَهَائِمِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ رَبَّكُم** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، أَوْ يَمْحُوهَا اللهُ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ تَعَالَى إِلَّا هَالِكٌ**»[3].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٠٢٢)، ومسلمٌ (٢٧٥١).

(٢) هذه رواية مسلم (٢٧٥٢)، وللبخاريِّ نحوها (٥٦٥٤).

(٣) رواه مسلمٌ (١٣٠).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ اقتَرَبَ إِلَيَّ شِبرًا اقتَربتُ إليه ذِرَاعًا، وَمَنِ اقتَرَبَ إِليَّ ذِرَاعًا اقتَربتُ إِلَيهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(١).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم «**أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغفِرْ لِي. فَقَالَ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **عَلِمَ عَبدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، أُشهِدُكُم أَنِّي قَد غَفَرتُ لِعَبدِي، فَلْيَعمَلْ مَا شَاءَ**»(٢).

هذه الأحاديث كلُّها صحاحٌ.

وفي «الصَّحيحَين» مِن حديث عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قُدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبيٍ، وإذا امرأةٌ مِن السَّبي تسعى، إذ وجدت صبيًّا في السَّبي، فأخذته، فألصقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَتَرونَ هَذِهِ المَرأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟**» قلنا: لا والله. قال: «**اللهُ أَرحَمُ بِعِبَادِهِ مِن هَذِهِ المَرأَةِ بِوَلَدِهَا**»(٣).

وفي «الصَّحيحَين»(٤) مِن حديث أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**مَا مِنْ عَبدٍ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**». قلتُ:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٢) رواه البخاريّ (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٦٥٣)، ومسلمٌ (٢٧٥٤).

(٤) رواه البخاريُّ (٥٤٨٩)، ومسلمٌ (٩٤).

وإنْ زنى، وإنْ سرق؟ قال: «**وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ**». ثُمَّ قال في الرَّابعة: «**عَلَى رَغمِ أَنفِ أَبِي ذَرٍّ**».

وفيهما مِن حديث عِتبانَ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ النَّارَ عَلَى مَن قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ**»[2].

وفيهما مِن حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مِنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مِنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَزْنُ بُرَّةٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مِنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً**»[3].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا كَانَ يَومُ القِيامَةِ لَم يَبقَ مُؤمِنٌ إِلَّا أُتِيَ بِيَهُودِيٍّ أَو نَصرانِيٍّ حَتَّى يُدفَعَ إِلَيهِ، فَيُقَالُ لَه: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ**»[4].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخرِجُ لَه بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ. فَتُوضَعُ**

---

(١) عتبان بن مالك بن عمرو، صحابيٌّ، مِن البدريِّين، آخى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ضعيف البصر، ثُمَّ عَمِيَ، ومات في خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة (٥٠). انظر «الإصابة»، ابن حجر، (٤/ ٣٥٨)، «أسد الغابة»، ابن عبد البرِّ، (٣/ ٤٥٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٥٩)، ومسلمٌ (٣٣).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٤)، ومسلمٌ (١٩٣).

(٤) رواه مسلم (٢٧٦٧).

السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ في كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيءٌ مَع اسمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[١].

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح النَّاس وبكائهم يوم عرفةَ، فقال: أرأيتُم لو أنَّ هؤلاء صاروا إلى رَجلٍ يسألونه دانقًا[٢]، أكان يَردُّهم؟ فقيل: لا. فقال: والله المغفرة عند الله عَزَّوَجَلَّ أهونُ مِن إجابة رَجلٍ لهم بدانقٍ.

وعن إبراهيمَ بن أدهمَ قال: خلا لي الطَّواف في ليلةٍ مُظلِمةٍ شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السَّحر، ثُمَّ رَفعت يدي إلى السَّماء، فقلتُ: اللَّهمَّ إنِّي أسألك أنْ تعصمَني عن جميع ما تكره. فإذا قائلٌ يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكلُّ خَلْقي يَسألني العصمة، فإذا عصمتك فعلى مَن أتفضَّل؟

فهذه الأحاديث مع ما ذَكرناه في كتاب الرَّجاء تُبشِّرنا بكرم الله تعالى، وسعة رحمته وَجُوده، ونحن نرجو مِن الله سبحانه ألَّا يُعاملَنا بما نستحقُّه، وأنْ يتفضَّل علينا بما هو أهله، ونحن نستغفر الله عَزَّوَجَلَّ مِن أقوالنا التي تُخالِف أعمالنا، ومِن كلِّ تَصنُّعٍ تزيَّنَّا به للنَّاس، وكلِّ عِلمٍ وعملٍ قصدناه، ثُمَّ خالطه ما يُكدِّره، فبكرمه نستشفع إلى كرمه، وبجوده نسأله مِن جُوده، إنَّه قريبٌ مجيبٌ، والحمد لله ربِّ العالَمِين حمدًا كثيرًا طيِّبًا مُبارَكًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكريم وجهه عَزَّوَجَلَّ، وصلى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا][٣].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٦٣٩)، وأحمدُ (٦٩٩٣)، والطَّبرانِيُّ في «الكبير» (٣٠)، وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٢) الدَّانق: جمع دوانق ودوانيق، ضربٌ مِن النُّقود الفضِّيَّة، وزنه ثماني حبَّاتٍ مِن الشَّعير. «غريب الحديث» (ص٢٠٦).

(٣) سقطت من " ن ".

فهرس الموضوعات

تقديم الكتاب ١١

ترجمة المؤلف ١٥

مقدِّمة المُؤلِّف ١٧

كتابُ العِلمِ وفَضلِه وما يَتعلَّقُ به ٢١

فصلٌ ٢٥

فصلٌ ٢٧

فصلٌ ٣٠

فصلٌ ٣١

بابُ آدابِ المُتعلِّم والمُعلِّمِ وآفاتِ العِلم، وبَيانِ عُلماءِ السُّوءِ وعُلماءِ الآخِرةِ ٣٢

فصلٌ في آفات العِلمِ وبيانِ عُلماءِ السُّوءِ وعُلماءِ الآخِرةِ ٣٤

كتابُ الطَّهارةِ وأَسرارِها، والصَّلاةِ وما يَتعلَّقُ بها ٤٠

فصلٌ ٤٢

فصلٌ في آدابٍ تَتعلَّق بصلاةِ الجُمُعةِ ويَومِ الجُمُعةِ ٤٧

فصلٌ في ذِكْر النَّوافِلِ ٥٠

فصلٌ ٥٢

كتاب الزَّكاةِ وأسرارِها وما يَتعَلَّقُ بها ٥٤

فصلٌ في دَقائقِ الآدابِ الباطنةِ في الزَّكاةِ ٥٥

فصلٌ في آدابِ القابِضِ ٥٧

فصلٌ في صَدَقةِ التَّطوُّعِ وفَضلِها وآدابِها ٥٩
كِتابُ الصَّومِ وأَسرارُهُ ومُهِمَّاتُهُ وما يَتعلَّقُ بِه ٦١
فصلٌ في سُننِ الصَّومِ ٦١
بيانُ أَسرارِ الصَّومِ وآدابِه ٦٢
كتابُ الحجِّ [وأسراره] وفَضائِلِه وآدابِه ونحوِ ذلكَ ٦٥
فصلٌ في الآدابِ [الباطِنةِ] والإشارَةِ إلى أَسرارِ الحجِّ ٦٦
كتابُ آدابِ تِلاوةِ القُرآنِ الكَريمِ وذِكْرِ فَضلِه ٦٩
فصلٌ في آدابِ التِّلاوةِ ٧١
فصلٌ ٧٢
كتاب الأذكارِ والدَّعَواتِ وغَيرِها ٧٥
فصلٌ في الأَورادِ وفَضلِها وتَوزيعِ العِباداتِ على مَقاديرِ الأَوقاتِ ٧٧
بيانُ عَددِ أَورادِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَرتِيبُها ٧٧
ذِكْرُ أَورادِ اللَّيلِ ٨٢
فصلٌ في اختلافِ الأَوراد باختلافِ الأَحوالِ ٨٧
بيانٌ في قيامِ اللَّيل وفَضْلِه والأسبابِ المُيسِّرة لِقيامِه ونَحوِ ذلك ٩٠
فصلٌ في الأسبابِ المُيسِّرَةِ لِقيامِ اللَّيلِ ٩١
فصلٌ ٩٤
فصلٌ في بيانِ اللَّيالي والأَيَّامِ الفاضِلَةِ ٩٤
الرُّبع الثَّاني مِن الكتاب رُبع العادات وفيه أبوابٌ بابٌ في آدابِ الأكلِ، والاجتماعِ عليهِ، والضِّيافةِ، ونحوِ ذلك ٩٦
فصلٌ فيما يزيدُ مِن الآدابِ بِسببِ الاجتماعِ والمُشاركةِ في الأكلِ ٩٨

فصلٌ ٩٨
فصلٌ ٩٩
فصلٌ ٩٩
فصلٌ ١٠٠
كتابُ النِّكاحِ وآدابِه وما يَتعلَّقُ به ١٠٢
فصلٌ ١٠٣
فصلٌ ١٠٤
فصلٌ في آدابِ المُعاشَرةِ والنَّظَرِ فيما على الزَّوجِ، وفيما على الزَّوجةِ ١٠٥
كتابُ آدابِ الكَسبِ والمُعاشِ وفَضلِه وصحَّةِ المُعامَلةِ وما يَتعلَّقُ بذلك ١١٠
فصلٌ في فَضْلِ الكَسْبِ والحَثِّ عليهِ ١١٠
فصلٌ ١١٣
فصلٌ ١١٤
فصلٌ ١١٥
بيانُ الحلالِ والحرامِ ١١٦
فصلٌ في دَرَجات الحَلالِ والحَرامِ ١١٧
القِسم الثَّالث مِن الكتاب في الحَلالِ والحرامِ والبحثِ، والسُّؤالِ، والهجومِ، والإهمالِ ومَظانِّها ١٢٢
فصلٌ ١٢٤
فصلٌ ١٢٦
كتابُ آدابِ الصُّحبةِ والأُخوَّةِ ومُعاشَرةِ الخَلْقِ ونَحوِ ذلك ١٢٩
فصلٌ في بيانِ الصِّفاتِ المَشروطةِ فيمَن تُختارُ صُحبتُهُ ١٣١

فصلٌ في بيانِ ما على الإنسانِ لأخيه مِن الحُقوقِ ١٣٤
فصلٌ ١٣٩
بابٌ في حقوقِ المُسلمِ والرَّحِمِ والجِوارِ والمِلكِ ونحوِ ذلك ١٤١
فصلٌ في حقوقُ الأقاربِ والرَّحِمِ ١٤٥
باب العزلةِ ١٤٧
فصلٌ في ذِكْر فَوائدِ العزلةِ وغَوائِلِها، وكَشْفِ الحَقِّ في فَضلِها ١٥٠
فصلٌ في آفاتِ العُزلةِ ١٥٤
كتابُ آداب السَّفَر ١٥٩
فصلٌ ١٦٠
فصلٌ فيما لا بدَّ للمُسافِرِ منهُ ١٦١
كتابُ الأمرِ بِالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ ١٦٣
فصلٌ في مَراتِبِ الإنكارِ وبَعضِ ما وَرَدَ فِيها ١٦٤
فصلٌ في أَركانِه وشُروطِه ودَرَجاتِه وآدابِه ونحوِ ذلك ١٦٥
فصلٌ ١٧١
بابٌ في المُنكَراتِ المألوفةِ في العاداتِ وفي الإنكارِ على الأمراءِ والسَّلاطينِ، وأَمْرِهم بالمعروفِ ١٧٣
مُنكَراتُ المساجِدِ ١٧٣
مُنكَراتُ الأسواقِ ١٧٤
مُنكَراتُ الشَّوارعِ ١٧٤
مُنكَراتُ الحَمَّاماتِ ١٧٥
مُنكَراتُ الضِّيافةِ ١٧٥

المُنكَراتُ العامَّةُ ١٧٦
فصلٌ في حُكمِ السَّماعِ ١٩٢
باب آدابِ المَعيشةِ وأخلاقِ النُّبوَّةِ ١٩٥
كتابُ شرحِ عَجائبِ القلوبِ آخِر الرُّبعِ الثَّاني، وهو الأوَّل مِن رُبعِ المُهلِكاتِ ٢٠٣
فصلٌ ٢٠٣
فصلٌ ٢٠٦
كتابُ رياضةِ النَّفْسِ وتَهذِيبِ الخُلُقِ ومُعالَجةِ أَمراضِ القَلبِ ٢٠٨
الفصل الأوَّل في فَضيلةِ حُسنِ الخُلُقِ وذَمِّ سُوءِ الخُلُقِ ٢٠٨
الفصل الثَّاني في بيانِ الطَّريقِ إلى تَهذيبِ الأخلاقِ ٢١١
الفصل الثَّالث في علاماتِ مرضِ القلبِ وعَودةٍ إلى الصِّحَّة ٢١٢
وبيانِ الطَّريقِ إلى مَعرفةِ الإنسانِ عُيوبَ نَفْسِه ٢١٢
فصلٌ ٢١٥
بَيانُ عَلاماتِ حُسنِ الخُلُقِ ٢١٦
فصلٌ في رياضةِ الصِّبيانِ في أوَّلِ النُّشوءِ ٢١٨
فصلٌ ٢٢١
كِتابُ كَسرِ الشَّهوَتَين: شَهوةِ البَطنِ، وشَهوةِ الفَرْجِ ٢٢٢
كتاب آفاتِ اللِّسانِ ٢٢٥
ذِكْرُ آفاتِ الكَلامِ الآفةُ الأُولى: الكَلامُ فِيما لا يَعنِي ٢٢٦
الآفة الثَّانية: الخَوضُ في الباطِلِ ٢٢٧
الآفة الثَّالثة: التَّقعُّر في الكلام ٢٢٨
الآفة الرَّابعة الفُحشُ والسَّبُّ والبَذاءُ ٢٢٨

الآفة الخامسة المزاح ٢٢٩
الآفة السَّادسة السُّخريةُ والاستهزاءُ ٢٣٠
والآفة السَّابعة إفشاءُ السِّرِّ، وإخلافُ الوَعدِ، والكَذِبُ في القَول واليمينِ ٢٣٠
الآفة الثَّامنة الغِيبة ٢٣١
فصلٌ في بيانِ الأسبابِ الباعثةِ على الغِيبةِ وذِكْرُ عِلاجِها ٢٣٤
فصلٌ وقد تحصل الغِيبة بالقلب، وذلك سوء الظَّنِّ بالمسلمِين ٢٣٥
بيانُ الأعذارِ المُرخِّصةِ في الغِيبةِ وكفَّارةِ الغِيبةِ ٢٣٦
الآفة التَّاسعةُ مِن آفات اللِّسانِ النَّميمةُ ٢٣٨
الآفة العاشرة كلامُ ذي اللِّسانَينِ ٢٣٩
الآفة الحاديةَ عشرةَ المَدحُ ٢٤٠
الآفة الثَّانيةَ عشرةَ الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدِّين ٢٤١
فصلٌ ٢٤٢
كتابُ ذَمِّ الغَضَبِ والحِقدِ والحَسَدِ ٢٤٤
فصلٌ في بيانِ الأسبابِ المُهيِّجةِ للغَضبِ وذِكْر عِلاجِ الغَضبِ ثورانًا ٢٤٦
فصلٌ في كَظْمِ الغَيظِ ٢٤٩
فصلٌ في الحِلم ٢٥٠
فصلٌ في العَفوِ والرِّفقِ ٢٥٢
بابٌ في الحِقدِ والحَسَدِ ٢٥٣
فصلٌ ٢٥٧
بابٌ في ذَمِّ الدُّنيا ٢٦١
فصلٌ في بيانِ حقيقةِ الدُّنيا والمَذمومِ منها والمَحمودِ ٢٦٧

باب في ذمّ البُخلِ والحِرصِ والطَّمعِ وذمِّ المالِ ومَدحِه ومَدحِ القَناعةِ والسَّخاءِ، ونحوِ ذلكَ ٢٦٩
بيانُ مَدحِ المالِ........ ٢٦٩
بَيانُ ذَمِّ الحِرصِ والطَّمعِ، ومَدحِ القَناعةِ واليَأسِ ٢٧٣
بيانُ علاجِ الحِرصِ والطَّمعِ والدَّواء الذي تُكتَسَب به صفةُ القَناعةِ ٢٧٤
فصلٌ........ ٢٧٦
حِكَاياتُ الأَسخِياءِ ٢٧٨
فصلٌ في البُخلِ وذَمِّه ٢٨١
مِن حِكَايَاتِ البُخَلاءِ ٢٨٣
فصلٌ في فَضلِ الإيثارِ وبَيانِه ٢٨٣
فصلٌ........ ٢٨٦
كِتابُ ذَمِّ الجاهِ والرِّياءِ وعِلاجُهما، وفَضيلةِ الخُمولِ، ونحوِ ذلكَ........ ٢٨٨
فصلٌ........ ٢٩٠
بَيانُ عِلاجِ حُبِّ الجاهِ ٢٩١
فصلٌ........ ٢٩٣
القِسم الثَّاني مِن الكتاب في بيان الرِّياء وحقيقته وأقسامه وذَمِّه ونحو ذلك ٢٩٥
فصلٌ........ ٢٩٩
بيانُ الرِّياءِ الخَفِيِّ الذي هو أَخفَى مِن دَبيبِ النَّملِ........ ٣٠٠
فصلٌ في بيانِ ما يُحبِطُ العَمَلَ مِنَ الرِّياءِ وما لا يُحبِطُ........ ٣٠٣
بابٌ في دواءِ الرِّياءِ وطَريقةِ مُعالَجةِ القَلبِ فيه........ ٣٠٣
فصلٌ في بيانِ الرُّخصةِ في قَصدِ إظهارِ الطَّاعاتِ ٣٠٦

فصلٌ ٣٠٧
فصلٌ في بيانِ ما يَصحُّ مِن نَشاطِ العَبدِ بسببِ رُؤيةِ الخَلْقِ وما لا يَصحُّ ٣٠٨
كتابُ ذَمِّ الكِبْرِ والعُجبِ وفيهِ فَصلانِ ٣١٠
فصلٌ ٣١٢
بيانُ مُعالَجةِ الكِبْرِ واكتِسابِ التَّواضُعِ ٣١٥
الفَصْلُ الثَّانِي في العُجْبِ ٣١٨
فصلٌ في عِلاجِ العُجبِ ٣١٩
كتابُ الغُرورِ وأَقسامِه ودَرجاتِه ٣٢٢
فصلٌ ٣٢٤
الرُّبع الرَّابع رُبع المُنجيات كتاب التَّوبة، وذِكر شروطها وأركانها وما يَتعلَّق بذلك ... ٣٣٨
فصلٌ في بيانِ أَقسامِ الذُّنوبِ ٣٤٠
قِسمةٌ أُخرى ٣٤١
فصلٌ في كَيفيَّةِ تَوزُّعِ الدَّرجات في الآخرةِ ٣٤٦
على الحَسناتِ والسَّيِّئاتِ في الدُّنيا ٣٤٦
فصلٌ في بيانِ ما تَعظُمُ به الصَّغائرُ مِن الذُّنوبِ ٣٤٨
فصلٌ في شُروطِ التَّوبةِ ٣٥١
فصلٌ ٣٥٤
بيانُ أَقسامِ العِبادِ في دَوامِ التَّوبةِ ٣٥٤
فصلٌ ٣٥٦
فصلٌ في دواء التَّوبة، وطريق علاج حَلِّ عُقَدِ الإصرار ٣٥٧
كتابُ الصَّبرِ والشُّكرِ ٣٦٢

فصلٌ ٣٦٤
النَّوع الثَّاني المخالِف للهوى، وهو ثلاثة أقسام: ٣٦٥
فصلٌ ٣٦٨
فصلٌ في بيانِ دواءِ الصَّبر وما يُستعانُ به عليه ٣٧١
الشَّطر الثَّاني مِن الكتاب في الشُّكر وفضله وذِكر النِّعم وأقسامها ونحو ذلك ٣٧٤
فصلٌ ٣٧٥
فصلٌ ٣٧٦
فصلٌ في بيانِ النِّعَمِ وحقيقتِها وأقسامِها ٣٨٠
فصلٌ في بيانِ كثرةِ نِعَمِ الله تعالى ٣٨١
وتسلسلِها وخروجِها عن الحَصر والإحصاء ٣٨١
فصلٌ ٣٨٣
فصلٌ ٣٨٧
فصلٌ في بيانِ اجتماعِ الصَّبر والشُّكرِ على وجهٍ واحدٍ ٣٩٢
فصلٌ في بيانِ أيِّهما أَفضلُ الصَّبر أم الشُّكر ٣٩٧
كتابُ الرَّجاءِ والخَوفِ ٣٩٩
فصلٌ في فَضيلةِ الرَّجاءِ ٤٠٢
فصلٌ في دواء الرَّجاءِ والسَّببِ الذي يَحصُلُ به ٤٠٣
الشَّطر الثَّاني مِن الكتاب في الخوف وحقيقتِه وبيانِ درجاتِه وغير ذلك ٤٠٧
فصلٌ ٤٠٨
بيانُ أقسامِ الخوفِ ٤٠٩
فصلٌ في فضيلة الخَوفِ والرَّجاءِ ٤١٠

وما ينبغي أنْ يكونَ الغالِب منهما ٤١٠
فصلٌ في بيانِ الدَّواءِ الذي يُستجلَبُ به الخوفُ ٤١٣
ذِكْرُ خَوفِ الملائكةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ٤١٨
ذِكْرُ خَوفِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ٤٢٠
ذِكرُ خَوفِ نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٤٢١
ذِكْرُ خَوفِ أَصحابِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٤٢١
ذِكْرُ خَوفِ التَّابعِين ومَن بَعدَهم ٤٢٣
كِتابُ الزُّهدِ وَالفقرِ ٤٢٦
الشَّطر الأوَّل مِن الكتاب في الفَقر ٤٢٦
فصلٌ في فَضيلةِ الفَقرِ وتَفضِيلِ الفَقرِ على الغِنى ٤٢٨
فصلٌ في آدابِ الفَقيرِ في فَقرِه ٤٣١
بيانُ آدابِه في قَبولِ العَطاءِ ٤٣٢
فصلٌ في بيانِ تحريمِ السُّؤالِ مِن غيرِ ضرورةٍ ٤٣٣
وآدابِ الفَقيرِ المُضطَرِّ في السُّؤالِ ٤٣٣
بيانُ أحوالِ السَّائلين ٤٣٦
الشَّطرُ الثَّاني مِن الكتابِ وفيه بيانُ حقيقةِ الزُّهدِ وفَضيلتِه وذِكْر دَرجاتِه وأَقسامِه ونحوِ ذلك ٤٣٧
فصلٌ في درجاتِ الزُّهدِ وأَقسامِه ٤٣٨
فصلٌ في بيانِ تَفصيلِ الزُّهدِ فيما هو مِن ضَروريَّاتِ الحياةِ ٤٤٠
فصلٌ في بيانِ عَلاماتِ الزُّهدِ ٤٤٤
كتابُ التَّوحيدِ والتَّوكُّلِ بيانُ فَضيلةِ التَّوكُّل ٤٤٦

فصلٌ في بيانِ أحوالِ التَّوكُّلِ وأعمالِه وَحَدِّه ونحو ذلك ٤٤٧
فصلٌ في بيانِ أعمالِ المُتوكِّلين ٤٤٩
كتابُ المَحبَّة وَالشَّوق والأُنس والرِّضَى ٤٥٥
فصلٌ في بيانِ أنَّ أَجَلَّ اللَّذَّات وأعلاها مَعرفةُ اللهِ سبحانه والنَّظرُ إلى وَجهِه الكريم وأنَّه لا يُتصَوَّرُ أنْ يُؤثِّر على ذلك لَذَّةٌ أُخرى إلَّا مَن حُرِم هذه اللَّذَّة ٤٥٩
فصلٌ في بيانِ الأسبابِ المُقويِّةِ لِحُبِّ الله تعالى وتفاوُتِ النَّاسِ في الحُبِّ ٤٦٣
وبيانِ السَّبب في قُصور أفهامِ الخَلْق عن معرفة الله تعالى ٤٦٣
فصلٌ في بيانِ معنى الشَّوق إلى الله تعالى ٤٦٦
فصلٌ في بيانِ مَحبَّةِ الله تعالى للعبد ومعناها ٤٦٨
وبيانِ علاماتِ مَحبَّة العَبدِ لله تعالى ٤٦٨
فصلٌ في بيانِ معنى الأُنس باللهِ والرِّضى بقَضاءِ الله عَزَّوَجَلَّ ٤٧٣
فصلٌ ٤٧٧
فصلٌ ٤٨١
بابٌ في النِّيَّة والإخلاص والصِّدق ٤٨٤
الفصل الأوَّل في النِّيَّة وحقيقتها وفضلها وما يَتعلَّق بذلك ٤٨٤
الفصل الثَّاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته ٤٩٠
بيانُ حقيقة الإخلاص ٤٩٢
فصلٌ في حُكم العَمل المَشوب واستحقاق الثَّواب به ٤٩٤
الفصل الثَّالث في الصِّدق وحقيقته وفضله ٤٩٤
باب في المُحاسَبة والمُراقَبة ٤٩٨
المقام الأوَّل: المُشارَطة ٤٩٩

المَقامُ الثَّاني: المُراقَبة ٥٠١
المقام الثَّالث: المُحاسَبة بعد العمل ٥٠٣
المقام الرَّابع: مُعاقَبة النَّفْس على تقصيرها ٥٠٤
المقام الخامس المُجاهَدة ٥٠٥
المقام السَّادس في مُعاتَبة النَّفْس وتوبيخها ٥٠٧
باب التَّفكُّر [والتدبر] ٥١٠
بيانُ مَجاري الفِكر وثَمراته ٥١١
فصلٌ ٥١٣
باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلَّق به ٥١٦
بابُ ما جاء في فَضلِ ذِكْرِ المَوتِ ٥١٧
فصلٌ ٥٢١
فصلٌ في ذِكر شِدَّة الموتِ وَما يُستحَبُّ مِن الأحوالِ عندَه ٥٢٣
بابُ ذِكرِ وفاةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم والخُلَفاء الرَّاشِدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٥٢٧
وفاةُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٥٢٩
وَفاةُ عُمرَ بن الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٥٣٠
وفاةُ عثمانَ بن عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٥٣١
وفاةُ عليٍّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٥٣٢
ذِكرُ كَلِماتٍ نُقِلتْ عن جماعةٍ عِندَ مَوتِهم مِن الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٥٣٣
وغيرِهموذِكر زِيارةِ القُبورِ ونحوِ ذلكَ ٥٣٣
[فصل ٥٣٧
[فصلٌ في ذِكر القبرِ ٥٣٩

فصلٌ في أحوال الميت مِن وقت نفخة الصُّور ٥٤٢
إلى حين الاستقرار في الجَنَّة أو النَّار........................ ٥٤٢
ذِكر جهنَّم أعاذنا الله منها ٥٤٥
فصلٌ........................ ٥٤٧
ذِكر صفة الجَنَّة نسأل الله العظيم مِن فَضله ٥٤٨
باب في ذِكر سعة رحمة الله تعالى ٥٥١